أسس الاشتراكية العلمية



المادية التاريخية

تأليف :
ف . كيللي
م . كوفالزون

نقله عن الروسية
احمد داود
ماجستير في الآداب الروسية

دار الجماهير

دار الجماهير

لتعريف الشعب على خير ما أنتجه الفكر الانساني التقدمي

- تنشر المعرفة في سبيل الحياة والشعب .
- تبعث التراث العربي وتربطه بالفكر المعاصر .
- تعمل على توحيد الفكر العربي لمكافحة الاستعمار ومايخلفه من أمراض .
- تربط الفكر العربي بالتراث الانساني الأكبر .
- تربط الفكر بالعمل .

دمشق ـ شارع التجهيز ـ بناية كردوس ـ تلفون ٢٤٥٩٣

المادية التاريخية

تنبيه من مكتبة الشيوعيين العرب!

هذا الكتاب ليس من نسخ الصوت الشيوعي، بل من نسخ آخرين. وقد وجده الصوت الشيوعي أثناء بحثه في الإنترنت.

للأسف تضمنت هذه الطبعة من الكتاب الكثير من بدع شيوعية خروشوف المزيفة.

وقد قمنا بتطهير المُؤَلَف من هذه البراثن التحريفية من خلال ما يأتي:

١) حذف ومسح كل الفقرات ذات العلاقة؛

٢) حذف صفحات بكاملها من الكتاب ذات علاقة؛

٣) اعادة صياغة بعض فقرات وجمل الكتاب بما يتفق مع النهج الماركسي – اللينيني الثوري.

لذا أقتضى التنويه.

الصوت الشيوعي

الفهرس

صفحة

كلمة الدار

لقد ألتهبت على مدى التاريخ ثورات لا تحصى ولكن هذه الثورات لم تنته دائماً الى النصر ، بل قل أن انتهت الى النصر ٠

صحيح أن التناقضات الطبقية هي المحرك للتاريخ ، وهي المؤرثة للثورات ، ولكن هذه التناقضات اذا كانت شرطاً للثورة فليست كافية لنجاحها ٠ لابد للثورة من ثوار ، ولابد للثوار من نظرية وتاكتيك وستراتيجية متجاوبة مع آلام الجماهير وآمالها ومصالحها ٠

وبدون هذه الأدوات الثورية القائمة على الدراسة العلمية للمجتمع والتاريخ والطبيعة ، لا يستطيع الثائرون تحقيق الظفر لثورتهم ٠ ليست الثورة أحرفاً تصف الى بعضها ، ولا تعابير تقوم على الجعجعة ورصف الكلمات الحماسية ٠ وليس الثائر من نادى بالثورة كيفما اتفق وحيثما ما كان ومتى أراد ٠ ان الثورة علم له قوانينه ، والثائر عالم واع لهذه القوانين ٠ والثورة العلمية هي التي تظفر ، وتحول المجتمع ، وتعبر عن ارادة الجماهير الكادحة وتمتزج بها بداءة وسيراً ونهاية ٠

ولعل هذا الكتاب الذي يتحدث عن المجتمع بنية وتطوراً وقوانين يكون خير أداة تضعه دار الجماهير بين يدي الثائرين العرب لتكون ثورتهم ثورة الجماهير ، ثورة الهدم والبناء ، ثورة التقدم والحرية ، ثورة التحويل وبناء الغد المشرق الأفضل ٠

دمشق ١٩٦٧/٨/١٥

« دار الجماهير »



أثارت الماركسية ، وما تزال تثير ، أكبر ضجة عرفها تاريخ المجتمع الانساني على صعيد الفكر والواقع معاً . فمنذ أن جاء ماركس ليتابع ويتمّ ، على نحو عبقري ، التيارات الفكرية الرئيسية الثلاثة في القرن التاسع عشر والتي تُعزى الى البلدان الثلاثة التي كانت أكثر تقدماً في العالم : الفلسفة الكلاسيكية الألمانية ، والاقتصاد السياسي الكلاسيكي الانكليزي ، والاشتراكية الفرنسية المرتبطة بالتعاليم الثورية الفرنسية بوجه عام ، وغبار المعركة الايديولوجية والسياسية ما انفك منعقداً فوق سطح هـذه الكرة مدللا على الصراع الحاد العنيف الذي تُحقق فيه الماركسية النصر تلو الآخر في شتى الميادين .

وتتجلّى مأثرة ماركس الخلاقة في أنـه عمّق المادية الفلسفية وطورها ، فانتهى بهـا الى نهايتها المنطقية ، ووسـع دائرة شمولها من الطبيعة الى المجتمع ، فجاءت نظرية علمية روعة في التناسق والانسجام تبين لنا كيف ينبثق ويتطور من شكل معين للتنظيم الاجتماعي شـكل آخر أعلى في تطوره ، وكيف أن المؤسسات السياسية تقوم كبنيان فوقي على أساس اقتصادي ، وكيف أن مختلف الأشكال السياسية للدول انما هي أدوات لتعزيز سيطرة الطبقات السائدة فيها ، وأن النضال الطبقي انما هو أساس كل التطور بل وقوته المحركة ، فأعطى بهذا الانسانية كلها ، والطبقة العاملة بخاصة ، سلاحاً جباراً للمعرفة — معرفة الواقع ، وطرق تحويل هـذا الواقع تحويلا ثورياً الى آخر أعلى يضمن للانسان انسانيته وسيره في خط التطور الصاعد وازدهاره .

لقد جاء مذهب ماركس تتمة مباشرة لمذاهب أعظم ممثلي الفلسفة والاقتصاد السياسي والاشتراكية ، فأثار حفيظة وحقد العلم البورجوازي كله ، هذا العلم الذي يدافع ، بصورة أو بأخرى ، عن العبودية المأجورة ، بينما الماركسية أعلنتها حرباً لا هوادة فيها ضد هذه العبودية .

فليس غريباً بعد هذا أن نرى غبار الصراع الدائر يزحم كل الأجواء ،

وأن نشهد كل يوم تياراً جديداً ينبري للانقضاض على الماركسية في زحمة هذا الصراع الذي تشتد ضراوته كلما أحرزت الماركسية نصراً جديداً ، وكلما تكشف لأعدائها أنها تتقدم بخطى واثقة في معمعان النضال وتزداد ثباتاً وصلابة وحيوية أكثر من أي وقت مضى ·

فما أن صفّى الحساب مع الهيجليين الراديكاليين الشباب ومع الوضعيين ، وحلت الماركسية محل النظريات المعادية لها حتى أخذت النزعات التي كانت تعبر عنها هذه النظريات تستتر وراء أقنعة جديدة ، فتغيرت أشكال النضال ودوافعه ، ولجأت تلك التيارات الى أساليب أشد مكراً وضراوة ، فدخلت بيت الماركسية لتجعل من نفسها ألغاماً مدمرة في أساسه ، وهكذا بدأ النضال ضد التيار المعادي للماركسية في قلب الماركسية ذاتها منذ عام ١٨٩٠ ، وتحولت الماركسية بهذا الى ميدان للصراع بينها وبين عناكب التحريفية التي تتلمس بعض الزوايا الباهتة في بناء الماركسية لتحوك فيها خيوطها المظلمة ، ثم تحكم عليها بالقدم والتفسخ والزوال ، ولتنطلق بعد هذا الى دحض الماركسية ككل من خلال تعميمها لتلك النقاط المظلمة ، وبالتالي الى صياغة أفكار « الماركسية الجديدة » بما ينسجم ومصالحها الخاصة ـ مصالح البورجوازية الصغيرة الأنانية الضيقة ·

ولم يكن نضال الماركسية الثورية الفكري ضد النزعة التحريفية في أواخر القرن التاسع عشر الا مقدمة للمعارك الثورية الكبرى التي تخوضها جماهير الكادحين اليوم في شتى بلدان العالم نحو انتصار قضيتها ضد التيارات المعادية ، وضد تردد كل العناصر البورجوازية الصغيرة وتخاذلها ·

والامبريالية اليوم لم تترك سبيلا أو وسيلة يمكن استخدامها في مقارعة الفكر الماركسي الثوري الا واستخدمتها بعد أن هالتها الانتصارات التي حققها ويحققها على الصعيد العالمي · فما بخلت على نفسها « باليافطات » الجديدة الكثيرة محاولة تضليل الجماهير الكادحة في بلدانها واقناعها ب « العالم الحر » و ب « الرأسمالية الشعبية » وب « مجتمع المديرين » ، كما أنها لم تدخر جهداً في محاولة قطع الطريق على الفكر الماركسي في البلدان المستعمرة والتابعة والمستقلة حديثاً من بلدان العالم الثالث ، أكان ذلك عن طريق تشويه الفكر الماركسي ، أو عن طريق الضغط الاقتصادي والسياسي ، أو الارهاب البوليسي المباشر ، أو عن طريق تبني البورجوازيات للشعارات التي تطرحها الجماهير ثم تمييع هذه

الشعارات واسقاطها بعد تفريغها من أي محتوى ثوري ، أو عن طريق مراقبة الحركة الجماهيرية وتوجيهها ثم توقيت لحظة تفجيرها ليسهل القضاء عليها دفعة واحدة ولتجهض قبل الأوان ٠

وهكذا بقيت الجماهير الكادحة في بلدان العالم الثالث عشرات السنين في عزلة عن الفكر الثوري تقتات على فضلات الفكر البورجوازي وأفكار القرون الوسطى الوهمية الصفراء ، وكاد الميدان يخلو من بوارق الأمل لولا بعض الشعل التي ظلت تكافح كل أنواء الظلم والظلام من أجل ايصال النور وحرارة النور الى تلك النفوس المغلوبة المنهكة ٠

ولن يذهلنا بعد هذا ما نلمسه في الميدان العربي الجماهيري من الفقر في الفكر والتنظيم الثوريين ٠ فلم يعد يفيدنا الاعتماد على عفوية الجماهير وانتفاضاتها القائمة على أساس احساسها بالظلم والاضطهاد ووطأة الاستغلال والتمزق ٠ وأسباب ذلك كثيرة لا مجال لحصرها هنا ، غير أنه لابد لنا من أن نذكر عوامل أخرى – الى جانب ماذكرناه – كان لها شأن كبير في خلق هذا الوضع الراهن الذي تعيشه جماهيرنا الكادحة٠ لقد رافق انتشار الماركسية الواسع في العالم قاطبة انحطاط في المستوى النظري – من جهة ، وتسرب التيارات المعادية لنسفها من الداخل – من جهة أخرى ٠ فبسبب النجاحات العملية التي أحرزتها الحركة ، وبسبب أهميتها العملية ، انضم اليها كثيرون ضعيفون جداً أو يكادون يكونون صفراً من حيث الاعداد النظري ، كما سهل على الآخرين المعادين أن ينفذوا الى صفوفها ليعملوا فيها تشويهاً وتمزيقاً وتخريباً ،وليرددوا كلمة « الشعب » و « الكادحين » على حساب عنصري الوعي والتنظيم ٠ ثم ان هؤلاء أنفسهم لم يتورعوا – مع عدم ادراكهم للفكر الثوري الماركسي – عن تحميل الماركسية ما سبق أن دحضته الماركسية ذاتها زاعمين أنهم ينتقدونها و « يبيدونها » ليرسموا ايديولوجيا جديدة للجماهير ٠

ان المسألة لايمكن أن تطرح الا كما طرحها لينين في يوم من الأيام : اما ايديولوجيا بورجوازية واما ايديولوجيا اشتراكية ، وليس ثمة وسط بينهما ، فالبشرية لم تصنع ايديولوجيا « ثالثة » ٠ أضف الى ذلك أنه في مجتمع تمزقه التناقضات الطبقية لايمكن أن توجد أية ايديولوجيا خارج الطبقات أو فوق الطبقات٠ولذلك فان كل انتقاص من الايديولوجيا الاشتراكية وكل ابتعاد عنها انما هو ، في حد ذاته ، بمثابة تمكين للايديولوجيا البورجوازية وتوطيد لها ٠

ان « المتعلمين » الشباب من أبناء مجتمعنا ،والذين يبنون مستقبلهم

على دحض الماركسية قبل أن يقرأوا الماركسية ذاتها ، والذين ينسفون عنصر الوعي الثوري لدى جماهيرنا الكادحة زاعمين أنهـم يبنون نظرة جديدة عن العالم ، و « يحكمون » على الفكر الماركسي بالقدم ، انما هم أجدر الناس بتقطير الوعي الثوري لهم ليأخذوه قطرة قطرة كيلا تقيئه « معدهم » الصغيرة فهي لاتزال أعجز من أن تهضمه أو تستسيغه • ثم انني لا أجرؤ على تسميتهم بالتحريفيين لأن للتحريفية رجالها وتاريخها من برنشتين في ألمانيا والمنشفيك في روسيا الى أتباع بروس في فرنسا ، الى حزب العمال في انكلترا ، وهي في الأساس ، وفي كل مكان ، من طبيعة واحدة ، رغم التنوع الهائل في الظروف والعوامل التاريخية والقومية في جميع البلدان •

ومهما تكن التسمية التي يمكن أن تطلق على هؤلاء الذين يحاضرون عن الماركسيةويكررون جملا « مفيدة » لقنهم اياها أساتذةهرمون قائمون على حراسة نظام التدريس البالي في جامعاتنا العربية ، فانهم يلتقون مع التحريفيينالأصليين في الدور الذييقومون به رغمالفارق الكبير في الشأن، وانهم يريدون واقع الفكر العربي ميوعة وفراغاً ويضللون النشء الصاعد منصبين أنفسـهم قدوة طلائعية مثقفة • وبهـذا فهم يضربون الحركة الثورية ، أرادوا ذلك أم لم يريدوه ، فالأمر سواء ، لأن القضاء على عنصر الوعي الثوري انما هو تفريغ للثورة من محتواها فتتسرب الى داخلها كل الطفيليات من التحريفية الى الانتهازية •

فليس ثمة حركة ثورية بدون نظرية ثورية • ولنا شاهد في تاريخ جميع البلدان على أن الطبقة العاملة لاتستطيع أن تكتسب بقواها الخاصة غير الوعي العفوي ، وهكذا كانت في كل بلد من بلدان العالم ثمة يقظة عفوية لجماهير العمـال والفلاحين وشبيبة ثوريـة مسلحة بالنظريـة الاشتراكية العلمية تتحرق رغبة في التقرب من العمال وللاندماج بهم ، فتتعلم من واقعهم وخبراتهم ، وتسقيهم الوعي العلمي لمصالحهم ، ومن ثم لتسير ، أخيراً ، في طليعتهم الى قلب النظام البورجوازي وبناء المجتمع الاشتراكي •

ان المادية التاريخية ، التي هي جزء مؤلف من الفلسفة الماركسية ، تعلمنا ضرورة التسلح بالوعي العلمي ، وأنه ليس أسخف وأكثر ضرراً من أن نجعل من أنفسنا شيوخاً اجتازوا مراحل النضال وتمرسوا بهـا و « تجاوزوا » الفكر الثوري العلمي قبـل أن نلمّ بالفكر الثـوري العلمي ذاتـه •

ان النظرية الماركسية – كما تؤكد المادية التاريخية – ليست نظرية جامدة بل هي تقرّ في صميمها محاربة الجمود ، وهي أكثر النظريات مرونة وتطوراً • وهي باعتمادها على أفضل ما توصل اليه العلم من منجزات انما تسير مع العلم جنباً الى جنب وتغنى بمعطياته الجديدة يوماً بعد يوم • ولقد أكد العلم – وما زال يؤكد – صحتها وتفوقها في كل الميادين وعلى الصعيدين الفكري والتطبيقي •

وان كل ما تتحمله الماركسية من « اللمسات الفقيرة » (ولا أقول من الطعنات) التي يوجهها اليها بعض « المتمركسين الجدد » في محاضراتهم لن تحتاج الى أكثر من أن يقرأوها ولو مرة واحدة • وحسبي هنا أن أقدم اليهم هذا الكتاب مخلصاً علني أسهل عليهم مهمة الاطلاع على الفكر الماركسي الذي تفتقر اليه مكتبات الوطن العربي قاطبة •

فليست طعنات الاستعمار التي يسددها لنا من الخارج بأشد خطراً وألماً من أن نستهتر بأنفسنا وننساق خلف السذاجة القصوى المتسترة أحياناً وراء شعارات « يسارية » • ومن المصيبة حقاً أن نتعلم عن ظهر قلب ونحفظ الشعارات أكثر بكثير مما نتأمل فيها لنعرف كل ما يحيط بها من الظروف والعوامل فنتمكن ، بالتالي ، من السير بها في السبيل العلمي المنظم الذي يضمن تحقيقها وانتصارها •

لقد قال لينين : « انه لمن الخطأ البيّن افساح مجال العمل أمام الصياحين ومنمقي الجمل ،الذين يؤخذون ويفتتنون بالثورية « البراقة »، ولكنهم عاجزون عن القيام بعمل ثوري دائب عاقل موزون يحسب الحساب لأصعب الأطوار الانتقالية »★ •

دمشق ١٥/٨/١٩٦٧ أحمد داود

المادية التاريخية
كعلم فلسفي عن المجتمع

ان موضوعنا هذا مدخل لدراسة المادية التاريخية ، ومن شأنه أن يحدد موضوع العلم الذي نحن بصدد دراسته ، وشرح خصائص نشوئه وتطوره ، وأخيراً تحديد قيمته وأهميته بالنسبة للمعرفة وللتطبيق العملي . ان هذه القضايا العامة تتطلب دراسة خاصة مركزة لكونها تقف خارج نطاق جميع المواضيع الأخرى التي تدرسها المادية التاريخية .

١ ـ موضوع المادية التاريخية

ان المادية التاريخية جزء لايتجزأ من الفلسفة الماركسية ، وهي ،بالاضافة الى هذا ، علم خاص يمتاز عن كل العلوم الأخرى بموضوع بحثه .

واذا اعتبرنا أن هذا لايزال يقف بنا بعيداً عن صميم الموضوع فبامكاننا أن نضيف بأن موضوع المادية التاريخية هو المجتمع كشكل اجتماعي خاص لحركة المادة . بيد أن هذا التعريف لايزال مجرداً ويفتقر الى التجسيد .

فنحن حينما نتناول المجتمع ككل يبدو لنا ، في الوقت نفسه، أنه ضمنياً منقسم على ذاته ، فهو يمثل مجموعة من الظواهر الاجتماعية المختلفة: التكنيك والاقتصاد واللغة والثقافة والأسرة والحياة اليومية ... الخ التي لها صفات خاصة وقوانين تطور داخلية خاصة أيضاً ، والمنفصلة احداها عن الأخرى بحدود موضوعية . فليس ثمة من يخلط في التطبيق العملي بين الاقتصاد والأسرة ،بين الأدب والقضاء، بين الدولة واللغة . ان الفوارق الموضوعية بين الظواهر الاجتماعية هي أساس

الفصل بين العلوم الاجتماعية المختلفة • وطبيعي أن نتساءل : ألا تعطينا مجموعة هذه العلوم اذن معرفة المجتمع بمجموعه دون معرفة جوانبه الجزئية المتفرقة ؟ وهل يحق لهذا العلم الخاص عن المجتمع ككل ـ المادية التاريخية ـ أن يوجد ويقوم ؟

فلو أن المجتمع كان مجموعة ميكانيكية من الظواهر الاجتماعية المختلفة تقف على قدم المساواة من حيث أهميتها في الحياة الاجتماعية اذن لكانت مجموعة العلوم الاجتماعية قادرة ،بالطبع، على أن تعطينا معرفة عن المجتمع ككل• لكن الأمر في الواقع ليس كذلك •

فيجدر بنا أن نلاحظ ،قبل كل شيء،أن الظواهر الاجتماعية المختلفةلاتوجد من تلقاء ذاتها • فالاقتصاد أو اللغة ، التكنيك أو الفن،الأسرة أو الأخلاق ليست الا جوانب متفرقة أو مظاهر مختلفة لحياة الناس الاجتماعية• ان الناس أنفسهم هم الذين يخلقون العلاقات الاقتصادية ، وهم مبدعو وناشرو اللغة ••• الخ • وهذا يعني ، أولا ، أن الحدود بين الظواهر الاجتماعية المختلفة ،وبالتالي ،بين العلوم التي تدرسها ليست مطلقة بل نسبية • وهذا لاينفي وجود هذه الحدود•

وثانياً ، فمهما تعمقت العلوم الاجتماعية في جوهر الظواهر الاجتماعية المختلفة ، ومهما أعطانا علم التكنيك والاقتصاد السياسي والتاريخ ونظرية الدولة وتاريخ الفلسفة وتاريخ العلاقات الدولية وتاريخ العلم صورة مفصلة عن تطور التكنيك والاقتصاد والدولة والفلسفة والعلاقات الدولية والعلم ••• وغيرها، فان هذهالصورة لاتعدو كونها معرفة لجوانبالحياةالاجتماعيةوظواهرها المتفرقة • ان مهمة المادية التاريخية ، بخلاف العلوم الاجتماعية التشخيصية التي تؤلف مواضيعها الظواهر الاجتماعية المحدودة نسبياً والمتفرقة ، هي معرفة المجتمع ككل ، والتأثير المتبادل بين كل جوانبه ، وتوضيح الدور الذي تقوم به الظواهر الاجتماعية المختلفة التي تتبادل فيما بينها ذلك التأثير •

لكن هذا لا يعدو جانباً واحداً من القضية ، اذ لابد من تحديد موضوع المادية التاريخية وفصله عن موضوع التاريخ العام • فمن المعروف أن المجتمع ،

بوجه عام ، مفهوم مجرد. ففي الواقع ، وفي كل زمن من الأزمان ، تكون ثمة مجتمعات معينة ومحددة تاريخياً ـ الاتحاد السوفييتي الاشتراكي ، والولايات المتحدة الرأسمالية ، والهند البورجوازية التي لم يمض على تحررها من التبعية الاستعمارية زمن طويل ، وتايلاند الاقطاعية التابعة كلياً للامبرياليين ... الخ. ان تاريخ هذه المجتمعات وعلاقاتها المتبادلة هي ، بالضبط ، عملية التطور المحسوسة لكل من الاتحاد السوفييتي والولايات المتحدة الاميركية والهند وغيرها التي يدرسها علم خاص هو التاريخ . وعلم التاريخ ، كما هو معروف ، يتضمن تاريخ جميع البلدان والشعوب في كل تنوعاتها وتمايزها وفي تسلسل جميع الحقائق التاريخية . ويتمكن علم التاريخ من أن يجعلنا نتصور تاريخ الانسانية بمجموعه كعملية حسية مشخصه .

ولو اقتصر التاريخ على وصف الحقائق التاريخية لفقد اسمه كعلم . فهو ، كأي علم آخر ، يجعل من معرفة قوانين الموضوع الذي يبحثه مهمته الدائمة[1] . ففي كل مجتمع ، وعلى قاعدة من الظروف المعينة ، تفعل فعلها القوانين الخاصة به والملازمة له . وهي تعبر عن الخصائص النوعية لهذا المجتمع او ذاك وتميز بين مرحلتين من مراحل التطور الاجتماعي . لكنما الأجهزة الاجتماعية المختلفة ليست فقط متميزة بعضها عن بعض بالقوانين الخاصة ، وانما هي مرتبطة أيضاً ، فيما بينها ، بقوانين عامة لها جميعاً .

ان التاريخ ، كعلم ، عندما يدرس العملية التاريخية المشخصة ، يسعى الى اكتشاف القوانين التي تعمل في تاريخ المجتمع . لكنه يكشف عنها في ارتباطها العضوي الوثيق مع الحقائق المشخّصة وأعمال الأفراد والطبقات والأحزاب المعينة في زمن ما ومكان ما .

ان موضوع المادية التاريخية هو معرفة القوانين العامة للتاريخ المأخوذة من

---

(١) « ان المخطط الذي ينبغي على المؤرخ بموجبه ان يقتصر على وصف الحوادث ، بينما يقوم آخر ، كعالم الاجتماع مثلا ، باستنباط قوانين التطور الاجتماعي وبناء نظرة تقوم عليها ، لايمكن ان يكون مخططا علميا شاملا وملما بكل شيء اذا صح ان نعتبر تسجيل الوقائع التاريخية علما » (أ. شاف. الطابع الموضوعي لقوانين التاريخ ١٩٥٩ ص ٤٤٠ .)

خارج نطاق علاقتها بتاريخ هذا البلد بالذات أو ذاك الشعب • والمادية التاريخية تقوم بفرز الجوانب والقوانين العامة لتطور المجتمع عن طريق التحديد فتكشف بهذا عن الوحدة المادية للعملية التاريخية التي تعجز عن كشفها الملاحظة المباشرة، وعن الصلة المتبادلة بين جوانبها ، وعن مراحل تطورها •

ان المادية التاريخية ، اذ تبحث القوانين العامة للتاريخ ، تركز على العلاقات الجوهرية بين الظواهر الاجتماعية أو على جوانب الحياة الاجتماعية التي توجد في كل بناء اجتماعي وفي كل مرحلة من مراحل تطور المجتمع ، كالقوى الانتاجية ، علاقات الانتاج ، القاعدة والبنيان الفوقي ، الجماهير والفرد، وجانبي العملية التاريخية المادي والروحي ••• الخ •

وبما أن العام لا يوجد خارج المحدود الخاص الفردي فان الوحدة الداخلية لمراحل التاريخ المختلفة وكذلك الظواهر العامة لكل مراحل التطور ، لا توجد ولا تظهر الا في تاريخ الانسانية المشخص المتنوع • ومن هنا نستخلص بعض النتائج الهامة : أولا ، بالرغم من أن عملية فرز القوانين العامة للتاريخ مهمة جدا ، فانه، من أجل فهم المجتمع في تطوره، يجب ألا نقف عند اكتشاف تلك القوانين التي تربط بين مراحل التاريخ المختلفة وحسب، بل وعلينا أن نكتشف تلك القوانين الخاصة التي تفصل الجهاز الاجتماعي عن الآخر وتجعل كل مجتمع مرحلة معينة في التاريخ • ثانياً ، ينبغي أن نأخذ بعين الاعتبار أن القوانين العامة للتاريخ ذاتها تفعل فعلها في فترات تاريخية مختلفة في الظروف المختلفة أيضاً • وبموجب تغير الظروف التاريخية يتغير شكل ظهور القوانين العامة ومتطلباتها • فمثلا ، ان ما يتطلبه القانون العام ـ ملاءمة علاقات الانتاج لطابع القوى المنتجة ـ في عصر الثورات البورجوازية هو تغيير العلاقات الاقطاعية الى علاقات رأسمالية ، وفي عصر الثورات البروليتارية ـ تغيير العلاقات الرأسمالية الى أخرى اشتراكية • ثالثاً ، ان تطور كل مجتمع يتحدد بفعل قوانينه الخاصة والقوانين العامة للتاريخ كله أو لبعض مراحله المختلفة • فلا يجوز فصل القوانين الخاصة عن القوانين العامة أو اذابة احداها في الأخرى • فهاتان المجموعتان من القوانين ترتبطان ارتباطاً وثيقاً فيما بينهما وتؤلفان معاً الوحدة الديالكتيكية • الا أن القوانين العامة في التاريخ،

اذ تتجلّى من خلال ظروف معينة ومن خلال قوانين هذه الظروف الخاصة ، لا تفقد كيانها القائم بذاته وتؤلف موضوع بحث المادية التاريخية كعلم خاص فريد.

وهكذا ، فالمادية التاريخية لا تدرس فقط هذه الظاهرة الاجتماعية المشخصة أو تلك ، كما تفعل العلوم الاجتماعية التشخيصية ، ولا هذا العصر من تطور المجتمع الانساني أو ذاك ، ولا تاريخ هذا البلد أو ذاك، كما يفعل العلم التاريخي. ان المادية التاريخية تدرس العملية التاريخية ككل واحد ، والعلاقات المتبادلة بين جوانب الحياة الاجتماعية المختلفة ، والقوانين العامة والقوى المحركة للتطور التاريخي . ان المادية التاريخية هي النظرية العامة للعملية التاريخية .

بيد أن مسألة اختصاص هذا العلم لم تتوضّح تماماً بما ذكرناه آنفاً . فالخاصة الرئيسية للمادية التاريخية هي في أنها علم فلسفي عن المجتمع . فهناك بين كل العلوم الاجتماعية والطبيعية ثمة كثير من السمات العامة وكثير من الفوارق . فمن المهم حقاً أن نلفت الانتباه الى خاصة واحدة عامة لكل هذه العلوم . ان أي علم حينما يدرس موضوعه يسعى الى معرفته كما هو موجود بذاته ، وبصورة مستقلة عن الانسان ووعيه . حتى أن نفسية الانسان صارت موضوعاً للمعرفة العلمية فقط عندما بدأت تعالج بطرق البحث الموضوعي . وهذه الخاصة العامة لكل العلوم التشخيصية التي تبدو بديهية لأول وهلة ينبغي أن نقف عندها ونقدرها حق قدرها لأنها تخدم كأساس للتفريق بين العلوم الفلسفية وغير الفلسفية . وهذا لا يعني أن العلوم الفلسفية لا تهتم بالبحث العلمي الموضوعي ، فمثل هذا الزعم باطل لا شك . فما من علم تشخيصي يضع مسألة الأساس الأولي للعالم أو يحلُها ككل في ضوء علاقة البداية المادية بالمثالية ، الموضوعية بالذاتية ، الطبيعية با « الالهية » . وهذا لا يعني أن هذه المسألة لا تهم العلوم الطبيعية والاجتماعية . انما الأمر على العكس من ذلك . فلا الفيزيائي ولا عالم اللغات يقف موقف اللا مبالي تجاه طبيعة موضوع بحثه ان كان الأمر بالنسبة للجسيمات المجهرية أو لقواعد اللغة . لكنما الأمر هو في أن هذه المسألة تخرج عن نطاق العلوم التشخيصية وعن نطاق موضوع اختصاصها .

ان خاصة الفلسفة ومكانتها الخاصة في نظام كل العلوم هي في أنها وحدها تعطينا نظرة عامة الى العالم ككل ، نظرة معينة لايمكن دراستها الاّ عند حل المسألة المتعلقة بوحدة العالم من خلال طرح هذا السؤال : هل هذه الوحدة في أساسها الأولي مادية أم مثالية ؟ وبموجب حل هذه المسألة الأساسية اما أن تسعى الفلسفة ، ككل العلوم ، الى اكتشاف القوانين الموضوعية للعالم المادي ، أو أنها ترجع هذا العالم لتربطه بمنطلقات مثالية موضوعية او مثالية ذاتية •

ان المادية التاريخية هي علم فلسفي خاص عن المجتمع يمتاز عن كل العلوم الاجتماعية الأخرى •

فمن كل أشكال حركة المادة (الفيزيائي والكيميائي والبيولوجي والاجتماعي) نجد أن الشكل الأخير وحده هو الذي يؤلف الأساس لظهورعلم فلسفي خاص يمثّل ، الى جانب ذلك ، تقسيماً خاصاً للفلسفة كنظرة عامة الى العالم • وسبب ذلك أن وضع نظرة عامة الى سير العملية التاريخية يتطلبالاجابة عن السؤال : ما الذي يحدّد وعي الناس صانعي التاريخ ، ثم أيهما الأولية والأساسية والرئيسية في المجتمع : البداية المادية ام البداية الروحية • انالاجابة المادية عن هذا السؤال الأساسي في الفلسفة بالنسبة الى العالم ككل لاتعنيالاجابة الأوتوماتيكية عن السؤال الأساسي بالنسبة للمجتمع • ان كل الفلاسفة الماديين قبل ماركس كانوا ماديين في فهمهم للطبيعة • الاّ أن هذا لم يحُل بينهم وبين المثالية في فهمهم للحياة الاجتماعية • ولقد أكد التاريخ أن أعداء المعرفة العلمية ـ المثاليين ـ كانوا من الناحية الفلسفية مفكرين بحق أكثر من سواهم لأنهم تمكنوا من دراسة الطبيعة والمجتمع ، حقاً ، من وجهة نظر مبدئية واحدة •

ان الحل الذي تقدمه المادية التاريخية للمسألة الأساسية فيالفلسفة بالنسبة للمجتمع ليس وحدانياً وحسب وانما هو الحل العلمي الصحيح لأول مرة في التاريخ • ان المادية التاريخية تكمل صرح المادية حتى النهاية على أساس تطبيق المادية الديالكتيكية على الشكل الاجتماعي لحركة المادة • وفي المادية التاريخية تتجسد المسألة الرئيسية في الفلسفة كحل مادي لمسألة العلاقة بين حياة المجتمع المادية وحياته الروحية ـ الواقع الاجتماعي والوعي الاجتماعي •

وهكذا فقد توصلنا أخيراً الى تحديد موضوع المادية التاريخية • ان المادية التاريخية ، كعلم عن المجتمع ، تدرس موضوع العلاقات المتبادلة بين جوانب العملية التاريخية المختلفة والقوانين العامة لتطور وتغير البنى الاجتماعية المختلفة المكتشفة على أساس الاجابة المادية عن مسألة العلاقة بين الواقع الاجتماعي والوعي الاجتماعي ، بين جوانب الحياة الاجتماعية الموضوعية والذاتية •

ان المادية التاريخية تدرس المجتمع كله ، وتعالجه من زاوية وحدة كل الظواهر الاجتماعية ، كما تعالجه من ناحية تطوره المشروط بفعل القوانين الموضوعية التي تتحقق من خلال نشاط الناس •

ويمكننا أن نستخلص مما تقدم النتيجة التالية : من أجل معرفة العملية التاريخية بكل غناها وتعقيدها لابد من ثلاثة عوامل : أولا ، معرفة التاريخ المشخص للانسانية بما فيه تاريخ جميع البلدان والشعوب ، ثانياً ، معرفة الظواهر الاجتماعية المشخصة التي تمثل الجوانب المختلفة للحياة الاجتماعية بخصائصها النوعية وقوانينها (التكنيك ، الاقتصاد ، اللغة ، العلم ، الأسرة ، الأخلاق ، الفن ••• الخ) ، وأخيراً ، معرفة الصلات العامة بين الجوانب المختلفة للعملية التاريخية والقوانين العامة لتطور وتبدل العصور التاريخية المكتشفة على أساس الحل العلمي للمسألة الأساسية لكل فلسفة تاريخ •

٢ ـ مكان المادية التاريخية في نظام العلوم الاجتماعية العلاقة المتبادلة بين المادية الديالكتيكية والمادية التاريخية

المادية التاريخية والعلوم الاجتماعية

ان خصائص موضوع المادية التاريخية تحدد مكانها بين العلوم الاجتماعية الأخرى وعلاقتها بها ، كما وتحدد علاقتها بالمادية الديالكتيكية •

ان المادية التاريخية كعلم فلسفي عن المجتمع تبرز في علاقتها مع كل العلوم الاجتماعية الأخرى كنظرية وأسلوب لمعرفة التاريخ المشخص والظواهر الاجتماعية المختلفة • ان المادية التاريخية تعطينا فهماً علمياً لوحدة وتنوع العملية

التاريخية ولروابطها الداخلية وغاياتها • ان على كل علم اجتماعي تشخيصي أن يلائم بين تحليلاته ونتائجه مع طبيعة المجتمع ككل كما تقدمه المادية التاريخية. وترينا تجربة التاريخ أن المعرفة العلمية قبل ظهور الماركسية لم تكن بمجموعها معرفة علمية صحيحة لأنها كانت تعتمد على الفهم المثالي للتاريخ • وبالسير على هدي نظرية وأسلوب المادية ألتاريخية ، فقط ، يصبح في مقدور كل العلوم الاجتماعية أن تتناول بالبحث مواضيعها بصورة علمية وموضوعية ، وأن تخلص الى نتائج صحيحة من الحقائق المتوفرة لديها • والمادية التاريخية بدورها ، اذ تدرس المجتمع ككل وقوانين تطوره وقواه المحركة الأساسية ، تعتمد على معطيات كل العلوم الاجتماعية الأخرى ، وهي تزداد غنى مع تطور المجتمع ذاته والعلوم التشخيصية نفسها •

ان العلم التاريخي الماركسي ، اذ اهتدى بنظرية وأسلوب المادية التاريخية، أثبت جدارته وتفوقه على العلم الاجتماعي البورجوازي الذي يعاني في وقتنا هذا أزمة عميقة قاتلة • وتتجلى هذه الأزمة قبل كل شيء في نفي القوانين الموضوعية لتطور المجتمع ، وفي نفي امكانية المعرفة العلمية للتاريخ وامكانية التنبؤ العلمي في ميدان الحياة الاجتماعية • ان معظم الفلاسفة وعلماء الاجتماع البوراجوازيين لا يعترفون بجدارة العلم في حقل التاريخ العام، ويلوذون في أبحاثهم المتعلقة بالحياة الاجتماعية الى الذاتية والارادية • وبالطبع كان في الماضي ثمة فريق من الناس يدعون الى النظرات الذاتية في التاريخ ، لكنما الذاتية في القرن العشرين بالذات اخذت تكتسح التاريخ البورجوازي •

وليست أزمة الفكر التاريخي البورجوازي هذه وليدة الصدفة • فان جذورها الاجتماعية متغلغلة في اعماق ظروف الرأسمالية الراهنة • وثمة أشياء كثيرة تجمع بين الأزمة في العلم الاجتماعي البورجوازي وبين الأزمة في الفيزياء التي وضع لها لينين تحليلا عميقاً في « المادية والنقد التجريبي» • وعلماء الاجتماع البورجوازيون يبررون رفضهم الاعتراف بالقوانين الموضوعية في المجتمع باعتمادهم على « الفيزياء المعاصرة » التي تخلت أيضاً عن الاعتراف بالقوانين الموضوعية في الواقع وعن الحقيقة الموضوعية في العلم • ويتضح من هذا المثال

ان « المثالية الفيزيائية » لاتستخدم فقط الفلاسفة المثاليين من أجل الدفاع عن الدين في النضال ضد المادية الديالكيتكية ، بل وعلماء الاجتماع البورجوازيين أيضاً في النضال ضد المادية التاريخية[1] .

ان المادية التاريخية ، اذ تتسلح بمعرفة قوانين التطور الاجتماعي ، تخدم بهذا كسلاح جبار في التأثير التطبيقي على سير التاريخ . ان المادية التاريخية علم ، ولهذا يمكنها أن تخدم كطريقة لتحويل المجتمع وفقاً لقوانينه وليس وفقاً لأية رغبات ذاتية أخرى . والمادية التاريخيةالتي لاتُدرَس فقط كطريقةلمعرفة الحياة الاجتماعية بل وكطريقة لتحويلها ، علم ضروري للعلماء الذين يدرسون الظواهر الاجتماعية كما هو ضروري للاختصاصيين في علم الطبيعة ، بل ولكل المواطنين في بلادنا . فمن أجل المساهمة الفعالة في البناء التحويلي للاشتراكية ، ومن أجل فهم سياسة الحزب فهماً عميقاً ونشرها في أوسع الأوساط بنجاح لابد من معرفة قوانين التطور الاجتماعي وحسن استخدامها في التطبيق . ان الاختصاصي بالفيزياء والكيمياء والبيولوجيا والفلك والرياضيات والجيولوجيا والجغرافيا ، وكل مواطن سوفيتي لايمكن ان يحصر نفسه بمحيط اختصاصه الضيق وحسب ، فان فهم المادية التاريخية ينهض بكل انسان الى مستوىالمساهم الواعي في العملية التاريخية ، الى مستوى الانسان القادر على تقييم حقائقالتاريخ المتنوعة وقناعته الشخصية في الانتصار الحتمي للشيوعية تقييماً موضوعياً صحيحاً وتأسيسه على موضوعات علمية صادقة .

المادية الديالكتيكية والمادية التاريخية

ان المادية التاريخية هي جزء أساسي من الفلسفة الماركسية اللينينية . فما هي العلاقة بين المادية الديالكتيكية والمادية التاريخية ؟

عندما نقول ان المادية التاريخية هي المادية الديالكيتكية مطبقة في تحليل الحياة الاجتماعية ، فمن البديهي أن يبرز لنا هذا السؤال : أو يمكن يا ترى

---

(١) ا٠س٠كون٠ المثالية الفلسفية وأزمة الفكر التاريخي البورجوازي ٠ ١٩٥٩ ص ٥٧ ٠

أن ندرس الطبيعة والمجتمع من زاوية واحدة ؟ ان كل العمليات في الطبيعة هي نتيجة للتأثير المتبادل بين قوى عفوية عمياء ، بينما هي في المجتمع نتيجة للتأثير المتبادل بين الناس ـ الكائنات الواعية • فمنذ القرن الثامن عشر كتب العالم الايطالي د• فيكو : يتميز تاريخ المجتمع عن تاريخ الطبيعة بأن الأول نحن خلقناه، أما الثاني فمن صنع قوى أخرى غيرنا • ومن هنا ينتج أنه لايمكن ان تكون ثمة قوانين عامة للطبيعة والمجتمع معاً •

وتبدو هذه الحجة مقنعة لأول وهلة ، لأن تاريخ المعرفة الاجتماعية يؤيدها وكذلك وفرة المحاولات العقيمة في فهم ظواهر الحياة الاجتماعية ، اذ تطبق معطيات هذا العلم او ذاك وتستخدم القوانين التي اكتشفتها على المجتمع • وهكذا نجد ان ت•هوبس مثلا كان يحاول تطبيق معطيات الرياضيات في تحليل المجتمع، كما أقدم سبينوزا على محاولة لدراسة طبيعة المشاعر الانسانية بمساعدة « الطريقة الهندسية » • وشد ما سعى علماء الاجتماع الداروينيون لتفسير التاريخ بقوانين البيولوجيا التي اكتشفها دارون ، كما حاول الفيزيائيون الاجتماعيون تفسير التاريخ مستخدمين أحدث المكتشفات في الفيزياء • وعلى سبيل الطرافة يمكن ان نتوقف عند محاولة لتفسير الظواهر الاجتماعية بمساعدة ••• الطب • لقد أقدم أحد أتباع سان سيمون ـ وقد كان طبيباً ـ على تأليف كتاب ليثبت فيه هذه الحقيقة الناصعة : بما أن المجتمع ليس الا مجموعة من الناس فان من يداوي أولئك الناس يجب أن يكون ذلك الذي يداوي الفرد • ان علاج القروح والعيوب الاجتماعية هو من شأن الطب وحده • فمن الواجب أن يتألف مجلس من الأطباء يكون من شأنه أن يدرس المجتمع ويشخص الداء ويعطي الوصفة ليسير كل شيء في المجتمع على ما يرام •

والتاريخ يشهد بأن معطيات جميع العلوم تقريباً كانت تستخدم من أجل فهم وتفسير العملية التاريخية ، لكن كل شيء كان يذهب هباء •

فما هي عيوب كل تلك المحاولات ؟ ولماذا لا تتيسر معرفة تاريخ المجتمع بتطبيق معطيات العلوم ، ثم لماذا يمكن بل ، ويجب ، تعميم موضوعة المادية التاريخية على حقل التاريخ ؟

ان المجتمع يختلف بالطبع ، عن الطبيعة • لكن هذا الاختلاف لايكمن في وجود قوانين موضوعية تعمل في الطبيعة وتنعدم في المجتمع • فالاختلاف هو في أنه في الطبيعة ثمة قوانين موضوعية تظهر من خلال التأثير المتبادل بين قوى الطبيعة ذاتها ، بينما تظهر في المجتمع من خلال التأثير المتبادل بين الناس • ان المجتمع ـ كالطبيعة ـ يخضع في تطوره لقوانين مادية موضوعية سوف نكشف عن جوهرها وعن سير تأثيرها في فصول لاحقة • وحسبنا الآن أن نؤكد على أن المجتمع هو شكل خاص ، وبكلمة أدق ، شكل اجتماعي لحركة المادة • ولهذا فالسؤال يتحول هنا الى صيغة أخرى : أيمكننا شرح هذا الشكل من الحركة بمساعدة القوانين التي اكتشفتها الفيزياء والكيمياء والبيولوجيا ••• الخ •

ان الشـكل الاجتماعي ، ككل شـكل معقّد لحركة المادة ، لايمكن أن يشرح أو يفسر بقوانين الاشكال البسيطة لحركة المادة • ولهذا فان المحاولات لفهم التاريخ بواسطة القوانين التي اكتشفتها الفيزياء والكيمياء والبيولوجياضعيفة في أساسها وناقصة • فمع ظهور المجتمع الانساني تظهر قوانين جديدة خاصة• الا أن هذا لايمنع وجود بعض السمات العامة بين الظواهر الطبيعية والاجتماعية• ولذا لايمكن نفي امكانية تطبيق بعض الطرق ـ مثلا ، نظـرية الاحتمـالات الرياضية ـ في دراسة الظواهر الاجتماعية في حالات معينة • لكنما المهم في الأمر هو فهم عدم امكانية نقل العمليات الاجتماعية التاريخية نقلا آلياً الى عمليـات الطاقة والبيولوجيا وغيرها ، لأن هذا يقضي حتماً على تلك الفوارق النوعية المميِّـزة التي تفصل الأولى عن الثانية •

والمادية التاريخية ، بخلاف كل العلوم الأخرى ، لاتدرس فقط هـذه القوانين الخاصة أو تلك من قوانين تطور أشكال معينة لحركة المادة ، وانما هي تدرس القوانين العامة الشاملة للحركة المادية • والمجتمع هو أيضاً شكل لحركة المادة • ولذا فان القوانين الشاملة لحركة المادة تفعل فيه بالرغم من أنها تتجلى هنا في شكل خاص • ولهذا نجد أن القوانين المكتشفة فيـه من قبـل الماديـة الديالكتيكية ـ بخلاف قوانين الفيزياء والكيمياء وغيرها ـ ليس فقط يمكن

تعميمها على معرفة الحياة الاجتماعية ،وانما ينبغي ذلك ، ممَّا يضمن الطريقة العلمية في دراستها •

لكنه لايجوز أن نتصور الأمر على هذا النحو: لقدوجدت المادية الديالكتيكية أولا ، ومن ثم طغت على حقل التاريخ • ان الموضوعة الشهيرة والقائلة بأن المادية التاريخية هي تعميم المادية الديالكتيكية على حقل التاريخ من شأنها فقط أن تكشف عن العلاقة الوثيقة الحميمة بين المادية التاريخية والمادية الديالكتيكية وعن الوحدة الداخلية للفلسفة الماركسية • ثم انها توضح كيف أن المادية التاريخية هي جزء من المادية الديالكتيكية وظهور خاص لقوانينها العامة • لكن هذا ينبغي الاّ يفضي بنا الى القول بان موضوعات المادية التاريخية يمكن أن تأتي من طريق منطقي محض من المبادىء العامة للمادية الديالكتيكية ، وبأن المادية الديالكتيكية كان يمكن لها أن توجد قبل المادية التاريخية وبصورة مستقلة عنها • ان اقحام المادية في التاريخ يتطلب حساب الخصائص النوعية للمجتمع ولميزاته عن الأشكال الأخرى لحركة المادة ولكشف الأساس المادي للحياة الاجتماعية وبالتالي ، اكتشاف تلك القوانين التي لاتتعلق بارادة ووعي الناس وانما هي تقوم بتحديدهما •

ان المادية الديالكتيكية والمادية التاريخية تظهران كعلم واحد وكفلسفة كاملة متكاملة • فلا المادية التاريخية معقولة بدون المادية الديالكتيكية ولا المادية الديالكتيكية ممكنة بدون المادية التاريخية • فبماذا نفسر ذلك ؟ أولا ، لايمكن وضع نظرة مادية ديالكتيكية عن العالم ككل اذا لم يتوفر التفسير المادي للحياة الاجتماعية ، اذا لم يكن قد اكتشف أن المجتمع هو أيضاً شكل لحركة المادة وخاضع في تطوره لقوانين موضوعية مادية كقوانين الطبيعة •

والمادية الديالكتيكية غير ممكنة بدون المادية التاريخية ، ثانياً ، لأن الاجابة العلمية الصحيحة عن المسألة الأساسية في الفلسفة حول أولية المادة وثانوية الوعي غير ممكنة بدورها بدون توضيح سبب وكيفية ظهور الوعي الانساني ، والدور الذي لعبه في ذلك التطبيق العملي الاجتماعي التاريخي للناس • اذ أن الاجابة عن هذا السؤال تقدمها المادية التاريخية وحدها •

ان المادية الديالكتيكية والمادية التاريخية مرتبطتان ببعضهما ارتباطاً عضوياً لا تنفصم عراه • فلقد كتب لينين : ان هذه الفلسفة الماركسية المسبوكة من قطعة فولاذية واحدة ، لايمكن انتزاع أي منطلق أساسي منها ولا أي جزء جوهري واحد دون الخروج عن الحقيقة الموضوعية ودون الوقوع في أحضان الدجل البورجوازي الرجعي[1] •

ولقد حاول أعداء الماركسية ومزيفوها مراراً فصل المادية الديالكتيكية عن المادية التاريخية ووضعهما على طرفي نقيض بقصد تشويه الاثنتين معاً ، سيّما تلك المحاولات الكثيرة التي كانت ترمي الى تحويل المادية الديالكتيكية الى تيارات « عصرية » و « جديدة » في الفلسفة البورجوازية • فلقد كان م• أدلر مثلا يؤكد أن « الماركسية نظرة لا الى العالم ككل ، وانما الى العالم الاجتماعي فقط»، ومنه كان يخلص الى القول بأن المادية الديالكتيكية ليست جزءاً عضوياً من النظرية الماركسية • ولقد أنقذ لينين فكرة الوحدة بين المادية الديالكتيكية والمادية التاريخية في نضالهما المستميت ضد انتهازيي الأممية الثانية والمحرفين • فلقد فضح لينين أقوال ب• ستروفي الذي كان يحاول البرهان على أنه من الممكن أن يكون نصيراً لفلسفة كانت وللفهم المادي للتاريخ في آن معاً • ولقد بيّن لينين بجلاء في كتابه « المادية والنقد التجريبي » كيف أن سعي بغدانوف وغيره من الماخيين للجمع بين المادية التاريخية والفلسفة « الجديدة » التي لم تكن سوى ترديد لأزمة الفلسفة المثالية الذاتية القديمة غير جديرة بأي نقد • لقد أكد بغدانوف أنه يقبل المادية التاريخية مع « تعديل » واحد : « ان الواقع الاجتماعي والوعي الاجتماعي متطابقان » • الا أن لينين برهن على أن هذا « التعديل » الطارىء على المادية التاريخية ينبع مباشرة من الفلسفة الماخية التي يكون بموجبها التصور الحسي لأشياء العالم الواقعي وهذه الأشياء ذاتها انما هما شيء واحد ، شيء ما متطابق • ولهذا ، فان مطابقة الواقع الاجتماعي مع الوعي الاجتماعي ليست الاّ عملية تشويه مثالية للماركسية ورفضاً للمادية في التاريخ • ان تحريف المادية الديالكتيكية يؤدي حتماً الى تشويه المادية التاريخية • ان المادية

(١) لينين• المؤلفات • الجزء ١٤ ص ٣١٢ •

التاريخية لاتجتمع مع اية فلسفة أخرى غير المادية الديالكتيكية • ان الاعتراف بالمادية التاريخية مع نكران المادية الديالكتيكية ليس الاّ زيفاً خالصاً وسفسطة مقرفة •

الا أن بعض الاشتراكيين الديموقراطيين المعاصرين يواصلون عملية تزييف النظرية الماركسية عن العملية التاريخية • وكمثال على ذلك يمكننا أن نأخذ كتاب الاشتراكي الديموقراطي الألماني بيزي الذي أسماه ، على ما يبدو ، سخرية « وجوداً روحياً » وانتاجية العمل « مفهوماً روحياً »والحاجات الاقتصادية « عمليات روحية » •• الخ •

غير أن معظم الانتهازيين يمضون الى أبعد من هذا ، اذ يرفضون حتى المصطلحات الماركسية ، ويعزفون أصلا عن ربط الحركة الاشتراكية بنظرية معينة • ان هذا هو انتقال سافر ومفضوح للأحزاب الانتهازية اليمينية الى مواقع الايديولوجية البورجوازية •

ان الانتهازيين ، اذ بدأوا تحريف الماركسية تحت راية « تحسينها وتطويرها » ، انتهوا بهذا التطوير الى العداء السافر للماركسية ، وكذا يسير على هذا النهج أيضاً التحريفيون المعاصرون • فهم ، اذ يعلنون بالقول أنهم يسعون الى تطوير الماركسية ، يرفضون الاعتراف بالرابطة بين المادية الديالكتيكية والفهم العلمي للتاريخ • ويؤكدون أن على علم الاجتماع ـ كيما يصبح علمياً بحق ـ أن يتحرر من تأثير أية فلسفة أو ايديولوجية ، اذ من شأنها فقط أن تفتك بالعلم الاجتماعي •

ان الأحزاب الشيوعية والعمالية في نضالها من أجل نقاوة النظرية الماركسية اللينينية تحافظ باخلاص على مبدأ الوحدة المتينة بين المادية الديالكتيكية والمادية التاريخية •

وبدون فهم وتوضيح الرابطة العضوية التي تجمع بين المادية الديالكتيكية والمادية التاريخية ، لايمكن أبداً فهم الفلسفة الماركسية اللينينية • وان فهم هذه الرابطة ذو أهمية خاصة سيما بالنسبة لممثلي العلوم الطبيعية • ان التطبيق

التربوي يكشف لنا كيف أن بعض الرفاق الذين يدرسون الفلسفة الماركسية لامتلاك ناصية الطريقة العلمية في التفكير يحسبون أنهم في غنى عن المادية التاريخية في حقل اختصاصهم الضيق على الأقل • فمن أجل الحصول على الطريقة العلمية تكفي ، في نظرهم ، معرفة المادية الديالكتيكية وحسب • وبهذا فهم يفصلون ، دونما وعي منهم ، بين المادية الديالكتيكية والمادية التاريخية ، ويكشفون عن جهلهم للرابطة العضوية بينهما ولتكامل الفلسفة الماركسية ، ومثل هذا الرأي بعيد عن الصواب :

أولا ، لأنه من أجل التحديد الصحيح لمجالات تطور هذا العلم الطبيعي أو ذاك ،ومن أجل المساهمة الفعالة الناجحة في تطويره ، لابد للعالم من أن يتمثل مكانة العلم في الشبكة المعقدة للظواهر الاجتماعية ، وصلته بالتطبيق التاريخي الاجتماعي للناس • وان المادية التاريخية هي التي تعطي الحل الصحيح لهاتين المسألتين •

ثانياً ، لأن الالمام بالفلسفة الماركسية اللينينية ككل هو وحده الكفيل باستخدامها كطريقة للمعرفة العلمية • وقد ذكر انجلس في كتابه « أنتي دهيورنغ » أنه بقدر مايرتفع العالم من التجربة الى التعميم النظري لنتائجه بقدر مايجد نفسه أمام ضرورة اتقان فن التفكير المجرد وجهاً لوجه ، فلابد له اذن من تعلم الاعتماد على المفاهيم والمقولات العلمية • ويضيف انجلس أنه اذا ما توفرت ملكة التفكير النظري لدى العالم كميزة فطرية فلا جدال في وجوب تطوير هذه الملكة وتحسينها • وليس ثمة طريق آخر هنا غير تعلم الفلسفة • ان العلوم التشخيصية من فيزياء وكيمياء وبيولوجيا •• الخ لاتهتم بتحليل نظرية معرفة المفاهيم العلمية ، ولا تبحث طابع العلاقات المتبادلة فيما بينها • ان الفلسفة وحدها هي التي تمنح التفكير النظري الطريقة الضرورية له • ان لدراسة المادية التاريخية أهمية بالغة من أجل اتقان فن استخدام المفاهيم العلمية ، ومن أجل امتلاك ناصية طريقة التفكير العلمي • اذ أنه لدى دراسة الظواهر الاجتماعية لايمكن اللجوء الى التجربة في الظروف المخبرية الاصطناعية كما هي الحال بالنسبة للعلوم الطبيعية • فلن يساعد هنا في شيء لا المجهر ولا التفاعلات•

ولذا فان القدرة على التجريد تتمتع بأهمية فائقة في بحث الظواهر الاجتماعية • ففي فهمنا للمادية الديالكتيكية والمادية التاريخية لانتوصل الى فهم وحدةوتكامل فلسفتنا وحسب ، وانما يكمن في ذلك أيضاً سر تفوقنا في أي مجال من مجالات النشاط العلمي والعملي ـ في التفكير النظري وفي الحياة الاجتماعية •

مفاهيم المادية التاريخية

ان للمادية التاريخية ـ كأي علم آخر ـ مفاهيمها الخاصة التي ندعوها مقولات • فكل مقولة منها مفهوم وليس كل مفهوم مقولة •

ان المقولات هي المفاهيم الأساسية في هذا العلمأو ذاك التي تعكس جوانب جوهرية معينة من الموضوع • وان موضوع بحث أي علم ـ ولاسيما المجتمع ـ يمثل وحدة الجوانب المختلفة والروابط والصلات الكثيرة المتنوعة • ولهذا فمن الطبيعي أن يكون في حكم المستحيل نقل موضوع البحث بكل غناه وجوانبه وروابطه الى الفكر بمساعدة مفهوم واحد • ان مجموعة المفاهيم التي يقدم كل منها جانباً من جوانب المعرفة النظرية للموضوع هي وحدها التي تتيح لنا نقل الواقع المجسم الى الفكر في كل تنوعاته ، وفي عملية الحركة والتطور • ان المقولات هي نتيجة لتحليل وتقسيم الموضوع وتكون بمثابة الدرجات في سلم المعرفة • والمقولات ليست نتاجاً ارادياً لعقل الانسان ، بل هي انعكاس لجوانب وصفات وعلاقات موضوع البحث المعينة في الوعي •

ان ضرورة وضع المقولات مشروطة بالدور الذي تضطلع به هذه المقولات في معرفة قوانين العالم الموضوعي • ومن المعروف أن مهمة المعرفة ليست فيالنقل البسيط للموضوع الى الفكر ، بل في اكتشاف قوانينه الخاصة وعلاقاته وروابطه الجوهرية • الا أن جوهر الشيء وقوانينه الخاصة لايمكن أن تصادف على سطح الظواهر ، وانما هي كامنة بعيداً عن تناول الحواس • ولذا فلا بد من النفاذ النظري الى جوهر الشيء وتثبيتالدرجة الحاصلة من المعرفة « بمسامير » المقولات • ان القوانين الموضوعية تعبر عن العلاقة بين جواهر الأشياء • وهي تنعكس في الفكر كقوانين للعلم ، ويعبر عنها من خلال المقولات • وهكذا اتضح

لدينا أن وضع المقولات انما هو منطلق منطقي لصياغة قوانين العلم .

ان خصائص موضوع المادية التاريخية تحدد خصائص مقولاتها . فالمجتمع هو موضوع للبحث من نوع خاص . ولذا فان مقولات العلوم الطبيعية الموضوعة على أساس تحليل ظواهر الطبيعة لايمكن استخدامها من أجل تفسير الحياة الاجتماعية لأنها لاتعكس خصائصها . ان اختلاف المجتمع النوعي كشكل خاص لحركة المادة لايمكن أن تكشفه وتعبر عنه مقولات الرياضيات أو الفيزياء والكيمياء أو البيولوجيا . ولذا فان الماركسية ـ اللينينية تعتبر كل محاولة لتفسير الظواهر الاجتماعية بمساعدة مفاهيم « الاصطفاء » و « التجانس والتضاد » ، وميزان الطاقة وغيرها مجرد تقولات فارغة .

لكن مفاهيم العلوم الطبيعية ليست وحدها فقط عاجزة عن عكس خصائص الحياة الاجتماعية والتعبير عنها ، بل ومفاهيم المادية الديالكتيكية نفسها على اتساعها وشمولها تقصر عن القيام بهذا الدور على أكمل وجه . لذلك فالمادية التاريخية ، في سير معرفة الحياة الاجتماعية ، تضع مفاهيمها مستخدمة في ذلك منجزات علم الاجتماع السابق لماركس ، وكذلك معطيات العلوم الاجتماعية التشخيصية . وهي ، اذ تستخدم مقولات المادية الديالكتيكية ، تطبقها بالنسبة للمجتمع وتملأها نوعياً بالمحتوى الاجتماعي . فمثلا ، ان التغييرات الكمية والكيفية تبرز في المجتمع بشكل عمليات تدريجية وثورية ، أي بشكل اصلاحات وثورات ، وان مفهومي « الواقع » و « الوعي » يطبقان في المادية التاريخية كمقولتين ـ « الواقع الاجتماعي » و « الوعي الاجتماعي » ...الخ.

ان موضوع البحث هو الذي يحدد كمية المقولات في المادية التاريخية . وان أهم المقولات تلك التي تعكس اما الجوانب الجوهرية للحياة الاجتماعية والعامة لكل مراحل التطور التاريخي (مثلا ، الواقع الاجتماعي والوعي الاجتماعي ،أسلوب الانتاج ،توزع السكان ، القاعدة والبنيان الفوقي .. الخ)، أو الوحدة الداخلية للمجتمع وتكامله في كل مرحلة من مراحل تطوره (مثلا ، التشكيلة الاقتصادية الاجتماعية أو « نظام المشاعة البدائية ») . وعلاوة على ذلك ثمة مقولات أخرى في المادية التاريخية تعكس جوانب الحياة

الاجتماعية ، وهي ليست عامة لكل التشكيلات وانما خاصة ببعضها فقط ، لكنها ذات أهميـــة جوهرية من أجـــل فهم تطورها (مثلا ، الطبقات ، الدولة ، السياسة ، الحق ••• الخ) •

ان المجتمع يتبدى لعين فكر الانسان كشبكة معقدة من الظواهر والأحداث والعمليات الكثيرة المترابطة • لقد كتب لينين : « ان المقولات هي درجات معينة في الفرز ، أي في معرفة العالم ، وهي مراكز عقدية في الشبكة تساعد عـلى معرفتها وفهمها »[١] •

ان المقولات المادية التاريخية ، اذ هي نتيجة لتحليل الحياة الاجتماعية وللنفاذ الى جوهرها ، تبرز كحصيلة معينة للمعرفة • وهي ، الى جانب ذلك ، تبرز كنقاط استناد في حركة المعرفة من المجهول الى المعلوم ، وكوسيلة لفهم التنوع الحقيقي للحياة الاجتماعية • وبكلمة موجزة ، ان المقولات هي حصيلة للمعرفة ووسيلة لها في آن واحد •

ان الفهم المادي للتاريخ هو ، في الوقت نفسه ، فهم ديالكتيكي له • وهذا يعني أنه لايجوز جعل مقولات المادية التاريخية مطلقة أو معالجتها كحقائق نهائية خالدة • فالأمر غير ذلك ، اذ علينا أن ندرسها ديالكتيكياً • ان المقولات المرنة وحدها هي القادرة على عكس ديالكتيك الحيـاة الاجتماعيـة وتنوع ظواهرها • وان مقولات المادية التاريخية ، اذ تعبر عن نسبية معارفنا ، ينبغي أن تدرس هي نفسها كمقولات نسبية ، وهذا ليس فقط لأن كل مقولة منها لاتعطينا تصوراً كاملا عن المجتمع ، بل ولأن مجموعة معينة من المقولات لايمكن أن تقدر في يـوم من الأيـــام على اعطائنا تصوراً قاطعاً كامـلا لكل تنوع التاريخ الانساني •

وأخيراً ، من أجل فهم مقولات المادية التاريخية لابد من الأخذ بعين الاعتبار أن المادية التاريخية ، بخلاف العلوم الاجتماعية الأخرى ، هي علم فلسفي ، وجزء أساسي من النظرة العلمية عن العالم ككل • ومن هنا ينتج أن

---

(١) لينين • المؤلفات • الجزء ٣٨ ص ١٩ •

مقولات المادية التاريخية ، كمقولات المادية الديالكتيكية ، هم المفاهيم الأساسية لذلك العلم الذي لايعطينا تصوراً مجسماً لموضوع البحث ، وانما يخدم كنظرية وطريقة لمعرفته • ان لمقولات المادية التاريخية أهمية كبرى من أجل معرفة الحياة الاجتماعية ، وبالتالي ، من أجل الاهتداء بهذه المعرفة في التطبيق العملي • لكنما هذه الأهمية ليست في قدرتها على أن تكون أساساً للنتائج النظرية والقرارات التطبيقية •

ان المقولات وقوانين المادية التاريخية المثبتة بمساعدتها تسلمنا الخيط الذي يقودنا الى المعرفة ، فيساعدنا بذلك على تصور الواقع المجسم بمجموعه وبجوانبه المختلفة والمتفرقة • ولهذا ، فليس من المقولات بالذات ، وانما من دراسة الوضع المجسم والمحلل بمساعدة مقولات وقوانين الفلسفة فقط ، يمكن استخلاص نتائج نظرية صحيحة قادرة على أن تنير الدرب أمام التطبيق العملي وتوجهه • وهذا مايفسر لنا كون المادية التاريخية مبنية هكذا بحيث ، أولا ، تعرفنا على المقولات الأساسية للعلم من وجهة نظر محتواها الموضوعي ؛ ثانياً ، تدرس المقولات من وجهة نظر قيمتها الطرائقية في معرفة وتمثل الحياة الاجتماعية ، ثالثاً ، تبين أهمية المقولات في صياغة قوانين العلم ، ومن أجل فهم الوحدة والتنوع والرابطة الداخلية والتكامل في العملية التاريخية •

٣ ـ خصائص ظهور وتطور المادية التاريخية

بما أن المادية التاريخية تؤلف جزءاً من الفلسفة الماركسية فان خصائص ظهور الماركسية ككل ترتبط بكليتها بظهور المادية التاريخية • لكنه حينما ندرس مسألة ظهور المادية التاريخية علينا أن نبين تلك الأسباب التاريخية التي كانت تحدد سيطرة المثالية دونما منازع في فهم المجتمع ، وتستدعي امكانية وضرورة حدوث انعطاف جذري في النظرة الى التاريخ ضمن ظروف معينة • وفوق هذا ، فان للمادية التاريخية منطلقاتها النظرية الخاصة ، ووجودها كان مرتبطاً بظهور مبادىء جديدة في العلم الاجتماعي •

الظروف الاجتماعية لظهور المادية التاريخية

ان المادية الديالكتيكية هي استمرار وتطور لخط المادية السابقة ، أما الفهم المادي للحياة الاجتماعية فقد أوجده لأول مرة كل من ماركس وانجلس • فما هي الأسباب التي كانت تشرط امكانية وضرورة ظهور الفهم المادي العلمي للتاريخ ؟ من أجل الاجابة عن هذا السؤال علينا ، قبل كل شيء ، أن نلتفت الى ظروف العصر التاريخية الموضوعية التي وجد فيها •

فالتجربة تؤكد أن كل عصر تاريخي يتيح امكانيات معينة من أجل معرفة الطبيعة وكذلك المجتمع • فقبل الرأسمالية وفي المراحل المبكرة الأولى من تطورها كانت امكانية المعرفة العلمية لعلاقات الناس الاجتماعية الخاصة جد محدودة وضيقة • ومع تطور الرأسمالية فقط نضجت الظروف المادية للحياة الاجتماعية لدرجة صارت معها معرفة الأساس المادي والقوى المحركة الرئيسية للعملية التاريخية ، أو بالأحرى ، صار معها الفهم العلمي للعملية التاريخية ككل ممكناً من الناحية التطبيقية العملية •

ولقد كتب انجلس في هذا الصدد : « ••• اذا كان بحث هذه الدوافع المحركة للتاريخ في كل الفترات السابقة مستحيلا تقريباً لكون الروابط بين تلك الدوافع ونتائجها مخفية ومتشابكة ، فان هذه الروابط أضحت في وقتنا هذا على درجة من البساطة تمكننا أخيراً من حل هذا اللغز »[١] •

وتجدر بنا الاشارة الى بعض العوامل الأساسية التي تميز الظروف الجديدة للعلم الاجتماعي ، وأوجدها تطور الرأسمالية •

أولا ، ان الرأسمالية ، اذ أضفت على عملية الانتاج الطابع الاجتماعي ، قطعت تلك الأواصر المتينة بين فروع الانتاج المختلفة (الصناعة ، الزراعة وغيرهما) ، مما أوجد منطلقات ضرورية لتحليل تطور الانتاج المادي بصورة مستقلة عن أشكاله الخاصة • والى جانب هذا فان الانقلاب الصناعي كشف بجلاء عن الدور العظيم للانتاج في تطور الحياة الاجتماعية •

---

(١) ماركس وانجلس • مؤلفات مختارة ، ١٩٥٥ الجزء ٢ ص ٣٧٣ •

ثانياً ، ومع تطور الرأسمالية تتكون تدريجياً السوق الرأسمالية العالمية ونظام الاقتصاد الرأسمالي العالمي الذي يحطم أشكال الحياة القديمة المتحجرة• وبموجب ذلك يقضى على انعزالية الشعوب أو البلدان ، فتنجرف بلدان مختلفة مع المجرى العام للتطور الرأسمالي ،وتظهر الأمم الحديثة ، وتتوضع بينها شتى أنواع العلاقات • ولقد أكد لنا هذا أيضاً أن تاريخ الانسانية جمعاء واحد ، وأن كل شعب من الشعوب لابد ملاق سلسلة كاملة من المراحل القانونية للتطور التاريخي • وظهرت الامكانيات الواسعة لمقارنة تاريخ الشعوب المختلفة ، ومن ثم لفرز كل ماهو عام في النظم السياسية والاقتصادية للبلدان المختلفة ، ولايجاد تكرار مقونن[1] في العلاقات الاجتماعية ، وقمين بنا أن نتذكر هنا كلمات انجلس عن أن « المادية المعاصرة ترى في التاريخ عملية تطور الانسانية ، اذ أن مهمته هي في اكتشاف قوانين الحركة لهذه العملية »[2] •

ثالثاً ، ان الانتقال الى الرأسمالية المرتبط بالانقلابات الثورية العاصفة في كل ميادين الحياة من الانتاج حتى الايديولوجيا ، وبالصدام الدامي العنيف بين الطبقات الأساسية في المجتمع ، كشف بجلاء عن أن المجتمع يتطور ولا يراوح في المكان ، وأن القوى الاجتماعية الجبارة تتصارع في التاريخ ، وأن الذي يحرك تطور المجتمع ليست ارادة بعض الأفراد ، بل الصدام والصراع بين الطبقات الاجتماعية الهائلة • وبالطبع كان ثمة نضال بين الطبقات في العصور السابقة • لكنه سابقاً ، في النظام الاقطاعي ، مثلا ، كان انقسام المجتمع الى فئات تفصل بينها حواجز صارمة يغطي التقسيم الطبقي الأساسي للمجتمع ، وكان النضال الطبقي يسير تحت راية الدين مما زاد في صعوبة فهم دوافعه الحقيقية • أما الرأسمالية فقد حطمت هذا التمايز الفئوي وتلك الحواجز ، وصار الانقسام الطبقي للمجتمع أكثر وضوحاً • فقد انقسم المجتمع الرأسمالي الى طبقتين أساسيتين : البورجوازية والبروليتاريا ، وتقدم الصراع بينهما ليحتل مكان الصدارة في الحياة الاجتماعية •

---

(١) مقونن أي خاضع لقوانين موضوعية علمية ، رأيناها أصلح كلمة تناسب هذا المعنى • المعرب •
(٢) انجلس • « أنتي دهرينغ » موسكو ١٩٥٧ ص ٢٥ •

رابعاً ، في النضال ضد ملاكي الأراضي في الثورات البورجوازية ، ولاسيما في نضال البروليتاريا ضد البورجوازية ، تكشفت الأسس الاقتصادية للنضال ، وبرزت تلك الحقيقة القائلة بأن النضال يقوم على أساس من الدوافع الاقتصادية . وهذا ، بالطبع ، مما اضطر العلماء للبحث عن الدوافع الأساسية للأحداث التاريخية في اقتصاد المجتمع .

ولذا ، فالرأسمالية ، اذ أحدثت انقلاباً في ظروف حياة الناس ، خلقت المنطلقات الموضوعية من أجل النفاذ الى جوهر العملية التاريخية ، ومن أجل معرفة قوانينها .

لكن تطور الرأسمالية لم يعط امكانيات جديدة من أجل المعرفة الاجتماعية وحسب ، وانما طرح مسألة خلق علم صحيح عن المجتمع أيضاً .

لقد وضع هذه المسألة تطور نضال البروليتاريا الطبقي ضد البورجوازية .

ان ايديولوجيي البورجوازية تمكنوا الى حد ما من استخدام الامكانيات الجديدة لتطوير العلم الاجتماعي ، وهذا أيضاً كان ينحصر في حدود المراحل الأولى من تطور هذا المجتمع حيث كانت تناقضات الرأسمالية لاتزال أجنّة في رحمه . وحينئذ ظهر الاقتصاد السياسي الكلاسيكي الذي كان يبحث مجموعة من القوانين الرأسمالية . ومع التطور التالي للرأسمالية أخذت تتسع الامكانيات الموضوعية لمعرفة قوانينها ، وفي الوقت نفسه ، أخذت تحتدم فيها التناقضات وتتكشف كل العيوب والنقائص . وفي تلك الظروف صارت المهمة الرئيسية للعلم الاجتماعي البورجوازي في تثبيت أسس الرأسمالية وتبريرها وفي ستر تناقضاتها ، ثم ما لبث هذا العلم أن سقط في طريق تزييف التاريخ وفقاً لمصالح البورجوازية .

ان استخدام الامكانيات الجديدة من أجل معرفة العملية التاريخية وخلق علم حقيقي صحيح عن المجتمع كان في مقدور ايديولوجيي تلك الطبقة التي تهتم بالمعرفة العلمية لقوانين التطور الاجتماعي وحدهم .

وتلك الطبقة هي طبقة البروليتاريا .

ان البروليتاريا هي طبقة كل الشغيلة التي تنمو وتشتد مع تطور المجتمع الرأسمالي • وان وضعها في المجتمع الرأسمالي يجعلها طبقة معادية لأسس الرأسمالية • والى جانب هـذا فالبروليتاريا لاتملك شيئاً ، ولاتفقد شيئاً غير قيودها • ولذا فهي الطبقة الثورية حتى النهاية والقادرة على شن نضال لا هوادة فيه ضد الاستغلال والاستعباد • ويمكن تحديد آفاق هـذا النضال ونتيجته الحتمية بالانطلاق فقط من معرفة القوانين الاقتصادية لتطور المجتمع • ولذا فالبروليتاريا شدّ ما تهتم بتلقي المعارف العلمية عن القوانين الموضوعية لتطور المجتمع •

ومع تطور الرأسمالية تزيد حدة تناقضاتها وتحتدم • ففي المراحل الأولى نسبياً من تطورها اصطدم الانتاج الرأسمالي الاجتماعي بالأطر الضيقة للملكية الرأسمالية مما أدى الى ظهور الأزمات الدورية • ان المزاحمة والفوضى في الانتاج ، والأزمات الدورية ، والاضطهاد القومي والطبقي ، وغيرها من تناقضات الرأسمالية وضعت أمام المجتمع مهمة ايجاد طرق ووسائل القضاء على تلك التناقضات • ولقد بلغ الانتاج في ظل الرأسمالية مستوى معيناً أدى الى ظهور الحاجة لادارته ادارة واعية على نطاق المجتمع كله • ولم يعان المجتمع مثل هذه المشكلة في عصر من العصور السابقة • الا أنه في ظروف النظام الرأسمالي، وفي ظل سيادة الملكية الخاصة لايمكن اخضاع الانتاج للتخطيط والبرمجة • ومن أجل ذلك كان لابد من خلق نظام يرتكز على الملكية الاجتماعية لوسائل الانتاج • وان تطور الانتاج الرأسمالي هو الذي يخلق المنطلقات المادية لمثل هذا النظام ، ولذا ، فان تحرر البروليتاريا والمجتمع بأسره من الملكية الخاصة والاستغلال لم يعد مجرد حلم طوباوي ، بل تحول الى مهمة ناضجة قابلة للتنفيذ ، ويجري تنفيذها في سير النضال الطبقي الثوري الذي تشنه البروليتاريا وحلفاؤها الطبقيون ضد البورجوازية •

ان الشرط الموضوعي لتحرر البروليتاريا ، والنتيجة الحتمية لنضالها الطبقي ، هو القضاء على الرأسمالية وبناء الاشتراكية • الا أن العلاقات الانتاجية الجديدة هنا لاتظهر بشكل عفوي في أحضان المجتمع القديم كما هو الأمر

بالنسبة للعلاقات السابقة • ان على البروليتاريا القيام بالثورة ، وتحطيم القديم ، وبناء علاقات انتاجية جديدة • ومن أجل هذا لابد لها من معرفة مايجب عليها بناؤه وكيف تبنيه ، أي لابد لها من معرفة القوانين الموضوعية لتطور المجتمع •

ولذا ، فان اكتشاف القوانين الموضوعية للتاريخ ، ولاسيما قوانين تطور اقتصاد المجتمع ، يغدو ضرورة عملية للبروليتاريا في ظل الرأسمالية •

ان استخدام طبقات الماضي التقدمية للقوانين الاقتصادية وفقاً لمصالح المجتمع قبل الاشتراكية كان محدداً بالظروف التاريخية لوجودها وبحدود مصالحها الطبقية الضيقة • كما أن عمل تلك الطبقات التطبيقي كان يحدده الشيء ذاته مما لم يولد الحاجة الى خلق علم اجتماعي حقيقي لأن العلاقات الانتاجية الجديدة كانت تظهر بشكل عفوي في قلب النظام القديم • أما مايتعلق بالبروليتاريا فان مصالحها الطبقية ليست أنانية وانما هي تلتقي مع مصالح الأكثرية في المجتمع ، ومع المصالح الجذرية لكل الجماهير الكادحة ، وتنسجم مع السير الموضوعي للتاريخ • وفي هذا يكمن الفرق الأساسي بين البروليتاريا وغيرها من الطبقات الأخرى التي قامت في التاريخ بانقلابات في علاقات الانتاج• ان مصالح البروليتاريا لاتقتضي تشويه قوانين التطور الاجتماعي ، بل تقتضي معرفتها معرفة موضوعية صحيحة • ولهذا بالذات ظهر ايديولوجيا البروليتاريا مؤسسا المادية التاريخية ـ ماركس وانجلس •

وهكذا فبظهور الانتاج الرأسمالي ، وبتطور النضال الطبقي للبروليتاريا توفرت الامكانية لضرورة ظهور الفهم العلمي للتاريخ • وتتجلى عظمة عبقرية ماركس في أنه ، بعد أن رمى بالنظرات المثالية التقليدية القديمة ، أفرد جناح المادية لتشمل فهم التاريخ ، واكتشف قوانين تطور المجتمع ، وهو ، اذ أوجد الفهم المادي العلمي للتاريخ ، أوجد بذلك الحل العلمي لمسألة العصر الراهنة •

ان المادية التاريخية ، كجزء متمم للفلسفة الماركسية ، هي علم متحزب يعبر عن مصالح البروليتاريا ومصالح نضالها الطبقي الموجه لتحرير المجتمع من الاستغلال ومن الملكية الخاصة • لكن حزبية المادية التاريخية تتميز بشكل

جذري عن حزبية علم الاجتماع البورجوازي التي تتجلى في خدمته المصالح البورجوازية ، وفي اخفائه للتناقضات الطبقية في المجتمع الرأسمالي ، وتبريره للعلاقات الرأسمالية ، ولذا فهو يسلك طريق تشويه الواقع التاريخي • ان حزبية المادية التاريخية تنسجم مع مهمة المعرفة العلمية للعلاقات الاجتماعية ، لأن البروليتاريا تهتم بالمعرفة الموضوعية لتناقضات الحيــاة الاجتماعية وبايجاد طرق حل هذه التناقضات التي تدفع بحركة المجتمع الى الأمام •

المنطلقات النظرية للمادية التاريخية

ان ماركس وانجلس حينما أوجدا المادية التاريخية كانا يعتمدان كذلك على المنجزات المعروفة للفكر الفلسفي الاجتماعي الماضي • ولم يك ظهور المادية التاريخية ممكناً بدون المقاطعة الحاسمة للمثالية التي كانت مسيطرة في علم الاجتماع والتاريخ الماضيين ، وبدون المحافظة على الأفكار القيمة في ذينك العلمين • فما هي العيوب الأساسية في العلوم الاجتماعية السابقة لماركس وماهو الايجابي فيها ؟

ان العيب الرئيسي والجذري في كل من علم الاجتماع والتاريخ السابقين لماركس هو طابعهما المثالي •

ان الفهم المثالي للتاريخ ينطلق من القول بأن الــدور المحدد في حــياة وتطور المجتمع تضطلع به بداية ما روحيــة ، وأن أساس الحياة الاجتماعية والقوة الرئيسية في التاريخ هي اما الهية واما عائدة الى وعي الانسان بالذات • ان المثالية التاريخية ، اذ تؤكد أولية الوعي ، تقلب العلاقة الحقيقية بين الواقع الاجتماعي والوعي الاجتماعي رأساً على عقب ، وتخلق تصوراً معكوساً عن المجتمع وعن جوانبه المتفرقة ، وعن الرابطة الداخلية بين الظواهر الاجتماعية ، وعن السير الواقعي للتاريخ ، وعن القوى المحركة للعملية التاريخية وقوانينها• ولقد برهنت المادية التاريخية على أن الفهم المثالي للتاريخ انما هــو نظرة غير علمية ، ويعكس الحياة الاجتماعية بصورة شوهاء • ان الفهم المثالي للتاريخ لايعطينا المقياس الموضوعي للتفريق بين الرئيسي والثانوي ، بين الجوهري

والفرعي في الظواهر الاجتماعية والأحداث التاريخية ، ويقحم في دراسة التاريخ كلا من الارادية والذاتية •

« الآراء تقود العالم » • ـ ان هـذا القول خير معبر عن حقيقة النظرة المثالية الى التاريخ •

وللفهم المثالي للتاريخ جذوره المعرفية والطبقية • ان الناس هم الذين يصنعون التاريخ ، وان كل تصرفات الناس تمر عبر وعيهم • فمن هـذه الحقيقـة القائلة بأن كل تصرفات الناس تحدث بمشـاركة الوعي يخلص المثاليون الى الاستنتاج الخاطىء والقائل بأن علينا أن نبحث في وعي الانسان بالذات ، في روحه ، عن الدافـع الأساسي للأحداث التاريخية ، وبأن كـل التبدلات التاريخية مصدرها تلك التبدلات في حقل الايديولوجيا والسياسة ، وبأن الوعي هو صاحِب الدور الحاسم في التاريخ •

وقد يكون الفهم المثالي للتاريخ ممكناً عندما يبدو لنا التاريخ لأول وهلة كنتيجة لسلوك الناس الذين تحركهم دوافع مثالية • الا أن المثالية التاريخية تتشبث بهذا الطرف لتجعل منه الحقيقة الجوهرية ، ثم تنفخ الجانب الروحي المثالي للنشاط الانساني وتضخمه لتجعله مطلقاً ، ومن ثم لتحوله الى أساس للحياة الاجتماعية •

ان الجذور المعرفية للمثالية من شأنها فقط أن تكشف عن امكانية الفهم الخاطىء للتاريخ • وان وجود وسيطرة الاتجاه المثالي في علم المجتمع قبل ماركس لم يكن نتيجة للخطأ والضياع ، والا لكان منذ أمد قيد الفناء • وان سيطرة المثالية تنبثق من الظروف والشروط العامة لوجود وتطور المجتمع الطبقي •

ومع فصل العمل الذهني عن العمل العضلي تقع أعباء هذا الأخير كلها على كاهل الجماهير الكادحة ، بينما تحتكر الطبقات المستغلة امتياز العمل الذهني • ان الطبقات المستغلة لاتشترك مباشرة في عملية الانتاج المادي ، وانما تقوم بادارة الانتاج والتبادل ، ودفة الحكم ، وتحدد سياسة الدولة والقوانين والايديولوجية المسيطرة ••• الخ •

ان المثالية التاريخية ، اذ تعكس هذا الوضع بشكل شائه ، تصور نشاط الجماهير كشيء ما ثانوي لا جوهري عديم المعنى والفائدة • غير أنها تصور نشاط الطبقات المستغلة وممثليها من ايديولوجيين ومشرعي القوانين وساسة وقادة عسكريين وغيرهم كأساس للعملية التاريخية • وبمثل هذه الطريقة يتحول التاريخ الى دراسة « للعظماء » ويغفل شأن الدور الذي تضطلع به الجماهير الشعبية ، وتبرر علاقات الاستغلال والسيطرة وتصور بأنها ضرورية وخالدة •

ان الزعم القائل بالاستقلال المطلق لحياة المجتمع الروحية والمرتبط بتقسيم العمل الى ذهني وعضلي ، شيد ماينسجم مع مصالح الطبقات الاستغلالية لأنه لايخفي ارتباط ايديولوجيتها بمصالحها الطبقية ، بل يساعد على التكهن بأنها ايديولوجية انسانية عامة •

ومن جهة أخرى ، فان الفهم المثالي للتاريخ يمكن أن يخدم كأساس للقدرية التي يكون سير التاريخ بموجبها تنفيذاً لمشيئة الاله ، وأن مصائر الناس مكتوبة سلفاً ، وأن على الانسان أن يذعن للمصير اذعاناً أعمى • وان هذه النظرات تبث السلبية في الجماهير وتجردها من الحول وتعلمها الخضوع والاستسلام ، وفي هذا يكمن ضررها ورجعيتها •

ثم ان الطبقات الاستغلالية المسيطرة تهتم بعرقلة تطور النضال الطبقي الثوري للجماهير المضطهدة • ان الفهم المثالي للتاريخ يستخدم من قبل الطبقات المسيطرة كأساس لنفي العمل الثوري نظرياً ، كوسيلة لحل تناقضات الحياة الاجتماعية في المجتمع الطبقي • وبما أن أساس الحياة الاجتماعية من وجهة نظر المثالية التاريخية هو الأفكار والوعي ، فان كل التغيرات في الحياة الاجتماعية يمكن أن تحدث ، قبل كل شيء ، عن طريق التغير في وعي الناس ومفاهيمهم وقواعدهم الأخلاقية ••• الخ ، وليس عن طريق العمل الثوري • وبهذا « يؤسس » ايديولوجيو الطبقات المسيطرة علاقتهم العدائية للنضال الطبقي ، ويفزعون منه الى التعاليم المنافقة الكاذبة حول

« الكمال الأخلاقي » وحب الأقارب وما أشبه ذلك . وان هذه الأفكار تستخدم في وقتنا الحاضر من قبل بعض النظريين الاشتراكيين اليمينيين من أجل النضال ضد الماركسية الثورية .

وهكذا ، فان الفهم المثالي للتاريخ ينسجم مع مصالح الطبقات الاستغلالية . والمثالية التاريخية تسلم تلك الطبقات سلاحاً روحياً من أجل التبرير النظري لسيطرتها ولاحتقارها لدور الجماهير الشعبية في التاريخ ، ومن أجل وضع الأساس النظري لسياستها وايديولوجيتها واخفاء جوهرها المتحزب ، ومن أجل نفي أية قيمة للعمل الثوري ... الخ .

ولذا فان ظهور المثالية التاريخية لم يكن وليد صدفة ، وانما له قوانينه الموضوعية ، اذ أن مصالح الطبقات الاستغلالية هي التي استدعت ظهورها ، وليس ثمة ايديولوجي واحد من ايديولوجييها يقدر على تأييد الفهم المادي للتاريخ بدون قطع كل علاقة له مع المثالية التاريخية .

ولماذا اذن بقي الى جانب الفهم المثالي للتاريخ مفكرو الماضي الذين كانوا يدافعون الى هذا الحد أو ذاك عن مصالح الجماهير الكادحة ويعكسونها في مؤلفاتهم ؟ ان هذا يعود الى أنه قبل الرأسمالية لم تكن قد نشأت بعد الظروف الضرورية للقضاء على الاستغلال . ولقد كان سعي الكادحين للتحرر من ظلم المستغلين يصطدم بعدم نضوج الظروف المادية ، وبعدم توفر الايديولوجية التي تعكس مصالح الطبقات الكادحة ، مما أدى الى حتمية ظهور الطوباوية . ولم يكن في وسع ايديولوجيي تلك الطبقات ، بعد ، أن يتناولوا الحياة الاجتماعية بالدراسة العلمية ، ولذلك كانوا أعجز من أن ينهضوا الى مستوى الفهم المادي للتاريخ .

وهكذا ، فان عدم نضوج الظروف المادية من جهة ، ونزعة الطبقات الاستغلالية الى التمويه من جهة أخرى ، كانا شرطين أساسيين لسيطرة الفهم المثالي للتاريخ قبل ماركس .

تلكم هي حقيقة النظرة المثالية الى التاريخ وتلك جذورها . لكن هذه الدراسة العامة لاتنفي وجود فوارق جوهرية بين النظريات الاجتماعية المتفرقة

ضمن نطاق النظرة المثالية الى التاريخ • لقد ظهرت المثالية التاريخية في التاريخ في أشكال مختلفة ولعبت أدواراً مختلفة أيضاً لأنها كانت مرتبطة بالقوى الاجتماعية الرجعية والتقدمية • ولذا فان دراسة هذه النظريات المثالية أو تلك ينبغي أن تكون دراسة تاريخية محددة •

ففي المجتمع القديم كان ثمة نظرات أخرى تتعارض مع النظرات المثالية للمؤرخ هيرودوت ولفلاسفة المدرسة الفيثاغورثية الذين كانوا يؤكدون أن التاريخ ، وبالتالي ، مصائر الناس تحدد مباشرة من قبل الآلهة • انها نظرات الفلاسفة القدماء الكبار : ديموقريط ، ابيقور ، ولوكريستي الذين كانوا ينفون تدخل الآلهة في شؤون الناس • فالناس ، لا الآلهة ، هم الذين يصنعون التاريخ يوجههم في ذلك وعيهم الخاص • فلقد أكد ديموقريط أن الذي علم الانسان الحرفة والفنون ليس الاله وانما الحاجة ، وتحت تأثير الحاجة تطورت ثقافة الناس • وكل أولئك المفكرين لم يتعدوا حدود المثالية التاريخية ، اذ هم كانوا يدافعون ، الى هذا الحد أو ذاك ، عن العبودية • غير أن نظرات ديموقريط وابيقور ولوكريستي كانت تقدمية بالنسبة لذلك العصر ، ولقد أفادت في تجميع المعارف التاريخية • وفي المجتمع القديم ، وضمن حدود الفهم المثالي للتاريخ ، كانت ثمة اتجاهات مختلفة تعكس الصراع الذي كان قائماً بين الديموقراطية والارستقراطية العبوديتين •

وفي عصر الاقطاع سادت النظرة الدينية الى التاريخ • فلقد تولدت من السعي الى تبرير النظام الاقطاعي ، وايهام الجماهير بأن مشيئة الاله هي التي فرضته ، وبأن سيطرة الاقطاعيين والكنيسة تعتمد على مشيئة الله •

ولقد أسدل ايديولوجيو الاقطاعية الوشاح المقدس على المؤسسات الاقطاعية لتبرير استغلالهم ونهبهم للشعب • ولقد أدت سيطرة الايديولوجية الدينية الى جعل نضال القوى التقدمية ــ انتفاضات الفلاحين والأوساط الدنيا في المدينة ــ يجري أيضاً تحت راية الدين : انتفاضة توماس ميونتسر في ألمانيا •• وغيرها•

ومع تطور العلاقات الرأسمالية والنضال الذي تطور على هذا الأساس

ضد الاقطاعية وسندها الايديولوجي ـ الكنيسة ـ ترتبط المحاولات التجدية الأولى لدراسة الظواهر الاجتماعية دراسة علمية ، ولمناقشة سير التاريخ نظرياً. فقد احتدم النضال الحاسم ضد الاقطاعية في فرانسا في القرن الثامن عشر . وكانت ايديولوجية المنورين والماديين الفرنسيين أوضح تعبير له . لقد وضع ممثلو البورجوازية الناهضة كثيراً من النظريات التقدمية في ذلك العهد .

لقد عارضوا مبدأ الاعتقاد الكنسي بالقياس العقلي ، وناقشوا الاقطاعية كنظام اجتماعي هرم ، وطالبوا بضرورة تغييرها الى نظام اجتماعي ينسجم مع العقل . وفي الواقع لم تكن مملكة العقل التي كانوا ينطلقون منها ويمجدونها الا مثالية المجتمع البورجوازي الناشيء[1] .

الا أنهم لم يتمكنوا من الوصول الى مستوى الفهم المادي للتاريخ ، بل كانوا لدى تفسيره يرجعونه الى تطور آراء الناس ووعيهم . ان البناء الاجتماعي العادل يرتبط ، في رأيهم ، بانتشار المعرفة والتنوير ، وبوجود رجال التشريع وغيرهم . وهم ، اذ لم يفهموا التاريخ كعملية مقوننة ، كانوا يعتبرون أن القرون الوسطى جاءت نتيجة للجهل والضياع .

أما في روسيا فان الايديولوجية البورجوازية لم تجد تعبيراً لها في نظم فلسفية أصيلة ، وان الديموقراطيين الثوريين الذين كانوا يعكسون مصالح جماهير الفلاحين هم وحدهم الذين قالوا الكلمة الجديدة في الفلسفة .

وفي عصر الامبريالية يقف علم الاجتماع البورجوازي نفسه لخدمة السياسة الامبريالية للدول البورجوازية ، ويستخدم من أجل النضال ضد الاشتراكية . ان علماء الاجتماع البورجوازيين ، اذ يسعون الى تقوية المجتمع الرأسمالي المتقهقر ، يبتدعون مختلف الطرق الرجعية لتخليص الرأسمالية من « قروحها » المميتة ، ولاسكات النضال الطبقي ، وللمحافظة على دعائم الرأسمالية وتثبيتها . وهم ، اذ يسعون جهدهم لنسف نضال الجماهير الثوري وحرمانها من وعي مصالحها الطبقية ، يحاولون المرة تلو الأخرى لدحض

(١) انجلس . أنتي دهورنيغ موسكو ١٩٥٧ ص ١٧ .

حقيقة الفهم العلمي للعملية التاريخية • ان قسماً من علماء الاجتماع البورجوازي يدعون الى اللا أدرية واللا عقلانية ، بينما يقوم فريق منهم ببعث أشد نظرات القرون الوسطى الدينية ظلاماً ورجعية •

ان الفهم المثالي للتاريخ هو الأساس النظري لعلم الاجتماع البورجوازي الرجعي • وهو يزول بزوال المجتمع البورجوازي ، بزوال آخر طبقة استغلالية ـ البورجوازية •

وان الدراسة التاريخية التشخيصية لعلم الاجتماع السابق لماركس تمكننا من كشف كل ماهو عقلاني وقيم في النظريات المثالية المختلفة مما يعتبر مكسباً حقيقياً للفكر الانساني جديراً بالبقاء ويساعد على خلق علم عن المجتمع •

فماذا أخذ ماركس من العلوم الاجتماعية السابقة ؟

ان الماديين الفرنسيين ، اذ انطلقوا من الموضوعة المادية القائلة بأن الافكار لاتخلق مع الانسان ، جاؤوا بمبدأ خصيب فحواه أن الانسان وآراءه ومطامحه ورغباته انما هو نتاج للوسط الاجتماعي • لكنهم ، فعلا ، عندما حاولوا الاجابة عن السؤال القائل : فماذا اذن يتحدد الوسط الاجتماعي ، وجدوا أنفسهم مع المثالية جنباً الى جنب اذ هم يؤكدون بأن الآراء هي التي تحدد الوسط • وبالرغم من أن وضع المسألة بهذا الشكل لا يحل قضية جوهر العملية التاريخية ولايكشف عن الأساس الذي يحدث فيه ذلك التأثير المتبادل بين الوسط الاجتماعي والأفكار الاجتماعية ، فانه ، على أية حال ، يضع الفكر الاجتماعي أمام ضرورة تحليل « الوسط » وكيفية تحديده للرأي الاجتماعي •

ثم ان الاقتصاد السياسي البورجوازي كان ذا أهمية كبرى ، ليس فقط من أجل خلق الاقتصاد السياسي الماركسي ، بل ومن أجل المادية التاريخية أيضاً • فلقد درس كبار ممثلي الفكر الاقتصادي السابق لماركس ـ آدم سميث وريكاردو وغيرهما ـ التركيب الاقتصادي للمجتمع الرأسمالي الناشىء والتشريح الاقتصادي لطبقاته ، وأوجدوا نظرية القيمة في العمل • ومع أنهم ظلوا مثاليين وميتافيزيكيين في فهم التاريخ ، ومع أنهم كانوا يبررون النظام البورجوازي ،

فقد كان تحليلهم للاقتصاد الرأسمالي يتضمن كثيراً من الافكار الاجتماعية الخصبة الرائعة •

ولقد أدرك المؤرخون الفرنسيون ـ تيري ، غيزو ، مينيه ـ أن في المجتمع طبقات من الناس ذات مصالح مختلفة ، وكانوا يحاولون فهم تاريخ الثورات البورجوازية كتعبير للصراع بين طبقتي البورجوازية والنبلاء الاقطاعيين • وبصرف النظر عن أهمية هذه الأفكار فقد بقيت نظرات أولئك المؤرخين جدّ محدودة وضيقة ، اذ أنهم لم يتمكنوا من كشف الدوافع الواقعية للانقسام الطبقي في المجتمع ، بل انهم كانوا يفسرون ظهور الطبقات كنتيجة للغلبة في ميادين ذلك الصراع •

كما أنه كانت ثمة عناصر عقلانية في نظرات الاشتراكيين الطوباويين العظماء في بداية القرن التاسع عشر • فلقد كانوا يبحثون عن القوانين في تبدل العصور التاريخية ، ويشيرون الى الدور الكبير الذي يلعبه الانتاج في حياة المجتمع ، وينتقدون عيوب الرأسمالية ••• الخ • فقد كتب سان ـ سيمون بصراحة أن الانتاج هو الهدف العقلاني الوحيد لكل بناء اجتماعي ، وكان يعتبر أن التنظيم السياسي للمجتمع يرتبط بمتطلبات الانتاج وبعلاقات الملكية • لكنه كان ، الى جانب ذلك ، يجعل التطور الصناعي مرتبطاً مباشرة بتطور العلم والمعارف ،أي أنه كان يعتبر التطور الفكري للانسان أساساً للتقدم الاقتصادي• وهو اذ بين ارتباط السياسة بالاقتصاد كان ينفي ، على هذا الأساس ، الدور الفعال للأحداث السياسية في التحولات الاقتصادية للمجتمع • ان الاشتراكيين الطوباويين لم يتعدوا مواقع الفهم المثالي للتاريخ •

ثم ان المثاليين الألمان ، بين القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ، الذين بلغت نظمهم الفلسفية مستوى رفيعاً في فلسفة هيجل أبرزوا الفكرة الديالكتيكية للتطور • فلقد اعتبر هيجل أن الناس يصنعون التاريخ لا بارادتهم الخاصة ، بل نظر الى تطور التاريخ كعملية حتمية مقوننة • لكنه ما عتم أن أضفى صبغة صوفية على هذه الحتمية بالذات معلناً أن العصور التاريخية المتتابعة ليست الا نتيجة لتطور الفكرة المطلقة • ثم ان هذه الضرورة أو الحتمية ـ في نظر

هيجل ـ ليست قوانين موضوعية للتاريخ ذاته وانما هي وافدة اليه من الخارج، من الفكرة المطلقة • وبالرغم من أن هيجل شـوه العملية الواقعيـة للتطور التاريخي ، فان نقده للنظرة الذاتية الى التاريخ القائلة بأن آراء المشرعين وقادة الجيوش وغيرهم هي التي تحدد سيره ، كان نقداً بناء وخصباً الى أبعد الحدود•

كما وأن الديموقراطيين الثوريين الروس في القرن التاسع عشـر ، في نضالهم ضد الايديولوجية الاقطاعية العبودية المعادية للشعب والايديولوجية البورجوازية الليبيرالية ، أبدعوا كثيراً من الأفكار التي تشهد على فهمهم العميق والصحيح لبعض مسائل التطور التاريخي ، وعلى وجود بعض عناصر الدراسة المادية للحياة الاجتماعية في علمهم الاجتماعي •

لقد أولى الديموقراطيون الثوريون الروس الأهمية الكبرى للظروف الاقتصادية ،وكتبوا عن تأثيرها الحاسم على الجوانب الأخرى للحياةالاجتماعية• فلقد أكد بيلينسكي ، مثـلا ، ان المتطلبات المادية انمـا هي أساس النشـاط الأخلاقي ، ولو أن الانسـان لم يشعر بالحاجة الى المأكل والملبس والمسكن ووسائل الحياة لما خرج عن الطور الحيواني أبداً • ولقد رأى تشير نيشفسكي احدى مثالب علم الاجتماع السائد آنذاك في أنه يتعامى عن رؤية « الظروف المادية للواقع » التي تكاد تلعب الدور الأول في الحياة ، والتي تؤلف السبب الرئيسي لكل الظواهر تقريباً • ويمكن تقييم هـذه التصريحات لكلاسيكيي الفلسفة الروسية كبذور أولى للفهم المادي للتاريخ ، لأنها ، الى جانب هذا ، كانت تؤكد على الدور الحاسم الذي يلعبه التطور العقلي والمعرفة والتنوير في العملية التاريخية •

ولقد انتقد الديموقراطيـون الثوريون النظرة الميتافيزيكية الى تاريـخ المجتمع ، اذ كانت تعتبره تراكماً بسيطاً لمجموعة من الصدف ، كما أنهم ناضلوا ضد القدرية ، واعتبروا التاريخ عملية مقوننة للانسانية ، بالرغم من عجزهم آنذاك عن اكتشاف القوانين الموضوعيـة لتطور المجتمع • لكنهم مع هـذا ، استخلصوا من الديالكتيك نتائج ثورية في حقل التاريخ• فقد خدمهم الديالكتيك

كأساس نظري في النضال من أجل قلب النظم العبودية الاستبدادية المطلقة المتعفنة التي كانت ، بحق، العقبة الكأداء أمام تطور روسيا في طريق التقدم والازدهار .

والجانب المنيع في النظرة الاجتماعية للديموقراطيين الثوريين الروس هو في نقدهم للاستغلال الاقطاعي والرأسمالي ، وللديموقراطية البورجوازية ، وفي الدفاع عن أفكار التحول الثوري للمجتمع .

ولقد كان الماديون الروس في القرن التاسع عشر يلاحظون حقيقة انقسام المجتمع الى طبقات ووجود التناقضات بينها ، حتى أن تشير نيشفسكي وضع يده على العلاقة بين الأفكار الاجتماعية ومصالح الطبقات المختلفة .

لقد قدر الديموقراطيون الروس دور الجماهير الشعبية في التاريخ ـ بخلاف علماء الاجتماع البورجوازيين ـ وكانت نظرتهم الى المسألة المتعلقة بدور الفرد صحيحة تماماً . فلقد كان دوبرولوبوف ، مثلا ، يعتبر أنه لايجوز وضع نشاط الفرد على طرف مناقض للظروف الموضوعية ، وأن القوة الرئيسية في التاريخ هي الجماهير ، وأن الناس العظماء هم عظماء لأن لنشاطهم شأناً كبيراً بالنسبة لشعوبهم وللانسانية .

ولقد استطاع الديموقراطيون الثوريون بدفاعهم عن مصالح الكادحين أن يتجاوزوا في نظرتهم الى المجتمع ذلك المستوى الذي بلغه علم الاجتماع البورجوازي ، الا أن ضيق الظروف التاريخية لروسيا أواسط القرن التاسع عشر لم يمكنهم من تجاوز الفهم المثالي للتاريخ .

وقد كان لوضع المفاهيم والمقولات التي تعكس جوانب الحياة الجوهرية ، كالطبقات والدولة والايديولوجية ونظام الحقوق والأخلاق وغيرها ، أهمية كبرى من أجل ظهور النظرة العلمية عن سير التاريخ . وبالطبع ، لم يكن مضمون هذه المقولات قد تحدد علمياً بعد ، الا أنها كانت تقسم الجهاز الاجتماعي وتثبت مختلف جوانبه المتفرقة في التجريد الذي لاغنى للمفكرين عنه عند صياغة وتكوين علم المجتمع .

تلكم هي منجزات الفكر الاجتماعي التي عالجها وطورها واستخدمها كل من ماركس وانجلس • « كما أن الذي أنشأ هذا العلم هم ، أولا ، الاقتصاديون الكلاسيكيون الذين اكتشفوا قانون القيمة والانقسام الأساسي للمجتمع الى طبقات ، وكما أن منوري القرن الثامن عشر أغنوا هذا العلم ضد الاقطاعية ورجال الدين ، وكما أن المؤرخين والفلاسفة في بداية القرن التاسع عشر ، بغض النظر عن نظراتهم الرجعية ،دفعوا بهذا العلم خطوات الى الأمام ، اذ تابعوا تفسير مسألة النضال الطبقي وطوروا الطريقة الديالكتيكية وطبقوها أو بدأوا في تطبيقها على الحياة الاجتماعية ، فان الماركسية ، اذ حققت خطوات عملاقة الى الأمام في هذا المضمار بالذات ، هي أعلى درجة من تطور العلم التاريخي والاقتصادي والفلسفي في أوروبا »[١] •

وهكذا فان ظهور علم عن المجتمع كان مهيأ بالتطور المادي والروحي للمجتمع • ولقد ظهر عندما توفرت الظروف الاجتماعية الضرورية والمنطلقات الفكرية النظرية لظهوره • ومع ذلك فقد كان ظهور المادية التاريخية مأثرة علمية فذة خلدت اسم صانعها كارل ماركس •

انقلاب في النظرات الى المجتمع

لقد كان خلق المادية التاريخية انقلاباً ثورياً في النظرات الى المجتمع • وان سر هذا الانقلاب يكمن في الانتقال من الفهم المثالي اللا علمي الى الفهم المادي العلمي للتاريخ • ولقد قام ماركس بهذا الانتقال بادخاله الى العلم الاجتماعي كثيراً من المبادىء الجديدة التي لم تكن تعرفها النظريات السابقة جميعاً • لقد برهن ماركس على أنه ، بالرغم من أن الناس هم الذين يصنعون التاريخ ، فان الذي يحدد تطور التاريخ ليست ارادة الناس ورغباتهم وانما الظروف المادية للحياة الاجتماعية والقوانين الموضوعية التي تعمل في قاعدة الحياة المادية ذاتها • ولقد فهم ماركس التاريخ ، لأول مرة ، ديالكتيكياً ـ كعملية موضوعية مقوننة لتطور وتغير المجتمعات المختلفة •

---

(١) لينين • المؤلفات • الجزء ٢٠ ص ١٨٤ •

ان مايمز علم الاجتماع السابق هو الوضع الميتافيزيكي للقوانين الموضوعية في طرف مناقض لنشاط الناس • أما المادية التاريخية فقد ربطت الاعتراف بالقوانين الموضوعية للعملية التاريخية ديالكتيكياً بفهم التاريخ كنتيجة لنشاط الجماهير ، وكشفت عن التأثير الواقعي للأفكار ولمبادرات الجماهير والأفراد على سير التاريخ • وبهذا فقد نقضت الفهم المجرد للانسان ككائن طبيعي فقط، وأسست الطريقة التاريخية والمادية الصحيحة لتوضيح ماهية الانسان ذاته •

ولقد أكد مؤسسا الماركسية أكثر من مرة بأنه لاينبغي النظر الى الفهم المادي للتاريخ كمنهاج فلسفي اجتماعي ، وكتفسير للعملية التاريخية في كل أبعادها وتنوعاتها • بل على العكس ، لقد كانا يؤكدان على أنه مع ظهور المادية التاريخية وضعت مهمة التفسير العلمي لتاريخ الانسانية مجرد وضع وحسب • لقد كتب انجلس في رسالته الى شميدت عام ١٨٩٠ : « ان فهمنا للتاريخ هو ، قبل كل شيء ، الاهتداء الى الدراسة وليس أساساً للبناء على طريقة الهيجليين • فمن الواجب علينا أن نبدأ دراسة التاريخ كله من جديد »[1] • لقد اكتشف ماركس وانجلس الفهم المادي للتاريخ ، وساهما مساهمة جلي في حل هذه المهمة اذ قدما لنا نماذج للتفسير العلمي لظواهر وأحداث الحياة الاجتماعية •

لقد أثبت ماركس وانجلس أن الانسان ، ككائن اجتماعي ، يتكون ويتطور في عملية النشاط الاجتماعي التاريخي • ويبرز تاريخ المجتمع كله « كخلق العمل الانساني للانسان »[2] ، كعملية تغير وتطور الطبيعة الاجتماعية لا الفيزيائية للانسان •

لقد وضعت المادية التاريخية في العقد الرابع من القرن التاسع عشر ، ولقد أعرب كل من ماركس وانجلس عن أفكارها الأساسية في كتابهما « الايديولوجية الألمانية » (١٨٤٥ ـ ١٨٤٦) • ثم استخدما المادية التاريخية نبراساً يهتديان بضوئه في أبحاثهما العلمية وفي نضالهما ضد خصومهما

---

(١) ماركس وانجلس • مؤلفات مختارة • الجزء ٢ ص ٤٦٦ •

(٢) ماركس وانجلس • من المؤلفات الأولى • موسكو ١٩٥٦ ص ٣٢ •

الفكريين في « بؤس الفلسفة » (١٨٤٧) وفي الوثيقة المنهجية « بيان الحزب الشيوعي » (١٨٤٨) •

ولقد قدمت عبقرية ماركس موضوعته الرائعة عن حقيقة المادية التاريخية في مقدمته الشهيرة لـ « نقد الاقتصاد السياسي » (١٨٥٩) • ثم ان المادية التاريخية طبقت واستخدمت على نطاق واسع ، كما أنها طورت علمياً كذلك في « رأس المال » (١٨٦٤) • ولقد أشار لينين الى أنه منذ ظهور « رأس المال » لم تعد المادية التاريخية مجرد فرضية ، بل تحولت الى نظرية أكيدة ، ومرادفة للعلم الاجتماعي •

المادية التاريخية ـ علم خلاق

ان المادية التاريخية ، مثلها مثل الماركسية ككل ، هي في جوهرها علم خلاق متطور على الدوام • وهي ليست نظاماً خالصاً ومنهجاً جاهزاً أبدعه العقل البشري ومرتبطاً به كما هي الحال مع علم الاجتماع المثالي • ان المادية التاريخية هي التعبير النظري عن العملية التاريخية وقوانينها العامة • ولذا فمع تطور التاريخ ذاته ، وتعميق معرفة الظواهر الاجتماعية ، تتطور المادية التاريخية وتزداد غنى • ولا يجوز فهم هذا التطور كتغير بسيط في المفاهيم ، وضبط للصيغ ، وتحسين للتعاريف • فمع تطور الماركسية ، بالطبع ، يتم ضبط الموضوعات والمفاهيم ، بيد أن الأمر لا ينحصر في هذا وحسب ، اذ أن أهم ما فيه هو أن كل عصر جديد يخلق ظروفه النوعية لنشاط الناس ، ويطرح القضايا القديمة بشكل جديد ، ولذا فهو يتطلب تعميمات نظرية جديدة من شأنها أن تغني علم المجتمع وتدفعه في طريق التقدم •

ولقد أوجد ماركس وانجلس المادية التاريخية في عصر الرأسمالية ما قبل الاحتكارية • ومع ظهور الامبريالية طرأت تغيرات جوهرية على أشكال ظهور القوانين العامة للرأسمالية وعلى ظروف النضال الطبقي للبروليتاريا • ولقد أعطتنا مؤلفات لينين تحليلا نظرياً للظروف الجديدة لعصر الامبريالية والثورات البروليتارية ، فطور بذلك المادية التاريخية وكذا الماركسية ككل • ثم ان التقدم

التالي للمادية التاريخية كان مرتبطاً بالعصر الجديد نوعياً في تاريخ الانسانية – بعصر الانتقال من الرأسمالية الى الاشتراكية الذي كانت فاتحته ثورة اكتوبر العظمى في روسيا • وفي عهد الاشتراكية لاتتغير أشكال ظهور القوانين العامة للتاريخ وحسب ، وانما تظهر قوانين اجتماعية جديدة بنوعها أيضا ، وتتاح الامكانيات الواسعة لمعرفة الحياة الاجتماعية ، وتبرز أمام المجتمع مهمات عملية مجسمة من أجل البناء الواعي لأشكال حياة الناس وعلاقاتهم الجديدة • فأمام الأحزاب الشيوعيــة التي تقود عملية بناء الاشتراكية والشيوعية ، معتمدة على النظرية الماركسية اللينينية ، تبرز ضرورة تطبيق النظرية على الظروف الحسية المختلفة وتطويرها أيضاً • ففي مؤلفات لينين وتلاميذه ، وفي قرارات حزبنا والأحزاب الشيوعية الشقيقة الأخرى تعمم قوانين العصر ، وتتطور الماديــة التاريخية وفقاً لمقتضيات الظروف الجديدة •

ان النظرية الماركسية اللينينية ، اذ تعرفنا على قوانين التطور الاجتماعي ، تمكننا من رؤية الضرورة التاريخية سلفاً لهذه التحولات الاجتماعية أو لتلك ، ومن توجيه نشاط الناس التطبيقي وفقاً لها •

وفوق هذا ، علينا أن نأخذ بعين الاعتبار أن معرفة القوانين تمكننا من التنبؤ باتجاه التطور التاريخي وبنتائجه الأساسية ، لكنها لاتمكننا من التنبؤ بأشكال ظهور القوانين العامة • ان الذي يحدد هذه الأشكال هي الظروف التاريخية المشخصة لنشاط ونضال الجماهير • ولهذا فلم يك أي من ماركس وانجلس ولينين ليمثل دور المعلم المدرسي فيما يتعلق بالحركة البروليتارية الحقيقية ، بل على العكس ، كانا يشيران دائماً الى ضرورة التطوير المستمر للنظرية على أساس الدراسة الدقيقة لتجربة الجماهير ذاتها ، ولمنجزات وأخطاء الحركة البروليتارية ، لنجاحاتها وفشلها عــلى السواء • ولقد قال لينين : عندما قاد البلاشفة الجماهير للثورة كانوا ينطلقون من معرفة الحتمية التاريخية لاستبدال الاشتراكية بالرأسمالية •

وهكذا ، فان الرابطة الوثيقة مع الواقع ، والنضال التطبيقي للجماهير ونشاطها هي قانون تطور النظرية الماركسية اللينينية ككل ، والمادية التاريخية بشكل خاص • ان التعلم النظري لصيغ الماركسية ، بدون اكتشاف علاقتها مع الظروف الموضوعية وتطبيق نضال الجماهير ، يتنافى أصلا مع الماركسية اللينينية•

ان حزبنا ، اذ ينتهج مبدأ وحدة النظرية والتطبيق ، يعتبر الدفاع عن النظرية وتطويرها تطويراً خلاقاً مهمته الرئيسية ، وهو ماينفك يناضل دونما هوادة ضد اضعاف النظرية الثورية ،وضد الانحرافات والتكتلات الايديولوجية•

وان المادية التاريخية تتطور في النضال المستمر ضد الايديولوجية البورجوازية ومروجيها بين صفوف الحركة العمالية ـ الانتهازيين والتحريفيين• وفي الظروف المعاصرة الراهنة ، حيث يقوم نظامان اجتماعيان على الصعيد التاريخي ـ الاشتراكية النامية الناهضة ، والرأسمالية المتقهقرة ـ تمثل التحريفية أعظم خطر على الحركة العمالية • ان التحريفيين يحاولون طمس الخلاف بين المادية التاريخية وعلم الاجتماع البورجوازي ، ونسف علاقتها مع التطبيق العملي الثوري • ولهذا فان تطور المادية التاريخية يرتبط ارتباطاً وثيقاً بالنضال من أجل نقاوة النظرية الماركسية اللينينية ، وضد كل محاولات تشويهها من قبل الايديولوجيين البورجوازيين والتحريفيين •

القسم الأول

تطوّر المجتمع
كعمليّة تاريخيّة طبيعيّة

الفصل الأول

بنية التشكيلة الاقتصادية الاجتماعية

١ - مفهوم التشكيلة الاجتماعية

ان تاريخ المجتمع لعلى درجة كبيرة من التنوع والتعقيد • فتصعد أجيال وتمضي أجيال ، وتظهر قبائل وتختفي أخرى ، وتتكون أمبراطوريات وتزدهر ثم تنثني وتزول ، وتخلق الثروات التي لا حصر لها بفضل عمل الانسان • وفي أتون الحروب الكثيرة التي تدور بين بني البشـر تدمر المقدرات الهائلة وتقضي جماهير عديدة من الناس • وفي بلدان مختلفة وأزمان مختلفة من عصر التطور السلمي يتحول التطور الى انفجارات ثورية هنـا وهناك • ان أفعال مليارات من الناس ، واصطدام رغباتهم وغاياتهم المختلفة ، ونضال الطبقات المتصارعة والدول المختلفة ، كل هذا يؤلف شلة معقدة مختلطة يصعب فهمها أو يكاد يكون من المستحيل ، سيما أن حادثة تاريخية ما لايمكن أن تتكرر في هذا السيل المستمر •

فكيف اذن يمكننا القيـام بالتحليل النظري للعمليـة التاريخية ومعرفة قوانينها ؟

ان بعض علماء الاجتماع البورجوازيين ، اذ ينزلقون على سطح الحيـاة الاجتماعية ،ويقدمون كل شيء عن السطح دونما مساس بالجوهر ، يؤكدون انعدام أي تكرار في تاريخ البلدان والشعوب المختلفة ، وأن ليس في التاريخ الا ماهو فردي وخاص ،وعلى هذا الأساس فهم ينفون امكانية تأسيس علم اجتماعي •

فاذا ما كانت كل الأحداث في حياة الشعوب لاتتكرر كما لاتتكرر حروب

الفرس واليونان ،مثلا ، أو سقوط الامبراطورية الرومانية ، أو الثورةالفرنسية أو غيرها ، فان هذا يعني أن ليس ثمة قوانين في التاريخ ، وأن معرفة الحياة الاجتماعية تنتهي الى مجرد وصف للأحداث التاريخية ومناقشتها على ضوء هذا المثل الأعلى المجرد أو ذاك (الخير أو العدالة أو الجمال ... الخ) . ثم ان كثيراً من المؤرخين وعلماء الاجتماع البورجوازيين المعاصرين ينكرون القوانين الموضوعية لتطور المجتمع . ويبرز في هذا المجال التيار البورجوازي المعاصر المعادي للماركسية في علم الاجتماع ، وسعي ايديولوجيي البورجوازية لنسف الايمان الوطيد بحتمية انتصار الشيوعية ، هذا الايمان الذي يرتكز على الاعتراف بالقوانين الموضوعية للتطور الاجتماعي . ان الجذور المعرفية لرفض الاعتراف بالقوانين الموضوعية في التاريخ كامنة في تشويه ديالكتيك العام والخاص على السواء من قبل علماء الاجتماع البورجوازيين .

وعلماء الاجتماع أولاء ، اذ يجعلون كل ماهو عام وخاص مطلقاً ، لايدركون أن في الحادثة الفردية ثمة شيئاً عاماً . فالثورة الفرنسية ، مثلا ، في كل تفردها ، ان هي الا احدى ثورات عصر الانتقال من الاقطاعية الى الرأسمالية ، وتجمعها سمات عامة مع الثورات البورجوازية الأخرى . ومع كل الأصالة النوعية لفترة الانتقال من الرأسمالية الى الاشتراكية في الاتحاد السوفييتي وبولندا وتشيكوسلوفاكيا وبلغاريا وغيرها ، ومع توفر السمات والخصائص التي لاتتكرر في كل منها ، تبقى هنالك قوانين عامة لفترة الانتقال تفعل في كل البلدان .

وبهذا فان المادية التاريخية تجد لزاماً عليها ايجاد كل ما هو عام ومتكرر خلف الخصائص الفردية لتاريخ الشعوب والبلدان المختلفة . وهذا من شأنه أن يمكننا من معرفة قوانين التاريخ ، لأنه لايمكن الحديث عن القوانين مطلقاً الا حينما يوجد التكرار .

ان مفهوم المادية التاريخية الذي وضع من أجل دراسة ذلك العام في نظم البلدان المختلفة الموجودة على درجة واحدة من التطور ، انما هو مفهوم

التشكيلة الاجتماعية الاقتصادية • وذا أهم مفهوم في المادية التاريخية قدمته الماركسية لأول مرة •

لكن هذا وحده لايكفي لشرح مُحتوى ومعنى مفهوم التشكيلة • فمن أجل معرفة تطور الانسانية تطوراً علمياً ،لابد أيضاً من توضيح الفرق بين بعض مراحل التاريخ عن الأخرى • فالمجتمع لايقف ، وتختلف بعض مراحل تاريخه عن الأخرى ، وهـذا ما كان يجهله معظم علماء الاجتماع السابقين لماركس • فهم ، اذ كانوا ميتافيزيكيين ، كانوا يدرسون المجتمع « بوجه عام » ولم يتمكنوا من رؤيـة الفوارق النوعية بين مجتمع الرق ، مثلا ، والمجتمع الاقطاعي ، بين الرأسمالي والاشتراكي • لقد كانوا يبحثون عن صيغة للتقدم التاريخي مجردة وعامة لكل العصور • وهذا يتناقض أصلا مع الواقع • فليس ثمة مجتمع « بوجه عـام » • ان تاريخ الانسانية هـو تاريخ مجتمعات معينة يعقب أحدها الآخر ، ويمثل كل منها مرحلة معينة خاصة بنوعيتها في التطور التقدمي للمجتمع •

ان مفهوم المادية التاريخية الذي وضع من أجـل دراسـة المجتمعات المشخصة مادياً ،والتي تمثل درجات معينة من تطور المجتمع ، انما هو مفهوم التشكيلة الاجتماعية الاقتصادية • وتتجلى أهميته هنا في أنه يمكننا من وضع دراسة التاريخ على أساس ثابت وطيد ، أي من فهم أي حدث تاريخي على ضوء ظروف هذا المجتمع أو ذاك •

وينبغي علينا دائماً أن نأخذ بعين الاعتبار أن الأحداث المتشابهة ، والتي تحدث في ظروف تاريخية مختلفة ، تؤدي دائماً الى نتائج مختلفة تماماً • لقد قارن ماركس بين عمليتين متشابهتين : حرمان الفلاحين من ملكية الأرض في ظروف رومـا القديمة ، وحرمانهم من ملكيتهـا في فترة بدايـة التراكم الرأسمالي[1] • ففي الحالتين ظهرت البروليتاريا ، أي جماهير الناس المحرومة من وسائل الانتاج • غير أنه اذا كانت البروليتاريا الرومانية تمثل سواداً عاطلا

---

(١) ماركس وانجلس • رسائل مختارة • ١٩٥٣ ص ٣١٦ •

يعيش عالة علــى المجتمع ، فان البروليتاريا الصناعية تؤلف جيشاً من العاملين لحساب الطبقة المسيطرة •

ولقد أكد لينين بقوة على هذه الفكرة حينما أشار الى أن التعاونية التي كنا ننتقدها في ظروف التشكيلة الرأســمالية تتحول في ظروف دكتاتوريــة البروليتاريا الى شكل أساسي لابــد منه لنقل جماهير البورجوازيــة الصغيرة الى الاشتراكية •

وأخيراً ، عند شرح محتوى ومعنى مفهوم التشكيلة ، لابد من حساب عامل آخر • ان المجتمع ليس عبارة عن تراكم فوضوي لظواهر اجتماعيــة مختلفة ، بل هو واحد مترابط تتبادل كل جوانبه التأثير فيما بينها ، وترتبط بعضها ارتباطاً عضوياً وثيقاً لا انفصام له •

ان « نظرية العوامل » هي النظريــة الأكثر انتشاراً في علم الاجتماع البورجوازي • وهذه النظرية الانتقائية تنظر الى العمليــة التاريخية كنتيجة للتأثير المتبادل بين « عوامل » مختلفة متساوية الأهمية نميز من بينها الاقتصاد، ودور الفرد ، والدولة ، والشروط الجغرافية والأفكار ••• الخ • ان المادية التاريخية لاتنفي وجود التأثير المتبادل بين جميع الظواهر الاجتماعية • الا أنها تقف مع علم الاجتماع البورجوازي « الاصطفائي » على طرفي نقيض ، اذ أنها تدرس المجتمع في كل فترة من فترات تطوره « كجهاز اجتماعي » واحد حيث الظواهر الاجتماعية المختلفة مرتبطة ضمنياً ببعضها ، وحيث تتبادل التأثير قوى متباينة • ومن بين كل ظواهر الحياة الاجتماعية تبرز المادية التاريخية أسلوب انتاج الخيرات المادية كأساس مادي للتأثير المتبادل بين كل الظواهر الاجتماعية، كأساس مادي للتشكيلة الاقتصادية الاجتماعية •

وهكذا ، فان التشكيلة الاقتصادية الاجتماعية هي مجتمع تاريخي معين ومشخص ،أي انها المجتمع في مرحلةمعينة من تطوره • ان التشكيلةالاقتصادية الاجتماعية تحوي في داخلها كــل الظواهر الاجتماعية في وحدتها العضويــة وتأثيرها المتبادل فيما بينها على أساس أسلوب الانتاج • ان كل تشكيلة اقتصادية

اجتماعية هي بمثابة جهاز اجتماعي خاص يتطور حسب قوانينه الخاصة به •

ان مفهوم التشكيلة يمكننا من الفهم المنظم لفوضى الحياة الاجتماعية ، كما تبدو لأول وهلة ، فيميزها الى مجتمعات مشخصة متبدلة وفقاً لقوانين موضوعية هي : تشكيلة المشاعة البدائية ، التشكيلة العبودية ، التشكيلة الاقطاعية ، والتشكيلة الرأسمالية التي يتم انتقال الانسانية منها في العصر الحاضر الى التشكيلة الاجتماعية الشيوعية •

ويمكننا تصنيف كل التشكيلات الاجتماعية الى مجموعتين كبيرتين : التشكيلة الأولى ،وهي تضم كل التشكيلات الطبقية المتناقضة من عبوديةواقطاعية ورأسمالية • والذي يجمع بينها هو أنها قائمة على أساس علاقات السيطرة والاخضاع واستغلال الانسان للانسان ، وأن كل المشاكل الاجتماعية التي تجابهها في طريق التطور انما تحل عن طريق النضال الطبقي المرير ، عن طريق الحروب والثورات •

وتؤلف المجموعة الثانية تلك التشكيلات اللا طبقية القائمة على علاقات التضامن والمساواة الاجتماعية • وهي تضم تشكيلة المشاعة البدائية التي تكون الانسان في نطاقها على أساس الانتاج البدائي ، ونشأت فيها المنطلقات لتطوير الثقافة الانسانية ؛ كما أنها تضم أيضاً التشكيلة الشيوعية التي هي أعلى مرحلة من تطور المجتمع وفجر الشخصية الانسانية المشرق ، وازدهار الثقافة المادية والروحية للانسانية •

وتتجلى أهمية التشكيلة الاقتصادية الاجتماعية في أنها تمكننا من دراسة التاريخ كعملية تاريخية طبيعية واحدة مقوننة لتطور الانسانية • فلقد مكننا وضع هذا المفهوم ، أولا ، من اكتشاف ذلك العام المتكرر بالنسبة لبلدان مختلفة تقف على درجة واحدة من التطور الاجتماعي ،ومن معرفة قوانين الحياة الاجتماعية ؛ وثانياً ، من فصل احدى فترات التاريخ عن الأخرى ، وفرز المراحل المتميزة نوعياً في تاريخ المجتمع والتي يكون لكل منها قوانين خاصة بحركتها ، ومن الدراسة العلمية لتطور المجتمع كله ، وأخيراً ، من اكتشاف

الوحـدة والعلاقة الديالكتيكية المتبادلة القائمة بين الظواهر المختلفة للحيـاة الاجتماعية في كل زمن ، ومن فرز الأساس المادي للتأثير المتبادل بين الظواهر الاجتماعية جميعها • ان مفهوم التشكيلة هو بمثابة حجر الزاوية في بناء الفهم المادي للتاريخ •

٢ – أسلوب الانتاج

الأساس الاقتصادي المادي للتشكيلة الاجتماعية

ان بناء كل تشكيلة اقتصادية يتحدد بأسلوب الانتاج الخاص بها وبأسلوبها الخاص في تجديد الحياة المباشرة • فأياً كان بناء المجتمع ، وعلى أية درجة من التطور كان ، فان الشرط الأول لبقائه انما هـو تبادل الشيئيات مع الطبيعة ، وسد حاجات ومتطلبات الناس المادية في المأكل والملبس والمسكن ••• الخ • بيد أن الانسان لايعثر على كل الخيرات المادية الضرورية جاهزة في الطبيعة ، مما يجعله مضطراً لانتاجها • ولذا ، فان الانتاج هو ، دائماً وفي كل الظروف، أساس وجود الناس والضرورة الطبيعية الخالدة • الا أن أهمية الانتـاج في حياة المجتمع لاتنحصر في تأمينه وسائل المعيشة للناس • فان مأثرة ماركس وانجلس الرائعة ، بهذا الصدد ، هو أنهما برهنا على أن الناس ، اذ يقومون بانتاج الخيرات المادية ، فانهم بذلك ينتجون كل قطاع حياتهم ويجددونه ، أي ان الانسان ذاته يتكون ككائن اجتماعي في الانتاج • وان أسلوب الانتاج هو شكل معين لنشاط الأفراد المعيشي ونمط حياتهم المعين • فاذا ما أردنا أن نعرف من هم الناس كان حسبنا أن نعرف كيف ينتجون وكيف يجددون حياتهم ، وبمساعدة أي أسلوب في الانتاج[١] •

فالانسان في عملية العمل يغير شكل الشيء في الطبيعة ، اذ يحوله الى مادة لسد حاجته • ويتمكن الناس من سد حاجاتهم فقط عندما يقومون بانتاج كل ماهو ضروري للحياة • وهـذا العامل بالذات هـو الذي يغير علاقة الانسان بالطبيعة ويميزه على سائر الكائنات الحية •

---

(١) ماركس وانجلس ، المؤلفات • الجزء ٣ • ص ١٩ •

ثم ان الطبيعة ليست فقط شرطاً ضرورياً لتغير وتطور الأشكال العضوية، بل ومحدداً لهما أيضاً • ان تبادل الشيئيات وملاءمة ظروف الوسط الخارجي هما أساس وجودها • ان تغير شروط المعيشة يحدد تطور العالم الحيواني والنباتي معاً • فالجهاز العضوي والوسط لاينفصلان ، ويعيش الأول بتأثيره المتبادل مع الثاني ، كما أنه يتغير بفعل تأثيره المحدد • ويتجلى تطور الطبيعة العضوية في ظهور أشكال بيولوجية جديدة تتكيف مع ظروف الوسط المتبدلة •

أما تطور المجتمع الانساني فهو ذو طابع آخر • فالانسان باعتماده على الانتاج يستقل عن تأثير القوانين البيولوجية الموجهة وينفصل عن العالم الحيواني • وهو لايتكيف بصورة سلبية مع الشروط الطبيعية المحيطة به ، بل يؤثر بها تأثيراً ايجابياً ويكيفها حسب مقتضياته • ففي عملية الانتاج يخلق الانسان الشروط الاجتماعية الضرورية لمعيشته ـ الوسط الاصطناعي « الطبيعة الثانية » • ولذا ، فليس التبدل في شكل الانسان البيولوجي هو أساس تطوره ، وانما تغير طبيعته الاجتماعيه التي يحددها أسلوب انتاج معيشته • ان تطور الحيوانات يتحدد بالقوانين البيولوجية ، بينما يتحدد تطور الانسان بقوانين اجتماعية • ولذا فاننا نبدأ تحليل البنية الاجتماعية للمجتمع بدراسة أسلوب الانتاج •

ان أسلوب الانتاج هو وحدة قوى الانتاج وعلاقات الانتاج ، أي وحدة جانبي الانتاج المعبرين عن نوعين من العلاقات : علاقة الانسان بالطبيعة ، وعلاقة الانسان بالانسان •

قوى الانتاج

ان قوى الانتاج هي أهم مفهوم في المادية التاريخية • فهو يعبر عن علاقة الناس بالطبيعة ويبين مدى سيطرة الانسان عليها •

ان الانتاج في شكله المجرد هو عملية العمل ، أي هو نشاط الناس الواعي الهادف الفعال الموجه لتكييف الطبيعة وفق متطلبات الانسان • وان

العوامل العامة والضرورية والتي بدونها لايمكن أن تتحقق عملية العمل انما هي موضوع العمل ، ووسيلته ، والعمل ذاته •

فموضوع العمل عامل سلبي في عملية العمل • وهو يخضع لتبدلات مختلفة ويتحول الى نتاج يحتاجه الانسان •

« ووسيلة العمل هي الشيء أو مجموعة الأشياء التي يجعلها الانسان وسيطة بينه وبين موضوع العمل ،وتخدمه في نقل تأثيره الى المواضيع وكواسطة لذلك التأثير »[1] • ان وسائل العمل جد مختلفة ومتنوعة ، بيد أن أدوات العمل تحتل المكانة المرموقة بينها جميعاً •

ثم ان موضوع العمل ووسائل العمل ـ أي العناصر الشيئية في عملية العمل ـ تؤلف ما يسمى بوسائل الانتاج • ان وسائل العمل ـ بخلاف موضوع العمل ـ تقوم بالدور الفعال في الانتاج لأن اجراء التغييرات في موضوع العمل يجري بمساعدتها • الا أن الانسان هو البداية الحاسمة في الانتاج ، اذ أن استخدام وسائل الانتاج وتغيير موضوع العمل لايمكن أن يتم الا مع العمل الحي ، مع الانسان • ان قوى الانتاج هي تلك العناصر الفعالة في عملية العمل بالذات ، وأعني وسائل العمل والناس ذوي الخبرة الانتاجية والعادات ، والذين يقومون بانتاج الخيرات المادية • وثمة من يُدخل في مفهوم قوى الانتاج موضوع العمل اذ ينطلقون من القول بأن كل عملية واقعية للعمل غير ممكنة بدون مواضيع العمل ذات الخصائص المختلفة والتي بفضلها يتمكن الناس من انتاج السلع الضرورية لهم • وبالفعل ، عند التحليل الاقتصادي المشخّص لتطور الانتاج لايمكن اغفال قضية الثروات المستخرجة ومصادر المواد الأولية التي هي الموضوع البدائي للعمل • وعند وضع مخططات التطور الاقتصادي للبلدان الاشتراكية يولى التوزيع الجغرافي الصحيح لقوى الانتاج اهتماماً بالغاً ، أي انه يفضّل اقامة المؤسسات الصناعية بالقرب من مصادر موادها الاولية التي هي موضوع العمل •

وثمة فروع كاملة من الانتاج ـ الصناعة التعدينية ، والزراعة ـ تكون

---

(١) ماركس وانجلس • المؤلفات ، الجزء ٢٣ ص ١٩٠ •

مهمتها الخاصة في انتاج المواد الأولية التي هي موضوع العمل لفروع الانتاج الأخرى مثل الصناعة المعدنية ، والصناعة الخفيفة ،وصناعة المواد الغذائية..الخ. ان مسألة اقامة توازن صحيح بين هذه الفروع الانتاجيــة وحفظ الاحتيــاطي وتوزيع المواد الاولية ... الخ .. ذات أهمية اقتصادية بالغة . لكننا عندما نحلل عملية الانتاج في علاقتها بتطور المجتمع كله نجد أنفسنا مضطرين لفرز تلك العناصر التي تحدد طابع العلاقة بين المجتمع والطبيعة وتعبر عن مدى سيطرة الانسان على الطبيعة ، وبالتالي عن مستوى تطور الانســان والمجتمــع الانساني من بين عناصر عملية العمل جميعاً . ومن تلك العناصر وسائل العمل بالذات ولاسيما أدوات الانتاج التي تؤلف مع الناس الذين يستخدمونها القوى الانتاجية .

ان الفرق بين وسيلة العمل وموضوع العمل هو ، بالطبــع ، ذو طابــع نسبي . فان هذه الأشياء أو تلك يمكن أن تلعب أدواراً مختلفة في الانتاج . ويتحول موضوع العمل الى وسيلة عمل. فان الأرض ، مثلا ، حين معالجتها بالأدوات والآلات تكون موضوع عمل . ثم حينما « تنتج » هذه الأرض ذاتها النباتات الضرورية للانسان وتقوم بدور الناقل لتأثيره على النباتات ، انما تكون بهذا وسيلة للعمل وقوة انتاجية للمجتمع . وتلك هي الحال أيضا مع الفحم الحجري والنفط ومواد النسيج المختلفة والحيوانات الأهلية وغيرها ، اذ هي جميعاً مواضيع عمل ووسائل عمل في عملية الانتاج .

والى جانب هذا ، لابد من تمييز الفارق المبدئي بين أداة العمل وموضوع العمل . حيث أن هذا الاخير ، كعنصر سلبي في الانتاج ، لايميز سمات العلاقة بين المجتمع والطبيعة . فالشجرة ، مثلا ، يمكن أن تنشر بمنشار يدوي بدائي أو بمنشار كهربائي ، كما ويمكن زراعــة القمح في حقــل محروث بالمحراث الخشبي أو بواسطة الجرار . ان أدوات العمل بالذات هي التي تحدد علاقة الانسان بالطبيعة في عملية العمل ، كما وتحدد انتاجية العمل الانساني .

ويمكن أن يقال أن المواد المستخدمة من قبل الانسان هي أيضاً تحدد درجة تطور قوى الانتاج . فمن المعروف أن تقدم الانتاج مرتبط بادخال المواد

الجديدة اليه . ان علماء الآثار يميزون في التاريخ العصر الحجري وعصر البرونز وعصر الحديد ؛ كما أن تطور التكنيك المعاصر يبقى خلواً من أي معنى بدون الاستخدام الواسع للمعادن النادرة التي لم تكن تستخدم الى زمن قريب ، وبدون استخدام مختلف مواد النسيج ... الخ.

ومن المؤكد أن الحجر والبرونز والحديد والمعادن النادرة وغيرها من المواد يمكن أن تخدم كمقياس لتطور الانتاج وأن تقوم بدور فعال فيه لأنها تؤلف المادة لأدوات العمل وتبرز في الانتاج أيضاً كوسيلة للعمل ، ولأن خصائصها تستخدم من أجل التأثير على موضوع العمل . فلم يتمكن البارود ، مثلا ، من احداث انقلاب في تكنيك الحروب الا عندما صار يستخدم في الاسلحة النارية ولم يبق منحصراً في الالعاب النارية .

ففي كل عصر من عصور التاريخ ، ولا سيما في وقتنا هذا ، يستخدم الناس مختلف انواع الادوات كنواقل لتأثيرهم على الطبيعة . لكنه ليست تلك الادوات جميعاً تستطيع ان تعبر عن مستوى تطور الانتاج . فحتى وقتنا هذا لايزال الناس يستخدمون الرفش والمعول والمطرقة وغيرها من الأدوات .

وعلاوة على هذا ففي الانتاج تستخدم وسائل عمل مختلفة وضرورية من أجل نقل وحفظ المنتجات ولأغراض أخرى .

الا ان هذه الوسائل ليست رئيسية من أجل معرفة أو تمييز أسلوب تأثير الانسان على الطبيعة . ومن بين كل وسائل العمل المستخدمة في هذا العصر أو ذاك يفرز ماركس تلك الأدوات الانتاجية التي تخدم كناقل مباشر لتأثير الانسان على الطبيعة والتي تحدد بالشيء ذاته القوة الانتاجية لعمله . والحديث هنا بصدد الادوات التي تعبر عن عملية الانتاج الاجتماعي ، والنموذجية بالنسبة لهذا المستوى من التطور أو ذاك . والمادية التاريخية تعتبر هذه الأدوات بالذات التي تؤلف سدى الانتاج ولحمته ــ حسب تعبير ماركس ــ الدليل المحدد لمستوى تطور الانتاج والعلاقة بين المجتمع والطبيعة .

ونحن ، اذ نؤكد على الأهمية الحاسمة لادوات الانتاج الاساسية كعناصر

في قوى الانتاج ، علينا الا نجعل هذه الموضوعة مطلقة • ففي الدرجات الدنيا من التطور الاجتماعي ، حينما كان الناس يستخدمون الادوات البسيطة وكان الانتاج بدائياً ، كان التقدم التكنيكي يعود بكليته تقريباً الى تغير الأدوات • غير أن الانتاج المعاصر معقد ومتنوع الى درجة لا مثيل لها • ان استخدام أدوات العمل الأساسية مرتبط هنا بحلقات الانتاج الكثيرة الأخرى : بتنظيمه ،وبتكنيكه، وبقاعدته الطاقية •• الخ • ويمكن أن تصبح مختلف حلقات الانتاج في هذه الظروف أو تلك عوامل حاسمة في التقدم التكنيكي • ثم ان التكنيك المركب ، والتخصص ، والتعاونيات في الانتاج تقوم بدور كبير في تطور الاقتصاد في وقتنا الراهن • ولقد أصبح اكتشاف الاستخدام التطبيقي للطاقة النووية أحد جوانب الثورة التكنيكية الجديدة• وان تحسين المحركات ووسائط النقل وتكنولوجيا الانتاج وغيرها تؤلف جانباً مهماً وضرورياً في تطور التكنيك • ولذا ، فلقد أكد برنامج الحزب الشيوعي الجديد على الأهمية البالغة لتحسين التكنولوجيا في تطور الانتاج • ومع هذا فان تطوير أدوات العمل الأساسية هو الذي يضمن التقدم التكنيكي في وقتنا الحاضر أيضاً • وان الحزب الشيوعي ليأخذ بعين الاعتبار هذه الحقيقة المقوننة ويجعلها منطلقاً له في النشاط • فاذا كان الانتاج الصناعي قد تضاعف في العهد السوفييتي (حتى عام ١٩٦٠) (٤٥) مرة ، وانتاج وسائل الانتاج (١٠٣) مرات فان انتاج المنشآت الآلية وصناعة المعادن تضاعف حتى عام ١٩٦١ مقدار (٣٥٠) مرة • وهذا دليل ساطع على دور أدوات العمل في تطور الانتاج • وفي المستقبل ـ كما ورد أيضاً في برنامج الحزب ـ سوف يكون لتطوير المنشآت الآلية الأهمية الاولى من أجل اعادة تسليح الاقتصاد الشعبي بالتكنيك الرفيع • فخلال عشرين عاماً سوف يتضاعف حجم انتاج الصناعة المعدنية وصناعة المنشآت الآلية (١٠ ـ ١١) مرة ، بينما الخطوط الاوتوماتيكية ونصف الاوتوماتيكية (٦٠) مرة • وذلك سوف يكون تكنيك الشيوعية •

ان المادية التاريخية ، اذ تنظر الى وسائل العمل كنتيجة لطاقة الناس العملية وتجسيد للتجربة والمعارف المتراكمة ، وكدليل على النجاحات التي حققها الناس في نضالهم مع **الطبيعة**، تعتبرها الأساس المحدِّد لتطور الانتاج والمجتمع بأسره . ولقد كتب ماركس : « ان العصور الاقتصادية لا تتميز عن بعضها ب « ماذا تنتج » وانما ب « كيف تنتج » وبأية وسائل للعمل »[٢] . وعلاوة على هذا ، فان أدوات العمل التي يرثها كل جيل عن الأجيال السالفة تتحول الى **نقطة** انطلاق للتطور المقبل ، وهذه الحقيقة بالذات هي أساس التواصل في التاريخ .

وكما ذكرنا ، فان وسائل العمل لتؤلف قوى الانتاج فقط عندما ينضم اليها الناس ، الشغيلة ، الذين يمنحونها الحركة ويحققون انتاج الخيرات المادية . وفي فترة بناء الشيوعية ، هذا المجتمع الذي يصبح فيه العمل الحاجة الحياتية الأولى وعادة الانسان الحقيقي الصحيح ، فان أعظم مهمة ستقوم هي مهمة انشاء العلاقة الشيوعية الجديدة بالعمل .. وان الحزب الشيوعي ، اذ ينطلق من هذه الحقيقة ، يضع مهمة ادخال كل الجيل الصاعد ، بدءاً من سن معين ، الى ميدان العمل الاجتماعي المنتج المفيد والالزامي . فالناس قوة انتاجية لا من حيث تكوينهم البيولوجي ، وانما من حيث هم كائنات اجتماعية . فبفضل الخبرة المعروفة والأعراف وحدها يتمكنون من انتاج أدوات الانتاج ومن استعمالها ، وبالتالي فهم يؤلفون قوة انتاج في المجتمع ، لا لانهم يملكون الأعصاب والعضلات والمخ والأطراف (فليست الحيوانات عديمة هذه الأشياء) ، وانما لأنهم يصنعون أدوات الانتاج ويحسنون استعمالها .

ثم ان الخبرة الانتاجية وتقاليد العمل ليست هبة من الطبيعة ، بل هي من نتاج الحياة الاجتماعية القائمة على أساس من النشاط الانتاجي المادي ، فالانسان كقوة منتجة انما هو نتاج التاريخ .

---

(٢) ماركس وانجلس . المؤلفات . الجزء ٢٣ ص ١٩٦ .

واذا كانت أدوات الانتاج تؤلف عنصراً محدِّداً لوضع قوى الانتاج ،فان الناس الشغيلة هم العنصر الاساسي والرئيسي لقوى الانتاج • فبين يدي الانسان وحده تصبح شيئيات الطبيعة أدوات انتاج ، كما أن الانسان لا يصبح قوة منتجة الا في استعماله لأدوات الانتاج • ان مبادرة وموهبة ومعارف الانسان هي مصدر التحسينات في التكنيك •

فالآلة التي تصدأ تحت المطر ، أو تنحَّى عن الانتاج لأزمة ما ، تكون قوة منتجة في الامكانية وحسب • انها مجرد كتلة من المعدن لا غير • وبين يدي الانسان وحده تستعيد حياتها وتتحول الى قوة منتجة فعَّالة حقيقية ، فلا يمكن فصل الناس عن أدوات الانتاج أو وضع كل منهما في طرف مناقض للآخر • فبهذه الوحدة بين الناس وأدوات الانتاج تتألف قوى الانتاج لأي مجتمع من المجتمعات • وفي هذه الوحدة تقوم أدوات الانتاج بتحديد علاقة الانسان الخاصة بالطبيعة مع أنها هي نفسها من انتاج العمل العقلي للانسان ، وتكشف عن مدى تطور الانسان والمجتمع كله • ان الانسان يتكيف مع وسائل العمل المتوفرة في المجتمع ويغيرها • وهو ، اذ يقوم بتحسين وسائل العمل التي ينصبها بينه وبين الطبيعة ويستخدمها في الانتاج ، يتغير هو أيضاً بدوره •

وهكذا فان خبرة وتقاليد الناس تتحدد قبل كل شيء بالأدوات التي يستعملونها • ومع تطور التكنيك تزداد الحاجة الى معارف وخبرات الناس • فأن تحرث الأرض بالمحراث الخشبي ــ شيء ، وأن تحرثها بالجرار ــ شيء آخر • فلقد أكد لينين ، بصدد حديثه عن كهربة روسيا كلها ، بأن الانسان الجاهل بالمحراث الكهربائي لن يكون جديراً بالعمل ، اذ لن يكون تعلم القراءة والكتابة كافياً آنذاك •

ان تطور الانتاج الآلي المرتبط بالتطبيق الواعي لمعطيات العلوم الطبيعية ليتطلب من المنتج المباشر ، ليس فقط تجميع الخبرة التجريبية ، بل ومعارف تكنيكية وطبيعية علمية أيضاً • ان الرأسمالية تعرقل ، المستوى التكنيكي والثقافي للشغيلة • بينما الاشتراكية تخلق أوسع الامكانيات والمجالات من أجل

النهضة المستمرة بالمستوى التكنيكي والثقافي للعمال وللفلاحين ، مما يؤلف عاملا مهماً في تسريع وتيرات التطور الاقتصادي للبلدان الاشتراكية .

ان تعاظم شأن العامل الروحي في الانتاج كنتيجة مباشرة لتعقد التكنيك يؤدي أيضاً الى توسيع بنية قوى الانتاج . ان علينا في وقتنا هذا أن نُدخل في عداد قوى الانتاج ، الى جانب الناس القائمين بالعمل العضلي ، كل التكنيكيين والمهندسين وحتى العلماء الذين يحققون الخدمة التكنيكية العلمية المباشرة لعملية الانتاج . وان ضرورة مثل هذه الاضافة لتبرز خاصة في ميدان أتمتة الانتاج حيث لايخرج الانسان من العملية المباشرة للانتاج وحسب ، وانما تنتقل وظائف ادارة هذه العملية الى الآلات ، وينحصر نصيب الانسان في المراقبة العامة وفي التصليح وغيره . وهكذا فان الوحدة بين الانسان ووسائل العمل ترقى هنا الى درجة جديدة أعلى .

فعندما ندرس تطور قوى الانتا ج لايجوز لنا أن نتناول وسائل الانتاج الا في وحدتها مع الشغيلة . ان تطور قوى الانتاج ، اذ يؤلف التقدم التكنيكي أساسه ، يتضمن أيضاً تحسين الخبرة والتقاليد ، ونمو المستوى التكنيكي والثقافي للشغيلة ، وتحسين الجهاز التكنيكي للانتاج .

وبموجب هذا فان برنامج الحزب يبين أن عملية خلق القاعدة المادية التكنيكية للشيوعية تتطلب تطويراً هائلا للتكنيك الجديد ، وتنظيماً رفيعاً وثقافة عالية في الانتاج . وهذا يرتبط بالأتمتة الكاملة لعمليات الانتاج ، وبادخال الأتمتة الى ميدان الادارة والمراقبة ، وبرفع المستوى الثقافي والتكنيكي للشغيلة ، وبالتقريب بين العمل الذهني والعمل العضلي ... الخ . كما أن لتطوير المنافسة وانتشار الأشكال الشيوعية للعمل أهمية كبرى أيضاً في هذا المجال . الا أن تأثير هذين العاملين الأخيرين مرتبط بتأثير علاقات الانتاج التي تؤلف الشقّ الثاني من أسلوب الانتاج .

علاقات الانتاج

ان علاقات الانتاج الاقتصادية ، وكذلك الأمر قوى الانتاج ، تؤلف الجانب الهام من الانتاج ذاته . وهذا ما يفسره كون الناس « عاجزين عن الانتاج ان لم يكونوا متحدين بصورة من الصور من أجل النشاط الجماعي والتعاون المتبادل في هذا النشاط»[1] .

ان مفهوم علاقات الانتاج لهو واحد من أهم المفاهيم في المادية التاريخية. لان هذا المفهوم يعكس العلاقات المادية الموضوعية المستقلة عن وعي الناس والتي تتكون بينهم بفعل عملية انتاج السلع الاجتماعية ومسيرتها الطويلة الى حقل الاستهلاك . ان أساس علاقات الانتاج هي علاقات الملكية لوسائل الانتاج التي تحدد في كل ظاهرة معينة ذلك الشكل الخاص الذي يتحد فيه كل من العامل ووسائل العمل . وتتعلق بطابع الملكية أيضاً الجوانب الأخرى لعلاقات الانتاج : العلاقات بين الناس في عملية الانتاج ذاتها ، والتعاون المتبادل في مجال نشاطهم ، وكذلك العلاقات القائمة على صعيد توزيع الخيرات المادية المنتجة . فاذا كانت الملكيةاجتماعية ، أي أنه اذا كانت وسائل الانتاج في يد المجتمع كله ، تكون ثمة علاقة واحدة تجمع بين أفراد المجتمع ووسائل الانتاج ، وتقوم بينهم أيضاً علاقات المساعدة والتعاون المتبادل . ويمكن بالطبع أن تختلف أشكال ذلك التعاون وكذلك أشكال الملكية الاجتماعية . فمثلا ، يمكن للملكية الاجتماعية أن تأخذ أشكالا مختلفة في التاريخ : فهنالك ملكية العائلة ، وملكية القبيلة ، وملكية الجماعة ، وملكية مجموعة من الشغيلة المتحدين في كومونة أو غيرها ، وملكية الدولة ، وملكية الشعب بأسره .

فاذا كان المالك لوسائل الانتاج أناس معينون أو فئات اجتماعية أو طبقات ، أي أنه اذا كانت وسائل الانتاج في أيدي فئة من المجتمع دون باقي الفئات ، فان هذا يعني أن الملكية تتخذ طابع الملكية الخاصة ، وتظهر حتماً في المجتمع علاقات السيد بالمسود . ويمكن أن تختلف وتتباين أشكال هذه العلاقات . وهي تتعلق بطبيعة الملكية الخاصة السائدة في هذا المجتمع .

---

(١) ماركس وانجلس . **المؤلفات** . جزء ٦ ص ٤٤١ .

لقد عرف التاريخ ثلاثة أشكال أساسية للملكية الخاصة : الشكل العبودي والاقطاعي ، والرأسمالي ، ويميز الأشكال الثلاثة جميعها استغلال الانسان للانسان • وبالاضافة الى ذلك ، فثمة ملكية خاصة للمنتجين تقوم على العمل الخاص ، لكن هذا الشكل يخضع دائماً لعلاقات الانتاج السائدة في هذا المجتمع أو ذاك • ففي الظروف الرأسمالية مثلا نجد أن الملكية الصغيرة للفلاحين والحرفيين والتجار الصغار الذين ينتمون الى هذا الشكل الأخير من الملكية ، هي (أي الملكية) قطاع اقتصادي معين واقع دائماً تحت وطأة العلاقات السائدة • وبقدر ماتختلف علاقات الناس بوسائل الانتاج ينقسم المجتمع الى طبقات مختلفة يكون في مقدور احداها ـ طبقة المستغِلين ـ جني ثمار عمل الطبقة الأخرى ـ طبقة المستَغلين ـ وذلك لاختلاف المكان الذي تحتله كل منهما في ذلك الوضع المعين للاقتصاد الاجتماعي ، ان الانقسام الطبقي للمجتمع، والنضال الطبقي الذي يولده الاستغلال يؤلفان الطابع المميز للأشكال الاجتماعية اللا انسانية •

وبهذا فان الشكلين الأساسيين للملكية ـ الاجتماعية والخاصة ـ يبرزان في التاريخ كشكلين أساسيين للعلاقات الاقتصادية القائمة بين الناس : العمل المشترك والتعاون المتبادل ، أو السيادة والخضوع •

والى جانب هذين الشكلين ،وفي فترة القضاء على أحدهما وظهور الآخر ، كانت تظهر كذلك علاقات انتاجية انتقالية • ففي فترة سقوط العهد البدائي ونظام الأسر كانت تتحد بقايا ذلك المجتمع مع بذور العلاقات العبودية الجديدة، وفي فترة سقوط النظام العبودي ظهرت في كثير من البلدان أشكال اجتماعية تحوي في داخلها عناصر من نظام العبودية ومن العلاقات الاقطاعية الجديدة • وفي فترة الانتقال من الرأسمالية الى الاشتراكية نجد أن بعض القطاعات الاقتصادية تحوي في داخلها علاقات اشتراكية مع بقايا علاقات الملكية الخاصة مهما كان شكلها وسواء أكانت صغيرة أو كبيرة (رأسمالية الدولة والتعاونيات الزراعية في القرية النصف اشتراكية ••• الخ) وبوجه عام ، فان اقتصاد المرحلة الانتقالية من الرأسمالية الى الاشتراكية بقطاعاته المختلفة وبالعلاقات

الخاصة القائمة بين هذه القطاعات المتنوعة ، والذي يزحم فيه القطاع الاشتراكي باقي القطاعات ، يحمل دون ريب طابعاً انتقالياً •

ان الفروق بين الانتاج وعلاقات الانتاج هي الفروق بين جانبين اثنين لانتاج واحد واللذين لايمكن أن يوجد أحدهما بمعزل عن الآخر • ويمكننا ـ كتجريد فقط ـ أن ننظر الى قوى الانتاج منفصلة عن علاقات الانتاج أو الى علاقات الانتاج بدون قوى الانتاج • وبهذا فان قوى الانتاج هي محتوى الانتاج الاجتماعي ، وأما علاقات الانتاج فهي الشكل المادي الضروري له •

ان مادية العلاقات الانتاجية هي في أنها توجد بشكل موضوعي ، وتندمج مع الضرورة ، وفي كونها لاتتعلق بارادة ووعي الناس وانما بقوى الانتاج ذاتها • لقد دخل الشعب السوفييتي مرحلة بناء علاقات الانتاج الشيوعية • ان طابع تلك العلاقات وضرورة خلقها تنبعثان من قوى الانتاج الراهنة • فليس البشر هم الذين يحددون علاقات الانتاج وانما قوى الانتاج ذاتها هي التي تقوم بذلك • ان علاقات الانتاج الملائمة لقوى الانتاج تظهر كشكل ناتج عن ممارسة هذه الأخيرة لوظائفها وعن تطورها • فلماذا ينبغي أن تكون علاقات الانتاج هنا بالذات ملائمة لقوى الانتاج ؟ ان قوى الانتاج تعبر عن علاقات الانسان بالطبيعة ، أي أنها تعبر عن الشكل الأساسي من نشاط الانسان، النشاط الموجه الى تأكيد بقائه • ومن الطبيعي أن تقوم على أساس التأثير المتبادل مع الطبيعة مثل تلك العلاقات التي من شأنها توظيف وتطوير قوى الانتاج وتأمين تبادل الأشياء مع الطبيعة •

ولهذا فان الناس يقيمون علاقات معينة حرصاً منهم على وجودهم • لكن الوسيلة التي يحافظ بواسطتها الناس على وجودهم هي الانتاج ، وتغيير الطبيعة بواسطة وسائل العمل • وبوسائل العمل هذه بالذات يتعلق طابع النشاط الانتاجي للناس وكذلك العلاقات التي لا مندوحة للناس منها في عملية الانتاج•

وعن هذا ينتج أن علاقات الانتاج تقوم بصورة لاترتبط بارادة الناس ووعيهم ،وانما تتعلق بمستوى تطور وطابع قوى الانتاج ذاتها ،وأخيراً فانها تتعلق بوسائل العمل • لقد كتب ماركس « ان أدوات العمل ليست فقط مقياساً لتطور

القوى العاملة الانسانية ، وانما هي تكشف لنا عن العلاقات الاجتماعية التي يتم العمل في ظلها »[1] • وان علاقات الانتاج بدورها تعطي صفة اجتماعية لتشغيل قوى الانتاج ولعملية العمل ذاتها ، وذلك عندما يكون الانتاج رأسمالياً أو اشتراكياً أو اقطاعياً أو عبودياً • وبتعبير آخر ، يمكن القول ان لكل وسيلة انتاج معينة قانونها الاقتصادي الأساسي الذي يحدد الهدف الذي يخضع له نشاط الناس الانتاجي في نظام تلك العلاقات الانتاجية كما يحدد وسائل بلوغ ذلك الهدف • ولهذا فان القول بأن علاقات الانتاج هي شكل تاريخي ملموس لتطور قوى الانتاج ، أو أن قوى الانتاج تتطور في كل شكل من العلاقات خاضعة لقانون اقتصادي أساسي ، انما هو قول واحد • وينتج عن هذا أنه بالرغم من أن قوى الانتاج هي التي تحدد علاقات الانتاج ، فان علاقات الانتاج بالذات هي التي تعطي التحديد النوعي لكل وسيلة انتاج •

والى جانب علاقات الانتاج ثمة كثير من الظواهر الاجتماعية الاخرى في المجتمع ، وهي كلها تتولد من الانتاج ذاته • وبالطبع فان الرابطة التي تربطها جميعها بالانتاج مختلفة لكنها موجودة • وتتجلى في الكشف عن تلك الرابطة روعة مأثرة ماركس التاريخية • والعبرة هي في أن كل ظاهرة اجتماعية (اللغة ـ الفن ـ الدولة ـ الأمة ـ العلم ـ الأخلاق الخ •••) لايمكن فهمها مجردة ودون النظر اليها كظواهر وليدة وملبية لمتطلبات اجتماعية معينة •

وبما أن وسيلة الانتاج هي التي تحدد نمط حياة الناس في هذا المجتمع أو ذاك ، فان جميع ظواهر الحياة الأخرى تتعلق بوسيلة الانتاج وتكون نابعة منها ومشروطة بها •

ولذا ، فان وحدة وغائية كل الظواهر الاجتماعية الملازمة لكل شكل اقتصادي ـ اجتماعي لاتظهر صدفة ، وانما بفعل الدور المحدد للانتاج في حياة وتطور المجتمع • ان وسيلة الانتاج هي الأساس الاقتصادي المادي لكل شكل اجتماعي ، وان الدور المحدد لوسيلة الانتاج بالنسبة لكل الظواهر الاجتماعية الأخرى لهو بالفعل قانون التطور التاريخي •

---

(١) ماركس وانجلس • المؤلفات • الجزء ٢٣ الصفحة ١٩١

الواقع الاجتماعي والوعي الاجتماعي

مفهوم الواقع الاجتماعي ـ الوسط الطبيعي والوسط الاجتماعي

ان وضع الرابطة التي تربط وسيلة الانتاج مع جوانب الحياة الاجتماعية الأخرى يوجب الاجابة العلمية عن سؤال الفلسفة الأساسي بالنسبة للمجتمع . وان الاجابة عن هذا السؤال يقع على عاتق المادية التاريخية كعلم فلسفي عن المجتمع ، ويتطلب ادخال مفاهيم جديدة تجد فيها خصائص الظواهر المادية والمثالية تعبيراً لها في العملية التاريخية . وان من بين هذه المفاهيم مفهوم « الواقع الاجتماعي » و « الوعي الاجتماعي » . وعند النظر الى هذين المفهومين ينبغي ألا ننسى تلك المقولة القائلة بأن الجوانب المختلفة للعملية التاريخية المنعكسة والمثبتة جميعها في مفاهيم المادية التاريخية يمكنها أن تكون مفهومة ومحددة في علاقتها مع الكل ، وفي ارتباطها المتبادل مع الجوانب الأخرى للكل التاريخي . وهكذا فان أهمية المحتوى الموضوعي وأهمية مفهوم الواقع الاجتماعي هي في كونه وضع للجواب عن السؤال الأساسي في الفلسفة بالنسبة للمجتمع . وان هذا المفهوم لايعكس كل ما هو موجود خارج وعي الانسان ويمكنه أن يمارس التأثير فيه فحسب ، وانما يعكس أيضاً ذلك الوعي الذي يحدد وعي المجتمع ويعتبر أولياً بالنسبة لكل جوانب الحياة الاجتماعية الأخرى ، انه يعكس الاساس المادي لتطور المجتمع كله . ثم ان العالم المادي والطبيعة ، والواقع المادي بوجه عام ، يوجد خارج وعي الانسان وبصورة مستقلة عنه .

ان الواقع الاجتماعي هو جزء من الواقع متضمناً الحياة المادية للمجتمع . وهو يوجد خارج وعي المجتمع ويحدده . ان وضع الحدود بين الواقع ككل وبين الواقع الاجتماعي عملية ضرورية جداً لفهم المجتمع كشكل خاص من أشكال حركة المادة ، وللكشف عن منابع حركته الذاتية . ان الخطوط العملاقة التي قام بها كارل ماركس ، بالمقارنة مع المادية القديمة ، بشأن معرفة الحياة الاجتماعية لهي قبل كل شيء في فصل الواقع الاجتماعي عن الواقع الطبيعي

وفي نظرته الى المجتمع كعملية مادية خاصة متميزة عن العملية الفيزيائية أو البيولوجية تسيرها قوانينها الخاصة بها • وهذا لايعني فصل الواقع الاجتماعي عن الواقع الطبيعي ، بل الذي يهمنا هنا هو اظهار الفروق بينهما • فليس ثمة ظواهر كثيرة في الطبيعة ، وانما في المجتمع ذاته عديد من الظواهر الموجودة خارج وعي الانسان والتي تؤثر فيه • فمن الواضح تماماً أن الدولة والأحزاب والمنظمات الاجتماعية المختلفة وغيرها توجد خارج وعي الانسان• ولكن هل يعني هذا ياترى أنها تنتمي الى الواقع الاجتماعي ؟ ان العلاقات السياسية القائمة بين الطبقات ، وان نشاط الدولة والأحزاب السياسية وغيرها توجد لا في وعي الناس وانما خارجه ، وهي تؤلف عناصر الواقع التاريخي • لكنها لاتنتمي ، ولايمكن أن تنتمي ، الى الواقع الاجتماعي لكونها ثانوية ناتجة عن العلاقات الاقتصادية المادية • فهي غير مستقلة عن الوعي الاجتماعي بالرغم من أنها توجد خارجه • ان اقحام كل العلاقات الاجتماعية في الواقع الاجتماعي يحرمنا من المقياس الموضوعي للتفريق بين المهم وغير المهم ، بين الرئيسي والثانوي في الحياة الاجتماعية • فاذا اعتبرنا ، مثلا ، أن السياسة عنصر من عناصر الواقع الاجتماعي ، فان علينا آنذاك أن نفسر النشاط السياسي من السياسة نفسها • وبهذا أيضا نفقد الأساس الموضوعي لتقييم السياسة وارتباطها بالاقتصاد وبالمصالح الاقتصادية للطبقات • ان السياسة لايمكن أن تحدد تطور المجتمع ووعي الناس بالرغم من أنها تمارس تأثيراً كبيراً على المجتمع كله •

ان كارل ماركس لم يفصل الواقع الاجتماعي عن الواقع الطبيعي فحسب، وانما أكد أنه لايتطابق مع مايسمى « بالواقعية الاجتماعية » ، وأنه يؤلف الأساس المادي المحدد لحياة المجتمع •

وهنا ينبغي القول بأن الماركسية تقف على طرف مناقض لتقليد علم المجتمع البورجوازي الذي ينطلق من الشخصية والواقع الفردي لدى تقييم وتفسير الحياة الاجتماعية •

ان واقع انسان ما في المجتمع المتطور من حيث تقسيم العمل يمكن أن يكون غير مرتبط بالانتاج مباشرة • ان واقعه هو حياته في ظروف وسط

اجتماعي معين يضم كل مايحيط بذلك الانسان وكذلك نوع نشاطه الخاص • لهذا فان واقع الجندي هو غير واقع الموظف المدني ، وواقع الفنان يختلف عن واقع العالم ، وواقع العامل بعقله يختلف عن واقع العامل بعضلاته ، ان كل انسان بطبعه وذوقه ونظراته لهو نتـاج « وسط اجتماعي » معين • ان الماديين قبل ماركس توصلوا الى فهم هـذه الحقيقة ، وظلوا جميعاً خارج نطاق المادية في التاريخ • فلم يتسن لهم معرفة الأسباب التي تحدد هذا الطابع أو ذاك للوسط الاجتماعي ، ولم يتمكنوا من معرفة سبب كون انسان عسكري وآخر مدني ، وجود فنان وعالم ، وجود عمل ذهني وآخر فيزيائي الخ ••• أي أنهم لم يتمكنوا من تفسير هذه البنية الاجتماعية أو تلك ، وكذلك الأفكار السائدة والأعراف •

ان كارل ماركس ، عندما أجاب على السؤال الأساسي للمادية التاريخية ، تمكن من ابراز ذلك الجانب من الحياة الاجتماعية الذي لايرتبط بوعي فرد من الأفراد ولا بوعي المجتمع ، والذي يحدد كل بنية الشكل الاجتماعي ، وبالتالي ، فان الواقع الفردي للناس في كل نواحي المجتمع ليس الا جانباً من الواقع الاجتماعي • ولهذا ففي أساس تحليل الحيـاة الاجتماعية لـم توضع مصالح ومتطلبات ووعي الأفراد ، كما كان الأمر سابقاً ، وانما وضعت قانونية تطور الواقع الاجتماعي • وهذا مما أتاح لنا أن نتصور بنية كل مجتمع كشيء حتمي وغائي ، وليس كجمع ميكانيكي بسيط لظواهر معينة ، وأتاح لنا أن نتمثل تطور كل مجتمع كعملية مقوننة •

وأخيراً فانه لايمكن النظر الى الواقـع الاجتماعي كشيء جامد • ان الواقع الاجتماعي هو عملية الحياة المادية للمجتمع ، عملية التأثير المتبادل بين الناس والطبيعة وبين الناس أنفسهم •

وهكذا ، فالواقع الاجتماعي هو الحياة المادية للمجتمع ، أي أنه العلاقات الماديـة القائمة بين الناس والطبيعة وبين الناس أنفسهم ، تلك العلاقات التي تتكون في عملية الانتاج واعادة انتاج حياتهم المباشرة • ان وسيلة انتاج الحياة

المادية ـ هذه الوسيلة المحددة تاريخياً ـ تشرط عمليات الحياة الروحية والسياسية والاجتماعية في هذا الشكل الاقتصادي الاجتماعي أو ذاك • ان الواقع الاجتماعي يتوازى مع الوعي الاجتماعي •

الوعي الاجتماعي :

ان الوعي الاجتماعي هو جانب ضروري من جوانب الحياة الاجتماعية للناس ،والذي بدونه لايمكن للمجتمع أن يقوم • ان الوعي يظهر بالضرورة على أساس من نشاط الناس المادي العملي ، لأنه لايمكن بدونه أن يكون ثمة تأثير واع على الطبيعة ـ لايمكن تغييرها وتكييفها حسب متطلبات الناس • ان خصائص النشاط العملي للانسان هي التي تحدد خصائص وعيه • ان علاقة الحيوان بالطبيعة تتم مباشرة بواسطة أعضائه الطبيعية • وان العملية الحياتية البيولوجية ـ تبادل الأشياء بين الجهاز العضوي وبين الوسط الخارجي ـ هي أساس نفسية الحيوان • ان نفسية الحيوان تعادل العلاقة المتبادلة بين جهازه العضوي ككل وبين الوسط المحيط به ، وتفيد في تكييف هذا الجهاز لظروف الوسط الثابتة أو المتغيرة • ويهم الحيوان من الوسط المحيط كل ماله أهمية حياتية وبيولوجية بالنسبة لجهازه العضوي ، أي أنه يميز كل العلاقات الدالة على الطعام أو الخطر أو غيرهما • ان متطلبات الجهاز العضوي للحيوان تخدمها الأشكال الحسية لتلقي الواقع والتي تعكس الصفات والروابط والأشكال الخارجية •

وبطريقة تختلف عن الحيوان فان علاقة الانسان بالطبيعة علاقة وسائطية، أي أنه يضع بينه وبين الطبيعة أعضاء اصطناعية ـ أدوات العمل ـ يؤثر بواسطتها على الطبيعة ويغيرها • ان الانسان في عمله لايتكيف مع الطبيعة ،وانما يكيف الطبيعة مع متطلباته • ان الوعي الذي يظهر على أساس العمل لايعكس فقط ذلك الشيء ذا الأهمية البيولوجية بالنسبة للانسان ، وانما كل ماله أهمية بالنسبة للعمل أيضاً • ان هذا ، أولا ، من شأنه أن يوسع دائرة الظواهر التي يعكسها الانسان الى حد كبير ، وثانياً ، يولد متطلبات جديدة في أشكال

الانعكاس الجديدة الخاصة به وحده دون الحيوان • ذلك أنه لايمكن تغيير الطبيعة الا حسب قوانين الطبيعة ذاتها • وللتأثير على موضوع ما تأثيراً واعياً وتكييفه مع متطلباته ينبغي على الانسان أن يعرف الموضوع ليس معرفة ظاهرية وحسب ، وانما عليه أن يلج الى أعماق خصائصه الجوهرية الداخلية•وهكذا ، فمن أجل صنع أدوات العمل ينبغي على الانسان أن يعرف الخصائص العامة لأنواع شتى من المواضيع • ان الوجه الظاهري للواقع يمكن تلقيه عن طريق الحواس • لكنه من أجل الولوج الى جانبه الجوهري الداخلي الذي لاتدركه الحواس ثمة امكانية أخرى عند الانسان تخلق في عملية العمل ـ تلك هي امكانية التفكير المجرد التي تؤلف الخصائص المميزة لوعي الانسان • انالتفكير المجرد يؤلف نفسية الانسان كلها • ان احساس الانسان لايتطابق مع احساس الحيوان لأنه ما ينفك يغنى بنتائج نشاط التفكير المجرد • ان عين النسر ترى الى مسافة أبعد ، لكن الانسان يبصر أكثر مما يبصر النسر •

ثم ان الحيوان لايميز بينه وبين الطبيعة ، أي أنه لايتلقى علاقته بالطبيعة كعلاقة [1] • أما الانسان فينفصل في عمله وعلى أساس هذا العمل عن الطبيعة التي يعكسها كوعي لعلاقته مع الموضوع • وبهذا فان الوعي نفسه يتطور على أساس العمل •

ان وعي الانسان فعال ، فهو لايعكس العالم الموضوعي وحسب ، وانما يخلقه ـ كما قال لينين • ان هذا النشاط الخلاق لوعي الانسان الذي يصوره المثاليون تصويراً صوفياً فيذهبون به الى ما فوق الطبيعة ويجعلونه خاصة من خصائص الروح ، لايمكن أن يفسر الا بخصائص النشاط العملي الانساني كنشاط فعال خالق للعملية • ان التفكير الانساني يتمكن من وضع الأهداف ومن ابداع خطة للنشاط في المستقبل ، ومن الخلق والابداع وغيرهما على أساس العمل بالذات •

وأخيراً فان العمل يوجد في المجتمع فقط • وان الانتاج هو دائماً

---

(١) ـ ماركس وانجلس • المؤلفات • الجزء ٣ • ص ٢٩ •

اجتماعي • ولهذا فان علاقة الانسان بالطبيعة في عملية النشاط العملي ينبغي ألا ينظر اليها كعلاقة انسان معين ، وانما كعلاقة المجتمع بالطبيعة • ان علاقة الانسان بالطبيعة توجد دائماً في اطار من العلاقات الاجتماعية المعينة • وعندما يدخل الناس في علاقات الانتاج الضرورية فانهم يدركون تلك العلاقات بصورة أو بأخرى • وبهذا فان وعي الطبيعة ووعي الحياة الاجتماعية هو بكليته نتاج للتطور الاجتماعي ، ويظهر من متطلبات الانتاج الاجتماعي ، ويوجد في المجتمع فقط وللمجتمع ، ولهذا فقد دعي بالوعي الاجتماعي •

ان الواقع الاجتماعي لا يحدد فقط خصائص الوعي الاجتماعي ، وانما يحدد بنيته أيضاً • ان الوعي الاجتماعي يحوي في داخله الوعي الاعتيادي[1] (انعكاس حياة الناس اليومية المباشرة) والوعي العلمي للواقع (أي العلوم والايديولوجية) • ان متطلبات العمل الاجتماعي ذات طابع مزدوج • فبما أن الناس يفعلون فعلا هادفاً في الطبيعة أو في الحياة الاجتماعية ، فانه تظهر لديهم الحاجة الى المعرفة الموضوعية لخصائص وقوانين الواقع • وبالفعل ، فلا يمكن أن تقوم دون هذا أية محطة لتوليد الكهرباء في مجتمع رأسمالي أو اشتراكي• ففي هذه الحالة يهتدي الناس بتلك القوانين الموضوعية ذاتها التي اهتموا بمعرفتها من أجل ذلك • ان الاهتمام الاجتماعي هو أيضاً في معرفة الموضوع لوحده مستقلا عن الانسان وعن علاقته بالانسان • ان التطبيق العملي يبرز من الموضوع تلك الجوانب التي يهتم الانسان بمعرفتها ، لكنه يحتاج الى القوانين الموضوعية من أجل نجاح العمل •

والى جانب هذا فان العمل ـ كما هو معروف ـ يكون مستحيلا في المجتمع بدون أشكال معينة من التنظيمات والعلاقات الاجتماعية • وبما أن الناس يدخلون في تلك العلاقات ، فلابد من ظهور الحاجة في المجتمع الى مثل هذا الوعي الذي يعكس تلك العلاقات ،أي الى الايديولوجية •ان الايديولوجية كالوعي من حيث أنها وليدة الاهتمام الاجتماعي ، لكن لها طابعاً آخر • ان

---

(١) ـ هذا الاصطلاح (الوعي الاعتيادي) كان يستعمله انجلس ليميزه عن الوعي النظري العلمي في كتابه (أنتي دهرنيغ) ص ١٤ •

الاشكال الاجتماعية المختلفة في التاريخ كانت تظهر وتتطور وتتغير الى أشكال أخرى على أساس الضرورة المادية وبمساعدة الأفكار التي توحد وتنظم الجماهير • ان الاهتمام الاجتماعي الذي يولد تلك الافكار موجه اما الى توطيد شكل العلاقات الاجتماعية القائم ، والحفاظ عليه ، واما الى تغييرها •

ان في تطور الوعي الاجتماعي اتجاهين يرتبط أحدهما بالآخر • أولا : الاتجاه المعرفي المشروط بالمتطلبات الواقعية لعمل الانسان الاجتماعي ـ تراكم المعارف الموضوعية عن الطبيعة والمجتمع ، وثانياً : الاتجاه الايديولوجي المشروط بمتطلبات الحفاظ على العلاقات الاجتماعية القائمة أو تغييرها • ففي الحياة الواقعية يكون هذان الاتجاهان مرتبطين أحدهما بالآخر ارتباطاً وثيقاً كما أنهما يندمجان أحياناً ببعضهما حتى لايمكن فصل أحدهما عن الآخر عن طريق التحليل النظري ، أي بالتجريد • وثمة عامل معرفي في العملية الايديولوجية ، أما في تطور المعرفة فهنالك جانب ايديولوجي • لكنه لايجوز الخلط أو المطابقة بين هذين الاتجاهين ، لان الوعي الاجتماعي لاينتهي الى المعرفة ولا الى الايديولوجية • ان الوعي الاجتماعي هو مجموعة الحياة الروحية للمجتمع ، بينما الايديولوجية هي ذلك الجزء من الوعي الاجتماعي الذي يرتبط بشكل مباشر بحل المشاكل الاجتماعية الماثلة أمام المجتمع ، ويخدم في تعزيز أو تغيير العلاقات الاجتماعية • ان الايديولوجية تحمل طابعاً طبقياً في كل مجتمع طبقي ، أي أنها التعبير الروحي عن المصالح المادية لطبقات معينة •

لكننا ، اذا أبرزنا الخلاف بين العنصر الايديولوجي والعنصر المعرفي في الوعي الاجتماعي ، أفلا يفضي بنا هذا الى عزل الايديولوجية عن عملية المعرفة؟ فالوعي الاجتماعي هو انعكاس للواقع وبالتالي فهو معرفة الواقع •

في الحقيقة ان الوعي الاجتماعي بكليته ، اذا ما نظرنا اليه من وجهة نظر نظرية المعرفة ، ليس الا انعكاساً للواقع • ولهذا ، وطالما أن الوعي الاجتماعي يعالج بموجب مخطط المعرفة ، فانه ينبغي ألا توضع فروق بين العنصرين الايديولوجي والمعرفي في الوعي الاجتماعي • ان وجود مثل هذا التعاون يصبح واضحاً

عندما نعالج القضية بطريقة أخرى ، وعلى وجه التحديد ، بموجب المنهج الاجتماعي • وعندما ندرس الوعي الاجتماعي من وجهة النظر تلك التي تبين لنا الحاجة الاجتماعية التي ظهر على أساسها ، والوظيفة التي يقوم بها ، عند ذلك فقط يمكننا أن نكشف بجلاء عن تلك الفروق بين المعرفة التي هي انعكاس للقوانين الموضوعية ، وبين الايديولوجية التي هي انعكاس للاهتمامات الاجتماعية وانعكاس للواقع كله خلال موشور تلك الاهتمامات ،وبالطبع ، علينا ألا نضع الطريقة الاشتراكية على طرف مناقض للطريقة المعرفية • فالمسألة هنا هي أننا ، عندما ندرس الوعي الاجتماعي في المنهج الاشتراكي ، تظهر كثير من المشكلات الجديدةالخارجة عن اطار علم المعرفةوالتي تدرسها المادية التاريخية بصورة خاصة •

وينبغي ألا ننظر الى الوعي الاجتماعي كمجموعة من الادراكات الفردية لكل أعضاء هذا المجتمع أو ذاك ، وانما كنظرات ونظريات في المجتمع • ولكن ليس الوعي الاجتماعي نظماً ايديولوجية فقط ، ونظرات مدروسة نظرياً ، ومعارف علمية متراكمة ناتجة عن نشاط الايديولوجيين والنظريين والعلماء ، وانما هو أيضا وعي لجماهير الناس يتولد خلال ممارستهم لنشاطهم العملي اليومي ، هذا الوعي المسمى بالوعي الاعتيادي • وان هذا الاخير لايرقى الى الفهم النظري للواقع ، بخلاف الايديولوجية والعلم ، وانما يحده اطار من التجربة اليومية ، ويتوطد في التقاليد والأعراف والعادات وما شابهها •

وهذا الوعي الاعتيادي يشمل على :

١ ــ التجربة المتراكمة خلال قرون كثيرةوالناتجة عن النشاط العملي ، وكذلك المعارف الضرورية للعمل ، وهكذا ، وعلى سبيل المثال ، فقد اعتمد الحرفيون والفلاحون في عملهم زمناً طويلا على هذه التجربة •

٢ ــ المقاييس الأخلاقية التي تكونت في الحياة اليومية وفي العمل ، وكذلك الحق العادي ، ومجموعة التصورات عن العالم المحيط (الواقعية الساذجة مثلا) ، ومجموعة تصورات الناس عن أوضاعهم وواجباتهم وغيرها•

ان هذه النظرات والتصورات يطلق عليها عادة اسم « البسيكولوجيا

الاجتماعية » ،فمثلا حين يذكرون بسيكولوجيا البورجوازي الصغير فهم يقصدون سعيه للخروج من المشاكل الاجتماعيـة ، واهتمامه فقط بمصلحته الشخصية ، وتشبثه بملكيته وغيرها من الأمور النابعة من ظروف حياته •

ان بين النظرات والتصورات المنبثقة من الظروف المباشرة لحياة وجماهير الناس كثـيراً من النظرات الصحيحة الصائبـة عن الواقـع المحيط ، وذلك مايسمى بـ « الحكمة الشعبية » ، كمـــا أن بينها نظرات كثيرة أخرى تظل محض ترهات وأوهام •

٣ ـ الانتـاج الفني الشعبي الذي يحكي عن تجربة الجماهير الحياتية ومطامحهم في شكل جمالي •

وبالطبع فان الحد القائم في الحياة الواقعية بين الوعي العادي ، من جهة ، وبين الايديولوجية والعلم من جهة أخرى نسبي جداً وغير ثابت ، فقد يتحدان أحياناً ، ويؤثر أحدهما بالآخر حتى أنه قد يتداخلان في حالات خاصة معروفة •

لقد كان الوعي العادي في كل العصور بمثابة معين يرفد تطور الأشكال المختلفة للوعي الاجتماعي • وان العلماء والايديولوجيين والفنانين عند معالجتهم للنظريات المختلفة ، وعندما يخلقون النماذج الفنية وغيرها ، ينطلقون غالباً من الوعي العادي ويعتمدون عليه الى حد ما • وهكذا ، وعلى سبيل المثال ، نجد أن رجال الفن والأدب كثيراً ما يستخدمون الانتـاج الشعبي ؛ وان الماديـة الفلسفية تضع ، عن وعي منها ، « الواقعية الساذجة » لجماهير الناس في أساس نظرية المعرفة • وفي الوقت ذاته نجد أن الايديولوجيا تستخدم ، الى حد كبير ، شتى الخرافات والأوهام والتقاليد الرجعية الموجودة في الوعي العادي ، وتعتمد عليها • ومن جهة أخرى ، ففي وعي الجماهير الواسعة ، وبدرجة كبيرة أو صغيرة (حسب الظروف التاريخية الملموسة) ، تظهر المعارف العلمية والنظريات المختلفة والبناءات الايديولوجية التي وضعها الايديولوجيون والعلماء مما يحدد مجال تأثير الوعي الاعتيادي •

ان هذه العملية مرتبطة ، أولا ، بمتطلبات الانتاج المتطور التي تستدعي

ضرورة رفع المستوى الثقافي للمنتج المباشر مما يؤدي الى ظهور واتساع نظام الثقافة الشعبية في مرحلة معينة من تطور المجتمع • لكن هذه الحاجة تشق طريقها كاتجاه معين يصطدم بفقر الجماهير الواسعة للكادحين في أشكال اجتماعية لا انسانية تعيق تطورهم الروحي ، كما وأنه يصطدم بسعي الطبقات المسيطرة للحفاظ على تخلف الجماهير •

وثانياً ، فان الطبقات المستغلة المسيطرة تلزم المجتمع بايديولوجيتها مستخدمة في سبيل ذلك كل ما لديها من وسائل : المدرسة ، النشر ، الكنيسة ، والفن وغيرها ••••

ثالثاً ، تظهر لدى الجماهير ، في فترات الانتفاضات الثورية خاصة ، أفكار تقدمية جديدة تعكس المتطلبات الملحة للتطور الاجتماعي • وتنعكس في الوعي العادي ظروف الحياة واهتمامات الناس • وبما أن الناس ينتمون الى طبقات مختلفة ، فانما تنعكس في وعيهم ظروف الحياة ، والحاجات المباشرة للطبقات المختلفة وللفئات الاجتماعية التي انبثقت من تلك الظروف • فمثلا نجد أنه يظهر من ظروف حياة البروليتاريين ومن حياتهم اليومية شعور عدائي للرأسمالي الذي يضطهدهم ولحاشيته ، ويظهر احتجاجهم ضد ظروف حياتهم القاسية ، ووعيهم لضرورة النضال من أجل تحسين وضعهم المعيشي ••• لكن الوعي الاعتيادي للبروليتاريين لايمكن أن يرقى الى درجة الوعي العلمي للتناقض الجذري بين مصالحهم ومصالح الرأسماليين • ان التعبير العلمي عن المصالح الأساسية للبروليتاريا لاينبع من الوعي الاعتيادي ولا من النمو العفوي للحركة العمالية ، وانما كنتيجة لتطور العلم ، ثم يدخل الحركة العمالية •

ومن هذا يتضح لنا أن الوعي الاعتيادي محدود • فهو لايسعه أن يرقى الى مرتبة ادراك المصالح الأساسية للطبقة ، والكشف عن أهم جوانب الواقع وقوانينه ، والى خلق نظرية •

أما في الايديولوجيا فعلى العكس من ذلك ، فهنالك يتحقق الفهم النظري

للواقع ، وفيها تجد جوانبه الهامة انعكاساً لها • ان الأيديولوجيا تعكس ظروف الخياة والمصالح العامة للطبقة ككل • ففي ظروف المجتمع البدائي كان الوعي ـ حسب تعبير ماركس ـ « مختلطاً » مع نشاط الناس المادي ، أي أنه كان مرتبطاً مباشرة بعملية الانتاج المادي التي كانت تولده وتخدمه • ومع تطور التقسيم الاجتماعي للعمل ، ومع انفصال العمل الذهني عن الفيزيائي ، تصبح الحياة الروحية للمجتمع قطاعاً مستقلا ، نسبياً ، عن قطاعات نشاط الناس الاجتماعي •

ومنذ أن انقسم المجتمع الى طبقات أخذ الوعي الاجتماعي يتطور تاريخياً في الأشكال المعينة التالية : الايديولوجيا السياسية ، النظرات الحقوقية ، الأخلاق ، الدين ، الفن والنظرات الفنية ، والفلسفة • وهذه هي بنية الوعي الاجتماعي •

وينبغي أن نؤكد من جديد على أن الحياة الروحية ذات استقلال نسبي فحسب ، لأن طابع تغييرها يرتبط بوسيلة انتاج الخيرات المادية • والى جانب ذلك ، فان للوعي الاجتماعي تأثيراً على كل قطاعات الحياة الاجتماعية الأخرى ، لأن الانسان يمارس تأثيره في كل مكان ككائن واع مدفوعاً بقناعات وبدوافع ونظرات مثالية معينة تنبثق من ظروف واقعه الاجتماعي •

ان نظرات ودوافع الناس لايمكن أن تصبح موضوعاً للبحث المادي التاريخي الموضوعي الا عندما تتجسد مادياً بهذه الوسيلة أو بتلك • فاذا كنا ، لدى الاجابة عن السؤال الأساسي للفلسفة في المادية الديالكتيكية ، نضع المادة كحقيقة موضوعية على طرف مناقض للوعي المثالي الموجود في رأس الانسان فقط ؛ فان المادية التاريخية تضع الواقع الاجتماعي والوعي الاجتماعي على طرفي نقيض ، وهي تنظر الى الوعي كعامل موضح للحياة الاجتماعية وذلك لوجوده خارجها •

ان الأفكار والدوافع والعواطف والآلام عندما تبقى لدى الفرد ذاتية محضة ، ولاتخرج الى الواقع أو تتجسد في كلام شفهي أو مكتوب ، أو أفعال ، أو انتاج فني أو غيره •• فهي لن تبلغ الناس الآخرين وبالتالي لايمكن أن

يكون لها أي أثر على حياة المجتمع ولن تلقى اهتماماً من قبل العلم الاجتماعي • فعندما يتجسد الوعي مادياً بصورة من الصور ، عند ذلك فقط يكون له ثمة تأثير على تطور المجتمع •

ان كل شكل من الأشكال الاقتصادية الاجتماعية لايتميز فقط بواقع اجتماعي معين ، وانما بوعي اجتماعي خاص يقوم على أساس ذلك الواقع •

ان التمييز بين مفهوم الواقع الاجتماعي وبين مفهوم الوعي الاجتماعي لايوجد الا ضمن نطاق السؤال الأساسي للمادية التاريخية ، ويكون ، نسبياً ، خارج هذا السؤال ، ويمكننا أن نضيف الى المادية التاريخية قول لينين بأن لتناقض المادة والوعي معنى مطلقاً « في نطاق السؤال المعرفي الأساسي : أيهما الأولي وأيهما الثانوي ! وعند مايتجاوز السؤال هذا النطاق فان مثل هذا التناقض يصبح نسبياً دون ريب »[1] •

ليس ثمة ظاهرة في الحيـاة تحوي في داخلها شيئاً ما آخر غير المادي والروحي • لكن هذا لايعني أن الجانب المادي لكل الظواهر الاجتماعية يمكن أن يكون متعلقاً بالواقـع الاجتماعي • وينبغي ألا ننسى أن لظواهر القطـاع الروحي من الحياة الاجتماعية جانباً مادياً (اللغة والانتاج وغيرهما) يكون وسيلة للتعبير عن الأفكار والمفاهيم والنماذج ، لكنـه لايمكن أن يعتبر قاعدة محددة لتلك الظواهر ، كما أنه ليس صحيحاً أن نعتبر النشاط العملي في مجال العلم والفن (التجربة العلمية ، عمل الفنان التطبيقي ، وكذلك النحت وغيره) قاعدة أولية للمجتمع ، كمـا أنه من الخطأ أيضاً أن نعتبر الكنيسـة والمنظمات الدينية المختلفة جزءاً من الواقع الاجتماعي اذا ما ربطنا الدين بالوعي الاجتماعي •

فاذا ما وقعنا في مثل هـذا الخطأ فقدنا المقياس الموضوعي للتفريق بين ماهو أساسي وبين ماهو ثانوي في الحياة الاجتماعية ، ولابراز ذلك الشـكل

---

(١) ف • ١ • لينين • المؤلفات الجزء (١٤) ص ١٣٤ ـ ١٣٥ •

المميز المادي الذي يؤلف وحده الأساس المحدد للتطور الاجتماعي ومنبع حركته . وينتج مما سبق أيضاً أن مفهوم الوعي الاجتماعي ومفهوم الواقع الاجتماعي لايكفيان لحصر كل الظواهر الاجتماعية المعينة . ولهذا فمن أجل تحليل الحياة الاجتماعية تحليلا شاملا وضعت المادية التاريخية كثيراً من المفاهيم ، وفي الدرجة الأولى ، مفهومي القاعدة والبنيان الفوقي اللذين سندرسهما تواً .

القاعدة والبنيان الفوقي

أهمية مفهومي القاعدة والبنيان الفوقي

ان أهمية مفهومي القاعدة والبنيان الفوقي تتجلى ، قبل كل شيء ، في أنهما يعطيان حل المسألة الأساسية للمادية التاريخية حول علاقة الوعي الاجتماعي بالواقع الاجتماعي • وبالاضاعة الى هذا ، فان هذين المفهومين ضروريان لرسم بنية التشكيلة الاقتصادية الاجتماعية •

لقد بينا في الفقرة السابقة كيف أن أسلوب الانتاج ـ الواقع الاجتماعي ـ يحدد وعي الناس • ولكن عند بحث هذه المسألة نصطدم بالحقيقة القائلة : ان لكل جانب من جوانب أسلوب الانتاج ـ قوى الانتاج وعلاقات الانتاج ـ دوراً مختلفاً في تحديد الأفكار والنظرات والعلاقات الخاصة لكل مجتمع على حدة • ان الأساس المباشر للأفكار الاجتماعية ليس أسلوب الانتاج ككل ،وانما جانب منه فقط وهو علاقات الانتاج • ومن أجل تمييز هذه العلاقات الانتاجية في شكلها هذا وضع مفهوم القاعدة (البنيان التحتي) •

ان الوعي الاجتماعي متنوع في كل مرحلة من مراحل التاريخ • ومن أجل أن نبرز من بين هـذا التنوع تلك الأفكار التي تعكس الواقع من ناحية العلاقات الاقتصادية ، والأفكار الخاصة بهذا المجتمع أو ذاك ، ونظام العلاقات التاريخية وضع مفهوم البنيان الفوقي • وبالرغم من أن عناصر متباينة تدخل ضمن مفهوم البنيان الفوقي ، الا أنها خصائص وقوانين تطور عامة مما يتيح دراسة البنيان الفوقي ككل ظاهرة اجتماعية خاصة •

ان هذين المفهومين مرتبطان ارتباطاً وثيقاً بمفهوم التشكيلة الاجتماعية في المادية التاريخية • ان القاعدة تحدد الصفة النوعية لكل تشكيلة اقتصادية اجتماعية ، وبهذا فهي تفصل التشكيلة عن الأخرى • أما البنيان الفوقي فهو يحدد خصائص الحياة الروحية والاجتماعية لكل تشكيلة اجتماعية •

ولهذا فان وضع مفهومي « القاعدة » و « البنيان الفوقي » خارج الرابطة التي تربطهما بمفهوم التشكيلةالاجتماعية يفقدهما كل معنى ،ويموتان كعضوين فصلا عن الجسد •

تعريف القاعدة

ان القاعدة هي مجموع العلاقاتالانتاجية ،أي مجموع العلاقات القائمةفي حقل الانتاج وعمليات التبادل والتوزيع التي تؤلف البنية الاقتصادية للتشكيلة الاجتماعيـة •

ان التشكيلات الاقتصادية الاجتماعية هي أجهزة لايقل اختلاف أحدها عن الآخر عن الاختلاف بين الحيوان والنبات • ان هـذه الفوارق مشروطة بالفرق بين أساليب الانتاج التي يطبقها الناس في زمن معين ما • وبما أن قوى الانتاج هي الجانب المحدد لاسلوب الانتاج ، فان الصفات النوعية لكل مرحلة من مراحل التطور الاجتماعي تحدد أيضاً بقوى الانتاج ذاتها • ولكن يبدو أن حقائق الحياة الاجتماعية تناقض مثل هـذا القول • فان مستوى الانتاج في الولايات المتحدة ــ حيث النظام الرأسمالي ــ لايزال أعلى منه في الاتحاد السوفييتي ، أي أن الولايـات المتحدة ذات مرتبة أعلى من الاتحاد السوفييتي في التطور الاجتماعي • وهـــذا يعني أنه لايجوز تفسير الفوارق في البناء الاجتماعي والايديولوجيا وجهاز الدولة في كل من الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي انطلاقاً من مستوى تطور قوى الانتاج • ان هذه الحقيقة تخدم علماء الاجتماع البورجوازيين لاثبات خطأ « النظرية الماركسية » • لكن الماركسي يرى هنا عدم التطابق بين وجود القانون وشكل ظهوره ،ويرجع عدم التطابق هذا الى فعل الحلقات المباشرة ! تماماً كالفيزيائي الذي يراقب صعود منطاد هوائي دون

أن يتخلى عن ايمانه بقانون الجاذبية ، بل ويكتشف تلك الحلقات التي أدت الى ظهور القانون بمثل هذا المظهر ٠

وبالرغم من أن تطور قوى الانتاج هو أساس العملية التاريخية كلها ، فان الوجه الاجتماعي الملموس لكل الظواهر الاجتماعية التي تميز التشكيلة عن الأخرى يرتبط بالعلاقات الانتاجية التي تؤلف قاعدة التشكيلة ٠

وأكثر من هذا ، فان الخصائص الاجتماعية لقوى الانتاج تتعلق بعلاقات الانتاج ٠ ولكن أنأخذ منها ياترى أدوات العمل أم الناس ؟ ان وسائل العمل لاتتضمن الشكل الاجتماعي الذي تستخدم فيه ، فالآلة هي الآلة ! لكنها عندما تصبح ملكاً للرأسمالي فانها في ظروف اجتماعية معينة تصبح رأسمالا يستخدم كوسيلة للاستغلال ، وان هذه الآلة ذاتها ، في الظروف الاشتراكية ، تستخدم لسد حاجات المجتمع ، وكوسيلة لتسهيل العمل ٠

ان الانسان بتجربته وبممارسته للعمل هو قوة انتاجية ٠ لكنه في بعض الظروف يكون عبداً ، وفي ظروف أخرى رقاً ، ويمكن أن يكون أيضاً عاملا أجيراً ٠ فبموجب ايديولوجية أصحاب الرقيق يولد الانسان اما عبداً واما حراً ٠ وحسب ايديولوجية القنانة تجعل الطبيعة بعض الناس مالكين وبعضهم أقناناً ٠ وبموجب ايديولوجية البورجوازي فان الرأسماليين هم أناس أكثر مواهب وامكانيات من العمال ٠ وان الماركسية لاتترك حجراً على حجر في بناء هذه الايديولوجية الكاذبة الرجعية المستغلة ٠ فالناس لايولدون عبيداً أو أقناناً أو عمالا مأجورين ؟ لقد هتف روسو منذ زمن بأن الانسان يولد حراً ، ومع هذا فهو يكبل بالأصفاد في كل مكان ! ان علاقات الملكية الخاصة هي التي تضع هذه القيود في أعناق الناس ٠ وان الناس يصبحون عبيداً أو عمالا مأجورين عندما يوجدون ضمن علاقات انتاجية معينة ، وفي هذه الحال يكون دخولهم لهذه العلاقات لا ارادياً ، كما أنهم ليسوا أحراراً في اختيارها ٠ ان الناس مرغمون على دخول تلك العلاقات الانتاجية التي توجد في مجتمعهم ٠

ان الدور المحدد الذي تتمتع به القوى المنتجة منحصر في كونها تتطلب

علاقات انتاجية ملائمة لها ، ثم هي تؤثر على الجوانب الأخرى للحياة الاجتماعية بواسطة هذه العلاقات • واذا لم يحدث تبدل أوتوماتيكي في العلاقات الانتاجية مع تطور القوى المنتجة يصير من المحتمل وقوع أحداث في التاريخ ، وذلك عندما يكون البلد يتمتع بقوى انتاجية متطورة مع مستوى أدنى من التطور الاجتماعي كما هي الحال في الولايات المتحدة الاميريكية •

واذا كان أسلوب انتاج الخيرات المادية هو أساس الحياة الاجتماعية ، بينما تعطي العلاقات الانتاجية الصفات النوعية والتحديد الاجتماعي لاسلوب الانتاج ، فان العلاقات الانتاجيــة هي بالذات التي تحدد خصائص التشكيلة الاجتماعية كلها • وهذا يعني أنه ، وعلى أساس هذه العلاقات الانتاجية ، تقوم كل العلاقات الاجتماعية الأخرى وكذلك الأفكار والنظرات ودوافع الناس والمؤسسات السياسية وغيرها مما يوجد في ذلك المجتمع •

وبهذا فان العلاقات الانتاجية التي قامت على أساس قوى الانتاج تؤلف أساس الأفكار والمؤسسات والعلاقات الاجتماعية لهـذه التشكيلة أو تلك • وعندما يكون لهذه العلاقات شكل تطور قوى الانتاج ، فانها ، في الوقت ذاته ، تؤلف المحتوى بالنسبة للبنيان الفوقي • وبهذه الخاصة تؤلف العلاقات الانتاجية القاعدة الاقتصادية للمجتمع ، والتي يشمخ من على أساسها كل بناء التشكيلة الاجتماعية المعينة • ان القاعدة الاقتصادية هي بمثابة الهيكل العظمي الاقتصادي للجسم الاجتماعي كله •

وينبغي فهم مجموع العلاقات الانتاجية التي تؤلف القاعدة لتشكيلة معينة كمجموع علاقات اقتصادية قائمة على أساس الشكل السائد للملكية في هـذا المجتمع أو ذاك • لكنه في الحيـــاة الواقعية ، وفي تاريخ كثير من الشعوب والبلدان ، كانت تقوم الى جانب العلاقات الانتاجية السائدة في زمن ما علاقات اقتصادية مرتبطة بقطاعات أخرى من الاقتصاد تمثله اما بقايا الانتاج القديم ، واما بذور أسلوب الانتاج الجديد • ثمة من يعتبر القاعدة كمجموع للقطاعات الاقتصاديــة الموجودة في مجتمع ما • لكن مثل هـذا الفهم للقاعدة يوقعنا في تناقضات كثيرة وينبغي ألا نأخذ به • ففي فرنسا ، وخلال القرن الثامن عشر ،

مثلا ، كان يوجد قطاع رأسمالي الى جانب العلاقات الاقطاعية السائدة • واذا ما انطلقنا من القول بأن القاعدة هي مجموع القطاعات ، لصار لزاماً علينا أن نسمي البنيان الاقتصادي لفرنسا في تلك الفترة بالبنيان الاقطاعي البورجوازي • وبالرغم من أنه علينا ، لدى التحليل المادي للاقتصاد وللحياة الاجتماعية ، أن نأخذ بعين الاعتبار وضع القطاعات المختلفة والتأثير المتبادل فيما بينها ، فان البناء السياسي والاجتماعي لفرنسا كانت تحدده العلاقات الاقتصادية الاقطاعية السائدة مما أعطانا الحق بأن نلحق فرنسا ذلك الزمن بالتشكيلة الاقطاعية • وبهذا فان امكانية الفصل الدقيق بين تشكيلة وأخرى مرتبطة بابراز العلاقات الانتاجية السائدة كقاعدة للتشكيلة • لقد كتب ماركس : ان العلاقات الانتاجية بمجموعها تؤلف مايسمى بالعلاقات الاجتماعية أو بالمجتمع ، وبهذا فانها تؤلف مجتمعاً موجوداً في مرحلة معينة من مراحل التطور التاريخي ، مجتمعاً ذا طابع مميز خاص به • ان المجتمع القديم والمجتمع الاقطاعي والمجتمع البورجوازي لهي مجموعات العلاقات الانتاجية التي تصنع كل مجموعة منها مرحلة معينة في التطور التاريخي للانسانية[1] •

عند التحليل النظري ينبغي ، وقبل كل شيء ، عزل الظاهرة التي هي موضوع البحث في شكلها البسيط والتخلص مؤقتاً من تلك الجوانب والروابط التي تشوب وتعكر جوهرها الحقيقي • وبالرغم من أن التشكيلة الرأسمالية لاتظهر في شكلها « البسيط » ابداً بما يتناسب ومفهومها ، فقد درس ماركس في « رأس المال » قوانين تطور الرأسمالية كما هي بعد أن تخلص من كل العوامل الدخيلة الأخرى الى أجل معين • وهكذا الأمر فعند التحليل النظري للتشكيلة الاجتماعية ينبغي أن نعزل قاعدتها ، وبالتحديد ، تلك العلاقات التي تحدد جوهرها • ان مفهومي «التشكيلة» و «القاعدة» مفهومان مجردان ، لكنهما علميان ويسمحان لنا بدراسة التاريخ من شتى جوانبه المادية المختلفة ، بكل روابطه ووسائطه •

ان العلاقات الانتاجية الناشئة مع ظهور القطاع الجديد للاقتصاد في نواة المجتمع القديم لاتكوّن القاعدة بعد • ان تحول العلاقات الانتاجية الجديدة الى

---

(١) ماركس وانجلس • المؤلفات • الجزء (٦) • ص ٤٤٢ •

قاعدة يؤلف المضمون الاقتصادي للثورة الاجتماعية ،وهو قفزة في تطور المجتمع •

ان العلاقات الانتاجية الاشتراكية ، بخلاف باقي العلاقات السابقة ، لاتظهر بشكل قطاع موجود في نواة المجتمع القديم • ولهذا فان تحول التشكيلة الرأسمالية الى تشكيلة شيوعية ، وتغيير القاعدة الرأسمالية الى قاعدة اشتراكية، يتطلب فترة ثورية خاصة ـ فترة انتقال من الرأسمالية الى الاشتراكية •

ففي فترة الانتقال من الرأسمالية الى الاشتراكية يتم القضاء على التشكيلة الاقتصادية الاجتماعية القديمة وتظهر تشكيلة أخرى جديدة ، ويتم تحطيم القاعدة القديمة وبناء قاعدة جديدة • لذا ينبغي ألا ننظر الى هذه الفترة كتشكيلة خاصة ثم نبحث عن « قاعدة » مناسبة لها • واذا ما اعتبرنا مجموع القطاعات الاقتصادية « قاعدة للمرحلة الانتقالية » لوجدنا أنفسنا مضطرين الى ربط القطاعات الرأسمالية والاشتراكية بقاعدة واحدة ، وهذا أمر لايعقل • ان فترة الانتقال تتميز بنضال القطاع الاشتراكي المولد للقاعدة الجديدة وصاحب الدور القيادي ضد القطاع الرأسمالي حسب مبدأ « اما أنا أو أنت » • ان انتصار الاشتراكية يعني ان القطاع الاشتراكي يتوطد بشكل قاعدة للمجتمع كله •. وفي الطريق من الاشتراكية الى الشيوعية لا تجري عملية الغاء وانما عملية تطوير وتكملة للقاعدة الاشتراكية • ان حزبنا الذي طوّر الماركسية اللينينية حدد طريق تحويل العلاقات الانتاجية الاشتراكية الى علاقات انتاجية شيوعية والتي سوف تكون هي القاعدة للتشكيلة الشيوعية المتطورة •

البنيان الفوقي كظاهرة اجتماعية

ان التشكيلة الاقتصادية الاجتماعية هي جهاز اجتماعي « حي » هادف موحد • وكما أن الهيكل العظمي لا يؤلف كل الجهاز العضوي ، فان القاعدة أيضاً لا تؤلف التشكيلة الاجتماعية كلها • لقد كتب ف• لينين في دراسته عن كتاب ماركس « رأس المال » يقول : « ••• انه ، اذ أوضح بنية وتطور هذه التشكيلة الاجتماعية بالعلاقات الانتاجية ،فقد كان يتتبع دائماً ،وفي كل مكان ،تلك

العلاقات الانتاجية في البنيان الفوقي التي تناسبها ، فكسا بذلك الهيكل العظمي لحماً ودماً »[١] .

ان البنيان الفوقي هو مجموعة العلاقات الايديولوجية والنظرات والمؤسسات التي تقوم على أساس قاعدة اقتصادية معينة تكون مرتبطة بها عضوياً وتؤثر فيها تأثيراً فعالا .

ان بنية هذا البنيان الفوقي شديدة التعقيد والتنوع . فبالبنيان الفوقي ترتبط ، قبل كل شيء ، الايديولوجيا التي تحمل طابعاً طبقياً في مجتمع طبقي . ان الايديولوجيا تخدم في تثبيت أو هدم العلاقات الاقتصادية القائمة وفي حل القضايا الاجتماعية الماثلة أمام المجتمع ، وفي تكوين العلاقات الايديولوجية لهذه التشكيلة او تلك . ان القسم الايديولوجي من البنيان الفوقي للتشكيلات الاقتصادية الاجتماعية المختلفة لا يتميز بمحتواه وحسب ، وانما بتلك الاشكال الملازمة له أيضاً . ومنذ ظهور المجتمع الطبقي وهو يظهر تاريخياً كمجموعة ملموسة من النظرات السياسية والحقوقية والدينية والفلسفية والاخلاقية والجمالية . ان الدين لا يتولد من القاعدة في الظروف الاشتراكية ، وانما يوجد كجزء من مخلفات القديم ، كبقية من البنيان الفوقي للتشكيلات السابقة سوف يتم القضاء عليها في عملية بناء الشيوعية . ان في البرنامج الجديد للحزب الشيوعي في الاتحاد السوفييتي تأكيداً على ضرورة استخدام شتّى وسائل التأثير الفكري للقضاء على الخرافات الدينية ومن أجل نشر تربية علمية .

ففي الأشكال الاجتماعية تعرف التناقضات الاجتماعية من قبل الناس ، وتحدد طرق وأساليب حلها ، وتنعكس وتتصارع المصالح المتناقضة للطبقات المختلفة . ان نضال الايديولوجيا الماركسية اللينينية في الظروف الراهنة ضد الايديولوجيا البورجوازية يعكس التناقض الحقيقي بين طبقة البروليتاريا وطبقة البورجوازية ، بين عالم الاشتراكية وعالم الرأسمالية .

ان في كل تشكيلة اجتماعية طبقية تتكون ايديولوجيا للطبقة المسيطرة .

---

(١) ف٠١٠ لينين ٠ المؤلفات ٠ الجزء ١ ص ١٢٤

وان هذه الطبقة ، اذ تسيطر في مجال الانتاج المادي ، تسيطر كذلك على كل وسائل الانتاج الروحي . ان الكنيسة والطباعة والمدرسة ووسائل الدعاية والتعليم ونشر الأفكار توجد في أيدي الطبقة المسيطرة « وبهذا فان أفكار أولئك الذين لا يملكون وسائل الانتاج الروحي تصبح خاضعة على وجه العموم للطبقة المسيطرة »[1].

وفي سير التطور التاريخي ، ومع تعجيل التناقضات ، تظهر ايديولوجيا جديدة تعكس مصالح الطبقات الثورية وتتناقض مع الايديولوجيا المسيطرة وتكتسب الى جانبها جمهوراً كبيراً من الناس . وعندما تتمكن هذه الايديولوجيا من كسب الجماهير تصير قوة قادرة على حل قضايا التطور الاجتماعي الملحة .

وتدخل في البنيان الفوقي ، بالاضافة الى الايديولوجيا ، مجموع النظرات والمشاعر والميول والبسيكولوجيا الاجتماعية . ان الايديولوجيا والبسيكولوجيا تتبادلان التأثير فيما بينهما . وهكذا ، فان بسيكولوجيا البروليتاريا في المجتمع الرأسمالي ، ووعيها الاعتيادي ، يخلقان الظروف الملائمة لانتشار الايديولوجيا الاشتراكية (ان الطبقة العاملة تهدف الى الاشتراكية بصورة عفوية) ، من جهة ، ومن جهة أخرى تتسرب اليها السخافات والأوهام والنظرات البورجوازية التي لا تتخلص منها الا في سير النضال الطبقي الثوري . فاذا كانت الايديولوجيا الاشتراكية تؤثر على أوهام البروليتاريا وتجلوها ، فان الايديولوجيا البورجوازية تتجر بتلك الأوهام . واذا لم تقم ايديولوجيا مستقلة للطبقات المظلومة في وجه الايديولوجيا المسيطرة للمستغلين ، فان هذه الأخيرة تطوق العمال من ناحيتين : عفوية ـ ظروف الوسط ، وواعية ـ باستخدام قوة الطبقة المسيطرة ومفكريها وسياسييها وصحفييها وغيرهم . ان الايديولوجيا الماركسية اللينينية العلمية لا يمكن أن تنتصر وتثبت أقدامها في وعي جماهير الشغيلة دون شن نضال

---

(١) ك. ماركس وف. انجلس . المؤلفات . الجزء ٣ ص ٤٦ .

لا هوادة فيه ضد الايديولوجيا البورجوازية ومروجيها بين صفوف الحركة العمالية .

ان الناس في حياتهم الواقعية لايدخلون في علاقات انتاجيةوحسب ، وانما في علاقات كثيرة أخرى . ان الانسان في جوهره هو مجموع العلاقات الاجتماعية . وان جوهر الانسان لايظهر في الانتاج وحسب ، وانما في شتى مجالات الحياة الاجتماعية المختلفة ، وفي العلاقات العديدة والمتنوعة مع الناس الآخرين . ان في المجتمع علاقات بين الناس في الأسرة وفي الواقع اليومي وفي الدولة ، وعلاقات بين الدول وبين الأمم وغيرها . وكما أكّد ف . ا . لينين ان الفكرة الأساسية للمادية في التاريخ هي في « أن العلاقات الاجتماعية تنقسم الى قسمين: مادية ومثالية . وان المثالية منها ما هي الا بنيان فوقي قائم فوق الأولى ، وتتكون خارج ارادة ووعي الانسان ك (نتيجة) أو شكل لنشاط الانسان الموجّه من أجل تأكيد وجوده » [1] .

ان العلاقات الايديولوجية تتميز عن العلاقات الاقتصادية المادية بكونها ثانوية ناتجة ، ولا تظهر الا من خلال وعي الناس . وهذا يعني أنها ، وقد حددتها العلاقات المادية وتركتها مرتبطة بها كلياً ، تنشأ وفقاً لأفكار معينة تعكس العلاقات الاقتصادية القائمة . ان الخصائص النوعية لبنيان العلاقات الانسانية الفوقي المتنوع هي نتيجة توافق هذه العلاقات مع الهيكل العظمي الاقتصادي القائم . لكن هذه العملية ليست مستقلة عن الوعي ، وانما هي مرتبطة بوعي المصلحة الاقتصادية والمتطلبات الاجتماعية وقضايا المجتمع . ان العلاقات الايديولوجية تظهر في كل تشكيلة لأنها ضرورية من أجل تثبيت وتدعيم وتوطيد القاعدة الاقتصادية . ومع انقسام المجتمع الى طبقات صارت العلاقات السياسية والحقوقية والأخلاقية أشكالا للعلاقات الايديولوجية . ان هذه العلاقات تنشأ حتماً عن اقتصاد التشكيلات الطبقية ، ولكن الناس يدخلونها بشكل واع . مثلا ، ان الطابع الايديولوجي للعلاقات السياسية هو في أنها ، بالرغم من كونها تعبر عن التناقضات الاقتصادية بين طبقات هذه التشكيلة أو تلك ، تظهر مع

---

(١) لينين . المؤلفات . الجزء ١ ص ١٣٤ .

ظهور الوعي الطبقي • لقد أكدَّ ف• لينين أكثر من مرة أن تطور النضال السياسي لطبقة البروليتاريا ضد البورجوازية يبقى مستحيلا بدون حزب ثوري، بدون ادخال نظرية ثورية الى الحركة العمالية ، أي بدون تنمية الوعي السياسي للجماهير • وبهذا ، فان العلاقات الايديولوجية ليست مجرد علاقات أفكار ، وانما هي علاقات الناس وفقاً لأفكار معينة • ان العلاقات الايديولوجية تحدّد بالعلاقات الاقتصادية • ان طابعها ومحتواها يرتبطان كلياً بالقاعدة • ان العلاقات الإيديولوجية هي أحد العناصر الضرورية لكل تشكيلة اجتماعية ، وتؤلف جزءاً من بنيانها الفوقي •

ووفقاً لايديولوجية المجتمع واشكالها لا تنشأ في كل تشكيلة اجتماعية اقتصادية علاقات ايديولوجية وحسب ، وانما تنشأ مؤسسات ومنظمات شتى كذلك : الحكومة والمؤسسات القانونية ، الأحزاب السياسية ، الاتحادات المهنية، الكنيسة والمنظمات الدينية الأخرى ، المنظمات والمؤسسات الثقافية والتعليمية والعلمية ••• وغيرها •

ان الدولة هي المؤسسة الرئيسية للبنيان الفوقي في المجتمع الطبقي والتي تحرسه وتحميه • فبمساعدتها تصبح الطبقة المسيطرة على الاقتصاد مسيطرة في مجال البنيان الفوقي كذلك •

لقد كتب انجلس : « ان العلاقات الاقتصادية لكل مجتمع من المجتمعات تظهر قبل كل شيء كمصالح »[١] • ففي تبلور تلك المصالح ، وفي النضال الطبقي العنيف يتكون الوعي للمصالح الطبقية العامة وتناقضاتها مع مصالح الطبقات المعادية الأخرى ، وتبرز ضرورة اقامة المؤسسات والمنظمات المعبرة عن المصالح الأساسية والتي تقوم بحمايتها •

وعلى هذا ، فبالرغم من أن اقامة المؤسسات للبنيان الفوقي ترتبط بوعي الناس وبالأفكار الاجتماعية ،فان تلك الأفكار ليست وليدة التفكير خلف الجدران كما ان تلك المؤسسات ليست نتيجة لاتفاق « حر » أو لعقد اجتماعي •

---

(١) ماركس و ف• انجلس • المؤلفات الجزء ١٨ ص ٢٧١ •

ان البنيان الفوقي للتشكيلات الطبقيــة المتناقضة بكل أفكــاره وعــلاقاته الايديولوجية ومؤسساته هو نتاج ونتيجة ووسيلة لنضال الطبقات • ثم انــه لايجوز مطلقاً النظر الى الايديولوجيا ، التي تقوم بموجبها مؤسسات البنيان الفوقي في التشكيلات الطبقية المتناقضة ، كتعبير علمي عن القوانين الموضوعيه ، وعن متطلبات التطور الاجتماعي • وبالرغممن أن الناس أقاموا ، بشكل واع ، المؤسسات والمنظمات التابعة للبنيان الفوقي علىضوء مصالحهم الطبقية ،فان الصلة الحقيقية لدوافعهم مع قاعدة المجتمع وقوانين التطور الاجتماعي كانت تظل مجهولة لديهم •

ان البنيانالفوقي للتشكيلةالشيوعية هو وحدة الذييقوم وفقاً لايديولوجيا علمية تقدم المعرفة الموضوعية لمتطلبات التطور الاجتماعي • وهنا يتخذ النشاط الواعي طابعاً آخر ، لأنه يعتمد على المعرفة العلمية للقوانين الاقتصادية ، وعلى فهم الدور المحدِّد للقاعدة بالنسبة الى البنيان الفوقي •

ان خاصة مؤسسات البنيان الفوقي تنحصر في أن تلك المؤسسات ليست قوة ايديولوجية وحسب ،بل قوةمادية أيضاً • هكذا ، فانالدولةتملك الوسائل المادية للسلطة ــ الجيش ، الشرطة ، السجون •• وغيرها، التي تتمكنبواسطتها من القيام بوظيفتها واخضاع المجتمع لمصالح وارادة الطبقة المسيطرة• انالمنظمات المختلفة ،كالأحزاب السياسية مثلا ،معززةبالوحدة المادية ،وتجمعهاوحدةالهدف والمبدأ وغيرهما مما يمكّنهما من توجيه أعمال الجماهير الواسعة والطبقات الى حل القضايا القائمة أمام المجتمع • لقد صرح ف• لينين بأنليس لدىالبروليتاريا أي سلاح غير المنظمة مؤكداً على قيمتها الكبرى كقوة مادية •

ان العلاقات الايديولوجية التي تظهر في سلوك الفئات الاجتماعية المختلفة في المجتمع ، والمؤسسات المرتبطة بها ، تؤلف قطاعاًخاصاً من الحياةالاجتماعيةـ قطاع الحياة السياسية الاجتماعية • وبما أن لمؤسسات البنيان الفوقي جانباً مادياً كذلك ، فان هذا يسمح لها بأن تستخدم كموجّه لتأثيرات الأفكار المعينــة على القاعدة ، وعلى الواقع الاجتماعي ، وتحوّل الأفكار الى قوة مادية • ولولا

وجود هذا القطاع من الحياة الاجتماعية لبقيت الأفكار مجرد أماني بسيطة ولانعدم تأثيرها في تطور المجتمع . وبفضل عمل الجماهير ونشاط المؤسسات والمنظمات المختلفة للبنيان الفوقي تصبح الأفكار الاجتماعية ذات تأثير على حياة وتطور المجتمع .

وهكذا ، فبالرغم من أن عناصر مختلفة تدخل في البنيان الفوقي ، فان رابطة عضوية واحدة تجمع فيما بينها ، وتولدها جميعاً قاعدة اقتصادية معينة ، وتتغير وفقاً للتغيرات التي تجري في القاعدة ، وتمارس التأثير فيها بشكل فعّال . ولهذا فبامكاننا أن ندرس البنيان الفوقي كظاهرة اجتماعية مستقلة .

ان ضرورة البنيان الفوقي يحدّدها الأمران التاليان العامان بالنسبة لكل التشكيلات : أولا ، ان الناس ، اذ يدخلون علاقات مادية ضرورية ويخضعون لعمل القوانين الموضوعية ، فانهم يحققون متطلبات تلك القوانين ككائنات واعية . وبكلمة أخرى ، فمن أجل تحقيق المتطلبات الموضوعية وقوانين التطور الاجتماعي في نشاط الناس ينبغي أن تنعكس ، بشكل من الأشكال ، من قبل الناس أنفسهم وتمر عبر وعيهم ثم تخرج في شكل خواطر مثالية لنشاطهم ذاته . ولهذا ، فمن أجل حماية العلاقات المادية وتوطيدها ، أو من أجل تغييرها ، تقوم على قاعدتها بالضرورة ايديولوجية معينة وعلاقات اجتماعية ومؤسسات تنسجم معها وتؤلف البنيان الفوقي للتشكيلة . وثانياً ، ان حل القضايا الاجتماعية القائمة أمام المجتمع تقوم به جماهير الناس الواسعة في المجتمع الطبقي ـ الطبقات وباقي الفئات الاجتماعية المختلفة ، وتكون الايديولوجيا والمؤسسات المختلفة أي ـ البنيان الفوقي ـ ضرورية من أجل وحدتها وتنظيمها .

وبهذا ، فان البنيان الفوقي ظاهرة ضرورية لكل التشكيلات الاجتماعية ومميزة لكل تشكيلة . ان البنيان الفوقي هو احدى تلك القوى الاجتماعية التي يحدث تطور التشكيلات الاجتماعية نتيجة لتعاونها والتي لابدّ من دراسة تأثيرها عند دراسة العملية التاريخية .

وعند دراسة البنيان الفوقي لتشكيلة طبقية متناقضة ينبغي أن نأخذ بعين

الاعتبار أن قاعدتها تنعكس في البنيان الفوقي من وجهات نظر الطبقات المختلفة • ان الطبقة المسيطرة اقتصادياً تخلق أفكاراً ومؤسسات موجهة لتثبت تلك القاعدة، وتؤلف البنيان الفوقي المسيطر لتلك التشكيلة •

ان كلا من البنيان الفوقي العبودي والاقطاعي والبورجوازي كان يسيطر في تشكيلته • لكنه على الطرف النقيض للبنيان الفوقي في كل تشكيلة طبقية متناقضة كانت تنشأ الأفكار والمؤسسات التي تعكس القاعدة من وجهة نظر الطبقات المضطهدة • لكن هذه العناصر لم تكن تدخل في البنيان الفوقي المسيطر، بل على العكس من ذلك ، فان البنيان الفوقي يسعى الى سحقها ، أو على الأقل ، الى تحديد دائرة تأثيرها • فهي موجهة لا لتثبيت القاعدة وانما لتقويضها وتغييرها جذرياً ، فهي عناصر سلبية ولّدها التطور الخاص للتشكيلة • ان درجة نضوج تلك العناصر يحدّدها أخيراً عمق الهوة بين قوى الانتاج وعلاقات الانتاج ودرجة نضوج المنطلقات المادية للتشيكلة الاجتماعية الجديدة • ان كل تشكيلة تتطور ، ولهذا فهي تحوي على بقايا الماضي وبذور المستقبل ليس في الاقتصاد وحسب ، وانما على صعيد البنيان الفوقي أيضاً • ان بذور المستقبل في ظروف الرأسمالية هي الأفكار الماركسية اللينينية والأحزاب الشيوعية ، وكل المنظمات الثورية الأخرى التابعة للطبقة العاملة ، ولا ترتبط بالبنيان الفوقي البورجوازي• وان مثل تلك البقايا في ظروف الاشتراكية كالدين والكنيسة ، لايتعلق بالبنيان الفوقي الاشتراكي •

وفي الطرف المناقض للبنيان الفوقي في التشكيلات المتناقضة المرتبط بمصالح الطبقات المستغلة ، نجد أن البنيان الفوقي في المجتمع الاشتراكي يعبر عن مصالح الطبقات الكادحة ذاتها ، ولهذا فهو لايستخدم كأداة للحفاظ على القاعدة الاشتراكية وحمايتها وحسب ، وانما يستخدم كوسيلة قوية من أجل تغييرها وتطويرها بما ينسجم ومصالح الجماهير ذاتها •

عناصر أخرى في التشكيلة الاجتماعية

ان أسلوب الانتاج يكّون الأساس الاقتصادي المادي للتشكيلة الاجتماعية. ان القاعدة تؤلف الهيكل العظمي ، وان البنيان الفوقي يرسم مظهرها السياسي الاجتماعي والروحي . ان هاتين الظاهرتين تبرزان الجانب الجوهري من بقية التشكيلة . لكنه ، وبالاضافة اليهما ، فان كل تشكيلة اجتماعية اقتصادية تحوي في داخلها كثيراً من الظواهر الاجتماعية الأخرى التي تمارس تأثيراً في سير تطورها ، ولذا فهي قمينة بالدرسة عند التحليل النظري .

ان من بين هذه الظواهر أشكال صلات الناس الجماعيـــة التاريخيـــة المشخَّصة : العشيرة ،القبيلة ،الأمة ،الأسرة ،الواقع،العلوم التشخيصية ،والعلوم الطبيعية ، والعلوم الدقيقة ، والى حد ما ــ العلوم الاجتماعية ، وبعض المنظمات الاجتماعية ــ العلمية والرياضية وغيرها ، اللغة ، والعلاقات بين الشعوب (التأثير المتبادل بين الشعوب). ان كل هذه الظواهر يجمعها شيء عام ، وهو أنها لا ترتبط بالقاعدة ولا بالبنيان الفوقي لتشكيلة معينة . لكنها تتميز احداها عن الأخرى في كل ما عدا ذلك . ومن أجل تحديد خصائصها تنبغي دراسة العناصر التالية :

١) طابع الحاجة الاجتماعية التي ولّدت الظاهرة الاجتماعية .
٢) نوعية الظاهرة الاجتماعية ومحتواها .
٣) طابع الرابطة مع القاعدة والبنيان الفوقي والظواهر الاجتماعية الأخرى .
٤) أصالة دور كل ظاهرة في حياة وتطور المجتمع .

وبالرغم من أن كل تلك الظواهر الاجتماعية ضرورية لحياة المجتمـع ولقيام التشكيلة بوظائفها كجهاز اجتماعي ، وبالرغم من أنها تحمل طابع كل تشكيلة الى درجة ما صغيرة أو كبيرة ،فانها جميعاً ،بطبيعتها ، غير مرتبطة عضوياً بتشكيلة معينة . هكذا ، ان واقع الحياة اليومية ، مثلا ، مرتبط ارتباطاً وثيقـاً بالانتاج وبالقاعدة وبالبنيان الفوقي للتشكيلة ، لكنه لا ينتمي اليها . ان واقع الحياة اليومية هو حقل النشاط الفردي ، الحياة الخاصة من راحة أو تسلية أو غيرها . ان الخصائص المميزة لعلاقات هـذا الواقع تتعلق بمستوى تطـور

الانتاج في المجتمع وبعوامل أخرى • وان الحد الفاصل مابين هذا الواقع وبين قطاعات المجتمع الأخرى يتصف بالمرونة وعدم الثبات ، وهو نسبي وخاص ، ليس فقط بالنسبة لكل تشكيلة اجتماعية ، وانما بالنسبة للطبقات المختلفة أيضاً في هذه التشكيلة أو تلك • ويتبدل شكل الأسرة مع سير التطور التاريخي • ففي علاقات الأسرة نعثر دائماً على آثار العلاقات الاقتصادية والايديولوجية • وان تلك الآثار هي من العمق بحيث يكون لكل تشكيلة اجتماعية نموذج من الأسر خاص بها تطبعه بطابعها • ففي جمهورية الصين الشعبية ، مثلا ، كان ادخال قانون الزواج الى الحياة عملية انعطاف ثوري في حياة القرية ، لأنه كان يعني الانتقال من الأسرة الاقطاعية الى الأشكال الاشتراكية والديموقراطية للأسرة والزواج •

ان الأشكال التاريخية لصلات الناس الجماعية ، بالرغم من كونها لاتتعلق بالقاعدة أو البنيان الفوقي ، مميزة لكل تشكيلة اجتماعية • فقد كانت أشكال صلات الناس الجماعية في المجتمع البدائي ، مثلا ، متمثلة في الأسرة والقبيلة ، بينما اصبحت الأشكال في المجتمع العبودي والاقطاعي متمثلة بالشعوبية ، ومع ظهور الرأسمالية نشأت القوميات البورجوازية وتقف الأمم الاشتراكية على الدرجات الاولى من تطور التشكيلة الشيوعية • وفي المستقبل ، في احدى مراحل تطور المجتمع الشيوعي الكامل ، وبعد انتصاره في العالم كله ، سوف تزول الفوارق القومية لتظهر على أنقاضها أوسع صلات جماعية بين الناس بحيث تشمل الكوكب كله •

ان اللغة أحد مظاهر الأشكال التاريخية لصلات الناس الجماعية لأنه لايمكن أن تقوم أية صلات جماعية بين قوم يتكلمون لغات مختلفة دون ان يفهم أحدهم على الآخر • لكن التغير التاريخي للشكل المادي لصلات الناس الجماعية لدى الانتقال من تشكيلة اجتماعية الى تشكيلة اجتماعية أخرى لا يرتبط بتغير مقابل في اللغة • فان الغاء الرأسمالية وتغير الأمم البورجوازية الى أمم اشتراكية لا يؤدي مطلقاً الى ظهور لغة جديدة • ان اللغة الروسية مثلا تخدم الأمة الاشتراكية جيداً كما كانت تخدم الأمة البورجوازية • وبهذا فان اللغة عنصر ضروري في الحياة الاجتماعية ولايمكن أن توجد بدونه أية تشكيلة ، كما أنه

لايميز تشكيلة عن أخرى . ان اللغة تخدم المجتمع كوسيلة للتفاهم ، كوسيلة لتبادل الأفكار . وبمساعدة اللغة ـ الشفهية والكتابية ـ تتجسد أفكار الناس في قوالب مادية مما يجعلها في متناول الناس جميعاً. لقد عرف ماركس وانجلس اللغة بأنها : « الواقـع المباشر للفكرة وهي وعي واقعي عملي ليس لي فقط وانما لكل الآخرين [1] » .

والى جانب هذا فان اللغة لاتقتصر على التعبير وانما تقوم بتشكيل أفكار الناس . ان اللغة ليست نتيجة لتطور الوعي وحسب ، وانما هي أيضاً وسيلة لتطويره . فهي تولد مع الوعي وتتطور على أساس تقدم الانتاج والعلم والثقافة، على أساس التغيرات في حياة الناس الاقتصادية والاجتماعية ومن ثم تؤثر فيها. ولهذا فنحن عندما نقيّم دور اللغة في تطور المجتمع يمكننا القول بأن اللغة هي احدى تلك القوى التي مكنت الانسان من التخلص من وضعه الحيواني ، ومن تطوير الانتاج والثقافة وبلوغ مثل هذا التقدم الراهن .

واذا كانت اللغة قديمة قدم الوعي ذاته ومرتبطة ارتباطاً مباشراً به ، فانه من الطبيعي أن نلحقها بالقطاع الروحي من الحياة الاجتماعية . ان أية لغة ، بالرغم من كونها عنصراً في الحياة الروحية للمجتمع ، اذا لم تكن مرتبطة باحدى التشكيلات الاجتماعية لايمكن أن تحددها خصائص قاعدتها ، وبالتالي فلايمكن أن تلحق بالبنيان الفوقي . ان المعنى المبدئي لهذه الفكرة ينحصر في أنه ليست كل ظواهر الحياة الاجتماعية يمكن أن تزج في مفهوم القاعدة والبنيان الفوقي. ان هذين المفهومين لايتسعان لكل الظواهر التي تؤثر على سير التطور التاريخي. فالمجتمع شديد التنوع . وان للكشف العميق عن خصـائص كل الظواهـر الاجتماعية وعن طابع ارتباطها بظواهر أخرى للحياة الاجتماعية ومعرفة دورها في حياة وتطور المجتمع أهمية نظرية وعملية وفائقة . وممّا يحدد خصائص كل ظاهرة اجتماعية علاقتنا بها .. فاذا لم نحصر خصائص الظواهر الاجتماعية فان هذا سيفضي بنا حتماً الى الوقوع في أخطاء جدية ليس في النظرية وحسب ،

---

(١) ماركس وانجلس . المؤلفات . الجزء ٣ ، ص ٢٩ .

وانما في التطبيق العملي أيضاً • وهكذا ، فاذا ماألحقنا اللغة بالبنيان الفوقي ،كان علينا أن نطالب بتغيير ثوري للغة التي تمت على القاعدة القديمة ، وبخلق لغة جديدة تتلاءم مع القاعدة الجديدة • لكنما هذا يبقى في حكم المستحيل • ولا يمكن أن يتخلّى الناس عن اللغة كوسيلة للتفاهم ونشر الأفكار • وهي تختلف عن البنيان الفوقي بكونها لا تولد من قاعدة معينة ، وانما هي نتيجة لسير التاريخ كله عبر زمن طويل • والى جانب ذلك فانها ، بخلاف البنيان الفوقي ، لاتميز بين الطبقات • فهي في الواقع تخدم مختلف الطبقات والقواعد • ويمكن للغة أن تنتقل من تشكيلة الى أخرى • لكن هذا لايعني أن اللغة تقف على مكان واحد ولا تتطور • ان اللغة تتطور ككل شيء في هذا العالم وفقاً لقوانين أخرى غير قوانين القاعدة والبنيان الفوقي • وهي تعكس مباشـرة تطور الانتـاج والعلم والثقافة والحياة السياسية الاجتماعية ، أي أنها تعكس التغيرات التي تحصل في جميع قطاعات الحياة الاجتماعية • وتحدث عملية اغناء اللغة بصورة مستمرة بكلمات وتعابير جديدة وبموت الكلمات القديمة • وتتغير بنيتها القواعديـة كذلك ،ولو أن هذا يحدث بصورة أبطأ من تغير الكلمات •

ان الثورات الاجتماعية ، اذ تحمل تغيرات جذرية الى الحياة الاجتماعية، تؤثر تأثيراً كبيراً على اللغة ، لكن التاريخ يؤكد أن الثورات الاجتماعية لايمكن أن تؤدي الى استبدال لغة بأخرى •

ثم لايمكن أن تدخل في البنيان الفوقي الاجتماعي العلوم التشخيصيةـ الطبيعية والدقيقة والتكنيكية وكذلك ـ والى حد ما ـ العلوم الاجتماعية • وسوف ندرس مسألة العلم بصورة مفصلة في المكان المناسب • وما علينا الآن سوى أن نلاحظ ان النظريات الملموسة والموضوعية للعلوم الاختصاصية (باستثناء القسم الفلسفي العام وكذلك القسم النظري العام من العلوم الاجتماعية) لايمكن أن تحمل طابع الايديولوجيا وانما لها أهميـة معرفية فقط • ان محتوى العلوم لايمكن أن تحدّده قاعدة المجتمع لأنه يرتبط بصورة استثنائية بعمق النفاذ الى موضوع العلم ذاته • ان القاعدة تحدد طابع استخدام هذه العلوم لمصلحة هذه الطبقة أو تلك، أو لمصلحة المجتمع كله ، كما هو الأمر في الاشتراكية ،انها تحدد تلك الظروف

الاجتماعية التي تتطور العلوم في ظلها • لكنها لاتحدد طبيعة العلم ذاته • ولهذا فان العلوم لا تتعلق بالبنيان الفوقي بالرغم من أنها في تطورها مرتبطة بالقاعدة وبالبنيان الفوقي معاً وبالأشكال المختلفة للايديولوجيا • ان للايديولوجيا تأثيراً كبيراً على تطور العلوم • ولهذا فان المادية التاريخية تطالب بدراسة خصائص العلوم وبالنضال من أجل ربط العلم بالايديولوجيا التقدمية لهذا العصر أو ذاك، وهي تطالب في وقتنا هذا بالنضال من أجل اقامة رابطة لاتنفصم بين العلوم التشخيصية وبين الايديولوجيا الماركسية ـ اللينينية •

وبهذا ، فان التشكيلة الاقتصادية الاجتماعية هي جهاز اجتماعي متنوع وشديد التعقيد • ومن أجل فهم سير العملية فهماً صحيحاً ينبغي دراسة جميع نواحي الحياة الاجتماعية وجميع الظواهر الاجتماعية في التأثير المتبادل فيما بينها•

لقد أشار لينين الى أنه من أجل معرفة الموضوع معرفة واقعية ينبغي حصر جميع جوانبه وروابطه وصلاته ودراستها • ان الديالكتيك يطالبنا بتناول الموضوع من شتى جهاته • ونحن لن نبلغ ذلك على الوجه الأكمل مطلقاً ، أي اننا لن نقدر على كشف جميع روابط وعلاقات هذا الموضوع أو تلك الظاهرة• لكن مجرد مطالبتنا بشتى الجوانب تقينا شر الأخطاء والجمود ، وتحول دون اضفاء الصبغة المطلقة على أحكامنا الآنية النسبية على الموضوع •

ان القرن العشرين هو قرن التحولات الجذرية في مصير الانسانية ، عصر انتصار الشيوعية • ان ثورة اكتوبر الاشتراكية العظمى وبناء الاشتراكية في بلدنا ، وان الثورات الاشتراكية في بلدان الديموقراطية الشعبية ، وتكون النظام العالمي للاشتراكية، كل هذا مهد أمام الانسانية الطريق واسعاً الى الشيوعية • ان المرحلة الدنيا للشيوعية هي انتصار الاشتراكية نهائياً على الأرض واثبات تفوقها على الرأسمالية • ان البرنامج الجديد للحزب الشيوعي في الاتحاد السوفييتي يكشف أمام الانسانية جمعاء عن وجه التشكيلة الشيوعية ويحدد الطرق الملموسة لبناء الشيوعية • ان تحقيق برنامج حزبنا سيكون له أعمق الأثر على سير التاريخ العالمي •

فماذا يتيح لحزبنا امكانية التنبؤ بطابع التغيرات في الحياة الاجتماعيـــة وتحديد هدف النشاط العملي لجمــاهير الشــغيلة وطرق وأســاليب التحولات الاجتماعية ؟ ان مثل هذه الامكانية يعطيها الفهم العلمي لبنية التشكيلة ، ومعرفة قوانين تطورها ، والارتباط الخلاق بالنظرية ، وحسن نشر وتعميم التجربـة الجماهيرية •

ان تعاليم المادية التاريخية عن التشكيلة الاقتصادية الاجتماعية دخلت بشكل خلاق في برنامج حزبنا لتحليل الوضع الراهن للتشكيلة الشيوعية ومجال تطورها • فقد وضع في البرنامج مخطط ملموس لتطور قوى الانتاج التي تؤلف أساس وجود وتقدم المجتمع • فالبرنامج يعلن أن خلق القاعدة المادية التكنيكية للشيوعية هي المهمة الرئيسية الاقتصادية التي تواجه الشعب السوفييتي ، وهي أساس الخط العام للحزب •

ان تحقيق هذه المهمة ليس من شأنه أن يسمح بخلق قوى انتاج لا مثيل لها من حيث القوة وتأمين أعلى قوة انتاجية للعمل في العالم وأعلى مستوى لحياة الشعب وحسب ، وانما بتحويل العلاقات الانتاجية الاشتراكية الى علاقات شيوعية أيضاً • ان التغيرات في أسلوب الانتاج سوف تكون أساساً لتحويل كل نواحي الحياة الاجتماعية الأخرى • ان البرنامج يدرس بصورة مفصلة التغيرات الواجب حدوثها في عملية الانتقال من الاشتراكية الى الشيوعية ، والعلاقات الطبقيـة والقومية والاجتماعية الأخرى ، والمنحى الموضوعي لتطور الدولة السوفييتية والديموقراطية الاشتراكية ، وتحديد اتجاهات التغيرات لحياة الناس الروحية وغيرها •

وهكذا فقد تجسدت في برنامج الحزب وتطورت كل المقولات العامـــة للمادية التاريخية المتعلقة ببنية التشكيلة الاجتماعية وبالتأثير المتبادل بين شتّى جوانبها •

نقد المفهوم البورجوازي لبنية المجتمع

ان فهم علم الاجتماع البورجوازي لبنية المجتمع وجوانبه الأساسية المترابطة يختلف مبدئياً عن فهم الماركسية له •

ان مايميز أغلب الاتجاهات في علم الاجتماع البورجوازي هو أنها تضع وعي وبسيكولوجيا الانسان في أساس البنية الاجتماعية •

فاليكم ، على سبيل المثال ، نظرات الاتجاه المعاصر السائد في الغرب والمسمى بعلم الاجتماع المجهري (د • مورينو ، غ • غورفيتش وغيرهما) • ان ممثلي هذا الاتجاه يستعيرون المصطلحات من العلوم الطبيعية ، ولاسيما من الفيزياء • فمن المعروف أن الفيزياء ، اذ تدرس خصائص وقوانين الظواهر النووية (البنية الصغيرة) ، تصطدم بحقيقة أصالتها النوعية واختلافها عن خصائص وقوانين الأجسام المادية التي يصادفها الانسان في عمله اليومي (البنية الكبيرة) • ان هذه الحقائق تؤكد نفسها في الطبيعة ، لكن علم الاجتماع المجهري ينقلها الى المجتمع •

ان المبدأ الذي ينطلق منه علم الاجتماع المجهري هو التمييز بين بنية المجتمع المجهرية الدقيقة وبين بنيته الكبيرة • فالبنية الكبيرة للمجتمع تعني التوضع المكاني الخارجي للناس في هذه الفئة أو تلك : في المدرسة ،والورشة، وفي المعمل ، وفي الواقع الحياتي اليومي ، وفي الجيش ••• الخ • فان أوضاع الناس هذه في المكان يمكن أن تدرك مباشرة ، أما العلاقات الحقيقية بين انسانين متجاورين ، أي أن يعاني أحدهما شعور الاشمئزاز من الآخر ، أو العطف عليه ، أو اللامبالاة ، فلا يمكن أن تدرك مباشرةعن طريق الاحساس• ان هذا الجانب من العلاقات المتبادلة يؤلف البنية الصغيرة لهذه الفئة ، ومن أجل اكتشافها لابد من عملية بحث اجتماعي دقيق • فعن طريق طرح الأسئلة والتحقيق وما أشبه ذلك يتعرف عالم الاجتماع المجهري على المشاعر التي يكنها الناس بعضهم لبعض ، وهذا مايؤلف « السجل القياسي الاجتماعي » الذي يعكس العلاقات المتبادلة بين الناس على مستوى البنية الصغيرة • ان النتيجة العملية لمثل هذا البحث ينبغي أن تكون اعادة بناء البنية الكبيرة وجعلها تتلاءم

مـع البنية الصغيرة • وبكلمات موجزة يقترحون تصنيف الناس ضمن الفئة بصورة يكون فيها المتعاطفون مع بعضهم متجاورين •

فبواسطة هذه الأساليب التي يتبعها علىالاجتماع المجهري يمكن تنظيم العلاقات بين جارين اذا ما تشاجرا اذ يسممان حياتهما وحياة من حولهما • لكننا نتساءل : كيف نستطيع ، على هـذا الأساس أن « ننظم » العلاقات بين الطبقات حيث لا أثر للعواطف الشخصية تقريباً ؟

ان علماء الاجتماع المجهري يحللون الحياة الاجتماعية ايديولوجياً ، وهم يعتبرون العنصر الأولي فيها مايدعونه بال « الالكترونات الاجتماعيـة » التي تمثل « وحدات المشاعر » المعاشة من قبلالأفراد والمنقولة من فرد لآخر بخلاف الالكترونات العادية في الفيزياء • ومن هذه الوحدات البسيطة تتكون « الذرات الاجتماعية » التي هي مجموعة من مشاعر وعلاقات هذا الفرد أو ذاك والتي يتبادلها مع من يحيط به من الناس • ان علماء الاجتماع المجهريين يؤكدون أن للمجتمع ، كما للطبيعة ، بنية ذرية • لكنما اذا كانت « الذرية » في العلوم الطبيعية هي المادية ، فان » الذرية » في علم الاجتماع المجهري هي المثالية لأنها ترجع كل علاقات الناس الى علاقات بسيكولوجية متجاهلة وجـود العلاقات المادية التي تتكون خارج ارادة ووعي الناس ، تلك العلاقات المادية التي تحدد أخيراً العلاقات المتبادلة بين الناس في كل قطاعات الحياة الاجتماعية •

ثم ان علمـاء الاجتماع المجهريين يؤكدون أن « الذرات الاجتماعيـة » ترتبط احداهمـا بالأخرى مكونة « الجزيئات الاجتماعيـة » وبسلاسل من هذه الجزيئات أي مايسمى ب « الشبكة الاجتماعية القياسنية » التيتضم المجتمع كله • ان جميع التناقضات الاجتماعية تفسر بعدم الانسجام بين البنيتينالصغيرة والكبيرة ، وان خلق هذا الانسجام يسمى ب « الثورة الاجتماعية القياسية » • ومن هنا ينتقدون الماركسية • وهاكم مثالا لانتقاداتهم ؟ « لقد عمل ماركس على المستوى النظري للبنية الكبيرة • وبما أنه يجهل علم الاجتمـاع المجهري الحديث فقد وقع في خطأ جسيم في تنبؤاته • ان العمل الثوري ينبغي أن يكون موجهاً الى الوحدات الدقيقة في العلاقات الانسانية ، الى الذرات الاجتماعيـة

التي تستأثر بالأولوية » • عند ذلك فقط يمكن أن تأخذ الثورة شكلها الحقيقي، فهي لن تكون آنذاك ثورة اقتصادية وحسب ، وانما ثورة بسيكولوجية خلاقة تنسجم مع قوانين علم الاجتماع • وبكلمة أخرى ، يمكنها أن تأخذ آنذاك شكل « الثورة الاجتماعية القياسية » •

وبهذا فانهم يأخذون على ماركس عدم معرفته لنظريتهم ، وعلى الماركسية استنتاجاتها الخاطئة • تلكم هي نظرات هؤلاء الناس الذين لايمكن أن يأتوا ، من حيث المبدأ ، بأي جديد فيما يتعلق بفهم العلاقات الانسانية • وانما هم يتحذلقون فقط بالمصطلحات الفيزيائية مضيفين اليها كلمة « اجتماعية » • ان مثال علم الاجتماع المجهري يرينا أنه يستحيل تحليل بنية المجتمع من وجهات النظر المثالية التي تطمس الشرط الحقيقي لبناء المجتمع والمرتبط ببنيته الاقتصادية •

ان طرق التحويل الاجتماعي التي يرسمها علم الاجتماع المجهري هي طرق طوبائية ورجعية • ولقد بينت الماركسية طرق التحويل الثورية الصحيحة للمجتمع •

الفصل الثاني

التاريخ عملية ظهور وتطور وتغير التشكيلات الاقتصادية الاجتماعية

ان تحليل التشكيلة الاجتماعية الاقتصادية يسمح بمعرفة بنيتها والعلاقة التي تربط بين العناصر المؤلفة لها • ان مثل هذه الدراسة للمجتمع ولظواهره المختلفة التي تتبادل التأثير فيما بينها هي نقطة الانطلاق الضرورية الى المرحلة التالية من البحث • ان المجتمع لايقف ، بل يتطور ، ولهذا من الضروري ، أولا ، معرفة تأثير الشروط المادية الطبيعية على تطور المجتمع ، وثانياً ، معرفة قوانين تطوره •

١ ـ دور العوامل الطبيعية في حياة وتطور المجتمع

ان المجتمع هـو جزء من العالم المادي • وهو في تطوره يتبادل التأثير دائماً مع الطبيعة ، ولهذا ينبغي على العلم الاجتماعي أن يدرس هذه العلاقة •

ان المادية التاريخية ، كعلم عام عن التطور التاريخي ، تدرس تأثير الطبيعة عـلى تطور المجتمع ، وتقدم الحل العلمي لهذه المسألة • ان الطبيعة هي شرط ضروري لحياة الناس ولوجود وتطور المجتمع • ان الظروف الطبيعية التي يوجد فيها المجتمع الانساني ، وان الوسط الذي تتحقق فيه عمليات التأثير المتبادل بين المجتمع الانساني والطبيعة بشكل مباشر انما هو الوسط الجغرافي • ان الأرض ، بارتباطها مع الأجرام السماوية الأخرى ، وقبل كل شيء ، مع

الشمس ، وان الطبيعة الجوية المحيطة بها ، وكذلك الأنهار والبحار والمحيطات، والشروط المناخية والثروات الدفينة تؤلف بمجموعها الوسط الجغرافي للمجتمع الانساني والشروط الطبيعية التي تطور فيها •

ان الوسط الجغرافي ، اذ هو شرط وجود المجتمع الانساني ، يؤثر تأثيراً كبيراً على تطوره •

تأثير الوسط الجغرافي على تطور المجتمع

ان تنوع الشروط الجغرافية يشكل الأساس الطبيعي للنشاط الانساني• هكذا فان وضع البلاد القاري أو الساحلي أو الجبلي أو السهلي ، وان خصائص مناخها وخصب تربتها ووجود الأنهار والبحار والحيوانات والنباتات فيها ، ووجود الثروات الدفينة أو عدمه ••• الخ •• كل هذا ممّا يؤثر على اتجاه النشاط الانساني• ان الغنى الاجتماعي يتكون بواسطة العمل الذي يحور ويكيف الطبيعة وفقاً لمتطلبات الانسان • فالعمل أبو الغنى ، والطبيعة أمه • ويرتبط تقسيم العمل الاجتماعي الأولي بالوسط الجغرافي الى حد ما • وان تربية الحيوان وزراعة الأرض وأشكال الصناعة التعدينية وغيرها مرتبطة بخصائص الوسط الجغرافي • ان الشروط الطبيعية على الأرض هي الأساس الجغرافي للانتاج ، ولذا فهي تؤثر في تطور قوى الانتاج وفي توزعها ، وفي تقسيم العمل •

ومن خلال الانتاج يؤثر الوسط الجغرافي على وتيرات التطور التاريخي للشعوب • ان الشروط الجيدة للوسط الجغرافي تساعد على تطور الانتاج ، بينما الشروط السيئة تعرقل هذا التطور • فمن المعروف ، مثلا ، أن شعوب المناطق الشمالية وبعض بلدان المناطق الاستوائية تخلفت في تطورها عن شعوب المنطقة المعتدلة • فبسير تطورها الداخلي توصلت الى مراحل معينة في البناء • ان هذا يرجع ، بالدرجة الأولى ، الى الشروط الجغرافية السيئة • ان الطبيعة القاسية القاحلة في التوندرا كانت تتطلب من الانسان جهوداً يصعب تصورها من أجل الحفاظ على حياته • ان كلا من المناخ والتربة كان يعرقل تطور

الزراعة • ولـم تكن الشروط الضروريـة متوفرة لتطور الحرفة والصناعة والتجارة وبناء المدن وغيرها • لقد كانت المصاعب تسحق وجـود الانسان • وكل هذا كان يعرقل تطور القوى الانتاجية ، وبالتالي ، تطور العلاقات الاجتماعية لتلك الشعوب • وبعد ثورة اكتوبر فقط أخذت شعوب المنطقة الشمالية العليا من بلادنا ، وبمساعدة الشعب الروسي ، تزيح عن كاهلها ظلام التخلف الثقافي والاقتصادي الذي أناخ عليها قروناً كاملة ، وتطور المظاهر الاشتراكية للحياة •

أمـا مايتعلق بالطبيعة المعطاء في المناطق الاستوائية فقد ربطت الانسـان بحبل ـ حسب تعبير ماركس ـ ودفعته من الخلف ولـم تجعل من تطوره ضرورة طبيعية • ان كثيراً من شعوب وقبائل البلدان الاستوائية ، اذ تخلفت في تطورها الاجتماعي ، سقطت فريسة للاستعماريين الرأسماليين المحتلين الذين أخذوا يعرقلون تطورها فيما بعد بصورة مقصودة • لكن ظلم المستعمرين أدى الى انتفاضة حركة التحرر الوطني ، وأصبح نظام الامبريالية الاستعماري يعاني الآن أزمـة انهياره • ان معظم بلدان آسـيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية أزاحت عن كاهلها نير المستعمرين ، وحصلت على استقلالها الوطني ، وسلكت طريق التطور المستقل • ان العالم يطرح في وقتنا الحاضر مسألة الغاء النظام الاستعماري المشين الغاء تاماً •

ان التأثير السلبي لشروط الوسط الجغرافي السيئة انعكست بكل وضوح على الدرجات الأولى للسلم الاجتماعي • ومع تطور المجتمع صار في مقدور الانسان أن يقف بنجاح في وجه الظروف السيئة ، وأن يخضع الطبيعة لسيطرته • لكن هذا لايعني أن الانسان يتحرر مع تطور الانتاج من تأثير الوسط الجغرافي • ان التأثير المتبادل بين المجتمع والطبيعة ذو طابع ديالكتيكي ومعقد وان الوسط الجغرافي يخلق امكانيات معينة لتطور الانتاج ، لكنّ استخدام هذه الامكانيات يرتبط بالمجتمـع ذاتـه وبمتطلباته وبمستوى تطور القوى المنتجة وعلاقات الانتاج • ولهذا فان الشروط الطبيعية يمكن أن تستغل من قبل الناس بأشكال مختلفة ، ويمكن أن تؤثر على تطور المجتمع بأشكال مختلفة أيضاً تعود لمستوى

التطور الاجتماعي • ان طابع تأثير الوسط الجغرافي لايتعلق به وحسب ، وانما بالمجتمع أيضاً • ويقسم ماركس الشروط الطبيعية حسب دورها في تطور الانتاج الى قسمين رئيسيين :

– الثروات الطبيعية لوسائل الوجود : النباتات ، الأشجار المثمرة ، والطيور والأسماك وما شابهها •

٢ – الثروات الطبيعية لوسائل العمل : المعادن ، الفحم ، الخشب ، النفط ،وما شابهها ،ومن بينها أيضاً الأنهار الصالحة للملاحة والشلالات وغيرها•

ان القسم الأول من الثروات يلعب دوراً كبيراً في المراحل الأولى من تطور المجتمع ، والثاني في المراحل العليا • وليس عسيراً أن نفهم بأن استخدام الفحم الحجري أو النفط ، مثلا ، في الانتاج يكون ممكناً وضرورياً في المراحل العليا من تطور الانتاج • أما في المراحل الأولى فان وجودها أو عدم وجودها سواء ، لأنها تدخل في عملية الانتاج الاجتماعي • وليس للانتاج المعاصر أي معنى بدون النفط ، كما أنه ليس من قبيل الصدفة أبداً أن يكون الصراع من أجل النفط أعقد المشاكل في السياسة العالمية للدول الرأسمالية الكبرى •

وهكذا ، نرى أنه من الضروري دراسة تأثير الوسط الجغرافي ليس بصورة عامة ، وانما بعلاقته مع تطور الانتاج • وعندئذ لايكفي أن ننتبه الى مستوى تطور قوى الانتاج وحسب ، وانما الى طابع العلاقات الانتاجية كذلك• ان علماء الاجتماع البورجوازيين والجغرافيين الاقتصاديين ، اذ يدرسون علاقة المجتمع بالطبيعة ، فانهم يتناولون الجانب التكنيكي من الانتاج فقط • وهذه دراسة وحيدة الجانب • لقد أشار كارل ماركس الى أن « الناس ينتظمون في روابط وعلاقات معينة في المجتمع ، ومن خلال هذه الروابط والعلاقات الاجتماعية وحدها تتم علاقتهم مع الطبيعة ويكون ثمة مكان للانتاج »[١] • ان العلاقات الاجتماعية هي عامل جوهري في التأثير المتبادل بين الطبيعة والمجتمع • لقد كانت روسيا غنية دائماً بثرواتها ، لكن الثورة الاشتراكية

(١) ك : ماركس و ف • انجلس • مؤلفات مختارة • الجزء ١ ص ٦٣ •

وحدها هي التي فتحت الطريق لتصنيع تلك الثروات واستغلالها لمصلحة الشعب • ولقد كانت القيصرية تعرقل عملية استغلال ثروات البلاد الطبيعية •

لقد أكد بعض الباحثين أن سهوب روسيا بمناخها القاسي وقلة مياهها سوف تبقى تابعة للأقاليم الفقيرة من روسيا • لكنهم لم يدركوا أن هذه الشروط السيئة سوف تقهر بتقدم التكنيك الذي بقي متأخراً في ظل العلاقات الاقطاعية • وبهذا الصدد كتب لينين : « ان هذا القطاع في معظمه ليس قطاعاً عديم النفع نتيجة للظروف الطبيعية لهذه الأراضي النائية بقدر ماهو نتيجة للظروف الاجتماعية للاقتصاد في روسيا الأصلية ذاتها ، هذه الظروف التي ترغم التكنيك على الوقوف والناس على قبول الظلم والاضطهاد والتعاسة »[1] •

أصاب لينين بالطبع كبد الحقيقة في هذا القول • فلقد أضحت تلك السهوب الجرداء منطقة لزراعة الحبوب والكروم المتطورة •

وبهذا فان الشروط الطبيعية تؤثر على تطور المجتمع كأساس جغرافي للانتاج وعلى نشاط الناس الانتاجي • لكنه مع تطور الانتاج تظهر التناقضات بينه وبين الطبيعة • ان تطور الانتاج يتطلب مطالب معينة من الموارد الطبيعية وغيرها • فاذا ما قامت الشروط الطبيعية بتلبية هذه المتطلبات فانها تدفع بذلك القوى الانتاجية الى أمام • واذا ما انعدمت الموارد الطبيعية الضرورية وأشكال الطاقة فان هذا من شأنه أن يؤخر حركة المجتمع أمداً طويلا ، خاصة اذا كان الانتاج لايزال ضعيفاً في تطوره • ولهذا فان الوسط الجغرافي المتنوع في شروطه الطبيعية هو الأنسب لتطوير الانتاج • وان مثل هذا الوسط بالذات يتمكن من تلبية المتطلبات المختلفة التي تظهر مع تطور الانتاج •

وانه لخطأ كبير ألا نقدر أهمية الشروط الطبيعية في تطور الانتاج • ان الشروط الطبيعية المناسبة ضرورية للتقدم الاجتماعي • وعندما نقول ان لدينا كل ماهو ضروري من أجل الانتصار الكامل للشيوعية في بلدنا ، فاننا بهذا نعني

---

(١) ف • ا • لينين • المؤلفات • جزء ١٣ ص ٢٢٨ •

غنى الموارد الطبيعية • ان أي مخطط للتنمية الاقتصادية في البلاد ينبغي أن يدرس تنوع ظروفها الجغرافية والا فلن يتصف بالواقعية مطلقاً •

ومن ناحية أخرى ، فمن الخطأ النظري الجدي الغلو في تقدير تأثير الوسط الجغرافي على تطور الانتاج • لقد وقع في مثل هذه الخطيئة الماركسي الروسي الشهير غ • ف • بليخانوف • فهو لم ير في الوسط الجغرافي أساساً طبيعياً وحسب وانما المنبع الأساسي لتطور قوى الانتاج • ولقد أخطأ في تأكيداته القائلة بأن « تطور قوى الانتاج تحدده خصائص الوسط الجغرافي المحيط بالناس »[1] ، وأن « طابع الوسط الطبيعي يحدد طابع الوسط الاجتماعي »[2] •

ويمكن فهم هاتين المقولتين بأن تطور قوى الانتاج الكامن في أساس تطور المجتمع لاتحدده القوانين الداخلية لأسلوب الانتاج ، وانما تحدده قوانين الطبيعة • وبهذا أيضاً يكون مصدر التطور الاجتماعي خارج المجتمع نفسه مما يناقض الفهم المادي للتاريخ • ان الوسط الجغرافي لايلعب ، ولايمكن أن يلعب ، الدور المحدد في تطور المجتمع • ونحن لانلاحظ في التاريخ انسجاماً صريحاً بين طابع كل من الوسط الطبيعي والوسط الاجتماعي • وفي ظروف طبيعية متماثلة تقريباً يمكن أن نجد بلدانا ذات نظم اجتماعية مختلفة (مثلا تركمانيا السوفياتية وايران ، كاريليا وفنلندا •• الخ) بل وعلى العكس من ذلك ، ففي مناطق جغرافية مختلفة ثمة بلدان ذات نظام اجتماعي واحد ومستوى واحد لقوى الانتاج تقريباً • وسبب هذا أن الناس لايتكيفون هكذا ببساطة مع الوسط المحيط كما يحدث هذا في الطبيعة الحية ، وانما هم يغيرونه ويحذفون منه ، في أغلب الأحيان التأثير السيء للشروط الطبيعية • وعلاوة على هذا ، ينعدم ذلك التناسب بين تغير الوسط الجغرافي ووتيرات تطور الانتاج • فاذا كانت تغيرات الوسط الجغرافي تلعب دوراً مهماً في حياة الانسان وتطور الأدوات في مراحل

---

(١) غ • ف • بليخانوف • مختارات فلسفية ١٩٥٦ الجزء ١ ص ٦٨٩ •

(٢) غ • ف • بليخانوف • مختارات فلسفية ١٩٥٦ الجزء ص ١٥٥ •

الحياة الأولى للمجتمع ، فانه منذ ظهور الانسان الأول وتطور الإنتاج يسير بخطى أسرع من تغير الطبيعة على الأرض •

ان أعظم الانعطافات الاجتماعية والتكنيكية في التاريخ كانت تقوم نسبياً في ظروف جغرافية ثابتة ، ولم تكن ترتبط بها مطلقاً • ان الانتقال الى انتاج الأدوات الحديدية ، وظهور طواحين الماء ، وأنوال النسيج ، والآلة البخارية ، وما أشبهها ، لم تكن ترتبط بتغير الوسط الجغرافي • ان هذا يتعلق بالثورات الاجتماعية والانقلابات التكنيكية أكثر من أي شيء آخر • وعن هذا ينتج أنه لايمكننا البحث عن مصدر تطور قوى الانتاج والمجتمع بكليته في خصائص الوسط الجغرافي • ان المجتمع يوجد في ظروف طبيعية معينة ، ويتطور في صلات متبادلة دائمة معها ، لكن تطوره يكون وفقاً لقوانينه الخاصة • ان تاريخ المجتمع هو استمرار لتاريخ الطبيعة وعملية رفع الطبيعة ذاتها الى مرتبة جديدة • « ان التاريخ ذاته هو جزء واقعي من تاريخ الطبيعة وهو فعل الانسان في الطبيعة »[١] •

تأثير المجتمع في الطبيعة

ان الانسان يحول الطبيعة اذ يخضعها لسيطرته • ومع تطور المجتمع يصبح تأثير الانسان على الطبيعة أكثر شأناً • ان الوسط الجغرافي الحديث لم يعد نتاجاً محضاً للتطور الطبيعي • وهو في معظمه نتيجة لتأثير المجتمع على الطبيعة ، نتيجة لنشاط الانسان المحول • فالناس يقومون بمد القنوات وانشاء السدود ويخلقون البحيرات الاصطناعية • وتحت تأثير الانسان تغير عالم الحيوان والنبات على الأرض الى درجة كبيرة • ولاينحصر هذا التغير في قطع الناس للغابات ، وبمطاردتهم للحيوان والقضاء على كثير من أصناف الحيوانات البرية ، وانما يتعداها الى استنبات نباتات جديدة وتربية حيوانات أهلية كثيرة • ان النباتات الديكورية الحديثة ، وأصناف الحبوب والخضار والفواكه قلما تشبه أسلافها البرية القديمة • وليس ثمة نهاية لعملية تغيير أنواع النبات هذه • ان تطور العلم ومعرفة قانونية الطبيعة العضوية يفتحان سبلا جديدة وامكانيات لتغيير الجهاز

(١) ك • ماركس و ف • انجلس • من المؤلفات الاولى ص ٥٩٦ •

العضوي الحي تغيراً سريعاً وفقاً لمتطلبات الانسان • لقد أوجد محول الطبيعة العظيم ي • ف • متشورن ما ينوف على ٣٠٠ صنف من النباتات المثمرة ، وقد انتشرت زراعة قسم كبير منها انتشاراً واسعاً في الاتحاد السوفييتي • ولقد أوجد الناس حوالي ٤٠٠ صنف جديد من ذوات القرون و ١٥٠ من الخيل و ٤٠٠ من الكلاب ••• الخ • لذا فان نشاط الانسان يحدث تغيراً جوهرياً في المجموعات الجغرافية المتكونة في أماكن شتى ، وهو أحد العوامل المشكلة للوسط الجغرافي • وبالطبع ، لاتزال امكانيات الانسان محدودة ، فليس في امكانهم التأثير على المناخ (يمكنه أن يخلق مناخاً تجريبياً معيناً فقط) وعلى العمليات الجيولوجية وغيرها • لكن هذه الامكانيات تنمو وتتسع بسرعة وبصورة تلفت الأنظار • فقد شرع الانسان يغزو الفضاء الخارجي مما يوسع حقل تأثيره في الطبيعة • ان الامكانيات الهائلة للتأثير على الطبيعة توجدها معرفة الاستخدام العملي للطاقة النووية ، وخلق اتحادات مختلفة ، وتطور الراديو كهرباء وغيرها• لكن أي تغير يحدثه الانسان في الطبيعة لايلغي قضية علم الاجتماع حول تأثير الوسط الجغرافي على المجتمع الانساني ، لأنه من خلالها بالذات تؤثر كل العوامل الطبيعية على حياة الانسان •

ففي التشكيلات السابقة ، وخاصة في فترة الرأسمالية ، أحدثت الشعوب تغييرات مهمة في سطح الأرض • لكن الرأسماليين ، في عدوهم وراء الربح ، يتطلعون بجشع الى الموارد الطبيعية • ان العلاقات الانتاجية للرأسمالية بفوضويتها وفوضوية انتاجها تضع كثيراً من العراقيل أمام تطوير الطبيعة • بينما تضع الاشتراكية امكانيات جديدة لا محدودة في مصلحة الانسان ، مصلحة كل الكادحين •

وبموجب منجزات العلم والتكنيك الجديدة تنفتح أمام الانسانية مجالات واسعة لتغيير وجه كوكبنا ولجعله أكثر جمالا وملاءمة لحياة الناس • لقد بدىء الآن بتحريك المشاريع تكنيكياً من أجل اقامة سد ومحطة لضخ المياه على خليج بيرينغ مما سيجعل مناخ الأقاليم الشمالية من آسيا وأمريكا أكثر دفئاً ؛ وتحويل قسم من مياه أنهار سيبيريا والأنهار الشمالية من الجزء الاوروبي

في الاتحاد السوفييتي الى حوض الفولغا من أجل تحديد تراكم الرمال في بحر قزوين وري الصحارى في آسيا الوسطى ؛ واقامة سد على مضيق تاتاوسكي مما سيحمل الدفء الى بحر أخوتسك بالاضافة الى كل النتائج الأخرى التي يمكن أن تنبثق عنه •• الخ •

ليس ثمة ريب في أنه ، مع التطور المقبل للاشتراكية والشيوعية عندما يزول خطر الحروب نهائياً ونفقات السلاح وعندما تزول الحواجز التي أحدثتها الملكية الخاصة وعزل البلدان والشعوب المختلفة أحدها عن الآخر ، وعندما توحد الانسانية قواها ومواردها المادية جميعاً من أجل قهر الطبيعة ، فان تأثير الانسان على سير العمليات الطبيعية سوف يرتفع الى درجة جديدة بنوعيتها ، وسيتحقق حلم انجلس الشاب الذي كتب في احدى قصائده متنبئاً بالازدهار العظيم للثقافة الانسانية وللعلم :

ستصبح الأرض حديقة مزهرة
وستتغير كل نباتات الأرض
وسيكسو الشمال نخيل السلام
وتزدان حقول الجليد بالورود[1]

وينبغي على الناس في تطويرهم للطبيعة أن يقدموا في تعقل غير مهتمين بحاجات يومهم الراهن وحسب ، وانما بنتائج أعمالهم البعيدة أيضاً التي لم يكونوا يهتمون بها دائماً في التاريخ • فمن المعروف أن اجتثات الغابات يؤدي الى جفاف الأنهار ويسيء الى عملية الزراعة • ثم ان التكنيك الزراعي الخاطيء يؤدي الى انهاك التربة وافقارها ؛ وان بناء المؤسسات الصناعية التي تتطلب القاء نفايات انتاجها يؤدي الى تلويث الأنهار والقضاء على الثروة السمكية فيها بدون عمليات تنقية ؛ وان الصيد الحر يؤدي الى القضاء على بعض أصناف الحيوان قضاء تاماً •• الخ • ان مثل هذه العواقب ضارة بالنسبة للانسان نفسه ، بل وتفسد ظروف حياته وظروف نشاطه الانتاجي • ان كل الظواهر في الطبيعة

---

(١) ماركس وانجلس • المؤلفات • الجزء ٢ ص ٥٤٧ •

مرتبطة بعضها ببعض • ان التدخل القصير النظر في سير العملية الطبيعية يهدم الصلات الطبيعية ، ويخرق قوانين العمليات ذاتها •

ان العمال – أصحاب الأرض الحقيقيين – يهتمون بتحسين الطبيعة • فاذا كانت الرأسمالية تتميز بتطلعاتها الجشعة الى استغلال الموارد الطبيعية . فان المجتمع الاشتراكي لايمكن أن يسمح بمثل هذه العلاقة • ان دورة المجلس الأعلى لجمهورية روسيا الاتحادية المنعقدة في عام ١٩٦٠ سنت قانوناً رائعاً للحفاظ على الطبيعة • فهو ينص على أن الانسان ، اذ يغير الطبيعة ، ينبغي أن يعتني بها ويحافظ عليها من أجل أن تتمكن الطبيعة في وطننا من تقديم أقصى مايمكنها من الفوائد لبناة المجتمع الاشتراكي •

وهكذا نرى أن تقدم المجتمع يرتبط بتعزيز سلطة الانسان على الطبيعة وباخضاعها له ، وبهذا المعنى يقل ارتباط الانسان بقوى الطبيعة العفوية • ثم انه ، مع تطور المجتمع ، تصبح علاقة الانسان بالطبيعة أشد عمقاً وأكثر تنوعاً : فيدخل الانسان محتويات الطبيعة وقواها في الانتاج بصورة أكثر ، وتنمو الثروات الطبيعية التي يحتاج اليها الانسان • ان ديالكتيك العملية هنا هو في أن الانسان يزيد من سيطرته على الطبيعة اذا ما أحسن تقدير تلك الروابط التي تجمعه بها • ولهذا ينبغي ألا ننظر الى تقدم التكنيك كعملية لفصل المجتمع عن الطبيعة • ان الانسان هو ذروة التطور ، لكنه في حقيقته ينتمي الى الطبيعة • وان قوته تزداد بشكل يتناسب مع كيفية تعلمه لاخضاع الطبيعة واستخدام قوانينها في الانتاج ، أي باتساع عملية التأثير المتبادل معها •

نقد الاتجاه الجغرافي في علم الاجتماع

ان للحل العلمي الذي تضعه المادية التاريخية للسؤال عن دور الوسط الجغرافي في تطور المجتمع وعن التأثير المتبادل بين المجتمع والطبيعة في سير تطوره قيمة طرائقية ، ليس فقط من أجل تحليل العمليات الملموسة للتأثير المتبادل بين الطبيعة والمجتمع ، وانما من أجل نقد النظريات غير الماركسية أيضاً • ان معظم الفلاسفة المثاليين يفصلون المجتمع عن الطبيعة الباقية ويضعونهما على

طرفي نقيض كما يضعون الروح بالنسبة للمادة ، وعالم الفرد بالنسبة لعالم الجماعة ، وعالم القيم والحرية بالنسبة للضرورة المادية • وطبيعي أن هؤلاء الفلاسفة ينكرون أي أثر للطبيعة على المجتمع الذي يعتبرونه مستقلا عنها مضفين الصبغة المطلقة على الاختلافات الواقعية القائمة بين المجتمع والطبيعة • ثم ان ممثلي مايسمى بالاتجاه الجغرافي ينتهون الى تطرف آخر اذ يضعون تطور المجتمع في علاقة مباشرة مع الظروف الطبيعية ، ويسعون الى ايجاد المصدر والقوة المحركة للتطور الاجتماعي فيها • وهم يعتبرون أن الوسط الجغرافي هو القوة الأساسية التي تحدد وجه المجتمع وطابع حياة الناس الاجتماعية • وبالرغم من أن أنصار الاتجاه الجغرافي ينطلقون من الدور المحدد للعامل المادي ـ الوسط الجغرافي ، فانهم لدى فهمهم للحياة الاجتماعية يبقون على مواقفهم المثالية • ثم انهم يربطون البناء الاجتماعي بوعي الانسان وبأعرافه وعاداته وقوانينه ••• الخ •• لكن هذه الأخيرة ـ القوانين ـ تستنبط من خصائص الوسط الجغرافي •

في الواقع ان الطبيعة تؤثر على الانسان وعلى نفسيته ، وان هذا التأثير ينعكس في واقعه الحياتي اليومي (طابع المسكن والملبس والمأكل •• الخ) وفي بعض الخصائص القومية والعرقية وغيرها • ان لمعرفة هذا التأثير قيمة عملية بالنسبة لكل من الطبيب ومهندس البناء • لكنه لدى تحديد طابع البناء الاجتماعي واتجاهه فان التأثير المباشر للطبيعة على الانسان ليس له أية قيمة جوهرية • ويمكن أن نعود الى تصريح الجغرافي الأمريكي ا • هنيتنغتون لطرافته فقط اذ يقول بأن بعض الدفء في مناخ روسيا كان سبب قيام ثورة أكتوبر العظمى التي « حررت الروس جزئياً من الشتاء البارد المميت وليله الطويل »[1] •

ان الأفكار القائمة حول الدور المحدد للوسط الجغرافي كانت من وضع ايديولوجيي الطبقات المختلفة ، وقد استغلت في تدعيم شتى المصالح الاجتماعية،

---

(١) « قضايا الجغرافيا » ١٩٨٤ الطبعة ٧ ص ٢٠٧ •

فلعبت بهـذا دوراً ايجابيـاً وآخر سلبياً • وينبغي أن نعالجهـا من وجهـة النظر التاريخية المادية •

فمنذ القدم ، وفي القرون الوسطى ، ظهر عند العرب بعض المفكرين الذين حاولوا تفسير حياة الشعوب بالنسبة لخصائص الوسط الجغرافي •

ولقد تمتع بشهرة واسعة ذلك العمل الذي قام به مونتسكيو عالم الاجتماع الفرنسي الشهير (القرن الثامن عشـر) « حول روح القوانين » • لقد جاء فيه أن « العوامل الفيزيائية » وقبل كل شيء المناخ ، وكذلك التربة والأرض ، هي التي تحدد بسيكولوجيا وعادات وأعراف الناس ، وروح الشعب الخاصة به ، وبالتالي بنية حياتهم الاجتماعية ، وقوانين الدولة ونشاط مشرعيها • ان القوانين التي تحدد البناء الاجتماعي وعلاقات الناس تنبثق ، في رأي مونتسكيو ، عن الارادة الحرة للمشرعين ، والى جانب ذلك ينبغي أن تتناسب مع طبيعة الاشياء » • ولقد منح مونتسكيو العامل السياسي الدور الحاسم في حياة الشعوب •

وبهذا فان نظرات مونتسكيو الى الحياة الاجتماعية ذات طابع مثالي • لكن المحاولة لابراز دور الشروط الطبيعية الموضوعيـة في حياة المجتمـع ، والسعي لوضع القوانين على أساس طبيعي ، والعزوف عن الفهم الديني للتاريخ كانت آنذاك ذات معنى تقدمي • لقد كانت نظرات مونتسكيو السياسية الاجتماعية تقدمية لأنه كان عدواً للمطلق ونصيراً للمبادىء البورجوازية حول الحريـة السياسية والمساواة وشـكل الحكم الدستوري وما اليها ممـا كان ينسجم ومصالح البورجوازية الفرنسية في ذلك الوقت ، وأفاد في خلق الكفاح نظرياً وفكرياً ضد سيطرة الاقطاعية •

لكن أفكار الاتجاه الجغرافي في القرن التاسع عشر كانت ذات معنى آخر مغاير لما سبق ، حيث أن الرأسمالية توطدت في البلدان الرئيسية من أوروبا الغربية ، وبرزت مهمة اثبات خلودها وتبرير استمرار شـكلها الاستغلالي واحتلالها للبلدان الأخرى ، وبدأت أفكار الاتجاه الجغرافي آنذاك تخدم هذه الأهداف الأمر الذي يمكننا أن نتبينه بجلاء في نظرات بوكل •

لقد وضع المؤرخ الانكليزي بوكل بناء وتطور المجتمع في ارتباط مباشر مع تأثير المناخ والتربة والغذاء ورقعة الأرض • وهو ينطلق من القول بأن تراكم الثروات هو شرط تطور الحضارة • وان جمع الثروات يتعلق بخصب التربة ،وبملاءمة المناخ المحرك لطاقة الانسان ،وبكمية الطعام الضروري• وحسبما يرى بوكل فان العوامل الطبيعية لاتحدد العلاقة بين المنتوج الفائض والضروري وحسب ، وانما تحدد طابع توزيعه بين الناس كذلك • وبتعبير آخر ، ان عدم المساواة الاجتماعية مصدره الطبيعة ذاتها • فقد أكد ، مثلا ، أن « العبودية في الهند •• كانت الوضع الطبيعي لأغلبية الشعب الساحقة التي حكمت عليها بمثل هذا الوضع القوانين الفيزيائية التي لايمكن معارضتها »[1]• ولايمكن النظر الى مثل هذه المقولة الا كمحاولة لتبرير السياسة الاستعمارية لانكلترا الامبريالية • أما فيما يتعلق بأوروبا فان تأثير الشروط الفيزيائية — على مايبدو — يقل تدريجياً : « ان تقدم المدنية الأوروبية يتميز بضعف تأثير القوانين الفيزيائية وشدة تأثير القوانين العقلية »[1] • ان بوكل لايبرح المفهوم المثالي للتاريخ ، وهو يستخدم مقولته لتمجيد وتوطيد سلطة البورجوازية •

ومع تطور الرأسمالية فقد برزت واحتدمت التناقضات بين البورجوازية والبروليتاريا ، وظهرت الماركسية — الايديولوجية العلمية لطبقة البروليتاريا • وفي مثل هذه الظروف فان أفكار الاتجاه الجغرافي في علم الاجتماع تُستخدم بصورة أوسع من قبل الايديولوجيين البورجوازيين وممثلي التعاليم الاشتراكية والنصف اشتراكية المختلفة للبورجوازية الصغيرة من أجل النضال ضد الماركسية وللوقوف في وجه الفهم المادي للتاريخ •

لقد كان ريكليو أكبر ممثل للاتجاه الجغرافي في القرن التاسع عشر • فقد تكلم عن صراع الطبقات ودور العمل وكتب في الوقت ذاته أن : «كل الحقائق الأساسية في التاريخ تفسر بالشروط الجغرافية للمكان الذي حدثت فيه » •

---

(١) ت • بوكل • تاريخ الضارة في انكلترا ، ١٨٦٦ ، الجزء الاول ص ٥٥ •
(٢) ريكليو الأرض ، ١٩٠١ ، ص ١٠٦ •

ان وضع هذا المبدأ كان بالطبع مرتبطاً بالمهادنة مع التفاسير الحرة المصطنعة التي لها قيمة أدبيــة أكثر منها علمية والتي تؤكد خطل الفهم الناتورالي المحدود للتاريخ • لكن الجغرافي ريكليو قام بدور كبير في نشر المعارف عن كوكبنا هذا • وان مؤلفه الأساسي « الأرض والناس » كان أول وصف علمي لجميع البلدان على هذه الكرة •

ان كتاب ميتشنيكوف « المدينة والأنهار التاريخية الكبرى » الذي ظهر عام ١٨٨٨ يحتل مكاناً مرموقاً بــين أعمال مايسمى بالاتجاه الجغرافي في علم الاجتمــاع • ولقد كان ميتشنيكوف صديقاً لريكليو ومؤيداً لمفهوم الحريــة المطلقة بتطلعاته السياسية • لقد كان يسعى بنظريته التاريخية الى اقامة نظراته السياسية على أساس فلسفي ويحاول البرهان على أن العملية التاريخية تسير حتماً من الاستبداد الى المطلق •

وان ميتشنيكوف يقسم التاريخ الى ثلاث فترات : فترة الأنهار ، فترة البحار ، فترة المحيطات • ان الوسط الجغرافي ، حسب نظريته ، يدفع الناس حتماً لتوحيد جهودهم ، ولكن المبادىء التي يقوم على أساسها التعاون فيما بينهم تبقى مختلفة • ففي فترة الحضارات النهرية كان يسود الاستبداد ؛ وفي فترة البحر الأبيض المتوسط التي تبدأ منذ تأسيس قرطاجنة (القرن التاسع قبــل الميلاد) وتمتد حوالي قرنين ونصف كانت الثقافات الأولى تدخل دور التعميم والتخفيف من العنف كوسيلة ؛ والثالثة ــ فترة المحيطات التي تبدأ منذ اكتشاف أمريكا ، وتتميز بتمازج الثقافات وتطور مبدأ الاتفاقات الحرة ووعي جدوى العمل الجماعي • ان تقدم الانسانية هو في اكمال وتطوير أشكال الاتحاد بين الناس ، وبالانتقال من الوحدة اللاواعيــة الى الوحدة الواعية • ان التقــدم الاجتماعي يتناسب طرداً مع الحرية وعكساً مع الارغام والتسلط • ان نظرات ميتشنيكوف هــذه استخدمت من قبــل الكتاب الموالين لمفهوم الحرية المطلقة لمواجهة الماركسية مع أنها أكثر النظرات عمقاً وتكشف عن الأسباب الطبيعية الجذرية وعن القوى المحركة لتطور الاقتصاد والمجتمع • وفي الواقــع فانه خلف الظاهر « المادي » لنظرات ميتشنيكوف ، كانت تكمن تفسيرات النظرية المثالية ، من حيث جوهرها ، للعملية التاريخية •

وفي عصر الامبريالية يستخدم الاتجاه الجغرافي على نطاق واسع من أجل تدعيم السياسة الرجعية للرأسمال الاحتكاري • ويظهر في هذه الفترة وينتشر علم السياسة الجغرافية • ان السياسيين الجغرافيين ، اذ يتطرقون الى الحقائق ويتناولون أحداث التاريخ كيفما شاؤوا ، يحاولون تأسيس سياسة التوسع الامبريالي « نظرياً » اعتماداً على خصائص الوسط الجغرافي • ان أساس السياسة الجغرافية هو التأكيد بأن تاريخ الانسانية هو النضال الأبدي من أجل « المجال الحيوي » • ولقد استخدمت السياسة الجغرافية من أجل التسلح في ألمانيا الفاشستية ، واستخدمت الى جانب التمييز العنصري من أجل تبرير العدوانات الهتلرية ونهب الشعوب الأخرى • لقد كان الفاشست يعتبرون حروبهم التوسعية كنضال « للعرق المتفوق » من أجل «مجاله الحيوي» •

لقد منيت سياسة وايديولوجية الفاشية الألمانية بفشل ذريع ، لكن الامبرياليين لا يرغبون بالعزوف عن الأخذ بالسياسة الجغرافية • ففي وقتنا هذا نجد أنه قد تكونت مجموعة لا بأس بها من السياسيين الجغرافيين الذين يكيفون هذا العلم الأشوه مع مصالح الامبريالية الأمريكية • ان أخطار « الاتجاه الجغرافي » موضوعة في زمننا هذا لخدمة أكثر الرجعية شراسة • وان مقولات المادية التاريخية حول دور الوسط الجغرافي في تطور المجتمع تعطينا أساساً نظرياً لفضح هذه الايديولوجية الرجعية •

دور تزايد السكان في تطور المجتمع

بالاضافة الى الوسط الجغرافي فان وجود حد أدنى من السكان على أرض معينة شرط ضروري لوجود وتطور المجتمع ، ويقصد بهذا كثافة معينة للسكان • فلو كان الانسان وحيداً لما تمكن مطلقاً من مغادرة وضعه الحيواني والتصدي لقوى الطبيعة ومن ضمان بقائه •

ان مثال روبنسن الذي انعزل في جزيرة خالية من أي انسان آخر ، وتمكن من انتاج كل ما هو ضروري للحياة ، لا يثبت أي شيء من هذا القبيل ، لأن روبنسن هذا كان لديه كل الأدوات الضرورية والسلاح والخبرة • وان التاريخ لا يمكن أن يكون قد بدأ على طريقة روبنسن هذه •

وتختلف كثافة السكان حسب الزمان والمكان • ففي مناطق الحقول الزراعية في جاوا نجد أن كثافة السكان تربو على ١٠٠٠ نسمة في الكيلو متر المربع الواحد ، وفي دلتا يانتزا زهاء ٦٠٠ نسمة في الكيلو متر المربع • وفي وادي ودلتا النيل تربو على ٢٥٠ نسمة في الكيلو متر المربع ، وفي المجرى الأسفل لنهر الفانجو ٢٠٠ ـ ٣٠٠ نسمة في الكيلو متر المربع ، بينما نجد الكثافة في لندن الكبرى تبلغ ٤٥٠٠ نسمة في الكيلو متر المربع الواحد • ومن ناحية أخرى نجد أن المناطق الصحراوية والجبلية المرتفعة في آسيا وافريقيا الشمالية وفي مناطق الغابات الاستوائية في افريقيا الوسطى وأمريكا الجنوبية وكذلك أقاليم مناطق التوندرة تندر من السكان تقريباً • وان الكثافة فيها لاتتعدى بضع عشرات من الناس في كل مائة كيلو متر مربع •

ان كثافة سكان الأرض تتغير مع الزمن• فخلال ٣٠٠ سنة منذ عام ١٦٥٠ تضاعف عدد سكان الكرة الارضية خمس مرات ونيف • ويبلغ عدد سكان الأرض حسب احصائيات ١ كانون الأول عام ١٩٦١ ثلاث مليارات ، وتبلغ الكثافة الوسطية ٢٠ نسمة في الكيلو متر المربع الواحد •

كيف يرتبط نمو السكان بتطور الانتاج ، وماهو دور نمو السكان في تطور المجتمع ؟ ان هذا السؤال يتعلق بكيفية توضيح عملية التأثير المتبادل بين العامل المادي وتطور الانتاج وكذلك بوجود نظريات تعطي لنمو السكان الدور الحاسم في تطور المجتمع •

ان المادية التاريخية تدحض النظريات القائلة بأن نمو السكان هو القوة المحددة في تطور المجتمع • وان المعدل الوسطي لكثافة السكان في القرنين التاسع عشر والعشرين تضاعف بالنسبة للأزمان السالفة ، لكنه في تلك الأزمان ذاتها وفي زمننا الحاضر لم يتحدد النظام الاجتماعي بكثافة السكان مطلقاً • ان نمو السكان وتغير كثافتهم لايمكن أن يبين أسباب الانتقال من نظام الى آخر ـ من الاقطاعية الى الرأسمالية ، ومن الرأسمالية الى الاشتراكية مثلا •

ويمكن أن نفهم هذا فقط من تحليل أسلوب الانتاج ومن معرفة قوانينه•

ان بعض النظريين ، كعالم الاجتماع الروسي البورجوازي كافاليفسكي مثلا ، كانوا يعتبرون أن نمو السكان يحدد العملية التاريخية ، ليس بشكل مباشر ، وانما من خلال الانتاج ذاته ، لأن نمو السكان يعطي دفعة معينة لتطور قوى الانتاج • لكن طرح السؤال على هذا المنوال ليس صحيحاً ، أولا ، لأنهم يعتبرون أن القوانين البيولوجية للتكاثر هي مصدر التطور الاجتماعي ، وثانياً ، لأن نمو السكان لايرافقه دائماً تطور في القوى المنتجة • ففي الصين ، مثلا ، حيث العدد الهائل للسكان والكثافة العالية ، نجد أن تطور القوى المنتجة ، قبل الثورة الشعبية ، كان يسير وئيداً نتيجة لسيطرة الاقطاعية زمناً طويلا وللتأثير السلبي للامبريالية الاجنبية التي عرقلت تطور الاقتصاد الوطني خلال القرن الأخير • وفي الصين الشعبية تتحقق الوتيرات السريعة لتطور الانتاج الصناعي والزراعي • وقد كان لعدد السكان بعض الدور فيه • وعن هذا ينتج أن نمو وكثافة السكان يخلقان امكانيات معينة من أجل تطوير الانتاج ، ويتعلق استغلال هذه الامكانيات بالمجتمع ذاته وبنظامه الاجتماعي • ان نمو السكان يدفع عجلة تطور الانتاج فقط عندما يتلاءم هـذا التطور مـع متطلبات الانتاج المنبثقة عن قوانينه وعن خصائص التطور •

علم السكان

ان نمو السكان لايحدد تطور المجتمع وحسب ، وانما هو بدوره يتحدد بتطور الانتاج •

فبالرغم من أن الانسان هو عملية طبيعية فان نمو السكان يتعلق بالشروط الاجتماعية لحياة الناس • ولهذا ليس ثمة قانون للسكان مجرد ومستقل عن التاريـخ • لقد كتب لينين بهذا الصدد : « ان شروط تكاثر الانســان ترتبط مباشرة ببنيان الاجهزة الاجتماعية المختلفة ، ولهذا يجب دراسة قانون السكان لكل جهاز منها على حدة ، وليس « بشكل مجرد » ، ودون اللجوء الى ربطه بأشكال البناء الاجتماعي المختلفة »[1] • ولذا ينبغي ألا ننظر الى نمو السكان

(١) ف • ا • لينين • المؤلفات • الجزء ١ ص ٤٣٣ •

كعملية مستقلة تماماً عن الشروط الاجتماعية. ان وتيرات نمو السكان وكثافتهم هي أكبر الدلائل لعمل قانون السكان .

ففي النظام البدائي الأول كان نمو السكان بطيئاً نتيجة للمستوى المتدني لتطور قوى الانتاج ولمصاعب العيش . ومع ظهور تربية الماشية وفلاحة الأرض في البقاع الملائمة لحياة الانسان صار نمو السكان واضحاً وملحوظاً . ويمكننا أن نحصر عدد السكان بالنسبة للعصور القديمة ، عندما لم يكن ثمة علم لاحصاء السكان ، بصورة تقريبية ومشروطة . لكنه ثمة بعض المعطيات لدينا . ففي أوروبا في عصر الاقطاعية (بين عامي ١٠٠٠ ـ ١٥٠٠) كان المعدل السنوي لنمو السكان يعادل ٠٫٠٩٪ تقريباً ؛ ولقد زاد في الفترة الأولى من بدء تراكم رأس المال ومع النمو السريع لقوى الانتاج فبلغ في الفترة الواقعة بين عامي ١٥٠٠ ـ ١٨٠٠ حوالي ٠٫٢٢٪ . وفي فترة الرأسمالية الصناعية تضاعفت وتيرة نمو السكان الى ثلاثة أضعاف فبلغت في القرن التاسع عشر ٠٫٦٩٪ ، وفي النصف الأول من القرن العشرين تدنى معدل الزيادة نسبياً في البلدان الامبريالية الى ٠٫٦٤٪[1] . وهذا يدلنا على أن ازدياد السكان ليس عملية ثابتة . ان معدل زيادة السكان هو نتيجة لفعل عوامل كثيرة أهمها الشروط الاقتصادية لحياة الناس . وبالاضافة الى ذلك فان نمو السكان هو شرط ضروري لتطور الانتاج الاجتماعي ، لأن الانسان هو أهم قوة منتجة في المجتمع . ومن أجل تقسيم العمل في المجتمع واستخدام الموارد الطبيعية وغيرها لابد من حد أدنى لعدد السكان ومن كثافة معينة له . ان الانتاج المتطور يستدعي نمواً معيناً للسكان ، وان هذا النمو بدوره يؤثر على تطور الانتاج . لكن العلاقات المتبادلة بين الانتاج المتطور وبين نمو السكان جد معقدة ، وهي تتعلق أيضاً بأسلوب الانتاج .

وفي ظروف الرأسمالية ، حيث تطور الانتاج خاضع لمصالح الحصول على الربح ، فان البورجوازية تسعى الى تقليص الانتاج على حساب القوى العاملة. لقد برهن كارل ماركس على أنه مع تطور الرأسمالية تنمو البنية العضوية

---

(١) ب . أورلاينس . نمو السكان في أوروبا عام ١٩٤١ ص ٣٨٨ .

لرأس المال ويقل نسبياً الجزء المتداول منه ، أي ان طلب العمل لاينمو مع نمو رأس المال • وبتعبير آخر ، فان اخضاع العمل لقوانين العقل ومكننة وأتمتة الانتاج التي تضاعف من انتاجية العمل وتبعد كثيراً من العمال عن عملية الانتاج في الوقت ذاته ، كل هذا مما يؤدي الى خلق البطالة • ان الرأسمالية تخلق فيضاً نسبياً من القوى العاملة المحرومة من وسائل المعيشة بصورة دائمة • ان هذا هو قانون نمو السكان الخاص بالرأسمالية •

ان تطور الرأسمالية ، الى جانب عدم المساواة الاجتماعية ضمن البلدان الرأسمالية ذاتها ، أدى الى تناقض صارخ بين الدول الرأسمالية الكبرى ذات التطور الاقتصادي العالمي وبين شعوب ما تسمى بالبلدان المتخلفة التي خضعت لاضطهادها أمداً طويلا ، وقام الرأسماليون بامتصاص ثرواتها جميعاً • فحسب تقديرات هيئة الأمم المتحدة لعام ١٩٥٢ هناك ٧٠٪ من الدخل العالمي تتمتع به ١٩ فقط من البلدان الغنية التي يسكنها ١٦٪ من مجموع سكان الكرة الأرضية • وان ١٥ بلداً آخر من البلدان الفقيرة يسكنها ٥٠٪ من مجموع سكان الكرة الأرضية يحصلون على ١٠٪ من الدخل العالمي • ان هذه التركة الثقيلة للرأسمالية أدت الى جعل القسم الأعظم من سكان الكرة يعيشون في ظروف الفقر المدقع والجوع • ان متوسط الأعمار في تلك البلدان لايتعدى الثلاثين عاماً ، وان نسبة وفيات الأطفال بين الفقراء تزيد ٧ أضعافها عن النسبة بين الطبقات الغنية من السكان • كل هذا يبين كيف أن الرأسمالية تبدد القوة المنتجة القيّمة للمجتمع ـ قوة الانسان العاملة •

ان قوانين أخرى مغايرة تماماً تفعل في ظروف الاشتراكية حيث التطور خاضع لمصالح الانسان ولسد متطلباته ، حيث شروط الحياة المادية للجماهير تتحسن بصورة دائمة ، وحيث تنفق الوسائل الضخمة على حفظ صحة الناس• وهذا مايبدو جلياً في الاتحاد السوفييتي • ان في الاتحاد السوفييتي نسبة عالية للولادات ـ ٢٥ مولوداً لكل ألف من السكان ، وأخفض نسبة في العالم للوفيات ـ ٧ر١ لكل ألف من السكان ، مما يعطي لدى عملية الاحصاء العام الجارية في ١ كانون الأول عام ١٩٦١ (٢ر٢١٦ مليون) نسمة زيادة طبيعية

قدرها ٣٫٥ مليون نسمة • ان الشعب السوفييتي مهتم بنمو السكان نمواً سريعاً • وان الدولة السوفييتية تولي اهتمامها البالغ لحفظ الأمومة والطفولة ، وتقدم المساعدة المادية للأمهات الوحيدات وللاتي أنجبن كثيراً من الأولاد وتعتني بتقوية الأسرة • لقد فتحت أمام الشبيبة طريقاً لا حباً في الحياة وقدمت كل الامكانيات من أجل تشغيل كل الطاقات والمواهب • ان نمو السكان عندنا ذو تأثير حسن على تطور الانتاج • وان مكننة وأتمتة الانتاج لاتؤدي الى عواقب اجتماعية وخيمة كما هو الأمر بالنسبة للرأسمالية • ان رفع مستوى التزويد التكنيكي للانتاج الاشتراكي ، لا يولد زيادةفائضة في اليد العاملة • انالانتاج المتطور يمتص زيادة السكان ، وتنعدم البطالة والأزمات • ومن هذه المقابلة بين الرأسمالية والاشتراكية يتضح أيضاً أن طابع تأثير نمو السكان على تطور الانتاج وعلى التطور الاجتماعي متعلق بأسلوب الانتاج •

نقد النظريات البورجوازية حول علم السكان

ان النظريات التي كانت تؤكد أن نمو السكان هو القوة الرئيسية في تطور المجتمع ، كانت تستغل في التاريخ لأهداف شتى • هكذا فان مؤسس الاقتصاد السياسي البورجوازي الانكليزي ويليم بيتي كان يقول ان العمل هو أساس كل الثروات ،وان نمو السكان العاملين ـ الشرطالمنتج ـ هو الشرط الحاسم للتقدم • وكلما كان عدد أفراد الأمة كبيراً كلما كانت هذه الأمة أكثر غنى • لقد استغلت البورجوازية هذه الأفكار في نضالها ضد الاقطاعية • لقد كانت البورجوازية تتهم الطبقة المسيطرة آنذاك بافقار الفئات الشعبية ، وكانت هذه نظرات تقدمية في حينها •

وفي نهاية القرن الثامن عشر جاء مالتوس بنظريته الرجعية حول علم السكان التي انتشرت إنتشاراً واسعاً وتمتعت بنفوذ كبير حتى وقتنا هذا • ففي كتابه « التجربة حول قانون علم السكان » (١٧٩٨) حاول مالتوس أن يبرهن على أن كل الكائنات الحية تمتاز بسعيها الى تكاثر أسرع مما تسمح به كمية الطعام التي هي في حوزتها • لقد أكد مالتوس أن نمو السكان في المجتمع

البشري يحدث وفقاً لخط بياني هندسي ، بينما تنمو وسائل المعيشة وفقاً لخط بياني حسابي • ونتيجة لهذا نرى أننا لو اعتبرنا عدد سكان الكرة الأرضية ١ لتضاعف هذا العدد خلال ٢٥ عاماً ، اذ لم يعرقل تكاثره شيء • وخلال قرنين من الزمن سوف يكون السكان مرتبطين بوسائل المعيشة كما ٢٥٦ : ٩ • لقد أكد مالتون أن هذا « القانون » يعمل « في كل مكان وفي كل الظروف الممكنة التي عاش أو يعيش فيها الانسان »[١] • لقد أرجع مالتوس النمو البطيء لوسائل المعيشة الى قانون خصب التربة بشكل خاص •

ومن هنا حصل على النتيجة القائلة بأن « السبب الرئيسي للفقر الدائم لايتعلق بطريقة الحكم أو بسوء توزيع الممتلكات ؛ فليس في وسع الأغنياء تأمين العمل والغذاء للفقراء ؛ ولهذا فليس للفقراء الحق في مطالبتهم بالعمل والغذاء[٢] • ان الانسان الذي ولد في أسرة فقيرة هو انسان زائد • « وليس له مكان حول مأدبة الحياة العظمى • ان الطبيعة تأمره بالابتعاد ثم لاتمهله في تنفيذ هذا الأمر »[٣] • ثم ان مالتوس يكتب بصراحة عن الأهداف الطبقية لنظريته • وان فهم « قانونه » ينبغي أن يؤدي ـ حسب قوله ـ الى أن الناس سوف يتحملون بجلد ظروفهم القاسية ، وأن الفقر لن يؤدي الى « الغضب والسخط على الحكومة والطبقات العليا »[٤] • وهذا هو جوهر هذه النظرية التي ينبغي عليها أن تخدم كعلاج ناجع ضد نقمة الشعب •

لقد تعرض كتاب مالتوس الى نقد ذريع من قبل ماركس وانجلس اللذين اعتبراه « أشد دعوات البورجوازية صراحة للحرب ضد البروليتاريا »[٥] • لقد كتب ماركس في غضب واشمئزاز عن هذا الكتاب : « ان مايتميز به مالتوس هو انحطاط الفكرة ، هذا الانحطاط الذي لايمكن أن يسمح لنفسه بمثله غير القس الذي يرى في فقر الانسان عقاباً على سقوطه في الخطيئة ••• »[٦] •

---

(١) مالتوس « التجربة حول قانون السكان » ١٨٦٨ الجزء ١ ص ٤٧٢ •
(٢) مالتوس « التجربة حول قانون السكان » ١٨٦٨ الجزء ٢ ص ٣٤١ •
(٣) مالتوس « التجربة حول قانون السكان » ١٨٦٨ الجزء ١ ص ١٢ •
(٤) مالتوس « التجربة حول قانون السكان » ١٨٦٨ الجزء ٢ ص ٣٤١ •
(٥) كار ماركس • نظريات القيمة الزائدة • الجزء ٢ ص ٢٩٠ •
(٦) كارل ماركس • نظريات القيمة الزائدة • الجزء ٢ ص ٢٠٩ •

وعلى العكس من مالتوس برهن ماركس على أن فقر الجماهير وما يسمى بالسكان الزائدين ليس من نتاج القوانين الخالدة للطبيعة ، بل عن العلاقات الرأسمالية العارضة • ان العاملين في الأرض ،في الواقع ، لايعتبرون أنفسهم هم الزائدون ، بل أولئك الأغنياء الطفيليين العاطلين • وكلما أسرعت الانسانية العاملة في التخلص منهم كلما أسرعت مسألة « الهجرة » وجوع وفقر الجماهير في طريق الزوال •

ان « قانون » مالتوس هو في الواقع محض تلفيق ، لأن وسائل المعيشة تنمو بصورة أسرع من زيادة السكان • ان مساحة الأراضي المستصلحة في الوقت الحاضر تعدل ٩٪ من اليابسة ، بينما يمكن اصلاح ٤٠٪ منها • وهذا يعني أن قسماً كبيراً من الامكانيات لم يستغل • وبين عامي **١٨٠٤ – ١٩١٤** وعلى المعدل الوسطي لزيادة السكان **٨٦٤ر٠**٪ كان متوسط النسبة سنوياً لزيادة انتاج القمح يؤلف **٢ر١**٪ • وان البلدان الاشتراكية تحقق نسبة أعلى لزيادة المنتوجات الزراعية • وفي الاتحاد السوفييتي خلال خمس سنوات (**١٩٥٣ – ١٩٥٨**) زاد المعدل الوسطي لانتاج الحبوب بنسبة **٣٩**٪ عنه في السنوات الخمس السابقة • وبهذا فان أفكار مالتوس لاتقوم على أساس واقعي لكن المالتوسية لاتزال قائمة ولها أنصارها الكثيرون لأن هذا ماينسجم ومصالح الطبقات المستغلة • ان المالتوسيين المعاصرين يبرهنون على أن الأرض ، اذ تفيض بالسكان ، سوف يهدد تزايد السكان هذا الانسانية بكارثة ، وأن سبب الأزمات والثورات والهزات الاجتماعية هو فيض السكان • ان المالتوسية تستخدم بشكل واسع كسلاح ايديولوجي في يد الامبريالية •

ان الحل الصحيح للقضاء على بؤس الشعوب وعلى الجوع والفقر والاستغلال هو في القضاء على الرأسمالية • وهذه هي احدى حجج الماركسية التي لاتدحض ، والتي تنسجم ومصالح الشعوب وترسم أمامها الدرب الى المستقبل الزاهر • ولقد انخرط مئات الملايين من الناس من بلدان المعسكر الاشتراكي في بناء الحياة الجديدة • لكن الشيوعية ، بالنسبة للرأسماليين ، تمثل تهديداً خطراً لأنها تعني القضاء على سلطتهم وملكيتهم وحياتهم الرافهة•

ان أرباب العالم الرأسمالي يطالبون ايديولوجييهم بتبرير الرأسمالية وتدعيم سياسة النهب الامبريالي بالنظريات • وها هي ذي تجري على المسرح الآن الايديولوجيا المالتوسية السوداء ، المفعمة بالكره للناس ، الوقحة المتقيحة التي تحاول جهدها أن تلقي بمثالب الرأسمالية على فيض السكان • فالناس يعانون الجوع لأنهم كثيرون • وان الفطيرة لاتسد رمق الأسرة • والشر كل الشر في تكاثر الناس المتجاوز لكل حد ••• الخ •

ان مؤلفات المالتوسيين الجدد مزركشة بمثل هذه التصريحات • وفي الطرف المقابل من الأفق الزاهر للشيوعية وعدالة التوزيع فيها حسب الحاجة ، فان المالتوسيين يرسمون أفقاً مظلماً لمستقبل الانسانية مزحوماً بأنواع الرعب الناتج عن فيض السكان • ان المالتوسية على درجة كبيرة من الرجعية بحيث يتصدى لنقدها أعداء الماركسية ذاتهم اذ يثبتون العكس وأن ليس ثمة فيض للسكان مطلق على الأرض •

والوقائع ، في الواقع ، تثبت أنه حتى في المستوى الراهن لتطور قوى الانتاج يمكن اطعام أضعاف السكان الحاليين على الأرض ، وليس ٣ مليارادات فقط وانما ٨ ـ ١٠ مليارد انسان • لكن امكانيات الانتاج سوف تنمو كثيراً حتى ذلك الحين ، وبالتالي لن تواجه الانسانية خطر فيض السكان وعدم كفاية الطعام •

وعلى العكس من ذلك ، فان تجربة الاتحاد السوفييتي وبلدان المعسكر الاشتراكي الأخرى تثبت أن تطور الانتاج يسبق زيادة السكان ويخدم في تحسين أوضاع الشغيلة بصورة دائمة • ان العلم المعاصر والتطبيق الاشتراكي يشهدان على صحة قول ك • تيمر يازيف بأن الأرض يمكن أن تطعم سكانها جميعاً حتى ولو زاد عددهم الى الحد الذي يجعلها تكتظ بهم • وبعد اليوم التاريخي ١٢ نيسان ١٩٦١ ، بعد المأثرة الجبارة التي حققها يوري غاغارين ، صار من الواضح تماماً أنه ، اذا مابرزت أمام الانسانية مسألة المكان ـ اذا لم تكن مسألة الطعام ـ سيتمكن الناس من حلها باعتمادهم على الفجر الزاخر بالعلم والتكنيك للمجتمع الشيوعي •

ان طيران يوري غاغارين أعطى أهمية خاصة لكلمات ك • تسيولكوفسكي: « ان الانسانية لن تبقى على الأرض الى الأبد ، لكنها في عدوها وراء العالم والمكان الجديدين سوف تخرج من نطاق الأرض متورعة في البداية ، ثم لن تلبث أن تسيطر على المجال الشمسي كله » •

قانون ملاءمة علاقات الانتاج لطابع ومستوى تطور قوى الانتاج

عندما درسنا بنية التشكيلة أوضحنا أن الانتاج يشغل المكان المحدد في نظام العلاقات الاجتماعية ، وقمنا بتحليل العلاقات المتبادلة بين جوانبه المختلفة• ولابأس من العودة الى النتائج الأساسية التي توصلنا اليهـــا من خلال ذلك التحليل ، والتي تكون نقطة انطلاق في بحوثنا التالية :

١ ـ لابد للانتاج من أن يتضمن نوعين من العلاقات ـ علاقات الناس بالطبيعة ، والعلاقات القائمة فيما بينهم • ان وحدة قوى الانتاج مع علاقات الانتاج هي قانون ملازم لأي أسلوب انتاج •

٢ ـ ان الدور المحدد في كل أسلوب انتاج يعود للقوى المنتجة ، ويعود في هذه الأخيرة الى أدوات العمل •

٣ ـ ان القــوى المنتجة تكتسب صفة اجتماعيــة معينة بفضل علاقــات الانتاج فقط •

وبما أن الانتاج يقبع في أساس حياة وتطور المجتمع ، فان المهمة الرئيسية للعلم الاجتماعي تنحصر في الكشف عن قوانين تطور الانتاج وتأثيرها في تاريخ المجتمع • ان معرفة قوانين تطور الانتاج وتحديد ارتباط تغير كل الجوانب الأخرى من الحياة الاجتماعية بتطور الانتاج يتيح لنا فهم تاريخ الانسانية من وجهــة النظر التاريخية الطبيعية ، أي كعمليــة مقوننة ومستقلة عــن رغبــة وارادة الناس •

واننا اذ ندرس الآن ديالكتيك تطور الانتاج ، أي الانتاج في حركته الذاتية ، فاننا نواجه كثيراً من الأسئلة الجديدة •

أولا ، بما أن الانتاج يتضمن في داخله جانبين اثنين ، فلابد من السؤال عن العلاقة المتبادلة بين هذين الجانبين في سير تطور الانتاج •

وثانياً ، لابد من السؤال عن مصادر وأسباب حركة أسلوب الانتاج •

وثالثاً ، بما أن حركة الانتاج لا تشمل تطور أسلوب الانتاج وحسب ، وانما استبدال هذا الأسلوب بغيره كذلك ، فان أسئلة جديدة تبرز : عن أسباب الانتقال من أسلوب انتاج الى آخر ، عن أشكال هذا الانتقال ، وأخيراً ، عن أسباب استبدال أسلوب انتاج أكثر تطوراً بآخر أقل تطوراً ، أي عن الأسباب التي تحدد التقدم في تطور أساليب الانتاج • وللاجابة عن هذه الأسئلة لابد من دراسة قانون ملاءمة علاقات الانتاج لطابع ومستوى تطور القوى المنتجة في معناه الاجتماعي العام •

وهذا مما يتيح لنا معرفة عمل القانون المنظم لدور الانتاج ، والمحدد في حياة وتطور المجتمع كله ، وفهم ماهية العملية التاريخية •

دراسة عامة للقانون

ان قانون الملاءمة يعبر عن العلاقة المتبادلة بين القوى المنتجة وعلاقات الانتاج في عملية تطور كل التشكيلات الاجتماعية • وهو ، من جهة ، يبين ارتباط علاقات الانتاج بتطور القوى المنتجة • ان القوى المنتجة اذ تتطور لابد ، ان عاجلا أو آجلا ، من أن تستدعي تغيراً ملائماً في علاقات الانتاج •

ومن جهة أخرى ، فان هذا القانون يبين ارتباط القوى المنتجة بتغير علاقات الانتاج • ان علاقات الانتاج المعينة ، اذ ظهرت على أساس من القوى المنتجة ، تؤثر بدورها على تطور تلك القوى • ان علاقات الانتاج فعالة ، فاذا هي ما تلاءمت مع القوى المنتجة فانها تتخذ شكل تطورها ؛ واذا ما تعارضت معها فانها تتحول الى قيود تعرقل تطور قوى الانتاج فيما بعد •

وبالرغم من أن علاقات الانتاج ترتبط بقوى الانتاج وقوى الانتاج في

تطورها ترتبط بعلاقات الانتاج ، فان دور كل منهما يختلف عن الآخر في هذا التأثير المتبادل بينهما • ان قوى الانتاج هي الجانب المحدد للتأثير المتبادل بينهما •

وعن هذا ينتج أن قانون الملاءمة يعبر عن التأثير المتبادل بين قوى الانتاج وعلاقات الانتاج الذي يقوم على أساس تطور قوى الانتاج • ان قانون الملاءمة هو اظهار مشخَّص لديالكتيك الشكل والمحتوى حيث تمثل علاقات الانتاج الشكل ، بينما تمثل قوى الانتاج المحتوى •

ارتباط علاقات الانتاج بالقوى المنتجة

ان العلاقات الانتاجية الاقتصادية تتعلق بطابع ووضع قوى الانتاج ، لا بارادة ووعي الناس • وفي هذا مفتاح الفهم العلمي لتاريخ المجتمع • ان التاريخ كله هو عملية استبدال علاقات انتاجية بأخرى التي لاتتم بارادةالناس أو نتيجة لأسباب عارضة ، وانما نتيجة للتلاؤم مع الضرورة الموضوعية حسب قانون ملاءمة علاقات الانتاج لطابع القوى المنتجة •

بم تنحصر هذه الملاءمة ؟ انها تنحصر في طابع أدوات العمل ، بكيفية تأثير الانسان على الطبيعة ، وبضرورة قيام علاقات معينة بين الناس في عملية العمل • فالمحتوى هنا يحدد الشكل ، وان تغير المحتوى يستدعي تغيراً مناسباً في الشكل • وهذا يعني بالنسبة لتطور الانتاج أن التغيرات في القوى المنتجة ، وبالدرجة الأولى ، في وسائل العمل تستدعي تغيرات مقابلة في علاقات الانتاج•

وبما أن سد حاجات الناس يتم بمساعدة انتاج الوسائل الضرورية للمعيشة ، فان الانتاج لايمكن الا أن يتجدد ويستمر • وهو لايمكن أن يوجد الا كعملية مستمرة متجددة على الدوام • لكن استمرار الانتاج لايعني تطوره، فمن الممكن أن نتصور عملية مستمرة للانتاج وتبقى محافظة على أبعادها في كل مرة ؟ ويمكن كذلك أن يتسع حجم الانتاج دون أن يتطور الانتاج نفسه•

فمع نمو السكان ، مثلا ، تزيد رقعة الأرض الزراعية ، لكننا في هذه الحالة نحصل على زيادة كمية بسيطة في الانتاج • ان تطور الانتاج يعني خلق انتاج جديد أكثر اتساعاً ، أي زيادة حجم الانتاج وأدوات ووسائل العمل الأخرى، وتحسين تكنولوجيا الانتـاج ، وتحسين الخبرة والمعلومات المتعلقة بالعمل ، وزيادة انتاجية العمل الاجتماعي ، وتغيير علاقات الانتاج •

ان الناس يكدحون من أجل انتاج كل ماهو ضروري للحياة • لكن العمل غير ممكن بدون أدوات • ان عمليةالانتاج الاجتماعي تتطلب ، باديءذي بدء ، تحضير وسائل العمل ثم استخدامها من أجل انتاج مواد الاستهلاك • ولهذا فان الانتاج الاجتماعي يقسم دائماً الى فرعين كبيرين : انتاج وسـائل الانتاج (فئة A) ، وانتاج مواد الاستهلاك (فئة B) • وفي المراحل المختلفة للتطور الاجتماعي نجد ، بالطبع ، أن الاختلاف بين هذين النوعين للانتاج يمكن أن يكون كبيراً أو صغيراً • وحسب الزمن الذي ينفقه الناس في عملية العمل ، وحسب الشكل الطبيعي للمنتوجات ، وحسب الدور الذي يلعبه كل من هذين النوعين يمكن أن يكونا منعزلين أحدهما عن الآخر في الانتاج الاجتماعي • ان لهذا التقسيم أهمية مبدئية من أجل فهم تطور الانتاج الاجتماعي • وبما أن زيادة انتاج مواد الاستهلاك ممكنة فقط عـلى أساس تحسين تكنيك وتكنولوجيا الانتاج ،فان أساس تقدم الانتاج الاجتماعي هو في تطوير الفرع الأول منه (فئة A) • ومن أجل ضمان استمرار الانتـاج وتوسيعه في فئة A ينبغي دائماً تجديد انتاج وسائل العمل التي تستخدم من أجل انتاج مواد الاستهلاك ، ووسائل العمل التي تستخدم من أجل انتاج وسائل الانتاج ، وينبغي أيضاً خلق زيادة اضافية في وسـائل العمل التي من شأنها أن تستخدم في توسيع الانتاج الاجمالي • ولهذا فان قانون كل انتاج كبير هو في تطوير انتاج وسائل الانتاج (فئة A) بالمقارنة مع انتاج مواد الاستهلاك • لكن التوسع في الانتاج لايعني الزيادة البسيطة في كمية وسائل العمل الاجتماعية ، وانما انتاج أدوات ووسائل عمل أفضـل ، ويقصد بهذا احراز تقدم تكنيكي • ان خلق الأدوات الانتاجية الكثيرة والآلات ووسائل

العمل الأخرى ، واستخدامها في كل فروع الاقتصاد الشعبي هو الذي يحدث التطور في الانتاج الاجتماعي •

وهكذا ، فعند تحليل الانتـــاج الاجتماعي التقينا بالحقيقة القائلة بأن الأهمية ، هنا ، ليست في حماية الانتاج أو في انتاج منتوجات اجتماعية في هذا الحجم أو ذاك ، وانما هي في حركة وتطوير الانتاج الاجتماعي • وان هذا التطوير هنا ـ كما هو الأمر في مكان آخر ـ يضم عنصرين : التواصل وظهور الجديد • ان التواصل في القوى المنتجة هـــو أساس تواصل العملية التاريخية كلهـا • ويمكن أن توجد أدوات الانتاج الجديدة فقط بمســاعدة الادوات الراهنة وعلى أساس استخدام تلك الامكانيات التي أوجدها المستوى المعين لتطور الانتاج • ولهذا فان نجاح نتائج التطور السابق والمحافظة عليها هـو عنصر ضروري ، وشرط مهم لتطوير قوى الانتاج ، وهو يحوي في داخله التقدم التكنيكي ، أي تحسين أدوات ووسائل العمل الراهنة ، وخلق وسائل وأدوات جديدة أخرى للعمـــل ، وتكنولوجيـا جديدة ، وتنظيم تكنيكي أفضـــل للانتاج ••• الخ • ان تقدم القوى المنتجة هو في نهاية المطاف أساس التقدم التاريخي بكليته •

لكنه ينبغي ألا نفهم العملية التاريخية كخط تطوري صاعد دائماً ، فهي ذات طابع أكثر تعقيداً مما نظن • اننا نلاحظ ، قبل كـل شيء ، أن تطور التكنيك يتم بأشكال مختلفة على قاعدة من الأدوات المختلفة من حيث طابعها • فتطور التكنيك على أساس الأدوات الحرفية يختلف بنوعيته عن تطور الانتاج الآلي • ولقد أشـار ماركس الى أن القاعدة التكنيكية لكل أساليب الانتـاج السابقة للرأسمالية كانت محافظة بجوهرها ، بينما كانت القاعدة التكنيكية للانتاج الرأسمالي ثورية[1] فما سبب ذلك ؟ ان الأداة البسيطة تختلف عن الآلة ، بكون الأداة لاتعمل لوحدها دون الانســان ، بينما نرى أن الأداة في الآلــة انتقلت من الانسان الى الميكانيك ، وان تلك العمليات التي كان يقوم بها العامل سابقاً بواسطة الأداة صارت الآلة ذاتها تقوم بها بأدواتها الخاصة • وعند وجود

---

(١) ماركس وانجلس • المؤلفات • الجزء ٢٣ ، ص ٤٩٧ ـ ٤٩٨ •

أداة جد ملائمة لعمل ما ، فانها تكتسب طابع الجمود في يوم ما • ان الفأس والمطرقة والمحراث وغيرها أدوات لاتزال تستخدم منذ آلاف السنين دون أن تخضع لتطور يذكر • ولهذا فان التقدم التكنيكي على أساس هذه الأدوات يكون جد بطيء ، ويكتسب طابع الجمود ، وان تحسين انتاجية العمل في هذه الحال يكون بالمهارة الفنية للصانع ، أو بالتوزيع الجزئي للعمل عند تحضير السلع •

ويختلف الأمر مع القاعدة التكنيكية للصناعة الضخمة • فليس من المعقول أن يقوم انتاج آلي دون تقسيم اجمالي واسع للعمل واقامة روابط عضوية بين شتى فروع الانتاج • وتدلنا التجربة على أن الآلة التي تظهر في أحد فروع الانتاج تشمل بتأثيرها كل الانتاج الزراعي والصناعي ووسائل المواصلات وغيرها • ان كل تحسين كبير في أحد فروع الانتاج يستدعي ضرورة تحسين مماثل في فروع الانتاج الأخرى المرتبطة به حتى لاينعدم الانسجام بينها وتتكون « نقاط الضعف » فيها • ان صنع المحركات النفاثة ، مثلا ، خلق متطلبات جديدة أمام الصناعة المعدنية والكيميائية وفروع الصناعة الأخرى التي تقدم المواد الضرورية لانتاجها • وعلينا هنا أن نأخذ بعين الاعتبار أن الانتاج الآلي يتمتع بخاصية النمو السريع العظيم والتوسع ، وهو ماتفتقر الحرفة اليه •

وأخيراً ، ان الانتقال الى الصناعة الضخمة مرتبط بالتطبيق التكنولوجي الواعي للعلوم الطبيعية مما يخلق امكانيات لا محدودة لاستخدام كل قوى الطبيعة الجديدة وكل الخصائص المكتشفة لمواد الطبيعة وقوانينها في عملية الانتاج ، وبالتالي ، تخلق امكانيات لا محدودة من أجل تطوير قوى الانتاج • ان الانتاج الآلي المعاصر يستمد من العلوم الطبيعية زخم تطوره المقبل • ان الفيزياء الذرية ، والفيزياء الكهربائية ، وكيمياء الاتحادات الجوهرية العليا وغيرها ، هيأت في الوقت الحاضر الظروف لثورة جديدة في تكنيك وتكنولوجيا الانتاج • وعن هذا ينتج أن القاعدة التكنيكية للانتاج الآلي المعاصر قابلة للتحول الثوري الظافر السريع • وبالطبع ، ان استخدام وتحقيق امكانيات التكنيك الحديث تتعلق بالظروف الاجتماعية وبالنظام الاقتصادي • ان العلاقات الرأسمالية بوجه عام تعرقل استخدام الامكانيات الضخمة للتقدم التكنيكي

والتي تكمن في قوى الانتاج المعاصرة ، وتعرقل تطور قوى الانتاج ذاتها ، بينما العلاقات الانتاجية الاشتراكية تفسح المجال واسعاً أمام استخدام تلك الامكانيات • وسوف نعالج هذا الأمر بالتفصيل فيما بعد •

وهكذا نري أنه لايحدث في المجتمع تجديد مستمر للقاعدة التكنيكية القائمة وحسب ، بل وتقدم تكنيكي كذلك ـ تطور أدوات العمل ، وتحسين تكنولوجيا الانتاج •• الخ • ان التقدم التكنيكي هو أساس تطور القوى المنتجة • لكن تطور القوى المنتجة لا يفضي الى التقدم التكنيكي ، فهو يشمل أيضاً تطور الانسان كقوة منتجة ، أي تحسين خبرته ومعلوماته بالنسبة للعمل ورفع مستواه الثقافي التكنيكي ، وما أشبه ذلك •

وسبق أن أوضحنا (انظر الفصل الثاني ، الفقرة الثانية) أن القوى المنتجة هي وحدة عضوية للعمل المتراكم وعمل الانسان ،وأنه فيوحدةالانسان المحقق لعملية العمل مع وسائلالعمل توجد وتتطور القوى الانتاجية للمجتمع • ومن خلال هذا فانخبرةومعارف الانسان كقوة منتجة تحددها أدوات ووسائل العمل • ان ارتباط خبرة ومعارف الناس بتكنيك الانتاج هو أحد تعابير الارتباط العام للذات بالموضوع ، العامل الشخصي للانتاج بالعامل الشيئي الموضوعي • وان ظهور تكنيك جديد يولد الحاجة الى أناس لهم المام تام به • فقد ظهرت مهنة الطيار ، مثلا ، بعد ظهور الطائرات • ان خلق تكنيك جديد وانتشاره يتطلب تغيير التجربة والعادة بالنسبة للعمل • ان من يقوم بحفر التراب ونقله لايستطيع هجر الرفش والانتقال الى الجرافة مباشرة ، بل ينبغي عليه الالمام بالتكنيك الجديد ، بالرغم من أن الجرافة تقوم بالعمل ذاته الذي كان يؤديه الانسان •

ان ارتباط تجربة وعادات الناس بتكنيك الانتاج يتجلى أيضاً في أن طابع الأولى يتعلق بطابع وسائل العمل • فعلى أساس الأدوات الحرفية تكون خبرة وعادات الناس متوارثة ، ولها طابع التقاليد المتوارثة جيلا بعد جيل • ولقد كان الحرفيون في القرون الوسطى يخفون منجزاتهم وخبراتهم ويبقونها سراً بعيداً عن العيون • وفي هذه الظروف نرى أن كل تغير في طريقة الانتاج التقليدي

لم يكن ليتسنى له أن يتسع وحسب وانما كان يحارب أيضاً مما أدى الى توطيد التقاليد وترسيخ جمود الانتاج •

ومع الانتقال الى الانتاج الآلي اتسع مفهوم الخبرة والعادات • وصارت العادات تشمل ليس العادات التقليدية ومجموعة من الطرق المعينة لاستخدام أدوات العمل وحسب ، وانما المعارف أيضاً والعلم والثقافة الضرورية للعمل الذي يتم بمساعدة الآلات • ولهذا فان نمو المستوى التكنيكي الثقافي للعمال مع ظهور الانتاج الآلي يصبح ضرورة موضوعية • لكن هــذا في ظروف الرأسمالية يصطدم بسعي الرأسمالي لتحويل العامل الى جزء من الآلة ، ولجعل عملـه محروماً من أي مضمون روحي • وان املاق الجماهير في ظروف الرأسـمالية تعرقل أيضـاً نمو مستواهم الثقافي • وبالرغم من أن العامل في مؤسسة رأسمالية ذو مستوى ثقافي أعلى من مستوى الفلاح في ظروف الاقطاع، فان الرأسمالية تعرقل تطور الجماهير الكادحة في شتى الوجـوه • ويمكن القضاء على هذه الظاهرة فقط في المجتمـع الاشتراكي الذي يخلق امكانيات واسعة من أجل النمو السريع لمستوى الكادحين الثقافي التكنيكي ، ومن أجل تطوير مواهبهم من شتى الجوانب •

ان خبرة وعادات الانسان ، اذ تتغير وفقاً لتطور التكنيك ، لهي في دورها عنصر فعال في قـوى الانتاج • فلا قيمة للتكنيك بدون الناس • ان درجة انتاجية التكنيك تتعلق بالناس وبخبرتهم الانتاجية وبمعارفهم • وأكثر من هذا ، فان تطوير وتحسـين تكنيك وتكنولوجيا الانتـاج واختراع الادوات الجديدة وعقلانية الانتاج كل هذا يقوم به الناس أنفسهم ويتعلق بهم • ولهذا ففي الظروف المتساوية الأخرى نجد أن تطور التكنيك واستخدام الامكانيات الكامنة فيه يتعلق بخبرة وعادات ومعارف وثقافة المنتجين •

وبهذا ، فان تطور قوى الانتاج عملية تاريخية معقدة تتبادل التأثير فيها العناصر المختلفة لقوى الانتاج ، ويحدد خيط التقدم فيهـا تطوير وتحسين أدوات العمل ، بالدرجة الأولى ، كعنصر محدد لقوى الانتاج •

ولكن هل يعني هذا أن التقدم التكنيكي المستمر وظهور أية أداة أو آلة جديدة ، وكذلك تحسين تكنولوجيا الانتاج وخبرة وعادات الناس تنعكس كلها في تغير علاقات الانتاج ؟ ان التاريخ يجيب بالنفي • ان تطور قوى الانتاج يحدث عموماً بشكل مستمر ، بينما يكون تغير علاقات الانتاج ذا طابع متقطع كما يحدث عادة عند الانتقال من أسلوب انتاج الى آخر • وفي حدود أسلوب الانتاج هذا تحدث تغيرات في علاقات الانتاج التي تعكس أخيراً تطور قوى الانتاج ، لكن هذه التغيرات لاتتناول التحديد النوعي لعلاقات الانتاج ولجوهرها •

كيف نفسر الفارق بين التغيرات في قوى الانتاج وبينها في علاقاتالانتاج؟

يفسر هذا ، أولا ، بأن كل أداة أو آلة جديدة ، وكل تحسين يطرأ عليها لايكفي لأجل اعطاء نتائج اجتماعية • فكما أن السنونو الأولى لاتصنع ربيعاً ، وانما تبشر بقدومه ، فان كل أداة أو آلة جديدة تنبىء بخطوة جديدة في طريق تقدم الانتاج الاجتماعي • ان مستوى الانتاج التكنيكي يعرف بوسائل العمل الموجودة التي تحضر بواسطتها الكمية الرئيسية من المنتوج الاجتماعي • ومن أجل تغيير المستوى التكنيكي للانتاج ينبغي استغلال الأداة أو الآلة الجديدة أو غيرهما ،ليس في مؤسسة واحدةدون سواها بصورة منعزلة فقط ، بل ينبغي أن تنتشر انتشاراً واسعاً وتصبح العامل المحدد لانتاجية العمل الوسطية في هذا المجتمع أو ذاك • وعلاوة على هذا كله لابد من اختصار الزمن لجعل الظروف الاجتماعية ملائمة لانتشار التكنيك الجديد •

ان أهم اتجاه لتقدم التكنيك في وقتنا الحاضر هو الاستخدام السلمي للطاقة النووية وخاصة في ميدان توليد الطاقة • لقد تحققت معادلة التفاعل في الولاياتالمتحدة قبلغيرها ،لكنها سرعان ما استخدمت هناك ، لا من أجلتحسين وتطوير الانتاج ، بل من أجل الأهداف العسكرية ـ صنع القنبلة الذرية • ان تاريخ الذرة السلمي لم تفتتحه الولايات المتحدة الرأسمالية ، وانما الاتحاد السوفييتي الاشتراكي الذي بنى لأول مرة في التاريخ محطة ذرية لتوليد الكهرباء ، وكذلك أول كاسحة جليد ذات محرك ذري في العالم • ان ماأنجزه

الاتحاد السوفييتي يدل ، أولا ، على المستوى الرفيع لتطور العلم والتكنيك فيه ، وثانياً ، على وضعه الحجر الأول في بناء الاستخدام الطاقي للذرة • وفي الاتحاد السوفييتي يجري العمل لانشاء محطات ذرية لتوليد الكهرباء من شتى النماذج وذلك حسب رخص انتاج الطاقة الذرية • ان الطاقة الذرية تنفذ تدريجياً الى الانتاج • لكنه حتى في بلدنا ذاته لابد من مضي زمن معين قبل أن تصبح الطاقة الذرية العامل الراجح في الميزان الطاقي للبلاد • وان المحطات الذرية لتوليد الكهرباء الآن تتمتع بأهمية تجريبية فائقة وتنتج قسماً لا بأس به من الطاقة الكهربائية • لكنها سوف تنتج ٤٠٪ من الطاقة الكهربائية حسب تقدير بعض العلماء • وهذا ما سيكون له نتائج اجتماعية وتكنيكية كبيرة • وسيكون ادخال الكهربة الذرية أكثر اتساعاً على أساس الطاقة الهيدروجينية ، وهذا ما يؤلف أعظم مهام العصر شأناً •

ثانياً ، ان التغيرات في القوى المنتجة لاتستدعي حالا تغيرات مناسبة في علاقات الانتاج بفعل طبيعة ووظيفة علاقات الانتاج ذاتها • ان علاقات الانتاج القائمة وفقاً لقوى انتاجية معينة ليست شكل عمل هذه القوى وحسب ، وانما شكل تطورها أيضاً • ولهذا فان تطور قوى الانتاج يحدث الى حين ما دون مساس لجوهر علاقات الانتاج • ان شكل علاقات الانتاج لا يتغير الى شكل جديد مادام يساعد على تطوير القوى المنتجة ، كما أن الطفل يبقي على ثيابه حتى يشب عليها وتصبح ضيقة عليه •

ثالثاً ، عندما ندرس مسألة التغيرات في علاقات الانتاج لابد لنا من أن نأخذ بعين الاعتبار أنه على أساسها يقوم البنيان الفوقي ، وأنها تؤيد وتحفظ من قبل التنظيم الاجتماعي السائد • ان البنيان الفوقي السائد في التشكيلات الطبقية المتناقضة ، اذ يعبر عن مصالح الطبقة المسيطرة ، يعرقل تغير علاقات الانتاج عندما تصبح غير ملائمة لقوى الانتاج • ولهذا فمن أجل تغيير علاقات الانتاج لايكفي هنا تطوير قوى انتاجية جديدة ، وانما لابد هنا من تشكيل قوى اجتماعية كفيلة بالقضاء على مقاومة الطبقات الرجعية •

ففي ظروف الاشتراكية حيث تنعدم الطبقات المتناقضة ، وحيث المجتمع

كله مهتم بالحيلولة دون تحول علاقات الانتاج الى قيود بالنسبة لقوى الانتاج ، نجد أن التغيرات تطرأ على علاقات الانتاج بقدر ذلك التناقض الذي يدركه المجتمع في أسلوب الانتاج • ان هـذا من شأنه أن يزيد في سرعة وتيرات التطور التاريخي زيادة هائلة في ظل الاشتراكية •

وبهذا ، فان ادراك التلاؤم بين قوى الانتاج وعلاقات الانتاج في كـل حادثة معينة هو عملية معقدة تحوي في داخلها كل التغيرات الاجتماعيةالمختلفة• ان قانون ملاءمـة علاقات الانتاج لطابع ومستوى تطور قوى الانتـاج يعمل كمنحى تاريخي ضروري •

ان ارتباط علاقات الانتـاج بتطور قـوى الانتـاج كان يتابع بدقـة في تاريخ الانسانية •

ان التقدم الهائل لوسائل العمل والفأس الحجري البسيط والعصا الحادة في فترة ظهور المجتمع حتى الآلات والأجهزة الميكانيكية الحديثة المعقدةوغيرها يمكن أن يقيم في منهج الفهم المادي للتاريخ من ناحيتين : كمية ، وكيفية • فعندما نقول ان القوى المنتجة ذات تطور مرتفع أو منخفض فاننا بهذا نعطي وصفاً كمياً لوضع قوى الانتاج ، ونقارن بين مستويات تطورها • وان الوصف الكيفي لقوى الانتاج يحدد باسلوب ادخال أدوات العمل وطريقة استخدامها• ويمكن لقوى الانتاج ، عندما ننظر اليها من الناحية الكيفية ، أن تكون ذات طابع مزدوج : عندما تدخل أدوات العمل في الحركة بواسطة العمل الفردي (الأدوات الحرفية ، مثلا) وتؤمن للفرد انتاج الخيرات الماديـة الضرورية للحياة ، فانها بذلك تحمل الطابع الخاص ؛ واذا ما كانت في حاجة الى عمل جماعي من أجل ادخالها في الحركة (نظام الآلات ، مثلا) ، فان قوى الانتاج آنئذ تحمل الطابع الاجتماعي •

وفي الطرف المقابل للطابعين ـ الخاص والاجتماعي ـ لقوى الانتاج ثمة شكلان مناسبان رئيسيان في التاريخ لعلاقات الانتاج ـ علاقات التعاونوالمساعدة المتبادلة بين الناس في عملية الانتاج القائمة عـلى الملكية الاجتماعية لوسائل

الانتاج ، وعلاقات السيد والمسود القائمة على الملكية الخاصة لوسائل الانتاج.

عندما خرجت الانسانية لأول مرة من طورها الحيواني كان الناس يستعملون الأدوات الحجرية والخشبية والعظمية . وبالرغم من أن هذه الأدوات كانت للاستخدام الفردي فليس من الممكن اعتبارها خاصة لأن الفرد المسلح بهذه الأدوات لم يكن في استطاعته لوحده أن ينتج الخيرات المادية الضرورية لحياته . لقد كانت تلك الأدوات تنفي امكانية الانتاج الفردي . وكان الناس مضطرين للعمل جماعات ويتبادلون العون لعجزهم عن مواجهة قوى الطبيعة . ولهذا فان قوة الجماعة كانت هي القوة الانتاجية الرئيسية آنذاك . وعلى هذا الأساس تكونت لديهم علاقات كتلية جماعية .

ومع تطور قوى الانتاج حدث انتقال من الأدوات الحجرية الى الأدوات البرونزية داخل المجموعة البدائية ، ثم الى الأدوات الحديدية . ولقد تمكنت هذه الأخيرة من رفع انتاجية العمل الى درجة جعلت من الممكن للفرد أن يقوم بنشاطه الانتاجي لوحده أو في حدود الأسرة ، وظهر المنتوج الفائض . وهذا يعني حدوث قفزة نوعية في قوى الانتاج التي صارت تحمل الطابع الخاص .

لقد كان لتغير طابع قوى الانتاج نتائج اجتماعية كبيرة . وان عمل قانون ملاءمة علاقات الانتاج لطابع ومستوى تطور القوى المنتجة أخذ يظهر فيما بعد في ضرورة نشوء علاقات انتاجية قائمة على الملكية الخاصة (عبودية واقطاعية ورأسمالية) تلائم الطابع الخاص لقوى الانتاج وتقوم على أساسها . ان كل نموذج رفيع من العلاقات القائمة على الملكية الخاصة يقوم على أساس من المستوى الرفيع لقوى الانتاج ذات الطابع الخاص . وان تطور وتحسين أدوات العمل ذات الاستعمال الخاص كان بمثابة تحضير نوعي لقفزة نوعية جديدة ـ للانتقال من الأدوات الحرفية الى الانتاج الآلي الذي أعطى طابعاً اجتماعياً لعملية العمل ذاتها . ولقد وجدت الآلات البسيطة ، بالطبع ، (طواحين الماء والهواء وغيرها) منذ أمد بعيد ـ فطواحين الماء منذ القدم بينما طواحين الهواء منذ القرن العاشر ، لكنها كانت تلعب دوراً ثانوياً في الانتاج . ان استعمالها لم يكن يحدد طابع الانتاج . وان الرأسمالية ، التي ظهرت لأول مرة على

أساس أدوات العمل ذات الطابع الخاص ، هي التي تعطي الطابع الاجتماعي تدريجياً لعملية الانتاج ذاتها • وبهذا أيضاً نرى أن الرأسمالية ، ومعها كل ملكية خاصة أخرى ، تنحر نفسها لأن الطابع الاجتماعي لعملية الانتاج تلائمه ملكية اجتماعية لوسائل الانتاج • ان الرأسمالية ، اذ تطور الصناعة الضخمة ، تخلق منطلقات مادية تكنيكية لظهور الملكية الاشتراكية الاجتماعية لوسائل الانتاج •

وبهذا ، فان السبب الأول والأخير ، وان أساس انتقال المجتمع من العلاقات القائمة على الملكية الخاصة الى الملكية الاجتماعية لوسائل الانتاج هو في التغير النوعي لطابع قوى الانتاج المرتبط بالانتقال من الأداة البسيطة الى الآلة •

واننا نشهد في وقتنا هذا قفزة نوعية جديدة في تطور أدوات الانتاج • وان هذه القفزة سوف تضع بين الانسان والطبيعة لا الآلة وحسب ، وانما عملية انتاجية قائمة بذاتها ناظمة لنفسها وعاملة لوحدها أوتوماتيكياً • وسيكون نصيب الانسان في هذه العملية ادارتها وضبطها ، ومراقبتها فقط • ان تحقيق هذه القفزة التي سوف تدعم الطابع الاجتماعي لعملية الانتاج مرتبط بخلق القاعدة المادية التكنيكية للشيوعية •

علاقة القوى المنتجة بتغير وتطور علاقات الانتاج

ان ديالكتيك القوى المنتجة وعلاقات الانتاج لاينفصم بارتباط الأخيرة بالأولى • والسبب هو في أن قوى الانتاج ترتبط بدورها بعلاقات الانتاج • وينبغي ألا ننظر الى علاقات الانتاج كنتيجة سلبية لقوى الانتاج ، فهي فعالة كذلك لأنها تعجل في تطور قوى الانتاج أو تعرقله • ان علاقات الانتاج الجديدة هي تلك القوة التي تحدد تطور قوى الانتاج • وفي سير التطور المقبل تهرم علاقات الانتاج الجديدة تدريجياً وتتناقض مع قوى الانتاج المتطورة ، وتفقد دور المحرك لقوى الانتاج وتنقلب الى عائق بالنسبة لها • عندئذ تظهر في

مكانها علاقات انتاجية جديدة ينحصر دورها في الخدمة كشكل لتطور قوى الانتاج •

وهنا يصبح من السهل الاجابة على السؤال الذي يبرز غالباً : ماهو سبب تطور الانتاج : التناقض بين قوى الانتاج وعلاقات الانتاج ، أم الانسجام بينهما ؟

ان أسلوب الانتاج يتطور بفعل ملاءمة علاقات الانتاج لقوى الانتاج نتيجة للتأثير الفعال المقابل للعلاقات الانتاجية الجديدة ؛ وان أسلوب الانتاج يستبدل بأسلوب جديد آخر بفعل التناقض بين علاقات الانتاج القديمة وبين قوى الانتاج المتطورة • أو ، بتعبير آخر ، ان قوى الانتاج تتطور عند وجود علاقات الانتاج الملائمة ؛ وعلاقات الانتاج تتطور عند وجود تناقضات معينة بينها وبين قوى الانتاج •

لقد أشار ماركس في رسالته الى آنكوف ، في ٢٨ كانون الأول ١٨٦٤ ، الى أن الناس لايرفضون قوى الانتاج المستعملة أبداً ، لكن هذا لايعني أنهم لايرفضون علاقات الانتاج التي ظلت تخدم كشكل لتطورهم حتى الآن • « على العكس • فمن أجل ألا يحرم الناس من النتيجة التي توصلوا اليها ، ومن أجل ألا يفقدوا ثمار المدنية تراهم مضطرين لتغيير كل الأشكال الاجتماعية الموروثة في تلك اللحظة عندما يصبح أسلوب علاقاتهم غير ملائم لقوى الانتاج المستعملة »[١] •

فيما تتجلى فعالية علاقات الانتاج اذا كانت شكلا لتطور قوى الانتاج ؟

ان علاقات الانتاج ، التي يتحقق ضمن اطارها تطور القوى المنتجة ، تمنح قواها الانتاجية طابعاً تاريخياً ملموساً • ان لكل أسلوب انتاج معين قوانينه الاقتصادية الخاصة التي يحدث بموجبها تطور قوى الانتاج في عصر معين ، ولاسيما القانون الاقتصادي الأساسي ، الذي يحدد هدف الانتاج ووسائل تحقيقه •

---

(١) ماركس وانجلس • مؤلفات مختارة • الجزء الثاني ص ٤٢٤ •

وبما أن كل شكل من أشكال علاقات الانتاج يخضع الانتاج الى هدف معين فانه بهذا يولد عند الناس وجماهير السكان بالذات دوافع معينة للنشاط تختلف في المجتمع الاشتراكي عنها في المجتمع الرأسمالي • ولهذا ، فان هذه الفعالية تتجلى ، قبل كل شيء ، في أن علاقات الانتاج تنشىء عند الناس دوافع معينة للنشاط ، وبهذا أيضاً فهي تؤثر على وتيرات تطور الانتاج •

ان علاقات الانتاج هي تلك العلاقات التي يحددها قبل كل شيء هذا السؤال : من المالك لوسائل الانتاج ؟ ففي الشروط الطبقية يكون المنتج المباشر محروماً كلياً أو جزئياً من وسائل الانتاج • وبالتالي فان هذه العلاقات تعني الانقسام الكامل أو الجزئي بين المنتجين وبين وسائل الانتاج وتحويل المنتجين أنفسهم الى وسيلة انتاج • وان هدف الانتاج يتحدد قبل كل شيء بمصالح الطبقة المالكة لوسائل الانتاج والتي ماتنفك تعتقد بأن مصلحتها ممثلة لمصلحة المجتمع كله • ان مالك الرقيق والاقطاعي والرأسمالي ـ الطبقات المسيطرة في التشكيلات الثلاث ـ يخضعون تطور الانتاج لمصالحهم ومتطلباتهم الخاصة • ان في استطاعة الرأسماليين مثلا ، اذ هم حملة علاقات الانتاج الرأسمالية ، أن يخضعوا الانتاج لمصالحهم الجشعة ـ للحصول على الحد الأقصى من الربح من توظيف الحد الأدنى من رأس المال • ان مصالح المجتمع ومتطلبات الطبقات الكادحة تبقى خارج حقل اهتماماتهم •

وطالما أن الطبقة المسيطرة مؤهلة لتطوير قوى الانتاج ، أو بتعبير آخر ، طالما أن علاقات الانتاج التي هي شرط سيطرتها ملائمة لقوى الانتاج فان وجود هذه الطبقة مبرر تاريخياً • ان علاقات الانتاج الرأسمالية التي ألغت علاقات الانتاج الاقطاعية كانت محركاً لقوى الانتاج لأنها جعلت المجتمع أكثر غنى بالنسبة للاقطاعية ، ولأن تطور الانتاج الرأسمالي تحقق على أساس زيادة المتطلبات • ولهذا فان علاقات الانتاج الرأسمالية كانت ضرورية من الوجهة التاريخية وتقدمية أيضاً • ولقد كتب ماركس وانجلس في « بيان الحزب الشيوعي » : « لقد خلقت البورجوازية ـ قبل مائة عام من سيطرة طبقتها ـ قوى انتاجية تفوق بضخامتها وبتنوعها كل الأجيال السابقة • فمن قهر قوى

الطبيعة والانتاج الآلي وتطبيق الكيمياء في الصناعة والزراعة ، الى بناء السفن وانشاء السكك الحديدية ، والبرق الكهربائي ، واستصلاح بلدان كاملة من العالم من أجل الزراعة ، وتكييف الأنهار للملاحة ، وجماهير غفيرة من السكان كما لو انبثقت من باطن الأرض ، – فأي قرن من القرون السابقة كان يقدر على الشك في أن مثل هذه القوى الانتاجية كانت تغفو في أحضان العمل الاجتماعي ! »[1] • لكن هذا لايعني أن تقدمية هذا الشكل أو ذاك لعلاقات الانتاج القائمة على الملكية الخاصة تحدد بدرجة الفعالية التي تستدعيها من الطبقة المسيطرة • بل على العكس ، ان الأهمية الحاسمة ، لدى تحليل قضية تقدمية علاقات الانتاج ، هي بوضع المنتج المباشر في نظام علاقات انتاجية معينة • ان الشكل الطبقي لعلاقات الانتاج يكون تقدمياً اذا ما حقق للجماهير فائدة أكثر بمقارنته مع الوضع السابق •

ثم ان الجماهير الكادحة في كل التشكيلات الطبقية لا تعمل لنفسها وانما للمستغلين – أصحاب الرقيق والاقطاعيين والرأسماليين • لكن وضع المنتج المباشر في نظام هذه العلاقات يختلف عن وضعه في نظام علاقات انتاجية أخرى • فالرقيق كالشيء مملوك بكليته • ولقد كان الشرط الرئيسي هنا لرفع انتاجية العمل على أساس التكنيك البدائي الاستغلال الوحشي لجماهير العبيد الواسعة وعملهم التعاوني • فالعبد لم يكن يهتم بعمله مطلقاً • وان النظام العبودي كان مرتبطاً بتنفيذ الضرورات غير الاقتصادية • لقد كان العبد يكره على العمل ، وكان « يشجع » بالسوط •

وان علاقات الانتاج الاقطاعية هي شكل للتطور الاجتماعي أكثر تقدمية من سالفه : ان المنتج المباشر – الفلاح – ليس ملكاً تاماً للاقطاعي ، وانما له ممتلكاته وأسرته • ثم ان الفلاح ، على خلاف العبد الذي كان ملكاً بكليته لسيده ، يعطي الاقطاعي قسماً من عمله ، ولهذا فان لديه بعض الاهتمام في رفع انتاجية عمله •

---

(١) ماركس وانجلس • مؤلفات مختارة • الجزء الاول ص ١٣ •

وفي النظام الرأسمالي يكون المنتج المباشر منفصلا تماماً عن وسائل الانتاج • لكنه مع هذا غير مرتبط ارتباطاً كاملا كالعبد ، أو جزئياً كالقن •

ان العامل يقف ضد مالك وسائل الانتاج ـ الرأسمالي •

وبما أن العامل ، اذ يبيع قوته العاملة ، يتلقى أجوراً أكبر اذا كان تصنيفه أعلى ، فانه مرغم الى حد ما على تطوير وتحسين القوة الانتاجية لعمله• لكن عمله للرأسمالي يجعله ينظر الى العمل كوسيلة للحصول على المال فقط، فيقتل بهذا مالديه من مواهب وامكانيات • وكما أشار انجلس « كلما كانت المشاعر الانسانية عند العامل قوية كلما كان مكرهاً على أن يزيد من كرهه لعمله••• فمن أجل أي شيء يعمل ؟ أمن أجل ارضاء نزواته الطبيعية الى الانتاج ؟ كلا ، بالطبع ، لأن النزوة الطبيعية الى الانتاج يمكن أن تشبع بالعمل الحر فقط الذي هو أسمى مسرة من بين المسرات التي نعرفها جميعاً »[1] •

ان في بلادنا وفي بلدان المعسكر الاشتراكي فقط تتغير علاقة الانسان بعمله تغيراً جذرياً • ان العمال هم حملة علاقات الانتاج الاشتراكية ، وهذا الظرف بالذات يعني أن عملية الانتاج خاضعة هنا لسد الحاجات الثقافية والمادية لكل أفراد المجتمع • وفي هذه الظروف بعد أن تخلص الانسان من ذلك العبء الثقيل المعيب الذي استمر آلاف السنين ، صار العمل بالنسبة لجماهير الناس تجسيداً لرغباتهم الانسانية في الانتاج ، وصار عملا بطولياً مجيداً • ان النشاط العملي المفيد للمجتمع صار المجال الأساسي لاظهار المشاعر الانسانية• وفي هذا المجال بالذات تتجلى ، قبل كل شيء ، أسمى الصفات الجماعية النبيلة للعامل المتحرر •

وبهذا عندما نتحدث عن التطور التاريخي للقوى المنتجة فاننا لانتحدث عن تغيرات أدوات الانتاج وحسب ، وانما عن تغير الانسان كقوة منتجة أيضاً ، وكذلك ، عند الحديث عن فعالية علاقات الانتاج ، ينبغي علينا أن نتطرق الى نشاط

---

(١) ماركس وانجلس • المؤلفات • الجزء ٢ ص ٣٥١ •

المنتج المباشر من الناحية الأخرى • ولاينبغي تحليل تطور القوى المنتجة في معزل عن الشروط الاجتماعية التي يحدث فيها ، أي عن وضع المنتج المباشر في نظام العلاقات الانتاجيــة المعينة ، لأن وضع الجماهير الكادحة والدوافــع المنبثقة عنه من أجل رفع انتاجية العمل ذات أهمية بالغة من أجل توضيح ذلك الحد الذي به تتمكن علاقات الانتاج من القيام بدور المحرك لقوى الانتاج في رحلة معينة •

ان التي تقوم بدور هذا المحرك هي العلاقات الانتاجية الجديدة فقط • ان علاقات الانتاج القديمة هي عائق أمام تطور قوى الانتاج • ثمة سؤال : كيف ينبغي أن نفهم الدور العائق الذي تقوم به علاقات الانتاج القديمة ، ألا توقف هذه العلاقات تطور الانتاج بوجه عام ؟

يجب ألا نفهم الموضوعة الماركسية حــول الدور العائق الذي تقوم به علاقات الانتاج القديمة فهماً ميكانيكياً كما نفهم مراجل القطار • ان الانتــاج لايتوقف في ظل علاقات الانتاج القديمة • فمثلا تسيطر في البلدان الرأسمالية ، في وقتنا الحاضر علاقات انتاجية هرمة ، وتوجد في تناقض صارخ مع طابــع قوى الانتــاج ، لكن هذا لايعني توقف تطور الانتاج ، وليس من الممكن أن يتوقف ، لأن الانتاج هو الشرط الأساسي لحياة المجتمع •

فماذا يعني الدور العائق لعلاقات الانتاج القديمة ؟ انه يتجلى ، قبل كل شيء في عــدم استخدام جميــع امكانيات المستوى الذي بلغه تطور الانتاج • « ان أبعاد الانتاج الرأسمالي تبلغ تلك الدرجة من التوسع التي يمكن أن يقال عنها غير كافية بالنســبة لمنطلقات أخرى • ان الانتــاج لايتوقف عندما يتطلب سد الحاجات توقيفه ، بل عندما يتطلب مثل هذا الوقوف انتاج الربح وتحقيقه »[1] • وفي هذا ، كما بين ماركس ، تتكشف محدودية الانتاج الرأسمالي •

وكمــا يصرح الماركسي الأمريكي الشهير ويليم فوســتير في كتابــه « غروب الرأسمالية الدولية » :

---

(١) ماركس • رأس المال • الجزء الثالث ١٩٥٣ ص ٢٦٩ •

« ان القوة الانتاجية للصناعة الأمريكية التي قامت في السنة الأخيرة من الحرب على حساب الغير وعلى ٢٥ مليار دولار (مما يفوق قيمة صناعة المنتوجات السنوية في ألمانيا ما قبل الحرب) صارت من الضخامة بحيث لم يعد ممكناً لا في أسواق أمريكا ولا في الأسواق العالمية بيع هذه الجبال من السلع التي أنتجتها »[١] .

وفي كتاب « العلم والمجتمع » يقول العالم الانكليزي جون برنال : لو أن موارد الولايات المتحدة الأمريكية والبلدان الرأسمالية الأخرى استخدمت لصالح المجتمع لتمكن ، خلال عشر سنوات ، مليارات من الناس الجائعين من أن يعيشوا حياة صحيحة كاملة . وطالما أن البورجوازية تسيطر في الولايات المتحدة وفي البلدان الرأسمالية الأخرى فان الانتاج يخضع لا لمصالح الشعوب ، وانما لعدو حفنة من المستغلين وراء الحد الأقصى من الأرباح . ولهذا فان التناقض بين علاقات الانتاج وبين طابع قوى الانتاج الحديثة ليس قولا نظرياً مجرداً وانما حقيقة واقعة . وحسب تقديرات الاقتصادي البرازيلي دي ـ كاسترو التي وردت في كتابه « جغرافية الجوع » فان ثلثي سكان العالم الرأسمالي لا يعرفون الشبع بصورة دائمة[٢] . وفي هذا يتجلى التناقض الصارخ بين مصالح حفنة من المستغلين ومصالح الجماهير الكادحة التي تحقق عملية الانتاج المادي .

ان أعظم وثيقة حقيقية عن هذا التناقض يوردها المؤرخ الأمريكي جيروم ديوس في كتابه « الرأسمالية وثقافتها » . لقد كتب : منذ زمن غير بعيد لاحظنا كيف كانت في عيون الناس المعوزين الى الضروريات الأولى تحترق السلع وتتأجج أكوام القطن باللهب وتسحق الخنازير . « عامان وهم يحرقون البن في القطارات البرازيلية ، ويلقون بآلاف الأطنان منه في اليم ـ كل هذا من أجل رفع أسعار البن الى المستوى المطلوب » . ثم انه يورد شهادة مزارع : « لقد زرعت ١٥٢٠ طن من الشوندر السكري على مساحة ١٥٠ أكرا في المزرعة التي استأجرتها ، وبعت من السكر ماقيمته ٤٥٦,٠٠٠

(١) فوستير . غروب الرأسمالية الدولية ١٩٥١ ص ٤٤ .

(٢) ـ دي كاسترو . جغرافية الجوع ، ١٩٥٤ ، ص ٣٧ .

جنيه أي مايكفي لـ ٤٠٠٠ شخص عاماً كاملا • لكن أسرتي لم تنل شيئاً من السكر منذ ثلاثة أيام وليس لدي ما أبتاع به • ولقد علفت وبعت ٤٣٠ جولا من الماشية أي بما قيمته ١٥٠٠٠٠٠ جنيه من اللحوم • وليس ثمة في البيت قطعة من اللحم أو مايشرى به •• ولم يكن لي ذنب في حدوث كل هذا وانما كان ذنب النظام الاقتصادي الذي يمتص دماء الشعب ويقدم كل شيء للشركات الاحتكارية العملاقة » •

ثم ان الدور العائق الذي تقوم به علاقات الانتاج الرأسمالية يتجلى في عدم تشغيل المؤسسات حسب طاقتها الانتاجية ، وعلى الأخص تلك المؤسسات المنتجة لمواد الاستهلاك الشعبي ؛ ويتجلى أيضاً في تطور الصناعة الأشوه الجانبي ، وفي الوقت ذاته فان امكانيات استخدام منجزات التقدم التكنيكي وخاصة استخدام الطاقة الذرية في الوسائل السلمية ، تصطدم بعراقيل كثيرة في النظام الرأسمالي •

وأخيراً ، ان الدور العائق لعلاقات الانتاج الرأسمالية يتجلى أيضاً في عمليات التبذير الأسطورية لمقدرات المجتمع الانتاجية القيمة مع عمليات نهب وافقار الجماهير الشعبية الواسعة ونمو جيش العاطلين عن العمل وأشباههم الذين هم في حالة دائمة على شفا العوز والموت •

ان الرأسمالية ، اذ تحكم على ملايين – ملايين الناس بالعمل وعلى الظامئين الى العمل بالفقر والجوع والبؤس ، لاتستخدم الامكانيات من أجل تطوير الانتاج ، وتعرقل تقدم القوى المنتجة • ان من شيم الرأسمالية تقليص حصة السكان المستخدمين في مجال الانتاج المادي بصورة منتظمة • ففي الولايات المتحدة الأمريكية ، مثلا ، كان يعمل ٦٩٪ من السكان العاملين في حقل الانتاج المادي عام ١٨٧٠ ؛ وفي عام ١٩٢٠ صارت النسبة ٥٩٫٧٪ ، وفي عام ١٩٣٠ أصبحت ٥٢٫٨٪ • وينمو في الوقت ذاته ذلك القسم من السكان الذين لايعملون في حقل الانتاج أي أولئك الذين يسهرون على خدمة الرأسماليين والذين يعملون في أجهزتهم الطفيلية كالدعاية وغيرها • ان القضاء على علاقات الانتاج الرأسمالية واستبدالها بعلاقات اشتراكية يفتح أمام المجتمع مجالات

وامكانيات هائلة • ففي الاتحاد السوفييتي ، مثلا ، لم يتم القضاء على الطبقات الطفيلية في المجتمع وعلى البطالة وحسب ،وانما يجري استثمار موارد المجتمع بصورة أشد فعالية وأكثر فائدة • فبموجب احصائيات عام **١٩٥٩** كان يعمل في الاتحاد السوفييتي في حقل الانتاج المادي ومن ضمنه التجارة ٨١ر٦٪ من السكان العاملين •

وعن هذا ينتج أن تحول علاقات الانتاج الرأسمالية الى عائق أمام تطور القوى المنتجة لايعني ايقافها التام عن التطور ، وانما يعني فقط أنه يحدث ببطء وفي جانب واحد لصالح الاقتصاد الحربي قبل كل شيء • ان قوى الانتاج تتطور من خلال الكوارث لأن علاقات الانتاج الرأسمالية تحولت من شكل تطور تلك القوى الى قيود • ان قوى الانتاج المعاصرة تتحول في أيدي الرأسماليين الى قوى هدامة • وان الرأسمالية تضع مكتشفات العلم والتكنيك في خدمة الحرب والتنكيل بالناس ومحاربة قوى التقدم • ولهذا يتزايد سخط ونقمة الجماهير الشعبية ضد حفنة الاحتكاريين •

عندما درسنا قانون الملاءمة تحدثنا عن فعالية علاقات الانتاج • لكنه ينبغي أن نأخذ بعين الاعتبار أنه ليس شكل الملكية ذاته والعلاقة المتبادلة بين الناس في الانتاج أو شكل توزيع السلع هو الذي يدفع أو يعرقل تطور الانتاج • ان الناس هم الذين يطورون الانتاج أو لايهتمون بتطويره • فهم أنفسهم يغيرون ويطورون أسلوب انتاجهم الذي يؤلف أساس تاريخهم • ان قوة الماركسية تكمن في كونها أعطت جوابا مادياً علمياً عن السؤال : بم يحدد نشاط الناس أو نشاط الجماهير الواسعة والفئات والطبقات بالذات في كل زمن معين ؟ انه يتحدد بمكانهم في الانتاج وبعلاقتهم مع وسائل الانتاج ومواده ، أي بالعلاقات الانتاجية التي تتكون بصورة مستقلة عن ارادة ووعي الناس ، وتتعلق بطابع ووضع قوى الانتاج فقط • وبهذا ، فان فعالية علاقات الانتاج تتجلى من خلال نشاط الناس • إن السؤال عن سبب تطور قوى الانتاج ، وقبل كل شيء ، عن سبب تطور أدوات الانتاج يفضي الى السؤال عن شروط نشاط الناس

الذين يطورون هذه الأدوات • وان الجواب عن هذا السؤال يأتي من تحليل علاقات الانتاج الاقتصادية التي تحدد وتشرط دوافع النشاط الانساني •

ان علاقات الانتاج الرأسمالية تضع المنتج المباشر في ذلك الوضع • حيث تتناقض مصالحه مع مصالح تطور الانتاج • ان العامل ، اذ يعمل من أجل الرأسماليين ، لايهمه أن يعتصر من التكنيك كل مايمكن أخذه • أما في بلادنا ، فعلى العكس من ذلك ، ان المجددين في الانتاج والمهندسين والتكنيكيين والعلماء •• يطورون التكنيك ويحسنون مستوى الخبرات والعادات وتنظيم العمل ، ويطورون قوى الانتاج للمجتمع الاشتراكي لأنهم يشتغلون لأجلهم هم أنفسهم ، لأجل شعبهم ودولتهم • ولهذا فان التأثير المتبادل بين الناس والأدوات تتجلى دائماً في شكل علاقات انتاجية معينة تكشف عن الدوافع التي تحث الناس على العمل •

الانتقال من أسلوب انتاج الى آخر

لقد أثبتنا أن قانون ملاءمة علاقات الانتاج لطابع ومستوى تطور قوى الانتاج لايحدد تطور هذا الأسلوب من الانتاج وحسب ، وانما يحدد أيضاً ضرورة استبداله بأسلوب انتاج آخر عندما تقع قوى الانتاج النامية في تناقض مع علاقات الانتاج القديمة •

ولنر الآن كيف يعمل قانون الملاءمة عند الانتقال من أسلوب انتاج الى آخر •

ان ظهور قوى انتاجية جديدة وعلاقات انتاج ملائمة لها يحدث في قلب النظام القديم • ولايمكن لأية ظاهرة أو لأي شيء ، بوجه عام ،أن يستحدث من العدم ، وانما هو نتيجة لتطور ظاهرة قديمة أو شيء قديم • وان الجديد ،بالتالي، لايمكن أن يظهر في معزل عن القديم وبعد اختفائه ، وانما يظهر من أعماقه كنتاج حتمي لتطوره • ولايستثنى من هذا تطور الانتاج مطلقاً • ان كل جيل جديد ، اذ ينخرط في الحياة ، يلقى قوى وعلاقات انتاجية جاهزة كنتيجة لنشاط الأجيال السالفة • ومن أجل أن يعيش الناس ويتمكنوا من انتاج ماهو

ضروري للحياة ينبغي عليهم أن يتقبلوا كـــل ماقدمته لهم الأجيال السابقة كأساس لنشاطهم المقبل •

لكنه ، الى جانب هذا ، فان كل جيل جديد يحدث تغيرات في وسائل العمل ويقوم بتحسين خبرته وعاداته الانتاجية ويطور قوى الانتاج تحت تأثير الدوافع التي ولدتها علاقات انتاجية معينة • وبهذا يولد الجديد في الانتاج ويتحرك الى الأمام • وفي النتيجة نرى أن في كـــل مجتمع معين لاتبقى قوى الانتـــاج القديمة التي أورثته اياها الأجيال السابقة وحسب ، وانما يحدث تغير في قوى الانتاج وتخلق قوى انتاجية جديدة ترثها الأجيال المقبلة • وينبغي أن نلاحظ في تطور الانتاج كلا من القديم الموروث وظهور الجديد • ان لمعرفة هاتين النقطتين في وحدتهما أهمية فائقة من أجل الفهم الصحيح للعملية التاريخية •

ومع تطور قوى الانتاج تنشأ في أحضان المجتمع القديم علاقات انتاجية جديدة تكون قطاعاً معيناً من الاقتصـــاد • وهكذا يتم ظهور أسلوب الانتاج الجديد في كنف القديم • ان أسلوب الانتاج العبودي يولد في كنف المجتمع البدائي الأول ونتيجة لتطوره • ثم ان أسلوب الانتاج العبودي يتعلق بالأسلوب الاقطاعي الذي يظهر في كنفه ، ومنه الى الأسلوب الرأسمالي الذي يظهر في كنف أسلوب الانتاج الاقطاعي •

وبهذا ، ففي أسلوب الانتاج القديم تولد عناصر أسلوب الانتاج الجديد ـ نوعية جديدة ، ويحدث تراكم كمي لتلك العناصر وتطور للقطاع الاقتصادي الجديد • ثم ان قوى الانتاج الجديدة النامية تدخل في نزاع مـــع علاقات الانتاج القديمة المسيطرة في المجتمع • وان حل هذا النزاع ، أي ان سيطرة علاقات الانتاج الجديدة لايمكن أن تتم الا على أساس ازاحة العلاقات القديمة التي تحميها الطبقة المسيطرة والبنيان الفوقي الذي خلقته •

ولهذا فان الانتقال من علاقات انتاجية قديمة الى أخرى جديدة لايمكن أن يتم عن طريق تغير كمي بسيط • ولابـــد هنا من قفزة نوعيـــة ، وتحطيم ثوري للأشكال الاقتصادية والاجتماعيـــة والسياسية القديمة المهترئة تحطيماً

تاماً يفتح الطريق الى توطيد أسلوب الانتــاج الجديد • ان التغيرات الكمية والكيفية ، وان التطور المرحلي والثورة هما ، بالتالي ، شكلا تطور الانتاج وتطور كل مافي العالم المحيط •

ان الخصائص النوعية لظهور أسلوب الانتاج الجديد هي أنه في كنف النظام القديم ـ الرأسمالية ـ تظهر منطلقات موضوعية وذاتية لأسلوب الانتاج الاشتراكي • ومن بين المنطلقات الموضوعية قوى الانتاج ذات الطابع الاجتماعي وطبقة البروليتاريا صاحبة المهمة التاريخية في القضاء عـلى الرأسمالية وبنـاء الشيوعية • ومن بين المنطلقات الذاتية الايديولوجيا الاشتراكية ووجود حزب البروليتاريا الثــوري ودرجة الوعي والتنظيم لــدى الطبقة العاملة وجماهير الكادحين •

لكن علاقات الانتاج الاشتراكية التي تلائم قوى الانتاج النامية لا تنشأ في ظروف الرأسمالية •

لقد نفى الانتهازيــون في الماضي والمحرفون المعاصرون ـ ولايزالون ينفون ـ هــذه الموضوعة الماركسية • فهم يعتبرون أن عناصر الاشتراكيــة ، ومن بينها علاقات الانتــاج الاشتراكية ، تظهر في ظروف الرأسمالية ، وأن « النضال » من أجل الاشتراكية ينحصر في التوسع التدريجي لهذه العناصر ، وأن الانتقال من الرأسمالية الى الاشتراكية ، وخاصة في ظروف الديموقراطية البورجوازية يمكن عن طريق التطور العادي ذي المراحل دون أية عواصف أو زلازل ثورية • ولهذا فان الســؤال عن ظهور أو عــدم ظهور العلاقات الاشتراكية في قلب النظام الرأسمالي ذو أهمية سياسية تطبيقية فائقة الى جانب أهميته النظرية ، وهو موضوع للصراع الايديولوجي الحاد مع التحريفيين والانتهازيين اليمينيين • ان فكرة ظهور العلاقات الاشتراكيــة في قلب النظام الرأسمالي تستخدم من قبل التحريفيين لرفض الماركسية الثوريــة وتدعيم الاصلاحية •

ويفسر هذا بالدرجة الأولى بالتناقض بين شكلي الملكية القائمين في أساس

علاقات الانتاج الرأسمالية والاشتراكية • لكنه اذا كان الاعتماد على هــذا المنطلق البسيط (التعارض بين شكلي الملكية) كافياً لتفسير عدم امكانية ظهور أسلوب انتاج في قلب أسلوب آخر ، لصار من المستحيل القول بأن أسلوب الانتاج العبودي القائم على شكل الملكية الذي يتعارض مـع شـكل الملكية في المجتمع البدائي الأول ، يظهر في كنف هذا الأخير • ولهذا ، فلدى دراسة القانونية التاريخية العامة وتحليل الخصائص النوعية لتجلياتها ، ينبغي ألا ننطلق هكذا ببساطة من تعارض شكلي الملكية عند ظهور أسلوب الانتاج الاشتراكي •

ان كل تشكيلة من التشكيلات التي تعاقبت في التاريخ لم تكن في جوهرها العميق تغير علاقات الانتاج • لقد كانت جميعها تستبدل أحد نماذج الملكية الخاصة بنموذج آخر ، وهذا الشكل للاستغلال بذاك ، كتغير الشكل الاقطاعي الى آخر رأسمالي • ولهذا ، ففي بطن التشكيلة الاقطاعية القائمة على الملكية الخاصـة كان يمكن للرأسماليين أن يظهروا ويتطوروا ويسيطروا اقتصادياً • وبمساعدة الثورة تمكنوا فيما بعد من الاستيلاء على سلطة الاقطاع السياسية • ولهذا فان الثورة البورجوازية كانت تنتهي من حيث الجوهر بالاستيلاء على السلطة •

ولهذا ، فمن أجل توضيح الفرق بين ظهور أسلوب الانتاج الاشتراكي وبين التشـكيلات الطبقية السابقة ينبغي أن نهتم اهتماماً فائقاً باختلاف شكلي الملكية اللذين يحددان طابع كل مجتمع • واذا ما أردنا معرفة سبب ظهور أسلوب الانتـاج العبودي في قلب المجتمع البدائي الأول ، بينما الأسلوب الاشتراكي للانتاج لا يمكن أن يظهر في قلب الأسلوب الرأسمالي ، فانه يتوجب علينـا آنئذ أن ندرك الفرق بين بنية كـل من النظامـين : البدائي الأول والرأسمالي •

ففي المجتمـع البدائي الأول ، وحسب درجـة تطور وتعقيد أدوات الانتاج ، ودرجة ظهور وتطور تقسيم العمل ، ظهرت منطلقات اقتصادية لنمو ثروة وممتلكات بعض الأسـر • وفي الوقت ذاتـه حدثت عملية فرز الطبقة المسيطرة من تلك الأسر التي نظمت الحقوق الاجتماعية واستخدمتها من أجل تعزيز سيطرتها الاقتصادية ، وكل هذا حدث في قلب النظام البدائي الأول •

ان خدام المجتمع يتحولون الى سادته ، ثم انه في قلب المجتمع البدائي تحدث عملية انقسام الجماعة الى أسر غير متكافئة اقتصادياً ، وبالتالي غير متساوية في تأثيرها على العشيرة أو القبيلة . ولهذا فانه في قلب النظام البدائي الأول لم تظهر قوى انتاجية جديدة وحسب ، وانما ظهرت كذلك علاقات اقتصادية جديدة قائمة على الملكية الخاصة .

ويختلف الأمر بالنسبة لتطور المجتمع الرأسمالي . لقد اتسمت فيه قوى الانتاج بطابع اجتماعي . وان وسائل الانتاج ، اذ هي في أيدي الرأسماليين ، تؤمن لهم وضعاً ممتازاً في المجتمع . ولحماية الملكية الرأسمالية تقف طبقة الرأسماليين الذين يستخدمون قوة البنيان الفوقي الذي أوجدوه ضد أية محاولة للقضاء على النظام الرأسمالي . ولهذا فان تحويل الملكية الرأسمالية الى ملكية اشتراكية لا يمكن أن يبدأ الا عن طريق السيطرة السياسية لطبقة البروليتاريا . ولا يمكن للاشتراكية أن توجد في قلب الرأسمالية ؛ وثمن مرحلة انتقالية بينهما تبدأ بالاستيلاء على السلطة ومن ثم استخدامها لحماية عملية تحويل النظام الرأسمالي الى نظام اشتراكي ، ومن أجل خلق علاقات انتاجية اشتراكية ملائمة لقوى الانتاج الاجتماعية .

واذا كان ظهور النظام العبودي في قلب النظام البدائي يحدث بصورة عفوية فان ظهور النظام الاشتراكي لا يمكن أن يبدأ الا عن طريق تقويض دعائم الدولة القديمة واقامة دكتاتورية البروليتاريا التي تستخدم فيما بعد من أجل بناء اقتصاد اشتراكي قائم على التخطيط .

ديالكتيك تطور قوى الانتاج وعلاقات الانتاج في ظل الاشتراكية

ان قانون الملاءمة المعبر عن ديالكتيك القوى المنتجة وعلاقات الانتاج يعمل كذلك في ظروف المجتمع الاشتراكي . لكن لظهوره هنا كثيراً من الخصائص . فكما ذكرنا آنفاً ان الأمر في ظروف الاشتراكية لا يبلغ حد النزاع بين قوى الانتاج وعلاقات الانتاج لأنه ليس ثمة طبقات مستغلة في المجتمع الاشتراكي كي تهتم مادياً بالحفاظ على العلاقات القديمة وتعارض لهذا

تغييرها • ان عمليـة الانتاج خاضعة هنا لسد الحاجات المتزايدة لكل أفراد المجتمع • ان الاشتراكية تقضي على التناقض الطبقي بين الانتاج والاستهلاك• ففي بلادنا أكثر من ٧٠٪ من الدخل القومي يدخل قطاع الاستهلاك الخاص بالشغيلة •

ان الخاصة الرئيسية لظهور قانون الملاءمة في ظل الاشتراكية هي في أن المجتمع هنا يتمكن من اتخاذ التدابير اللازمة في الوقت المناسب لجعل علاقات الانتاج ملائمة لقوى الانتاج المتطورة ، أي انه يتمكن من حل التناقض القائم بينهما بصورة واعية • ان الاشتراكية لايمكن أن تتفق مـع العفوية • ان الشعب السوفييتي ، اذ يعي الى درجـة كبيرة النتائج الاجتماعيـة لنشاطه ، ويعتمد على معرفة القوانين الاقتصادية الموضوعية ، يحدد بقيادة حزبه طرق حل التناقضات القائمة بين قوى الانتاج وعلاقات الانتاج دون أن يسمح للأمر ببلوغ حد النزاع •

وفي المجتمع الرأسمالي لايظهر التناقض بين قوى الانتاج وعلاقات الانتاج ويحتدم وحسب ، ولكنه يكون من المستحيل حله على أساس علاقات الانتاج الرأسمالية • بينما يحل في المجتمع الاشتراكي عـلى أساس علاقات الانتاج الاشتراكية ، ويؤدي الى تقويـة وتطوير علاقات التعاون المتبادل والعمـل الجماعي المشترك •

وأخيراً اذا كانت الطبقة المسيطرة في الاقتصـاد في النظام الرأسـمالي تسعى الى حـل التناقضات والأزمات عـلى حساب نهب وتجويـع الجماهير الكادحة ، بواسطة الحروب التي تحمل الدمار المروع للجماهير ، فان الحل الفعلي في الاشتراكية يكون وفق المصالح الجذرية للشعب كله وليس وفق مصالح طبقة معينة أو فئة من الناس على حساب الطبقات والفئات الأخرى •

لاينبغي فهم التلاؤم بين قوى الانتاج وعلاقات الانتاج في الاشتراكيـة فهماً مطلقاً على أنه ينفي التناقض بينهما نفياً تاماً • أولا ، ان الملكية الاجتماعية القائمة عـلى أساس علاقات الانتـاج الاشتراكية تظهر في وقتنا الراهن في

شكلين : حكومي ، وكولخوزي تعاوني • وان كلا الشكلين يتلاءمان مع مستوى تطور قوى الانتاج في الصناعة والزراعة • لكنه مع التطور التالي لقوى الانتاج وفي عملية البناء الشيوعي ستتم عملية رفع الملكية الكولخوزية التعاونية الى مستوى ملكية الشعب كله ، ودمج هذين الشكلين من الملكية في شكل واحد • لقد رسم المؤتمر الواحد والعشرون للحزب الشيوعي في الاتحاد السوفييتي الطريق الواضح لتطوير الملكية الكولخوزية ـ طريق رفع مستوى اجتماعيتها على أساس تطور الاقتصاد الاجتماعي • ثانياً ، ان علاقات الملكية هي أساس علاقات الانتاج التي تظهر عليها علاقات العمل الجماعي والتعاون المتبادل بين بناة المجتمع الاشتراكي بالاضافة الى الأشكال الاشتراكية لتوزيع الانتاج • ان ملاءمة علاقات الانتاج لطابع القوى المنتجة لاتنفي ظهور تناقضات بين القوى المنتجة وبين بعض جوانب علاقات الانتاج ، أي بين بعض أشكال العمل الجماعي وأشكال توزيع السلع •

وكيفما كان تطور المجتمع الاشتراكي (ان مجالات تطوره لا محدودة) فسيبقى مؤسساً دائماً على علاقات العمل الجماعي والتعاون المتبادل بين الناس المتحررين من الاستغلال • لكن هذا لايعني أن أشكال التعاون سوف تبقى ثابتة وجامدة • ان تجربة التطور في بلادنا ترينا عديداً من أشكال التعاون بين الطبقات والفئات الأساسية لمجتمعنا ـ العمال ، الفلاحين ، المثقفين ـ وداخل كل فئة منها على حدة • وان تجربة تطور البلدان الاشتراكية الأخرى ترينا كذلك كثيراً من أشكال التعاون بين الاتحاد السوفييتي وبلدان المعسكر الاشتراكي الأخرى • ويمكننا أن نعلن بثقة أن علاقات العمل الجماعي والتعاون المتبادل اذا ما احتفظت بنوعيتها هذه سوف تتمتع بامكانية هائلة غير محدودة للتطور ، معتمدين في ذلك على تلك التجربة ومنطلقين من وعينا الكامل لمستقبل الانسانية المرتبط بحركتها القانونية الحتمية الصامدة الصاعدة نحو الشيوعية •

ان نمو التكنيك المستمر وتغير العمليات الانتاجية ، وكذلك نموالمستوى الثقافي التكنيكي للعاملين في الانتاج يستدعي حتماً تحسين أشكال التنافس

الاشتراكي وحركة مجددي الانتاج • وهذا مايعبر عن تحسين وتطوير علاقات العمل الجماعي والتعاون المتبادل بين بناة الاقتصاد الاشتراكي •

ومع تطور المجتمع الاشتراكي تتحسن كذلك أشكال توزيع السلع • ان مبدأ توزيع السلع حسب كمية ونوعية العمل يتلاءم مع المستوى الراهن لتطور قوى الانتاج •

ان دفع الأجور حسب العمل سيكون المصدر الأساسي لسد الحاجات المادية والثقافية لجماهير الكادحين خلال فترة بناء الشيوعية كلها • ان السلع الانتاجية ، بصرف النظر عن قسمها الضروري للمجتمع ككل ، تدخل ضمن قطاع الاستهلاك الفردي ويتم توزيعها حسب كمية ونوعية العمل الذي ساهم به كل انسان في عملية تحضير السلع الاجتماعية ككل • ان الاشتراكية تنفي امكانية استغلال الانسان للانسان لوجود الملكية الجماعية لوسائل الانتاج • ويتم توزيع سلع الاستهلاك بحيث يتقاضى كل انسان ما يتناسب مع مايقدمه للمجتمع • ان مبدأ التوزيع هذا يضمن مصالح الفرد ومصالح المجتمع على حد سواء • وحيثما يخرق هذا المبدأ يتلاشى الاهتمام المادي للمنتج ويضعف الانتاج حتماً مما يضر بمصالح المجتمع كله •

لكن هذا لايعني أن مبدأ لكل حسب عمله لايتجلى عندنا في أشكال ملموسة لأجور العمل ولايعني أنه يجب ألا يفضي الى تحسين أشكال الدفع والتوزيع والى تغيير كمية العمل في المصانع والكولخوزات الذي بمساعدته يتحقق مبدأ لكل حسب كمية ونوعية عمله • هكذا ، فان برنامج الحزب يضع مهمة تقريب أشكال الدفع في الكولخوز من أشكال الدفع في المؤسسات الحكومية • ان تجربة تطور بلادنا ترينا تغييراً وتحسينا وتطويراً دائماً لأشكال التوزيع حسب العمل • والى جانب هذا ، ففي عملية بناء الشيوعية سوف تتسع القطاعات الاجتماعية التي سيتم توزيعها ليس حسب كمية ونوعية العمل وانما حسب الحاجة ودون مقابل • وخلال عشرين عاماً ينبغي على هذه القطاعات أن تؤلف نصف كمية الدخل الحقيقي للسكان • ان برنامج الحزب الشيوعي في الاتحاد السوفييتي يطرح مهمة ذات أهمية تاريخية

عالميـــة ـ تأمين أرفع مستوى معيشة في العالم لشعبنا بالمقارنة مـــع بلدان رأس المال •

وهكذا ، فان التناقض بين قـوى الانتاج وعلاقات الانتـاج يظهر في الاشتراكية كأيـة تشكيلة أخرى نتيجة لتطور قوى الانتـاج • لكن طابع وأشكال تطور وأساليب حل هذه التناقضات ذات نوعية مغايرة بالمقارنة مـــع التشكيلات السابقة •

ان حل التناقضات يؤدي الى تعزيز وتطوير أسلوب الانتاج الاشتراكي• وان النضال من أجل تطوير الانتاج الاجتماعي كله على أساس التكنيك الجديد وتكنيك أكثر جدة هو أساس اسعاد جميع السوفييتيين ، وأساس قوة وطننا الاشتراكي • ان معرفة العيوب الكامنــة في فروع اقتصادنا الشعبي المختلفـة وتلافيها هو شرط ضروري لحركة المجتمع الى الأمام • ولهذا فان الحزب ماينفك يطالب بممارسة الاقتصاد والنقد الذاتي والأخذ بآراء الجماهير الموجهة ليس الى اكتشــاف العيوب وحسب بل الى تلافيهــا كذلك ، وبوجوب نشر التجربة التقدمية للمجددين في الانتاج • ويطالب الحزب جميع السوفييتيين ، وبالدرجة الأولى القادة منهم ، بدراســة القضايا الملموسة في الاقتصـــاد التي بدونها لايمكن استخدام الاحتياطي الموجود لدينا من أجل رفع انتاجية العمل•

ان علاقات الانتاج الاشتراكيــة تخلق الامكانيات من أجــل التطوير السريع لقوى الانتــاج ، وهي المحرك القوي لتطورها ولتقدمهــا التكنيكي ولانشاء العلاقات الشيوعية وللزيادة السريعة في انتاجية العمل • لكن هــذه الامكانيات لاتتحول الى الواقــع من تلقاء ذاتها •• ولهــذا فان حزبنا يجند الشعب السوفييتي كله ـ العمال والكولخوزيين والمثقفين ـ للنضال من أجل التقدم الاجتماعي ، ومن أجل تنظيم أفضل للانتاج ، ومن أجل تطور العلم وادخال منجزاته في التطبيق العملي ، ورفع انتاجية العمل ومن أجل الاقتصاد في المواد وتوفيرها وغيرها • ان البرنامج الجديد للحزب ينظر الى زيادة سرعة التقدم العلمي التكنيكي الى الحد الأقصى كمهمة شعبية فائقة الأهمية •

التشكيلات الاجتماعيـة الاقتصاديـة الخمس
مراحل التطور التقدمي للمجتمع
التاريخ عمليـة هادفـة موحـدة

ربما يكون من نافلة القول في وقتنا هذا أن نثبت أن المجتمع يتطور ، وتطوره ذو طابع تقدمي • ففي القرن العشرين وخلال حياة جيل واحد حدثت مثل هذه التغيرات الهائلة في كـل مجالات الحياة الاجتماعية ، وحصل تقدم عظيم في التكنيك والعلم وعلى صعيد العلاقات الاجتماعية وغيرها مما لايخفى على كل عين • لكنه ، مع ذلك ، يوجد بعض علماء الاجتماع البورجوازيين في وقتنـا الحاضر ممن يعتقدون بوجوب هجر مفاهيم « التطور » و « التقدم » و « التطور على مراحل » بالنسبة للمجتمع ، وبأنه ينبغي ألا نبحث في التاريخ عن خط عام للتطور وعن اتجاه للتطور التقدمي وغير ذلك من الأمور • ان العزوف عن فكرة التقدم في المجتمع لهو سمة العلم الاجتماعي البورجوازي في عهد الامبريالية • فبعيد الحرب العالمية الأولى صرح عالم الاجتماع الامريكي أوغبورن بأن مفهوم « التطور » لاينطبق عـلى المجتمع • وفي العقد الثاني من القرن الحالي أثار كتاب « غروب أوروبا » لمؤلفه شبنغلر ضجة كبرى حيث أكد الكاتب أن سقوط الرأسمالية معناه هلاك الانسانية جمعاء وثقافتها ، ونفى امكانيـة التطور التقدمي للمجتمع • وكذلك فان مايسمى بنظريـة الحلقات الثقافية التاريخية التي جاء بهـا المؤرخ الانكليزي المعروف ج • توينبي تنفي تطور المجتمع • ان تاريخ المجتمع الانسـاني ، كما يرى توينبي ، لايمكن دراسته كعملية موحدة فيهـا عنصرا الرابطة والاسـتمرار • ويعتبر توينبي أنه ثمة مدنيات مختلفة في التاريخ كل منها منطوية عـلى نفسها ولا تنتقل الى الأخرى • وهو يشبه كل مدنية على حدة بشجرة البامبو التي ترتفع وحيدة قرب جاراتها ، ويعتبر محاولات المؤرخين لربط المدنيات المختلفة في خط واحد للتطور محاولات مصطنعة خاطئة كما أن محاولة ربط شجيرات البامبو في خط صاعد واحد هو عملية مصطنعة وخاطئة • ففي المؤتمر الدولي لعلماء الاجتماع

عام ١٩٥٦ تقرر نفي التطور والتقدم كخط عام في العلم الاجتماعي المعاصر • ولقد استبدل علماء الاجتماع البورجوازيون مصطلح « التطور » بالمصطلح المبهم المرسل « التغيرات الاجتماعية » كتعبير « أشد حذراً وأقل تقييماً » للظواهر الحياتية في علم الاجتماع المعاصر ليتميز عن العلم في القرن التاسع عشر الذي كان يعتمد على فكرة التقدم • ان قفزة علم الاجتماع البورجوازي من الاعتراف بفكرة التقدم الى نكرانها ليست وليدة الصدفة • فهي تسلط الأضواء ساطعة على حزبية العلم الاجتماعي • ان الرأسمالية لاتملك مجالات أوسع للتطور ولهذا فان علماء الاجتماع البورجوازيين يقومون ضد فكرة التطور ذاتها وضد التقدم الاجتماعي •

وفي الطرف المقابل لعلم الاجتماع البورجوازي نجد أن العلم الماركسي حول المجتمع لايعتمد فقط على فكرة التطور لدى بحثه للعملية التاريخية ، وانما يعطي تفسيراً علمياً لهذا التطور •

ان تطور المجتمع من وجهة النظر الماركسية هو تطوير وتغيير التشكيلة الاجتماعية الاقتصادية • ان الانتاج بالذات يحدد ليس فقط بنية كل تشكيلة اجتماعية وحسب ، وانما تطورها كذلك ، والانتقال من تشكيلة الى أخرى ، ويحدد ايجاد العملية التاريخية ويمنحها الوحدة والغائية • وتؤثر على سير التطور التاريخي ظواهر اجتماعية أخرى : العملية التاريخية هي نتيجة لعملية معقدة من التأثير المتبادل بين قوى اجتماعية مختلفة غير متساوية من حيث الأهمية • لكن أساس هذا التأثير المتبادل هو أسلوب انتاج الخيرات المادية • واذا كانت غائية العملية التاريخية ترتبط بالانتاج فان تنوع ظهورها في تاريخ بلدان وشعوب شتى نتيجة للتأثير المتبادل بين مختلف جوانب الحياة الاجتماعية •

ليس ثمة هدف داخلي في التاريخ منذ بدايته كما يؤكد المثاليون • ان المادية التاريخية تنظر الى سير التاريخ كعملية مشروطة لها أسبابها وقوانينها • وان الأهداف موجودة في النشاط الانساني وحده ، وان الشروط المادية لكل عصر من العصور تحدد تلك الأهداف التي يضعها الناس نصب أعينهم ، وتحدد كذلك امكانية تحقيقها •

ولولا هذا لامتنع علينا فهم التطور بموجب القوانين وتغير التشكيلات الاجتماعية كنظام تاريخي فلسفي يشمل التاريخ كله وكل شعب من الشعوب. ان نظرية التشكيلات الاجتماعية تكشف لنا عن المنطق الداخلي للتاريخ العالمي هذا المنطق الذي تحدده القوانين . ان التاريخ الملموس غني ومتنوع . لكنه، كما أن الأنهار جميعاً مهما تعرجت مجاريها لابد سوف تنتهي الى البحر، فان الشعوب مهما كان طريق تطورها التاريخي عجيباً ومختلفاً فانها سوف تنتهي جميعاً في عصرنا الراهن الى الشيوعية . هذا هو قانون التطور التاريخي.

فلننظر الى المراحل الأساسية من تطور المجتمع الانساني ولننتبه كيف أن الانتاج يحدد بنية المجتمع كله في عصر تاريخي، ويحدد الانتقال من تشكيلة اجتماعية الى أخرى . ان تحليل هذه الأسئلة يتيح لنا فهم سير التاريخ كعملية تاريخية طبيعية لتطور الانسانية .

الانسان والمجتمع

ان تاريخ المجتمع هو استمرار لتاريخ الطبيعة . ان تطور العالم الحيواني هيأ المنطلقات لظهور الانسان . وفي نهاية الدور الجيولوجي الثالث ظهرت القرود ذات التكوين العالي الشبيهة بالانسان، والتي كانت تعيش في الغابات قطعاناً وتقتات بالنباتات والأثمار . ثم ان تغير المناخ (الى البرد) وتغطية الأرض بالنباتات (تراجع الغابات الى الجنوب) في بداية الدور الجيولوجي الرابع هيأت المنطلقات الفيزيا ـ جغرافية الضرورية من أجل ظهور الانسان . وتحت تأثير القوانين البيولوجية المحضة التي أجبرت القردة الشبيهة بالانسان على التكيف مع الشروط المتغيرة وجدت القردة أنفسها مضطرة للانتقال الى تحضير واستخدام أدوات العمل . وبهذا تأسست بداية الانتقال الى مرحلة جديدة بنوعيتها من مراحل تطور المادة ـ الى مرحلة المجتمع الانساني بقوانينه الاجتماعية الجديدة . ثم ان التطور التدريجي التالي الذي طرأ على الجهاز العضوي الفيزيائي للقردة الشبيهة بالانسان اتجه الى التكيف مع العمل وليس مع الطبيعة فقط . ان تطور اليد والمخ والكلام وغيرها ـ كل هذا كان نتيجة لتكيف الجهاز العضوي مع تحقيق عملية العمل . لكن العمل لم يحدد المظهر

الخارجي للانسان وحسب • فالعمل يبقى مستحيلا بدون قيام علاقات متبادلة بين الناس • ولهذا ظهرت مع العمل في القطيع البدائي الأول بذور علاقات اجتماعية جديدة ـ علاقات الناس في الانتاج ؛ ومع تطور وتعقد النشاط العملي تطورت وسيلة التفاهم بين الناس كذلك ـ اللغة • وفي العملية ، وعلى أساس النشاط العملي للناس وتفاهمهم الواحد مع الآخر ، تطور الوعي وقابلية التفكير المجرد •

وبهذا ، فان الانسان مع جهازه العضوي الفيزيائي ووعيه ولغته ومجتمعه، وبأشكال تفاهمه الخاصة ـ علاقاته الاجتماعية ـ هو نتاج لظهور العمل •

العمل خلق الانسان ! ان الفهم العميق لهذه المقولة الماركسية ليس في كونها تقرير حقيقة فقط ، وانما في كونها جزءاً من النظرة العلمية الى العالم ، ومبدأ لوجهة نظر معينة يؤلف الأساس الداخلي لسلوك الانسان ، ويتمكن الانسان بواسطته من فهم معنى الحياة • ان على كل منا أن يدرك تماماً بأن الانسانية مدينة للعمل وحده بكل ماتفوقت به على الحيوان •

لقد قام العمل بفصل الانسان عن عالم الحيوان • وفي عملية العمل وعلى أساسه تشكل وتطور احساس الانسان وعقله ، وخُلق كل غنى صلاته مع العالم المحيط • لقد كان العمل القوة الرئيسية في عملية تحول القرد الى انسان • ولقد ظهر الانسان القديم في بداية الدور الحجري الرابع منذ مليون سنة تقريباً • وهكذا كانت بداية ظهور المجتمع • وبالطبع لم يكن قد ظهر الانسان بملامحه الراهنة • ان أسلاف الانسان الحالي الذين حملوا سيماء الانتقال من القرد الى الانسان كانوا : نياندرتال وستينتيشروب وبيثيكانثروب • ولقد ظهر الانسان ذو الملامح الراهنة بين فترتي العصر الحجري القديم (الباليوليثيل) المبكرة والمتأخرة أي منذ مائة ألف سنة تقريباً • ولهذا فان دور نشوء المجتمع الانساني ، دور خروج الانسان عن الطور الحيواني يشغل بعض مئات الألوف من السنين • وكان هذا أعظم طفرة حدثت في تاريخ الطبيعة بصورة تدريجية عن طريق التراكم البطيء لعناصر النوعية الجديدة •

ان ظهور الانسـان والمجتمع يعني عملية ظهور التشكيلة الاجتماعيـة الاقتصادية الأولى ـ نظام المجتمع الأول • وخلال عهد هـذا النظام الأول بلغت القوى المنتجة درجة معينة من النضوج بصرف النظر عن بطء تطورها • ويثبت العلم أن مئات آلاف السنين مرت حتى تم انتقال الناس من الأدوات الحجرية الغليظة الى الأدوات المصقولة وانتاج الفأس الحجرية والبلطة والرمح ذي الرأس الحجري الحاد والى خلق شباك وحبال الصيد والىالقوس والرمح، والى تربية الماشـية وزراعة النباتات ، أي تغييرها بوسيلة العمل • ان أدوات الانتاج هذه التي تطورت عبر مئات وآلاف السنين كانت لاتزال أدوات بدائية ، وكما ذكرنا سالفاً ، فقـد حرمت الانسان من امكانيـة الانتـاج الفردي • فبمساعدتها لـم يكن في مقدور الانسـان أن يجابه الوحوش المفترسة لوحده ويقي حياته منها ويحصل على الوسـائل الضرورية للمعيشة ، ولهذا كان من الضروري للناس أن يتحدوا في جماعات • ان العمل الجماعي هو عمل أكثر انتاجية • فقد صارت تعاونية بسيطة من القوى الفرديةتعطي قوة انتاجية جديدة أكبر ممـا كان يعطيه مجموع تلك القوى الفرديـة التي تؤلفها عندما كانت منعزلة احداهـا عن الأخرى • ان قـوة الجماعة الناتجة عن اتحاد الأفراد المسلحين بالأدوات البدائيـة كانت تشكل القوة الانتاجيـة الرئيسية في نظام المجتمع البدائي الأول • لقد كتب ماركس : « كان هـذا النموذج البدائي للانتـاج الجماعي أو التعاوني نتيجة لضعف الفرد لا نتيجة لتعميم وسـائل الانتاج »[1] •

وبالرغم من أن الجماعة كانت أساس القوة الانتاجية فان هذا لايعني أن عملية العمل لم تكن تتطلب من الفرد ، كقوة منتجة ، مطالب معينة • لقد كانت هذه المطالب جد بسيطة وجـد معقدة في آن معاً • فمن جهة أولى لـم يكن تحضير واستعمال الأدوات البدائية يتطلب معارف كبـيرة ومهارات متنوعة ؛ ومن جهة ثانية كانت فعالية عمل الانسان على أساس هـذه الأدوات تتعلق

---

(١) ماركس وانجلس • المؤلفات • الجزء ٢٧ ص ٦٨١ •

بصفاته الفيزيائية . (القوة ، الجلد ، الخفة .. وغيرها) ، وبصفاته الروحية (الارادة ، التصميم ، الصبر ، الشجاعة ، وغيرها) ، وبمعارفه عن الطبيعة.. وما أشبه ذلك . فلأن مستوى القوى المنتجة كان بدائياً فقد كان يتطلب من الانسان متطلبات كثيرة وكبيرة . لقد كان عليه أن يقف حياته كل يوم وكل ساعة لمصارعة قوى الطبيعة الغريبة عنه المعادية له . فمن السهل أن نضرم النار بعود الثقاب ، لكنه من العسير اضرامها بأن نوري الخشب ، بل ومن الصعب أن نتصور ذلك الجهد وذلك الجلد الذي كان يتحمله الانسان ليقدح النار بطريقته البدائية ـ باحتكاك الخشب . وكان ينبغي عليه أن يجتاز مدرسة كبيرة قبل أن يتقن عملية الصيد بالرمح ذي النهاية الحجرية أو بالقوس والنشاب . لكن الانسان كان يوجه امكانياته جميعها كيما يستنفد ويستعصر كل مايمكن أن تقدمه له تلك الأدوات . وبما أن الأدوات ـ وليست التجربة والمهارات ـ هي التي تحدد مستوى القوى المنتجة فقد كان مستوى التطور بكليته في المجتمع البدائي على درجة سحيقة من الانخفاض بحيث لم تتمكن التجربة والمهارات من أن تضمن للفرد امكانية العيش بمفرده .

لقد وجد الناس أنفسهم مضطرين الى العمل الجماعي مما أدى بصورة طبيعية الى الملكية الجماعية لوسائل الانتاج وللمنتوجات . وبالتالي فقد نشأت العلاقات الانتاجية البدائية الجماعية القائمة على أساس الملكية الاجتماعية لوسائل الانتاج بصورةمستقلة عن ارادة الناس ومتعلقة فقط بطابع قوى الإنتاج.

ان المستوى المنخفض لتطور الانتاج ، اذ يشرط ضرورة العمل الجماعي، يحدد مع هذا شكل الجماعة وأبعادها . ان الاجتماع من أجل الصيد أو زراعة الأرض لم يكن ليؤمن وجود جمهور كبير من الناس . ولهذا فلم تكن الجماعات البدائية ثابتة بل متغيرة وغير كبيرة نسبياً ، ولقد خلقت الاطارات العامة لتقسيم العمل حسب الجنس والسن . ان الشكل القبلي لاجتماع الناس كان يتلاءم مع شروط النظام البدائي . لقد كانت العشيرة والقبيلة تؤلف جماعة ينتظم الناس فيها في علاقات أسرية وزواج واقتصادية انتاجية وايديولوجية . وكانت العشيرة والقبيلة في آن معاً مجموعة من الأقارب وخلية

انتاجية وشكلا للتنظيم الاجتماعي في المجتمع وجماعة تضمها لغة واحدة •

وكشكل للتنظيم الاجتماعي وتوجيه حياة الناس تنتمي العشيرة والقبيلة الى البنيان الفوقي للمجتمع البدائي الذي يتحقق بمساعدته تنظيم العلاقات داخل العشيرة وبين العشائر •

وبخلاف القطيع الحيواني الذي يظهر تحت تأثير الحاجات البيولوجية المحضة فان الجماعة الانسانية توحدها ضرورة اقتصادية لاتنعكس في الغريزة وانما في الوعي • ان كل مايحث الناس على النشاط لابد من أن يمر في عقولهم • ان الضرورة الاقتصادية الموضوعية تتحول الى دافع لنشاط الناس عندما تنعكس في وعيهم فقط بطريقة أو بأخرى • وهذا يعني أيضاً أنه على أساس العلاقات الاقتصادية المادية تظهر علاقات ايديولوجية تعكس هذه العلاقات وتوطدها • وقد كانت الأخلاق والدين والفن هي التي تؤلف أشكال الوعي في المجتمع البدائي ؛ لكن هذه الأشكال لم تكن لتميز أحدها عن الآخر آنذاك • لقد اندمجت مع بعضها في كل واحد مكونة نظاماً من التقاليد والعادات ونظام العشيرة والقبيلة الذي كان يخضع له كل فرد في أفكاره وتصرفاته • فلم يكن الانسان آنذاك ، حسب تعبير ماركس ، قد انفصل عن سرة الطبيعة • لقد كانت العشيرة والقبيلة بمثابة حدود للانسان من شتى نواحي علاقاته : العلاقة المكانية ـ كان بامكانه التنقل بصورة حرة فقط ضمن حدود الرقعة التابعة لهما ، والاقتصادية ـ كان وجوده مرتبطاً بوجود الجماعة ، والروحية كذلك • لقد كان يعي نفسه ويتمثلها لا كشخصية منعزلة ، وانما كفرد من أفراد العشيرة • لقد كان وعي العشيرة هو وعيه الخاص • وكان الانسان شديد التعلق بها الى الحد الذي جعله لايميز بين الحق والواجب • وكان من النادر جداً أن يحصل خرق لنظام الحياة القائم وللعادات والتقاليد • وكل ماكان خارج نطاق العشيرة والقبيلة كان غريباً بالنسبة له • ولقد عكس هذا الوعي العلاقات الواقعية بين الناس التي ظهرت عندما لم يكن باستطاعة الانسان أن يعيش بمعزل عن الآخرين ، وعندما كانت الجماعة هي القوة الانتاجية

للمجتمع • ولقد ظهر هـذا الوعي في هيئة بنيان فوقي مؤهل لحفظ النظام وتعزيز التنظيم القبلي العشائري •

وفي حدود التشكيلة البدائية أنجزت الانسانية مرحلة مهمة من التطور• فعندما تكون الانسان ذو الملامح الراهنة كان يستطيع أن ينتج الأدواتالبدائية فقط • وكان يحصل على وسائل عيشه جاهزة من الطبيعة مباشرة كما يحصل عليها الحيوان •

لكنه كان يمتاز عن الحيوان باستخدامه أدوات اصطناعيـة الى جانب الأعضاء الطبيعية عند التجمع وصيد الحيوانات والأسماك • ان القفزة الهائلة في تطور المجتمـع البدائي كانت في ظهور أعمال زراعـة الأرض وتربيـة الماشية • فقام الانسان بخطوة جديدة للخروج من الطور الحيواني ، وهي أنه صار ينتج ليس فقط أدوات العمل ، وانما وسائل المعيشة أيضاً • وفي المراحل العليا للتشكيلة البدائية بدأ الانسان باستخدام المعادن لانتاج الأدوات (النحاس، البرونز ، ثم الحديد) ، وظهر شكل جديد لنشاطه ـ الحرفة • وعلى أساس الانتاج والارتباط به تطورت كل الجوانب الأخرى لحياة المجتمعالبدائي الأول ـ التنظيم الاجتماعي ، الوعي ، اللغة وغيرها ، وضمن اطار المجتمع البدائي الأول بالذات تكون الانسان بشكله النهائي ، وخرج من الطور الحيواني ، وخلق شروطاً ومنطلقات من أجل التطور المقبل لثقافته المادية والروحية •

ونحن ، اذ ندرس العملية التاريخية الطبيعية لتطور التشكيلة البدائيـة بمجموعها ، فاننا نميز مرحلة معينة في تاريخ الانسانية • لكنه ينبغي أن نأخذ بعين الاعتبار أن تاريخالانسانية في تلك الفترة هو تاريخ جماعات صغيرةمنعزلة تربطها ببعضها علاقـات ضعيفة • وان تلك المجموعات ـ أخص العشـيرة والقبيلة ـ من الناس كانت تشن كل يوم نضالا مريراً من أجل بقائها اذ كانت ترتبـط ارتباطاً كامـلا بالشروط الطبيعية ، وكانت تقضي أحياناً في ذلـك النضال • ان مصير تلك الجماعات كان يتعلق بعدد كبير من العوامل المختلفة : الشروط الطبيعية ، نمو السكان ، وحدة الجماعة وقدرتها على اخضاع كل

فرد الى الشروط العامة للانتاج ، واعادة تنظيم الجماعة وغير ذلك من العوامل الأخرى •

ان الطابع البدائي للانتاج ، والمصاعب الهائلة في الكفاح من أجل البقاء ، وان علاقات الانتاج في العمل الجماعي والتعاون المتبادل بين أعضاء الجماعة الواحدة كانت تؤلف المظهر الخارجي لهذه التشكيلة •

ان كثيراً من الباحثين ، لدى دراستهم لانسان التشكيلة البدائية الأولى ، يولون فائق اهتمامهم الى أن الناس في تلك الفترة مع كل ضعفهم وارتباطهم التام بالطبيعة فقد فرضوا علينا احترام سذاجة تصوراتهم بما كانوا يتمتعون به من احترام النفس والاخلاص والصراحة وقوة الشخصية والشجاعة وغيرها من الصفات الانسانية الحقيقية الأخرى • ولقد منحت الماركسية هذه الظاهرة تفسيراً علمياً • لقد بين انجلس في كتابه الشهير « نشوء الأسرة والملكيةالخاصة والدولة » أنه اذا كان ضعف الانسان مرتبطاً بالمستوى المنخفض لتطور قوى الانتاج فان التراث الاخلاقي لأناس ذلك المجتمع كان نتيجة مباشرة للتنظيم العشائري القائم على الملكية الاجتماعيةلوسائل الانتاج ،وعلى المساواة الاقتصادية بين أفراد الجماعة كلهم وعلى علاقات العملالجماعي الرفاقي والتعاون المتبادل• ونحن ، اذ نعجب بمزايا الناس الأخلاقية في التشكيلة البدائية ، لايسعنا الا أن ندفع ضريبة الاحترام لتلك البداية الانسانية الحقيقية التي تجلت في أسلافنا بكل بساطتها البدائية •

ثمة سؤال : لماذا لم تساعد علاقات الانتاج الجماعية في النظام البدائي على تطور القوى المنتجة ، ولماذا تغيرت مع الزمن الى علاقات انتاجية قائمة على الملكية الفردية ؟

ان سبب ذلك هو في أن الملكية الاجتماعية في العشيرة والقبيلة وعلاقات العمل الجماعي والتعاون المتبادل بين أعضاء هذه الجماعات تظل تتلاءم مع طابع قوى الانتاج الى أن يستدعي المستوى المنخفض لتطور الانتاج ضرورة تحسين الانتاج • لكن التحسين التدريجي لأدوات الانتاج يؤدي الى رفع مردود العمل الفردي ، وان توسيع وتطوير الانتاج يؤدي الى تقسيم العمل

وظهور الانتاج الفردي • وبما أن شكل الملكية يبقى اجتماعياً والتوزيع يبقى بالتساوي فان الاهتمام المادي برفع انتاجية العمل لايظهر لدى الانسان الفرد• وهذا يعني أن قوى الانتاج المتطورة دخلت في تناقض مع علاقات الانتاج البدائية وتتطلب استبدالها بعلاقات أخرى تتلاءم مع المستوى الجديد للتطور•

وان هذا التناقض يتطور في قلب النظام البدائي مع ظهور تربية الماشية وفلاحة الأرض وزراعتها ، وبصورة خاصة مع اكتشاف صهر المعادن واستخدام الأدوات • لقد صار الانسان أكثر قوة ، وصار في امكانه ، مع أسرته أو لوحده ، أن ينتج وسائل معيشته • وفي الوقت ذاته أخذت ضرورة العمل المشترك بين أفراد العشيرة تفقد قوتها ولم تعد توحد الناس في جماعة ، ثم سقطت هذه الجماعة ذاتها • وبما أن أدوات العمل هنا هي أدوات استخدام فردي ، فقد ظهر الاهتمام المادي في تطوير الانتاج على أساس هذه الأدوات في شكل علاقات انتاجية قائمة على أساس الملكية الخاصة • لقد أشار لينين في رده على ميخايلوفسكي الى أنه « طالما أن جميع أعضاء المجتمع البدائي كانوا يقومون معاً بانتاج ضرورياتهم فقد كانت الملكية الفردية مستحيلة آنذاك • وعندما ظهر تقسيم العمل في الجماعة ، وصار كل فرد من أفرادها يشتغل لوحده في انتاج سلعة من السلع ثم يبيعها في السوق ، عند ذلك ظهرت الملكية الخاصة كتعبير لهذه الخاصة المادية لمنتجي السلع » • ومع ظهور الانتاج الفردي ظهر التناقض بين الملكية الاجتماعية والطابع الفردي لعملية الانتاج ، والذي يُحل عن طريق القضاء على الملكية الاجتماعية وظهور الملكية الخاصة لوسائل ومواد الانتاج • وهذه هي الأسباب الرئيسية التي أدت الى القضاء على النظام البدائي كحتمية تاريخية طبيعية •

التشكيلة العبودية

لقد أوضحنا حتمية القضاء على النظام البدائي وتغيير علاقاته الجماعية الى علاقات قائمة على الملكية الخاصة • ان الملكية الخاصة لوسائل الانتاج هي مصدر الفوارق الاقتصادية بين الناس وأساس العلاقة بين السيد والمسود وتؤدي الى ظهور الطبقات • ان ظهور علاقة السيد بالمسود في ظروف النظام

البدائي المترهل كان ظاهرة ضرورية وتقدمية من الناحية الاقتصادية • ان حتمية هذه العلاقات تتجلى في أن نمو قوى الانتاج وتوسع التبادل وادارة الأعمال الاجتماعية وتطور العلم والفن وغيرهما في ظروف انتاج غير متطور نسبياً تصبح ممكنة فقط نتيجة للتقسيم المتطور للعمل ، هذا التقسيم القائم على عمل الجماهير الفيزيائي البسيط من جهة ، وعلى الأقلية المتحررة من العمل الانتاجي والتي تقوم بادارة الأعمال الاجتماعية الأخرى من جهة أخرى[1] •

ان التاريخ يعرف ثلاثة نماذج من العلاقات القائمة على الملكية الخاصة : العبودية ، والاقطاعية ، والرأسمالية • ثمة سؤال : لماذا ظهرت التشكيلة العبودية بالذات على أنقاض النظام البدائي وليس غيرها ؟

اذا كان طابع أدوات الانتاج ذات الاستعمال الفردي قد اشترط الانتقال الى العلاقات القائمة على الملكية الخاصة ، فان الانتقال الى نموذج العلاقات العبودية القائمة على الملكية الخاصة يرتبط بمستوى التطور بالذات • فمع أدوات العمل المعدنية وتقسيم العمل تطورت انتاجية العمل الفردي الى درجة ظهور المنتوج الفائض مما جعل استغلال القوى العاملة أمراً مربحاً • وفي الواقع اذا ما انتج الانسان فوق حاجته صار بامكانه أن يمتلك منتوج عمل الآخرين ، اي استغلال الانسان للانسان • لكنه في تلك الفترة التي يدور الحديث حولها كانت انتاجية العمل لا تسمح بتحصيل انتاج فائض الا بتخفيض المنتوج الضروري للرق الى الحد الادنى •

ومن جهة أخرى ، وفي هذا المستوى من تطور أدوات الانتاج كان مجرد الحيازة على وسائل الانتاج لايكفي لامتلاك منتوج عمل الآخرين • فكان من الضروري لهذا تحويل الانسان نفسه الى وسيلة عمل ، الى سلعة من أجل ارغامه على العمل للآخرين • وهذا ما استدعى استخدام الارغام مع العاملين في الانتاج ، فجاءت العبودية كشكل للاستغلال مربح من الناحية الاقتصادية وكانت بهذا أول أشكال للاستغلال وأكثرها وحشية وبدائية وقسوة • لقد نشأ الرق عن طريقين • ففي الحروب الكثيرة في ذلك الوقت كان مصير المغلوب أن يتحول

---

(١) انجلس • أنتي ديورينغ ١٩٥٧ ص ١٧٠ •

الى رقيق ، فكان الرقيق أعظم غنيمة للمنتصر • لكن الحرب لم تكن وحدها مصدراً للرق • فقد كان الناس الذين يثقل كاهلهم الدين يبيعون آباءهم وأبناءهم لسداد ذلك الدين فيتحولون بذلك الى أرقاء • وبكلمات موجزة ان مصدر الدين كان انقسام الجماعة ـ القبيلة ـ الى أغنياء وفقراء •

ان علاقات الانتاج السائدة في مجتمع الرق كانت علاقات استغلال الرقيق من قبل مالكيهم ، علاقات السيد والمسود التي نشأت عن الملكية التامة لأدوات ووسائل الانتاج وللعمال أنفسهم • وعلاوة على هذا فقد وجدت في مجتمع الرق والعبودية الملكية الصغيرة للفلاحين والحرفيين •

وبالرغم من أن عمل الرقيق كان ذا مردود قليل ويعطي قليلا من المنتوج الفائض ، فان استثمار جماهير العبيد الواسعة كان يجلب للمالكين ثروات هائلة، ويخلق الشروط من أجل تطور تقسيم العمل فيما بعد ، وفي الدرجة الأولى ، فصل العمل الذهني عن العمل العضلي ، والمدينة عن القرية ، والحرفة عن زراعة الأرض • ان نظام الرق والعبودية ، اذ كان الاساس لتقسيم العمل الضروري من الوجهة التاريخية ، فانه بهذا خلق الشروط لازدهار ثقافة العالم القديم ، ولتقدم قوى الانتاج ، ولزيادة وتيرات التطور التاريخي • ان تطوير تقسيم العمل الاجتماعي كان أحد الجوانب التقدمية لأسلوب الانتاج العبودي بالمقارنة مع نظام المجتمع البدائي •

ولقد ظهر على أساس العلاقات الانتاجية العبودية بنيان فوقي يختلف نوعياً عن البنيان الفوقي للتشكيلة البدائية التي كانت تعزز علاقات التعاون المتبادل • ومن أجل حماية علاقات السيد والمسود وادارة المجتمع تحتاج الطبقة المسيطرة الى أشكال جديدة ووسائل جديدة • ومن أجل هاتين الغايتين ظهرت الدولة ، لاول مرة ، في التشكيلة العبودية ومعها كل أدوات السلطة ـ الجيش ، والشرطة وجهاز الموظفين ، ونظام القوانين الذي تحرسه الدولة وتعززه • وظهرت العلاقات الحقوقية والعلاقات السياسية أيضاً •

ان فصل العمل الذهني عن العمل العضلي خلق الامكانية لتطوير المعارف

النظرية التي تنمو الحاجة اليها من الانتاج نفسه ، وظهرت بذور العلم • ان تطور الصراع الطبقي والمعارف النظرية • أدى الى ظهور الفلسفة • وتحدث اصلاحات مهمة على صعيد الدين الذي يتحول تدريجياً الى أداة روحية رئيسية لاستعباد الجماهير • وبهذا ، فان انقسام المجتمع الى طبقات يحدث انقلاباً جذرياً في البنيان الفوقي وفي حياة المجتمع الروحية كلها • وفي المجتمع العبودي بالذات ظهرت ، لاول مرة ، كل الأشكال الراهنة للوعي الاجتماعي •

ان ظهور الملكية الفردية أدى بالضرورة الى نسف الروابط الدموية ضمن العشيرة والقبيلة والى اختلاف العشائر والقبائل بعضها ببعض ، والى ظهور شكل جديد لاجتماعية الناس ـ الشعب • ويتميز الشعب بوحدة الأرض العامة واللغة والثقافة • وهو شكل اجتماعي أعلى وأكثر تطوراً من العشيرة والقبيلة ، ثم انه يضم عدداً أكبر من السكان • ان روابط دم القربى تستبدل هنا برابطة الارض الواسعة الواحدة • وان القبائل المختلفة في المجتمع البدائي كانت ضعيفة الصلة بعضها ببعض • وان الشروط الطبيعية القاسية والنزاع مع فئات اخرى من الناس أشد بأساً كانت تودي بسكان كثير من العشائروالقبائل ، وتقضي على ثقافتها المادية والروحية معاً • ان الشعب هو شكل اجتماعي أشد رسوخاً وصموداً • ومع ظهور الشعب تنشأ الشروط الملائمة لضمان استمرار العملية التاريخية ، وهو ، كشكلاجتماعي كثير العدد ، يخلق أحسن الشروط من أجل تطور تقسيم العمل •

ان التلاؤم السابق بين الفئات الانسانية المختلفة يتلاشى فيالمجتمع العبودي، وتنشأ بين الاقوام روبط دائمة ومنتظمة بفضل التجارة خاصة • وعن طريق الحرب والغزوات نشأت دول كبيرة (الامبراطورية الرومانية مثلا) تضم كثيراً من الشعوب • ان هذه الاتحادات القوية ، بالرغم من نشوئها بطرققاسية صعبة، تقوي من تفاعل الشعوب مع بعضها • فصار بعضها يستطيع الآن ان يستعيرويطور منجزات الشعوب الاخرى ••ان كل هذه الظروف من شأنها أنتسرع فيوتيرات التطور التاريخي بالمقارنة مع التشكيلة السابقة •

لكن طابع التطور التاريخي عند الانتقال من التشكيلة البدائية الى تشكيلة الرق والعبودية يتغير بصورة جذرية • فاذا كانت التشكيلة الاولى حرة من التناقضات الطبقية فان كل تطور التشكيلة العبودية يحدث في نظام تطور وحل التناقضات الطبقية الاجتماعية المتنوعة • وان التناقض الرئيسي فيها هو ذلك التناقض الطبقي القائم بين العبيد من جهة ومالكيهم من جهة أخرى • لقد قاوم العبيد الاضطهاد القاسي ، ولم يستطيعوا بالطبع ان يستسلموا لاوضاعهم الصعبة، فكافحوا ضد مالكيهم من أجل التحرر • وكان أكثر أشكال النضال الطبقي حدة الانتفاضات الجماهيرية للعبيد التي زلزلت أسس المجتمع العبودي • وكانت تلك الانتفاضات بأغلبيتها الساحقة تمنى بالفشل وتسحق دونما رحمة • لكنها تمكنت من أن تنسف تدريجياً دعائم المجتمع العبودي وتقوضه •

وبالرغم من أن النظام العبودي كان خطوة الى الامام في التطور التقدمي للمجتمع الانساني ، بالمقارنة مع النظام البدائي ، فانه خلق اطارات جد ضيقة من أجل تطوير قوى الانتاج • ان الاقتصاد العبودي مرتبط بالعلاقة الوحشية مع القوة الانتاجية الرئيسية في المجتمع ـ مع الانسان • ان العبد سلعة تنتقل من يد الى أخرى ، لكن قابليته للعمل ليست سلعة له أو بالاحرى ليست ملكه • ان العبد يباع مع عمله لمالكه مرة واحدة والى الأبد • لقد أوضح ماركس في «رأس المال » أن رأس المال الموضوع لشراء العبد لهو الرأسمال الأساسي • وان الربح فيه هو نسبة الفائدة المتوجبة عليه • ولهذا فان الرأسمال المنفق على شراء العبد يبقى الى أجل طويل ويسترده مالك العبد تقسيطاً • ان الاهتمام الاقتصادي لمالك العبيد ينحصر في التعجيل باسترداد رأس المال ،وبالتالي في الاسراع باعتصار كل ما لدى العبد من امكانيات • ان الاتجاه الاساسي في هذا النظام ليس في تطوير الانتاج وانما في الاستخدام الوحشي للعبيد ولشروط الانتاج الأخرى •

لقد كان وضع العبيد قاسياً جداً ، وكان استثمارهم ذا طابع لا انساني •

ويورد ماركس شهادة أحد الكتاب الأقدمين حول شروط عمل العبيد في التنقيب عن الذهب كمثال •

« ... فليس هنالك ثمة مكان للرحمة أو للعطف على المرضى والعجزة والأطفال الضعاف . ينبغي عليهم جميعاً أن يعملوا تحت جلد السياط ، وان الموت وحده هو الكفيل بانقاذهم من هذه الآلام الفظيعة المريرة »[١] .

ان مالك العبيد يستولي على كل المنتوجات ولا يقدم للعبد منها سوى جزء جد يسير ولا يكفي لسد الحد الأدنى من حاجته الضرورية .

فمن الطبيعي أن يعاني العبد شعور المقت للعمل .

ومن جهة أخرى ، فانه اذا ما كان ثمن العبد زهيداً وكانت انتاجية عمله قليلة فان الأمر يتعدل بالنسبة للمالك . وليس من صالح المالك أن يكون العبد متزوجاً ورب أسرة وأولاد . ان طريق التكاثر الطبيعي كمصدر للعبيد لم يتمتع بانتشار كبير . وكان أسر العبيد بواسطة الحروب ووسائل العنف والقوة الأخرى عملية أكثر ربحاً . فقد كانت الحرب أعظم مزود بالعبيد لكثير من الدول العبودية (اليونانية والرومانية وغيرها) . ولهذا فقد كانت الدول العبودية تشن حروباً مستمرة ، وتقوم بنهب وسلب الشعوب المجاورة ، فكانت تقفر كثير من البلدان من ساكنيها الذين يتحولون الى عبيد .

ولهذا فان المجتمع العبودي يتميز بالأسلوب الوحشي للانتاج ولاستخدام القوى العاملة .

وفي ظروف المجتمع العبودي حدث تطور للقوى المنتجة فيما بعد ، فقد ارتفعت الى مرحلة جديدة . ففيه حدث تحسين في عملية صهر المعادن وصناعة الحديد ، وانتشار المحراث الحديدي ونول النسيج ، وتطور زراعة الارض وانشاء البساتين وصناعة الخمور والزيوت . وعلى هذا الاساس تتغير وتتحسن تجربة ومهارات العمال . وان قوى الانتاج المتطورة تتطلب من الرقيق نوعاً من الاهتمام في العمل . وان العبد الذي تساوى مع الأداة الجامدة كان يعرقل ادخال تكنيك جديد لأنه كان ينظر اليه بعين العداء . ولقد كان العبد يصب جام

---

(١) ماركس وانجلس . المؤلفات . الجزء ٢٣ ص ٢٤٧ .

غضبه ويفرغ نقمته على أدوات العمل ، وغالباً ما كان يقوم بتحطيمها • ولهذا كانت تصنع الأدوات غليظة دونما اهتمام أو مهارة • وكان العبد الذي يعمل تحت العصا ذا انتاجية عمل جد منخفضة • ان ادخال أدوات جديدة أكثر صلاحية كان يتطلب تغيير علاقات الانتاج في المجتمع العبودي • وان الضرورة الاقتصادية كانت مضطرة لرفض العبد كعامل غير ذي مصلحة ولا اهتمام بالعمل • ولقد تجلت هذه الضرورة في التناقض الصارخ الذي كان مصدر تفسخ وانهيار النظام العبودي • وينحصر هذا التناقض في أن العمل (الذي هو الشرط الأساسي لوجود كل مجتمع) يصبح هنا غير قمين بالانسان ، يصير لعنة تنصب على جماهير العبيد • وليس في وسع الناس أن يعيشوا بدون عمل ، لكن في وسعهم أن يعملوا كثيراً ويبقوا عبيدا • وان المخرج من هذا التناقض هو في تحطيم علاقات الانتاج العبودية والطبقات المرتبطة بها ، وفي خلق علاقات انتاجية جديدة تضمن للمنتجين المباشرين ولو جزءاً يسيراً من الاهتمام بالعمل •

التشكيلة الاقطاعية

ويأتي النظام الاقطاعي ليحلّ محل النظام العبودي •

لقد حدّد الضرورة التاريخية في استبدال أسلوب الانتاج العبودي بآخر كل من طابع ومستوى تطور قوى الانتاج في المجتمع العبودي نفسه • وان طابع أدوات العمل (كأدوات للاستخدام الخاص) هو الذي حدّد في النهاية الضرورة التاريخية للملكية الفردية التي خلقت في تلك الظروف اهتماماً في تطوير قوى الانتاج • لكن ديالكتيك التاريخ تجلّى في أن الانتقال الى العلاقات الانتاجية القائمة على الملكية الخاصة حرم ذلك الاهتمام من المنتج المباشر ـ العبد • وان الخطوة التقدمية المهمة التي حققها النظام الاقطاعي في هذا الصدد هي في أنه أعطى المنتج المباشر بعض الدوافع الى العمل •

ان النظام الاقطاعي يشبه النظام العبودي من حيث كونه يعتمد على تكنيك روتيني ضعيف ، وان تطور المجتمع فيه يتم ببطء شديد ، وان أشكال الاستغلال والظلم هي جد قاسية ولا انسانية • لكن التشكيلة الاقطاعية هي جهاز اجتماعي

خاص ، وتحدد مظهره الخارجي علاقات الانتاج القائمة على ملكية الاقطاعيين للأرض كوسيلة انتاج رئيسية ، والأشكال المختلفةلارتباطالفلاحين بالاقطاعيين • والفلاحون لا يملكَون الأرض وانما يشتغلون فيها لحساب الاقطاعي ، وان قسماً كبيراً من أراضي الاقطاعيين أعطي للفلاحين ليشتغلوه دون أن يمتلكوا شيئاً غير بعض الأدوات والماشية •• ويتميز الفلاح في المجتمع الاقطاعي عنالعبد من حيث قدرته على العمل في قسم من الأرض مخصص له ، وبأنه يحصل على حد أدنى من المنتوج الضروري ، لتجديد القوة العاملة•والفلاحون حتى الأقنان منهم كانوا في أغلب الأحيان يتمكنون من أن يصيروا ذوي أسر • ولهذا فان تجديد القوة العاملة هنا لم يكن مرتبطاً بالحروب بصورة حتمية ، ولم يكن ذا طابع وحشي كما كان في النظام العبودي • فاذا كان العبد كالأداة فان الفلاح انسان من الدرك الأسفل •

وبهذا ، فان النظام الاقطاعي ، اذ خلق اهتماماً مادياً ملحوظاً بالعمل لدى المنتج المباشر وشروطاً انتاجية لقوى الانسان العاملة أفضل بالمقارنة مع النظام العبودي ، فانه فتح مجالات أوسع من أجل تطوير قوى الانتاج وصار مرحلة أعلى في التقدم التاريخي بالمقارنة مع نظام الرق والعبودية •

لكن التقدم في عهد الاقطاعية كان ذا طابع تناقضي طبقي • فلقد تحقَّق بالاستغلال الفاحش للكادحين •

ان الاقطاعيين ، اذ يمتلكون الوسائل الأساسية للانتاج ، امتلكوا كذلك العمل الفائض بشكل ريع اقطاعي • لقد عرفت الاقطاعية ثلاثة أشكال للريع : عملياً ، وعينياً ، ونقدياً • والشكلان الاولان منهما يسيطران في فترة تطور الاقطاعية ، والأخير في فترة تفسخها • وبالاضافة الى الريع كان على الفلاح أن يدفع الأتاوات للاقطاعي والضرائب المختلفة للدولة وللكنيسة • وعلى العموم لا يبقى للفلاح من حصة غير النزر اليسير • واذا ما أخذنا بعين الاعتبار التكنيك المنخفض ، والمردود القليل للاقتصاد يصير من الواضح أن نصيب الفلاح يكاد لايذكر • فهو دائماً للشقاء والجوع والمرض • والى جانب هذا فهو لم يكن يتمتع بأي حق سياسي ، وكان مصيره مرتبطاً باستبداد الاقطاعي •

ان البنية الطبقية للمجتمع الاقطاعي جد معقدة • وان الفوارق الطبقية كامنة وراء تقسيم المجتمع الى فئات • والانسان ينتمي منذ ولادته الى فئة معينة : فهو اما أن يكون ملاكاً أو فلاحاً ، تاجراً أو حرفياً •• وهكذا • وان الانتقال من فئة الى أخرى عملية شاقة جداً • وان طبقة الملاكين ورجال الدين هم الذين يسيطرون •

وداخل طبقة الاقطاعيين ذاتها ثمة درجات عريضة من شأنها أن تجعل الملاكين الصغار تحت رحمة الملاكين الكبار •

وعلى صعيد البنيان الفوقي نجد أن السيطرة الاقتصادية لطبقة الاقطاعيين تتشح بثياب ايديولوجية وسياسية معينة • وان مايميز الدولة الاقطاعية نظام الحكم المطلق ، ومن الناحية الايديولوجية يكون الدين وحده صاحب السيادة دون منازع • ان الدولة والكنيسة هما الجهازان الجبّاران المسيطران على المجتمع ، واللذان يحميان ملكية ومصالح الطبقة المسيطرة • ان الظلم الاقتصادي الفاحش وحرمان الفلاحين من حقوقهم حرماناً تاماً أدى الى احتجاج الفلاحين• ان تاريخ الاقطاعية هو تاريخ نضال الفلاحين المستمر ضد الاقطاعيين من أجل تحريرهم من التبعية الاقطاعية • واشكال هذا النضال مختلفة بدءاً من هروب الفلاحين الى الانتفاضات المسلّحة الشاملة لأقاليم كبيرة • لكن نضال الفلاحين كان يمنى دائماً بالفشل لأنهم كانوا يعتمدون على حماسهم دون التنظيم ، ولم يكن لديهم اهداف سياسية واضحة •

ان ما يميز الحركات الجماهيرية في القرون الوسطى هو أنها في معظمها كانت تقوم تحت راية الدين • ففي تلك الفترة ، كما يقول انجلس ، كانت مشاعر الجماهير مشبعة بالدين ، ومن أجل أن تتقبل الجماهير هذه الفكرة أو تلك كان ينبغي أن تلبس لبوساً دينياً • وبناء على ذلك قامت كثير من الحروب والحركات والسخافات الدينية •• وغيرها ، لكنه تحت ستار الدين كان يكمن الاحتجاج الحقيقي ضد الظلم والاستغلال ، وضد النظم القائمة • ان الاقطاعيين الدينيين والدنيويين كانوا يقومون بتصفية المتمردين دونما شفقة ، وكانوا

يغرقون بالدم كل محاولة من قبل المضطهدين للنضال من أجل حقوقهم • وعلى أية حال فلم يكن ذلك النضال عديم الأثر ، فقد زعزع دعائم النظام الاقطاعي وأدناه من ساعة نهايته •

ان تطور الاقطاعية خلال مئات السنين كان يجري ببطء وبصورة تدريجية•

لقد انطلقت الاقطاعية من القرية ، التي كانت تسيطر على المدينة • ان الانتاج الحرفي في المدينة ، وخاصة في مراحل الاقطاعية الاولى ، يكون أقلّ شأنا بالمقارنة مع الزراعة •

لقد كان لهذه الخصائص جميعاً أثرها الخاص على عملية الانتقال من النظام العبودي الى الاقطاعي • ففي أوروبا الغربية ، مثلا ، رافق سقوط الامبراطورية الرومانية وظهور الاقطاعية تحطيم تام للقوى المنتجة وتدهور كامل في التجارة وأقفرت المدن وتدهورت الثقافة ••• الخ •

لقد كان هذا يرتبط باحتلال روما من قبل القبائل التي كانت تقف على درجة أدنى من التطوّر التاريخي ـ درجة تفسخ النظام القبلي • وفي البلدان الأخرى ، حيث لم يحدث شيء من هذا القبيل ، كان الانتقال الى النظام الاقطاعي يرافقه نمو في الاقتصاد الطبيعي وتقوية لكل ماهو ملك خاص ، وتدهور للثقافة وغير ذلك من الأمور الأخرى • وكان ينبغي أن تمرّ قرون كاملة قبل أن تكشف الاقطاعية عن قواها أمام النظام العبودي • ومع تطور الاقطاعية بدأت تنتعش المدن ،ليس كمراكز سياسية ودينية فقط،وانما كمراكز حرفية وتجارية• وقوي التقسيم الاجتماعي للعمل • وفي عصر الاقطاعية حدثت عمليات تمليك لمساحات كبيرة من الأراضي مما كون الرابطة الاجتماعية المتينة الواسعة ـ الشعب • ان الشعب يبقى شكلا كبيراً لتجمع الناس في عهد الاقطاعية • لكنه يتشكل هنا على أساس تطور قوى الانتاج وعلاقات اجتماعية جديدة ذات مستوى أعلى مما كانت عليه في المجتمع العبودي • ويصبح الشكل الاجتماعي الجديد ـ الشعب ـ أكثر عدداً وديمومة مما كان عليه الشكل السابق • والأمر الرئيسي هنا هو في أن علاقات الانتاج الاقطاعية لا تحول المنتج المباشر الى شيء ،وبالتالي،

فهي تخلق الامكانية لتكون الشعب الذي يضم الطبقات المسيطرة والطبقات المظلومة المضطهدة • وفي عهد الاقطاعية تتهيأ المنطلقات للانتقال الى شكل أعلى لاجتماعية الناس ـ شكل الأمة البورجوازية • لقد كانت الشعوبية بالذات في المجتمع الاقطاعي الأساس الذي قامت عليه الأمم فيما بعد •

لقد حققت قوى الانتاج خطوة تقدمية جديدة في عهد الاقطاعية • ولقد تطورت الحرفة وتحسن تكنيك الزراعة • وفي حدود النظام الاقطاعي تهيأت الشروط لقفزة هائلة في تطور قوى الانتاج ـ من أجل ظهور الانتاج الآلي •

وان تطور العلاقات السلعية ـ النقدية ، وتطور التجارة ، وتفسخ الاقتصاد الطبيعي المرتبط بنمو الأهداف وبالاكتشافات الجغرافية الجديدة وغيرها ، أدى الى دفع التطور العام الى الأمام • ان الانتاج الحرفي الذي يبلغ درجة عالية من التطور في فترة ازدهار النظام الاقطاعي لا يقدر على سد الحاجات المتزايدة ، كما أن امكانيات توسعه جد محدودة • ان تقسيم العمل في الانتاج الحرفي يكون بين الحرف المختلفة ، لكنه لايتجاوز الحد الى داخل الحرفة الواحدة بالذات• ان مصادر المواد الأولية وأسواقها جد معينة ومحدودة • وان قيود الانتاج ككل كانت تعرقل تطور الحرفة • وكانت متطلبات السوق تستدعي الى الحياة قوة انتاجية جديدة ـ التعاونيات والمانيفاكتورة •

لقد أعطت التعاونية البسيطة قفزة نوعية في انتاجية العمل ، لكن ظهور المانيفاكتورات كان له أهمية خاصة • وتحقق المانيفاكتورة ما لم تستطع الحرفة تحقيقه ـ التقسيم الجزئي للعمل لدى انتاج سلعة معينة • ويقوم الانتاج على كثير من العمليات الصغيرة التي يقوم بكل منها انسان معين • ان تقسيم عملية الانتاج الى عمليات جزئية يضاعف ـ أولا ـ انتاجية العمل ، ويخلق ـ ثانياً ـ المنطلقات لاستبدال أعمال الانسان بحركة الآلة العاملة • وبهذا ، فان تطور المانيفاكتورة يهيء المنطلقات لظهور الانتاج الآلي •

ولقد دخلت قوى الانتاج الجديدة التي ولدت في أحضان النظام الاقطاعي في تناقض علاقات الانتاج الاقطاعية • ولقد عرقلت الاقطاعيـة تطور التجـارة

ونشاط المؤسسات • فكان الاقطاعيون يعتبرون العمل في الصناعة والتجارة عملا محتقراً بينما كانت البورجوازية الوليدة محرومة من حقوقها ، وكان عليها أن تدفع الى الاقطاعيين لقاء كل شيء • وان عدمالاستقلال الشخصي للفلاحين كان يقف عائقاً أمام نشوء السوق أمام القوى العاملة الحرة التي كانت تفتقر الصناعة اليها • ان شكل الملكية الاقطاعي مع نظام التقسيم الاجتماعي الخاص بها ونظام الحكم المطلق يدخل في تناقض مع متطلبات تطور قوى الانتاج • وعلى أساس قوى الانتاج الجديدة وضمن اطار التشكيلةالاقطاعية تبدأ التطور علاقاتانتاجية رأسمالية جديدة • ان ظهور القطاع الرأسمالي كان يعني نهايـة الاقطاعيـة ، وأنها صارت عائقاً أمام تطور الانتاج المقبل • ومع تطور القطاع الجديد كانت عملية تقويض القاعدة الاقطاعية وبنيانها الفوقي يتم بصورة متباينـة من حيث شدتها • وكان على الاقطاعية أن تتخلّى عن مكانها للتشكيلة الجديدة •

التشكيلة الرأسمالية

كانت الرأسمالية المرحلة القانونية التقدمية التالية للاقطاعية في العملية التاريخية • ان قـوى الانتاج الجديدة ـ التعاونية البسيطة ، والمانيفاكتورة ثم الصناعة الضخمة ـ تطلبت قيام علاقات انتاجية جديدة • وان تسوية وضـع الانتاج في المانيفاكتورة وفي المعمل كانت تستلزم رأس مال معين وأيدي عاملة حرة ، وازاحة العراقيل أمام تطور التجارة وغيرها• ولقد وجدتهذه المنطلقات للاقتصاد الرأسمالي في عملية التجميعالرأسمالي الأول الذي ينحصر جوهرهفي انتزاع وسائل الانتاج من يد المنتج المبـاشر ـ الفلاح ، والحرفي ، واسـتيلاء البورجوازية عليها • لقد فضحت الماركسية الاسطورة البورجوازية القائلة بأن ثروات الرأسماليين كانت تقوم عـلى جهودهم الخاصة • ان سلب واخضـاع المنتجين الصغار للسلع ، وطرد الفلاحين من الأرض والقسر الاقتصادي المباشر، كل هذا كان من أجل فصل المنتج عن وسائل العمل • ان عملية ظهورالرأسمالية ـ حسب تعبير ماركس ـ محفورة في التاريخ بالسيف وبأحرف من نار • لقد كانت نتائج التجميع الرأسمالي الأول تتجلّى في تمركز وسـائل الانتـاج

واستقطاب الثروات في أيدي الرأسماليين ونشوء سوق حرة للايدي العاملة ، أي لأولئك الناس المحرومين من وسائل الانتاج ووسائل المعيشة •

ان ملكية الرأسماليين لوسائل الانتاج وحرمان المنتجين منها تشكل أساس علاقات الانتاج الرأسمالية •

وان شكل الملكية الرأسمالي يشرط انقسام المجتمع الى طبقتين رئيسيتين: البورجوازية والبروليتاريا ، ويشرط كذلك علاقة السيد بالمسود القائمة بين هاتين الطبقتين ـ استغلال العمال من قبل الرأسماليين •

ان الانتاج الرأسمالي هو انتاج سلعي متطور حيث تكون القوة العاملة سلعة كذلك بالاضافة الى سلع الاستهلاك ووسائل الانتاج •

وتتحقق وحدة المنتج مع وسائل الانتاج في شكل الرأسمال وعن طريق بيع قوة العمل للرأسمالي •

فالعبد يباع كالسلعة ، والعامل يبيع قوة عمله والرأسمالي يشتريها من أجل الحصول على فضل القيمة الناتج • ان الضرورة الاقتصادية تسمر ارتباط العامل بالرأسمالي بصورة أقوى من تسمير مطرقة زيوس لبروميثيوس على الصخرة • ويستطيع العبد أو القن أن يهرب من مالكه لكنه ليس ثمة مهرب للعامل من الرأسمالي • فعليه ان يختار بين العمل لحساب الرأسمالي وبين الموت جوعاً • ان جوهر الاستغلال الرأسمالي ينحصر في القيمة الزائدة التي تنتجها الطبقة العاملة ، والتي تؤلف مصدر الغنى لطبقة الرأسماليين •

ان الشكل الرأسمالي للملكية يحدد الحقيقة القائلة بأن الدافع المحرك للانتاج الرأسمالي هو عدو الرأسماليين خلف القيمة الزائدة التي يبتزونها كشكل من أشكال الربح • ان العدو وراء الربح في ظروف الانتاج الفوضوي لابد من أن يولد التنافس بين الرأسماليين الذين يحاول كل منهم فيه قهر منافسه • ان الرأسمالي هو رأسمال مشخَّص، أي انه في جوهره علاقةاجتماعية معينة • ولقد بين ماركس في « رأس المال » بقوة واقناع عظيمين كيف أن علاقات الانتاج الرأسمالية والقوانين الاقتصادية التي تعمل على أساسها ، وخاصة قانون

التنافس ، تجعل الكفاح المستمر من أجل مضاعفة رأس المال ضرورة خارجية لكل رأسمالي • فالرأسمالي لايتمكن من المحافظة على رأس المال بدون مضاعفته، والاّ فهو سوف يُداس في حلبة الصراع التنافسي ولن يبقى رأسمالياً • ولهذا يُدخل الرأسمالي التكنيك الجديد الى المؤسسات ، ويطور قوى الانتاج فقط عندما يفضي به هذا الى نمو رأس المال ومضاعفة الربح • وعلى العكس ، فهو على استعداد لأن يرفض التكنيك الجديد اذا لم يعد هذا الأخير بمضاعفة الأرباح•

ان الرأسمالية تحتاج الى السوق الواسعة من أجل تصريف الانتاج•وهي توحد الأسواق المحلية الصغيرة في سوق وطنيــة كبيرة • وعلى أساس هــذه الاجتماعية الاقتصادية تنشأ اجتماعية للناس جديدة وأكثر تطوراً ـ الأمة•وتتميز الأمة باجتماعية الحياة الاقتصادية التي يقدر على تكوينها الانتاج الرأسمالي فقط بتقسيمه الواسع للعمل وصلاته التجارية المتطورة ••• وغيرها •

ان تغير علاقات الانتاج الاقطاعية الى علاقات رأسمالية يؤدي الى اعــادة تركيب البنيان الفوقي الذي يؤدي بدوره مع ملاءمته للقاعدة الجديدة الى تغير وجه المجتمع ككل •

وفي لهيب الثورات البورجوازية تزول الحواجز الاجتماعية الاقطاعية ، وترفع شعار مساواة الجميع أمــام القانون ، ويتبدل نظام الحكم المطلق بنظام حكم دستوري بورجوازي أو بجمهورية الديموقراطية البورجوازية البرلمانية•

ان الديموقراطية البورجوازية ترفع شعار الفردية وتصــوره كحرية تامة للفرد • وفي الواقع لايمكن أن يكون الفرد حراً في مجتمع يسيطر فيــه رأس المال ، في مجتمع كل شيء فيه يقدر بالمال ، وكل شيء يباع ويشرى • وان قيمة الانسان في مثل هذا المجتمع يحددها رأسماله فقط •

ان الديموقراطية البورجوازية ترفع شعار المساواة • لكن هذه المساواة ذات طابع شكلي محض لأن أساس المجتمع ذاته هو العلاقة غير المتساوية بوسائل الانتاج ، وعدم المساواة الاقتصادية • ان الايديولوجية البورجوازية ، اذ تبذر بذور الأوهام حول حقيقة العلاقات الرأسمالية ، هي في أساسها ايديولوجية غير علمية •

ويحدث تغير في العلاقات بين الأشكال الايديولوجية كذلك .

وبالرغم من أن الدين يستمر في أداء دوره المهم في عملية استعباد الجماهير الروحي ، لكنه يتخلى عن مركزه المسيطر على الوعي وعلى الأشكال الأخرى . وتحتل المركز الأول الايديولوجيا السياسية والحقوقية .

ومع تطور القوى المنتجة الجديدة ،وعلى أساسها ،تتقدم العلوم : الطبيعية، والرياضيات ، والعلوم التكنيكية . وتزيح الرأسمالية العراقيل الكثيرة من درب تطور العلوم الطبيعية التي كان قد وضعها المجتمع من قبل لأن البورجوازية بأمس الحاجة الى العلم . لكنها تفتقر الى الدين كذلك ، ولهـذا فان فكرة تعايش الدين والعلم على أساس الفلسفة المثالية واسعة الانتشار .

هكذا فمع تثبيت أسلوب الانتاج الرأسمالي تتوطد جميع نواحي الحياة الاجتماعية الأخرى التي تتلاءم معه ومع متطلباته .

ان التشكيلة الرأسمالية ، ككل التشكيلات الاجتماعية القائمة على الملكية الخاصة ، هي تشـكيلة طبقية متناقضـة . وترافق تطـور المجتمـع الرأسمالي تناقضات عميقة حادة ، وان التناقض الأساسي فيها هو ذلك القائم بين الطبقتين الأساسيتين في المجتمع الرأسمالي ـ البروليتاريا والبورجوازية .

ان الظلم والاستغلال يولد احتجاجاً لدى الطبقة العاملة التي تندفع للنضال ضد الرأسماليين نتيجة لظروف حياتها . فتظهر الحركة العمالية ، وتبدأ بحركة عفوية للعمال الذين يناضلون من أجل تحسين ظروف معيشتهم ، ثم تبدأ الطبقة العاملة باستخدام أشكال النضال السياسي فيما بعـد . ومع تطور الرأسماليـة والنضال الطبقي للبروليتاريا ضد البورجوازية ، وعندما تكتشف الطبقة العاملة نفسها كقوة ثورية ، تظهر الايديولوجيا العلمية للبروليتاريا ـ الماركسية ـ التي تعلمها وعي مصالحها وقوانين تطور المجتمع ، وتبين لها طرق وأهداف النضال .

لقد درس ماركس وانجلس التشكيلة الاجتماعيـة الرأسمالية وقوانـين تطورها دراسة عميقة ، فقد تناولتها الماركسية في التحليل من الوجهة التاريخية .

ان علاقات الانتاج الرأسمالية تكون في البدء ملائمة لقوى الانتاج وتخدم كمصدر قوي لتطورها .

ان أوروبا هي مهد الرأسمالية . فقد كان القرن السادس عشر فيها يمثل بداية العصر الرأسمالي ، بينما الفترة الواقعة ما بين القرنين السابع عشر والتاسع عشر كانت تمثل فترة تثبيت سيطرة البورجوازية . وفي الفترة ما بين القرنين الثامن عشر والتاسع عشر حدثت قفزة هائلة في تطور قوى الانتاج مرتبطة بظهور الصناعة الآلية . فاذا كان العمل بواسطة الأدوات الحرفية ممكناً بشكل فردي ففي الانتاج الآلي نجد أن وحدة الناس في عملية العمل تصبح ضرورة تكنيكية. ان الانتاج الآلي يعطي زيادة كبيرة في انتاجية العمل . ولهذا فان ادخال الآلات يؤدي الى تغير جذري في قاعدة المجتمع المادية التكنيكية ، والى ظهور قوى انتاجية جديدة من حيث نوعيتها . لقد أكد مارس في «رأس المال» أن الرأسمالية تحدث انقلابات مستمرة في تكنيك الانتاج ، وفي تقسيم العمل والعلاقات المتبادلة بين فروع الانتاج المختلفة بواسطة الآلات .

لقد بدأ الانتاج الآلي يتطور لأول مرة في القرن الثامن عشر في انكلترا . وان ميزة الصناعة الرأسمالية هي في ادخال الآلات في الصناعة الخفيفة أولا ، ومع اختراع الآلة البخارية بدأ الانتاج الآلي يتطور بسـرعة عاصفة في كثير من البلدان ، وبدأ يشمل فروعاً جديدة من الانتاج مع تقدم الأيام .

لكن تشكيل الأساس المادي التكنيكي للرأسمالية يتم عندما يمتلك الانتاج الرأسمالي القاعدة التكنيكية ، أي ، عندما تبدأ الآلات بانتاج الآلات . لقد ظهرت الصناعة الثقيلة في بلدان أوروبا في أواسط القرن التاسع عشر . ومنذ ذلك الزمن والرأسمالي يحصل على وسائل هائلة من أجل اشباع نهمه الجشع عن طريق توسيع الانتاج وتشديد الاستغلال . لكن بلوغ هذه النقطة في تطور الانتاج ذو أهمية جوهرية بالنسبة الى مصير الرأسمالية . ان مهمة الرأسمالية التاريخية - وكذلك خاصتها وميزتها عن التشكيلات الأخرى - هي في هذا التطوير لقوى الانتاج الذي يمنح عملية الانتاج ذاتها طابعاً اجتماعياً . ولقد حُلَّت هذه المسألة

عندما تمّ قيام الانتاج الآلي • ومنذ ذلك الوقت بـدأت تتكشف أكثر فأكثـر التناقضات الطبقية في الرأسمالية التي تبلغ القمة حيث تتدلى أغصان نموها الى الأسفل •

لقد وضع ماركس فكرتـه العميقة حول الطابع العابر للرأسمالية التي يصورها أنصارها كأفضل نظام • ان الرأسمالية ليست خالدة لأنه مع تطورها تتجمع فيها عناصر نفيها ذاتها • ان مصدر هلاك الرأسمالية هو التناقض الذي تولده بين الطابع الاجتماعي لعملية الانتاج وشكل الملكية الرأسمالية الخاصة •

ان الرأسمالية تمنح عملية الانتاج طابعاً اجتماعياً • وان المنتوج المصنوع في معمل أو مصنع رأسمالي هو نتاج عمل مجموعـة من الناس • ان التقسيم الواسع للعمل ، ليس في المعامل والمصانع وحسب ، وانما بين فـروع الانتـاج المختلفة يضم الاقتصاد الشعبي بروابط انتاجية في نظام واحد ، ويقيم علاقة عضوية بين أشكال الانتاج المختلفة ، وان ما يلائم وضع قوى الانتاج هـذا ليست الملكية الخاصة بل الملكية الاجتماعية لوسائل الانتاج •

ثم ان مستوى انتاجية العمل الذي يتحقق بمساعدة الصناعة الآلية يسمح بتقليص زمن العمل عند جماهير الشغيلة لانفاق الباقي في العمل الفكري من أجل تطور العلم والثقافة وغيرهما • ان وجود الاستغلال والطبقات المستغلة في هذه الظروف ليس زائداً وحسب بل ومصراً في عملية تطور الانتاج المقبلة • وهذا يعني أن الرأسمالية تهيء المنطلقات الضرورية للقضاء على الاستغلال والملكية الخاصة بوجه عام • ان الملكية الاجتماعية تلائم الطابع الجديد لقوى الانتـاج ، بينما الملكية الخاصة تتحول من شكل لتطور القوى المنتجة الى عائق لها • وان الحفاظ على الملكية الرأسمالية الخاصة فيما بعـد يعرقل تطـور قوى الانتـاج والمجتمع بأسره •

ان التناقض بين الطابع الاجتماعي للانتاج والشكل الخاص للملكية يتجلّى ، قبل كل شيء وبشكل دوري ، في أزمات الانتاج المتكررة • وسبب هذه الأزمات ان الانتاج الرأسمالي القابل للتوسع السريع نسبياً يصطدم أخيراً بقدرة الجماهير

الشرائية المنخفضة وبالسوق الضيقة • ونتيجة لذلك تكسد السلع ، ويتدهور الانتاج ، وتنمو البطالة ، الى آخر ما هنالك •

وان التناقض بين الطابع الاجتماعي لعملية الانتاج والشكل الخاص للملكية يتجلَّى في النضال الطبقي للبروليتاريا ضد البورجوازية •

ومع تطور الرأسمالية يشتد استقطاب المجتمع الى أغنياء وفقراء وتتم عملية افقار الطبقة العاملة ، وتتجمع الثروات الكبيرة في أيدي الرأسماليين • وان هذا يعني أن الرأسمالية ، في سير تطورها ، تهيء تلك القوى الاجتماعية التي تتمكن من القضاء على العلاقات الرأسمالية الهرمة ومن حل النزاع القائم بين قوى الانتاج وعلاقات الانتاج •

ان القضاء على الرأسمالية يهم كل الكادحين ـ العمال ، والفلاحين ، وقسماً كبيراً من المثقفين • لكن البروليتاريا هي القوة الثورية الرئيسية في المجتمع الرأسمالي • ان تطور الرأسمالية يجمع جماهير العمال في المعامل والمصانع • ان ظلم الاستغلال الرأسمالي الذي لا يطاق يدفع العمال للنضال ضد الرأسمالية ، وان الشرط الموضوعي لتحرر البروليتاريا هو في استبدال الملكية الرأسمالية الخاصة بملكية اجتماعية اشتراكية •

ان القضاء على الرأسمالية هو المهمة العالمية التاريخية للبروليتاريا • وان البروليتاريا بالذات هي المؤهلة لقيادة نضال العمال من أجل الاشتراكية •

ان تناقضات الرأسمالية تتفاقم في أعلى مراحل تطورها ـ في مرحلة الامبريالية التي دخلتها الرأسمالية في أواخر القرن التاسع عشر وبداية العشرين • ولقد درس لينين هذا العصر دراسة عميقة وتابع تحليل الرأسمالية الذي جاء به ماركس • لقد أثبت لينين ان استبدال المنافسة الحرة بالاحتكارات ، والانتقال من الرأسمالية ماقبل الاحتكارات الى الرأسمالية الاحتكارية يعني بدء الانحدار نحو الجمود والتفسخ ، وتعبيراً عن سقوط الرأسمالية • ان الامبريالية هي المرحلة الأخيرة التي تتوج وجود التشكيلة الاجتماعية الرأسمالية • وفي تلك الأثناء ، عندما كانت الدعاية البورجوازية تتيه اعجاباً وزهواً ، وتمجد منجزات « المدنية

الغربية » وتطري عليهـا ، كانت الماركسية اللينينية تكشف عن انحلال ذلك المجتمع وتؤكد ، بتحليل علمي ، حتمية هذا بالنسبة للرأسمالية • وقبيل بداية القرن العشرين قامت الدول الرأسمالية الكبرى بتقسيم العالم فيما بينها • وظهر النظام الاستعماري للامبريالية ومعه التناقض الحاد بين المستعمر (الوطن الأم) وبين شعوب المستعمرات المغلوبة على أمرها والمناضلة من أجل التحرير •

ولأول مرة في التاريخ تنشىء الرأسمالية نظاماً اقتصادياً عالمياً واحداً ، وسوقاً عالمية واحدة وتجرف كل شعوب العالم مع تيار التطور الرأسمالي • وان تاريخ المجتمع في عهد الرأسمالية ليس عبارة عن تاريخ لفئات معينة من الناس او لبعض القطاعات البشرية المعينة ، وانما هو تاريخ عالمي واحد حيث تتعلق حياة شعب من الشعوب بحياة الشعوب الاخرى جميعها • وفي هذه الظروف يكون كل تغيير يطرأ على نسبة القوى من شأنه أن يفاقم التناقضـات بين البلـدان الرأسمالية ويستدعي صراعاً من أجل تقسيم العالم • ان اقتصاد الامبريالية هو مصدر الحروب التي نشبت عندما لم تكن ثمة قوة أخرى بعد قادرة على ردع الدوافع العدوانية للامبرياليين •

والى جانب هذا ، فالانتقال الى الامبريالية يعني أن النظام الرأسمالي كله صار ناضجاً من أجل قيام الثورة•ان رأسمالية الدولة الاحتكارية ، اذ تـمركز الوسائل الأساسية للانتاج في أيدي حفنة ضيقة من أساطين رأس المال الكبار ، تخلق كل المنطلقات المادية الضرورية من أجل القضاء عـلى الملكية الخاصـة واستبدال الراسمالية بالاشتراكية • ان التشكيلة الاجتماعية الرأسمالية تمر خلال مراحل كثـيرة في تطورها : فترة التجميع الأوليْ لرأس المال وظهور القطاع الرأسمالي في أحضان المجتمع القديم ؛ وفترة المزاحمة الحرة عندما كانت الرأسمالية في أوج قواها وعندما أقرها العالم نظاماً اجتماعياً مسيطراً ؛ وأخيراً، فترة الامبريالية ، عندما شاخت الرأسمالية واستنفدت كل طاقاتها وبدأت تسير الى نهايتها المحتومة • وفي وقتنا الراهن تعيش الانسانية فترة نهاية الرأسمالية حيث ينهار نهائياً الاحتياطي الرئيسي ونقطة الاسـتناد للامبرياليـة ـ نظامها الاستعماري ، وحيث يتسع يوماً بعد يوم غضب ونقمة الجماهير الشعبية عـلى

سيطرة الاحتكارات ، وحيث يتعزز النظام الاشتراكي العالمي ويتقدم تقدماً عاصفاً الى الأمام بعد أن أصبح العامل الحاسم في تطور المجتمع الانساني •[1] ان العصر الحالي هو عصر الانتقال من الرأسمالية الى الشيوعية •

التشكيلة الشيوعيـــة

ان الانتقال من التشكيلة الرأسمالية الى التشكيلة الشيوعية هــو أعظم وأعمق تحول اجتماعي في تاريخ الانسانية •

ان العملية التاريخية لقيام وتطور التشكيلة الشيوعية تشمل ثلاث مراحل معروفة متعاقبة : المرحلة الانتقالية ،والاشتراكية ــ المرحلة السفلى من التشكيلة الشيوعية ــ والشيوعية •

لقد برهن ماركس وانجلس عنـــد دراســـتهما لشـــروط الانتقال مـــن الرأسمالية الى الاشتراكية أن تحقيق الملكية الاجتماعية لوسائل الانتاج يمكن فقط عن طريق الثورة الاشتراكية وقيام دكتاتورية البروليتاريا •

ان المهمة الرئيسية للثورة الاشتراكية ، بدءاً من استيلاء البروليتاريا على السلطة السياسية ، هي في بنـــاء اقتصاد اشتراكي جديد • ان الطبقة العاملة تقضي على الرأسمالية وتبني الاشتراكية في وحدتها مع جميع الجماهير الكادحة في الريف والمدينة • ان الثورة الاشتراكية هي ثورة أغلبية السكان ، وتمثل مصالح الأغلبية الساحقة ، مصالح الشعب كله •

ولابد من فترة زمنية معينة من أجل السير بالثورة حتى النهاية ــ القضاء التام على الطبقات المستغلة ، وتحويل الاقتصادات الصغيرة للفلاحين والحرفيين الى الاقتصاد الاشتراكي الكبير ، ورفع المستوى الثقافي للشعب كله •• وغير ذلك ، أي تأكيد سيطرة العلاقات الاشتراكية في ميادين الحياة الاجتماعية • ان هذه الفترة الانتقالية من الرأسمالية الى الاشتراكية ضرورية لكل بلد يختار الطريق الاشتراكي • وان لهذة الفترة خصائصها في كل بلد ، وهي تتعلق

---

(١) « وثائق النضال من أجل السلام والديموقراطية والاشتراكية » ص ٣٩ •

بالشروط التاريخية لتطوره ،وبخصائصه القومية ، ومستوى نضوجه الاقتصادي قبل الثورة الاشتراكية •• والى غير ذلك • لكنه ثمة قوانين عامة للانتقال من الرأسمالية الى الاشتراكية • ولقد صيغت هذه القوانين في البيان الصادر عن مؤتمر الأحزاب الشيوعية والعمالية للبلدان الاشتراكية الذي يعمم تجربة بناء الاشتراكية في الاتحاد السوفييتي والبلدان الاشتراكية الأخرى • وان تلك القوانين هي : قيادة الطبقة العاملة وحزبها الماركسي اللينيني للجماهير الكادحة للثورة الاشتراكية وقيام دكتاتورية البروليتاريا في هذا الشكل أو ذاك ؛ اتحاد الطبقة العاملة مع الجماهير الرئيسية للفلاحين وفئات الكادحين الأخرى ؛ القضاء على الملكية الرأسمالية وتحقيق الملكية الاجتماعية لوسائل الانتاج الأساسية ، والقيام بالتحويل الاشتراكي التدريجي للزراعة ؛ التطوير المنهجي للاقتصاد الشعبي الموجّه الى بناء الاشتراكية والشيوعية ، والى رفع مستوى المعيشة للجماهير الكادحة ؛ تحقيق الثورة الثقافية التي تتضمن خلق طبقة جديدة من المثقفين الشعبيين ، ورفع المستوى الثقافي للشعب كله ؛ القضاء على الاضطهاد القومي ، وتحقيق المساواة الحقيقية والصداقة والاخاء بين جميع الشعوب ؛ حماية المنجزات الاشتراكية من الأعداء الخارجيين والداخليين ؛ تضامن الطبقة العاملة لهذا البلد مع الطبقة العاملة في البلدان الأخرى على أساس مبادىء الأممية البروليتارية •

وتتميز الاشتراكية بالملكية الاجتماعية لوسائل الانتاج ، وبعلاقات التعاون الرفاقي بين الناس المتحررين من الاستغلال في الانتاج وميادين النشاط الاجتماعي الأخرى •وهنا يبقي المجتمع فقط على الملكية الفردية لموادالاستهلاك ويحميها ، هذه الملكية التي لايمكن أن تكون مصدراً للاستغلال ؛ وهنا يسود مبدأ « من لا يعمل لا يأكل » ، وقانون التوزيع « لكل حسب كمية ونوعية عمله » • ان هـذه العلاقات تلائم طابع ومستوى تطور القوى المنتجة • والرأسمالية ، اذ تمنح القوى المنتجة طابعاً اجتماعياً ، فانها حتى في البلدان الأكثر تطوراً تبقي على عدم التناسق والمساواة بين فروع الاقتصاد المختلفة ـ الصناعة والزراعة ، الصناعة الثقيلة والصناعة الخفيفة وغيرها ، من حيث

تزويدها بالتكنيك • ومن أجل خلق القاعدة المادية التكنيكية للاشتراكية لابد من القضاء على عدم التناسق ذاك ، واقامة قاعدة صناعية حديثة لكل فروع الصناعة • وان خلق القاعدة المادية التكنيكية للاشتراكية في البلدان المتوسطة التطور والمتخلفة يتطلب اعادة تزويد الاقتصاد الشعبي كله بالتكنيك واقامة صناعة حديثة • والاشتراكية اذ تصفي قانون عدم المساواة ، فانها بالمقارنة مع الرأسمالية تحقق تطور القاعدة المادية التكنيكية للمجتمع ، وتقوي بهذا الطابع الاجتماعي لقوى الانتاج التي لم تعد تتلاءم مع شكل الملكية الخاصة لوسائل الانتاج، ولاتكفي لتأمين وفرة كاملة في مواد الاستهلاك • ولسد حاجات جماهير الشغيلة•

ان الملكية الاجتماعية ، اذ تخضع تطور الانتاج لمصالح المجتمع كله وتضع الناس جميعاً في علاقة متساوية مع وسائل الانتاج ، تخلق أساساً مادياً من أجل تطوير كل فروع الاقتصاد الشعبي تطويراً منهجياً منسقاً ، ومن أجل القضاء على عدم التناسق في الاقتصاد وابعاد التأثير العفوي لقوانين التطور الاقتصادي وتولد اهتماماً مادياً لدى جماهير الشغيلة بتطور الانتاج ، ودوافع أخلاقية جديدة للعمل ، وهي المصدر القوي لتطور قوى الانتاج الحديثة • وهذا كله يحدد الوتيرات المرتفعة للتطور الاقتصادي التي تتفوق على الوتيرات الرأسمالية • ومع الانتقال الى الاشتراكية وتشغيل الجماهير الكادحة في انتاج واع مبرمج لأشكال جديدة للحياة لاترتفع وتيرات التطور الاقتصادي وحسب بل ، وتيرات التطور الخارجي برمته أيضاً • فاذا كانت الاقطاعية قد سادت أوروبا زهاء ٥٠٠ سنة ، واذا كان انتصار الرأسمالية عليها قد شغل ٣٠٠ سنة ، فان بناء الاشتراكية في بلدنا قد تم في أقل من ٢٠ عاماً ، وخلال الثلاثين عاماً الأولى بعد ثورة أوكتوبر ظهر المعسكر الاشتراكي الجبار •

ان الديموقراطية الاشتراكية ـ الديموقراطية التامة لكل الكادحين ـ وسيطرة الايديولوجيا الماركسية اللينينية ، هما البنيان الفوقي للقاعدة الاشتراكية • وان اشراك الجماهير المتزايد في ادارة الدولة الاشتراكية والنمو الدائم لمبادرات الجماهير الخلاقة ، والمشاركة الفعالة في القضايا الاجتماعية ـ الحرية والمساواة ،

، والتفاف الجماهير حول الأحزاب الشيوعية القائدة سياسياً للمجتمع ، ـ هذه هي الخصائص المميزة للديموقراطية الاشتراكية •

ان الايديولوجيــة الماركسية اللينينية العلميــة لاتعبر فقط عن المصالح الجذرية للجماهير الكادحة وانما هي تتيح لهم فهم مجالات التطور الاجتماعي التي تحددها قوانين العملية التاريخية • ان قانون تطور الاشتراكية هــو في رفع مستوى المعيشــة المادي والثقافي المستمر للجماهير الكادحــة ، والتطور العاصف للعلم ، وازدهار الانتاج الفني •

والى جانب هذا فان الاشتراكية ،كمجتمع منبثق مباشرة عن الرأسمالية ، يحمل في طياته كثيراً من مخلفات القديم في الاقتصــاد والواقع الحياتي وفي وعي الناس • ذلك أن الثورة الاشتراكية تنجح في احداث تغيير كامل وعميق في الحياة الاجتماعية كلها بقدر ماتنفصل عن مجتمع الملكية الخاصة الذي ظل سائداً في السابق قروناً كاملة • وان انشــاء العلاقات الاشتراكيــة في المجال الاقتصادي مرتبط بالتغيرات العميقة في وعي وبسيكولوجيا الجماهير ، وفي انشاء نظم جديدة للعلاقات بين الناس • وان تحرير الناس من مخلفات الأخلاق والبسيكولوجيا القائمتين عــلى أساس الملكية الخاصة ، ومن مخلفات النظرات الدينية المخالفة للعلم ، ومن الأوهــام القومية وغيرها تحريراً كامــلا ، وان تخليص المجتمع من المجرمين واللصوص وغيرهم ـ كل هــذا يؤلف المهمة التي لايمكن أن تحقق بضربة واحــدة ، وانما يجري تحقيقها مــع تطور الاشتراكية وفي النضال ، لأن القديم (ذاك الذي ترسب في الوعي خلال قرون كاملة) يدافع بعناد ولايمكن أن يستسلم طواعية للجديد • لكن الاشتراكية تخلق بصورة دائمة الشروط الضرورية والمنطلقات من أجل تصفية مخلفات القديم ومن أجــل تربية الانســان الجديد للمجتمع الشيوعي • ان الوجه الروحي للانسان الجديد يتكون قبل كل شيء في العمل لما فيه خير المجتمع • ثم ان لكل من الأسرة والمدرســة أثراً كبيراً أيضــاً • ان التربية الشيوعيــة لجماهير الكادحين ليست عملية عفوية تسلك مجراها الطبيعي بنفسها ، وانما

هي عملية التأثير الفعال للايديولوجيا الاشتراكية على وعي الناس في تطبيق بناء المجتمع الجديد ، تحت قيادة الحزب الشيوعي •

ان ثورة أكتوبر العظمى والثورات الاشتراكية في بلدان أوروبا وآسيا فتحت الطريق لثلث الانسانية الى الاشتراكية والشيوعية • وان ظهور النظام الاشتراكي العالمي ، وقيام الدول ذات العلاقات الانتاجية الاشتراكية في بلدان هذا النظام ، ونشوء العلاقات الدولية الجديدة بين البلدان الاشتراكية ـ ان هذا لهو عملية ظهور التشكيلة الاجتماعية الشيوعية • ونتيجة للانتصارات العالمية التاريخية التي أحرزتها شعوب بلدان المعسكر الاشتراكي
صار النظام الاشتراكي
العامل الحاسم في عملية التطور الاجتماعي • وكما برهنت الماركسية اللينينية فان المجتمع الاشتراكي ـ المرحلة الأولى من التشكيلة الاجتماعية الشيوعية ـ سوف يتطور الى الشيوعية الكاملة ، الى المرحلة العليا • وبالرغم من أن هذا الانتقال يتم في حدود تشكيلة اجتماعية معينة ، فهو مرتبط مع التغيرات النوعية والجوهرية التي تطرأ على حياة المجتمع • ان الاشتراكية والشيوعية هما درجتا النضوج الاقتصادي والروحي لمجتمع واحد ، لكنه اذا كانت الاشتراكية قد تطورت عن الرأسمالية وتحمل « بقعاً موروثة » عنها ، فان الشيوعية الكاملة هي التشكيلة الشيوعية التي تتطور على قاعدتها الخاصة •

ان مؤسسي العلم الماركسي اللينيني ، اذ ينطلقان من تطبيق نظرية التطور على تقدم التشكيلة الشيوعية ، يحددان الخصائص الرئيسية المميزة للمرحلة العليا من الشيوعية • وفي الوقت الحاضر عندما دخل الشعب السوفييتي بناء الشيوعية ، وصارت قضية بناء الشيوعية تلح كقضية تطبيقية لا نظرية ، برزت مهمة تحديد الطرق الحسية للانتقال من الاشتراكية الى الشيوعية ، وتصور بنية المجتمع المقبل من شتى جوانبه • لقد قام حزبنا لأول مرة في تاريخ الحركة الشيوعية بحل هذه المسألة ، فوضع برنامجه الجديد ـ برنامج

بناء الشيوعيــة في بلادنا • ويحدد البرنامج بدقة الخطوط الرئيسية لتطور بلادنا في الطريق الى الشيوعية •

لقد جاء في البرنامج : « ان الشيوعية هي بناء اجتماعي غير طبقي ، ذو ملكية اجتماعية واحدة لوسائل الانتاج ، بالمساواة الاجتماعية بين أعضاء المجتمع جميعاً ، وحيث ، الى جانب تطور الناس من كل الجوانب ، تنمو وتتطور القوى المنتجة على أساس العلم والتكنيك المتطورين بصورة دائمة ، وحيث كل مصادر الثروات الاجتماعية تفيض ســيلا عارماً ، ويتحقق المبدأ العظيم « من كــل حسب طاقته ، ولكل حسب حاجته » • ان الشيوعية هي مجتمع مرتفع التنظيم للعاملين الأحرار الواعين حيث تقوم الادارة الذاتية الاجتماعية ، ويصبح العمل من أجــل خير المجتمع الحاجة الحياتية الأولى للجميع والضرورة التي يعيها كل انسان ، وحيث ستستخدم امكانيات كل فرد من أجل خير الشعب كله »•

ان أساس الانتقال الى الشيوعية هــو التطوير الهائل لقوى الانتاج في الصناعة والزراعة مما يؤمن وفرة في الخيرات المادية ضرورية من أجل سد المتطلبات المعيشية للانسان ، من أجل سد متطلبات المجتمع • وبموجب هذا فان برنامج الحزب يطرح المهمة الاقتصادية الأولى أمام الحزب والشعب ـ مهمة خلق القاعدة المادية التكنيكة للشيوعية خــلال عقدين من الزمن (١٩٦١ ـ ١٩٨٠) • وهذا يعني بالضبط بلوغ ذلك المستوى من الانتاج الذي يجعل الصناعة قادرة عــلى انتاج ٢٥٠ مليون طن من الفولاذ وحتى ٣٠٠٠ مليون كيلو واط من الكهرباء سنوياً ؛ ويجعل الحجم العام للانتاج الزراعي ٣٫٥ أضعاف ماهو عليه الآن ؛ ويضاعف انتاجية العمل في الصناعة أكثر من ٤ مرات، وفي الزراعة ٥ ـ ٦ مرات • وهذا مايسمح بتحقيق المبدأ الشيوعي في التوزيع حسب الحاجة •

ان تطور الانتــاج الاشتراكي ، من جهــة ، يستدعي ضرورة احداث تغييرات ملائمة في العلاقات الاجتماعيــة والاقتصاديــة للمجتمع ، ومن جهة أخرى ، يخلق الشروط من أجل رفع مستوى الشعب الثقافي والمادي • ان

رفع المستوى الثقافي لجماهير الشعب ، وتطور الشخصية من شتى الوجوه ، هو شرط ونتيجة لتطور الانتاج •

وفي عملية بناء الشيوعية سوف يحدث تطوير عالمي لاقتصاد الكولحوز الاجتماعي ، ورفع مستوى اجتماعية الملكية التعاونيـة الكولخوزية ، وسوف تزول الحاجة الى الاقتصاد الفردي للكولخوزيين ، وسوف ينمو دور القطاعات الاجتماعية في سد كل حاجاتهم ••• وان الملكية التعاونية ـ الكولخوزيةسوف تندمج تدريجياً مع ملكية الشعب بأسره •

ان الانتقال الى الشيوعية يتطلب القضاء التام على الفوارق الثقافيةـالحياتية والاقتصادية ـ الاجتماعية بين القرية والمدينة ، وتصفية الفوارق الجوهرية بين العمل العقلي والعمل العضلي ، وكذلك ازالة الحدود بين الطبقات والفئات الاجتماعية في المجتمع • وان حل هذه المهمات الاجتماعية الكبرى سوى يعني خلق مجتمع شيوعي لا طبقي ، وتحقيق مساواة حقيقية بين الناس ، والانتصار العظيم للشيوعية •

ان المباشرة في بناء الشيوعية في الاتحاد السوفييتي هي مرحلة جديدة في تطوير العلاقات القومية أيضاً • والأساسي في الأمر هـو أن تطور القوميات يسير في خط التقارب فيما بينها ، وتعزيز التعاون الأخوي والصداقة ، وتقوية وحدتها الفكرية • وان هذا التقارب سوف يؤدي الى تطوير ثقافة أممية عامة لكل قوميات بلادنا •

ومع حركة المجتمع الى الشيوعية تحدث تغيرات مهمة في بنيانه الفوقي وفي أشكال الوعي الاجتماعي • وان أكثر التغيرات جوهرية هو في التحويل التدريجي للدولة الاشتراكية الى ادارة ذاتية اجتماعية شيوعية • وهذه العملية مرتبطة بنهضة لايعرف لها مثيل لنشاط الجماهير ومبادراتهم الخلاقة ،وبالتحقيق الكامل للديموقراطية الاشتراكية ، وبتقوية دور المنظمات الاجتماعيـة التي سوف تتسلم كثيراً من مهام الدولة •• وغيرها • « ان التطور التاريخي سيؤدي حتماً الى الغاء الدولة » ـ هكذا جاء في برنامج الحزب • ويبين البرنامج الطرق

الملموسة لتطور الديموقراطية الاشتراكية ، ويحدد شروط تحقيق الحتمية التاريخية ـ الغاء الدولة .

ان الانتقال الى الشيوعية يرتبط ارتباطاً وثيقاً بنمو الوعي الشيوعي ، بالتصفية النهائية لمخلفات القديم في وعي وسلوك الناس ، وبالنمو الهائل لغنى المجتمع الروحي ، وبازدهار العلم والثقافة ، وبالنهوض الجبار بالمستوى المادي التكنيكي للجماهير ، وبتطبيق المبادىء الانسانية والجماعية للأخلاق الشيوعية في العلاقات بين الناس .

ان القضاء على التناقضات الطبقية الاجتماعية وعدم المساواة الاجتماعية ، وعلى مخلفات التقسيم الاجتماعي القديم للعمل ، وان بلوغ مستوى عال للوضع المادي وللثقافة ،وتقليص يوم العمل وغيرها ، سوف تساعد على تفتح مواهب الناس وامكانياتهم وازدهارهم .

ان بناء الشيوعية في الاتحاد السوفييتي هو جزء من العملية العامة لانتقال شعوب المعسكر الاشتراكي الى الشيوعية . لقد حددت الشروط التاريخية الأزمان المختلفة لدخولها فترة بناء الشيوعية .

ومع ظهور التشكيلة الشيوعية يبدأ التاريخ الحقيقي للانسانية التي لن تكون بعد عبداً للطبيعة ولعلاقاتها الاجتماعية الخاصة ، ويحق لشعبنا أن يفخر بأنه أول من بدأ في بناء الشيوعية الزاهرة .

★ ★ ★

ان الفهم العلمي للتاريخ يبين لنا أنه ثمة تقدم في التاريخ ، وأن التاريخ يمشي الى الأمام وينتقل من أشكال سفلى الى أخرى أعلى منها ، وان الانسانية في وقتنا هذا نهضت الى درجة هي من العلو بحيث تتكشف أمامها المجالات الهائلة للتطور والازدهار في ظروف التشكيلة الشيوعية .

وكما أوضحنا ، فان التقدم في المجتمع هو ، قبل كل شيء ، في تغيير شكل الملكية ومجموعة العلاقات المرتبطة به الى شكل آخر للملكية تكون أساساً لعلاقات انتاجية أسمى من الأولى . وان كل درجة تالية للعلاقات الانتاجية تكون أكثر تطوراً بالمقارنة مع الأولى ، وهذا ليس لأن هؤلاء الناس أو أولئك يعتقدون ذلك ، كما وأنه ليس نتيجة للتقييم الذاتي للعملية التاريخية ، بل لأن علاقات الانتاج الجديدة تنشأ ملائمة لأكثر قوى الانتاج تطوراً .

ان الايديولوجيين البورجوازيين يتهمون الماركسيين بجعلهم التاريخ اقتصادياً والانسان قوة منتجة . ان الماركسية ، بالفعل ، تعتبر الانتاج أساس التطور الاجتماعي ، لكنها لم ترجع التقدم التاريخي الى تطور الانتاج وحده في يوم من الأيام . ان التقدم في تطور المجتمع يشمل كل نواحي الحياة الاجتماعية ، والسياسية ، والروحية ، وهو تطور الى الأمام وتغيير لأجهزة اجتماعية كاملة ــ للتشكيلات الاجتماعية .

فمنذ تفسخ النظام القبلي وحتى الاشتراكية كانت العملية التاريخية تحمل طابعاً طبقياً تناقضياً ، لأن حركة المجتمع الى الأمام كانت تتم على حساب الاستغلال الفاحش للجماهير الكادحة ــ صانعة التاريخ . ان الانتقال الى التشكيلة الاجتماعية الشيوعية ليس خطوة تقدمية هائلة في تاريخ الانسانية وانما هو يغير طابع التطور الاجتماعي ذاته بصورة جذرية .

ان تحقيق الملكية الاجتماعية لوسائل الانتاج الملائمة لقوى الانتاج الاجتماعية الحديثة يفتح مجالات واسعة لتقدم المجتمع والفرد . فهو يسمح بتطوير قوى الانتاج الموجودة ، وبالتالي ، كل الجوانب الأخرى للحياة الاجتماعية ، ويحل التناقضات المحتدمة في الوقت المناسب ، ويجمع طاقات المجتمع من أجل حل المهمات الملحة الماثلة أمامه ، ويساعد على التحرر من الأوهام في الوعي والواقع وعلى بناء النشاط الاجتماعي بما يتناسب مع القوانين المعروفة للتطور التاريخي ... الخ . ان الانتقال الى التشكيلة الشيوعية هو قفزة من سيطرة الضرورة العمياء الى سيطرة الحرية ، وبدء لتاريخ الانسانية الحقيقي .

وبالرغم من أن الرأسمالية خلقت تاريخاً عالمياً ، لكن تقدم التاريخ العالمي فيها يكون من قبل بعض الشعوب على حساب بعضها الآخر ، ويحدث التباين في تاريخ البلدان والشعوب المختلفة • أما التقدم في التشكيلة الشيوعية فيحدث على أساس

القانون الموضوعي للتطور المبرمج القائم على أساس نزع الملكية الخاصة لوسائل الانتاج •

وعندما سوف تتطور التشكيلة الشيوعية على قاعدتها الخاصة سينشأ لأول مرة تاريخ واحد للانسانية جمعاء •

قد يتساءل البعض : وماذا سيحدث بعد الشيوعية ، وكيف سيتطور المجتمع بعدها ؟ ومن أجل الاجابة عن هذا السؤال لابد من الأخذ بعين الاعتبار أن الملكية الشعبية الاجتماعية لوسائل الانتاج هي شكل كاف لقوى الانتاج ذات الطابع الاجتماعي ، يفتح آفاقاً لاحبة أمام التطور • ان نشوء الملكية الشيوعية لوسائل الانتاج تحل قضية الملكية عملياً للانسانية ثم لاتعود العملية التاريخية لتطور الانسانية تحمل تغيير تشكيلة اجتماعية اقتصادية الى أخرى تختلف عنها في شكل الملكية • وهذا يعني أن تقدم المجتمع سوف يتحقق على أساس الملكية الانسانية العامة • وبهذا المعنى سيكون تقدم المجتمع تطوراً لا محدوداً للتشكيلة الشيوعية • وبهذا أيضاً يكون الجواب عن السؤال « وماذا سيحدث بعد الشيوعية ؟ » لكنه ينبغي ألا نستنتج من هذا أن مجتمع المستقبل لن يمر في مراحل نوعية خاصة من تطوره • وكل مافي الأمر هو أن هذه المراحل سوف لن تتميز عن بعضها بشكل الملكية وانما بمقاييس موضوعية أخرى •

ان القضاء على التناقضات الطبقية الاجتماعية في جميع البلدان سيوحدها ويوجه قواها وطاقاتها لحل المهمات العظيمة : مهمات معرفة الطبيعة واخضاعها ، وتطوير الانسان كلياً ومن شتى الجوانب ، مهمة خلق الانسان الحر في المجتمع الحر •

القسم الثاني

تطوّر المجتمع كنتيجة لنشاط الناس

لقد أوضحنا في الفصل السابق كيف أن القوانين الموضوعية توجد وتعمل في المجتمع على أساس من الظروف الموضوعية المعينة المستقلة عن ارادة ووعي الناس ، والتي تحدد اجمالا ذلك الوعي وتلك الارادة • وأوضحنا أيضاً أن الظروف المادية وقوانين التاريخ المنبثقة عنها تحدد : أولا ، بنية كل تشكيلة اجتماعية اقتصادية ، وثانياً ، اتجاه العملية التاريخية • وبينا كذلك كيف أن تطور كل تشكيلة اجتماعية ، وبالتالي التاريخ كله ، ماهو الا عملية تاريخية طبيعية مقوننة • وبينا أخيراً كيف أن التشكيلات الاقتصادية الاجتماعية المتعاقبة في التاريخ ليست الا درجات في عملية التطور التقدمي للمجتمع ، وأن الانتقال الى الشيوعية يؤلف مضمون العملية التاريخية كلها في هذا العصر •

والى جانب هذا ، فقد وقفنا طويلا على كل من الطابع الموضوعي للعملية التاريخية ووحدتها ، ورأينا الصلات المشتركة بين جوانبها المختلفة ، هذه الصلات التي تعكسها وتؤيدها مفاهيم المادية التاريخية • ولقد مكننا هذا كله من فهم جوهر التطور التاريخي •

فالتاريخ هو عملية تاريخية طبيعية لاتتعلق بارادة الناس ورغباتهم ، وهو نتيجة للنشاط الانساني الذي تقوده وتوجهه الأهداف والرغبات والمقاصد ، في الوقت ذاته • وبتعبير آخر : ان التطور التاريخي هو عملية موضوعية مقوننة تتحقق بفضل نشاط الناس وقدراتهم ككائنات واعية • ان الفكر الميتافيزيكي يعجز عن فهم هذا التناقض ، فيلجأ الى فصل جانب منه عن الآخر مما يفضي به اما الى القدرية والايمان بالمصير والقدر وغيرهما واغفال أهمية النشاط الانساني ، واما الى الذاتية ، الى التأكيد بأنه ليس ثمة قوانين في التاريخ ، وأن مايسمى بـ « الارادة الحرة » للناس هي وحدها التي تلعب الدور الحاسم • ان دراسة المادية الديالكتيكية لهذه المسألة جعلتنا نربأ بأنفسنا عن مثل هذه

النظرات الجانبية • ان الناس هم الذين يصنعون التاريخ في ظروف مادية معينة مستقلة عن ارادتهم ورغباتهم • وان قوانين التاريخ تعمل في نشاط الناس أنفسهم حيث توجه كلا منهم رغبات خاصة معينة • وبهذا تكون الماركسية قد وضعت لأول مرة الطريقة العلمية لتحليل وفهم نشاط الناس مبينة كيف أن هذا النشاط يمكن أن يفهم من خلال الظروف المادية للحياة الاجتماعية ـ من الواقع الاجتماعي والقوانين الموضوعية التي تعمل في قاعدته • ان فهم التاريخ كعملية تاريخية طبيعية أعطى أساساً علمياً لفهم التاريخ كنتيجة لنشاط الناس العملي ، وللتفسير العملي لهذا النشاط بالذات •

الناس أنفسهم يصنعون تاريخهم ، وان مهمة العلم هي في جلاء الأسباب التي جعلت الناس في الماضي يصنعون تاريخهم بهذه الطريقة لا بتلك ، وفي فهم وتحديد نشاط الناس في الحاضر والعمل على بناء عاجل للمستقبل الزاهر • ان الماركسية هي التي طرحت هذه المهمة لأول مرة •

الفصل الأول

القوانين الموضوعية ونشاط الناس التاريخي

١ ـ الشروط الموضوعية لنشاط الناس

خصائص العمل الاجتماعي

قال ماركس : « ان الحياة الاجتماعية هي في جوهرها عملية » .

ان السير المحسوس للتاريخ هو نتيجة لعمل الناس المتنوع . فلو أننا جردنا نشاط الناس من محتواه المادي وأخذناه كما هـو لأصبح في الامكان معرفة القيمة الكبرى للنشاط العملي . ان التطبيق العملي هـو شكل التأثير المادي للانسان على الواقع المحيط . ان التطبيق العملي وجد مع وجود المجتمع، وهذا يعني أنه يحمل طابعاً اجتماعياً تاريخياً . وأخيراً فان من خصائص كل نشاط عملي كونه شكلا هادفاً للتأثير المادي على الموضوع ،وهذا يعني أنه يحمل طابعاً واعياً .

ان دوافع معينة تدفع الناس لأن يقوموا بنشاط عملي . فيبرز في هـذا النشاط وعي الناس وارادتهم وتجربتهم ومعارفهم ومن ضمنها مواهبهم . ان فهم التاريخ يعني بصورة خاصة تفسير النشاط العملي للناس .

الظروف الموضوعية ونشاط الناس

ان الفلاسفة الماديين قبل ماركس وقعوا في متاهة لدى تفسيرهم للنشاط الانساني . فهم أولا : كانوا يعتبرون أنه طالما أن سلوك الناس خاضع لأفكارهم ومقاصدهم فانه من الممكن تفسير هذا السلوك عن طريق تحليل تلك الدوافع المثالية . ان المادية القديمة ـ كما قال انجلس ـ كانت تحاكم كل شيء حسب

الدوافع التي أفضت اليه • وهم ، ثانياً ، لم يستطيعوا ادراك المعنى الثوري للنشاط المادي للانسان الاجتماعي • لقد كانت ماديتهم تحمل طابعاً تأملياً ، فهم لم يفهموا الجانب النشيط في الانسان •

ان تفسير نشاط الناس بدوافع هذا النشاط ليس تفسيراً • يقولون ان الطريق الى الجحيم مرصوفة بالنوايا الحسنة • فالناس يريدون شيئاً ويحصل شيء آخر • الناس يريدون الخير ويصنعون الشر • الناس يضعون أهدافاً معينة ، وعندما يسعون لتحقيق تلك الأهداف يتصادمون في نضالهم المشترك وينتهون الى نتائج تكون عادة مناقضة لما كانوا يهدفون اليه • وهاهم أولاء المنورون الماديون انتقدوا السلطة المطلقة وناضلوا من أجل الدولة الرشيدة • لكنه تبين أخيراً أن دولتهم هذه ليست الا « المملكة المثالية للبورجوازية » • ان الطبقات الرجعية لاتدخر جهداً في سبيل الحفاظ على سيادتها الى الأبد ، لكنها ، بعملها هذا ، توقظ تلك القوى التي سوف تكنسها من على صعيد التاريخ • فلايمكن أن تفسر هذه النتائج مطلقاً برغبات ونوازع الناس • فبأي شيء يمكن تفسيرها اذن ؟

لقد لاحظ هيجل كيف أنه يتحقق شيء ما لم يكن في الحسبان في أفعال الناس الذين تقودهم في كل تصرف جزئي مصالحهم وغاياتهم الشخصية، شيء ما غير متعلق بارادة الناس أنفسهم • انه يعتبر سير التاريخ تحقيقاً للفكرة المطلقة ، ولهذا فقد كان يعتبر أن في تصرفات الناس تحقيقاً لما رسمه الروح العالمي • لقد رمت الماركسية بهذه الترهة المثالية بعيداً ، وأبقت على المحتوى العقلاني لطريقة هيجل • لقد بينت الماركسية أنه بالرغم من أن التاريخ يصنعه الناس أنفسهم ، فان نشاطهم تحدده القوانين الموضوعية لواقعهم الاجتماعي ، وهو يؤلف شكل تحقيق تلك القوانين بصورة لاتتعلق بادراكهم لها أو عدم ادراكهم لها • وهذه القوانين هي التي تحدد النتائج الموضوعية لأعمال الناس • فالناس يصنعون التاريخ ، لكنهم لايصنعونه لأنهم أرادوا ذلك، وانما لأن الظروف المادية الموضوعية لحياتهم نفسها هي التي أملت عليهم ذلك•

ان كل جيل جديد عندما يلج باب الحياة يصادف ظروفاً حياتية مادية

جاهزة ، فيدخل في علاقات ضرورية مادية معينة تكون قاعدتها مسرحاً لأفعاله ومنطلقاً له • ولهذا ينبغي البحث فيها عن تفسير النشاط الانساني في كل عصر من عصور التاريخ ، وبهذا فان النشاط الانساني لايقف مع القوانين الموضوعية لتطور المجتمع على طرفي نقيض ، وانما هو الشكل والوسيلة لتحقيقها • ان الظروف الموضوعية للحياة الاجتماعية تحدد نشاط جماهير الناس من شتى جهاته • ان الظروف المادية هي ، أولا ، تحدد الامكانيات الحقيقية لنشاط الناس في مرحلة معينة • فالرأسمالية مثلا تهيء كل المنطلقات المادية للاشتراكية • فقبل الرأسمالية ، بل وحتى في مراحلها الأولى ، فشلت كل المحاولات للقضاء على الملكية الخاصة وتحرير الجماهير من ربقة الاستغلال كما لو كان الناس يريدون ذلك • لقد كانت الأفكار الاشتراكية في تلك الظروف ذات طابع خيالي • لقد حلم الناس منذ القدم بصنع جهاز طائر أثقل من الهواء ، لكنه في القرن العشرين وحده نضجت الظروف التكنيكية لهذا الغرض ، وأفلح النشاط العملي الموجه لتحقيق هذه الفكرة • ولهذا فان الرغبات والمقاصد وحدها لاتكفي لتحقيق الأهداف فمن أجل هذا لابد من ظروف مادية مهيأة •

وثانياً ، ان الأهداف ذاتها التي يضعها الناس نصب أعينهم ، وان تلك النوازع التي تحث الناس على أفعالهم تحددها ظروف الحياة نفسها • ولن ينفي أحد كون تلك الأهداف والنوازع منبثقة من مصالح ومتطلبات الناس ، وان متطلبات الناس ، كما هو معروف ، تتعلق بظروف الحياة وبمستوى الانتاج • ان الربح هو هدف نشاط الرأسمالي ، والظمأ الى الربح هو الدافع الذي يقف خلف ذلك النشاط • وان هذا وذاك ينتج عن وضع طبقة الرأسماليين في نظام الانتاج • ان ظروف الرأسمالية هي التي تكشف عن امكانيات مثل هـذا النشاط • وفي ظروف الاشتراكية يصبح الاثراء الخاص عن طريق الاستغلال مستحيلا ، لأن الاشتراكية تلغي الاستغلال •

ان أهداف ودوافع النضال لدى شعوب المستعمرات من أجل التحرر الوطني ناجمة عن ظروف حياتهم ذاتها ، عن الظلم الامبريالي الغاشم وعن

الاستغلال ، أي عن الظروف الاجتماعية لمرحلة الامبريالية • وان امكانية تحقيق تلك الأهداف هي في اضعاف الأمبريالية نتيجة لنمو وتعزيز النظام الاشتراكي العالمي • ان أهداف الطبقات التقدمية هي تعبير واع عن المتطلبات الملحة للتطور الاجتماعي • ان الانسانية ، كما قال ماركس ، تطرح تلك القضايا التي نضجت الظروف المادية لحلها أو بدأت في النضوج •

ثالثاً ، من أجل النشاط وبلوغ الأهداف الموضوعة لابد من وسائل • فكما أنه لابد من القلم للكتابة فانه من الضروري للثورة كذلك وجود القوة الاجتماعية • فبدون الوسائل اللازمة لايمكن تحقيق أي هدف • قد يقول البعض ان الوسائل نفسها ، كالأدوات مثلا ، هي من صنع الناس أنفسهم وهي نتيجة لنشاط الناس العملي • هذا صحيح ، لكن السؤال عن الوسائل التي يمكن أن تصنع في هذه المرحلة بالذات ويمكن أن تستخدم في نشاط الناس هو أيضاً يرتبط بالظروف المادية لهذا النشاط • وتصبح هذه الوسائل بعد صنعها عنصراً في ظروف النشاط المادية • وهكذا فان النصر النهائي والكامل للاشتراكية في الاتحاد السوفييتي ، وان التطور الهائل للصناعة وللزراعة ، ولمنجزات العلم فيها ؛ ان كل هذا خلق الشروط الضرورية والوسائل اللازمة لبناء الشيوعية •

وبناء على ذلك فان نشاط الانسان يرتبط بشروط مادية معينة ،وبالوسائل التي تستخدم فيه •

وأخيراً ، فان نتائج نشاط الناس تتعلق بالشروط المادية وبالقوانين الموضوعية وتتحدد بواسطتها أيضاً • ويمكن للناس أن يتنبأوا بالنتائج كما ويمكن أيضاً أن تبقى مجهولة لديهم • وان مهمة العلم هي ـ بصورةخاصة ـ في أن يكفل انسجام نتائج النشاط مع الأهداف الموضوعة ، وأن يتيح امكانية توقع نتائج هذا النشاط •

وهكذا فان كل نشاط عملي في المجتمع مرهون بالشروط الموضوعية له، والتي تحدد امكانياته ودوافعه وأهدافه ووسائله ونتائجه • ان النشاط الروحي

النظري للناس ليس له أهمية خاصة ، فهو عنصر من عناصر التطبيق العملي اذا نظرنا الى المجتمع ككل • وبمقتضى العلاقة القائمة بين النشاط النظري والعملي فان للأول استقلالا نسبياً بالنسبة للتطبيق العملي تماماً كما أن لكل وعي استقلالا نسبياً بالنسبة للقاعدة المادية التي أوجدته •

مظاهر التطبيق العملي الاجتماعي

ان المادية التاريخية لاتفرق بين النشاط المادي العملي والنشاط الروحي النظري فحسب ، وانما تضع فروقاً معينة بين مظاهر التطبيقالعملي ذاته ، آخذة بعين الاعتبار وسط الحياة الاجتماعية الذي تحقق فيه مثل هذا النشاط • « ان الشكل الأساسي لهذا النشاط هو ، بالطبع ، النشاط المادي الذي يتعلق به أي نشاط آخر : عقلياً كان أم سياسياً أم دينياً ••• الخ »[1] •

ومن بين الأشكال الأساسية للنشاط العملي يعتبر العمل والنشاط المادي في الانتاج ، وكذلك النشاط الثوري والاجتماعي للجماهير المحول الهادف الى تغيير علاقات الانتاج • ولقد جاء في برنامج الحزب الشيوعي للاتحادالسوفيتي أن « الوسط حيث تخلق القيم المادية لهو الوسط الرئيسي لحياة المجتمع[2] • ان النشاط المتنوع للناس في ميادين الحياة الاجتماعية الأخرى ـ نشاط الدولة والأحزاب السياسية ، والنشاط العملي في ميدان العلم (التجربة مثلا) والفن ••• الخ ، ان كل هذه النشاطات نشاطات منتجة وهي ، بعد كل شيء ، موجهة لخدمة الأشكال الأساسية لنشاط الناس العملي • وان جميع مظاهر هذا النشاط مرتبطة بعضها ببعض ارتباطاً وثيقاً بالطبع • وهي تتبادل التأثير فيما بينها ، لكن الأشكال الأساسية للنشاط العملي هي التي تحدد كل شيء •

ان تقسيم مظاهر التطبيق العملي في المجتمع الى مظاهر أساسية وأخرى غير أساسية لايعني الحط من قيمة الأخيرة مطلقاً ، وانما يكون لتبيان تبعيتها للأولى وطابعها المنفعل ودورها المساعد بالنسبة للأشكال الأساسية لنشاط الجماهير العملي • لكن متطلبات المجتمع الحديث جد ّ متنوعة ، ونشاط الناس

---

(١) ماركس وانجلس • المؤلفات • الجزء (٣) ـ ص ٧١ •

(٢) ماركس وانجلس • المؤلفات • جزء (٣) ـ ص ٧١ •

العملي في ميدان البناء الفوقي والعلم وغيرهما ضروري للمجتمع ويلعب دوراً كبيراً في تطوره •

ثمة من يؤكد بأنه ينبغي ارجاع نشاط الناس العملي كله الى الواقع الاجتماعي وأنه ليس ثمة فرق بين الواقع الاجتماعي والتطبيق العملي من حيث الجوهر • بالطبع لايجوز وضع أحدهما طرفاً مناقضاً للآخر ، لكنه ينبغي ألا ننسى كذلك أن مفهوم الواقع الاجتماعي موضوع من أجل حل القضية المعرفية الأساسية من خلال تطبيقها على المجتمع ، ويدرس في علاقته مع الوعي الاجتماعي ، وان وضع التطبيق العملي موضع الواقع الاجتماعي يوقعنا في متاهة لامخرج منها لدى حل هذه القضية • ومن جهة أخرى ، ففي نطاق البنيان الفوقي وميادين الحياة الاجتماعية الأخرى ثمة نشاط عملي أيضاً الى جانب النشاط النظري • ولو أننا طابقنا النشاط العملي مع الواقع الاجتماعي لوجب علينا ادخال النشاط العملي للدولة ولكل المؤسسات الفوقية الأخرى وكذلك النشاط العملي في ميدان العلم والثقافة ضمن نطاق الواقع الاجتماعي ، ووضعها في صف واحد مع النشاط الانتاجي • وبهذا نكون قد خسرنا التمييز بين الأشكال الأساسية وغير الأساسية للنشاط العملي ، وبين ماهو رئيسي في المجتمع وبين ماهو ثانوي •

ان الانسان في نشاطه العملي لايغير العالم المحيط وحسب ، وانما يغير طبيعته الخاصة أيضاً • ولدى التطبيق بالذات تبرز أمام الانسان القضايا الاجتماعية وتولد لها الحلول • وفي التطبيق تتكشف طاقة الانسان الخلاقة وتتكون صفاته ككائن اجتماعي • انماركس هو أول من أشار الى هذا الظرف بالذات • أما الماديون القدامى فقد كانوا ينظرون الى الانسان كنتاج سلبي لوسط معين ، وأما تفسير هذا الوسط فمنوط بظهور أفكار جديدة • لقد بين ماركس أن الناس يتكونون في عملية النشاط العملي الخاص في شروط مادية معينة ، وأنهم يغيرون أنفسهم بتغييرهم لهذه الشروط • ولقد كتب في هذا الخصوص : « ان تغير الظروف والنشاط الانساني يمكن أن يعالج ويكون معقولاً ومفهوماً عندما يكون تطبيقاً عملياً ثورياً فقط »[١] •

---

(١) ماركس وانجلس • المؤلفات • الجزء ٣ ، ص ٢ •

وهكذا فان البروليتاريا تسلك درب النضال الثوري ضد الرأسمالية تحت تأثير ظروف حياتها التي تجعل منها طبقة ثورية • لكنها تتكون كطبقة ثورية في عملية النضال فقط • ان الماركسية اللينينية تنطلق دائماً من أن تربية الجماهير وتعليمهم ينشأ من خلال عملية نضالهم الثوري ، ويقوم على تجربتهم الخاصة بالذات • « فالثورة ضرورية لا لأنها الطريقة الوحيدة للعصف بالطبقة السائدة ، بل لأنها أيضاً تعصف بجمود الطبقة الثائرة وتجعلها قادرة على اقامة العالم الجديد »[1] •

ففي النضال العملي من أجل الاشتراكية ، وفي العمل الى جانب العمال والفلاحين يتربى الجيل الجديد بوعي الاشتراكية والشيوعية ، وتتكون الخصائص الروحية لانسان المجتمع الشيوعي • ولهذا فان حزبنا يهتم بجعل نظام تربية وتعليم الجيل الجديد مرتبطاً ارتباطاً وثيقاً بحل القضايا العملية في بناء الشيوعية •

هامش (1): ماركس وانجلس. المؤلفات. الجزء 3. ص 70

٢ ــ العلاقة بين الضرورة الموضوعية ونشاط الناس الواعي

ان نشاط الناس موجه نحو تجديد الشروط القائمة من جهة ، والى تبديلها ، من جهة أخرى . وان تجديد تلك الشروط وتغيرها يتم وفقاً لقوانين موضوعية تعبر عن الجانب الأساسي للشروط والعلاقات .

فهل يحقق الناس قوانين التطور الاجتماعي فقط ؟ وأين دورهم الخلاق اذن ؟ أوليسوا ألعوبة في يد القوى الاجتماعية الجبارة ؟ كيف نوفق بين الطابع القانوني للتطور الاجتماعي وبين الاعتراف بدور الناس الخلاق في المجتمع ؟ وكيف ندحض الزعم المنتشر في المؤلفات البورجوازية والقائل بأن الماركسية ، باقرارها القوانين الموضوعية في التاريخ ،تنفي الدور الخلاق للانسان في المجتمع؟

للاجابة عن هذا كله ينبغي الانتباه الى ما يلي : أولا ، ان نشاط الناس يدخل في جملة الأحداث الضرورية الموضوعية التي تنشأ عنها العملية التاريخية. فالناس ينتجون كل ماهو ضروري للحياة ،ويحسنون أدوات العمل ، ويحققون الأهداف الموضوعة ، ويناضلون من أجل تحسين ظروف معيشتهم ... وغير ذلك ، وبهذا فهم يخلقون الحياة الاجتماعية . ان الحياة الاجتماعية حركة تجري في كل ساعة وكل دقيقة . فلا يمكن الحديث عن قوانين التطور الاجتماعي خارج حدود النشاط العملي للناس . ان ديالكتيك التاريخ هو أن الناس يغيرون الظروف تحت ضغط الظروف ذاتها ، وأن قوانين التطور الاجتماعي ، اذ تتجلى فقط في النشاط العملي للناس ، تحدد محتوى ووجهة هذا النشاط. ان انتصار الاشتراكية في العالم كله أمر محتوم يحدده فعل قوانين التطور الاجتماعي في عصرنا الراهن . ويكون احراز هذا النصر بالنضال الدائب للقوى الاجتماعية التقدمية التي تصفي مقاومة حماة المجتمع القديم بالنشاط العملي لمئات الملايين من البشر .

ثانياً ، ان القوانين تحدد فقط الاتجاه العام للعملية التاريخية ، أما السير

المجسد للتاريخ ، وتفاصيل تلك العملية في كل نقطة ، وأشكال ووتيرات التطور فتحددها جميعاً أسباب حسية معينة من بينها مبادرات الناس الخلاقة •• ان المجتمع يتطور حسب قوانين موضوعية ، والناس في أعمالهم تحدهم شروط مادية معينة • لكنهم في حدود الضرورة الموضوعية ـ وهي حدود واسعة بما فيه الكفاية ـ يمكن أن يتخذوا قرارات مختلفة ، ويقوموا بمبادرات متباينة بما يتناسب مع مصالحهم ومع فهمهم للشروط الموضوعية وظروف النشاط الحسية••• وغيرها • وينبغي ألا نفهم تقريرية سلوك الناس فهماً ميكانيكياً لأن الانسان ليس وحدة ميكانيكية ، وسلوكه لايتطابق مع حركة الجسم الميكانيكي ، أي بتأثير دافع خارجي • وان لكل شعب تاريخه الخاص بالرغم من أن البلدان التي توجد على درجة واحدة من التطور تخضع لقوانين واحدة • ولهذا ينبغي ألا نضع الاعتراف بالقوانين الموضوعية للتطور الاجتماعي في طرف مناقض لطابع نشاط الناس الخلاق في المجتمع • فنشاطهم هو تلك القوة التي تحرك تطور المجتمع وتصنع التاريخ بكل ماتعنيه هذه الكلمة •

ان ظهور وتطور التشكيلات الاجتماعية السابقة للتشكيلة الاشتراكية كان يحدث بصورة عفوية في أغلب الأحيان باستثناء فترات الثورات • وكان الطابع العفوي للعملية التاريخية مشروطاً بما يلي : ان جماهير الناس في حياتها اليومية ، اذ تقوم بعملية الانتاج ، وتطور القوى المنتجة ، وتحدث بعض التغييرات في هذه الشروط المادية للعصر أو تلك ـ توجهها مصالح مباشرة شخصية يومية ، ولاتهتم بالنتائج الاجتماعية لسلوكها ، ولاتعي عواقبه • ان الدافع الأولي لاهتمام جماهير الكادحين بشروط هذا المجتمع الطبقي أو ذاك هو في تأمين قوتهم وقوت أسرهم ، اذا كان ثمة أسر • ومن أجل هذا يعملون ويصنعون أدوات العمل والآلات ، ويبنون المعامل والمصانع ، ويناضلون من أجل تحسين شروط العمل ••• الى آخر ما هنالك • لكنهم لايشعرون بأن التاريخ انما يتكون من هذا كله • ان كل رأسمالي يسعى وراء الربح ويتخذ تدابير معينة من أجل ذلك ، لكن الحكم المطلق ، بوجه عام ، هو الذي يسود عهد الرأسمالية •

وعندما قام رواد البحر العظام برحلاتهم الجريئة بين القرنين الخامس عشر والسابع عشر اكتشفوا أراضي جديدة ، فبعضهم كان يسعى من وراء ذلك الى المجد والثراء ، ودفع بعضهم الآخر الظمأ الى المعرفة وحب المغامرة ، وأراد بعضهم تمجيد وطنه ورفع اسم بلاده عالياً ... الخ ... لكنهم لم يكونوا يفكرون بأن هذه الاكتشافات ستؤدي الى تغيير الطرق التجارية والنهوض ببعض الدول ، وغروب شمس دول قوية أخرى ، وتفتح أسواقاً جديدة ، وتعطي دفعة قوية لعملية التجميع الأولي لرأس المال في البلدان الأوروبية ، وتسبب عدداً لاحصر له من الأحداث ، وبالتالي فقد تم هذا كله بصورة عفوية .

وعندما يحدث التطور عفوياً فان القوانين الموضوعية تعمل في المجتمع كضرورة عمياء غريبة عن الانسان ومسيطرة عليه . وان الناس يشعرون بارتباطهم بها ويدركونه ـ لكن بصورة شوهاء ـ اذ هم يجسدون ويؤلهون تلك القوى المهيمنة في كل حين .

وفي ظروف التطور العفوي تتجلى القوانين الاجتماعية كميول تاريخية معينة تشق طريقها عبر حشد كبير من الصدف . واذا ما أعيق تطور هذه الاتجاهات بقوة يتجلى آنئذ فعل هذه القوانين الهدام . ويتضح هذا بصورة جلية في أزمات الانتاج الرأسمالية الناتجة عن تناقض العلاقات الرأسمالية مع الطابع الاجتماعي لقوى الانتاج الحديثة .

أما في مرحلة الهزات الثورية ، عندما تتحطم علاقات الانتاج القديمة وأشكال البنيان الفوقي التي كانت تعززها ، فان قوانين التطور الاجتماعي تبدو من خلال نشاط الجماهير الواعي المنظم . وان هذه العملية ليست عفوية لأن تنظيم الجماهير والتفافها يكون حول أفكار اجتماعية معينة تعكس المصالح الأساسية للطبقات ومتطلبات التطور الاجتماعي . وان ارادة الجماهير الواسعة موجهة هنا الى التحقيق الواعي لأهدافها العامة . وبصرف النظر عن أنه ليس لدى الناس هنا الالمام علمي بقوانين التطور الاجتماعي فان أفكارهم تعكس ، الى حد ما ، الحاجة الملحة لتطوير المجتمع ، وتوجه نشاطهم ، وفقاً للقوانين الموضوعية ، الى النضال من أجل تحقيق مطاليبهم . ان هذا كله من شأنه أن يوسع مجال

النشاط الواعي للانسان ويزيد من أهميـة دور الأفكار والمنظمات السياسية الأخرى المرتبطة بها في تطور المجتمع •وعن هذا ينتج أن الناس كانوا يستخدمون القوانين الاجتماعية في نشاطهم الماضي أيضاً ليس بصورة مباشرة وانما من خلال وعي المصالح الجذرية للطبقات التقدمية ،وبهذا كانوا يزيدون من سرعة وتيرات التطور التاريخي •

أما ظهور وتطور التشكيلة الاجتماعية الشيوعية فذو طابع آخر • فهنا ، أولا ، يقضى على عفوية العمليـة التاريخية ، وثانياً ، ان وعي قوانين التطور الاجتماعي وتغييرها المستمر يصبح ضرورة • فما سبق لنشاط الناس الاجتماعي التاريخي أن اعتمد على معرفة القوانين الاجتماعية الموضوعية في الماضي مطلقاً• بينما نجد أن بناء الاشتراكية ثم سير المجتمع نحو الشيوعية يحدث على أساس النظرية الماركسية ـ اللينينية العلمية والبرامج الموضوعة من قبـل الأحزاب الشيوعيـة التي تتحول النظرية فيهـا الى تخطيط حسي لعمـل الجماهير • وفي ظروف التشكيلة الشيوعية لا تعود القوانين الموضوعية للتطور الاجتماعي قوة مسيطرة على الناس وغريبة عنهم بل تخضع لرقابتهم الواعية • ولهذا فقد دعا مؤسسا الماركسـية الانتقال من الرأسـمالية الى الشيوعية قفزة من عالم الضرورة الى عالم الحرية •

ان الديالكتيك المادي لايضع الحرية في تناقض مع الضرورة بل يدرسهما مرتبطين معاً • فكلما كان عمل الانسان ضرورياً كلما كان حراً • ويستطيع الانسان تحقيق أهدافه فقط عندما يتصرف وفقاً للضرورة الموضوعية •

ان الحزب الشيوعي يوجه نشاط الناس وفق متطلبات النظرية العلمية للتطور الاجتماعي ، وان مهمة كل فرد في المجتمع هي أن يفهم قوانين تطور المجتمع وأهداف نشاط الجماهير التي تنبثق منها •

وفي الاشتراكية ، يأخذ تطور المجتمع طابعاً واعياً • ولايعني هـذا أن الناس يقدرون على توجيه سير التاريخ أنى يشاؤون ، بل يعني أنهم يتمكنون من العمل وفقاً لقوانين التاريخ بعد معرفتهم لها • ولهذا ينبغي النهوض بوعي

كل فرد في المجتمع الاشتراكي الى فهم مصالح المجتمع كله ، وقوانين تطوره. ومع تطور الاشتراكية تنجذب جماهير الناس الواسعة الى الصناعة الواعية للتاريخ مما يزيد في سرعة وتيرات التطور الاجتماعي .

ثم ان هذا القول لايعني انعدام كل أثر للعفوية ، وأنه في امكان الناس أن يتنبأوا بنتائج أعمالهم تنبؤا كاملا وصحيحاً . فليس ثمة حدود لعملية المعرفة، وان الالمام بجميع مطالب القوانين الموضوعية ،في ظروف حسية معينة ، لأمر شديد التعقيد . فهنا لابد من اغفال أحد مطالب القوانين الموضوعية وشروط ظهورها، وبالتالي فثمة امكانية لظهور تلك القوانين عفوياً . ومن البديهي أن المعرفة لاتكفي من أجل اخضاع العفوية لتأثير المجتمع . وانما على المجتمع أيضاً أن يملك الوسائل المادية الضرورية اللازمة . ان الدولة تؤثر على التسعيرة التي قامت عفوياً في سوق الكولخوز ليس بسياسة الأسعار وحسب ، وانما بمعرفتها لكمية السلع اللازمة للسكان . ان أشكال تطور المجتمع الاشتراكي مختلفة عن سواها في التشكيلات السابقة . ومع تطور الاشتراكية يصبح المجتمع قادراً على التنبؤ بنتائج أعماله ، وعلى توجيه العلاقات القائمة بين الناس أنفسهم وبينهم وبين الطبيعة توجيهاً واعياً . ان بناء الشيوعية عملية واعية ، ونتيجة للجهود الواعية لملايين الناس . فحتى الآن لم يقم أي مجتمع من المجتمعات على أساس معرفة قوانين التطور الاجتماعي . وفي هذا تتجلى احدى الخصائص النوعية الجديدة لقيام وتطور التشكيلة الاجتماعية الشيوعية كأسمى أشكال التنظيم للانتاج وللحياة الاجتماعية كلها .

وهكذا ، فمع الانتقال من الرأسمالية الى الاشتراكية يحدث توسع كبير لدائرة النشاط الواعي بموجب التنظيم التخطيطي للانتاج وامكانية التنبؤ بالنتائج الاجتماعية لأعمال الناس على نطاق المجتمع كله . ان النشاط العملي للناس يرقى هنا الى درجة جديدة . فاذا كان ، آنفاً ، تغييراً هادفاً لمواد الطبيعة وتكيفاً واعياً مع ظروف الحياة الاجتماعية المادية التي كانت تتغير بصورة عفوية تلقائية ، واذا كانت النظم القديمة والعلاقات المهترئة تتحطم بصورة واعية في مرحلة الثورة ، فان الناس في الثورة الاشتراكية ، ولأول مرة في التاريخ ، يدخلون في محيط النشاط الواعي بناء علاقات اجتماعية جديدة .

دور الأفكار في التطور الاجتماعي

ان السؤال عن دور الأفكار مرتبط ارتباطاً عفوياً بالسؤال عن مصدرها • ان المادية التاريخية ، اذ تكشف عن شروط الوعي الإجتماعي في أي عصر من عصور التاريخ ، وتبين أن الوعي الاجتماعي هو جانب ضروري لنشاط الناس الاجتماعي كما هو ضروري لنشاطهم الانتاجي المادي ، فانها ـ ولأول مرة ـ تمكننا من الاجابة اجابة علمية عن دور الوعي • وان الوعي الاجتماعي يظهر ليخدم نشاط الناس في شتى مجالات الحياة الاجتماعية ، أي ليلعب دوراً فعالا في حياة وتطور المجتمع •

ان المادية التاريخية تدحض المثالية التي تؤكد على الدور المحدد للأفكار في تطور المجتمع ، كما تدحض المادية الزرقاقية التي تنفي دورها الفعال•والمادية التاريخية تنطلق من أن الأفكار تعجز عن تحديد سير التاريخ ، لكنها تعتبرها قوة فعالة من شأنها أن تسرع أو تعرقل عملية التطور الاجتماعي • وان فعالية الأفكار تتجلى في توجيهها لنشاط الناس ، وبمساعدتها تتحد الجماهيروالطبقات والفئات الاجتماعيــة الأخرى من أجــل حل القضايا الاجتماعية الناضجة • فالأفكار تؤثرعلى تطور المجتمع لا بصورة مباشرة وانما منخلالنشاط الناس• لكن متطلبات الناس متنوعة وكثيرة ، وبنشاطهم يحلونالقضايا المختلفة • ولهذا فهم يستخدمون أفكاراً مختلفة •

ويتجلى دور الايديولوجيا في حل المسائل الاجتماعية القائمة أمامالمجتمع• وتقوم بالدور المهم في مثل هذه المسائل الايديولوجيا السياسية التي تعبر مباشرة عن مصالح طبقية معينة • وان مايحدد دور كل ايديولوجيا في المجتمع هــو السؤال عن مصالح أية طبقة تعبر هذه الايديولوجيا ، وعن مدى الدقة والعمق في عكسها لمتطلبات التطور الاجتماعي الملحة ، والى أي مدى تعبر عن مصالح الجماهير الشعبية الواسعة •

ان الايديولوجيا الرجعية ، اذ تعكس مصالح الطبقات الرجعية ، وتدافع عنهــا في عصر ما ، تؤثر تأثــيراً سلبياً عــلى تطور المجتمع ، أي انها تعرقل تطوره • ومثل هذا الدور تقوم به الايديولوجيا البورجوازية المعاصرة بدعوتها

للعالم الطبقي ، وبنفيها لحتمية سقوط الرأسمالية ومحاولاتها لتخليدها ولتزيين الواقع الرأسمالي ، وبتصديها العنيد لكل التغيرات الاجتماعية التقدميـة التي تحدث في العالم الآن ، وبمساعدتها للنظم البالية وللنظريات المهترئة الميتة •

وان الايديولوجيا التقدمية المعبرة عن مصالح الطبقات والفئات الاجتماعية التقدمية في هذا العصر التاريخي أو ذاك ، تؤثر تأثيراً ايجابياً على تطور المجتمع، أي انها تساعد على تطوره •

ان الأفكار الانسانية لعصر النهضة ، والنظرات الديموقراطية للمنورين البورجوازيين ، والفكر الحر والالحاد لماديي الماضي ،والنظرات الديموقراطية الثورية حول ضرورة القضاء على حكم الاستبداد والقنانة قضاء ثورياً حاسماً في روسيا القرن التاسع عشر ••• وغيرها ، كل هذه أمثلة على الأفكار التقدمية التي لعبت دوراً ايجابياً في فترة تاريخية معينة •

وان الايديولوجيا الماركسية ــ اللينينية هي صاحبة الدور التقدمي العظيم في تطور المجتمع الحديث •

ومن أجل التأثير على حياة المجتمع ينبغي على أية ايديولوجيا كانت أن تتحول الى قوة مادية • لكن تحول الايديولوجيات الرجعية والتقدمية الى قوة مادية يتم بطريقين مختلفين •

ان المهمة الاجتماعية لايديولوجيا الطبقة السائدة المستغلة هي دائماً في توطيد وتخليد ذلك النظام الاقتصادي الذي يضمن سيادتها • وان هـــذه الايديولوجيا تتجسد دائماً في المؤسسات التي تخلفها الطبقة المسيطرة ، والتي تحمي مصالح تلك الطبقة • ومن خلال نشاط هذه المؤسسات تتمكن من التأثير على تطور المجتمع كقوة مادية • وعلاوة على هذا ، وبمساعدة الدولة والمدرسة والكنيســة تلزم ايديولوجيـا الطبقة السائدة المجتمـع كلـه ، وتتحول الى ايديولوجيا مسيطرة تحمل الجماهير على مسالمة الأنظمة القائمة •

وعندما تتطور قوى انتاجية جديدة على صعيد المجتمع القديم ، وتدخل في نزاع مع علاقات الانتاج القديمة تبرز أمـام المجتمع المهمات الاجتماعية : ازاحة النظام الاقتصادي المهترىء وخلق نظم اجتماعية جديدة •

وعلى أساس هذا النزاع تنشأ ايديولوجيا تقدمية جديدة معبرة عن مصالح الطبقات الناهضة • وتتجلى فعالية هذه الايديولوجيا في النضال من أجل قيام نظم جديدة وتحطيم النظم القديمة • ومع ظهور الايديولوجيا الجديدة يحتدم النضال في المجتمع بين الايديولوجيا التقدمية والايديولوجيا الرجعية • وفي حمأة هذا النضال تقارع الايديولوجيا الجديدة لا الايديولوجيا القديمة وحسب ، بل والقوة المادية لمؤسسات المجتمع القديم كلها • ولاتستطيع الأفكار التقدمية الجديدة لوحدها تحطيم النظام القديم ، وانما تستطيع ابعاده الى خارج نطاق الأفكار • وينبغي على الأفكار التقدمية أن تتحول الى قوة مادية من أجل القيام بمهمتها الاجتماعية ومساعدة النظام الجديد على الظهور • وهي تصبح قوة مادية عندما تكسب الجماهير وتنظمها وتوحدها للنضال من أجل حل القضايا الملحة للتطور الاجتماعي •

وبهذا ، فان الدور الفعال للايديولوجيا الثورية التقدمية في تطور المجتمع هو في مساعدتها لخلق القوة الاجتماعية القادرة على حل القضايا الاجتماعية الجديدة حلا واعياً وهادفاً • وفي سير النضال تخلق الطبقات الاجتماعية التقدمية مؤسسات جديدة من أجل دعم وتوطيد انتصار الجديد •

ان الفرق بين الوعي الاعتيادي والايديولوجيا يتجلى كذلك في دور كل منهما في حياة المجتمع الطبقي •

فالناس في حياتهم اليومية ينقادون الى وعيهم الاعتيادي ، وعي مصالحهم المعيشية اليومية • فهم ينقادون الى هذا الوعي في نشاطهم العملي وفي الأسرة وفي الواقع الحياتي وفي علاقاتهم المتبادلة مع الآخرين • وقد جرت العادة ألا يدرس هذا الوعي ، وذلك لأنه يدخل في العملية العفوية للتطور التاريخي التي تتكون من نشاط أفراد ينقاد كل منهم لوعيه الخاص • ان العملية العفوية تسم مراحل التطور التدريجي للمجتمعات الطبقية المتناقضة • لكنه ، وفي مراحل التطور التدريجي ، ثمة مكان لدور الجماهير ، وثمة نضال طبقي ، وتتحقق أعمال اجتماعية مختلفة • فما هو دور الوعي الاعتيادي في هذا النضال ؟ وبم يتميز دوره عن دور الايديولوجيا ؟

ان الايديولوجيا تعبر عن المصالح الطبقية العامة وترسم أهداف النضال الناتجة عن التناقضات في هـــذا المجتمع أو ذاك • ولهذا فان الايديولوجيا التقدمية تتمكن من تجنيد الجماهير وتوحيدها ومن ثم تحويلها الى قوةاجتماعية قادرة على حل المسائل الاجتماعية اليانعة •

وفي الفترات التاريخية السابقة ، في حركة العبيد ضـد ملاكيهم ، وفي نضال الفلاحين ضد الاقطاعيين كان العامل الايديولوجي معدوماً تقريباً أو يكاد يكون عديم التأثير • فقد كانت حركاتهم ـ « مظاهر من اليأس والانتقام » ، كردود فعل لظروف الحياة اللاانسانية القاسية ، وكانت ذات طابع عفوي ، ولم تكن تقوم على ضوء الوعي السياسي • وكان هذا أحد أسباب ضعفهم وعدم تنظيمهم الى جانب الأسـباب الرئيسية لهذه النقائص التي كانت تكمن بعيداً في الأعماق •

وبهذا ، فان الوعي الاعتيادي يمكن أن يحفز الناس للنضال ،لكن النضال في مثل هـذه الحال ذو طابـع عفوي • ففي الحركة العفوية يسيطر الوعي الاعتيادي ويبقى دون فهـم الأهداف السياسية للنضال • وهنا تبقى الحدود أيضاً نسبية وغير ثابتة • ولقد كان « العامل العفوي » في كثير من الأحداث يمثل الشكل البدائي للوعي »[1] • ففي مراحل الثورات لم يكن هذا الوعي يكفي لاجراء تغييرات اجتماعية عميقة ، لأنه يعجز عن تنظيم الطبقات ورسم أهداف واضحة لنضالها • ولهذا كان لابد من الايديولوجيا الثورية من أجل التطوير الناجح وانتصار الثورة •

لقد كتب ماركس وانجلس : « ان الأمر ليس في رؤيـة البروليتاريـا لأهدافها ، وانما هو في السؤال : من هو البروليتاري الحقيقي ، وماذا عليه أن يفعل تاريخياً بالنسبة لواقعه الحياتي ؟ »[2] •

ان الايديولوجيـا هي التي تبين للبروليتاريا ماينبغي عملـه بالنسبة الى

---

(١) لينين • المؤلفات • الجزء ٥ ص ٣٤٦ •

(٢) ماركس وانجلس • المؤلفات • الجزء ٢ ص ٤٠ •

وضعها الموضوعي ، بينما رغباتها وأمانيها المرتبطة مباشرة بواقعها الحياتي تجد تعبيراً لها في الوعي الاعتيادي •

إن الوعي الاعتيادي ، اذ يعبر عن امتعاض الجماهير ، يهيء العقول لادراك الايديولوجيا الثورية ، ولانتشارها السريع الواسع بين الجماهير • وبهذا أيضاً يتجلى دور الوعي الاعتيادي • وبالطبع ، فان تطور الحياة المادية هو الذي يهيء المناخ لادراك الايديولوجيا الثورية • لكن الوعي الاجتماعي يبقى هنا حلقة وصل بين شروط الحياة المادية للناس وبين الايديولوجيا التي تعبر عن الجانب الجوهري لتلك الشروط • ومن أجل أن تكتسب الأفكار الثورية الجماهير فان على الجماهير ذاتها أن تميل الى تلك الأفكار •

لقد أدخل الحزب الماركسي الوعي العلمي الى النضال الطبقي للبروليتاريا ، مما سمح في فترة تاريخية قصيرة باحراز انتصارات عظيمة في النضال من أجل الاشتراكية • ولقد سبب الاقتصاديون في الحركة العمالية الروسية ضرراً جسيماً للطبقة العاملة بنفيهم دور الوعي الاشتراكي في النضال الطبقي ، وبتغنيهم بالعفوية وبغلوهم في تقدير دور الوعي الاعتيادي •

فعند تقدير دور الوعي الاجتماعي في حياة وتطور المجتمع لابد من الوقوف عند دور العلوم ، لاسيما الطبيعية منها • ان العلوم الطبيعية ، اذ تختلف عن الايديولوجيا القائمة بدور النفي والاثبات لهذه العلاقات الاجتماعية أو تلك ، تساعد بصورة مباشرة على تطور الانتاج • فهي ، اذ تعكس قوانين الطبيعة ، تتيح للانسان فرصة تطبيق قوانين وقوى الطبيعة من أجل رفع القوى الانتاجية للعمل الاجتماعي • ان منجزات العلوم الطبيعية لاتتجسد مادياً في تنظيم الجماهير ، وانما ، وقبل كل شيء ، في أدوات ووسائل الانتاج ، وفي العمليات التكنيكية المعينة • وبما أن تحسين أدوات العمل يتطلب نمواً معيناً في معارف وثقافات المنتجين المباشرين ، فان على العلوم الطبيعية أن تنتشر بالضرورة بين صفوف الجماهير وبدون ذلك يستحيل النهوض بالمستوى الثقافي ـ التكنيكي للجماهير الكادحة •

وبما أن العلم الطبيعي يعطينا معرفة نظرية حول العالم المحيط فانه يحوي الحقيقة الموضوعيـة ويؤلف بذاته قوة جبارة للنضال ضـد المثالية ، وأساساً علمياً للنظرة المادية •

وعن هذا ينتج أن العلم الطبيعي يؤثر على جميع مجالات الحياة الاجتماعيه بصورة غير مباشرة : من خلال القوى الانتاجية أحياناً ، وعن طريق الفلسفه ، أحياناً أخرى •

وبهذا ، فان الوعي الاجتماعي ينفذ الى كل جوانب الحياة الاجتماعية ، لأنه أينما عمل الناس فهم يعملون ككائنات واعية • وهو بارتباطه مع نشاط الناس يقوم بدور فعال في خلق واستخدام القوى المنتجة ، وفي التغييرات الثورية لعلاقات الانتاج ، وعموماً في حل كل تناقضات الحياة الاجتماعية •

٤ ـ دور الايديولوجيا الاشتراكية في تطور المجتمع

الشرطية التاريخية لدور الايديولوجيا الاشتراكية الخاص

لاتتميز الايديولوجيا الاشتراكية عن ايديولوجيات العصـور السـابقة بمحتواها وحسب ، وانما بالدور الذي تقوم به في حياة وتطور المجتمع كذلك• ويتحدد هذا الدور الخاص بخصائص ظهور وتطور التشـكيلة الاجتماعيـة ومرحلتها الاولى ــ المجتمع الاشتراكي • وبتعبـير آخر ، ان الـدور الخاص للايديولوجيا الاشتراكية مشروط تاريخياً بطابع تلك المسائل الاجتماعية التي تساعد على حلها •

ومن أجل تنفيذ المهمة التاريخية في تحويل المجتمع الرأسمالي الى مجتمع اشتراكي ينبغي على البروليتاريا أن تعتمد على النظرية العلمية للتطور الاجتماعي التي تكشف عن اتجاه العملية التاريخية وقوانين تطور المجتمع • ولولا هـذه النظرية لحكم على البروليتاريا حتماً بفشـل طويل مرير ، ولوجدت نفسها مضطرة الى أن تتخبط خبط عشواء • ان المأثرة العالمية العظيمة لكل من ماركس،

وانجلس ولينين هي ، قبل كل شيء ، في أنهم خلقوا وطوروا الايديولوجيا الاشتراكية العلمية ، ووضعوها في خدمة النضال الطبقي الذي تخوضه البروليتاريا •

وفي المجتمع الاشتراكي ما ينفك دور هذه الايديولوجيا العلمية ينمو يوماً بعد يوم •

ان الايديولوجيا الماركسية ـ اللينينية ، اذ تعرفنا على القوانين الموضوعية ، تمكننا من تحديد وجهة التطور الاجتماعي ، ومن تحديد أهداف النضال وطرق ووسائل تحقيقها وفقاً لتلك القوانين ، وهي تهدينا الى السبيل عبر عمليات التأثير المتبادل بين الظواهر الاجتماعية الكثيرة المعقدة ، وتعرفنا على وضع القوى الاجتماعية المختلفة في الشروط التاريخية المتغيرة ، وتسمح لنا بالتنبؤ بنتائج تصرفات الناس وافعالهم في درجة معينة من التطور ، وتكشف عن العمليات العميقة التي تحدث في المجتمع خلف القشرة الخارجية للظواهر الاجتماعية •

وان الايديولوجيا الماركسية ـ اللينينية تتمكن من القيام بدورها التاريخي العالمي في تطوير المجتمع المعاصر لأنها تعطي انعكاساً علمياً موضوعياً حقيقياً للواقع ، وهي قوية لأنها علمية صادقة • وان السير على هديها يعني الاهتداء بمعرفة القوانين الموضوعية للتطور الاجتماعي •

ثم ان دورها الخاص يتجلى في عدم امكانية نشوء وتطور التشكيلةالشيوعية بدون المساهمة الواعية للجماهير الشعبية الواسعة في بناء المجتمع الجديد •

ان الاشتراكية الحية الخلاقة هي عمل الجماهير ذاتها ، ومع تطور المجتمع الاشتراكي تنجذب الجماهير بصورة أوسع الى الخلق الواعي للتاريخ • ويمكن توحيد الجماهير وتوجيه ارادتها نحو هدف واحد بمساعدة الايديولوجيا العلمية فقط ـ الايديولوجيا الماركسية ـ اللينينة التي تعبر عن المصالح الرئيسية لجماهير الكادحين • ان القضاء على الطبقات المستغلة وتصفية التناقضات بين فئات الشعب تخلق الشروط من أجل التفاف الشعب كله تحت راية الايديولوجيا الواحدة •

وفي الاشتراكية تصبح الماركسية ـ اللينينية الايديولوجيا السائدة التي توحد المجتمع كله تحت رايتها • وهي لاتعطي بناة الاشتراكية الوعي العلمي لمصالحهم الخاصة وحسب ، وانما ترشدهم الى طرق حل التناقضات القائمة في المجتمع ورفع المستوى المادي والثقافي لجماهير الشعب ـ طريق بناء الشيوعية، وهي توطد العزم في قلوب الناس على تحقيق الهدف العظيم ـ الشيوعية ، لأن هذه الأخيرة تنبع من القوانين الموضوعية للتطور الاجتماعي ، وتربي الخصائص الأخلاقية والروحية التي تتناسب مع العلاقات الجديدة القائمة بين الناس • ان الايديولوجيا الاشتراكية هي أساس التفاؤل التاريخي وينبوعه الذي يبهر الشخصيات البورجوازية ويتركها عاجزة عن فهمه •

وبهذا فان الاشتراكية تعطي الايديولوجيا وظيفة اجتماعية جديدة ـ وظيفة تنوير وتنظيم وتجنيد جماهير الكادحين لبناء المجتمع الجديد •

وان الايديولوجيا الاشتراكية تقوم بدور خاص ليس في انشاء اقتصاد جديد وحسب ، وانما في نشوء وتطور علاقات البنيان الفوقي والحياة الروحية للمجتمع • وبالطبع فان علاقات البنيان الفوقي ـ بخلاف العلاقات المادية للقاعدة ـ بدأت تتكون في التشكيلات السابقة اذ مرت من خلال وعي الناس • لكنه ، بما أن مصالح الطبقات ذات العلاقات الاجتماعية الجديدة لم تكن لتنسجم مع مصالح الاغلبية الكادحة ، فان ايديولوجيتهم كانت تصور المجتمع الجديد مثالياً • ان الايديولوجيين الذين أسسوا وطوروا النظرات التي كانت تقوم بموجبها مؤسسات البنيان الفوقي لم يكونوا ليدركوا الروابط بين بناءاتهم المثالية وبين الشروط التاريخية للحياة المادية • ولهذا فان المؤسسات والمنظمات الجديدة ، التي كانت تقوم على أساس انتصار العلاقات الاقتصادية التقدمية ، انما كانت تقوم بمساعدة الوعي ، بيد أنه وعي كاذب • وفي التشكيلة الشيوعية وحدها يتم انشاء وتطوير العلاقات الايديولوجية ومؤسسات البنيان الفوقي وكذلك تكوين كل مجالات الحياة الروحية للمجتمع على أساس تأثير الايديولوجيا العلمية ، أي أنه يتم بوعي الجوهر الكامل للعلاقات والمؤسسات الاجتماعية •

ويتجلّى هنا الدور البارز للايديولوجيا الاشتراكية ، فهي تؤمن تشكيل وتغيير البنيان الفوقي وكل أشكال الوعي الاجتماعي وفقاً للمتطلبات الموضوعية للتطور الاجتماعي ٠

ولايمكن بناء المجتمع الشيوعي وحل مسائله بدون تربية الجماهير على التفكير العلمي وتكوين العالم الروحي للانسان الجديد ٠ ولهذا ، ففي عملية بناء الشيوعية ينبغي اعادة تربية الانسان ، وتنمية الوعي عند كل افراد المجتمع ، وان هذا بحد ذاته لهو شرط ضروري ووسيلة للنضال من أجل الشيوعية ٠

ومن جهة أخرى علينا أن نعرف أن تطور الانتاج الاشتراكي وقيام علاقات اجتماعية جديدة وازدهار الثقافة الاشتراكية ـ كل هذا يكون وسيلة لتطور وازدهار الشخصية ٠ ان هدف الشيوعية هو في تلبية المتطلبات المادية والثقافية المتنامية على الدوام لجماهير الكادحين ، وفي خلق الشروط اللازمة لتطوير امكانيات الانسان المادية والروحية ، وفي تحقيق الازدهار الكامل للشخصية الانسانية ٠

وان الايديولوجيا الاشتراكية لاتقوم بدورها في تطوير الاقتصاد وثقافة المجتمع الاشتراكي وحسب ، وانما هي وسيلة ضرورية لتكوين انسان المجتمع الجديد بكيانه الروحي وخصائصه الأخلاقية كذلك ٠ ومن أجل الانتقال الى الشيوعية علينا أن نقوم بتربية انسان المستقبل ٠ وان الالمام بالايديولوجيا الاشتراكية من شأنه ان يوسع دائرة معارف الناس ويمكنهم من فهم وحدة المصالح الشخصية والاجتماعية ، ويساعد كل شخصية على المساهمة مساهمة فعالة في النضال العام من أجل الشيوعية ، ويساعد على ازدهار الشخصية ذاتها ٠

وان الدور البارز الذي تقوم به الايديولوجيا الاشتراكية هو في كونها وسيلة ضرورية لتكوين الكيان الروحي لانسان المجتمع الشيوعي ، ولرفع مستوى الوعي الشيوعي لجميع الكادحين ٠

ويصبح العمل الايديولوجي عاملا قوياً في النضال من أجل انتصار

الشيوعية • وقد جاء في برنامج الحزب الشيوعي في الاتحاد السوفييتي ان الحزب يعطي الأهمية الرئيسية في المرحلة الراهنة لتربية جماهير الشغيلة على الفكر الرفيع والاخلاص للشيوعية ،وعلى العلاقة الشيوعية بالعمل وبالاقتصاد الاجتماعي، وعلى تصفية مخلفات النظرات والأعراف البورجوازية ، وعلى تطوير الشخصية من شتى نواحيها ، وعلى خلق وفرة كاملة وغنى في الثقافة الروحية • وان النمو الدائم لوعي الجماهير الشيوعي يساعد بدوره على حل المسائل في بناء الشيوعية، وعلى تطور الانتاج الاشتراكي •

وفي التشكيلات الطبقية المتناقضة كان تأثير الايديولوجيا على تطور الانتاج يتم بصورة غير مباشرة ومن خلال التأثير على التغيرات التي تحصل في القاعدة• ان الايديولوجيا لم تكن لتؤثر في يوم من الأيام على المنتج المباشر كقوة تساعد على تحسين انتاجية عمله • ولقد كانت الوظيفة الاجتماعية للايديولوجيات السابقة تنحصر اما في تثبيت أو في نفي النظم القائمة • ان الايدولوجيا الاشتراكية تؤثر على تطور الانتاج ليس فقط لأنها تساعد على نشوء وتطور علاقات الانتاج الاشتراكية ، وانما لأنها أيضاً تؤلف الكيان الروحي للانسان كقوة رئيسية في المجتمع •وانها، اذ تكون خصائص الناس السياسية والاخلاقية والجمالية وغيرها ، تساعد على رفع انتاجية عملهم ، وبكلمة أخرى ، فهي تؤثر مباشرة على تطور الانتاج •

الايديولوجيا والسياسة • توصيل الوعي السياسي الى الجماهير

من أجل أن تتمكن الايديولوجيا الاشتراكية من القيام بدورها وتصبح قوة محولة لابدّ لها من أن تنتشر بين صفوف الجماهير وتكتسبهم :البروليتاريا قبل غيرها ، ثم كل الكادحين والمستغلين • وان الحزب التقدمي المنظم والذي هو القسم الواعي من البروليتاريا هو وحده القمين بالقيام بتوحيد الايديولوجيا الاشتراكية مع الحركة الثورية للجماهير •

ان الايديولوجيا الماركسية ـ اللينينية تؤثر على تطور المجتمع الاشتراكي من خلال سياسة الحزب الشيوعي قبل كل شيء • ففي سياسة الحزب بالذات

تتحول مبادىء النظرية الى برنامج حسي لعمل الجماهير في ظروف تاريخية معينة • ولولا ارتباط الايديولوجيـــا بسياسة الحزب وبعمل الجماهير لبقيت مجرد رغبة فارغة •

ان الماركسية ـ اللينينية هي الأساس النظري لسياسة الحزب • وبما أن التأثير على تطور المجتمع كله يتحقق من خـلال السياسة فان الايديولوجيـــا الماركسية ـ اللينينية ، التي تعتمد عليها هذه السياسة ، تقوم بالدور الكبير في مجالات الحياة الاجتماعية السياسية والروحية على حد سواء •

وبما أن الماركسية ـ اللينينية ايديولوجيا تعبر نظرياً عن وضع طبقـــة البروليتاريا في المجتمع وعن مصالحها وتحدد مهماتها التاريخية ، فان الطبقـــة ذاتها وحزبها يهتمان بضرورة المحافظة على نقاء ونظافة سلاحهما النظري ، ومن أجل عدم السماح للاستبداد بتبني بعض الموضوعات والمبادىء الماركسية لزرع الشقاق الذي هو أعظم خطر امام نجاح نضال الطبقة العاملة • وان الحزب لايقوم بواجبه مطلقاً أمام الطبقة العاملة اذا هو لم يحافظ على نقاوة الماركسية ـ اللينينية بكل قواه ، ولم يشنّ نضالا لاهوادة فيه ضد كل تشويه لمبادئها •

ويسعى التحريفيون الى تشويه المبـدأ الماركسي حول وحدة النظريـــة والتطبيق ، وضرب فكرة التلاحم القائم بينهما : بين النظرية والنشاط التطبيقي العملي لحزب البروليتاريا • فهم يزعمون ، مثلا ، وجود ماركسية « فكرية » ويعنون بها النظرية العلمية ، وماركسية « معهدية » يؤسسها قادة الحزب، ولهذا فهي تفقد صفتها كعلم • لكن هذا التقسيم المتعارض جد مخفق لأن الأحزاب الشيوعية لا تهتدي في نضالها بنظرية « موضوعة » من قبلها بصورة استبدادية، وانما بالنظرية الماركسية ـ اللينينية العلمية • وان الأحزاب البروليتارية تدخل هذه النظرية بالذات الى صفوف الجماهير •

وبفضل السياسة الصحيحة للحزب الشيوعي في الاتحاد السوفييتي الذي حول أفكار الماركسية ـ اللينينية الى الحياة والواقع ، وبفضل العمل البطولي الجبار للشعب السوفييتي الملتف حول حزبه ، فقد توصلت البلاد السوفييتية

في تطورها التاريخي الى درجة صار معها بناء المرحلة العليا للشيوعية مهمة عملية راهنة •

ان الأفكار العظيمة للماركسية ـ اللينينية التي تجسدت وتطورت في البرنامج الجديد للحزب تنير الدرب أمامنا الى بناء صرح المجتمع الشيوعي الخالي من الطبقات •

ان دور الايديولوجيا الماركسية اللينينية في المجتمع الاشتراكي ليس فقط في أنها تؤمن أساساً علمياً لسياسة الحزب في شتّى مجالات الحياة الاجتماعية ، بل تتعدى ذلك الى رفع الجماهير لفهم هذه السياسة ، وبعث حيويتها ومبادرتها الخلاقة عند تطبيق تلك السياسة • وبفضل الحزب تصير الايديولوجيا الاشتراكية مبدأ لنشاط الناس في المجتمع السوفيتي ، فتتحول بهذا الى قوة مادية هائلة لتحويل الحياة الاجتماعية • ان تطبيق السياسة في الحياة وحل المسائل السياسية هو عمل الملايين من بناة الشيوعية • ويقوم الحزب بتنظيم وتوجيه نشاط الجماهير ويعتمد في الوقت ذاته على تأييدها ويمكنها من فهم السياسة فهماً مرتكزاً على تجربتها الخاصة • ان فهم الجماهير العميق لسياسة الحزب هو الشرط الأساسي لتطبيق السياسة في الحياة • ولقد أشار لينين الى أن الدولة السوفييتية قوية بوعي الجماهير التي تلم بكل شيء وتبحث في كل الأمور • ولهذا فان رفع المستوى الفكري للجماهير ، ونمو ثقافتهم ووعيهم ، وكسب الايديولوجيا الماركسية ـ اللينينية التقدمية لجميع فئات الشعب الواسعة ضروري من أجل تطبيق الخط السياسي للحزب الشيوعي •

ان العمل الايديولوجي للحزب يقوم دائماً على معرفة الشروط التاريخية الملموسة وأصالة هذه الفئة أو تلك التي يتوجه اليها الحزب • ويُنقل الوعي الاشتراكي الى الجماهير لا بشكل نظري مجرد ، وانما بشكل أفكار ترتبط ارتباطاً وثيقاً بشروط معينة للحياة وبالمصالح العملية اليومية ، وبنضال الفئات المختلفة لجماهير الكادحين •

لاشك في أن شروط الحياة في الاشتراكية تولد في جماهير الشعب عناصر

العلاقات الاشتراكية الجديدة نحو العمل وعناصر الأخلاق الشيوعية الجديدة وغيرها • لكنه ، وفي عهد الاشتراكية ، يبقى ثمة فارق بين الوعي الاعتيادي والوعي النظري العلمي • ولا ينشأ الفهم العلمي للواقع ولقوانين تطوره لدى الجماهير مباشرة من ظروف حياتها • ان الوعي الشيوعي هو حصيلة وخلاصة لكل تاريخ معرفة العالم ، وقد نشأ عن العلم، وتطور كعلم•وقد بين لينين أنه كيما يصبح الانسان شيوعياً عليه أن يغني ذاكرته بمعرفة كل تلك الثروات التي أنتجتها الانسانية[1] • ولهذا فان مهمة حمل الوعي الاشتراكي العلمي الى فئات الجماهير الواسعة تمثل أمام الحزب بكل ضخامتها في عصر الاشتراكية ذاته • لكنه ينبغي رفع العمل الايديولوجي هنا الى درجة جديدة أعلى • ومع انتصار الاشتراكية وتصفية الطبقات المستغلة تصبح الايديولوجيا الاشتراكية شعبية ، وتنشأ الشروط الملائمة لنشرها بين الجماهير • وهنا تبرز المهمة التطبيقية لأول مرة ــ رفع وعي جماهير الشغيلة الى مستواها الطلائعي ، أي جعل وعي كل فرد وعياً علمياً • ويمكن أن تقوم بالدور الكبير كل من الدعاية الصحيحة ، وتعليم وتنوير الكوادر في صلة وثيقة مع نشاط الجماهير عن طريق الربط بين النظرية العلمية وبين التجربة العملية للجماهير • ينبغي على الأفكار أن تدفع الى العمل • ان حزبنا ، اذ يهتم بتقوية أثر الدعاية للأفكار الماركسية اللينينية ، يقف ضد فصل الدعاية عن الحياة ، عن مهمات بناء الشيوعية • ان البرنامج الجديد لحزبنا هو تجسيد حي لوحدة النظرية والتطبيق •

وكما تدل تجربة تطور الدولة السوفييتية فان نجاح العمل الايديولوجي بين الجماهير وتأثيره يتعلقان بعوامل كثيرة نعرض منها مايلي :

١• صحة الخط السياسي للحزب الذي يعبر عن المصالح الجذرية والحاجات الملحة للجماهير •

٢• النضال الحازم ضد الايديولوجية البورجوازية والتحريفية والديماغوجية ، وضد مخلفات القديم في وعي الناس •

---

(١) لينين• المؤلفات• الجزء ٣١ ص ٢٦٢ •

٣• وحدة النظرية والتطبيق ، والكلام والعمل ، عندما تقتنع الجماهير بتجربتها العملية الخاصة بصحة نظرية وسياسة الحزب • وتربية الجماهير على الأعمال التطبيقية •

٤• حسية الدعاية وماديتها • ارتباطها الوثيق بالحياة ، وبالمهمات التي يطرحها الحزب وتقوم بحلها الفئات الجماعية المعينة • القضاء على البيزانطية •

٥• تطور النقد المبدئي البناء والنقد الذاتي الذي يبرز العيوب الكامنة ويصفيها •

٦• نمو المستوى الثقافي للجماهير الشعبية •

٧• رفع المستوى الفكري للدعاية والمرتبط بنمو المستوى النظري الفكري للكوادر الدعائية •

٨• وضوح وسهولة الدعاية ، وبعدها عن الاسفاف ، واستخدام كل ماتحت اليد من وسائل التأثير الفكري •

ان تجربة تطور بلادنا تبين أن تنمية الوعي الاشتراكي في الجماهير ترتبط ارتباطاً وثيقاً بحل القضايا الاقتصادية والسياسية والثقافية لتطور الاشتراكية ، وبالنضال من أجل تصفية النواقص ، ولهذا فهي ليست من عمل الدعاية الفكرية والتنوير وحدهما •

وهكذا • ان المجتمع الاشتراكي يقوم ويتطور على أساس الوعي والتطبيق الواعي للقوانين الموضوعية • وهو مجتمع قائم على أساس علمي • وان الايديولوجيا فيه تخدم حاجات المجتمع ليس فقط في فترة القضاء الثوري على الشروط الاجتماعية البالية ، وانما في عملية العمل اليومي لخلق أشكال جديدة للحياة بجميع ميادينها •

الفصل الثاني

الطبقات والنضال الطبقي

ان نظرية الطبقات والنضال الطبقي ذات أهمية فائقة من أجل فهم التاريخ كعملية تاريخية ـ طبيعية ، ومن أجل فهمه كنتيجة لنشاط الناس •

وبصرف النظر عن أهمية مفهوم التشكيلة الاقتصادية ـ الاجتماعية كعامل مهم من أجل دراسة العملية التاريخية ، فانه لايكفي وحده من أجل دراسة التاريخ كله منذ النظام البدائي بدون مفهوم الطبقات والنضال الطبقي • فبدون هذين المفهومين لايمكن تحديد القوى المحركة لتطور التشكيلات الطبقية المتناقضة • وبالاضافة الى هذا ، فنحن عندما ندرس مفهوم التشكيلة الرأسمالية ، مثلا ، نبرز تلك الخصائص العامة المميزة لانكلترا الرأسماليةولألمانيا الرأسمالية، ولفرنسا الرأسمالية و ••• الخ • لكننا نتساءل : لماذا تختلف النظم السياسية الاجتماعية والأفكار المنتشرة في المجتمع ••• وغير ذلك من الأمور الأخرى من بلد الى آخر ؟ فنحن لانقدر أن نجيب عن هذا السؤال باعتمادنا على مفهوم التشكيلة العام ، بيد أننا نجيب عنه عندما ندرس أصول تلك الطبقات وخصائص علاقاتها المتبادلة فيما بينها في ز من ما وفي بلد معين • ولهذا ، فان مفهومي الطبقات والنضال الطبقي يسمحان بتجسيد مفهوم التشكيلة ، وليس هذا فقط بابراز الفوارق بين التشكيلة الاقطاعية والتشكيلة الرأسمالية ، مثلا ، من وجهة البنية الطبقية ، بل وبكشف كل ما يشرط تلك الفوارق بين البلدان الموجودة على درجة واحدة من التطور الاجتماعي • لقد أكد لينين أن «النظام الاجتماعي» و « التشكيلة الاجتماعية » لايمكن تجسيدها تجسيداً كافياً بدون مفهوم الطبقات والمجتمع الطبقي »[1] •

---

(١) لينين• مجموعة ١١ • ص ٣٨٣ •

ان نظرية الطبقات والتناقض الطبقي ذات أهمية خاصة من أجل فهم التاريخ كنتيجة لنشاط الناس•وبالفعل، اذا كان التاريخ هو تاريخ الناس ، وفيه يعمل ملايين وملايين من البشر الذين تتضارب وتتصالب اعمالهم ورغباتهم فان من الطبيعي أن نسأل : كيف لنا أن ندرس كل هذه الأعمال الفردية في خضم هذه الفوضى ، وكيف نربط بين تصرف فردي وتصرف ذي شأن اجتماعي ؟ في هذا تتجلّى أهمية نظرية الطبقات اذ هي تسمح لنا بربط عمل أشخاص معينين في حدود تشكيلة اجتماعية ما مع أعمال طبقات وفئات اجتماعية كبيرة يحدد نضالها تطور المجتمع •

ان نظرية الطبقات والنضال الطبقي تعطينا الخيط الرئيسي لبحث تاريخ المجتمع ، ولمعرفة العصر الحديث وتحديد طرق ووسائل التحويل الثوري من الرأسمالية الى الاشتراكية •

فبدون مفهوم « الطبقة » لايمكن فهم فترة كبيرة من تاريخ الانسانية ، ولهذا فان هذا المفهوم هو من أهم المفاهيم في المادية التاريخية •

فما هو المحتوى الموضوعي لمفهوم الطبقات ، وما هي أهميته المنهجية ؟

١• تعريف الطبقات ونشوؤها

دراسة الطبقات قبل ماركس

ثمة كثير من الفوارق بين الناس في المجتمع : بنوع النشاط ، بالثقافة ، بحجم الدخل ، بالوظيفة ••• الخ• لكن انقسام الناس الى طبقات اجتماعية يؤلف الفارق العظيم ، من بين تلك الفوارق جمعاء، ذا الاهمية الجوهرية من أجل التطور التاريخي • وتشهد بهذا تجربة التاريخ ذاتها •

لقد كان التقسيم الاجتماعي لهذا المجتمع أو ذاك ملحوظاً من قبل الجميع• ففي المجتمع العبودي كانت تفصل الأحرار عن العبيد حدود كبيرة صارمة • وفي المجتمع الاقطاعي كان يحدّد وضع الانسان حسب انتمائه الى هذه الفئة من الناس أو تلك • لكن الناس كانوا يتصورون هذه الفوارق من صنع الطبيعة

أو من وضع الاله . والمجتمع البورجوازي الذي أكد على المساواة الشكلية بين الناس أمام القوانين أوجد أساساً اقتصادياً للفوارق بينهم . ولهذا ، فلم تكن من قبيل الصدفة في فترة سيطرة الرأسمالية الاشارة الى أن الاقتصاد يحدِّد انقسام المجتمع الى مجموعات اجتماعية كبيرة ـ الى طبقات . ولقد اكتشف العلماء البورجوازيون وجود الطبقات قبل ماركس . وكان كلاسيكيا الاقتصاد السياسي الانكليزي أ. سميث ، و د. ريكاردو ، يعتبران أنه ثمة في المجتمع ثلاث طبقات : البورجوازيون ، ملاكو الأراضي ، والعمال ، وأن الفارق بينهم مشروط بمصادر دخلهم . فالبورجوازيون يبتزون الربح ، وملاكو الأراضي ـ الريع ، والعمال ـ أجور عملهم .

ان تحليل سميث وريكاردو لوضع الطبقات بربطه باقتصاد المجتمع هو أحد منجزات الفكر الاجتماعي . لكنهما كانا عالمين بورجوازيين ، وهذا ما جعل تفكيرهما محدوداً . فقد كان التمايز الاجتماعي وانقسام المجتمع الى طبقات بالنسبة اليهما ظاهرة ضرورية وقانونية . فهما لم يتمكنا من رؤية التناقض الطبقي بين البروليتاريا والبورجوازية . وكانا عاجزين عن اظهار أساس هذا التناقض . وعلاوة على ذلك ، ينبغي أن نأخذ بعين الاعتبار ، أن توزيع سلع الانتاج هو نتيجة لتوزيع وسائل الانتاج ، ولهذا ينبغي أن نبحث عن أسباب انقسام المجتمع الى طبقات في الانتاج ذاته وليس في ميدان التوزيع كما فعل الاقتصاديان الانكليزيان . لقد كانا مؤسسين لما يسمَّى « بنظرية الانقسام » الى طبقات ، التي أضحت في وقتنا هذا « مودة » بالنسبة للايديولوجيين والاصلاحيين البورجوازيين .

فاذا كان كلاسيكيا الاقتصاد السياسي الانكليزي قد انتبها الى وجود الطبقات ، فان المؤرخين الفرنسيين ـ تيري ، غيزو ، مينيه ـ حاولوا دراسة التاريخ ، ولاسيما ، تاريخ الثورة الفرنسية من وجهة نظر نضال الطبقات . فقد فرضوا أن نضال الطبقات من أجل ملكية الأراضي هو الذي حدد سير الثورة الفرنسية . وهم ، اذ قدموا وصفاً تاريخياً لنضال الطبقات ، لم يتمكنوا من تفسير منشأ الطبقات ولا النتيجة الواقعية لنضالها . فقد اعتبروا أن الطبقات نتيجة

للمكتسبات القائمة على الجهد ، وأعلنوا أن نضال الطبقات صالح للمجتمعات السابقة فقط لا للمجتمع الرأسمالي . واعتبروا النضال الطبقي في المجتمع الحديث ـ نضال العمال ضد البورجوازية ـ نضالا غير قانوني ولا يمكن السماح به .

وبهذا ، فقد تم اكتشاف وجود الطبقات والنضال الطبقي قبل ماركس . وقد استخدم مؤسسا الماركسية منجزات العلم الاجتماعي البورجوازي في دراسة البنية الطبقية للمجتمع ونضال الطبقات . لكن هذا لا يعني أن العلم الماركسي عن الطبقات هو استمرار وتطور بسيط للنظريات السابقة .

الفرق الجذري بين النظرية الماركسية للطبقات والنظريات السابقة .

ان النظرية العلمية للطبقات والنضال الطبقي وُضعت لأول مرة من قبل الماركسية . لقد حدّد ماركس جوهر النظرية الماركسية للطبقات والنضال الطبقي واختلافها المبدئي عن النظريات البورجوازية في رسالته الشهيرة الى فيديجير في ٥ آذار ١٨٥٣ حيث كتب ماركس حول قضية الطبقات : « فالجديد عندي يتجلّى في الأشياء التالية : ١) ان وجود الطبقات مرتبط فقط بالمراحل التاريخية المعينة لتطور الانتاج ، ٢) وأن النضال الطبقي يؤدي حتما الى دكتاتورية البروليتاريا ، ٣) وأن هذه الديكتاتورية ذاتها تؤلف فقط الانتقال الى تحطيم الطبقية ، وتؤدي الى مجتمع لا طبقي ...»[١] .

وهذا يعني ، أولا ، أن ماركس ، اذ أرجع ظهور الطبقات ونشوءها الى متطلبات الانتاج المتطور ، أعطى لأول مرة تفسيراً مادياً علمياً للطبقات ؛ ثانياً ، وهو اذ بيّن أن الطبقات ظاهرة مؤقتة وليست خالدة ، وأنها نشأت بالضرورة، وبالضرورة ستختفي بعد تحقيق دكتاتورية البروليتاريا ، فقد تناول مسألة الطبقات من الوجهة التاريخية ، أي بصورة ديالكتيكية .

وبهذا ، كوّن ماركس نظرية مادية ديالكتيكية علمية حول الطبقات والنضال الطبقي تختلف من حيث المبدأ عن النظريات البورجوازية التي كانت تعتمد على المثالية والميتافيزيكا .

---

(١) ماركس وانجلس . مؤلفات مختارة . الجزء ٢ ص ٤٣٣ .

ان النظرية الماركسية للطبقات هي جزء عضوي من المادية التاريخية والاشتراكية العلمية •

تعريف لينين للطبقات الاجتماعية

من أجل نظرية الطبقات ينبغي ، قبل كل شيء ، وضع مقياس علمي لتقسيم المجتمع الى طبقات وتحديد السمات الجوهرية للفوارق الطبقية وفقاً له • ولقد أبرز لينين هذه السمات وشكلها بدقة في مؤلفه « المبادرة العظمى » •

فقد كتب لينين : « ان الطبقات هي تسمية لفئات كبيرة من الناس تختلف بالمكان الذي تحتله تاريخياً في نظام معين للانتاج الاجتماعي وبعلاقتها (التي تتعزز في أغلب الأحيان وتتشكل في القوانين) بوسائل الانتاج ، وبدورها في التنظيم الاجتماعي للعمل ، وبالتالي ، بطرق الحصول على حصصها من الثروة الاجتماعية وبمقدار هذه الحصص • والطبقات هي فئات من الناس يستولي بعضها على عمل البعض الآخر وذلك لاختلاف المكان الذي تحتله في قطاع معين من الاقتصاد الاجتماعي » • فلندرس هذا التعريف •

ان المجتمع لايمكن ان يتكون من طبقة واحدة وحسب ، فهو اما مجتمع طبقي واما مجتمع لا طبقي • فالمجتمع الطبقي موزع الى فئات كبيرة من الناس يناقض بعضها البعض • وان الفوارق بين الطبقات تنفذ الى جميع ميادين الحياة الاجتماعية من الاقتصاد الى الايديولوجيا ، لكنها تظهر في الانتاج •

ان الطبقات هي ظاهرة تاريخية ملازمة للتشكيلات الطبقية المتناقضة • وتكون الطبقات في كل منها أصيلة ومختلفة من حيث مكانها في الانتاج : فبعض الطبقات تكون مسيطرة وأخرى مظلومة • وان وضع الطبقات هذا مشروط بعلاقتها المختلفة بوسائل الانتاج • وهذه هي أهم سمة محددة للفوارق الطبقية • فليس ثمة طبقات في المجتمع الذي يكون الناس فيه ذوي علاقة واحدة بوسائل الانتاج • ان الملكية الخاصة لوسائل الانتاج هي الأساس الاقتصادي لانقسام المجتمع الى طبقات ، أساس استغلال مالكي وسائل الانتاج للطبقات الكادحة

المنتجة للخيرات المادية • وهكذا ، فان السمتين الأولين للفوارق الطبقية اللتين أشار اليهما لينين تعبران عن جوهر وخصائص النظرية الماركسية للطبقات • فهما تكشفان عن الرابطة بين وجود الطبقات وبين التشكيلات الاجتماعية المعينة وتبرزان المقياس الرئيسي لتحديد الفوارق الطبقية ، ذلك المقياس هو العلاقة بوسائل الانتاج • أما السمات الأخرى فهي سمات فرعية •

ان العلاقة بوسائل الانتاج تحدد دور الطبقة في التنظيم الاجتماعي للعمل• وان البورجوازية في العهد الرأسمالي هي منظمة الانتاج ، بينما العمال يكونون مضطرين للخضوع الى المنظمة الرأسمالية للعمل • وينبغي القول بأن الرأسماليين ليسوا رأسماليين لأنهم ينظمون الانتاج • وانما الأمر على العكس من ذلك ، فهم يقومون بتنظيم الانتاج لأنهم رأسماليون ـ مالكون لوسائل الانتاج الرئيسية •

ويتسع استخدام الرأسماليين للناس الاختصاصيين من أجل تنظيم الانتاج• فيقدمون لهم الرواتب الباهظة والمراكز العالية كرؤساء للشركات ومدراء ومراقبين ••• الخ •

أما الانتهازيون في الرأسمالية المعاصرة، وكذلك الاصلاحيون والتحريفيون فهم يصورون حقيقة عدم قيام مالكي وسائل الانتاج بالادارة المباشرة للانتاج على أنه يعني ، أولا ، تغييراً لشكل الرأسمالية الى ما يدعى ب «مجتمع المديرين» كما لو كان الاختصاصيون التكنيكيون هم أصحاب الحل والربط وليس الرأسماليون • وثانياً ، فهم يفسرون هذه الحقيقة على أنها تصفية للاستغلال • ويعتبر هذا الرأي نموذجيا بالنسبة للنظريين البورجوازيين، وذا انتشار واسع بينهم•

وبالطبع ، ان الرأسمالية المعاصرة تختلف عن رأسمالية القرن الماضي ، لكنها لا تتعدى كونها رأسمالية • ان « المديرين » ينفذون ارادة الرأسماليين المالكين ، ويبقى الربح هدف الانتاج ، كما وان الاستغلال يبقى بكليته • لكنه ثمة نتيجة مهمة لتحليل هذه العملية ـ فهي تبرهن على التطفل المتزايد لطبقة البورجوازية وعدم لزومها مطلقاً للانتاج • وكما تدل تجربة الاتحاد السوفييتي

وبلدان المعسكر الاشتراكي الأخرى ، فان الكادحين ، وفي طليعتهم الطبقة العاملة ، اذ وضعوا أيديهم على وسائل الانتاج ، فهم ينظمون الانتاج الاجتماعي بنجاح وبدون الرأسماليين ٠

والسمة الأخيرة التي أشار اليها لينين هي ـ أشكال ومقدار الدخل ٠ وعلينا أن ندرس هذه السمة بربطها مع كل السمات الأخرى ٠ ثم يجب الا نسى أن العلاقة بوسائل الانتاج تحدد طريقة تحصيل الدخل ومقداره لهذه الطبقة أو تلك ٠ وهكذا ، فان البورجوازي والبروليتاري يختلفان بشكل الدخل ، اذ هو الربح عند الأول ، وأجور العمل عند الثاني ٠ وان حفنة الرأسماليين ينفردون بحصة الأسد من الثروة الاجتماعية وذلك على شكل أرباح ، بينما تكون اجرة العمل لملايين العمال تؤلف قيمة قوتهم العاملة ، وحتى على هذا غالباً لا يحصلون ٠

ان مسألة التوزيع تلعب دوراً مهماً في حياة المجتمع لأن طابع التوزيع يدفع الانتاج مباشرة ويحدد مستوى حياة الفئات المختلفة من السكان ٠

وان الايديولوجيين البورجوازيين يصورون الرأسمالية المعاصرة كلوحة شاعرية ٠ فيصدر عنهم كما لو أن في البلدان الرأسمالية المتطورة يتم التوازن بين الدخل وبين مستوى المعيشة : فيتقلص دخل الأغنياء ، ويزداد دخل الفقراء ، وتتسع « الطبقة الوسطى » التي تبتلع الفئات العلوية والسفلية ٠ ومن هنا ينتهون الى القول « باختفاء » الفوارق الطبقية والنضال الطبقي في المجتمع الرأسمالي ، وبالطبع ، بعدم ملاءمة الماركسية للنظام الرأسمالي ٠

لكن هذه اللوحة تشوه الواقع ٠ لنأخذ ، على سبيل المثال ، الولايات المتحدة الأمريكية أغنى بلد رأسمالي في العالم ، حيث تمكنت الطبقة العاملة في نضالها ضد الرأسمالية من تحقيق مستوى للأجور أعلى منه في البلدان الرأسمالية الأخرى ٠ فهل هناك ثمة تساو في الدخل ؟ هاكم بعض الأرقام : في عام **١٩٥٧** كان متوسط الدخل لـ **٢٠**٪ من الأسر الامريكية ذات الدخل المنخفض يؤلف حوالي **١٥٠٠** دولار في العام ، ومتوسط الدخل لـ **٥**٪ من الأسر الأوفر سعة

كان يؤلف ٢٥٫٠٠٠ دولار في العام ـ أي ان الفرق ١٧ ضعفاً تقريباً• فأي توازن هذا ؟ لكن متوسط الأرقام لايكفي دائماً • ففي ذلك العام كانت أجور الزنوج في الولايات المتحدة الأمريكية أقل بـ ٣٦٫٦٪ والزنجيات بـ ٤٠٪ من أجور البيض • وان نسبة ٣٣٪ من سكان الولايات المتحدة الأمريكية يعيشون في الأكواخ • ان الرأسماليين يقبضون على الكمية الرئيسية من الدخل القومي • فلو أخذنا العالم الرأسمالي ككل لوجدنا أن الهوة بين الغني والفقير أشد عمقاً•

وهنا ينبغي التأكيد على ان كل الطبقات المستغلة تملك دخلا ناتجاً لا عن عملها وانما عن ابتزاز عمل الغير • وان النشاط الانتاجي المادي للكادحين هو ينبوع غنى الطبقات المستغلة • وتظهر الطبقة المسيطرة الشكل المعيَّن للملكية الخاصة التي تشرط سيطرة طبقة على أخرى بمظهر قدسي ، وتعززه بطريقة سن القوانين ، وتحميه بكل ما لدى الدولة من قوة •

نشـــوء الطبقـات

في مرحلة معينة من تطور الانتاج تنشأ امكانية بل حتمية ظهور الطبقات• ان لامكانية ظهور الطبقات جذورها العميقة في مستوى معين لانتاجية العمل حيث يظهر العمل الفائض ويصير استغلال قوى الانسان العاملة أمراً مربحاً اقتصادياً • ولقد أشار ماركس لدى توضيحه لهذه الفكرة في « رأس المال » الى أنه طالما لم تبلغ انتاجية العمل الحد الأدنى المطلوب بعد فلن يكون عند العامل عمل فائض ، وبدون العامل لا ينشأ العمل الفائض ، وبالتالي لن يكون هناك رأسماليون أو اقطاعيون أو مالكو عبيد ، وبكلمة أخرى ، لن توجد تلك الطبقة من الملاكين الكبار الذين يعيشون على حساب عمل الغير •

وان لحتمية ظهور الطبقات جذورها في مستوى معين لتطور الانتاج حيث يكون تطوره مستحيلا بدون تقسيم العمل • ولقد أشار انجلس ، اذ أوضح هذه الفكرة في كتابه « أنتي دهرينغ » ، الى أنه طالما يعطي العمل الإجتماعي انتاجاً يكاد يفوق حد الوسائل الضرورية لوجوده ، وطالما أن العمل يستهلك معظم الوقت أو كله لغالبية أفراد المجتمع ، فان المجتمع لابد وأن

ينقسم حتماً الى طبقات • والى جانب هذه الغالبية العظمى ـ المنهمكة بعمل قسري تنشأ طبقة متحررة من العمل الانتاجي وتقوم ببعض الاعمال الاجتماعية كادارة العمل أو الحكم أو القضاء أو في مجالي العلم والفن الخ ••• وعن هذا ينتج أن قانون تقسيم العمل كامن في أساس نشوء الطبقات •

ان ظهور الطبقات يعني تقسيم المجتمع الواحد • كيف تتكون الطبقات نتيجة لتطور الجماعية القبلية البدائية ؟

ان تطور قوى الانتاج ونمو انتاجية العمل وتقسيمه تخلق المنطلقات الاقتصادية من أجل ظهور الطبقات • فهي تتكون بادىء ذي بدء عن طريق تقسيم الجماعية البدائية الى فئات طبقية • فتتشكل الطبقة المسيطرة من تلك الأسر التي كانت تستولي على بعض الواردات الاجتماعية وتستخدمها من أجل تجميع الثروات الضخمة •

ان الناس المختارين من أجل ادارة وظائف اجتماعية معينة في ظروف تقسيم العمل والملكية الخاصة لايفتؤون يضعون أيديهم على الوارداتالاجتماعية ليجعلوها ملكاً لهم مدى الحياة ثم يتوارثها أحفادهم من بعدهم •

وهكذا يتحول خدم المجتمع الى سادته •

ان كثيراً من نظريي البورجوازية والبورجوازية الصغيرة كانوا يؤكدون أن المصدر الأول لتقسيم المجتمع الى طبقات هو الاكراه ، لقد لعب الاكراه دوراً كبيراً في عملية نشوء الطبقات ، لكنه لايستطيع لوحده أن يولد الطبقات• فعندما كان الناس يستخدمون الفأس الحجرية لم يكن ليستطيع الاكراه أن يولد انتاجاً فائضاً ، وبالتالي : أن يخلق الشروط لوجود علاقات استغلالية • فالاكراه ليس سبباً وانما نتيجة ! وان الأسباب الاقتصادية هي التي مهدت السبيل لنشوء الطبقات •

ان أول تقسيم طبقي للمجتمع كان الى فئتين : فئة العبيد ، وفئة ملاكي العبيد •

ولكن ينبغي أن لانقف عند هـــذه النقطة ، فالانتقال من المجتمـــع العبودي الى المجتمع الاقطاعي ، ومن المجتمع الاقطاعي الى الرأسمالي لايعني انتقال هاتين الطبقتين الى التشكيلة الجديدة ـ انتقال العبيد الى فلاحين وملاكيهم الى اقطاعيين ـ لقد كان تغير التشكيلة العبوديـة الى تشكيلة اقطاعيـة مرتبطاً بعملية جد معقدة •

وعندما درس ماركس عملية التراكم الرأسمالي الأولي في « رأس المال » أعطى وصفاً لظهور الطبقتين الرئيسيتين في التشكيلة الرأسمالية : البورجوازية والبروليتاريا •

ولقد بلغ المجتمع في وقتنا هـذا مستوى من التطور نضجت فيه مسألة القضاء عـلى الطبقية • وان البلدان الاشتراكية تقوم بحل هـذه المسألة حلا تطبيقياً عملياً •

٢ ـ تحليل البنية الطبقية للمجتمع

طريقة التحليل الطبقي : ان النظرية الماركسية اللينينية للطبقات تمكننا من فهم دوافع الناس الكثيرة والمتنوعة وربطها بالمصالح الماديـة المعينة للفئات الاجتماعية الكبيرة ـ الطبقات ، ربط الفردي بالاجتماعي العام • ان تحليل الجذور الاجتماعية لتلك الدوافع يسمح بكشف الأسباب الماديـة التي تحدد أفكار الطبقات وعلاقاتها السياسية ، وحركـة الجماهير الواسعة وتصادمها • فمثلا يمكن أن يكون الرأسمالي رب أسرة صالحاً ، يحب أولاده ويهوى جمع التحف والأشياء الصغيرة الجميلة الأخرى ، بينما الآخر يكون شريراً حقوداً شيطانياً لايهمه أمر أسرته أو ماعداها ••• لكن الأمر الرئيسي الذي يجمع بينهما هـو أن لكلٍ منهما ملكية وكلاهما رجل أعمال يبتز الأربـاح ويقوم بتمثيل طبقته الاجتماعية • فمن أجل معرفة طبقة الرأسماليين لاتهم الجدارة الشخصية وعيوب ممثلي هـذه الطبقة ، بل المهم هو في نشاطها المندفع وراء الربح وفي أنها تعيش على استغلال البروليتاريا ، وتهتم في حفظ وتمتين علاقات السيد والمسود • وبالطبع ، ان هذه العلاقات والمصالح الطبقية تنفذ الى العلاقات الشخصية في المجتمع البورجوازي وتترك أثرها الواضح على الصفات الخاصة

بممثلي الطبقات البورجوازية • ان التأثير المفسد لهذه المصالح وتناقضها مع العلاقات الانسانية الصحيحة تنعكس في مؤلفات كثير من الكتاب الواقعيين • والحقيقة أن تلك المصالح بالذات هي الدافع المحرك الأساسي لنشاط البورجوازية كطبقة ، وينبغي ألا ننسى هذا لدى تحليلنا للمجتمع الرأسمالي •

وهكذا فنحن ، اذ نحدد المصالح الرئيسية للطبقات ، المشروطة بمكانها التاريخ في نظام معين للانتاج ، نستطيع أن نبين بجلاء الى ماذا تهدف كل طبقة بالنسبة لشروط حياتها ، وماذا تحقق من تلك الأهداف ؟ وأن نفهم كذلك العمليات العميقة التي تحدث في المجتمع • وعند تحليلنا للبنية الطبقية لمجتمع أو لبلد ما ونحدد مصالح كل طبقة فيه ، فاننا نحصل على لوحة موضوعية للعلاقات بين قوى ذلك المجتمع ، ونبين الجانب الجوهري لتناقضاته ومنازعاته • ان طريقة الدراسة الطبقية والتحليل الطبقي التي وضعتها النظرية الماركسية ـ اللينينية للطبقات والنضال الطبقي هي المرشد الضروري في دراسة التاريخ ، والوسيلة الكفيلة لاهتدائنا في شبكة النضال المعقدة • ولقد استخدمت هذه الطريقة عملياً في أعمال ماركس وانجلس ولينين • وتسير على هديها الأحزاب الشيوعية في العالم كله عند تحديدِ سياستها في ظروف النضال الحسية المختلفة •

البنية الطبقية للمجتمع الرأسمالي

ان البنية الطبقية لأي مجتمع هي لوحة شديدة التعقيد • ومن أجل تحليلها تحليلا صحيحاً ينبغي ، قبل كل شيء ، تحديد الطبقات الرئيسية التي تعبر العلاقات فيما بينها عن الخط الرئيسي لتطورها ، منطلقة من قاعدة ذلك المجتمع • وينبغي أيضاً أن نعترف بوجود طبقات ثانوية غير أساسية في المجتمع مرتبطة بوجود قطاعات الاقتصاد ، وفئات اجتماعية متوسطة تختلف بتركيبها عن الطبقات • فلنأخذ ، على سبيل المثال ، البنية الطبقية للمجتمع الرأسمالي المعاصر • ان الطبقتين الرئيسيتين فيه هما البورجوازية والبروليتاريا • وان وجود هاتين الطبقتين في المجتمع مشروط بعلاقات الانتاج الرأسمالية • وخلال التأثير المتبادل بين هاتين الطبقتين تتم حركة الانتاج الرأسمالي • ان البورجوازية والبروليتاريا

هما قطبا المجتمع الرأسمالي المتباعدان ، ومصالحهما تقف مباشرة على طرفي نقيض ، وان هم البروليتاريا هو القضاء على النظام الرأسمالي ، بينما تتشبث البورجوازية بالحفاظ عليه • وان الأحزاب الشيوعية تعبر عن مصالح البروليتاريا الطبقية كقوة ثورية رئيسية للمجتمع الرأسمالي المعاصر •

ان القطاع السلعي الصغير يمثل الحرفيين والتجار الصغار والفلاحين • ولا يشكل الفلاحون طبقة رئيسية وعامة لكل البلدان الرأسمالية • • وتحت تأثير العلاقات الرأسمالية تتفكك طبقة الفلاحين الى بورجوازية ريفية وبروليتاريا ريفية • وان ملكية الفلاحين الخاصة تختلف عن الملكية الرأسمالية الخاصة بكونها قائمة على أساس العمل الخاص • فالفلاحون لايستثمرون عمل الآخرين بل هم أنفسهم يخضعون للاستغلال الرأسمالي •

وبالاضافة الى الرأسماليين والعمال والبورجوازية الصغيرة في المجتمع الرأسمالي ثمة فئة كبيرة من المثقفين والمستخدمين • وهذه الفئة ليست مالكة لوسائل الانتاج ولا منتجة للخيرات المادية ولهذا فهي تمثل فئة اجتماعية ، لا طبقة اجتماعية • فالمستخدمون هم عمال مأجورون خارج نطاق الانتاج للعمل الاجتماعي – أي في مؤسسات الدولة ، والأجهزة الادارية للشركات ، والتجارة •• وغيرها • فالمثقفون هم العاملون بذهنهم : المهندسون والأطباء المعلمون ورجال الأدب والفن ••• وهم من حيث عملهم يؤلفون حداً وسطاً بين الطبقات ويخدمون أغراض الانتاج والمجتمع والطبقة المسيطرة •

وهكذا فبالاضافة الى الطبقات الرئيسية والثانوية في المجتمع ثمة فئات اجتماعية مختلفة قائمة بين الطبقات •

وينبغي علينا ، اذ نواصل تحليلنا للبنية الطبقية في المجتمع الرأسمالي ، أن نلتفت الى أن تلك الطبقات والفئات الاجتماعية جميعاً مختلفة في أصولها • ففيها ثمة فئات ومجموعات ذات مصالح متباينة • ان تحديد الفروق بين البورجوازية الصغيرة والكومبرادور في البلدان المتخلفة ، وبين البورجوازية الصغيرة والبورجوازية الاحتكارية الكبيرة في البلدان الرأسمالية المتطورة ذو

أهمية جوهرية • ففي وقتنا الحاضر نجد أن القوة الاقتصادية والسياسية للعالم الرأسمالي تنحصر في أيدي البورجوازية الاحتكارية ـ أيدي حفنة صغيرة من أساطين رأس المال الذين ينفردون بالكمية الأساسية من الربح • وان مصالحهم تتناقض مع مصالح أغلبية الناس المطلقة • فهم يعلنون العداء للشيوعية ، ويؤرثون نار الحرب الباردة ويركضون وراء التسلح • ان البورجوازية الاحتكارية هي القوة الرجعية الرئيسية في زمننا المعاصر ، المعادية لقضية السلم والديموقراطية والتقدم الاجتماعي •

أما فيما يتعلق بالبورجوازية المتوسطة فهي لا تهتم دائماً بالركض وراء التسلح ، وان البورجوازية الوطنية في البلدان المستعمرة أو التي كانت مستعمرة يمكن أن تكون ، في مراحل معينة ، تقدمية للطبقة العاملة في نضالها ضد الاستعمار •

وتنقسم البورجوازية الصغيرة الى بورجوازية المدينة الصغيرة وبورجوازية الريف ، وتنقسم هذه الأخيرة الى ريفية متوسطة وفقيرة ••• وهكذا •

وفي الطبقة العاملة ثمة فئات العمال الصناعيين والعمال الزراعيين ، ذوي الكفاءات أو غير ذوي الكفاءات ••• الخ •• وهناك فئة الارستقراطية العاملة التي هي القاعدة الاجتماعية للانتهازية ، واننا نلاحظ سقوط تأثيرها وتقلصها في وقتنا الحاضر الذي جاء كنتيجة لسقوط النظام الاستعماري ؛ فقد أدى هذا الى استغناء البورجوازية الاحتكارية في الدول الاستعمارية عن العدد الضخم الذي تضمه الارستقراطية العاملة • وبالاضافة الى هذا ، فان من نتائج التقدم التكنيكي المرتبط بأتمتة الانتاج في النظام الرأسمالي تقلص الحاجة الى العمال ذوي الكفاءات العالية والاختصاصات القديمة • وبنتيجة ذلك تزول أهمية الوظائف ذات الأجور المرتفعة والتي كانت تمثلها الارستقراطية العاملة •

وثمة فئات أخرى مختلفة من المثقفين والمستخدمين يتميز من بينهم مديرو المؤسسات ، كبار الموظفين ، الاختصاصيون التكنيكيون ••• وغيرهم • وهذه الفئات تندمج في الواقع مع البورجوازية ، أو تلتقي معها بنمط وطريقة التفكير • وان الفئات الدنيا من المثقفين والمستخدمين يستغلهم الرأسماليون •

وان معدل الأجور الوسطى لتلك الفئات من المثقفين هو أدنى من الحد الوسطي لأجور العمال ذوي الكفاءات • وبموجب مكننة الحسابات وأعمال المحاسبة وأشكال النشاط الاخرى خارج نطاق الانتاج تتقارب شروط عمل العمـــال والمستخدمين • ويزداد الآن نمو ووزن المستخدمين والمهندسين التكنيكيين في المؤسسات الرأسمالية • ولهذا فقد اعتبر الماركسيون في كثير من البلدان أن هذه الفئة من الكادحين يمكن أن تعد صفاً من صفوف الطبقة العاملة في وقتنا الحاضر • فهم يقولون ان المستخدمين هم أيضاً عمال لكنهم لايرتدون بدلات زرقاء وانما ذوو ياقات بيضاء ، وان الوظائف التي يقومون بها تؤلف جزءاً هاماً في بنية الانتاج بموجب مهمات الأتمتة الجديدة للتكنيك • وثمة فريق آخر يعتبر أن هذه النظرة غير صحيحة ألبتة • ففي البلدان الرأسمالية نلاحظ بالطبع ، عملية « ازالة الحدود » بين العمال وقسم من المستخدمين ، وتحول المستخدمين الى بروليتاريين ، واقترابهم من الطبقة العاملة • ومع هذا يبقى بين العمال والمستخدمين ثمة حد مبدئي لايسمح بادخال المستخدمين ضمن الطبقة العاملة • ان الطبقة العاملة تنتج القيمة الزائدة أما نشاط المستخدمين فمرتبط بحسابات القيمة الناتجة ومبادلاتها وتوزيعها ••• الخ • أما مايتعلق بالمهندسين والتكنيكيين الذين يعملون مباشرة في ميدان الانتاج المادي فانهم يقومون بوظيفة المراقبة بالرغم من أن أشياء كثيرة تقربهم من الطبقة العاملة •

وان هذا السؤال جدلي • لكن الجميع يتفقون عـــلى أن البروليتاري الصناعي هو نواة الطبقة العاملة ، والقوة الرئيسية للحركة الثورية •

ان الحدود التي تفصل بين الطبقات والفئات الاجتماعية هي حدود نسبية وغير ثابتة ،ويكون الانتقال تدريجياً ، لكنها موجودة فعلا ، ولتبيانها أهمية فائقة من أجل التطبيق ومن أجل العلم الاجتماعي • ان البنية الاجتماعية للمجتمع الرأســمالي جــد معقدة ، لكننا نستطيع أن نبرز منهـا ثلاث فئات رئيسية : البورجوازية ، والبروليتاريا ، و « الفئات المتوسطة » التي تضم جميع الفئات الاجتماعية المتوسطة والطبقات الثانوية •

واننا نتابع تحليلنا للبنية الاجتماعية ولمصالح الفئات الاجتماعية المختلفة

ووزنها في المجتمع ، ودرجة وطابع تأثيرها على الحياة الاجتماعية ، ونجسدها في بلد ما وفي فئات بلد ما ، وندرس تأثير الخصائص القومية على الطبقات والعلاقة المتبادلة فيما بينها ••• وستكون لدينا في النهاية لوحة موضوعية لوضع العلاقات بين القوى في المجتمع تنبغي معرفتها لدى تفسير سير الأحداث التاريخية ولدى تحديد الخط السياسي لحزب البروليتاريا في هذه الشروط المشخصة أو تلك •

نقد النظريات البورجوازية « التنفيذ الاجتماعي »

ان علماء الاجتماع البورجوازيين ، اذ يستغلون تعقيد البنية الطبقية للمجتمع الرأسمالي الحديث ،يحاولون نفي وجود طبقتين رئيسيتين في المجتمع وتغطية التناقض القائم بين البورجوازية والبروليتاريا ، ويقابلون الماركسية بما يسمى بنظرية « التنضيد الاجتماعي » ، وبموجب هذه النظريات ينقسم المجتمع الى فئات • ومهمة عالم الاجتماع هي في تقسيم المجتمع الى هذه الفئات ـ تنضيد المجتمع وحركة الناس ضمن الفئات وفيما بينها ـ أي الحركة الاجتماعية •

ونتساءل : ماهو المقياس المستخدم لتبيان الفوارق بين هذه الفئات ؟ ولدى الاجابةعن هذا السؤال ليس ثمة رأي واحد بين علماء الاجتماع البورجوازيين• لكنهم جميعاً يتفقون على نفي القول بأن العلاقة بوسائل الانتاج هي الدليل الحاسم في تقسيم المجتمع الى طبقات • وعندما يأتون بمقياس اقتصادي فانهم لايتعدون مجال التوزيع (حجم الدخل) أو الشروط الحياتية المادية(المعيشة)، أي تلك الجوانب من الحياة التي ترتبط بالانتاج • وكمثال على ذلك يمكن أخذ نظرية « التنضيد ذو المقاسيس الكثيرة » الصادرة عن عالم الاجتماع الألماني م • فيبر (توفي عام ١٩٢٠) • وهذا يعتبر أن المجالات الاقتصادية الاجتماعية (« نمط الحياة ») والسياسة هي « مقاييس » مختلفة وقائمة بذاتها للحياة الاجتماعية ، ويفترض أنه من الممكن دراسة الفوارق الاجتماعية في كل من هذه المقاييس على حدة • وبهذه الطريقة يحصل على عدة « تنضيدات » : ففي المقياس الاقتصادي ينقسم الناس الى طبقات ، وفي المقياس الاجتماعي ـ يتكون ال« ستاتوس » ؟ وفي المقياس السياسي ـ يظهر الانقسام الى أحزاب •

ان عيب هذه النظرية هو في نفيها لارتباط مجالات الحياة الاجتماعية المختلفة بالاقتصاد ، في استبدالها النظرة الموحدة العميقة للحياة الاجتماعية الى نظرة شكلية ظاهرية ، وهذا مايتسم به علم الاجتماع البورجوازي المعاصر بوجه عام • وليس من قبيل الصدفة حملهم مبدأ «التنضيد الاجتماعي» كأحد منجزات العلم الاجتماعي • وعلى أساس هذا المبدأ قام كثير من النظريات التي تختلف عن نظرية فيبر ، والواحدة منها عن الاخرى ، بعدد المقاييس وطابع السمات الموضوعة في أساس التنضيد • وقد قال عالم الاجتماع البورجوازي الانكليزي ت • مارشال بصدد هذا المبدأ في المؤتمر الدولي الثالث لعلم الاجتماع عام ١٩٥٦ : « ولم يعد ثمة ريب الآن أن في كل مجتمع تقدمي ، حيث النشاط الاجتماعي والثقافي على مستوى جيد من تطوره ، تعمل بعض مقاييس التنضيد » •

ان نظريات « التنضيد الاجتماعي » ليست علمية اجمالا • وان مايميزها جميعاً ،وهو ماترفضه المادية التاريخية ،هو في دحضها للمقياس الاقتصادي الموحد من أجل تحديد بنية المجتمع الطبقية ؛ وفي خلطها مابين التقسيم الطبقي الرئيسي للمجتمع وبين الحواجز الانتاجية الثانوية بين الناس ؛ وفي أنها تفضي بنا حتماً الى الذاتية في فهم التاريخ ؛ وفي تغطيتها للتناقض القائم بين الطبقتين الرئيسيتين في المجتمع الرأسمالي • وفي هذا تتجلى الطبيعة الطبقية لنظرية «التنضيد الاجتماعي»، ودورها المفيد بالنسبة لمصالح البورجوازية •

ولن يفلح حماة الرأسمالية المعاصرة في التهرب من الحقيقة القائلة بأن علاقات الانتاج الرأسمالية ذات طابع طبقي متناقض ، لأن علاقات الاستغلال هذه علاقات السيطرة والخضوع ستولد حتماً النضال الطبقي •

٣ ـ النضـال الطبقي ، ودوره في التاريخ

خصائص النضال الطبقي للبروليتاريا

النضال الطبقي ـ قوة محركة لتطور التشكيلات المتناقضة

ومع انقسام المجتمع الى طبقات ينشأ النضال الطبقي الذي يؤلف ـ كما رأينا ـ خاصة التطور لكل التشكيلات الاجتماعية المتناقضة • وان النضال الطبقي،

اذ ينشأ عن علاقات الملكية الخاصة ، يصير وسيلة في يد الطبقة المستغلة من أجل تعزيز سيطرتها ، والطريقة الوحيدة للتحرر من يد الطبقة المظلومة المضطهدة • وثمة قطبان دائمان في النضال الطبقي : محافظ رجعي ـ من جهة ، وثوري من جهة أخرى • فالأول يسعى للمحافظة على القديم ، والثاني الى تحطيم هذا القديم ، وانشاء علاقات اجتماعية جديدة •

وان الطبقات تعمل حسب مصالحها المرتبطة بالعلاقات الانتاجية • ان مصلحة الطبقات المظلومة تدفعها الى النضال ضد المستغلين • وطالما أن الشروط المادية لقيام النظام الاجتماعي الجديد لم تنضج بعد ، فان التشكيلة القديمة لم تستنفد كل امكانياتها بعد ، ويتسنى لها بذلك الابقاء على القديم في نضالها ضد الطبقات المظلومة •

ان القوى الثورية تنتصر عندما تنضج المنطلقات المادية اللازمة لهذا النصر ، عندما يحتدم النزاع بين قوى الانتاج الجديدة وعلاقات الانتاج القديمة في قلب المجتمع • وفي هذه الظروف يكون النضال الطبقي الثوري للقوى الشعبية التي يهمها تحطيم العلاقات الاقتصادية المهترئة هو وحده القادر على حل هذا النزاع وفتح الطريق أمام تطور قوى الانتاج • ان النضال الطبقي الثوري هو الوسيلة الوحيدة التي بواسطتها تحل القضايا الناضجة للتطور الاجتماعي في التشكيلات الطبقية المتناقضة ، ويكفل انتصار الجديد على القديم• ولهذا فهو القوة المحركة لتطور التشكيلات الطبقية ، وشكل حل التناقضات الاجتماعية في ذلك المجتمع •

ان خاصة كل تشكيلة اجتماعية قائمة على الملكية الخاصة هي في أن تناقضاتها لايمكن أن تحل في نطاق هذا الشكل من الملكية • ومع تطور التشكيلة تتعمق هذه التناقضات وتحتدم وتنعكس في النضال الطبقي ، وتُحَل بالثورة التي تحطم النظام القديم وتفتح الطريق أمام تطور أسلوب الانتاج الجديد • فالثورة ذاتها هي أعلى نقطة في قمة النضال الطبقي • وبهذا ، فان نضال الطبقات الثورية هو ذلك الشكل الضروري تاريخياً للتطبيق الاجتماعي ، الذي يؤدي الى الخروج عن نطاق التشكيلة الاجتماعية المتفسخة فيحرك بهذا المجتمع قدماً

الى الأمـام ، ويرفعه الى درجة جديدة أعـلى تكون شروطها الماديـــة مهيأة لتطور الانتاج •

فالنضال ضـد ملاكي العبيد قوض بنيان المجتمـع العبودي ؛ ونضال الفلاحين وحرفيي المدينة الصغار تحت قيادة البورجوازيـة أدى الى سقوط النظام الاقطاعي وفتح الطريق للتطور الرأسمالي • وفي عهد الرأسمالية يتطور نضال البروليتاريا ضد البورجوازية •

وان النضال الطبقي يؤثر كذلك على تطور قوى الانتاج • فكما أوضح ماركس ، ان نضال العمال من أجـل تقليص يوم العمـل جعل الرأسماليين مضطرين للبحث عن وسـائل مضاعفة الأربـاح بطرق أخرى ـ كادخـال الآلات مثلا •

وان النضال الطبقي يؤثر أيضاً على الجوانب الأخرى للحياة الاجتماعية• فالتغيرات في البنيان الفوقي القانوني ـ السياسي ، والظواهر الكثيرة في مجال الأدب والفن ، وكـل النضال الايديولوجي في المجتمـع ، يحددهـا جميعاً النضال الطبقي •

جوهر النضال الطبقي للبروليتاريا ومهماته

ان مأثرة الماركسية اللينينية التاريخية هي في تحليلها العملي لنضـال البروليتاريا الطبقي وأسباب نشوئه ومجالات تطوره • وان منطلقات الماديـة التاريخية بالنسبة لهذا الموضوع هي فيما يلي :

ان التناقضات العنيفة الحادة بينالبروليتاريا والبورجوازية تنشأ حتماً عن العلاقات الانتاجية الرأسمالية ، علاقات استغلال رأس المال للعمل المأجور • وان ظروف الحياة نفسها تدفع البروليتاريا الى النضال ضد البورجوازية من أجل تحسين معيشتها • ومع تطور الرأسمالية لاتخف حدة هذه التناقضات بل تزداد احتداماً •

والى جانب هذا فالرأسمالية تطور الشروط الماديـة التي تحدد اتجاه

نضال البروليتاريا الطبقي ونتائجه الحتمية • والرأسمالية ، اذ تطور القوى الانتاجية الجبارة وتعطي عملية الانتاج الطابع الاجتماعي ، تخلق المنطلقات المادية للقضاء على الاستغلال واستبدال الملكية الخاصة بملكية اجتماعية ملائمة لطابع قوى الانتاج • ان وجود الطبقات ، الذي كان ضرورة في احدى مراحل تطور الانتاج الاجتماعي ، يتحول الى عائق للتقدم التاريخي • وفي مثل هذه الشروط لايقدر البروليتاري أن يحرر نفسه الا بتحرير المجتمع ككل من الملكية الخاصة ومن الاستغلال • وان حل هذه المسألة الاجتماعية يؤلف المهمة العالمية التاريخية العظيمة للبروليتاريا ـ أكثر الطبقات ثورية في التاريخ •

ويتهمون الماركسيين بأنهم يجعلون من البروليتاريا صانعة للمعجزات ، ويعتبرونها الطبقة « المختارة » • لكن هذه الاتهامات قائمة على الرمال ، حيث أن لكل طبقة خصائصها ، وليس ثمة مستحيل في هذا ، وان لطبقة البروليتاريا خصائصها اذن • فهي طبقة لاتملك شيئاً ، وليست ملزمة بالدفاع عن أية ملكية خاصة حتى الملكية الصغيرة ، وهي لاتفقد شيئاً غير قيودها • وليس من ريب اذن في أنها المناضل الذي لايكل ضد كل ملكية خاصة • ثم ان البروليتاريا مرتبطة بأكثر أشكال الانتاج تقدمية ـ بالصناعة الضخمة ، ولهذا فهي تتطور مع تطور الرأسمالية • وجماهير البروليتاريا تتجمع بحشود ضخمة في المعامل والمصانع ، وفي المدن والمراكز الصناعية • وان شروط العمل الجماعي تعلمها على النظام والتنظيم • وان وضع الطبقة في المجتمع الرأسمالي يحفزها الى النضال الحاسم من أجل الاشتراكية • وبهذا ، فالأمر ليس دعاية لطبقة البروليتاريا وانما هو تقييم للواقع الموضوعي للأشياء • لكن البروليتاريا لاتخوض النضال لوحدها ، فالرأسمالية ، ولاسيما الاحتكارات الرأسمالية تظلم وتستغل الفلاحين وبورجوازية المدينة الصغيرة والقائمين بالعمل الذهني وكل شعوب المستعمرات والبلدان الدائرة في فلك الاستعمار • ولهذا فان مصالح البروليتاريا تلتقي مع المصالح الجذرية لكل الجماهير الكادحة ، مع مصالح غالبية المجتمع ، ويؤهلها وضعها هذا لأن تقود كل الجماهير المستغلة الى النضال من أجل الديموقراطية والاشتراكية • وان مبادىء الماركسية ـ اللينينية هذه مؤيدة

بالتطبيق العملي . ان المجتمع الرأسمالي المعاصر هو ميدان للنضال الطبقي الحاد . وتختلف خصائص هذا النضال من بلد الى آخر ، فهو يتخذ أشكالا حادة في بعض البلدان حسب ظروفها الموضوعية ، ويكون أقل حدة في بعضها الآخر ، لكنه قائم في كل مكان . وهو ينتج عن استغلال الكادحين وعن الضغط المستمر على مستوى المعيشة الذي يقوم به رأس المال ، وعن التهديد بفقدان المكتسبات الاجتماعية أو الحد منها ، وعن هجوم الاحتكارات على الحقوق الديموقراطية والحريات ، وعن السياسة العدوانية الخطرة التي تنتهجها البلدان الرأسمالية الكبرى ، هذه السياسة الموجهة للركض وراء التسلح واشعال نار حرب جديدة .. الخ .. وكما جاء في البيان الصادر عن مؤتمر ممثلي الأحزاب الشيوعية والعمالية عام ١٩٦٠ : « وفي النتيجة ، ومع احتدام التناقض الطبقي الرئيسي في المجتمع البورجوازي بين العمل ورأس المال، يزداد التناقض عمقاً بين حفنة الاحتكاريين وجميع فئات الشعب ...

وان الطبقة العاملة والفلاحين والمثقفين وبورجوازية المدينة المتوسطة والصغيرة جميعاً تلتقي في اهتمامها بالقضاء على سيطرة الاحتكارات وتصفيتها . وتنشأ الشروط الملائمة لتراص ووحدة هذه القوى جميعاً »[1] .

وليس النضال ضد سيطرة الاحتكارات في مرحلة معينة نضالا من أجل الاشتراكية ، وانما يكون ذا طابع ديموقراطي عام . لكنما في هذا النضال ينمو وعي الجماهير السياسي ويزداد التفافهم حول طبقة البروليتاريا ، ويمهد الطريق لفهم ضرورة الثورة الاشتراكية .

ان النضال من أجل الديموقراطية هو جزء من النضال من أجل الاشتراكية .

وبهذا ، فان ديالكتيك التاريخ يرينا كيف أن الرأسمالية ذاتها تخلق عناصر فنائها ، وتهيء المنطلقات المادية لموتها . لكن افلاس الرأسمالية لايتم بصورة آلية تلقائية ، ان القوة المحركة لهذه العملية هي النضال الطبقي الثوري

---

(١) وثائق النضال من أجل السلم والديموقراطية والاشتراكية ص ٧١ — ٧٢ .

الذي تخوضه البروليتاريا والجماهير الكادحة المنضوية تحت قيادتها ، لاسيما اتحاد الطبقة العاملة مع الفلاحين •

المفهوم الماركسي والمفهوم الليبرالي للنضال الطبقي

ان النضال الطبقي للبروليتاريا موجه ضد النظام البورجوازي بكليته • لكنه من أجل تحطيم الرأسمالية لابد للبروليتاريا من أن تنتزع السلطة من الرأسماليين • ولهذا ، فان مسألة السلطة هي المسألة الأساسية والرئيسية في النضال الطبقي • وان هدف النضال الطبقي للبروليتاريا هو اقامة دكتاتورية البروليتاريا التي تستعملها هذه الطبقة كأداة لتحويل المجتمع ، أي للقضاء على الرأسمالية وبناء الاشتراكية • وليس هذا الهدف بدعة ، وانما هو رؤية علمية صحيحة لاتجاه التطور التاريخي • واذا كانت مصالح البروليتاريا والبورجوازية متناقضة ، واذا كان تطور الرأسمالية يهيء المنطلقات المادية للقضاء على الملكية الخاصة واستبدالها بملكية اجتماعية ، واذا كان لابد من مقاومة البورجوازية لقيام البناء الاجتماعي الجديد ، وبما أن البروليتاريا هي أكثر الطبقات تنظيماً وثورية في المجتمع الرأسمالي ، فان الطريق الى الاشتراكية لايمكن الا بقيام ديكتاتورية البروليتاريا • وهذا يعني أنه يجب على الطبقة العاملة تحقيق دكتاتورية البروليتاريا ليس لمصالحها الخاصة وحسب ، بل ولمصالح كل الكادحين ، لمصلحة التقدم التاريخي • ولايمكن أن تؤدي البروليتاريا هذه المهمة الا بطريق النضال الطبقي العنيف ضد البورجوازية • ولهذا فان الماركسية تقر ديكتاتورية البروليتاريا كنتيجة للنضال الطبقي الذي تشنه البروليتاريا في المجتمع البورجوازي • ان النضال الطبقي يؤدي حتماً الى ديكتاتورية البروليتاريا ، وان النظرية الماركسية تعبر عن هذه الضرورة الموضوعية • « فالماركسي هو فقط ذلك الذي يوسع الاعتراف بالنضال الطبقي الى الاعتراف بديكتاتورية البروليتاريا »[1] • هذا هو المفهوم الماركسي حول النضال الطبقي •

وتسعى البورجوازية وفقاً لمصالحها الطبقية الى سحق الحركة الثورية

---

(١) لينين المؤلفات • الجزء ٢٥ • ص ٣٨٤ •

للطبقة العاملة ، وتستخدم من أجل ذلك ، شتى أنواع العنف وطرق التأثير الايديولوجي على طبقة البروليتاريا من أجل حرمانها من وعيها الطبقي وربطها بايديولوجيا مناسبة للبرجوازية • ويساعد الرأسماليين في هـذا عملاؤهم المندسون في الحركة العمالية ـ الاصلاحيون والتحريفيون • ان البورجوازية وعملاءها تسعى لاقناع البروليتاريا بأن التناقضات الطبقية يمكن حلها بسهولة في نطاق النظامالبورجوازي ذاته ، وبأنه اذا ما قام النضال كان عليه أن يؤدي لا الى القضاء عـلى الرأسمالية ، وانمـا الى المصالحة بين الطبقات • وتعترف البورجوازية أحياناً بالنضال الطبقي ، لكنها لاتقدر أبداً عـلى الاعتراف بأن النضال الطبقي يؤدي الى ديكتاتورية البروليتاريا • فقد كتب لينين فاضحاً هذا التشويه الليبرالي ـ البورجوازي : « ان الليبرالية ، عندما يشتد ساعد الحركة العمالية ، لاتعزم على نفي النضال الطبقي ، وانمـا تسعى الى تضييقه وحصره وتشديد الخناق عليه وتشويه مفهومه »[٢] • وان هذا « التضييق » ، كما بين لينين ، ينحصر في انتزاع كل ماهو رئيسي في النضال الطبقي ـ مسألة انتزاع البروليتاريا للسلطة • وان البورجوازيـة تعترف بالنضال من أجـل المطالب الاقتصادية والاصلاحات الاجتماعية بشرط ألا يوجه ضـد نظام الرأسمالية بالذات • وان السياسيين والايديولوجيين البورجوازيين يقابلون النضال الطبقي بالسلم الطبقي ،بتعاون الطبقات ، بالصداقة بينالعمل ورأس المال • لكنه خلف هذه الكلمات « السلمية » تكمن المطالبة باستسلام البروليتاريا لوضعها القاسي وبتخليها طوعاً عن أهدافها وبخضوعها للايديولوجيـا البورجوازية وبتحولها الى أداة طيعة في يد السياسة البورجوازيـة • ويقوم بترويج شعارات التعاون الكاذبة المنافقة هذه الاشتراكيون الديموقراطيون اليمينيون والانتهازيون الذين هم عملاء للبورجوازية في الحركة العمالية • ان الاشتراكيناليمنيين المعاصرين يرغبون عن ذكر النضـال الطبقي في برامجهم ويرغبون عن الطريق الطبقي في حل كل القضايا السياسية والاجتماعية •

ومن أجل نفي النضال الطبقي في علـم الاجتماع البورجوازي في وقتنا

---

(٢) لينين المؤلفات • الجزء ١٩ • ص ٩٨ •

هـذا تستخدم نظريات شتى حـول الطبقات ، معاديـة للماركسية ، مثـل « التنضيد الاجتماعي » و « الحركة الاجتماعية » وسواهما • ويؤكد علماء الاجتماع البورجوازيون ،بعد أن ينكروا التناقض القائم بين الطبقتين الرئيسيتين في المجتمـع الرأسمالي ، أن التقدم ليس مرتبطاً بانتصـار القوى الثوريـة ، وانما بنمو « الحركة الاجتماعية » ، أي ، بانتقال الناس من طبقة اجتماعية دنيا الى طبقة أعلى • وكلما قدم هذا المجتمع من الامكانيات لهذه الحركة كلما كان أكثر تقدمية • ومافتئت الدعاية الاميركية تردد وفقاً لنظرية « الحركـة الاجتماعية » بأن كل أمريكي يستطيع أن يصبح مليونيراً • وهي ، اذ تخدع الناس بمثل هـذه البدعة الكاذبـة ، ترغب الجماهير عن النضـال مـن أجل حقوقها •

وفي الواقع ليست « الحركة الاجتماعية » في الرأسمالية هي التي تفتح المجال واسعاً أمام جماهير الكادحين من أجل تأمين حياة راغدة فعلا وتحصيل العلم والثقافة والخيرات المادية الأخرى ، وانما القضاء على الرأسمالية ذاتها هو الذي يؤمن ذلك كله •

ولـذا ، ففي فهم النضال الطبقي ثمة فريقان متناقضان : وجهـة النظر الماركسـية التي تبين طريق تحرر البروليتاريا ، ووجهـة النظر البورجوازية الموجهة لاخضاع البروليتاريا لمصالح البورجوازية • وتنفي هذه الأخيرة القول بأن النضال الطبقي يؤدي حتماً الى ديكتاتورية البروليتاريا ، وهي لاتسمح للحركة العمالية أن تتعدى الحدود التي ترضى بها البورجوازية •

أشكال النضال الطبقي

ان النضال الطبقي للبروليتاريا بمقارنته مع نضال الطبقات في التشكيلات السابقة ، هو أكثر تنظيماً وتطوراً • ان تناقض الطبقات يتجلى في جميع ميادين الحياة الاجتماعية ، لكنه يختلف من ميدان الى آخر • وان الشكل الاقتصادي والسياسي والايديولوجي هي الأشكال الأساسية للنضال الطبقي • فلندرس خصائص هذه الأشـكال والعلاقة المتبادلة فيما بينها بالنسبة لنضال البروليتاريا الطبقي • ان النضال الاقتصادي هو النضال من أجل تأمين الحاجات المعيشية

اليومية للعمال ، وتحسين شروط استغلالهم (رفع الأجور ، تحسين شروط العمل وغيرهما) فقط ، وليس من أجـل القضاء عـلى هـذا الاستغلال • وان النضال الاقتصادي هو الشكل الأول المبكر للنضـال والذي يظهر عفوياً كنتيجة مباشرة لظروف حياة العمال القاسية • وفي سير النضال الاقتصادي تنشأ المنظمات المهنية للعمال من أجل قيادته • ولهذا النضال أهمية بالغة لتصديه لعملية الافقار ، ولمساعدته في نمو التضامن الطبقي ••• لكنه ينبغي علينا أن نعرف أن هذا النضال محدود لقيامه من أجل تحقيق أهداف جزئيـة معينة ولأنه لا يجعل القضاء عـلى الرأسمالية مهمته الأساسية • ولقد بين لينين في نضاله ضد « الاقتصاديين » أن حصر نضال البروليتاريا في النطاق الاقتصادي يحكم على العمال بالعبودية الأبدية • وهذا هو الخط الذي ينتهجه قادة النقابات الرجعيون في الولايات المتحدة الأميركية (ميني ، رايتر وغيرهما) • ان هؤلاء العملاء المخلصـين لرأس المال يوجهون الحركة العماليـة في طريق المطالب الاقتصادية ويسعون الى المصالحة بين العمال والرأسماليين والى اقامة « السلم الطبقي » • وقـد قام في البلدان الرأسمالية نموذج خاص من رجال النقابات الرجعيين ـ من البيروقراطيين الذين جعلوا من خيانة المصالح الرئيسية للطبقة العاملة مهمتهم الأولى ، ويسعون لبث التفرقة في الحركة العمالية لصالح الاحتكاريين • لكنه مع نمو وعي البروليتاريا في البلدان الرأسمالية يزداد تصميمها على توحيد صفوف الطبقة العاملة في النضال ضد هجوم الاحتكارات عـلى مستوى حياة الشغيلة ، في النضال من أجل الديموقراطية والاشتراكية •

ورغم أقـوال وأفعال الاصلاحيين والنقابيين البيروقراطيين وكـل حماة الرأسمالية الآخرين فان النضال الطبقي في العالم الرأسمالي قائم عـلى قدم وساق ويزداد احتداماً من حين لآخر ، وهذا بين في حقل النضال الاقتصادي • وتثبت الوقائع زيادة عدد الاضرابات في الأعوام الأخيرة وزيادة عدد القائمين بها زيادة كبيرة ، وأن الاضرابات غالباً ماتكون ذات طابع عنيد وطويل المدى •

هكذا ، ففي البلدان الرأسمالية الرئيسية الست (الولايات المتحـدة ، انكلترا ، فرنسا ، ألمانيا ، ايطاليا ، اليابان) كان متوسط عدد الاضرابات لكل

خمس سنوات كما يلي : من ١٩٣٦ ـ ١٩٤٠ كان ٥٧٩١ ؛ ومن ١٩٤٧ ـ ١٩٥١ كان ١٠٦٤٣ ؛ ومن ١٩٥٢ ـ ١٩٥٦ كان ١٢٣٩٠ • وان هذه الزيادة بالنسبة الى فترة ما قبل الحرب تعادل مرتين ونصف • وفي قلعة الرأسمالية ـ الولايات المتحدة الأمريكية ـ قام أكثر من ٦٦ ألف اضرابا خلال ١٦ عاماً منذ ١٩٤٥ حتى ١٩٦٠ ، اشترك فيها زهاء ٣٨٫٥ مليون انسان •

وان الماركسية ـ اللينينية لاتعتبر النضال الاقتصادي هو النضال الممكن الوحيد ، بل كأحد أشكال النضال الطبقي للبروليتاريا وينبغي أن يبقى مرتبطاً بالنضال السياسي وخاضعاً لقضاياه •

والنضال السياسي هو الشكل الحاسم الرئيسي من أشكال النضال الطبقي للبروليتاريا • وقد أعلن ماركس أن كل نضال طبقي هو نضال سياسي • وهذا يعني أن نضال العمال ضد الرأسماليين بقدر مايكون نضال طبقة ضد طبقة ، بقدر مايصير نضالا سياسياً ويتسع حتى يعم حقل السياسة • وفي النضال السياسي لاتبرز مصالح هذه الفئة من العمال أو هذه المهنة أو تلك بل تبرز المصالح الطبقية العامة للبروليتاريا • ان النضال السياسي هو نضال كل طبقة العمال ضد كل طبقة الرأسماليين •

وان الطبقة العاملة ، اذ تقوم بنضالها السياسي ، تهب ضد الظلم الاقتصادي والسياسي الذي تمارسه البورجوازية مع كل الكادحين • وفي النضال السياسي بالذات تظهر الطبقة العاملة كمناضل حازم من أجل مصالح كل الشغيلة وتصبح قائدة لهم في النضال ضد الرأسمالية •

وفي سير هذا النضال تبرز مطالب مختلفة : تحسين القوانين الاجتماعية ، ضمان وتوسيع الحريات الديموقراطية ، والاحتجاجات على التدابير الرجعية المختلفة للحكومات البورجوازية ••• الخ ••• وان لكل هذه المطالب أهمية فائقة من أجل تأمين مصالح الطبقة العاملة • لكن مسألة السلطة هي أهم مسائل النضال السياسي • ان أهمية الشكل السياسي للنضال تنحصر في كونه الوسيلة الوحيدة التي تتمكن بها الطبقة العاملة من انتزاع السلطة من يد البورجوازية

واقامة دكتاتوريتها • وعندما تقوم الشروط المناسبة تبرز هذه المسألة لتكون أكثر مسائل العصر أهمية •

ويشغل مدى واسعاً في الوقت الحاضر نضال الجماهير الكادحة ضد هجوم الرجعية السياسية وانبعاث الفاشية في هذه الأشكال أو تلك ، ومن أجل الحقوق والحريات الديموقراطية ، ضد الروح العسكرية والحرب ، ومن أجل السلام • وكل هذه القضايا ترتبط ببعضها ارتباطاً وثيقاً وتؤلف مجموعة المطالب الديموقراطية التي تنادي بها الحركة العمالية في كل مكان • ومن أجل حلها لابد من وحدة الطبقة العاملة محلياً ودولياً • ان النضال من أجل وحدة الطبقة العاملة وتصفية الانشقاقات في صفوفها هو أعظم المسائل السياسية والايديولوجية شأناً • وهكذا ، فبالرغم من أن النضال السياسي يأتي نتيجة لأسباب اقتصادية ويؤدي أخيراً الى تغيير ظروف الحياة المادية ، فهو الشكل الحاسم والرئيسيي من بين أشكال النضال الطبقي ويلعب النضال الاقتصادي دوراً خاضعاً بالنسبة اليه •

والشكل الثالث الأساسي للنضال الطبقي هو النضال الايديولوجي الذي يخضع كذلك لحاجات النضال السياسي • ومهمته نقد الايديولوجيا البورجوازية والتشويهات التحريفية للنظرية الماركسية ـ اللينينية • وهو نضال من أجل التأثير على الجماهير وحمل الوعي الاشتراكي اليها • ولهذا فهو لا يغفل عن تطبيق النضال السياسي وحاجاته ومتطلباته •

دور الحزب في النضال الطبقي للبروليتاريا

ان الحزب السياسي هو ظاهرة اجتماعية أصيلة ، تلعب دوراً مهما في حياة المجتمع الحديث • وتختلف الأحزاب عن الدولة كشكل للتنظيم السياسي في المجتمع الطبقي بكونها اتحادات اختيارية بين عناصر الطبقة التي تتحد تحت راية ايديولوجيتها لمصلحة النضال المشترك •

وان الحزب السياسي للبروليتاريا هو صاحب الدور القائد والموجه في نضالها الطبقي • وبدون الحزب المسلح بالنظرية العلمية والمرتبط ارتباطاً

وثيقاً بالجماهير لايمكن للبروليتاريا أن تحقق النجاح في نضالها ضد أعدائها الطبقيين • ومع الانتقال الى الامبريالية عندما احتدمت تناقضات الرأسماليـة أثبتت الأحزاب الاشتراكية الديموقراطية أنها أعجز من أن تقود البروليتاريا في نضالها الطبقي • لقد ولد الانتهازيون في حزب الاصلاحات الاجتماعية ثم انتصروا في تلك الأحزاب جميعاً بعد أن صاروا وسائط للتأثير البورجوازي على الطبقة العاملة • وقد وضع التاريخ مهمة خلق حزب جديد ، حزب الثورة الاجتماعية القادر على أن يكون طليعة نضال البروليتاريا الثوري • وقد أنشأ لينين هذا الحزب في روسيا ، فكان حزب البلشفيك • ثم ظهرت على شاكلته أحزاب شيوعية أخرى حتى صارت تعد في وقتنا الحاضر ٨٧ حزباً شيوعياً تضم زهاء ٤٠ مليون شيوعي • ان هذه هي القوة الجبارة الحقيقية التي تنظم النضال الطبقي للبروليتاريا المعاصرة في البلدان الرأسمالية ، وبنـاء المجتمـع الجديد في بلدان المعسكر الرأسمالي •

لقد أنشأ لينين نظرية الحزب ووضع مبادئه التنظيمية • ان الحزب هو جزء من الطبقة ، وطليعتها التقدمية الواعية المنظمة الذي يحتضن أفضل عناصر الطبقة العاملة • وقد اعتبره لينين أعلى شكل للتنظيم الطبقي الذي يعبر عن المصالح الطبقية العاملة للبروليتاريا وينبغي أن يتسلم قيادة كل تنظيماتها الأخرى •

ويقوم الحزب الشيوعي على أساس الديموقراطية المركزيـة التي تقر أهمية الأعضاء القياديين والزام المنظمات السفلى بقراراتها وتضمن في الوقت ذاته حرية الانتخابات ودقة الأعضاء القياديين وحرية النقاش واصدار القرارات الجماعية • ان الحزب الشيوعي بطبيعته منظمة ثورية للطبقة العاملة من شأنها أن تعيش وتفعل وتخلق الجديد وتحطم القديم • ان ادخال المبادىء التنظيمية اللينينية الى حياة الحزب يخلصه من القرارات الجانبيـة السريعة ، ويضمن للقيادة الحزبية صحة منطلقاتها والتطور الواسـع للمبادرة الخلاقة ولفعالية أعضاء الحزب والجماهير الكادحة •

والحزب قوي بوحدته وبتراص صفوفه ، وهو اتحاد بين الشيوعيين الذين يجمعهم تفكير واحد • وتتعزز الوحدة الفكرية للحزب بقوة التنظيم والنظام

الحديدي الذي يلزم الأعضاء جميعاً • وهو لايحتمل وجود العناصر الانتهازية بين صفوفه ، ولذا فقوته رهن أيضاً بتنقيته من هؤلاء •

والأحزاب الماركسية ـ اللينينية جميعاً أحزاب مستقلة ومتساوية في الحقوق • وهي تضع سياستها بتطبيق الماركسية ـ اللينينية على الظروف الحسية الموضوعية لبلدانها • والى جانب ذلك ، وكما ورد في البيان الصادر عن مؤتمر الأحزاب الشيوعية والعمالية المنعقد عام ١٩٦٠ ، « فان مصالح النضال من أجل قضية الطبقة العاملة تتطلب رص الصفوف داخل كل حزب شيوعي على حدة ، وبين جحافل الشيوعيين في البلدان قاطبة ، ووحدة ارادتها وأفعالها • ان العناية بتوطيد وحدة الحركة الشيوعية العالمية هي أسمى واجب أممي لكل حزب ماركسي لينيني »[١] • وقد أوضح البيان أيضاً أنه من أجل تأمين هذه الوحدة ينبغي على كل حزب شيوعي أن يحافظ على تضامنه مع القرارات المتخذة من قبل الأحزاب بصورة جماعية ، والتي تتعلق بمهمات النضال العامة ضد الامبريالية ، ومن أجل السلم والديموقراطية والاشتراكية •

ان قوة الحزب هي في ارتباطه بالجماهير • وهو يعتمد على ثقة ومساندة الجماهير التي يقودها • والحزب يعلم كوادره بأن تكون على صلة دائمة بالجماهير ، ويربيها على الاخلاص لمصالح الطبقة العاملة وجماهير الكادحين • فالحزب لايقوم بتعليم الجماهير وحسب ، وانما هو أيضاً يتعلم منها ويعمم تجربتها وينشرها بعد أن يسمع الى صوتها عن كثب •

والحزب يحدد تكتيك الحركة العمالية وخطها الستراتيجي ويهتم باندماج الأشكال المختلفة للنضال وباختيار الوسائل الملائمة له •

والحزب يحافظ على نقاوة النظرية ويدفعها الى الأمام بشكل خلاق بما يتلاءم مع التجربة الجديدة والظروف التاريخية وذلك في نضاله ضد التحريفيين والديماغوجيين • والحزب يربط النضال من أجل الأهداف الأساسية للطبقة العاملة بالنضال من أجل متطلباتها اليومية الملحة •

---

(١) وثائق النضال من أجل السلم والديموقراطية والاشتراكية ص ٨٢ •

وقد أوكل التاريخ للأحزاب الشيوعية مهمات تاريخية جسأماً • « فالشيوعيون يرون مهمتهم التاريخية ليس في القضاء على الاستغلال والفقر في العالم كله وحسب ، وانما هي أيضاً في تخليص الانسانية من كابوس حرب عالمية جديدة في[1] عصرنا الراهن » •

ومن أجل القيام بهذه المهمات يسعى الحزب الى توحيد كل القوى الديموقراطية في المجتمع •

٤ ـ النضال الطبقي في الفترة الانتقالية

البنية الطبقية للمجتمع في الفترة الانتقالية

ان الثورة الاشتراكية تجري تغييرات جذرية في البنية الطبقية للمجتمع. فهي تنتزع السيطرة السياسية من أيدي البورجوازية وتدمر منعتها الاقتصادية، ثم لاتعود البورجوازية بعد ذلك طبقة رئيسية في المجتمع. وتتم تصفية البورجوازية الكبيرة والاقطاعيين منذ البداية. لكن القضاء على السيطرة الاقتصادية والسياسية للاقطاعيين والبورجوازية لايعني القضاء نهائياً على تأثير البورجوازية في المجتمع. فالبورجوازية تحافظ على بعض مواقعها في الاقتصاد ويمكن أن تعتمد على تقاليد الماضي وعلى علاقاتها الدولية ومساندة الامبرياليين. وان لدى البورجوازية معرفة وخبرة في ادارة الانتاج، وهي تستفيد من عفوية انتاج البورجوازية الصغيرة.

وتنتقل الطبقة العاملة من طبقة مظلومة مضطهدة الى طبقة مسيطرة في المجتمع. فهي تستولي على الأجهزة القيادية في الاقتصاد، وتعتمد على قطاعه الاشتراكي وعلى وحدتها مع الفلاحين الكادحين، وعلى النظرية الماركسية ـ اللينينية العلمية، وعلى بأس ورهبة جانب طبقتها الثورية المنتصرة في صراعها

ضد البورجوازية ، وعلى التنظيم الحديدي والنظام الواعي • وهنا تجدر الاشارة الى أنه اذا كانت الطبقة العاملة الروسية قد قامت بالثورة وبنت الاشتراكية في هذا البلد ، فان جماهير الكادحين في بلدان الديموقراطيةالشعبية تستطيع الاعتماد على مساندة الاتحاد السوفييتي وعلى المساعدة الأخوية لكل بلدان المعسكر الاشتراكي ، وليس فقط على الحركة العمالية في البلدان الرأسمالية • وان هذا من شأنه أن يعزز مواقع الطبقة العاملة في كل بلد يسلك سبيل البناء الاشتراكي •

ونتيجة للثورة الاشتراكية يحصل الفلاحون على ماكانوا يطمحون اليه عبر القرون ـ الأرض•ان الاستيلاء على أراضي الاقطاعيين وتسليمها للفلاحين يؤدي الى نمو الفئة المتوسطة في القرية • لكن الثورة الاشتراكية لاتفضي حالا الى تعديل الطبيعة الاجتماعية للفلاحين • فالفلاح ذو طبيعة مزدوجة : فهو ، من جهة أولى ، عامل • ففي عهد الرأسمالية كان يخضع لعمليات الاستغلال القاسية من قبل الاقطاعيين والكولاك والاحتكارات الرأسمالية • وان تطور الرأسمالية يؤدي الى افلاس معظم الفلاحين • لكن الفلاحين باتحادهم مع الطبقة العاملة وتحت قيادتها فقط يستطيع الفلاحون أن يتخلصوا من الفقر وأن يتحرروا من ربقة الاستغلال • وان المصالح الرئيسية للفلاحين تنسجم مع مصالح الطبقة العاملة • ولهذا فان الفلاحين هم الحليف الجماهيريالطبيعي للطبقة العاملة في نضالها ضد الاقطاعية والرأسمالية • والفلاح ، من جهة ثانية ، ملاك ، وهو ذو نزعة شديدة الى الملكية الخاصة • ولهذا فهو ربما يتأرجح ما بين البورجوازية والبروليتاريا • ان معرفة طبيعة الفلاح المزدوجة ، وتأمين الاتحاد المكين بين الطبقة العاملة والفلاحين يؤلفان واحدة من أهم المسائل في سياسة ديكتاتورية البروليتاريا • ولقد عالج لينين بعمق علاقة الطبقة العاملة بالفلاحين في عهد دكتاتورية البروليتاريا • ولقد أكد بأن توطيد اتحاد البروليتاريا مع الفلاحين هو أسمى مبادىء دكتاتورية البروليتاريا • وان هذا الاتحاد تحت قيادة الطبقة العاملة يؤلف القوة الاجتماعية الرئيسية التي تضمن انتصار الاشتراكية • ان الطبقة العاملة والفلاحين هما الطبقتان الرئيسيتان للفترة الانتقالية •

مهمات وأشكال النضال الطبقي

بما أن البورجوازية ماتزال باقية كطبقة في الفترة الانتقالية فانها تسعى الى توفير قواها واستعادة مواقعها السلبية واعادة الرأسمالية • ولهذا فان السير نحو الاشتراكية لايكون الا في النضال ضد البورجوازية • وان النضال الطبقي يبقى القوة المحركة للتطور في الفترة الانتقالية • لكن مهمات وأشكال النضال تتغير • فاذا كانت البروليتاريا قد ناضلت في ظروف الرأسمالية من أجل الاستيلاء على السلطة ، فان مهمات كثيرة تواجهها اليوم منها : أولا ، القضاء التام على الطبقات المستغلة عن طريق نزع ملكيتها عن وسائل الانتاج ، وثانياً ، المعالجة الاشتراكية للفئات البورجوازية الصغيرة • وان حل هذه المسألة الأخيرة يقضي على جذور الرأسمالية في الاقتصاد ، كما أنها شرط ضروري للقضاء على الطبقات المستغلة • وتتحدد أشكال النضال في الفترة الانتقالية بالمسائل العامة وبالشروط المادية لبناء الاشتراكية في بلدان شتى •

وقد أشار لينين بعد ثورة أوكتوبر الى خمسة أشكال رئيسية للنضال الطبقي في روسيا ذلك الزمان : سحق مقاومة المستغلين ، والحرب الأهلية ، واستخدام الاختصاصيين البورجوازيين ، وحياد الفئات المتوسطة ، والنضال من أجل نشر نظام العمل الجديد •

وان الشكل الأول منها ضروري للفترة الانتقالية لكل بلد لأن البورجوازية لايمكن أن تستسلم طواعية • لكن حدة هذا النضال ، وأشكال وطرق سحق البورجوازية تتحدد بدرجة مقاومة الطبقات المستغلة الهرمة •

أما الحرب الأهلية فهي أكثر أشكال النضال الطبقي حدة • وهي ليست ضرورية لكل البلدان لأنه ليس في وسع البورجوازية دائماً أن تعقد لواءها كما بين تطور الثورة الاشتراكية في بلدان الديموقراطية الشعبية •

وان استخدام الاخصائيين البورجوازيين شكل لابد منه للنضال ، لأن الطبقة العاملة التي تسلمت السلطة تكون دائماً في البدايةمفتقرة الىالأخصائيين• وعلاوة على ذلك ، فان الثورة الاشتراكية تهتم من أعماقها باستخدام المثقفين ومعارفهم ومواهبهم وتوجهها لمصلحة الجماهير الكادحة • لكن هذه العملية معقدة ومتناقضة وتتم تحت ضغط ورقابة الطبقة العاملة ومقاومة قسم من مثقفي الماضي • وقد كانت هـــذه المقاومة عنيفة في روسيا •

ولقد استمرت حياديــة الفئات المتوسطة في روسيا حتى المؤتمر الثامن للحزب ، ثم استبدلت فيما بعد بسياسة الاتحاد مع الفلاحين المتوسطين • وان الحياد كشكل للنضال يمكن أن يطبق بالارتباط مــــع الشروط الحسية ، بالنسبة الى كل الفئات والطبقات المتذبذبة ، وذلك من أجل ألا يفتح المجال أمامها للارتماء في أحضان العدو الطبقي • ففي الاصـــلاح الزراعي ، مثلا ، في الصـــين الذي كان موجهاً ضــــد الاقطاعيين طبقت سياسة الحياد بالنسبة الى فئة الكولاك • واذا لم يكن ثمة مثل هذه العناصر المتأرجحة فليس ثمة من داع لتطبيق هذا الشكل من النضال •

وأخيراً ، ان نشر وتعليم نظام العمل الجديد هو ، دونما ريب ، الشكل العام للنضال • وهو موجه ضد عادات وتقاليد المجتمع القديم في وسط الكادحين أنفسهم ، والطبقة العاملة ذاتها •

ان الثورة الاشتراكية ، اذ تقضي على سيطرة البورجوازية في السياسة والاقتصاد ، تقضي كذلك على سيطرة الايديولوجيا البورجوازية في المجتمع • لكن هذه الأخيرة ، اذ تفقد سيطرتها ، لاتزول نهائياً • ففي الفترة الانتقالية تبقى جذور الايديولوجيا البورجوازية في الاقتصـــاد ، وتؤيدها قوة التقاليد الهائلة•ان النضال من أجل تحرير الجماهير الكادحة من سيطرة الايديولوجيا البورجوازية ، وتربيتها بالروح الاشتراكية ، وان النضال من أجــل تثبيت

سيطرة الايديولوجيا الاشتراكية في المجتمع يؤلفان محتوى الثورة الاشتراكية على النطاق الايديولوجي •

ان القضاء على الايديولوجيا البورجوازية وتربية الجماهير تربية اشتراكية يتحققان في سير النشاط التطبقي للجماهير ذاتها ، وعلى تجربة نضالها من أجل الاشتراكية • وان الايديولوجيا الاشتراكية مدعوة لتجنيد الجماهير من أجل حل قضايا الفترة الانتقالية • وبما أن هذه المهمات تختلف عن تلك المهمات التي كانت تحلها الطبقة العاملة والفلاحون قبل استيلائها على السلطة ، فان العمل الايديولوجي للحزب في الجماهير يتطلب اعادة بناء من الأساس • فهنا تبرز الى المكان الأول مهمات الخلق والتأسيس (بعد الانتصار وقيام ديكتاتورية البروليتاريا) التي يرتبط حلها بالعمل العظيم في مختلف قطاعات الحياة الثقافية والاقتصادية للمجتمع • وعلى أساس النضال التطبيقي الذي تخوضه الجماهير ضد البورجوازية ، على أساس تطبيق البناء الاشتراكي يزداد نفوذ الايديولوجيا الاشتراكية عمقاً في جماهير الكادحين ، وتنشأ شروط تثبيت سيطرتها في المجتمع •

ان أية طبقة مستغلة لايمكن أن تتخلى عن مواقعها طواعية ، ولهذا يمكن القضاء على الطبقات المستغلة فقط من خلال نضال الطبقات • ان مسألة حدة هذا النضال مرتبطة بالشروط الموضوعية المادية • وقد كان النضال الطبقي في بلادنا ذا طابع حاد حيث أن بلدنا قطع سلسلة الامبريالية وبنى الاشتراكية في وسط تُحدِقُ به الرأسمالية من كل جانب • وهنا تجدر الاشارة الى عدم صحة قول ستالين حول أن النضال الطبقي ينبغي أن يحتدم بعد انتصار الاشتراكية • ففي المجر كان احتدام النضال الطبقي عام **١٩٥٦** في فترة الزوبعة المضادة للثورة • لكن هذا كان مرتبطاً بالظروف الموضوعية الحسية ، وعلى أية حال ليس قانوناً عاماً لكل البلدان التي تبني الاشتراكية • وان هذه الصيغة لاتنطبق على فترة مابعد القضاء على الطبقات المستغلة •

وبهذا ، فان الفترة الانتقالية لاتعني تقليص النضال الطبقي بين البروليتاريا والبورجوازية ، وانما هي استمرار له في شروط جديدة وفي أوضاع جديدة

للقوى الطبقية وأشكال جديدة • ان الخاصة الرئيسية لنضال البروليتاريا ضد البورجوازية في الفترة الانتقالية تنحصر في أن البروليتاريا تشن هـذا النضال كطبقة مسيطرة معتمدة على السلطة السياسية ـ ديكتاتورية البروليتاريا ، وعلى القطاع الاشتراكي في الاقتصـاد الشعبي • وفي بلدان مختلفة من المعسـكر الاشتراكي التي تمر في الفترة الانتقالية يكون للنضال الطبقي خصائصه لأنه ينبثق في شروطه التاريخية الخاصة •

ولهذا فمن الواضح أن التحريفيين المعاصرين يتجنون على الماركسية اذ يقترحون رفض الطريقة الطبقية في حل مسائل الفترة الانتقالية ، ويؤكدون أن التناقضات الطبقية لاتقوم بدور مهم في بناء الاشتراكية وذلك لعدم أهمية بقايا الطبقات المستغلة ذاتها • لكنما الفترة الانتقالية ، في الواقع ، هي القضـاء على مخلفات المجتمع البورجوازي في كل ميادين الحياة الاجتماعية • وان كل أشـكال النضال الطبقي في الفترة الانتقالية تعبر عن نضال البروليتاريا ضـد البورجوازية ، لكنها لاتظهر في القضاء المباشر على البورجوازية وحسب ، وانما تظهر كنضال بين البروليتاريا والبورجوازية من أجل كسب المثقفين والعناصر المتأرجحة ، ومن أجل تصفية التأثير البورجوازي داخل الطبقة العاملة •

طرق القضاء على الطبقات

من المعروف أن الماركسية تريد القضاء التام على الطبقات • وان ضرورة القضاء على الطبقات تنبع من تطور القوى المنتجة في المجتمع • ولقد كتب انجلس في كتابه « أنتي دهرينغ » أنه عندما كان تطور الانتاج مايزال ضعيفاً فقد كان لوجود الطبقات تبريره التاريخي • « ان النمو الكبير لقوى الانتاج الذي حققته الصناعة الضخمة هو وحده الذي يسمح بتقسيم العمل بين كل أعضاء المجتمع دون استثناء ، ويتقلص بهذا يوم العمل لكل عامل مما يوفر الوقت الكافي من أجل المساهمة في القضايا التي تهم المجتمع ككل من نظرية وتطبيقية• وبالتالي ،يصير وجود الطبقة المسيطرة المستغلة طفيلياً زائداً ، بل وأكثر من هذا : فهي تصبح عثرة مباشرة في طريق التطور الاجتماعي »[1] واستطرد انجلس يقول : « ان طريقة التوزيع تدفع تطور الانتاج ، هذه الطريقة التي تخول كل أعضاء المجتمع بتطوير وتعزيز وابراز امكانياتهم » •

ان القضاء على الطبقات المستغلة هو من المنجزات العالمية التاريخية

---

(١) انجلس • « أنتي دهرينغ » ص ١٧٠ — ١٧١ •

للاشتراكية • لكنه تبقى في عهد الاشتراكية ثمة فوارق بين العمال والفلاحين والمثقفين • ومن أجل بناء مجتمع لا طبقي بكل مافي هذه الكلمة من معنى ينبغي ازالة هذه الفوارق كلها • ومن أجل هذا لابد من القضاء على كل مخلفات التقسيم الاجتماعي القديم للعمل بين المدينة والقرية ، وبين العمل الذهني والعمل العضلي الفيزيائي •

ان ازالة الفوارق بين المدينة والقرية مرتبطة برفع الملكية الكولخوزية الى مستوى ملكية الشعب كله ، وتحويل العمل الزراعي الى نوع من العمل الصناعي ، ورفع مستوى المعيشة الاقتصادي والاجتماعي في القرية الى مستوى المدينة •

وان محو الفوارق الأساسية بين العمل العضلي والعمل الذهني سوف يتم أخيراً ، ومن خلال النهوض بالمستوى التكنيكي والثقافي للطبقة العاملة والفلاحين الى مستوى العمل التكنيكي للمهندسين ، وتقريب العلم من الانتاج ، وأتمتة ومكننة العمليات الانتاجية ، والقضاء على الحاجة الى العمل الذي لايقوم على الخبرة والكفاءات •

ان كل هذه العمليات الاجتماعية تؤلف قسماً ضرورياً لبناء الشيوعية ، وهي مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بتطور قوى الانتاج وعلاقات الانتاج في المجتمع الاشتراكي من جهة ، وبتطور الشخصية من شتى جوانبها ، من جهة أخرى•

وفي المرحلة العليا للشيوعية سوف يتم القضاء على بقايا الفوارق الطبقية، وسيقوم المجتمع اللا طبقي ـ أسمى أشكال تنظيم المجتمع الانساني •

الفصل الثالث

الدولة والثورة وديكتاتورية البروليتاريا
تطوّر الدولة الاشتراكية

١ ـ الدولة في التشكيلات الطبقية المتناقضة

نشوء الدولة وحقيقتها

كثيراً مايكتبون عن الدولة ، حتى صار من غير الممكن الالمام بكل ماكتب عنها • وان علوماً كاملة ـ تاريخ الدولة والحق ، نظرية الدولة والحق ـ تختص ببحثها وبدراستها • لكن هـذا لايعني أن السؤال عن الدولة صار واضحاً وليس بحاجة الى بيان أكثر •• فلسنا نكاد نجد ـ كما أكد لينين ـ مسألة تعقدت ، عفواً أو قصداً ، من قبل ممثلي العلم والفلسفة والقانون والاقتصاد السياسي والصحافة البورجوازيين كما حل بمسألة الدولة • وليس هذا من قبيل الصدفة طالما أن هذا الحل أو ذاك يمس مباشرة المصالح الجذرية للطبقات والفئات المختلفة من الناس • ان السؤال عن حقيقة الدولة ودورها هـو موضوع النضال العنيف ولـذا كان من الخطأ الفادح ألا نهتم بتقييمه •

ان ظهور المادية التاريخية هو الذي يحل السؤال المتعلق بنشوء الدولة وحقيقتها ووظائفها ومراحل تطورها وبوضع نظرية علمية واضحة عنها •

وكما سبق أن أوضحنا ، أن تطور الانتاج المادي يؤدي حتماً الى استبدال الملكية الجماعية القبلية بالملكية الخاصة ، والى انقسام المجتمع على هذا الأساس الى طبقات ذات مصالح مختلفة ومتناقضة •

وان ظهور الملكية الخاصة والطبقات يؤدي الى تبدلات اجتماعية هامة • أولا ، يتغير طابع الانتاج ، ويتغير البناء الاجتماعي بصورة جذرية ، وكذلك بنية ومحتوى الوعي الاجتماعي • وثانياً ،تنشأ مجالات جديدة وظواهر جديدة في الحياة الاجتماعية ويتميز من بينها خاصةمجال العلاقات والمؤسسات والمنظمات الاجتماعية •

ان ظهور الانتاج القائم على الملكية الخاصة يعني استبدال الانتاج الاجتماعي للجماعات العشائرية بالاقتصاد الصغير والكبير لأفراد من الناس ــ المالكين لوسائل الانتاج • ان الملكية الخاصة تفرق مابين الناس وتدفعهم الى التناقض والنزاع • لكن أيعني هـذا أن الملكية الخاصة تبعد احـدى الاجتماعيات الاقتصادية ؟ كلا بالطبع • فالانتاج يبقى انتاجاً اجتماعياً ويتحقق بشكل علاقات انتاجية اجتماعية معينة •

وكما أن الملكية الخاصة لاتقضي على الروابط الاقتصادية بين الناس ، فان انقسام المجتمع الى طبقات لايقضي على وحدة المجتمع وتكامله ، وانما هو يعطي تلك الوحدةطابعاً جديداً • ولم تعد تقوم في أساس تلك الوحدة علاقات التعاون والمساعدة المتبادلة بين أعضاء الخلية الانتاجية الواحدة ، بل علاقات السيطرة والخضوع ، علاقات الطبقات المتناقضة والمتنازعة • ومن الواضح أن غائية المجتمع يمكن أن تحفظ هنا نتيجة لنضال الطبقات ، نتيجة لانتصار طبقة على أخرى واخضاعها لها • وهذا يعني أنه يظهر مـع ظهور الطبقات ميدان خاص للحياة الاجتماعية ، ميدان العلاقات السياسية الاجتماعية ، أي ميدان نضال الطبقات من أجـل ادارة المجتمع كله • ان العلاقات السياسية ليست علاقات بين أفراد من الناس وانمـا هي علاقـات بين جماهير كبـيرة ــ بين طبقات • ان للسياسة شأنها مع الملايين من الناس وليس مع أفراد• ويتجلى الدور المحدد للاقتصاد بالنسبة الى هـذا المجال الجديد في أن الطبقة المسيطرة في الاقتصاد قادرة مادياً على الزام المجتمع كله بما تشاء ، واخضاعه الى منظمتها الادارية المسيطرة •

ان العلاقات السياسية ـ بخلاف العلاقات الاقتصادية المادية التي لاتنشأ من خلال وعي الناس ـ تنشأ وفقاً لوعي الناس الذي يتكون على أساس النضال الطبقي ومن خلال سيره ، ووفقاً للايديولوجيا السياسية كذلك • ان العلاقات السياسية هي علاقات ايديولوجيـــة تؤلف البنيان الفوقي للعلاقات الماديـــة والاقتصادية • ولقد حدد لينين خصائص التأثير المتبادل بين السياسة والاقتصاد في قوله المعروف : « السياســـة هي التعبير الأكثر تركيزاً عن الاقتصــــاد ، و « للسياسة الأولوية على الاقتصاد »[1] •

فالقول الأول يحكي عن نشوء السياسة ، أما الثاني فيحكي عن دورها في حياة المجتمع •

ان العلاقات الاقتصادية تنعكس على الصعيد السياسي مباشرة • وهـــذا يعني أن كل قاعدة اقتصادية يتخللها التناقض بين الطبقات تولد منظمة سياسية معينة ملائمة لها • وان الطبقة التي تشغل المكان القيادي المسيطر في الاقتصاد تسيطر في السياسة أيضاً ، أي أنها ترتفع الى قوة تدير المجتمع بكامله • هكذا كانت الحال في المجتمع العبودي والمجتمع الاقطاعي ، وهكذا هي الحال بالنسبة للمجتمعات الرأسمالية • وان المصالح الطبقية الرئيسية تحدد طابع العلاقات السياسية بين الطبقات : وبتعبير آخر ، ان السياسة هي التعبير الأكثر تركيزاً عن المصالح الاقتصادية للطبقات • فالولايات المتحدة الأمريكية ، مثلا ، في وقتنا الراهن تنتهج سياسة سحق الحريات الديموقراطية في الداخل ، ومساندة نظم الحكم الرجعية في جزيرة تايوان ، وفي كوريا الجنوبية ، وفيتنام الجنوبيـــة وغيرها • وان هذه السياسة تنشأ عن المصالح الاقتصادية الأساسية للاحتكاريين الأمريكيين الذين يسعون الى ابقاء سيطرتهم وتثبيت دعائم الرأسمالية ، ووقف مد الحركات الاشتراكية والديموقراطية الجبار •

ولقد أكدنا سابقاً أن الملكية الخاصةتفرق بين الناس • وان طبقة الملاكين تتوصل الى ادارة المجتمع كلـــه عندما تكون منظمة ومتماسكة • فالطبقة تنظم

---

(١) لينين • المؤلفات • الجزء ٣٢ ص ٦٢ •

ككل ، ثم يوحدها وعي المصالح الطبقية العامة في نضالها مع طبقة أخرى . وفي النضال بالذات تولد المنظمة التي بمساعدتها يتراص أفراد الطبقة المسيطرة في كل واحد ويلزمون الطبقة المظلومة والمجتمع ككل بمشيئتهم . وهذه المنظمة هي الدولة . فالدولة هي لجنة لتسيير قضايا الطبقة المسيطرة في الاقتصاد، والتي تساعدها في تثبيت وتوطيد سيطرتها وادارة المجتمع بكامله . ان الدولة هي نتاج وابراز لنزاع الطبقات . وقد نشأت من الحاجة الى تسلم زمام التناقض القائم بين الطبقات وتوجيهه لمصلحة طبقة دون أخرى . وحيث لم توجد طبقات لم تكن بالتالي دولة .

وان الماركسية ، اذ ربطت نظرية الطبقات والنضال الطبقي بنظرية الدولة، بددت ذلك الضباب المحيط بقضية الدولة الذي حاكه الفلاسفة وعلماء الاجتماع. ومن جهة أخرى فان نظرية الطبقات والنضال الطبقي تبدو ناقصة بدون الدراسة العلمية لمسألة الدولة .

ان الدولة هي مؤسسة طبقية وأداة للنضال الطبقي والسيطرة الطبقية . وهي دائماً ، في جوهرها ،دكتاتورية طبقة معينة. وبمساعدة الدولة ترتفع الطبقة المسيطرة اقتصادياً الى السيطرة السياسية . فالدولة ضرورية لها كجهاز قمع ، وكآلة لسحق وظلم واخضاع الطبقة المستغلة ، وبدونها لاتستطيع أية طبقة مسيطرة من تثبيت سيطرتها حيث أن الطبقات المستغلة تؤلف الأقلية في المجتمع المالكة لوسائل الانتاج الرئيسية وللثروات الهائلة وتستولي في هذا الشكل أو ذاك على العمل الفائض للجماهير المضطهدة . ومن أجل أن يبقي المستغلون على ملكيتهم وثرواتهم ، ومن أجل بقائهم في قمة الهرم الاجتماعي فقد كان عليهم أن يوجدوا جهازاً خاصاً للقمع ، يدعى الدولة .

ولدى دراسة قيام الدولة علينا أن نأخذ بعين الاعتبار أن الدولة توحد الناس على أساس الأرض بالمقارنة مع المنظمة العشائرية السابقة القائمة على وحدة دم القربى. ولقد لاحظ انجلس أن هذا التقسيم ـ رغم أنه يبدو طبيعياً ـ كلف نضالا طويلا ضد التنظيم القديم القائم على الجنس والعشيرة .

ان نشــوء الدولة يعني ابراز تلك الفئات الاجتماعيــة من الناس التي تشتغل بالسياســة بالايديولوجيــا السياسية وغيرهمــا ، أي ابراز السياسيين والايديولوجيين •

وان جوهر الدولة ينعكس في وظائفها ونشاطها • ان استخدام الدولة من أجل تثبيت سيطرة طبقة على أخرى ، ومن أجل القضاء على مقاومة الطبقات المضطهدة يؤلف الوظيفة الداخلية الرئيسية للدولة • والى جانب ذلك ينشأ مجال الروابط والعلاقات الدولية ، وبناء عليه ، فان وظيفة الدولة الخارجية هي في حماية حدود الدولة من العدوان الخارجي ، واقامة علاقات معينة بين البلدان • وهاتان همــا الوظيفتان الرئيسيتان لكــل دولــة والجزءان المؤلفان لسياستها •

ومن أجل القيام بوظيفتها لابــد للدولة من أدوات السلطة ، وأدوات القمع : كالجيش والشرطة والأجهزة القضائية وملحقاتها الأخرى كالسجون وغيرها • ومع نشوء الدولة يتشكل جهاز القمع المنفصل عن المجتمع •

واذا كان أفراد العشيرة يدافعون عن مصالحهم العامة بصورة جماعية قبل نشوء المجتمع الطبقي ولم يكن لديهم قــوة مسلحة خاصة منفصلة عن المجتمع ، فان هذه القوة موجودة الآن ولايمكن للدولة أن تستغني عنها • وان هذه السلطة الكبيرة الخاصة ضرورية لأنه منذ انقسام المجتمع الى طبقات صار التنظيم المسلح للسكان مستحيلا •

ومن أجــل انشاء جهاز للقمع وشن الحروب وغيرها كان لابــد من وسائل تجمع بشكل ضرائب من الســكان • فليس من وسع أيــة دولة أن تستغني عن الجهــاز المالي والموظفين المدنيين • فالطبقــات المستغلة لاتضطهد الجماهير الشعبية وحسب ، وانما ترغمها على تأمين متطلبات هذا الجهاز • ان عبء الضرائب لاينفك يثقل كواهل الجماهير الكادحــة ، وكلما كبر جهاز القمع واتسع كلما اشتد ضغط الضرائب على الطبقات الشعبية وكثرت النفقات على الجيش والتسلح • وان الدول الامبريالية الحديثة تؤكد بمجموعها وجود هذا الارتباط • ولقد استطاع رئيس الولايات المتحدة الأميركية ترومان خلال

ثمانية أعوام أن يحصل من الضرائب ماينوف على مجموع الضرائب التي حصلها الرؤساء السابقون خلال قرن ونصف من الزمن • ولاتزال زيادة الضرائب في الولايات المتحدة قائمة الآن على قدم وساق • وان هذا مرتبط بالركض وراء التسلح وبسياسة « الحرب الباردة » المناسبة للامبرياليين •

ثم ان الدولة ، بالاضافة الى وظيفتيها الرئيسيتين الداخلية والخارجية ، تقوم ببعض الوظائف الأخرى كالنضال ضد عناصر الاجرام ، وببعض الوظائف الادارية الاجتماعية الأخرى • لكن مثل هذه الوظيفة لاتؤلف جوهر الدولة • فعندما لم يكن ثمة طبقات كان الناس يحافظون على النظام في المجتمع ويعاقبون كل من يخرق ذلك النظام بدون أية دولة ، ولهذا فان الحاجة الى حفظ النظام الاجتماعي لم يكن في وسعها لوحدها أن تكون سبباً لنشوء الدولة •

وتقوم الدولة كذلك ببعض الوظائف الاقتصادية • فهي تسير سياسة اقتصادية معينة (سياسة التجارة الحرة مثلا) ، وهي تمتلك أحياناً جزءاً من وسائل الانتاج الرئيسية ووسائل المواصلات ، وتنظم بناء منشآت الري والسكك الحديدية ، وتقوم بسن المراسيم والقوانين الناظمة للنشاط الزراعي والصناعي ••• الخ •• وان تقييم محتوى وحجم هذه الوظيفة يرتبط بالشروط المادية الموضوعية ، فهي أحياناً تقوم بدور تقدمي ، وأحياناً أخرى ـ بدور رجعي ، وان حجم النشاط الاقتصادي للدولة يمكن أن يكون كبيراً أو صغيراً • لكنما تجدر الاشارة الى أن الوظيفة الاقتصادية للدولة ليست ضرورية وحتمية بالنسبة للدولة المستغلة ولاتدخل في عداد وظائفها الرئيسية • فالوسائل الاقتصادية الرئيسية تكون في أيديَ المالكين لوسائل الإنتاج ، والدولة تعبر عن مصالحهم الطبقية العامة الاقتصادية والسياسية وتقوم بحمايتها • وان الوظيفة التنظيمية الاقتصادية لاتكون وظيفة أساسية الا بالنسبة للدولة الاشتراكية • وبما أن وسائل الانتاج تنتقل الى أيدي المجتمع كله فان تنظيم الاقتصاد الاشتراكي يصبح مسألة مهمة للدولة المثلة لمصالح بناة المجتمع الاشتراكي •

وهكذا ، فان أية دولة هي في جوهرها منظمة طبقية سياسية للطبقة المسيطرة ، وان أي كلام عن استقلال الدولة وسموها فوق الطبقات هو اما

كذب أو خداع • والى جانب هذا فالدولة هي منظمة المجتمع الطبقي • ويعرف البورجوازيون الدولة بأنها منظمة تقف فوق الطبقات وتلزمها بحدود النظام وتوفق فيما بينها • ومهما تعددت تعريفاتهم للدولة فانهم جميعاً يلتقون في أمر جوهري هو وضع الدولة فوق الطبقات • ويأخذ بهذه الفكرة الانتهازيون والتحريفيون المعاصرون •

الدولة والنظم الحقوقية

الحق هو تعبير وتوطيد للعلاقات الانتاجية التي تهتم بوجودها الطبقة السائدة • وهو ينظم العلاقات بين الناس بمساعدة القوانين والأعراف ذات الطابع الالزامي • لكن النظام الحقوقي لم يكن موجوداً في كل مراحل التاريخ : فقد كان معدوماً في المراحل التاريخية الأولى (في النظام البدائي الأول مثلا) • وكانت الأعراف والعادات التي تعبر عن مصالح أفراد المجتمع كلهم هي التي تقوم بتنظيم سلوك الناس • وكان يقوم على تنفيذها كل من العادات وزعماء القبيلة وشخصية الجماعة • ولقد كتب انجلس : « ولم يكن الفارق قد ظهر بعد بين الحقوق والواجبات في النظام القبلي ؛ فلم يكن الهندي يعرف مسألة الثأر أو دفع دية القتيل أحق هي أم واجب ، بل ولم تكن معرفة ذلك تشكل سؤالا بالنسبة له ، ان هذا السؤال هو كالسؤال اذا ما كان الطعام أو النوم أو الصيد حقاً أم واجباً »[1] •

واذا كانت سلطة زعماء القبائل وشيوخ العشائر قبل ظهور المجتمع الطبقي تقوم على التقاليد وتعتمد على قوة شخصية الجماعة والزعيم ذاته ، فان السلطة في الدولة تعتمد على القمع ، وان قوة الشخصية انقلبت هنا الى شخصية القوة •

لكنه لا العادات ولا الأخلاق ولا قوة الشخصية تقدر على حماية الملكية الخاصة والنفوذ وسيادة الأقلية ، وترغم الأكثرية المستغلة على تحمل الظلم والاضطهاد ، ولهذا يحل جهاز القمع ــ الدولة ــ محل المنظمة العشائرية ،

---

(١) ماركس وانجلس • مؤلفات مختارة • الجزء ٢ ص ٢٩١ ــ ٢٩٢ •

ويقوم النظام الحقوقي مقام العادات كنظام لقواعد السلوك التي تضعها الدولة وتقوم علـى حمايتها • وان مهمة النظام الحقوقي هي في تقوية علاقة الملكية الخاصة واعتبار كل اعتداء عليها اعتداء على قوانين الدولة • ولهذا فان الحق ينشأ عندما يظهر التمايز الاجتماعي وتنشأ الطبقات ذات المصالح المتناقضـة ، وتنشأ بهذا كله الشروط التي لاتتمكن فيها الأقلية المستغلة من حماية سيطرتها الاقتصادية والسياسية اذا لم تفرض ارادتها على المجتمع كله • فالحق ـ كما عرفه ماركس وانجلس ـ ليس الا ارادة الطبقة السائدة المحولة الى قانون •

ومع انتصار وتثبيت دعائم المجتمـع الطبقي القائم على الملكية الخاصـة ، يتشكل نظام معين للحقوق تقوم الدولة على حراسته •

ان العلاقات الحقوقية هي في جوهرها بين الطبقات • ولاتنعكس في النظام الحقوقي المصلحة الفردية وانما المصلحة العامة للطبقة المسيطرة • وفي المجتمع الطبقي المتناقض يقوم التنظيم الحقوقي بحماية مصالح الملكية الخاصة • ولو لم يكن الزواج والارث وغيرهما مرتبطين بعلاقات الملكية لمـا تناولهما التنظيم الحقوقي الا عرضاً ، وكذلك الحال بالنسبة للحب وللصداقة وغيرهما •

فالنظام الحقوقي يظهر كنظام للقواعد الالزاميـة ، لسلوك الناس بقدر مايكون معبراً عن ارادة الدولة • فبم تحدد ارادة الدولة ؟ لقد كتب انجلس : « •• ان كل متطلبات المجتمع لابد من أن تمر عبر ارادة الدولة حتى تحصل تحت شكل القانون عـــلى قيمتها الالزامية ••• لكننا نتساءل : ماهو محتوى هذه الارادة الشكلية ـ سيان أكانت ارادة شخص ما أم ارادة الدولة كلها ـ ، ومن أين لها مثل هذا المحتوى ، ولماذا تريد الدولة هـذا الأمر دون غيره ؟ وعندما نجيب عن هـذا السؤال نجد أن ارادة الدولة تتحدد عموماً بمطالب المجتمع المتغيرة ، ولسيطرة هذه الطبقة أو تلك ، وبتطور قوى الانتاج وعلاقات التبادل »[١] •

هذا هو الجوهر الفعلي للنظام الحقوقي • لكنه ينعكس في الايديولوجيا البورجوازية بصورة شوهاء •

---

(١) ماركس وانجلس • مؤلفات مختارة الجزء ص ٣٧٥ •

ويعرف علم الاجتماع البورجوازي القانون بأنه شيء ما فوق الطبقات يعبر عن ارادة المجتمع كله ، ويحتاج الى منظمة والى نظام معين • وهم ، اذ يثبتون هذا القول ، يحاولون تأكيد الفكرة القائلة بأن المجتمع ينشأ ويتوطد بالقوانين • لكن هذا محض وهم قانوني • فقد قال ماركس : « ••• ان المجتمع لايقوم على القانون كما يتوهم رجال القانون • وانما على العكس ، ينبغي أن يقوم القانون على أسس المجتمع ويكون تعبيراً عن مصالحه ومطالبه العامة النبثقة عن أسلوب مادي معين في الانتاج »[١] •

ان التنظيم الحقوقي الذي يحمي مصالح الطبقة المسيطرة اقتصادياً يقوم في كل تشكيلة اجتماعية كنظام وحيد للحقوق ، بله كنظام سائد • ولايمكن أن يقوم في المجتمع نظامان حقوقيان ، لأن الحق لايعتبر الا اذا وضعته الدولة وحمته وثبتته بقوتها الالزامية • فكما أنه ليس من المعقول أن تكون ثمة دولتان في المجتمع فليس يعقل أيضاً أن توجد سلطتان تشريعيتان ونظامان للحقوق •

نموذج وشكل الدولة والنظام الحقوقي

اذا كان مفهوم جوهر الدولة يفسر طبيعتها العامة خلال فترة وجود المجتمع الطبقي كلها ، فان الماركسية تقدم مفهومي نموذج وشكل الدولة من أجل تحليلها ودراسة تطورها • ويتحدد نموذج الدولة بمعرفة الطبقه التي تحقق السيطرة السياسية ، ودكتاتورية أية طبقة تمثل هذه الدولة • ويتعلق نموذج الدولة بالقاعدة الاقتصادية للمجتمع • ولقد كان لكل تشكيلة من التشكيلات الطبقية الثلاث نموذجها الخاص : العبودي ، والاقطاعي ، والبورجوازي • وان دكتاتورية البروليتاريا هي نموذج جديد للدولة لأن العنف هنا موجه ضد الأقلية المستغلة ومن أجل القضاء على الطبقية •

وعلاوة على ذلك ، ففي فترات معينة من التاريخ يمكن أن تقوم دول ذات نموذج انتقالي • ويحدث هذا عندما تتسلم القيادة طبقات تريد اجراء تحويلات اجتماعية أعمق مما يسمح به طابع الثورة • ان الدول الانتقالية هي

---

(١) ماركس وانجلس • المؤلفات • الجزء ٦ ص ٢٥٩ •

ذلك الشكل الذي تتحقق فيه وحـدة القوى المهتمة بتطوير الثورة ، وتأمين الدور القيادي لتلك القوى في حياة المجتمع •

والى هـــذا النموذج الانتقالي للدولـة تعود دكتاتوريــة البروليتاريا الديموقراطيــة الثوريــة • فهي تقوم في شروط تطور الثورة ذات الطابـع البورجوازي عندما تتسلم الدور القيادي طبقة البروليتاريا المناضلة في اتحادها مع الفلاحين والمهتمة بتطوير الثورة ودفعها الى أمام •

ان هذا النموذج للدولة أو ذاك يمكن أن يظهر في أشكال مختلفة • ويتحدد شكل الدولة بطريقة الحكم (الجمهوري ، الاستبدادي ، المطلق ، الدستوري) وبتركيب الدولة (متحدة ، اتحادية) • وان شكل الدولة في هـــذا النموذج يرتبط بالشروط التاريخية الموضوعية وبالعلاقات الموضوعية القائمة بين القوى الطبقية ، وبالخصائص التاريخية لتطور هذا البلد أو ذاك • ان الدول البورجوازية مثلا ، تكون من حيث شكلها جمهوريات ديموقراطية برلمانية أو دستورية أو غيرها •• وان نموذج وشكل الدولة يتعززان بالحقوق المسيطرة •

والتاريخ يعرف نماذج الحقوق التالية : العبودي ، الاقطاعي ، الرأسمالي ، الاشتراكي • ففي المجتمع العبودي لـــم يكن العبيد يمثلون الذات بالنسبة للحقوق ، وانما كان الحق هو الذي يحمي العبد لمالكه كأي موضوع ملكية

أو أيـة سلعة أخرى • وفي الحق الاقطاعي تنعكس التغيرات الجاريـة في العلاقات الاقتصادية لدى الانتقال من الشـكل العبودي الى الشـكل الاقطاعي للاستغلال • وفيه تتوطد ملكية الاقطاعيين للأرض والأشكال الأخرى لتبعية المنتجين المباشرين • وان حق القنانة هـو أقسى شكل من أشـكال التبعية الاقطاعية • ان الحق الاقطاعي من وجهة النظر القانونية يقوي التمايز بـين الفئات المسيطرة (الاقطاعيين ورجال الدين) وبين باقي الفئات المضطهدة المستغلة بكامله • لكن الحق في المجتمعات الأكثر تطوراً ـ في المجتمعات البورجوازيه ـ يقر المساواة الشكلية بين المواطنين جميعاً أمام القانون • لكنه لم يحدث قط في أي زمان أو مكان مثل هذا الانفصام العنيف بين شكل الحق ومحتواه كما حدث في المجتمع الرأسمالي • فالحق هنا لايبدو ، من حيث الشكل ، كارادة للطبقة المسيطرة ،بل كتنظيم للعلاقات وتحديد دقيق للحقوق والواجبات يجمع بين مصالح المجتمع ككل والمصالح الشخصية للأفراد وللمنظمات المختلفة التي يسمح بها القانون • لكن المساواة الشكلية أمام القانون تغلف هنا عدم المساواة الاجتماعيـة والاستغلال المجحف للكادحين والتبعية الاقتصاديـة التي تربط العامل المأجور بالرأسمالي ـ المالك لوسائل الانتاج • وان الجماهير الكادحة تلتزم بهـذا الحق من خـلال أدوات الدولة ـ الجيش والشرطة والقضـاء والسجون وغيرها •

أما الحق الاشتراكي فيتعارض مع كل الحقوق في المجتمعات الاستغلالية، وهو ينشأ وفقاً للوعي الحقوقي الذي تتمتع به الطبقة العاملة وجماهير الكادحين المهتمين بحماية الملكية الاجتماعية لوسائل الانتاج وعلاقات التعاون المتبادل بين جميع أفراد المجتمع الاشتراكي • وهنا بالذات يظهر الحق لأول مرة من حيث الشكل والمحتوى معاً كتعبير واقعي عن ارادة الشعب بأسره •

وان التفريق بين نموذج الدولة وشكلها ذو أهمية بالغة • فاذا كان نموذج الدولة يحدد طبيعتها الطبقية ، فان شكلها يحدد تلك الطرق التنظيمية والوسائل السياسية التي تتحقق بمساعدتها دكتاتورية الطبقة • ففي الدول الفاشستية تتجلى دكتاتوريـة البورجوازيـة في الأشكال الارهابية السافرة • وفي دول

الديموقراطية البورجوازية تكون دكتاتورية الطبقة المسيطرة مغلفة بأقنعة من المؤسسات الديموقراطية المختلفة التي تصنع سراب البنيان الفوقي فقط • وينتج عن هذا أنه لايجوز وضع الدكتاتورية والديموقراطية على طرفي نقيض ، لأن الديموقراطية في المجتمع الطبقي المتناقض تعني دائماً دكتاتورية هذه الطبقة أو تلك•وان الايديولوجيين البورجوازيين والانتهازيين ، اذ يطمسون الطبيعة الطبقية للدولة الرأسمالية ، يلحقون بها صفة الديموقراطية • وهم يعتبرون الديموقراطيةشيئاً ما « فوق الطبقات » «كالديموقراطية الخالصة» ،ويضعونها في طرف مناقض للدكتاتورية • فاذا كان ثمة ديموقراطية تنعدم الدكتاتورية ، والعكس أيضاً صحيح • لكن مثل هذه الديموقراطية المعلقة فوق الطبقات لاتعرفها الطبيعة • فالديموقراطية هي الوسيلة التي يمكن استخدامها لحماية الملكية الخاصة الرأسمالية ، وهي آنذاك ديموقراطية بورجوازية • ويمكن للديموقراطية أن تستخدم من أجل النضال ضد الملكية الخاصة ومن أجل بناء الاشتراكية ــ وآنئذ تكون ديموقراطية البروليتاريا •

وهكذا ، فان الديموقراطية لاتؤدي الى اخضاع الأقلية للأكثرية وحماية حقوق تلك الأقلية في آن معاً كما يزعم الايديولوجيون البورجوازيون • ان الديموقراطية هي تحديد لشكل الدولة وذات طابع طبقي •

الديموقرطية البورجوازية

ان الديموقراطية في ظروف الرأسمالية هي أحد أشكال ظهور دكتاتورية البورجوازية ؛ فهي ديموقراطية الاقلية واضطهاد حقيقي لمصالح الأكثرية •

لماذا لا تعتبر الديموقراطية البورجوازية ديموقراطية للشعب ؟ لأن البورجوازية هي التي تحقق عملياً السيادة فيها ، ولأنها ديموقراطية شكلية للأكثرية ليس غير • وفي دول الديموقراطية البورجوازية بالفعل ترتفع شعارات الحقوق والحريات المختلفة و « تكافؤ الفرص » • لكن عن أية مساواة وعن أي تكافؤ بين العامل والرأسمالي يمكننا الحديث ؟ اذا كان أحدهما يملك كل شيء والآخر لا شيء ؟ • فعند تكافؤ الفرص يستطيع استخدام تلك الفرص

فقط من يملك الوسائل اللازمة لذلك ، وتسيطر الطبقة التي تمتلك في قبضتها الثروات ، أي البورجوازية • وهي تؤثر على الحكومة والبرلمان بطرق مختلفة، وان مصالحها بالذات هي التي تحدد سياسة الدولة • ولقد كتب لينين : « ان التعابير العامة حول الحرية والمساواة والديموقراطيــة هي كالتـكرار الأعمى للمفاهيم التي تقنع علاقات الانتاج السلعي ••• ومن وجهة نظر البروليتاريا يوضع السؤال هكذا : التحرر من ظلم أية طبقة ؟ مساواة اية طبقة مع أية طبقة؟ الديموقراطية على صعيد الملكية الخاصة أم على أساس النضال من أجل الغاء الملكية الخاصة ؟ •••الخ •• »[1] •

ان خيانة الانتهازيين للماركسية هي ، قبل كل شيء ، في نظرتهم الى الدولة والديموقراطية كشيء ما فوق الطبقات • فالاشتراكيون النمســاويون ، مثــلا ، يعلنون في برنامجهم : بما أن الطبقة العاملة النمساوية تمكنت أخيراً من تحقيق مساواتها مع البورجوازية فان « دولة الرخاء الاجتماعي » النمساوية لاتمثــل مصالح البورجوازية وحسب ، بل ومصالح البروليتاريا أيضاً • ولهذا فان الحركة نحو الاشتراكية ممكنة في اطار هذه الدولة وينبغي ان تحمل الطابع «الديموقراطي» بدون أية « دكتاتورية » • ثم يأتي دور التحريفيين المعاصرين اذ يعلنون : ان الدولة لا تراقب من قبل البورجوازية في البلدان الرأسمالية وانما الأمر عــلى العكس ، أي أن الدولة تقف فوق الطبقات • ان هاتين النظرتين تتناقضان مــع الوضع الواقعي للأمور • ان عملية الشــراء السافر لموظفي الدولــة ، واتحــاد الحكومة والبورجوازيين ، وارتباط قمة جهاز الدولة بالاحتكارات ، والتدابير المختلفة في زمن الانتخابات ، والنفاق والدجل والديماغوجيــة ••• الخ كــل هذا الى جانب الوسائل المشابهة الأخرى يستخدم من قبل البورجوازية من أجل ممارسة دكتاتوريتها • وعندما لاتعود هذه الوسائل مجديــة فان البورجوازيــة لا تتورع عن اللجوء الى العنف الصريح أو الى التهديد به • وعلاوة على هذا ، فان الديموقراطية البورجوازية لم تكن لتمثل في يوم من الأيام حتى « تكافؤ الفرص » الشكلي للجميع ، اذ تقوم بتحديد حق الانتخاب العام وتضييقه ممَّا

---

(١) لينين • المؤلفات • الجزء ٢٥ ص ٣٦٥ •

يسمح بتنحية القسم الأكبر من الكادحين عن المساهمة بالانتخابات • ففي كثير من الدول البورجوازية يجري التلاعب بأشكال كثيرة ومختلفة بقوانين الانتخابات التي تسمح باشتراك ممثلي الأحزاب الديموقراطية اليسارية في الجهاز التشريعي للدولة • ان المتسلطين الحقيقيين في الجمهورية الديموقراطية ـ ملوك الفحم والنفط والفولاذ ، وأصحاب معامل الأسلحة والبنوك وغيرهم ـ يقفون خلف ظهر البرلمان والحكومة • وطالما هم يشعرون بمتانة وضعهم فانه من الخير لهم أن يجعلوا دكتاتوريتهم مقنَّعة بغلالة من « الحرية والديموقراطية » •

« ان الجمهورية الديموقراطية هي أفضل قناع سياسي للرأسمالية ،ولهذا فان رأس المال ، اذ يلبس هذا القناع ، يؤسس سلطته بقوة وأمان بحيث يصبح تغيير الأشخاص أو المؤسسات أو الأحـزاب في جمهورية الديموقراطيـة ـ البورجوازية لا يؤثر على سلطته »[1] •

ولهذا ، فان الماركسيين يعتبرون الديموقراطية البورجوازية شكلية بالنسبة للأكثرية وحقيقيَّة بالنسبة للأقلية المستغلة ، وكشكل لدكتاتورية البورجوازية الملتوية والمقنعة بتمثيل الجميع وبالحرية الشخصية •

لكن النقد الماركسي للديموقراطية البورجوازية لايعني رفض استخدامها لصالح البروليتاريا • وان الديموقراطية البورجوازية ، أكثر تقدمية بمقارنتها مع القرون الوسطى أو اشكال الدكتاتورية الارهابية السافرة • وفي ظـروف الديموقراطية البورجوازية تنشأ الامكانيات من أجل النشاط الرسمي لمنظمات البروليتاريا السياسية ، ومن أجل تنويرها والدفاع عن حقوقها • واذا كانت الديموقراطية البورجوازية قبلة صلوات الانتهازيين ، فان الماركسيين ينظرون اليها من وجهة نظر أخرى تماماً •

ان البروليتاريا هي المناضل العنيد من أجل الديموقراطية • وان كثيراً من الحريات والمكتسبات الاجتماعية التي يزعم الدعاة البورجوازيـون بأنها ثمرة ديموقراطيتهم ، هي في الواقع مكتسبات انتزعتها البروليتاريا من البورجوازية

---

(١) لينين • المؤلفات • الجزء ٣٠ ص ٩٦ •

في نضالها العنيف ، وعليها أن توطدها وتحافظ عليها وتوسعها من فترة الى أخرى • وان النضال من أجل المطالب الديموقراطية الواسعة للكادحين هو مرحلة في الطريق الى الاشتراكية ، وخطوة تقدمية في النضال من أجل الشكل الأعلى للديموقراطية ــ الديموقراطية الاشتراكية لكل الكادحين •

أزمة الديموقراطية والبورجوازية

عندما تعجز الديموقراطية عن حماية النظام الرأسمالي فان البوجوازية ترميها بعيداً وتنتقل الى طرق الدكتاتورية الارهابية السافرة • وان الاحتكارات الرأسمالية هي على العموم تناصب الديموقرطية ــ حتى الديموقراطية البورجوازية ــ العداء • ومع تطور الرأسمالية الاحتكارية ، ومع الانتقال الى الامبريالية يتم عزوف وتحول البورجوازية عن الديموقراطية الى الرجعية السياسية كما بين ذلك لينين • وفي مرحلة الامبريالية تدخل الديموقراطية البورجوازية حقل الأزمات • وينعكس هذا ، قبل كل شيء ، في نزعة الدول البورجوازية الى الفاشية، فقد انتصرت الفاشية في ايطاليا في العقد الثاني ، وفي ألمانيا في العقد الثالث من هذا القرن • ولم تتمكن الطبقة العاملة من أن تسد الطريق على الفاشية هناك لأنها كانت منشقة على نفسها بفعل سياسة الأحزاب الانتهازية الخائنة • لكن

رفض بورجوازية ذينك البلدين ، من جهة أخرى ، للديموقراطية واختيارها الفاشية كان لا يدل على قـوة تلك الطبقة ، وانما على ضعفها وعلى خوفها من الحركة العمالية الثورية • ان تدمير تينك الدولتين الفاشستيتين في الحرب العالمية الثانية لم يكن يعني افلاس الفاشية العسكري وحسب ، بل وافلاسها السياسي والأخلاقي أيضاً • ان النزعة الى الرجعية السياسية قائمة في البلدان الرأسمالية، وهناك ثمة قوى تحاول بعثها في شـكل جديد • والرأسماليون لايتورعون عن تحطيم الديموقراطية البورجوازية اذا ما وجدوا في ذلك مكسباً • ان المكارثية في الولايات المتحدة الأمريكية ، وان تحركات الفاشستية العسكرية التي تساندها الاحتكارات في فرنسا ، ثم ان خنق الديموقراطية في اليونان ، وحظر الحزب الشيوعي في ألمانيا الغربية ـ كل هذه ظواهر مختلفة لنظام واحد • لكن الأمر صار أكثر صعوبة من السابق بالنسبة للرجعيين ، لأن القوى التي تقف من أجل الديموقراطية والاشتراكية نمت نمواً كبيراً في الأعوام الأخيرة • ولهذا فهم يجدون أنفسهم مضطرين لتقنيع هجومهم على الديموقراطية بشعارات «الدفاع» عن الديموقراطية • وان حظر انتشار الفاشية وبعثها هو في كونها مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بالتحضير لشن حروب امبريالية عدوانية ، وفي بعثها الروح العسكرية والركض وراء التسلح ، وفي تضخيمها لجهاز القمع في الدول البورجوازية • ولهذا فان نضال الجماهير الكادحة في الظروف الراهنـة من أجـل الحـريات الديموقراطيـة لا تنفصل عن قضيـة النضال من أجـل السلام • واذا كانت شـعوب البلـدان الرأسـمالية لا تريـد أن تصبح أداة لسياسـة الرأسـمال الاحتكاري التي تخبىء في داخلها تهديداً جدياً بقيام حرب عالمية نووية تقضي على الانسانية ، فان عليها أن تناضل بعناد من أجل شل حركة تلك السياسة • وأن بلدان المعسكر الاشتراكي الصديق الجبار تقف الى جانبها في هذا النضال •

وهكذا ، فان الدولة البورجوازية ، أياً كان شكلها ، هي منظمة الطبقة المسيطرة التي تعمل من أجل توطيد النظام الرأسمالي وسحق الأعداء الطبقيين للبورجوازية • وليس من المربح دائماً للبورجوازية أن تمارس دكتاتوريتها بشكل صريح ، ولهذا فهي تلجأ الى تقنيعها وتمويهها بطرق مختلفة • ولا تهتم

البورجوازية مطلقاً بتأمين الحقوق الواسعة للكادحين كيلا يستخدموها فيما بعد في النضال ضدها • ولهذا فهي تلجأ الى المناورة ، وتجري بعض التنازلات ، لكنه اذا ما كفّت الأشكال الديموقراطية عن خدمتها فانها لاتتردد في ازاحتها وتحطيم شرعيتها التي أوجدتها هي نفسها ، والانتقال الى طرق الارهاب السافرة • وفي فترة المعارك الطبقية العنيفة تتجلى الطبيعة الطبقية للدولة بدقة ووضوح • وبهذا يمكن تفسير تلك الحقيقة القائلةبأن الصراع الصريح المكشوف بين الطبقات ينمي بسرعة الوعي السياسي لدى الجماهير •

ولقد برهنت الماركسية أن على الدولة ، اذ تنشأ مع نشوء الطبقات ، أن تختفي مع اختفائها • فالدولة ليست خالدة ، ومع القضاء على الطبقات تزول الدولة حتماً ؛ وهذا ما تنفرد به الدولة الاشتراكية وحدها في مرحلتها العليا •

٢• نظرية الثورة الاجتماعية

ان النظرية الماركسية ـ اللينينية عن الثورة تدرس شروط وقوانين الانتقال من تشكيلة اقتصادية اجتماعية الى أخرى في عملية التطور التقدمي للمجتمع •

الاساس الاقتصادي وطابع الثورة

ان الانعطافات الثورية في علاقات الناس الاجتماعية في المجتمع الطبقي مشروطة بالقوانين الموضوعية لتطور أسلوب الانتاج • وكما أوضحنا آنفاً(في القسم الأول ، الفصل الثاني) فان ضرورة الانتقال من أسلوب انتاج الى آخر تنبع من فعل قانون ملاءمة علاقات الانتاج لطابع القوى المنتجة • فالأساس الاقتصادي للثورة هو النزاع المتفاقم بين القوى الانتاجية الجديدة وعلاقات الانتاج القديمة ، ومهمتها حل ذلك النزاع • ان الثورة الاجتماعية من شأنها أن تقوم بتنفيذ مهمتها التاريخية الناضجة في القضاء على علاقات الانتاج القديمة، وهي بهذا تمهد الطريق من أجل قيام علاقات انتاجية جديدة تتلاءم مع مستوى وطابع قوى الانتاج • وماركس هو الذي اكتشف هذا القانون ، فقد كتب :«ان القوى الانتاجية المادية للمجتمع عندما تبلغ درجة معينة من تطورها تدخل في

تناقض مع علاقات الانتاج الراهنة ، أو مع علاقات الملكية التي كانت قوى الانتاج ذاتها تتطور في نطاقها • وان هذه العلاقات تتحول من أشكال لتطور القوى المنتجة الى قيود لها وعوائق • وعندئذ تبدأ مرحلة الثورة الاجتماعية »[1] •

ومن هذا ينتج ما يلي :

١• ان الثورة ليست « خرقا » لسير تطور المجتمع « الطبيعي » كما يؤكد اعداء الماركسية ، وانما هي شكل ضروري للانتقال من تشكيلة اجتماعية اقتصادية الى أخرى في عملية تطور المجتمع الطبقي •

٢• ان الثورات لا تقوم بـ « ارادة » او « رغبة » أناس معينين أو فئات أو طبقات معينة ، وانما تقوم فقط عندما تنضج لذلك الشروط المادية المناسبة •

٣• ان لكل ثورة محتواها الموضوعي الاجتماعي الاقتصادي المعين والمستقل عن ارادة ووعي الانسان •

ونحن اذ نطبق هذه الموضوعات على تحليل الواقع ، نتمكن بدقة علمية طبيعية من تحديد المحتوى الموضوعي الاقتصادي والاجتماعي لأية ثورة كانت، ومن معرفة طابعها •

ان طابع الثورة يتعلق بمعرفة تلك العلاقات الانتاجية التي تحطمها الثورة والعلاقات التي ستكون بديلا لها • ان الثورات التي تقوض العلاقات الانتاجية الاقطاعية وتثبت دعائم العلاقات الرأسمالية لهي ثورات ذات طابع بورجوازي • وتتميز الثورات الاشتراكية عن تلك الثورات فهي تحطم التناقض الرئيسي للرأسمالية بين الطابع الاجتماعي لعملية الانتاج والأسلوب الرأسمالي الخاص في ملكية السلع الانتاجية وذلك عن طريق القضاء على الرأسمالية واقامة علاقات الانتاج الاشتراكية •

المحتوى الرئيسي للثورة وقواها المحركة

لابد من أجل حل مسألة الثورة والقضاء على علاقات الانتاج القديمة

---

(١) ماركس وانجلس • المؤلفات • الجزء ١٣ ص ٧ •

من القضاء على مقاومة الطبقات المسيطرة في المجتمع القديم والتي تتحكم بالدولة الحامية لتلك العلاقات • ومن أجل هذا لابدّ من قوة اجتماعية قادرة على النضال من أجل انتصار الثورة • وفي الطرف المقابل لقوة الطبقة المسيطرة المنظمة في الدولة ينبغي أن تنشأ قوة تنظيمية للطبقات المكافحة من أجل قلب تلك السيطرة • وان القوى الثورية لاتتمكن من احراز النصر للجديد على القديم الاّ اذا تمكنت من انتزاع السلطة من بين يدي الطبقة المسيطرة ومن القضاء على مقاومتها • ولهذا فالقضية الأساسية للثورة هي قضية السلطة • وان الثورة بمعناها الحرفي تعني انتقال سلطة الدولة من طبقة الى أخرى • وان القوى الاجتماعية التقدمية، اذ تنشىء سلطة ثورية جديدة ، تستخدم هذه السلطة من أجل التحولات الناضجة في اقتصاد المجتمع •

وبما أن مقاومة الطبقة المسيطرة تصفّى بالنضال المنظم للطبقات القائمة ضد سيطرتها فان عمل هذه الطبقات يدفع بالثورة خطوات الى الامام ، أي ان تلك الطبقات هي القوى المحركة للثورة • ولدراسة الثورة من حيث قواها المحركة أهمية بالغة في تقييم جوهرها وخصائصها •

ويتهيأ الانفجار الثوري بسير النضال الطبقي في المجتمع القديم • والثورة هي ذروة هذا النضال ، وهي تجيب على سؤال : أية طبقة ستنتصر ؟ وأعني أية قوة ستضع يدها على سلطة الدولة وتصبح القوة المسيطرة سياسياً في المجتمع •

ان ثورات الماضي جميعاً كانت تحمل في داخلها تناقضاً جذرياً •

لقد كان نضال الطبقات المستغلة في المجتمعين العبودي والاقطاعي مايزال قائماً خلال تاريخ ذينك المجتمعين كله • وكانت الطبقات المظلومة في كل ثورات الماضي الكبرى القوة الضاربة الرئيسية والمحركة للثورة • لكنها لم تكن هي التي تجني ثمار ثوراتها وانما كانت تتلقفها طبقات مستغلة أخرى حاملة للعلاقات الانتاجية الجديدة •

ولهذا ، فان ثورات الماضي جميعاً كانت ثورات الأغلبية المضطهدة لمصلحة أقلية مستغلة ، ثورات ضد هذا الشكل للملكية الخاصة لمصلحة شكل آخر لها؛ فقد كان يتغير المستغلون ويبقى الاستغلال •

والثورة الاشتراكية هي وحدها الحرة من هذا التناقض . ان القوى المحركة للثورة الاشتراكية هي الجماهير الكادحة المستغلة من قبل الامبريالية ، وتقف في طليعتها الطبقة العاملة التي تندمج مصالحها مع مصالح الأغلبية الساحقة للمجتمع لأن ثورة البروليتاريا تقوم من أجل القضاء على شتى أنواع الاستغلال . وفي هذه الثورة تجني ثمار النصر تلك الطبقات التي تؤلف القوة المحركة لها . ان الثورة الاشتراكية هي ثورة الأغلبية لصالح الأغلبية .

ان القوى المحركة للثورة ، ترتبط بمحتواها الاجتماعي الاقتصادي ارتباطاً وثيقاً . ويبين طابع الثورة وجهتها والقضايا التي تحلها ، وبالتالي يحدد تلك الطبقات الاجتماعية المهتمة بقيامها والتي تؤلف القوة المحركة لها ويميزها عن الطبقات المعادية لها . انّ طريقة التحليل الطبقي تسمح لنا موضوعياً بمعرفة القوى المحركة للثورة في أية بادرة ثورية .

وخلافاً لما يعلنه الانتهازيون فان الماركسية ـ اللينينية ترى أن الثورة تقوم بدور تقدمي رائع في التاريخ . وفي فترات الثورات نجد أن التاريخ يسير قدماً الى الأمام خلال فترة جد وجيزة من الزمن بالمقارنة مع الفترات الزمنية الأخرى .

وفي عصر الثورات تقوم الطبقات الاجتماعية المناضلة بتحطيم البناء الاقتصادي الهرم في صراعها السافر الصريح مع الطبقات المسيطرة ، وان النصر الذي تحرزه القوى الثورية التقدمية يفتح الطريق أمام التطور الصاعد للتاريخ .

ولقد قال ماركس : « ان الثورات هي القوى المحركة للتاريخ » ، ولا يمكن أن تقوم ثورة ما بدون عنف ونضال وبطولة وتضحيات . « ان العنف الثوري هو تلك الأداة التي تمهد الحركة الاجتماعية بواسطتها الطريق ، والفأس التي تهدم بها الأشكال السياسية البالية المتحجرة »[١] .

والماركسيون يعتبرون دائماً أن نظام الثورة هو أفضل « نظام » في المجتمع الطبقي ، عندما تتفجر الطاقة الثورية لجماهير الشعب الواسعة التي ترزح فوق كاهلها قرون كاملة من الفقر والألم والاضطهاد .

---

(١) انجلس . « أنتي ـ دهرينغ » ص ١٧٢ .

« ان الثورة هي غيذ المضطهَدين والمستغَلين »[1] •

ومن أجل أن تقوم الثورة التي نضجت ضرورتها الاقتصادية لابد من وجود شروط ومنطلقات موضوعية وذاتية معينة •

وان مجموع الشروط الموضوعية اللازمة لقيام الثورة تدعى بالوضع الثوري • وأهم دلائله ـ كما يرى لينين ـ هي : أولا ، أزمة سياسة الطبقة المسيطرة التي تنعكس في عدم امكانية بقاء وجود الدولة كما هي ، وعدم امكانية العيش والحكم بالأسلوب القديم • وهذا الظرف من شأنه ان يفتّ في عضد الحكومة ويجعل سياستها مائعة قانطة مما يسهل عملية قلبها •

وثانياً ، « تفاقم الفقر والعوز في صفوف الطبقات المظلومة » التي لم تعد تطيق العيش على هذا المنوال • وان هذا من شأنه أن يدفع الجماهير الى الحركة الثورية العلنية الجريئة •

ويستطيع الحزب القائد لنضال البروليتاريا الثوري أن يجعل الاستيلاء على سلطة الدولة مهمته المباشرة عندما يتوفر الوضع الثوري فقط ، والاّ فان الحزب يقحم نفسه والجماهير في مغامرة ، ويحكم على نفسه بالفشل الذريع •

لكن ليس كل وضع ثوري يؤدي الى الثورة ؛ فلقد وجد الوضع الثوري في روسيا مثلا بين ١٨٥٩ ـ ١٨٦١ ، لكن الثورة لم تتم آنذاك ، وكذلك الأمر بالنسبة لألمانيا في بداية العقد الثاني من هذا القرن •

ان نار الثورة تشب وتتأجّج فقط ، عندما ينضم العامل الذاتي الى الشروط الموضوعية الضرورية •

ويتعلق بالعامل الذاتي وعي الطبقة الثورية لضرورة الانقلاب وقدرتها على العمل الجماهيري المنظم الحاسم ، واستعدادها للمضي حتى النهاية وللموت في سبيل النضال •

ان قانون الثورة هو الجمع بين الشروط الموضوعية والذاتية ، وان الحزب

---

(١) لينين • المؤلفات • الجزء ٢١ ص ١٨٩ ـ ١٩٠ •

الماركسي اللينيني يعتمد على هذا القانون في تحضيره للقيام بالثورة الاشتراكية • وتنضج الشروط الموضوعية للثورة الاشتراكية بصورة مستقلة عن ارادة ووعي الطبقات والأحزاب • لكنه لدى توفر الشروط الموضوعية الملائمة يتعلق نجاح الثورة بالعامل الذاتي الذي يتعلق تكوينه الى حد كبير بالعمل التنظيمي والتثقيفي لحزب البروليتاريا • ان وعي وتنظيم الجماهير ، وان وجود الحزب الثوري المقاتل المتمتع بشخصية جماهيرية ، والقادرة على قيادة وتوجيه النضال يؤلفان الأهمية البالغة من أجل نجاح الثورة الاشتراكية •

وان الحزب الماركسي اللينيني هو المؤهل لقيادة الثورة البروليتارية•وكما تبين لنا تجربة ثورة أوكتوبر وتجربةالثورات الاشتراكية فيبلدانالديموقراطية الشعبية ، فان وجود الحزب الشيوعي هو شرط ضروري لنجاح النضال الثوري للبروليتاريا •

ولقد ضرب الحزب الشيوعي في الاتحاد السوفييتي مثالا على أنه ينبغي تحضير الطبقة العاملة والفلاحين وتهيئتهم للثورة حتى في أحلك الظروف وأشدها صعوبة • كما أنه ضرب أمثلة أخرى في قيادة نضال الجماهير الكادحة الروسية من أجل قلب سلطة الاقطاعيين والرأسماليين في فترة الثورة ذاتها • وان لتجربة الحزب الشيوعي في الاتحاد السوفييتي أهمية عالمية •

تلك هي الموضوعات الرئيسية لنظرية الثورة الاجتماعية •

الثورات البورجوازية

ان فترة سقوط الاقطاعية وتثبيت دعائم سيطرة أسلوب الانتاج الرأسمالي هي عصر الثورات البورجوازية •

ان الأساس الاقتصادي للثورة البورجوازية هو التناقض بين العلاقات الاقطاعية للملكية وقوى الانتاج الجديدة التي ظهرت فيحضن المجتمع الاقطاعي ومعها علاقات الانتاج الرأسمالية الملائمة لها • وان السمة المميزة للثورة البورجوازية هي أنها تبدأ عادة عند وجود شكل القطاع الرأسمالي الذي يتطور

في قلب الاقطاعية • ولهذا ففي الثورة البورجوازية تقوم الى جانب الفلاحين – الطبقة المستغلة الرئيسية في المجتمع الاقطاعي – طبقات وفئات اجتماعية جديدة مرتبطة بظهور أسلوب الانتاج الرأسمالي : البورجوازية ، البورجوازية الصغيرة ، البروليتاريا الوليدة • لكن درجة مساهمة هذه الطبقات المختلفة في الثورة مختلفة هي أيضاً ومتعلقة بالشروط الحسية الموضوعية •

والتاريخ يعرف ما يسمّى بالثورات الفوقية ، عندما كانت البورجوازية تناضل امّا لوحدها من أجل السلطة أو مع مساهمة الجماهير الشعبية مساهمة تكاد لا تذكر • وان مثل هذه الثورات هي ثورات بورجوازية ليس بمحتواها الاقتصادي الاجتماعي وحسب ، وانما بقواها المحركة أيضاً • وان كلا من الثورة البرتغالية (١٩١٠) والثورة التركية (١٩٠٨) تخدم كمثل على ذلك •

ان مثل هذه الثورات البورجوازية ليست ذات قيمة عظيمة لأن الجماهير لا تشترك فيها اشتراكاً فعلياً ، فتؤدي الثورة الى تغيير فئة حاكمة بأخرى • وتكون هذه الثورات ، عادة ، عرجاء ، أي أنها تبقي كثيراً من سمات النظام القديم دون أي مساس بها •

ومن بين الثورات البورجوازية كلها كانت تتمتع بأهمية تاريخية تلك الثورات التي ساهمت فيها الجماهير الشعبية ، والتي كان الكادحون في القرية والمدينة هم الذين يؤلفون قواها المحركة ، بالرغم من أن البورجوازية هي التي كانت تتسنم منصب القيادة فيها • ان تلك الثورات البورجوازية بالذات التي قامت ما بين القرنين السابع عشر والتاسع عشر كانت تلعب الدور الحاسم في قضية تثبيت سيادة العلاقات الرأسمالية • ان الثورات البورجوازية التي تساهم فيها الجماهير الكادحة مساهمة فعالة بموجب مطالبها الخاصة وتترك هذه المطالب آثاراً لها خلال سير الثورة كله ، هي ثورات ديموقراطية بورجوازية •

وفي سير الثورة البورجوازية تسلك كل طبقة من الطبقات طريق أهدافها الخاصة • فالفلاحون يناضلون من أجل القضاء على جرائم الاقطاعية وظلمها وضرائبها التي تثقل كواهلهم بعبء لا طاقة لهم به ، ومن أجل الأرض • وتسعى

الطبقات المستغلة في المدينة الى تحسين وضعها المادي . وتهتم البورجوازية بتوفير حرية نشاطاتها وبحماية ملكيتها . ويكون العدو المشترك لكل هذه الفئات الاجتماعة متمثلا في النظام الاقطاعي بحواجزه وتقسيماته الاقطاعية وأرستقراطيته، وفي الحكم المطلق المعتمد على الزعماء الاقطاعيين . وهكذا تتجه الطاقة الثورية لباقي طبقات المجتمع ضد النظام الاقطاعي ؛ وتتحد الجماهير الكادحة مع البورجوازية في النضال ضد العدو المشترك .

لكن البورجوازية لم تكن لتعلن في يوم من الأيام عن مصالحها الخاصة ذات الطابع الجشع ، وانما كانت تقنعها بعبارات عن الحرية والمساواة والنضال ضد « الشر » ومن أجل تحقيق « الخير » و « العدالة » ... وغيرها . وكانت تظهر مصالحها الخاصة على أنها مصالح المجتمع كله .

وقد كان لهذه التُرهة أساسها الموضوعي ، لأن النظام الاقطاعي كان بالفعل عدواً للشعب كله . لكن مصالح البورجوازية الخاصة مالبثت أن ظهرت في تناقض مع مصالح الجماهير الكادحة فور تسلم البورجوازية السلطة .

« ان المهمة الرئيسية للجماهير الكادحة في الثورات البورجوازية تنحصر في تنفيذ العمل السلبي أو الهدام في القضاء على الاقطاعية والحكم المطلق وأوضاع القرون الوسطى ،بينما يبقى العمل الايجابي ، أو البناء في تنظيم المجتمع الجديد، من اختصاص الأقلية البورجوازية المالكة والمتنفذة »[1] .

وان هذه الأقلية كانت تخشى عادة أي عمل ثوري يقوم به الشعب ،فكانت تضطر الى الاتحاد معه بفعل الضرورة والى حين .

واذا ما توصلت البورجوازية الى السلطة ، أو حتى اذا ما حصلت على « اذن » بتسلمها ، وما أن تشعر بأن سيطرتها صارت مضمونة أو شبه مضمونة حتى تعلن انتهاء الثورة وتصبح مستعدة للقيام بثورة مناهضة وللتفاهم مع الرجعيين السافرين وللتعاون مع أنصار الحكم المطلق والاقطاع من أجل عرقلة سير تطور الثورة المقبل . وفي سير الثورة البورجوازية يبدأ الصراع المرير بين

---

(١) لينين . المؤلفات . الجزء ٢٧ ص ٢١٠ .

البورجوازية وأحزابها من جهة ، وبين الجماهير الكادحة الثورية التي تكتشف أن الثورة لن تلبي مطالبها أبداً . فتصب هذه الجماهير جام غضبها على الأغنياء والملاّكين الكبار محاولة صدّ البورجوازية عن عرقلة سير تطور الثورة ،وهذا من شأنه أن يقتلع جذور الاقطاعية من القرية والمدينة فيما بعد .

وان اكثر الثورات البورجوازية جذرية في عصر الرأسمالية الناهضة هي الثورة البورجوازية الفرنسية ١٧٨٩ - ١٨٩٤ .

بديهي أن القانونية العامة للثورات البورجوازية تتجلى حسب الأوضاع المتباينة في أشكال متباينة ؛ وينبغي أن نحسب لهذا الأمر حسابه عند دراسة ثورات معينة في بلدان مختلفة . ان الأهمية التاريخية لكل الثورات البورجوازية في عصر الرأسمالية الناهضة هي في أنها قضت على علاقات الانتاج الاقطاعية ومهدت الطريق لقيام العلاقات الرأسمالية القادرة آنذاك على تطوير قوى الانتاج .

واننا سوف نتناول الثورات البورجوازية الديموقراطية التي قامت في عصر الامبريالية في أحاديثنا المقبلة .

٣ - الثورة الاشتراكية

الحتمية التاريخية والمحتوى الأساسي للثورة الاشتراكية

ان التناقض الذي يحدد الضرورة التاريخية للثورة الاشتراكية ينشأ ويتطور مع الرأسمالية . انه التناقض بين الطابع الاجتماعي لعملية الانتاج وشكل الملكية الرأسمالية الخاصة . ولقد تحدثنا عن هذا قبلا . وان الثورة الاشتراكية مدعوة لحل هذا التناقض عن طريق القضاء على الملكية الرأسمالية الخاصة لوسائل الانتاج واقامة علاقات انتاجية قائمة على الملكية الجماعية . وان هذا الانعطاف يحرر الطبقة العاملة والمجتمع كله من الاستغلال ،ويقضي على عدم المساواة الاجتماعية وعلى التناقضات الاجتماعية .

ان القوة المحركة للثورة الاشتراكية هي الطبقة العاملة ومعها الجماهير

الكادحة في الريف والمدينة ـ وبالدرجة الأولى الفلاحون ـ الذين ينضوون تحت قيادتها • وان النضال من أجل تحقيق سلطة الكادحين واقامة دكتاتورية البروليتاريا هو المحتوى الأساسي للثورة الاشتراكية • وهذا يعني :

١ ـ أن البروليتاريا في سير الثورة تقلب سلطة البورجوازية ،وتحرمها من سيطرتها السياسية ، وتنتزع أدوات السلطة من بين يديها ، ممهدة الطريق بهذا لدكتاتوريتها •

٢ ـ وأن البروليتاريا تحطم في سير الثورة آلة السيطرة البورجوازية وكل الجهاز العسكري وجهاز الأمن وموظفي الدولة ممهدة الطريق بذلك لخلق جهاز الدولة البروليتارية •

٣ ـ وأن الطبقـة العاملة في سـير الثورة تأخذ السلطة ، وتقيم دولة جديدة ـ دولة دكتاتورية البروليتاريا الثورية ، وتستخدمها من أجل تحقيق أهداف ومهمات الثورة البروليتارية في بناء الاشتراكية •

وان الانتهازيين والتحريفيين يدحضون فكرة ضرورة الثورة الاشتراكية• فهم يزعمون بأن الطبقة العاملة التي تحدث عنها ماركس وانجلس لا وجود لها اليوم ، فلقد ارتفعت أجورها التي كانت جد متدنية في الماضي ، وصارت الآن تتمتع بجميع حقوقها وتقف على قدم المساواة مع البورجوازية في اطار « الديموقراطية »• فالواجب يقضي بعدم النضال ضد « دولة الخير الاجتماعي » وبالاعتماد عليها من أجـل خلق « الاشتراكية الديموقراطيـة » التي ينبغي تحقيقها عن طريق الاصلاحات البطيئة المستمرة دون الحاق أي أذى بمصالح البورجوازية •

ان هذه الأفكار تمسك الانتهازيين من آذانهم وتثبت كونهم حماة للنظام الرأسمالي • وفي كثير من البلدان الرأسمالية المتطورة استطاعت الطبقة العاملة بالفعل في نضالها العنيد أن ترغم البورجوازية على اجراء التنازلات فيما يتعلق بمستوى الأجور والتشريعات الاجتماعية وغيرها • لكنه من المعروف حقاً أن نضال الطبقة العاملة في ظروف الرأسمالية يتعارض مع نزعة الرأسمالية الى

افقار الجماهير • واذن ، ان كل هـذه المكتسبات ليست وطيدة ، وانما هي مهددة بانقضاض البورجوازية عليها بين فترة وأخرى حينما تسمح الظروف بذلك • والطبقة العاملة في الواقـع غارقة في البؤس والبطالة • وبالاضافة الى ذلك فالرأســمالية كانت أعجز من أن تخلص الانسانية من الجوع والفقر ، حتى أنه في بعض البلدان ثمة مناطق كاملة لايزال فيها مستوى المعيشة عـلى درجة سحيقة من الانخفاض •

ثم ان المســاواة السياسية بين العمــال والرأسماليين ذات طابع شكلي محض • ولهذا فان الطبقة العاملة لاتتساوى مع البورجوازية سواء في العلاقات الاقتصادية أو السياسية •

ولقد حدثت تغيرات جوهرية بالفعل في وضع الطبقة العاملة بالمقارنة مع وضعها في القرن الماضي • لكن هذا لايبطل فعل القوانين الأساسية للرأسمالية وضرورة ثورة البروليتاريا التي أكدها ماركس في « رأس المال » • وان هذه التغيرات ـ كما سنرى ـ تغير ظروف النضال ، لكنها لاتحمل الشك الى مسألة النضال ذاته •

ان استبدال دكتاتورية البورجوازية بدكتاتورية البروليتاريا يتضمن العنف ، وضرورة استعماله أحياناً • ان الايديولوجيين البورجوازيين والانتهازيين يتهمون الشيوعيين بأنهم، اذ يقرون ضرورة الثـورة والدكتاتورية الثوريـة ، أنصار للعنف ، بينمـا الانتهازيون أعداء له • وليست هـذه التهمة كاذبة وحسب ، وانما هي تنضح بالنفاق •

فالشيوعيون يرون أنه ، طالما توجد الطبقات والنضال الطبقي والدولة ، فان العزوف عن مبدأ استعمال العنف لامبرر له ، لأن الدولة نفسها هي أداة للعنف • ولهذا فالسؤال هنا ينبغي أن يطرح بشكل آخر : الى جانب أي عنف يقف هذا الحزب أو ذاك ، وأي عنف ذاك الذي يلجأ اليه ـ رجعي أم ثوري ؟ ان الشيوعيين ، اذ يدحضون ويشجبون العنف الرجعي ، يعتبرون استخدام العنف لمصلحة التقدم التاريخي مبرراً ، أي العنف الثوري •

والتاريخ يعرف حركـات قامت تحت رايـة النفي المبدئي لأي عنف كان . لكن تلك الحركات لم تستطع في يوم من الأيام ارغام الطبقات الرجعية على رفض تطبيق العنف لمصلحتها . وعلاوة على ذلك ، فان الامبريالية لاتخلق عنفاً وحسب ، وانما تطبق عنفاً أسطورياً متوحشاً لا مثيل لـه . فقد تسبب الامبرياليون في اشعال نار حربين عالميتين راح ضحيتهما عشرات الملايين من الناس . وان الفاشية بايديولوجيتها الوحشية وعبادتها للقوة المتوحشة هي البنت البارة للامبريالية . والامبرياليون يستعدون لاضرام نار حرب عالمية جديدة يحترق في أتونها مئات الملايين من الناس . ولقد قاموا ، وما يزالون ، بحروب استعمارية ساحقين تحت أقدامهم أماني الشعوب المشروعة في التحرر الوطني. فالرأسماليون لايتورعون عن استخدام أقسى أنواع وسائل العنف ضد الطبقة العاملة عندما تشعر البورجوازية بالخطر على مصالحها . وبعد هذا كله فان الايديولوجيين البورجوازيين والانتهازيين ـ خدام الرأسمالية ـ يجرؤون على التصريح بأنهم أنصار الأساليب الانسانية التي تنفي العنف !! فلماذا اذن يدافعون عن النظام الذي يولد أشد أنواع العنف ضراوة ووحشية ؟!

ان الشيوعيين السائرين عـلى النهج الماركسي ـ اللينيني يقرون الدور التقدمي للعنف الثوري في التاريخ ،

فهم يناضلون من أجل المجتمع الجديد الذي ينسجم ومطامح الشعوب.

فالعنف وسيلة وليس هدفاً بذاته . وتتحدد درجة استخدامه بدرجة مقاومة الطبقات الرجعية الهرمة ، فكلما كانت هذه المقاومة عنيدة وجادة كلما اضطرت القوى التقدمية الى استخدام هذا الشكل من العنف أو ذاك ، وان تاريخ الحركة العمالية الثورية يؤكد ذلك . ان ثوار كومونة باريس كانوا مضطرين للذهاب الى القلاع لمقاومة ضغط الفيرساليين . لكنهم لم يفلحوا ، وأغرقت الكومونة بدماء العمال . وان رجال الحرس الأبيض هم الذين أشعلوا نار الحرب الأهلية في روسيا معتمدين عـلى مساعدة الامبرياليين الأجانب . وهـذا ما اضطر الطبقة العاملة والفلاحين الى الدفاع عن مكتسبات الثـورة

بالسلاح • وان صيحات تشان كاي شيك عقدت لواء الحرب الأهلية في الصين بالرغم من الاقتراحات السلمية للحزب الشيوعي هناك • وفي بلدان الديموقراطية الشعبية الأخرى لم يكن في وسع أعداء الثورة اشعال نار الحرب الأهلية

وهكذا ،فان انتزاع البروليتاريا للسلطة في سير الثورةالاشتراكية يتضمن حتماً عنصر العنف • لكن مقدار ودرجة هذا العنف يتعلقان بقوة مقاومة الطبقات المنقلبة •

الامبريالية ـ الثورة الاشتراكية

بالرغم من أن المنطلقات المادية للثورة الاشتراكية في بعض البلدان الرأسمالية المتطورةبدأت تنضج في القرنالتاسع عشر ، فان التشكيلة الرأسمالية كانت لاتزال تتطور في خط صاعد •

لقد ذكرنا آنفاً أن مهمة الرأسمالية التاريخية كانت في جعلها لعملية الانتاج عملية اجتماعية ، وتتم عملية الانتاج الاجتماعي عندما تخلق الصناعة الضخمة لنفسها قاعدة تكنيكية جبارة ـ صناعة الآلات للآلات • ففي البلدان الرأسمالية الكبرى وجد الانتاج الآلي الضخم قبيل العقد السابع من القرن الماضي ، وعند ذلك أيضاً كانت الرأسمالية ماتزال تتطور • وقامت البلدان الرأسمالية الكبرى باحتلال المستعمرات ومناطق النفوذ وأسواق التصدير ومنابع المواد الأولية • ونتيجة لذلك تضخمت الحاجة الى السلع الصناعية ، وظهرت الامكانيات القوية لنمو الانتاج الصناعي • وبالاضافة الى ذلك ، فان البلدان التي سلكت طريق التطور الرأسمالي أخيراً لم تستنفد كل احتياطاتها الداخلية للتطور • لكن تلك الاحتياطات نفدت في بداية القرن العشرين ، وتفاقم التناقض الرئيسي في المجتمع الرأسمالي واحتدم حتى النهاية ، وصار بقاء العلاقات الرأسمالية أقوى عائق لتطور الانتاج ، ودخل النظام الرأسمالي العالمي مرحلة الغروب • لقد دخلت الرأسمالية عصراً جديداً ، وظهر في

اقتصادهـــا وفي سياستها كثير من الظواهر الجديدة التي لابـد من دراسـتها دراسة علمية •

ولقد قام لينين بهذا العمل • فهو ، اذ اعتمد عـلى موضوعات ماركس في « رأس المـال » وأبدع أفكاراً جديـدة كثـيرة توصـل الى القول بأن الرأسمالية دخلت في بداية القرن العشرين مرحلة عليا جديدة من تطورها ، مرحلة الامبريالية ، التي هي تفسخ الرأسمالية • وان الأساس الذي قامت عليه هـذه النتيجة هـو أنه نتيجة لعملية تمركز رأس المـال صارت الاتحادات الرأسمالية الكبرى ـ الاحتكارات ـ هي التي تقوم بالدور الأساسي في الاقتصاد اذ تفرض رقابتها على كل فروع الصناعة برمتها ، وتملك في أيديها الثروات الهائلة • وان استبدال المزاحمة الحرة بالاحتكارات كان يعني ظهور النزعة الى الجمود في الاقتصاد •

وان مايميز الرأسمالية أيضاً الاندماج بين الرأسمال المصرفي والرأسمال الصناعي وظهور الرأسمال المالي والطغمة المالية ـ الذروة الضيقة لأقطاب رأس المال التي تستغل جبروتهـا الاقتصادي في اخضـاع جهاز الدولة ووسـائل التأثير الايديـولوجي المختلفة الأخرى الضرورية لتوطيد سيطرتهـا • ان مصالـح الاحتكارات تتناقض مع مصالح الشعب تناقضاً كلياً •

ان الحدود القومية تضيق بالاحتكارات • ولهـذا فهي في سعيها خلف الربح تستغل مستعمراتها استغلالها فاحشاً حيث تكون المواد الأولية رخيصة وكذلك اليـد العاملـة ، فتقوم بامتصاص ثروات تلك البلدان وتسبب نقمة شعوبها المظلومة المضطهدة • وأخيراً فان لينين يلفت انتباهنا الى بعض السمات الهامة للامبريالية كتقسيم العالـم الى مناطق نفوذ بين الاحتكارات الرأسمالية الكبرى • وقد كانت تلك السمات بمجموعها تدل عـلى التفاقم الحاد لكل تناقضات الرأسمالية ونمو الدور الطفيلي للطبقات المسيطرة •

وينبغي أن ندرس الانتقال الى الامبريالية كظهور العصر الذي ينضج فيه النظام الرأسمالي كله من أجل الثورة الاشتراكية • فقد توصل لينين الى هذه النتيجة أيضـاً • فبين أن بين رأسمالية احتكاريـة الدولة وبين الاشتراكيـة

لاتوجد أية درجات انتقالية أخرى في سلم التطور التاريخي • وان الأساس المادي لقيام الثورة الاشتراكية يتم في غضون مرحلة الامبريالية •

والى جانب هذا ، ففي عهد الرأسمالية تنمو القوى الثورية نمواً ملحوظاً • وان عملية استغلال الطبقة العاملة تزيد من احتدام التناقض بين البروليتاريا والبورجوازية • وتزداد عند الطبقة العاملة النقمة على الرأسمالية ويزداد وعي البروليتاريا • ان الامبريالية هي التي تسوق الطبقة العاملة الى الثورة • لكن الامبريالية لاتخنق وتضغط على الطبقة العاملة وحسب ، وانما هي تضغط على الفلاحين والبورجوازية الصغيرة في المدينة وعلى المثقفين وتضطهدهم • وان الطبقة العاملة تستطيع أن تجد حلفاء لها مخلصين من بين تلك الفئات الاجتماعية • ثم ان الاحتياطي الضخم الآخر للبروليتاريا تشكله شعوب المستعمرات والبلدان التابعة للنفوذ الاستعماري • ففي المستعمرات يتخذ الظلم الاستعماري أشكالا وحشية شوهاء ، ويكون الكره والنقمة على الامبريالية وعلى الأجانب الدخلاء المضطهدين على أشدهما • ان المستعمرات هي القوة الرئيسية للنضال ضد الامبريالية ومن أجل التحرر الوطني وحليف الثورة البروليتارية •

وهكذا ، ففي عهد الامبريالية تتسع القاعدة الاجتماعية للنضال ضد طاغوت رأس المال • فيتحول الفلاحون من حليف للبرجوازية الى حليف للبروليتاريا • وتتحول شعوب المستعمرات نتيجة لتطور نضالها الوطني التحرري من قوة احتياطية للامبريالية الى قوة احتياطية للثورة الاشتركية البروليتارية • وكل تلك القوى المعادية للاستعمار ينبغي أن تنقاد في نضالها للطبقة العاملة ـ القوة الثورية الرئيسية في عصرنا الراهن ـ من أجل توجيهها جميعاً ضد النظام الرأسمالي • ان نمو القوى الثورية المعادية للامبريالية من شأنه أن يسهل انتصار البروليتاريا على البورجوازية •

هذه هي النتيجة الثانية التي استنبطها لينين من تحليله للمرحلة الجديدة في تطور الرأسمالية •

وأخيراً فقد بين لينين لدى تحليله للشروط التاريخية الجديدة كيف أنه بفعل قانون عدم التوازن في التطور السياسي والاقتصادي للرأسمالية وفي ظروف تقسيم العالم الى مناطق نفوذ تتفاقم التناقضات الامبريالية الداخلية بين البلدان الرأسمالية المختلفة • وان هذه التناقضات تؤدي الى الصراع من أجل تقسيم العالم والى الحروب الامبريالية •

وهكذا ، فان انتقال الرأسمالية الى مرحلة تطورها العليا يعني أن النظام الرأسمالي للاقتصاد صار غير ملائم أبداً لمتطلبات تطور قوى الانتاج ، وأن الابقاء على الرأسمالية يشكل خطراً عظيماً على الانسانية ، ويؤدي الى تدمير الانتاج في فترات الأزمات والحروب التي تقضي على جماهير البشر وعلى الثروات المادية معاً •

والى جانب هذا فان الامبريالية ، اذ تهيء المنطلقات المادية لقيام الثورة الاشتراكية وتزيد من تفاقم كل تناقضات الرأسمالية ، توجد الشروط التاريخية الجديدة لتطور الثورة الاشتراكية •

تحول الثورة الديموقراطية البورجوازية الى ثورة اشتراكية

ان تحليل الثورات البورجوازية المبكرة يبين كيف أن الجماهير الشعبية كانت تسير في أعمالها الثورية الى أبعد مما تريده البورجوازية ، وهي ذاتها التي كانت تسير بالاصلاحات البورجوازية حتى النهاية بالرغم من مقاومة البورجوازية لها في بعض الأحيان •

ومن جهة أخرى فقد كانت البورجوازية تتسلم قيادة الثورة وتجمع السلطة بين يديها وتصفي حسابها ليس فقط مع قوى المجتمع القديم وانما مع حليفتها في النضال ضد الاقطاعية ـ مع الجماهير الشعبية • ان ضعف البروليتاريا وعدم تنظيم الجماهير الكادحة كانا يتيحان للبورجوازية احراز النصر على الشعب •

وان العلاقات بين القوى الطبقية في الثورة الديموقراطية البورجوازية القائمة في ظروف الامبريالية تختلف عن غيرها من العلاقات •

ففي فترة الامبريالية يكون باستطاعة البروليتاريا أن تقود الثورة الديموقراطية البورجوازية بشرط أن تكون على درجة جيدة من التطور والتنظيم وأن يكون لها حزبها السياسي المستقل القادر على شل حركة البورجوازية وتسلم قيادة الحركة • وان الثورة الروسية عام ١٩٠٥ كانت أول ثورة ديموقراطية بورجوازية في عصر الامبريالية •

فقد كانت تتوفر في روسيا طبقة البروليتاريا الصناعية الواسعة الكبيرة ومعها حزبها السياسي • ولم تكن البورجوازية قوة ثورية ، فقد كانت تخشى الأعمال الثورية للعمال •

ان تغير الشروط هذا مكن الطبقة العاملة من تسلم قيادة الثورة الديموقراطية البورجوازية من أجل القضاء على كل مخلفات الاقطاعية قضاء مبرماً • وقد كانت الطبقة العاملة تطمح من أعماقها الى احراز النصر التام على القيصرية • ولقد أشار لينين الى أنه في استطاعة الطبقة العاملة القيام بهذه المهمة فتتسلم زمام قيادة الثورة ، وتتقدم الفلاحين ، وتشل قدرة البورجوازية على الحركة ، وتجمع كل القوى الثورية في سيل عازم هادر يجرف في طريقه القيصرية •

والفلاحون هم حلفاء البروليتاريا في الانعطاف الديموقراطي البورجوازي اذ يهمهم جميعاً القضاء التام على ملكية الاقطاعيين للأراضي •

وقال لينين : ان انتصار الثورة يتطلب تشكيل حكومة ثورية مؤقتة ـ دكتاتورية البروليتاريا والفلاحين ، الديموقراطية الثورية ـ مدعوة لسحق مقاومة أعداء الثورة وتوطيد مكتسباتها •

لقد وضع تكتيك البلشفيك هذا من أجل الاستمرار في الثورة وتحويلها من ثورة ديموقراطية بورجوازية الى ثورة اشتراكية •

فقد بيَّن لينين « أن نضال البروليتاريا من أجل الحرية والجمهورية الديموقراطية في المجتمع البورجوازي هو احدى المراحل الضرورية في النضال

من أجل الثورة الاجتماعية التي من شأنها أن تقلب النظم البورجوازية »[١] •

ولقد تحددت امكانية تحويل الثورة الديموقراطية البورجوازية الى ثورة اشتراكية بذلك الظرف الذي تنسجم بموجبه مصالح الاقطاعيين والقيصرية مع مصالح الامبريالية •

وان الشرط اللازم لنجاح تحول الثورة الديموقراطية البورجوازية الى ثورة اشتراكية هو تسلم البروليتاريا لزمام قيادة الثورة ، وهذا يبقى مستحيلا ما لم يوجد حزبها الماركسي اللينيني الثوري الذي ينتهج سياسة مبدئية مستقلة ممثلة لمصالح البروليتاريا في سير الحركة كلها ، ذلك هو حزب البلشفيك اللينيني المجيد ؛ وتلك هي الموضوعات الأساسية للنظرية اللينينية حول تحول الثورة الديموقراطية البورجوازية الى ثورة اشتراكية •

وفي طريقة وضع لينين لمسألة دور البروليتاريا في الثورة الديموقراطية البورجوازية انعكست قوة الدياليكتيك الماركسي الذي يتطلب فهماً صحيحاً للماركسية وحصر العلاقات الحقيقية بين القوى الطبقية من كل جوانبها •

« ان الثورات البورجوازية ترينا التعقيد الهائل للفئات والعناصر المختلفة وللبورجوازية ذاتها وللطبقة العاملة • وان « اعتصار » الجواب على الأسئلة الحسية للثورة البورجوازية الروسية التي قامت في العقد الأول من القرن العشرين من «المفهوم العام» للثورة البورجوازية ، في المعنى الضيق للكلمة ،هو عملية اسفاف بالماركسية الى مستوى الليبرالية »[١] •

ولقد اثبتت النظرية اللينينية حول تحويل الثورة الديموقراطية البورجوازية الى ثورة اشتراكية امكانية تقريب الأجل بين هاتين الثورتين في عصر الامبريالية • ولقد حطمت الموضوعة الانتهازية لقادة الأممية الثانية عن حتمية وجود الفترة الزمنية الطويلة بين الثورة الديموقراطية البورجوازية والثورة الاشتراكية •

ان أفكار لينين عن هيمنة البروليتاريا على الثورة الديموقراطية البورجوازية

---

(١) لينين • المؤلفات • الجزء ٨، ص ٨ •

(٢) لينين • المؤلفات • الجزء ١٧ ص ٣٦٨ •

وعن دكتاتورية البروليتاريا والفلاحين الديموقراطيـة الثـورية ، وعن تحول الثورة الديموقراطية البورجوازية الى ثورة اشتراكية ، وعن اتحاد البروليتاريا مع العناصر الأخرى نصف ـ البروليتارية في الثورة الاشتراكية تنير درب نضال البروليتاريا ضد الامبريالية ومن أجل انتصار الاشتراكية •

ولقد زادت امكانية تقريب الحركة الديموقراطية من النضال من أجل الاشتراكية في وقتنا الحاضر • وسبب هذا : أولا ، ظهور المعسكر الاشتراكي الجبار الذي أضحى العامل الحاسم في التطور العالمي ؛ وثانياً ، تغير المحتوى الاجتماعي للحركة الديموقراطية ذاتها ؛ وثالثاً ، اتساع قاعدة النضال الاجتماعية من أجل الاشتراكية •

فاذا كانت الحركة الديموقراطية موجهة في الماضي (أواخر القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين) ضد الاقطاعية ومخلفاتها فان للحركة الديموقراطية المعاصرة خصمها الرئيسي ـ الرأسمال الاحتكاري • ولا يعني هذا ، بالطبع ، حذف قضايا النضال ضد الاقطاعية من برنامج اليوم • ان مثل هذه القضايا لا تزال قائمة في كثير من البلدان ، لكنها تؤلف جزءاً من النضال ضد الامبريالية ـ سالبة حريات الشعوب وعدوها الرئيسي •

أن المنطلقات الداخلية والخارجية للاشتراكيـة في عصـرنا الراهن صارت أكثر ملاءمة ممّا كانت عليه قبلا

ولقـد صار في استطاعة أية دولة ـ بصرف النظر عن مستوى تطورها ـ أن تقف على الطريق المؤدي الى الاشتراكية»[١]•

ولقد بين لينين أن جماهير الريف والمدينة ـ أنصاف البروليتـاريين ـ يمكن أن يصبحوا في ظروف الامبريالية حلفاء مخلصين للبروليتاريا في الثورة الاشتراكية • وهم يشكلون الى جانب البروليتاريا غالبية السكان ، ولهذا فليس ثمة داع لتأجيل عمل الثورة الاشتراكية الى أجل آخر • فقد سارت الطبقـة

---

(١) حول برنامج الحزب الشيوعي في الاتحاد السوفييتي ص ١٠٤ ـ ١٠٥ •

العاملة في بلدان الديموقراطية الشعبية في طريق التحويلات الاشتراكية وذلك باتحادها مع الفلاحين • وتزداد خيبة أمل الفئات المثقفة الواسعة في الرأسمالية كلما تكشف لها تفسخ طابعها اللاانساني • لكن هـــذا لايعني أنها ستقف فوراً ودونما تردد تحت راية الاشتراكية ،فان قسماً منها سوف يتردد كثيراً•لكنه سوف تنشأ امكانية جذبهم الى صفوف النضال من أجل الاشتراكية • ان اتساع القاعدة الاجتماعية للحركة الاشتراكية يسهل النضال من أجل الاشتراكية ، ويتيح فرصة الانتقال من المرحلة الديموقراطية الى المرحلة الاشتراكية

ان الانتقال الى الاشتراكية هو المطلب العام في عصرنا الراهن ، وتزداد ضرورته يوماً بعد يوم • وان الانتاج والعلم والمشاعر الديموقراطية والانسانية للجماهير ، وحاجة البلدان المتخلفة الى التطور ، وأخيراً ، مجالات وجـود الانسانية وتطورها ـ كل هذه دخلت في تناقض صارخ مع الرأسمالية ومـع علاقاتها الانتاجية •

ولقد بينت النظرية اللينينية كيف تتفتح أمام حزب البروليتاريا في عصر الامبريالية امكانية وضرورة قيادة الحركة الشعبية الواسعة ضد الظلم الامبريالي والاضطهاد القومي ونصف الاقطاعي ، ثم توجيهها الى خط النضال من أجل الثورة الاشتراكية ودكتاتورية البروليتاريا •

« ان العالم يعيش عصر الثورات • ان الثورات الاشتراكية ، والثورات الوطنية التحررية ضد الامبريالية ، والثورات الديموقراطيةالشعبية ،والحركات الفلاحية الواسعة ، ونضال الجماهير الشعبية من أجل قلب أنظمة الحكمالفاشية والطغيانية الأخرى ، والحركات الديموقراطية العامة ضد الاضطهاد القومي ـ

كل هذه تندمج في عملية ثورية عالمية واحدة من أجل نسف دعائم الرأسمالية وتحطيمها »[1] .

تطور الثورة الاشتراكية

ان لينين ، اذ طور نظرية الثورةالاشتراكية ،حدّد طرق تطورها فيعصر الامبريالية .

لقد عاش ماركس وانجلس في فترة الرأسمالية ما قبل الاحتكارية ،عندما كانت لاتزال الرأسمالية تتطور في خط صاعد ، ولم يكن نظامها قد نضج بعد من أجل قيام الثورة ، وعندما كانت الشروط المادية للثورة قد بلغت درجةمعينة من النضوج في بعض بلدان اوروبا وامريكا الأكثر تطوراً فقط . ولقد رأى ماركس وانجلس ان الثورة البروليتارية يمكن أن تنصر فقط عن طريقتوحيد جهود البروليتاريا في البلدان الرأسمالية التقدمية وفي كل البلدان الرأسمالية المتطورة جميعها في الوقت ذاته ، وأن انتصار الثورة الاشتراكية في بلد واحد يستحيل في مثل تلك الظروف . هكذا كتب انجلس في « مبادىء الشيوعية » : « ان الثورة الشيوعية لن تكون على الصعيد القومي وحسب ، وانما ستقوم في كل البلدان المتطورة في آن معاً ، أي في انكلترا وأمريكا وفرنسا وألمانيا على الاقل » . ولقد أكد ماركس وانجلس أن الثورة الاشتراكية ليست عملا قصير الأجل ، وانما هي عصر كامل من المعارك العالمية التي تقوم بها البروليتاريا ضد أعدائها الطبقيين . ولقد كانت هذه الموضوعة القائلة بأنه من أجل انتصارالثورة الاشتراكية ينبغي أن تقوم الثورة في كل البلدان الرأسمالية المتطورة في زمن واحد ، هي موضوعة صحيحة بالنسبة لفترة الرأسمالية ما قبل الاحتكارية ، وتنسجم مع الشروط التاريخية لذلك العصر . لكن الظروف تغيرت في عصر الامبريالية . ففي عصر الامبريالية أصبح القانون اللينيني عن التطور الاقتصادي والسياسي غير المتكافىء صاحب التأثير الحاسم على تطور الثورة الاشتراكية .

فلقد برهن لينين ، بعد أن درس الأسباب الاقتصادية والسياسية للحرب العالمية الأولى ، على أن تلك الحرب كانت حرباً بين الامبرياليين من أجل تقسيم

---

(١) حول برنامج الحزب الشيوعي في الاتحاد السوفييتي .

العالم وقامت كنتيجة لعدم التكافؤ بين القوى في التطور الاقتصادي • وبفضل التطور الهائل لتكنيك الانتاج في البلدان الرأسمالية الكبرى صار في امكان بعض تلك البلدان ،خلال فترة وجيزة نسبياً من الزمن ، اللحاق بالبلدان الأخرى الأكثر تطوراً ، وذلك بعد أن حققت وتيرات أعلى في التطور الاقتصادي • لكن هذا التوازن بين القوى يختل ، ويبدأ الصراع من أجل تقسيم العالم حسب شريعة الغاب الرأسمالية ، وتحتدم تناقضات الرأسمالية الى درجة التفاقم • ان عدم التكافؤ في التطور الاقتصادي ، وان التناقضات التي نتجت عنه في الرأسمالية الاحتكارية كانت سبب اندلاع نار الحربين العالميتين الاولى والثانية •

ان عدم التكافؤ في التطور الاقتصادي ، اذ يزيد من تفاقم تناقضات الرأسمالية ، يضعف جبهة الامبريالية ويمكن من قطع السلسلة الامبريالية في أضعف حلقاتها •

ويمثل الحلقة الضعيفة في سلسلة الامبريالية ذلك البلد الذي توجد فيه طبقة قوية واعية ثورية منظمة لها حلفاؤها الجديون، وحيث تكون ذروة الطبقات المسيطرة الحاكمة ضعيفة متنازعة ، وحيث تكون كل تناقضات النظام الرأسمالي متطورة ومتفاقمة •

وهكذا ، فان عدم تكافؤ نضوج الثورات في بلدان مختلفة ينتج عن عدم التكافؤ في التطور الاقتصادي لتلك البلدان ، وبتعبير آخر ، ان هذا الأخير يسبب عدم التكافؤ في التطور السياسي ، ويجعل البلد الذي يقوم بثورة محاطاً بالبلدان الامبريالية من كل الجهات • وبتعبير اكثر ايجازاً ، فعن قانون عدم التكافؤ في التطور الاقتصادي والسياسي في عصر الامبريالية ينتج عدم امكانية قيام الثورة الاشتراكية العالمية وانتصارها في كل البلدان ، بل على العكس ، تظهر امكانية انتصار الثورة في بعض البلدان أو حتى في أحدها • لقد توصل لينين الى هذه النتيجة في عام ١٩١٥ •

ان النظرية اللينينية حول امكانية انتصار الثورة الاشتراكية في بلد واحد كانت بمثابة نبوءة علمية عبقرية رائعة معتمدة على تحليل الوضع الدولي لنضال

البروليتاريا الطبقي • ولقد شجعت هذه النظرية صفوف البروليتاريا في كل البلدان لأن تبادر الى النضال ضد « بورجوازياتها » •

ولقد كانت روسيا تمثل الحلقة الضعيفة في سلسلة الامبريالية في بداية القرن العشرين • ولقد استطاعت الطبقة العاملة الروسية باتحادها مع الفلاحين أن تحقق لاول مرة في التاريخ انتصار الثورة الاشتراكية في بلد واحد • وان التطبيق العملي برهن بصورة رائعة على صحة النظرية اللينينية •

ثم ان التطور التالي للثورة الاشتراكية لم يكن متكافئاً عن طريق نضوج الثورة في بعض البلدان وفصلها من سلسلة الامبريالية وتوحيدها في معسكر اشتراكي واحد • لكنه صار في استطاعة الثورات المقبلة ان تعتمد على مساعدة وتأييد البلدان الاشتراكية • ولقد كان تأييد الاتحاد السوفييتي ـ أول بلد حقق الثورة الاشتراكية ـ أحد العوامل الحاسمة في انتصار الثورة في بلدان الديموقراطية الشعبية •

ان ظهور وتعزيز النظام الاشتراكي العالمي من شأنه ان يحدث تغييرات مهمة في الوضع الدولي • فاذا كان اضعاف جبهة الامبريالية في الماضي ـ في الربع الاول من القرن الحالي ـ يرتبط باحتدام التناقضات الداخلية ، فان اضعاف جبهة الامبريالية العامة الآن نتيجة لانقسام العالم الى نظامين ولتطور وتعزيز النظام العالمي للاشتراكية • وبهذا ترتبط زيادة امكانية قطع سلسلة الامبريالية من حلقاتها الضعيفة في الظروف العالمية

فلم تكن الحرب في يوم من الايام سبباً للثورة ، لكنها ، اذ تعجل في احتدام التناقضات جميعاً ، تعجل في نشوء الوضع الثوري وتدفع بالانفجار الثوري خطوات الى الامام • ولهذا حدث أن ثورة أوكتوبر الروسية وكذلك الثورات في بلدان أوروبا الشرقية وآسيا كانت نتيجة لاحتدام التناقضات الذي عجلت به الحربان العالميتان •

لكنه اذا ما أفلح الامبرياليون في اشعال نار حرب عالمية جديدة فانها ستنتهي حتماً بافلاس النظام الرأسمالي افلاساً تاماً والى الابد •

الازمــة العامة للرأسمالية

ان انهيار وتفسخ وهلاك الرأسمالية من جهة ، وقيام وتطور وانتصار الاشتراكية ـ من جهة أخرى ، يؤلفان الخطين الأساسين التاريخيين لعصرنا الحاضر الذي يؤلف الانتقال من الرأسمالية الى الاشتراكية فالشيوعية محتواه الأساسي •

لقد دلّ انتقال الرأسمالية الى الامبريالية على أن تطور التشكيلةالرأسمالية بدأ ينحدر في خطه النازل • ولقد كانت الحرب العالمية **الأولى** ـ التي ابتلعت ملايين الناس وحشوداً ضخمة من القيم المادية ـ البادرة المظلمة لبدء سقوط النظام العالمي للرأسمالية • فلقد كشفت الحرب عن التناقضات العنيفة التي كانت تنخر جسم الرأسمالية • ولقد وجد المخرج الحقيقي من هذه التناقضات على أيدي العمال والفلاحين الروس الذين قاموا بثورة أوكتوبر الاشتراكية العظمى بقيادة حزب البلشفيك اللينيني عام **١٩١٧** • وبالرغم من ان محاولات الكادحين في كثير من البلدان الأخرى للتخلص من نير الامبريالية كانت تمنى بالفشل فان قيام الحرب العالمية الاولى كان ضربة قاصمة للامبريالية كلفتها الكثير • فقد اضطر الامبرياليون الى التراجع أمام التصميم البطولي للشعب الروسي • لقد كان هذا أول فشل تاريخي عالمي تمنى به الامبريالية ويعبر بوضوح عن بدء الأزمة العامة للنظام الرأسمالي كله • ولقد تم تعميق الأزمة العامة للرأسمالية مع تطور الثورة الاشتراكية العالمية • ولم تعد الرأسمالية تتمكن من القضاء على هذه العملية مما يؤكد ضعفها • وان محاولة الامبريالية العالمية بمساعدة ألمانيا الفاشية خنق أول دولة اشتراكية في العالم أدت الى فشل ذريع جديد للامبريالية، والى موجة جديدة من الثورات الاشتراكية في كثير من البلدان ، والى خروج الاشتراكية من نطاق البلد الواحد ، والى ظهور المعسكر الاشتراكي والنظام العالمي للاشتراكية •

ان فقدان الرأسمالية لكثير من البلدان ، وان ظهور وتطور النظام الاشتراكي العالمي يدل على وجود تشكيلتين اجتماعيتين اقتصاديتين في الوقت الحاضر : الرأسمالية والاشتراكة ، وعلى حدوث الانتقال من الرأسمالية الى الاشتراكية فالشيوعية صاحبة المستقبل • ان فترة تطور الثورة الاشتراكيةالعالمية هي ، الى جانب ذلك ، فترة الأزمة العامة للنظام الرأسمالي التي يعبر عنها انقسام العالم الى نظامين أحسن تعبير •

والبادرة الثانية المهمة في ضعف الامبريالية هي في أزمة النظام الاستعماري وسقوطه • وان هذه العملية التي هيأ لها تطور الاقتصاد تنعكس مباشرة في حركة التحرر الوطني التي لايمكن أن تنجح بدون ايديولوجية معينة • ومن جهة أخرى فان تحقيق الاستقلال السياسي يوجد المنطلقات لتطوير الاقتصاد الوطني والثقافة ، ويجري تغييرات جوهرية في نمط المعيشة والتفكير بالنسبة لتلك البلدان المستعبدة وذلك بما يثيره من القضايا حول أولوية هذه الطبقة أو تلك البروليتاريا أو البورجوازية ـ في قيادة الحركة •

لقد عالجنا أهم البوادر في الأزمة العامة للرأسمالية • لكن عملية تفسخها تنعكس في بعض الخصائص الأخرى •

ان الأزمة العامة للرأسمالية في حقل الاقتصاد تعني ان قواها الانتاجية تحولت الى عائق كبير في طريق تطور قوى الانتاج المعاصرة • وحسب تقديرات الأكاديمي ڤارغ تضاعف الانتاج الصناعي عام ١٩٦٠ في البلدان الرأسمالية ٥ مرات بالمقارنة مع الانتاج في بداية القرن الحالي • ولو لم تكن قيود العلاقات الرأسمالية موجودة لتضاعف خلال هذه الفترة ٢٠ ـ ٣٠ مرة • ان هذا المثال يبيّن مدى العرقلة الهائلة لتطور القوى الانتاجية المعاصرة ولاستخدام كل امكانياتها الذي تسببه العلاقات الانتاجية الرأسمالية • وان الخاصة المميزة للأزمة العامة للرأسمالية هي عدم تشغيل المؤسسات حسب طاقتها وتحويل الجيش الاحتياطي من العاطلين عن العمل الى جيش هائل دائم • وهذا يعني أن الرأسمالية لا تقدر على استخدام كل القوى المنتجة المتوفرة لديها ـ سواء في التكنيك أو في اليد العاملة •

وان النتيجة النهائية لتطور الانتاج الرأسمالي في ظروف الأزمة العامة هي تفاقم وتعميق تناقضاته الداخلية والخارجية التي لايمكن حلها ضمن حدود التشكيلة الرأسمالية ذاتها .

وفي حقل السياسة تنعكس الأزمة العامة للرأسمالية في التقوية الهائلة لدور الجهاز الحكومي في حماية النظم الرأسمالية ، وفي اخضاع الدولةمباشرة لسيطرة الاحتكارات ، وفي النزعة الى الدولة البورجوازية الفاشية . وان البورجوازية الاحتكاريةلاتزال تقدر على حماية وجودها بمساعدةجهاز الدولة ووسائل السياسة الأخرى .

وان الدفاع عن المصالح الطبقية للبورجوازية في ظروف الأزمة العامة للرأسمالية يظهر في أشكال مختلفة لسياسة الدول الامبريالية الخارجية . واذا كانت مصالح تأمين الربح للطبقة المسيطرة هي الدافع الرئيسي في السياسة الخارجيةللدولالبورجوازية سابقاً ،فانه ، بعد انقسامالعالم الىمعسكرين كبيرين وخاصة بعد ظهور النظام الاشتراكي العالمي ، صارت العناية بالحفاظ على النظام الرأسمالي واحدة من أهم قضايا السياسة العالمية للدول الامبريالية . ان الامبرياليين يتجمعون في اتحادات سياسية ويقيمون التكتلات العسكرية لمحاربة بلدان المعسكر الاشتراكي ولسحق الحركة العمالية وحركات التحررالوطني. وان الامبرياليين الأمريكيين يشكلون قلعة الرجعية الدولية ، وهم تحت راية مكافحة الشيوعية يسعون لفرض ارادتهم على البلدان الرأسمالية الأخرى ويجعلونها تابعة لهم سياسياً واقتصادياً .

ان التناقضات الاقتصادية وعمل القوانين الاقتصادية للمرحلة الامبريالية من تطور الرأسمالية تؤدي الى الحروب . وحتى ذلك الزمن عندما لم تكن ثمة قوى حقيقية قادرة على شل سياسة الحروب فقد كان من غير الممكن تجنب اندلاعها لأنها في عصر الامبريالية تتخذ الطابع العالمي . لكنه في وقتنا الحاضر ، وبفضل ظهور وتطور النظام العالمي للاشتراكية ، ظهرت قوة جديدة علىالصعيد الدولي قادرة على ردع الامبرياليين والتصدي لمساعيهم العدوانية .

وتتجلى الأزمة العامة للرأسمالية على صعيد السياسة أيضاً بصورة واضحة في تضاؤل تأثير الأحزاب الانتهازية في الحركة العمالية ، وأزمة الديموقراطية الاشتراكية • ان احتدام التناقضات الطبقية للرأسمالية من جهة والموكب المنتصر للأفكار الشيوعية ونجاحات بلدان المعسكر الاشتراكي من جهة أخرى ، تؤدي الى فضح الأحزاب الانتهازية وابتعاد جماهير البروليتاريا الواسعة عنها • وفي هذه الظروف يعلق الامبرياليون آمالهم الواسعة على الانقسام في الحركة الشيوعية • وان التحريفية تمثل دور العمالة داخل الحركة الشيوعية ، وتمثل الخطر الرئيسي على الحركة الثورية في الظروف الراهنة •

وعلى صعيد الايديولوجية تتجلّى الأزمة العامة للرأسمالية فيتقوية رجعية الايديولوجية البورجوازية في كل أشكالها ، وفي عجز الايديولوجيين البورجوازيين عن طرح أفكار قادرة على كسب الجماهير ومجابهة الأفكار الشيوعية الجذابة ، وان سعيهم لتصوير الرأسمالية مرحلة قبل الاشتراكية يشكل بحد ذاته اعترافاً بقوة الأفكار الشيوعية ، وأخيراً ، في الاتجاه الواسع لخروج كثير من المفكرين والمثقفين البورجوازيين من صفوف المدافعين عن الرأسمالية ـ من العلماء ، والكتاب ، والفنانين ـ وانضمامهم الى صفوف القوى التقدمية •

وهكذا ، فان الأزمة العامة للرأسمالية هي أزمة من كل الجوانب وشاملة لكل ميادين الحياة الاجتماعية ، وهي أزمة نظام التشكيلة الاقتصادية الاجتماعية بكامله ، أزمة يمكن أن يحلّها تطور الثورة الاشتراكية العالمية •

---

(١) برنامج الحزب الشيوعي في الاتحاد السوفييتي ١٩٦١ ص ٥٧ •

وأذا كانت الأزمة العامة للرأسمالية قد بدأت في فترة الحرب العالمية الأولى وخاصة منذ قيام ثورة أكتوبر الاشتراكية ، فان الحرب العالمية الثانية والثورات التي ارتبطت بها في بلدان أوروبا وآسيا كانت تعني تفاقم كل تناقضات الامبريالية، وظهور المرحلة الثانية الجديدة للازمة العامة •

وفي هذه الظروف تتوحد جميع القوى المناوئة للاستعمار وفي طليعتها الطبقة العاملة وابنها ـ النظام العالمي للاشتراكية • ان وحدة هذه القوى هو الضمان الأكيد لانتصار قضية السلم والديموقراطية والاشتراكية ، ولحتمية افلاس النظام الامبريالي الرجعي •

٤ • دكتاتورية البروليتاريا • تطور الدولة الاشتراكية

لقد أوضحنا في الفصول السابقة :

١ ـ أن دكتاتورية البروليتاريا هي نتيجة حتمية لنضالها الطبقي في المجتمع الرأسمالي •

٢ ـ أن انتزاع البروليتاريا للسلطة السياسية وقيام دكتاتورية البروليتاريا هو ما يؤلف المحتوى الرئيسي للثورة الاشتراكية على الصعيد السياسي •

٣ ـ أن دكتاتورية البروليتاريا ضرورية للطبقة العاملة لا من أجل تخليد سيطرتها وانما من أجل الانتقال الى المجتمع الشيوعي الخالي من الطبقات •

الثورة الاشتراكية ودكتاتورية البروليتاريا

لقد وُضعت فكرة دكتاتورية البروليتاريا من قبل مؤسسي الماركسية كأهم مبدأ في نظرية الشيوعية العلمية. فلقد برهنا على أن تناقضات المجتمع الرأسمالي تؤدي حتماً الى الثورة البروليتارية . فكتب ماركس وانجلس في « بيان الحزب الشيوعي » أن « .. الخطوة الأولى في الثورة العمالية هي تحول البروليتاريا الى طبقة مسيطرة وتحقيق الديموقراطية .

وان البروليتاريا تستخدم سيطرتها السياسية من أجل انتزاع رأس المال كله من يد البورجوازية خطوة فخطوة ، ومن أجل جعل كل أدوات الانتاج تتمركز في يد الدولة ، أي ، في يد البروليتاريا المنظمة كطبقة مسيطرة ، وعندئذ يصير من الممكن مضاعفة القوى المنتجة »[1] .

ان البروليتاريا المنظمة كطبقة مسيطرة هي نفسها دكتاتورية البروليتاريا.

وان ماركس وانجلس ، اذ عالجا مسألة طرق الانتقال من الرأسمالية الى الشيوعية ، شاهدا منذ البداية بوضوح أن الدولة ستكون ضرورية للطبقة العاملة من أجل حل هذه المسألة . لكن هذه الدولة تختلف بصورة جذرية عن كل نماذج الدول المستغِلة ، لأنها دكتاتورية الأكثرية ضد الأقلية .

لكن « بيان الحزب الشيوعي » عبر عن فكرة دكتاتورية البروليتاريا في خطوطها العامة ، ثم صُقلت وتطورت على أساس تعميم تجربة المعارك الطبقية في القرن التاسع عشر – ثورات ۱۸٤۸ – ۱۸٤۹ وكومونة باريس ۱۸۷۱. ولقد كتب لينين في كتابه « الدولة والثورة » :

« وان نظرية ماركس هنا أيضاً ، كما هي في أي مكان آخر ، هي معرفة للعالم فلسفية عميقة نيرة ، ومعرفة غنية للتاريخ »[2] .

وان ثورة عام ۱۸٤۸ مكنت ماركس من التوصل الى نتيجة نظريَّة تقول

---

(۱) ماركس وانجلس . المؤلفات . الجزء ٤ ص ٤٤٦ .

(۲) لينين . المؤلفات . الجزء ۲٥ ص ۳۷۹ .

بأنه ليس في استطاعة الطبقة العاملة الاستيلاء على السلطة في الدولةالبورجوازية، وأنه على الطبقة العاملة من أجل اقامــة دكتاتوريتها تحطيم الجهــاز الحكومي البورجوازي السابق • ان تحطيم الجهاز الحكومي القديم هو شرط لانتصار الثورة البروليتارية • ولقد أكدت صحة هذه النتيجة أول تجربة لدكتاتورية البروليتاريا في العالم ـ كومونة باريس •

وان القادة الانتهازيين للأممية الثانية لم يألوا جهداً في تشويه ودفن هذه الأفكار الماركسية التي ثبَّتها لينين في كتابه « الدولة والثورة » وطورها معمماً تجربة الثورات الروسية والحركة العمالية العالمية في عصر الامبريالية •

ولقد بيَّن لينين أن النتيجة التي توصل اليها ماركس ذات أهمية مبدئية ، وأن سير تطور كل الدول البورجوازية يكشف عن السمات العامة وعن نمو الجهاز البيروقراطي العسكري الذيَ ينبغي تحطيمه حتماً ابَّان الثورةالاشتراكية• ان نفي كـ• كاوتسكي والنظريين الانتهازيين الآخرين لضرورة تحطيم الجهاز الحكومي البورجوازي هو عملياً نفي لدكتاتورية البروليتاريا ذاتها ، وانتقال الى مواقع البورجوازية في فهم الدولة وصراع الطبقات • وفي الواقع ، ان الابقاء على جهاز القمع الحكومي البورجـوازي لايمكن أن يحدث الا عـلى أساس الاعتراف بأن الدولة هي فوق الطبقات وتحديد النضال الطبقي للبروليتاريا في نطاق المجتمع البورجوازي •

ان ثورة اكتوبر الاشتراكية والثورات في بلدان الديموقراطية الشعبية أكدت جميعها صحة موضوعيةالماركسية ـ اللينينية بأنقيام دكتاتوريةالبروليتاريا يقتضي تحطيم الجهاز الحكومي البورجوازي •

فاذا كانت ثورة شباط الروسية عام ١٩١٧ لم تمس الجهاز القيصري فان ثورة اكتوبر قضت عليه وأقامت جهازها الجديد ـ الدولة السوفيتية • ولقد بينت الثورات أنه يمكن الابقاء على بعض عناصر الدولة القديمة واستخدامهم في جهاز الدولة الجديدة ، لكنه لابد من تحطيم نظام الدولة القديمة برمَّته وجهازها البيروقراطي العسكري الذي كان أداتها في العنف • ان هذا الجهاز

لايمكن أن يخدم في حل القضايا الجديدة لدولة البروليتاريا لأنه بكل شبكاته مرتبط ارتباطاً عضوياً بنظام الاستغلال والاضطهاد ، ومسخّر ضد الكادحين ، بينما دكتاتورية البروليتاريا موجهة للقضاء على مقاومة الطبقات المستغلة المنقلبة .

ان دكتاتورية البروليتاريا هي من حيث المبدأ نموذج جديد للدولة. ولقد كتب ماركس محدداً أهميتها التاريخية : « ان بين المجتمع الرأسمالي والمجتمع الشيوعي فترة تحويل المجتمع الأول تحويلا ثورياً الى الثاني . وتتطلب هذه الفترة فترة انتقالية سياسية مناسبة لها ، وان الدولة المناسبة لهذه الفترة لايمكن أن تكون غير دكتاتورية البروليتاريا الثورية »(١) .

فدكتاتورية البروليتاريا هي دعامة التحويل الثوري للمجتمع على أسس الشيوعية ، وهي أداة لسحق المقاومة الأكيدة للطبقات المستغلة . لكنه من الخطأ أن نفهم أن دكتاتورية البروليتاريا تؤدي الى العنف المطلق . فهي تستخدم العنف مع المستغلين بقدر ما تجد نفسها مضطرة الى استخدامه . وأما بالنسبة للجماهير الكادحة فان دكتاتورية البروليتاريا ليست وسيلة للعنف ، وانما هي شكل القيادة السياسية للطبقة العاملة . وتستخدم دكتاتورية البروليتاريا من أجل فصل الجماهير الكادحة عن البورجوازية ولتجميعها حول الطبقة العاملة ومن أجل اشراكها في عملية بناء المجتمع الجديد .

وان لينين بتطويره للماركسية اهتم بصورة خاصة بمعالجة مسألة دكتاتورية البروليتاريا كشكل خاص لاتحاد الطبقة العاملة مع الفلاحين بقيادة الأولى . وان هذا الاتحاد يؤلف المبدأ الأسمى لدكتاتورية البروليتاريا . ان دولة الطبقة العاملة هي شكل التنظيم السياسي للمجتمع الذي يضمن أعلى شكل للديموقراطية . ديموقراطية من أجل الأكثرية . وان دكتاتورية البروليتاريا موجهة الى تأييد وتوطيد اتحاد الطبقة العاملة مع الفلاحين وفئات الكادحين الأخرى . وهي على خلاف كل الدول السابقة لاتتعارض مع الشعب

---

(١) ماركس وانجلس . مؤلفات مختارة . جزء ٢ ص ٢٣ .

ثم انها تختلف عن كل الدول السابقة بميزة أخرى : فمهمتها بناء اقتصاد اشتراكي جديد •

وان دكتاتورية البروليتاريا لا تنحصر في جهاز سلطة الدولة • فبما أنها موجهة لاشراك الجماهير في البناء الاشتراكي ولجذب الكادحين لادارة البلاد، فهي نظام كامل للمنظمات الجماهيرية (مجالس السوفييت ، النقابات ، التعاونيات ، اتحاد الشبيبة ••• الخ ••) التي يقودها الحزب • وبدون الحزب، كقوة قيادية ، لايمكن قيام دكتاتورية البروليتاريا • فالحزب يحققها من خلال الدولة معتمداً على تأييد المنظمات الجماهيرية للكادحين ، وهو يوحد ويوجه عمل كل المنظمات لبناء الشيوعية •

وان البروليتاريا لاتقيم دكتاتوريتها لتجعلها خالدة على مر العصور ، بل من أجل القضاء على الطبقات وعلى الدولة معاً •

وبالرغم من أن أساس عملية تحويل التشكيلة الرأسمالية الى تشكيلة شيوعية هو تغيير العلاقات الاقتصادية ، الاّ ان هذا الهدف لايمكن أن يتحقق الاّ على أساس انتصار الثورة الاشتراكية وقيام دكتاتورية البروليتاريا • ان البناء الواعي للعلاقات الاجتماعية الجديدة التي تنشئها جماهير الكادحين الواسعة يتطلب مستوى عالياً لتنظيم تلك الجماهير ولوحدتها السياسية • وهذا ما يحدد الدور المتنامي للسياسة وللمؤسسات والمنظمات السياسية ــ الحزب والدولة • ان سياسة الحزب تعبر عن القضايا الناضجة لتطور المجتمع ، وتحدد طرق ووسائل حلها •

أشكال دكتاتورية البروليتاريا

اذا كانت البروليتاريا تحطم الجهاز الحكومي القديم ، فمن الطبيعي أن نتساءل بمَ نستبدل ذلك الجهاز ؟ وكيف ينبغي أن يكون شكل دولة البروليتاريا؟ لقد أعطتنا كومونة باريس بعض مواد الاجابة على هذا السؤال •

فبالرغم من أن الكومونة لم تستمر طويلا وارتكبت عدداً غفيراً من الأخطاء لكنها استطاعت أن تشير من بعيد الى الاطار العام لدولة البروليتاريا في المستقبل. لقد بيَّن ماركس ، لدى تحليله لتجربة الكومونة ، أنها خلال تلك الفترة القصيرة من وجودها استطاعت أن تحقق الديموقراطية من أجل الشعب . فقد وحَّدت الكومونة بين السلطتين التشريعية والتنفيذية ، وأجرت عمليات انتخاب للموظفين ، وقضت على أصحاب الامتيازات وجعلتهم مسؤولين أمام الشعب ، ونظمت تسليح العمال ... الخ .

لقد بيَّن ماركس أن الثورة البروليتارية تولد شكلا جديداً للدولة ، لكنه لم يقل ان الشكل الذي كانت تعيه كومونة باريس وتريده هو الشكل الضروري في كل الظروف .

وان انتهازيي الأممية الثانية وأتباعهم المعاصرين يعترفون بشكل واحد للدولة ـ الجمهورية البرلمانية ، التي تستطيع وحدها أن تؤمن الديموقراطية. ولقد كتب لينين : « ان انتهازيي الديموقراطية الاشتراكية المعاصرة يتبنَّون الأشكال السياسية البورجوازية للدولة الديموقراطية البرلمانية ... وجعلوا منها « مثالا » ، لكنهم حطموا جباههم عند سجودهم لذلك « المثال »[1] .

فقد أكد لينين أن مسألة أشكال الدولة تحل بموجب الشروط الحسية الموضوعية . فالماركسية لم تضع في يوم من الأيام نصب عينيها مهمة « فتح » الأشكال السياسية للمستقبل ، والا فقد كان من المحرج حقاً أن نقف مكتوفي الأيدي امام التحديد الصارم لتلك الأشكال »[2]. فالنظرية تتمكن من رؤية جوهر العملية لكنه من المستحيل التنبؤ بأشكالها عندما لم تظهر بعد الظروف الموضوعية التي يمكن أن تولدها في الحياة نفسها .

وتبين لنا الأمثلة السابقة أن الماركسية ـ اللينينية لدى تقييمها للظواهر الاجتماعية المختلفة لا تطلب منا الانطلاق من النظم الجاهزة وانما من الوضع

---

(١) لينين . المؤلفات . الجزء ٢٥ ص ٤٠٣ .

(٢) لينين. المؤلفات . الجزء ٢٧ ص ٣١٠ .

التاريخي المشخّص الذي نشأت وتتطور فيه الظاهرة المعينة • ومن أجل فهم هذا الوضع فهماً صحيحاً واستنباط النتائج منه لابدّ من النظر اليه من وجهة النظر الماركسية واستخدام الطريقة الماركسية والاهتداء بها • ان نضال الطبقة العاملة من أجل الاشتراكية يجري في الوضع التاريخي المتنوع ذاته ، وان دراسة هذا الوضع واجب على الماركسيين • وهاكم الموضوعة اللينينية بهـــذا الصدد : « حتى نفهم جوهر نظرية ماركس عن الدولة ينبغي أن نفهم ان دكتاتورية طبقة واحدة هي ضرورة ليس فقط لكل مجتمع طبقي ، ليس فقط للبروليتاريا التي قلبت البورجوازية ، وانما بالنسبة للفترة التاريخية كلها التي تفصل الرأسمالية عن « المجتمع اللاطبقي » ، عن الشيوعية • ان أشكال الدول البورجوازية جد متنوعة لكن الجوهر واحد : ان كل تلك الدول هي حتماً دكتاتورية البورجوازية • وان الانتقال من الرأسماليــة الى الشيوعية لا يقـدر بالطبع ، إلا أن يعطي وفرة وتنوعاً في الأشكال السياسية ، لكن الجوهر آنذاك واحد : دكتاتورية البروليتاريا »[٦] • ان هـذه الموضوعة تفضـح الانتهازيين المعاصرين الذين يصرون على أن لينين وقف الى جانب زوال الدولة في الفترة الانتقالية •

ولقد برهن لينين على أن مجالس السوفييت التي أوجدتها الجماهـير في الثورة الروسية يمكن أن تكون شكلا لدكتاتورية البروليتاريا • وقد كان لهذه النتيجة أهمية فائقة من أجل انتصار الثورة في روسيا وتطور الحركة العمالية فيما بعد • فقد قامت ثورة أوكتوبر تحت شعار « كل السلطة للسوفيتات » •

ان السوفيتات التي ظهرت في البداية كأجهزة للعصيان المسلح هي أكثر المنظمات تمثيلا لجماهير الكادحين الواسعة المشتركة في ادارة الدولة بقيـــادة الطبقة العاملة • وتجدر بنا الاشارة الى أن لينين حدد أهمية هذا الشكل عند تحليله للتجربة التاريخية للجماهير •

ولقد أوجدت الجماهير أيضاً شكل دولة الديموقراطية الشعبية كشكل جديد للتنظيم السياسي للمجتمع ، التي تؤدي وظيفة دكتاتورية البروليتاريا •

---

(٦) لينين • المؤلفات • الجزء ٢٥ ص ٣٨٤ ــ ٣٨٥ •

وتتحدد خصائص هذا الشكل أيضاً بالشروط التاريخية الجديدة لتطور الثورة ولبناء الاشتراكية في بلدان أوروبا الوسطى والجنوبية الشرقية وفي كثير من دول آسيا ٠

لقد ظهرت بلدان الديموقراطية الشعبية في معركة القضاء على الفاشية في الحرب العالمية الثانية التي لعب الدور الحاسم فيها الاتحاد السوفييتي ٠ فقامت في تلك البلدان التي استعبدتها ألمانيا الفاشية واليابان الامبريالية موجة عارمة من النضال ضد الفاشية ذات طابع وطني عام٠وكانت الطبقة العاملةصاحبة الدور الطليعي وقد التفت الجماهير الكادحة من حولها ٠

وفي سير النضال تكونت جبهة موحدة تضم كل القوى المناوئة للفاشية وكل الأحزاب والفئات الديموقراطية ٠ وبفضل الوضع الناتج عن اندحار الفاشية وضعت تلك الجبهة يدها على السلطة ٠ وبهذا الطريق ظهرت الديموقراطية الشعبية ٠ ولم يكن دور الاتحاد السوفييتي في أنه عرض ارادته على شعوب تلك البلدان ، وانما في أنه فتح المجال امام تلك الشعوب للتعبير عن ارادتها واظهارها ٠ ان الامبرياليين الامريكيين ما ينفكون يفترون علىالمعسكر الاشتراكي اذ يعلنون أن جميع بلدان الديموقراطية الشعبية « مستعبدة » من قبل الاتحاد السوفييتي ، وأنها بحاجة الى من « يحررها » ، أي الى اعادة النظم الرأسمالية ٠ ولقد تحررت هذه البلدن فعلا من الرأسمالية الى الأبد وقد ساعدها الاتحاد السوفيتي في ذلك وأيدها دونأنيتدخل في شؤونها الداخلية٠

ان التحرر من الفاشية كان نتيجة للثورة الديموقراطية الشعبية المعادية للامبريالية التي قضي فيها على الاقطاع في كثير من البلدان (رومانيا ، هنغاريا وغيرهما) وعلى سيطرة الرأسمال الاحتكاري ٠ لكن قسماً من البورجوازية المتوسطة الذي اشترك في النضال ضد الفاشية حافظ على مواقعه في الاقتصاد والسياسة وسمح له بالاشتراك في الحكم ٠

ان الوضع الناتج أوجد المنطلقات من أجل التطورالعالمي للثورةالاشتراكية وقيام دكتاتورية البروليتاريا ٠

اما الثورة في الصين فقد كان لها طريقها الخاص المعقد • فبعد دحر الامبريالية اليابانية والقضاء على سيطرتها قررت الرجعية الصينية القضاء على القوى الثورية في البلاد وفي مقدمتها الحزب الشيوعي الصيني، فما ترددت في اضرام نار الحرب الأهلية • وأسفرت تلك الحرب عن القضاء على الرجعية قضاء مبرماً ، وأعلنت في الصين عام ١٩٤٩ جمهورية الصين الشعبية التي هي دكتاتورية البروليتاريا في شكل الديموقراطية الشعبية •

وبعد اجراء التحويلات الديموقراطية وتثبيت دعائم الاقتصاد سار الشعب الصيني في طريق التقدم وألقى عن كاهله ظلام تخلف القرون ، وقد دخل في وقتنا الحاضر فترة بناء الاشتراكية •

ان الشكل الديموقراطي الشعبي للدولة له نموذج الشكل السوفيتي لكنه ينفرد ببعض الخصائص : فهو يسمح في بعض الأحيان بتعدد الأحزاب ،ويعتمد على المنظمات الجماهيرية السياسية بشكل جبهة شعبية تضم كل الأحزاب والمنظمات الاجتماعية ، ولا يحرم الطبقات المستغلة من حق الانتخاب باستثناء بعض ممثلي تلك الطبقات الذين سبق أن تعاونوا مع الفاشية •• الخ •

ان الشكل الديموقراطي الشعبي يؤمن الشروط لبناء الاشتراكية في تلك البلدان • وفي طريق الاشتراكية تسير أيضاً كوبا التي قامت بثورة شعبية عميقة منتصرة ، تتطور الى الثورة الاشتراكية •

ولقد هاجم لينين بكل حدة الانتهازيين ، أولا ، لأنهم عارضوا تحت ستار النضال من أجل الديموقراطية النضال الثوري ضد الرأسمالية بطرقهم البرلمانية ، وثانياً ، لأنهم اعتبروا أن الطبقة العاملة يمكن أن تصل الى السلطة عن طريق البرلمان

لقد فضح لينين تلك الأوهام التي يبذرها الانتهازيون ساعين بذلك الى حرف الطبقة العاملة عن خط الثورة •

وان دكتاتورية البروليتاريا قائمة الآن في بلدان المعسكر الاشتركي في أشكال مختلفة للدولة • وان في حوزة الاحزاب الشيوعية تجربة كبيرة في بناء الدولة ، وتعمم هـذه التجربة في أعمال قادة الأحزاب ، وفي قرارات لجانها

المركزية • وعلى هذا الأساس يحدث التطوير التالي للنظرية الماركسية عن الدولة •

الدولة الاشتراكية والنظام الحقوقي

ان ثورة البروليتاريا لاتقضي على كل حق ؛ انها تصفي الحقوق الاستغلالية وتستبدلها بحقوق اشتراكية جديدة وبنظام للحقوق ثوري •

لقد قال لينين ان الطبقة العاملة اذ تحقق قيادة الدولة ، تحتاج الى النظم الحقوقية لان « الارادة ، اذا كانت ارادة دولة ينبغي ان يُعبَّر عنها بالقانون الذي تسنه السلطة ؛ والا فان كلمة « ارادة » عبارة عن اهتزاز فارغ للهواء بصوت فارغ » [١] •

ان مستوى تطور الاقتصاد والثقافة في المرحلة الانتقالية وفي عصر الاشتراكية يستدعي ضرورة القانون •

فمن المعروف أن مستوى التطور الاقتصادي ليس فقط في الفترة الانتقالية وانما في عهد الاشتراكية أيضاً لايسمح بالانتقال الى التوزيع حسب الحاجة ، ولهذا يبقى مبدأ دفع الأجور للعمال وفقاً لكمية ونوعية العمل • فمن يقدم

(١) لينين • المؤلفات • الجزء ٢٥ ص ٧٢ •

للمجتمع أكثر يأخذ أكثر . وان هذا المبدأ في التوزيع يتلاءم تماماً مع مستوى تطور الانتاج ويجمع بين المصالح الاجتماعية والمصالح الشخصية في اخضاعه الأخيرة للأولى .

ان نظام الحقوق الاشتراكي يحفظ الملاءمة الضرورية بين كمية العمل وكمية الاستهلاك .

والى جانب ذلك فان ضرورة الالتزام بقواعد سلوك معينة في الاشتراكية مشروطة بمستوى تطور الثقافة . وبالطبع ، ففي بلادنا وبلدان الديموقراطية الشعبية السائرة في طريق البناء الاشتراكي ، وبموجب تغير شروط الحياة وبنتيجة عمل الحزب والدولة الثقافي التربوي ينشأ وعي اشتراكي جديد لدى الجماهير . ويقل عدد أولئك الذين يميلون الى تحطيم وهدم الخير الاجتماعي لا لشيء الا لانه ليس « لهم » وانما « للجميع » ، ويقل عدد الناس ذوي النزوات والميول الاجرامية . لكن هذا لايعني ان الناس جميعاً سيتعلمون أن يعملوا بوعي من أجل الخير العام ويضعوا المصالح الاجتماعية فوق المصالح الشخصية ، وأن الملكية الاشتراكية ليست بحاجة الى حماية من اللصوص والمخربين . فقبيل ثورة أكتوبر بأيام قليلة أكد لينين في كتابه « الدولةوالثورة»: « ... ولا ينبغي أن نعتقد بأن الناس بعد قلب الرأسمالية سوف يتعلمون حالا العمل من أجل المجتمع بدون أية قواعد للحقوق »[١] .

وان لينين ، اذ عمم تجربةالثورة الاشتراكية والنضال منأجل الاشتراكية في بلادنا ، عالج لاول مرة في النظرية الماركسية مسائلعلاقة الثورة الاشتراكية بالنظام الحقوقي ، وضرورة خلق النظام الحقوقي من قبل النظام الاشتراكي ، ودور النظم الحقوقية في بناء النظام الاشتراكي ، والمبادىءالأساسيةلنظام الحقوق الاشتراكي ، وأشكال وطرق تنظيم نظام الحقوق الاشتراكي .

فمنذ أول يوم لقيام السلطة السوفيتية استخدمت النظم الحقوقية من أجل تحطيم العلاقات الاقتصادية والاجتماعية والايديولوجية القديمة ، ومن أجل

---

(١) لينين . المؤلفات . الجزء ٢٥ ص ٤٣٩ .

خلق علاقات جديدة • فالعمل القانوني الاول ــ الغاء الملكية الخاصة للأرض ــ كان له أهمية بالغة من أجل انتصار الثورة ومن أجل النضال التالي ، من أجل البناء الاشتراكي • ثم اننا نذكر بقرارات تأميم البنوك وسكك الحديد والتجارة الخارجية والاسطول التجاري ، ثم تأميم الصناعة الضخمة جميعها ، والقرار الذي حدَّد ٨ ساعات عمل في اليوم ، وقرار الضمان الاجتماعي ، والقرار القاضي بالغاء الفئات الاجتماعية والمراتب بين المواطنين ، والقرار القاضي بفصل الكنيسة عن الدولة والمدرسة عن الكنيسة ، والقرار القاضي بحرمان العناصر الاستغلالية من حقوق الانتخاب ••• الخ •

ففي النظام الحقوقي تتقرر اشكال نشاط الدولة جميعاً ووظائفها ومهماتها• وفي الفترة الانتقالية يصدر النظام الحقوقي عن ارادة الطبقة العاملة والفلاحين التي تجسَّدت بشكل قانون • وهذا ما يحدد فعالية النظام الحقوقي وقوة تأثيره على سير حركة التطور الاجتماعي كله • ان النظام الحقوقي المعبر عن ارادة الشعب العامل يكتسب خاصة جديدة ، فهو ينظم تلك الارادة ويخدم كوسيلة هائلة في تفسير سياسة السلطة السوفيتية وتجنيد الجماهير من أجل العمل التطبيقي • ولقد أشار لينين أكثر من مرة الى ان قراراتنا « تدعو الى العمل التطبيقي الجماهيري »[1] • ولقد أشار في المؤتمر الحادي عشر للحزب الى « أننا أعطينا العامل والفلاح البسيطين كل تصوراتنا عن السياسة دفعة واحدة في شكل قرارات »[2] • ويحكي لنا « بونتش ــ برويفتش » كيف أنه بعد احتلال قصر الشتاء قضى فلاديمير لينين الليل كله في العمل من أجل القرارات المتعلقة بالأرض • ولقاء ذلك ، عندما تلاها على المؤتمر الروسي العام الثاني قوبل بعاصفة من الاستحسان • وكذلك الأمر بالنسبة « لاعلان حقوق شعوب روسيا » لما له من القيمة التحويلية الفعَّالة العظيمة • ان هذا العمل الحقوقي التاريخي الذي جسد المبادىء الأساسية لسياسة الحزب الوطنية لم يوضح فقط أشكال استعباد شعوب روسيا في الماضي وانما أرشد أيضا الكادحين الى الطرق والوسائل الكفيلة بتخليصهم من الاستعباد •

---

(١) لينين • المؤلفات • الجزء ٢٩ ص ١٨٥ ــ ١٨٦ •

(٢) لينين • المؤلفات • الجزء ٣٣ ص ٢٧٢ •

ولقد أكدَّ لينين تأكيداً خاصاً على الدور الجديد للنظام الحقوقي في كتابه « المهمات الراهنة للسلطةالسوفييتية » • وبعد قلب البورجوازية كتب مثل هذه الموضوعات : كن دقيقاً في حساباتك المالية ، كن موفراً ومقتصداً، لاتسرق، حافظ على النظام في العمل ـ التي أصبحت شعارات فيما بعد • ان القوانين السوفيتية وقواعد الحقوق السوفيتية تقيم نظاماً صارماً لتنظيم العلاقات الاجتماعية ولتوفير الوعي القانوني لدى الناس وكي يقوم نظام الاقتصاد الشعبي بمهمته خير قيام •

الاَّ أنه في الفترة الانتقالية وأثناء وجود القطاعات المختلفة في الاقتصاد والطبقات المستغلة لاتتطور وظيفة الدولة التربويةالتثقيفية،والتنظيمية الاقتصادية تطوراً واسعاً • وعند انتصار الاشتراكية فقط يتحول الحق الى قانون الدولة الواحدة لارادة الشعب • وفي توطيد العلاقات الانتاجية الاشتراكية يكتسب الحق أساساً مادياً من أجل تحقيق ارادة الشعب لمصلحة الشعب ذاته • انالحق في المجتمع الاشتراكي يصبح وسيلة للتطبيق الواعي للقوانين الموضوعية واستخدامها • وان مخطط تطور الاقتصاد الشعبي والبناء الثقافي على نطاقالدولة كلها ليس فقط انعكاساً للقوانين الموضوعية ، وانما هو قانون حقوقي كقاعدة الزامية في سلوك الناس الذين يحققون المتطلبات العاجلة للتطور الاجتماعي • ويتعاظم دور نظام الحقوق الاشتراكي خاصة في خلق وتوطيد اقتصاد مركزي واحد للمجتمع كله بمساعدة الدولة • وبالرغم من تقولات التحريفيين حول زوال الدولة في الفترة الانتقالية ، فان تجربة تطور كل البلدان السائرة في طريق البناء الاشتراكي تؤكد أكثر فأكثر أنه لايمكن بناء الاشتراكية بدون انشاء اقتصاد مركزي • ولقد أثبتت الحياة نفسها أن لينين كان على حق عندما أكد اكثر من مرة أنه بدون التقيد الصارم من قبل الجميع بنظام الدولة الواحد وخضوع الأجهزة المحلية للسلطة المركزية « ••• لايمكن بناء الاشتراكية ، لأن هذا يعني بناء الاقتصاد المركزي »[١] •

وفي فترة بناء الشيوعية سوف يتوطد نظام الحقوق الاشتراكي ، وتتحسن

---

(١) لينين • المؤلفات • جزء ٢٨ ص ٢٧٧ •

القواعد الحقوقية الناظمة لنشاط المجتمع والموجّهة لحل قضايا البناء الشيوعي • ولقد أشار برنامج الحزب الى أن الانتقال الى الشيوعية يعني التطوير الكامل للحرية الشخصية ولحقوق المواطنين السوفييت • وان على نظام الحقوق والقضاء ان يمكننا هنا من اجتثاث جذور الجريمة والدوافع اليها ، وهذا من شأنه ان يتيح لنا في المستقبل استبدال قواعد الجزاء الاجرامي بقواعد السلوك الاجتماعي •

زوال الدولة

ان الدولة هي مؤسسة طبقية ، وعن هذا ينتج أنه مع القضاء على الطبقات تزول الدولة • ولقد وردت هذه النتيجة في أعمال مؤسسي الماركسية اللينينية •

ان تطبيق البناء الشيوعي في الاتحاد السوفيتي طرح مسألة تحديد الطرق الحسية للتطور المقبل وزوال الدولة الاشتراكية • وقد حُلّت هذه المسألة نظرياً في تقريري اللجنة المركزية اللذين تليا في مؤتمري الحزب الواحد والعشرين والثاني والعشرين ، وفي البرنامج الجديد للحزب •

فمن أجل زوال الدولة لابد من توفر الشروط اللازمة الداخلية والدولية • ان المنطلقات الداخلية الاقتصادية والاجتماعية والثقافية لزوال الدولة تماماً تنشأ في المرحلة العليا من الشيوعية فقط ؛ ان المنطلقات الدولية هي القضاء على كل خطر للعدوان الخارجي ، أي عند انتصار الاشتراكية في العالم كله • وحتى هذه الفترة لابدّ من وجود الدولة •

ان موت الدولة يعني القضاء على جهاز القمع الخاص بها وعلى كل أجهزتها الأخرى • أما مايتعلق بأجهزتها المرتبطة بالوظيفة التربوية التثقيفية، والاقتصادية التنظيمية فلا يمكن ان تزول • ففي عهد الشيوعية لن يكون ثمة دولة ، لكن هذا لايعني ان المجتمع الشيوعي لن يكون محتاجاً الى تخطيط للانتاج وللاستهلاك،

ولحساب المواد الاستهلاكية وتنظيم اشكال الحياة الجماعية والنشاط والى اشياء اخرى كثيرة • ان هذا كله يتطلب منظمة دقيقة تقوم على نشاط أفراد المجتمع ذاتهم • وهكذا ففي المجتمع الشيوعي سوف توجد اجهـــزة الحكم الذاتي وسوف تتحول الدولة الاشتراكية الى حكم ذاتي اجتماعي شيوعي •

والى

جانب ذلك ، ففي فترة بناء الشيوعية يتعاظم دور الحزب كمعبر عن المصالح العامة للشعب وكقائد ومنظم للقوى في بناء الشيوعية •

وهكذا ، ففي عملية بناء المجتمع الشيوعي تنشأ المنطلقات من أجل تحويل

الدولة الاشتراكية الى الحكم الذاتي الاجتماعي الشيوعي • واما ما يتعلق بالمنطلقات الدولية لموت الدولة فانها تزداد نضوجاً مع تطور الاشتراكية في العالم أجمـع •

ومع موت الدولة تتحول السياسة الى علم عن ادارة الاشـياء وعمليات الانتاج ، ويتسع ميدان العلاقات بين الناس ، ويتعاظم دور الاخلاق في تنظيم العلاقات الانسانية ، وتزول الحدود تدريجياً بين الأخلاق والحق ، وينشأ اتحاد عضوي بين حقوق وواجبات المواطنين في قواعد واحدة للمجتمع الشيوعي •

الفصل الرابع

الأشكال التاريخية لاجتماعية الناس

منذ بداية التاريخ والناس يعيشون ويعملون في اجتماعية محسوسة معينة يتألف منها المجتمع البشري • ونحن ، اذ ندرس التاريخ كتطور للتشكيلات الاقتصاديـة الاجتماعيـة ، فاننـا نغفل ذكر الخصائص الفرديـة للجماعات الانسانية المختلفة ، وتبرز تلك السمات العامة للعصر كله ، وهذا يعطينا امكانية النفاذ الى جوهر العملية التاريخية • لكن التاريخ المحسوس للانسانية أغنى من ذلك بكثير ، لأن التاريخ هو أيضاً تاريخ الاجتماعيات التاريخية المختلفة بكل تنوعاتها وبعلاقاتها بعضها البعض • وان قوانين التطور الاجتماعي تتجلّى في حدود الاجتماعيات المخلتفة للناس • ولهذا فان لقضية الاشكال التاريخيـة لاجتماعيات الناس ولمكانها ودورها في حيـاة المجتمع وطابع تطورها أهميـة جوهرية من أجل فهم التاريخ وحل القضايا التطبيقية للنضال الطبقي ، وبناء الاشتراكية والشيوعية • وهذه هي احـدى قضايا علم الاجتماع التي تدرسها المادية التاريخية •

١• أشكال اجتماعيات الناس
في التشكيلة البدائيـة

القطيع البدائي

ان أسلاف الانسان ــ القردة الشبيهة بالانسان ــ كانوا يعيشون في قطعان حيوانية • وقد خرج الانسان من الطور الحيواني ضمن حدود جماعة معينة هي القطيع البدائي • وان الباحثين في المجتمع البدائي يدرسون هذا القطيع كشكل انتقالي •

لقد وحد القطيع البدائي الناس الذين أنتجوا أدوات العمل واستخدموها من أجل تأمين وسائل المعيشة والدفاع عن النفس . فقد نشأت آنذاك تعاونية بسيطة وتقسيم للعمل على أساس الجنس والسن . لقد كان الناس البدائيون يعملون ويدافعون ضد الخطر الخارجي في جماعات ، وكان هذا ضروريا من أجل بقائهم وتطورهم . وبدأت آنذاك القوانين الاجتماعية فعلها .

والى جانب ذلك ، فقد كانت مخلفات الطور الحيواني لاتزال قوية في القطيع البدائي فصارت القوانين البيولوجية تعمل جنباً الى جنب مع القوانين الاجتماعية . ولقد استمر القطيع البدائي مئات الآلاف من السنين الى أن تم تشكيل العمل والمجتمع وظهور الملامح الحضارية للانسان الحديث . لقد عاش كل من انسان بيتيكانتروب وسينينسكروب ونياندرتال ـ أسلافنا الاوائل ـ في قطعان .

ان مستوى الانتاج المنخفض ، وقلة وسائل المعيشة والتبعية للشروط الطبيعية كل هذا كان يؤدي بين حين وآخر الى تبعثر القطيع البدائي ثم الى ظهوره من جديد ، وعلى أية حال فلم يكن يشكل قطيعاً مهماً من حيث العدد .

وهكذا ، فقد كان القطيع البدائي أول شكل انتقالي للمجتمع الذي حدث فيه تكوين الانسان . ولقد ظهر ذلك القطيع عندما انفصل الانسان عن عالم الحيوان وبدأ بانتاج أدوات العمل ، ومازال باقياً الى أن تكونت ملامح الانسان الحديث نتيجة لتطورها التدريجي البطيء .

المجتمع العشائري القبلي

ان المنظمة القبلية هي أول شكل للمجتمع الانساني جاء في أعقاب القطيع البدائي ، ولعبت دوراً كبيراً في تطور المجتمع . ويفترض العلم أن النظام العشائري ظهر في العصر الحجري القديم عندما ظهرت الملامح الفيزيائية للانسان الراهن .

ولقد سمح تطور الانتاج بنشوء جماعة بشرية أشد ثباتاً واستقراراً من

القطيع البدائي ، بل وجعل ذلك ضرورياً • وعندئذ ظهرت العشيرة التي كانت شكلا معيناً لاجتماعية الناس وخلية انتاجية موحدة وشكلا للتنظيم الاجتماعي في المجتمع البدائي في آن واحد •

فالعشيرة كانت جماعة من الناس ، تجمعهم صلة القربى من ناحية الأم ، ويلتفون حول بعضهم بواسطة العمل الجماعي والدفاع المشترك عن المصالح العامة ، وتربطهم اللغة والأعراف والتقاليد • وان حساب صلة القربى من ناحية الأم يفسره الدور الذي كانت تلعبه المرأة في اقتصاد العشيرة ، والزواج المتعدد الذي كان يصعب فيه تمييز الأب ، ولهذا فقد سادت النسبة الى الأمهات في العشيرة •

وكانت علاقات الزواج من أفراد العشيرة الواحدة ممنوعة ولهذا فلم تكن العشيرة لتقدر على الانعزال لوحدها • وكان منع زواج أفراد العشيرة من بعضهم يعني منع زواج الاخوة بالأخوات لأنهم كانوا جميعاً تربطهم رابطة الدم • وكان هذا بحد ذاته خطوة تقدمية لما له من أثر على تقوية النسل • وكانت وحدة عشيرتين أو أكثر تؤلف القبيلة • وكانت علاقات الزواج تقوم بين أفراد العشائر المختلفة داخل القبيلة • ولهذا فقد كانت القبيلة وحدة متماسكة قائمة بذاتها • وفي الفترات الاخيرة من النظام العشائري ظهر اتحاد القبائل • لقد كانت القبيلة تملك بقاعاً معينة تختلف من حيث المساحة والاتساع، تعيش عليها وتصيد وترعى • وكان خرق حدود القبيلة يعتبر انتهاكاً وعملا عدوانياً ، ولهذا فقد كانت كل قبيلة تحمي أراضيها حماية صارمة • وكان زعماء القبيلة أو شيوخها هم الذين يتولون ادارتها معتمدين على قوة شخصيتهم من جهة ، وعلى التقاليد من جهة أخرى • وكان جميع أفراد القبيلة متساوين في الحقوق •

لقد كان المجتمع العشائري القبلي شكلا مرناً قابلا للتكيف مع أكثر الشروط تنوعاً لحياة الناس في المجتمع البدائي • ولقد أمن هذا المجتمع العمل المشترك والدفاع المشترك ضد قوى الطبيعة وقوى القبائل المعادية ، وتربية الجيل الصاعد، والاستراحة ، والتسلية ، والاستمرار في الانتاج والأعراف والتقاليد،

وامكانية تقدم القوى المنتجة • ولهذا فقد كان ظهور النظام القبلي بمثابة قفزة هائلة في تطور المجتمع البدائي الأول ، كان ظهوراً لذلك الشكل الاجتماعي الذي يؤمن المعيشة وتطور الانتاج في تلك الشروط •

لم يكن عدد أفراد القبيلة كبيراً بالطبع ، فقد كانت القبيلة الواحدة تعد مئات وألوفاً ، وفي أحسن الأحوال عشرات الألوف من الناس • ولم تظهر في تلك الظروف مجتمعات أكبر من ذلك لأن الصيد البري وصيد الأسماك والزراعة البدائية للأرض لم تكن جميعها تقدر على تأمين وسائل المعيشة • والى جانب ذلك فقد أدى تطور الانتاج في النظام القبلي الى تغيير النظام ذاته• فبالنسبة للقرابة تغيرت أشكال الزواج المتعدد الجماعي الى العائلة المزدوجة التي كان فيها الزوج والزوجة متساويين في الحقوق • ومع ظهور الزراعة الفأسية وتربية الماشية بدأت الثروات بالتجمع ونما دور الرجل في الانتاج وتعاظم ، بينما أصبح عمل البيت ثانوياً وتكدست الثروات لدى بعض الاسر • وكان هذا كله من شأنه أن يؤدي الى استبدال القرابة عن طريق الأم بالقرابة عن طريق الآب ، وصار الأب قادراً على أن يسلم ممتلكاته وثروته الى أبنائه من بعده • واختلت المساواة بين الرجل والمرأة ، واحتل الرجل المقام الأول في الأسرة والقرابة ، وظهر النظام الأبوي • وكان ظهوره علامة تفسخ النظام القبلي والانتقال الى المجتمع الطبقي(١) •

وبالرغم من أن المنظمة العشائرية خاصة بالمجتمع البدائي الأول لكن مخلفاتها تبقى طويلا في المجتمع الطبقي ، وخاصة عند الشعوب المتخلفة في تطورها • ففي الاتحاد السوفييتي لاتزال عند بعض شعوب القفقاز وغيرها آثار معينة للنظام العشائري (كالأخذ بالثأر مثلا وغيره) • وبديهي أن هذه المخلفات تلعب دوراً رجعياً وتصفى تدريجياً • ومن بين هذه المخلفات استعمال

---

(١) يرى بعض الباحثين أن الانتقال الى المجتمع الطبقي كان يحدث أحيانا في نطاق النظام الأموي الذي كان يعقب في بعض الاحيان النظام الأبوي ، وعلى أية حال فعند ذاك ينبغي أن ندرس النظام الأموي كدرجة في تفسخ النظام القبلي حيث تختل المساواة بين الرجل والمرأة وتحتل المرأة المقام الأول • المؤلف

الأرض بشكل جماعي الذي بقي طويلا في المجتمع الطبقي (المشاعة في روسيا ، والماركا في ألمانيا) •

ولقد التقى المجتمعان الطبقي والقبلي في شكل آخر أيضاً • فعندما بدأت الرأسمالية تتطور في أماكن كثيرة من أوروبا وافريقيا وأمريكا كان في استراليا والجزر التابعة لها لا يزال النظام القبلي على درجات مختلفة من تطوره وتفسخه• والاستعمار باحتلاله للمستعمرات استعبد القبائل المحلية التي لم تستطع مقاومة أولئك المالكين لأسلحة جديدة تطلق النار • وكثير من القبائل تنقرض عن بكرة أبيها ، وكثير منها تنحصر في بقاع صحراوية لا تلائم العيش وتبقى في حالة معيشية يرثى لها • فبالترهات الرخيصة ، والمشروبات القوية ، وبالمدافع والبنادق ، وبالصليب والتعاليم المنافقة للسيد « الروماني » ، وبالشره الوحشي للتجار وبالسوط الرهيب للجلاد « منحت » المدنية الأوروبية أرض المستعمرات للغزاة • وان المصير المأساوي لسكان أستراليا الأصليين ولهنود أميريكا الشمالية أبلغ مثال على النتائج التي أدى اليها تصادم النظام الرأسمالي والنظام القبلي • لقد قطعت الرأسمالية الدرب الطبيعي لتطور المستعمرات ، وصارت تلك القبائل التي لم تنقرض مضطرة الى التكيف مع الشروط الجديدة •

وبالطبع ان النضال في وقتنا الحاضر من أجل بقاء النظام القبلي بكل صفائه البدائي حيث يوجد هو عمل رجعي وخيالي • فالتاريخ لا يقدر على الوقوف ولا على التراجع • لكنه ثمة طرق عديدة لتفهيم الثقافة والمدنية الراهنة لأولئك البدائيين المتخلفين • ان الاشتراكية هي التي أوجدت هذه الطرق • فمثلا ، عند قيام السلطة السوفييتية كان ثمة بعض القبائل في الطرف الشمالي من البلاد لاتزال في مرحلة تفسخ نظامها القبلي • والآن ، وبفضل مساعدة الشعب الروسي والشعوب السوفييتية الاخرى نشأت العلاقات الاشتراكية كاملة هناك ، والناس في تلك المناطق النائية نفضوا غبار التخلف الاقتصادي والسياسي • ولقد أنقذت السلطة السوفييتية كثيراً من تلك القبائل من الانقراض• وهكذا ، فان التاريخ يثبت امكانية الانتقال من النظام القبلي مباشرة الى

الاشتراكية دون المرور عبر المجتمع الطبقي (وبالطبع لايكون هذا الا عن طريق المساعدة الاخوية للشعوب الاشتراكية) •

وتكررت المشكلة ذاتها في جمهورية الصين الشعبية • ففي كثير من مناطق الصين ، وخاصة عند حدودها الجنوبية ، بقيت أقليات تعيش في قبائل لها زعماؤها وعاداتها القبلية العشائرية • وان الحزب الشيوعي الصيني يرى أنه من الممكن جذب تلك القبائل مع زعمائها لتندمج بصورة تدريجية مع تيار التطور الاشتراكي والثقافة العصرية الراهنة •

٢ ـ الشعوب

ان الانتقال الى المجتمع الطبقي ترافقه تحولات عميقة في أشكال اجتماع الناس • وان نشوء عدم المساواة والطبقات المتناقضة يؤدي الى خرق وحدة مصالح العشيرة والقبيلة وتحطيم العلاقات العشائرية ـ القبلية التي فقدت أهميتها السابقة • ان تزايد السكان ومعاناتهم الكبيرة في تلك الشروط القاسية من شأنها أن تؤدي الى اختلاط القبائل المختلفة في مكان واحد ، الى تشكيل اجتماعية جديدة للناس ـ الشعوب •

وينبغي ألا ندرس نشوء الشعوب كنتيجة للزيادة البسيطة لعدد نفوس القبائل • فالأمر هو في تكون خليط جديد وظهور مجتمع جديد بنوعيته • فاذا كانت العشيرة والقبيلة اجتماعية معينة ووحدة اقتصادية وشكلا معيناً للتنظيم الاجتماعي ، فان الشعوبية لاتقوم بكل هذه الوظائف • ففي فترة انحلال النظام العشائري أخذت العشيرة تفقد قيمتها تدريجياً كوحدة اقتصادية ، وانتقلت هذه الوظيفة الىالاسرة الأبوية • وفي المجتمع الطبقي يكتسب الاقتصاد طابعاً فردياً وخاصا ، وتنعكس الروابط الاقتصادية في تقسيم العمل والتجارة • وتأتي الدولة ـ كما رأينا آنفاً ـ لتحل محل التنظيمالاجتماعيللنظام العشائري• وهكذا ، ينشأ انقسام في الوحدة البدائية للوظائف الاجتماعية المتنوعة التي يقوم بها التنظيم العشائري •

فالشعب ليس تكويناً حكومياً أو اقتصاديا ، وانما هو اجتماعية بين الناس

تكونت تاريخياً واتحدت بواسطة الأرض واللغة والتكوين النفسي • وهـو اجتماعية أكثر اتساعاً وعدداً من العشائرية ـ القبلية ، ويخلق امكانيات أكثر من أجل تطوير قوى الانتاج • وفي حدود الشعب تنشأ الشروط اللازمة من أجل التقسيم الاجتماعي للعمل وانقسام المجتمع الى طبقات ••• الخ •

ان نشوء الشعوب مشروط بمتطلبات الانتاج • وان هذا الشكل لاجتماعية الناس خاص بالتشكيلتين العبودية والاقطاعية • ويتحدد طابع اجتماعية الناس في هذه التشكيلات بالبنية الاقتصادية • وتظهر الشعوب لأول مرة في المجتمع البدائي الأول • ولكن العبيد الذين يعاملون كحيوانات بل وكأشياء هم الطبقة العاملة الأساسية في هـذا المجتمع ، في حين أن الشعب يتألف من المواطنين الأحرار • وبهذا فان الشعب كشكل اجتماعي لايشمل الطبقات الأساسية لهذه التشكيلة • وجرى استثناء العبيد من عداد الشعب لأن معظمهم كانوا من أسرى الحرب ، أي أنهم كانوا ينتمون الى قبائل وشعوب أخرى • وبالرغم من أن ازدهار المجتمع الاغريقي القديم قام على عمل الجماهير الواسعة للعبيد ، فان أحداً لم يكن ليعتبرهم اغريقيين وأفراداً في الشعب الاغريقي • وهذا يعني أن عملية تكون الشعوب في المجتمع العبودي لم تكتمل بعد •

وفي التشكيلة الاقطاعية ينشأ الشعب كجماعة تاريخية تحوي في داخلها جميع طبقات وفئات المجتمع • وبالرغم من أن الفلاحين يعتبرون هنا فئة سفلى وبشراً من الدرجة الثانية ، وبالرغم من أن الهوة بين مايدعى بـ « النبلاء » و « السواد » جد سحيقة ، لكنهم جميعاً ينتمون الى الشعب ، لأنهم لايعيشون فقط على أرض واحدة ، بل ويتكلمون لغة واحدة ، وثمة أشياء مشتركة في تكوينهم النفسي • ان الاقتصاد في ظروف المجتمعين العبودي والاقطاعي هو اقتصاد طبيعي ، وان قوى الانتاج ووسائل التفاهم لم تزل ضعيفة التطور ، وان الروابط الاقتصادية المتينة تحمل قسماً كبيراً من طابع المحلية • وان النمط الانعزالي في المعيشـة ، وصعوبة المواصلات بين مختلف مناطق الأرض التي يقوم عليهـا الشعب تؤدي أيضـاً الى نشوء اللهجات المحلية المختلفة • ففي الصين ، مثلا ، نتيجة لسيطرة الاقطاعية الطويلة اختلفت اللهجات الى درجة

أن صار ساكن بكين يتكلم بلغة لايفهمها ساكن شانغهاي ، بينما اللغة الكتابية واحدة • وفي وقتنا الحاضر تجري تصفية تلك الفوارق •

وخلال ألف عام من وجود المجتمعين العبودي والاقطاعي طرأت تغيرات جوهرية على التركيب العرقي لسكان كثير من البلدان • وان نهضة وسقوط الدول ، والحروب والغزوات الدائمة كانت تؤدي الى سقوط وفناء بعض الشعوب وابتلاع شعوب لأخرى أضعف منها • ولقد رافق نشوء الاقطاعية في أوروبا نشوء شعوب جديدة • لكن الشعوب صارت أكثر اتحاداً ومتانة من حيث وحدة بنيتها ـ وخاصة مع تطور الرأسمالية ـ فهي تتمسك بلغتها وثقافتها في أقسى الظروف • فمثلا ، لم تنجح المحاولات الالمانية في « ألمنة » تشيكوسلوفاكيا ، واستطاع البلغاريون أن يحافظوا على اصالتهم تحت ضغط الاحتلال التركي الطويل الرهيب •

ولقد أدى تطور الرأسمالية الى ظهور شكل تاريخي جديد للمجتمع هو الأمة •

٣ ـ الأمة ـ القضية القومية في ظل الرأسمالية

نشوء الأمة

ان عصر الرأسمالية الصاعدة هو عصر نشوء الأمم • والماركسيون ينطلقون من القول بأن الأمة لم توجد قبل الرأسمالية ، لأن الشروطالاقتصادية اللازمة لنشوئها كانت لاتزال معدومة • ان تكون الشعوب من اختلاطمجموعات جغرافية مختلفة اتحدث في الأرض واللغة والثقافة كان المنطلق لتكوين الأمة مع أنه ليس ضرورياً أن تتألف الأمة من شعب واحد • فكل الأمم الحديثة نشأت وتنشأ نتيجة لاتحاد الشعوب المختلفة •

ان المنطلق الضروري لتكوين الأمة هو انشاء التجمع الاقتصادي • ففي ظروف الاقطاعية وجدت ،بالطبع ، روابطاقتصادية داخل الشعوب وفيما بينها• لكنها لم تكن روابط متينة ودائمة وغالباً ما كانت تمزقها الحروب •

ان الانتاج الرأسمالي بتقسيمهالمتطور للعمل وروابطه الاقتصادية المتينة ،

وحاجته الى أسواق التصريف وسوق اليد العاملة الحرة ، يخلق ذلك التجمع الاقتصادي الذي لم تسمح بانشائه الشعوب • وان تطور الانتاج الرأسمالي يتعارض مع الانعزالية في المكان ومع التبذير الاقطاعي • ولهذا فالرأسمالية تحطم الحواجز الاقطاعية ، وتوحد الأسواق المحلية الضيقة في سوق وطنية واحدة ، وتؤدي الى نشوء الأمة • ان تطور الانتاج الرأسمالي هو تلك القوة التي من شأنها أن تجعل الناس ينتظمون في أمة •

وهكذا ، ان الأمة ، كشكل لتجمع الناس ، نشأت عن متطلبات الانتاج الرأسمالي وتنشأ على أساسه • وهي تنشأ لانها ضرورية من أجل تطور الانتاج الرأسمالي الضخم •

ان نشوء الأمم يبدأ في قلب المجتمع الاقطاعي مع نشوء القطاع الرأسمالي• لكن هذه العملية لم تتساو أبعادها في جميع الاماكن• فبالنسبة للبلدان الأوروبية حدثت هذه العملية في فترة نشوء العلاقات الرأسمالية • ثم ان الشعوب التي صارت ضحية للتوسع الاستعماري للدول الامبريالية بدأت تتشكل في أمة في عصر تقيح الرأسمالية • وان بعض الشعوب لاتصل الى مرحلة الامة في عهد الرأسمالية وانما يحدث ذلك بالنسبة لها في ظروف الاشتراكية •

مميزات الأمة ومكانها في الحياة الاجتماعية

الأمة هي تجمع أكثر استقراراً وعدداً من الشعب • وهي ، كظاهرة اجتماعية ، تجمع مادي (الحياة الاقتصادية والأرض) ولغوي وروحي (التكوين النفسي) • وينشأ التكوين النفسي للأمة كانعكاس لظروف الحياة المادية • ويتجلى في خصائص الطابع والشكل القوميين للثقافة • واللغة القومية هي اما تطور للغة الشعب ، أو تطور لهذه اللهجة أو تلك في ظروف ملائمة معينة • ان لغات الأمم جميعاً تحمل في ذاتها آثار الصلات والعلاقات المتبادلة بين الشعوب والأمم • وان وجود اللغة شرط ضروري للتفاهم بين الناس في كل مجالات الحياة الاجتماعية ، ولنشوء المجتمعات الروحية والاقتصادية ، وبدونه لايمكن أن تقوم الأمة •

والأمة ـ ككل التجمعات البشرية الأخرى ـ لاتعود الى القاعدة فقط ولا الى البنيان الفوقي للمجتمع فقط، بالرغم من أن وجودها وتطورها يرتبطان ارتباطاً وثيقاً بالقاعدة والبنيان الفوقي للمجتمع معاً • هذا وان كلا من القاعدة والبنيان الفوقي يترك أثره الواضح في مظهر الأمة وتاريخها ، وهما في الوقت ذاتـه يؤلفان المحتوى الاجتماعي المحسوس للأمة •

وينبغي أن نفرق بين الأمة والعرق • فالفوارق العرقية بين الناس تنشأ لأن هذه المجموعات البشرية أو تلك تعيش أمـداً طويلا في ظروف وسطها الجغرافي الخاص وتحت تأثير ذلك الوسط • ان الفوارق العرقية هي فوارق في السمات الظاهرية ـ كلون البشرة والشعر وغيرهما ـ لا أهمية لها مطلقاً في دراسة الانسان ككائن اجتماعي • فالناس من مختلف العروق يلتقون في كونهم بشراً تتساوى امكانياتهم في العمل والتفكير وغيرهما • ان التمييز العرقي وليد للمجتمع الطبقي المتناقض ،ويزول مع زوال التناقضات الطبقية الاجتماعية • والماركسية ـ اللينينية تشجب ايديولوجيا التمييز العرقي المعادية للانسانية ، وهي تبرهن على خطل وكذب تقسيم الناس الى عروق سامية وأخرى واطئة •

تطور العلاقات المتبادلة بين الأمم في عهد الرأسمالية

يحدث تطور الرأسمالية في أشكال قومية مختلفة • فالبورجوازية تدخل النضال ضد الاقطاعية تحت راية القومية موحدة مصالحها مـع مصالح الأمة ككل • وهي تستخدم الفكرة القومية من أجل تغطية التناقضات الطبقية داخل الامـة لتبرز التناقضات بين الأمم ذاتهـا • وبهذا ينحصر جوهر القوميـة البورجوازيـة • وان الطبقة العاملة تتصـدى للقومية البورجوازية بالأمميـة البروليتاريـة التي تؤكد وجود التناقضـات بين المستغـلين والمستغَلين داخل الأمة ، ووحدة مصالح الطبقة العاملة والكادحين جميعاً رغم ارتباطاتهم القومية• فالقوميـة البورجوازيـة والأممية البروليتارية نظرتان متناقضتان الى القضية القومية • فالقومية البورجوازية يمكن أن تلعب دوراً تقدمياً عندما تستخدمها البورجوازية في النضال ضـد الاقطاعية والامبريالية ومن أجـل الاستقلال الوطني • وينبغي على الطبقة العاملة أن ترى الى أبعد مما ترى اليه البورجوازية

وألا تستسلم لسمها فيما بعد • فالقومية البورجوازية تصير رجعية بكليتها عندما تتوجه ضد الأممية البروليتارية من أجل ابعاد الطبقة العاملة عن النضال من أجل الاشتراكية ، ومن أجل اخضاع الجماهير الشعبية للبورجوازية تحت راية الوحدة القومية • ان الطبقة العاملة هي أيضاً ، بالطبع ، قومية من حيث أن كل طبقة عاملة لكل أمة تعتز بثقافتها القومية وبلغتها وتقاليدها •• الخ • لكن القومية غريبة عن مصالحها لأنها تفرق بين الطبقات البروليتارية للبلدان المختلفة • ان الأمم التي تنشأ مع تطور الرأسمالية هي أمم بورجوازية • فخلف تجمعها القومي يكمن التناقض بين الطبقات التي تكون الطبقة البورجوازية صاحبة القيادة فيها ، وان الثقافة القومية السائدة تكون بمحتواها الفكري بورجوازية أيضاً • ولهذا فالبورجوازية تستخدم ايديولوجيا القومية بكامل سرورها ؛ وان الايديولوجيا الأممية التي توحد جميع الكادحين ونضالاتهم من أجل تحرير الأمة من طغيان البورجوازية هي التي تعبر عن مصالح البروليتاريا •

« ان القومية البورجوازية والأممية البروليتارية شعاران متناقضان يتناسبان مع المعسكرين الطبقيين العظيمين في العالم الرأسمالي ، ويعبران عن سياستين (بل وأكثر من هذا ــ عن نظريتين) حول القضية القومية »[1] •

ان العلاقات الطبقية التناقضية للسيطرة والخضوع في المجتمع البورجوازي تتعدى الطبقات داخل الأمة الى علاقات بين الأمم • ان الملكية الخاصة تباعد بين الأمم فيقوم بعضها باستعباد بعضها الآخر ، وتنشأ الخلافات القومية والصراع القومي والقضية القومية •

وكما أشار لينين ، فان الرأسمالية تعرف اتجاهين تاريخيين في القضية القومية • فالأول نشوء الأمم والدول القومية ويقظة الحياة القومية ، والنضال ضد الاضطهاد القومي • والاتجاه الثاني ينحصر في تطوير جميع العلاقات بين الأمم ، وتحطيم الحواجز القومية ، وخلق وحدة أممية لرأس المال وللحياة الاقتصادية بوجه عام ، وللسياسة والعلم وغيرهما ••

---

(١) لينين • المؤلفات • الجزء ٢٠ ص ١٠ •

ويظهر الاتجاه الاول في بداية تطور الرأسمالية ، بينما الثاني يظهر في عصر الامبريالية • وبتعبير آخر ، ان رأس المال اذ يبدأ تطوره ضمن النطاق القومي ، فانه لايلبث أن يضرب هذا النطاق ليتعداه الى غيره بعد أن صار ضيقاً به • ان تطور الأمم وتطور العلاقات فيما بينها هو ظاهرة تقدمية بوجه عام • لكنه يتخذ أشكالا تناقضية طبقية في ظروف الرأسمالية التي تقوي النزاعات القومية عندها وتحاربها عند الآخرين • واذا كانت الشعوب قد تأخرت في تطورها فان ايقاظ حياتها القومية يحدث في النضال ضد الأمة المضطهدة • وينشأ تقارب الأمم في عهد الامبريالية بصـورة رئيسية عن طريق العنف والاستعباد أو عن طريق حصول احدى الأمم على امتيازات بالنسبة للأمم الأخرى •

وهكذا ، وعلى أساس تطور أسلوب الانتاج الرأسمالي تحدث عملية نشوء وتطور الأمم وعلاقاتها المتنوعة • لكن هذه العمليات التقدمية الموضوعية في المجتمع البورجوازي تحمل آثار التناقض الطبقي • ان القومية والاضطهاد القومي هو نتاج نموذجي لمجتمع الملكية الخاصة •

القضية القومية والثورة الديموقراطية البورجوازية

ان استعباد واضطهاد أمة لأخرى يستدعي نضال الأمة المضطهدة من أجل تحررها الوطني وتبرز القضية القومية بصورة ملحة ـ قضية تصفية الفوارق القومية والاضطهاد القومي • وان القضية بالنسبة للماركسيين جد واضحة : فطالما أن الملكية الخاصة والطبقات ماتزال قائمة فان القضية القومية لايمكن أن تحل كاملة ، وكل ما هنالك هـو أن تطور العلاقات الديموقراطية بين الأمم تخفف من حدتها بعض الشيء • هذا هو جوهر النظرة الماركسية الى القضية القومية • فهي لاتدرسها كقضية مستقلة ، وانما كجزء من القضية العامة للثورة والديموقراطيـة والتحويل الاشتراكي للمجتمع ، كجزء من قضية تحرير الكادحين • ولهذا فان تقييم هذه الحركة القومية أو تلك وعلاقة الطبقة العاملة بها يتعلقان بمدى ملاءمة قيمتها الموضوعية وطابع متطلباتها ••• لمصالح التطور التقدمي للمجتمع • وهناك حركات قومية رجعية أيضاً (الصهيونية مثلا) وثمة

حركات أخرى تكون في بدايتها ذات واجهة تقدمية ثم لا تلبث أن تعلن عن رجعيتها • فمن أجل أن يستوي بنا الحكم في الديالكتيك المعقد للحركات القومية المختلفة ، لابد من أن نتناولها من الناحية التاريخية المحسوسة ،ونربطها بالتطور العام للنضال الطبقي في هذا العصر المعين أو ذاك • وبموجب هـذا تبرز المتطلبات المحسوسة للقضية القومية ، ويوضع برنامج محسوس كذلك• ففي روسيا ، مثلا ، وقبل ثورة شباط عندما كانت القضية القومية بارزة بصورة جادة ، كان البلشفيك ينظرون الى القضية القومية كجزء من قضية الثـورة الديموقراطية ـ البورجوازية • ولقد كانت مهمة البرنامج القومي تنحصر في اضعاف الفوارق وعدم الثقة بين القوميات ، وفي اتاحة المجال لالتفاف جماهير القوميات جميعاً ووحدتها في النضال ضد السلطة المطلقة • وهذا كان ينسجم مع المطالب الديموقراطية للبلاد : حق الأمم في تقرير مصيرها ، والاستقلال الذاتي ، والاتحادات القائمة على أساس المساواة ، وانشاء الحزب حسب المبدأ الأممي • ويمكن أن يختلف البرنامج في ظروف أخرى مختلفة ، لكنه ثمة مبادىءعامة لايمكن حل المسألة القومية بدونها ، ومؤداها النفي الحاسم لكل أشكال الارغام في العلاقات بين القوميات ، والاعتراف بالمساواة بين الشعوب وحقها في تقرير مصيرها ، وبأنه لايمكن اقامة وحدة متينة دائمة بين الشعوب الا على أسس التعاون والاختيار •

ففي القرن التاسع عشر ، وفي فترة رأسمالية ما قبل الاحتكار ، كانت المسألة القومية تقتصر على حلقة ضيقة من الدول الأوروبية بالدرجة الأولى • وكانت شعوب شبه جزيرة البلقان والشعب الايطالي والايرلندي والتشيكي والبولوني ، والفنلندي ••• وغيرها واقعة تحت نير الظلم والاضطهاد ، وتناضل من أجل تحررها الوطني • وكانت آسيا لم تزل نائمة • لكن التمردات التي عصفت في الصين والهند كانت بمثابة انـذار هائل مبشر بنهوض تلك القوى العملاقة النائمة •

حركة التحرر الوطني في المستعمرات

لقد اتسع نطاق القضية القومية في عصر الامبريالية ، فتحولت الى قضية قومية للمستعمرات ، الى قضية تحرر شعوب المستعمرات من ظلم الامبريالية •

ويفسر هذا الاتساع للقضية القومية كثير من الظروف • ففي الربع الأخير من القرن التاسع عشر احتلت الدول الاستعمارية المناطق الباقية التي لم تشغلها السلطات الاستعمارية حتى ذلك التاريخ • ويمكن الحكم بمقتضى هذه الارقام : في عام ١٨٧٦ احتلت الدول الاستعمارية ٨ر١٠٪ من القارة الافريقية ، وفي عام ١٩٠٠ صارت النسبة ٤ر٩٠٪[1] • وفي بداية القرن العشرين تم تقسيم العالم بين الدول الرأسمالية الكبرى • ان أفريقيا كلها تقريبا والقسم الأكبر من آسيا وكثيراً من بلدان قارة أمريكا وأقيانوسيا التي كان يقطنها عام ١٩٠٤ ٥٦٪ من سكان الكرة الارضية كانت في تبعية استعمارية أو نصف استعمارية لبعض الدول الامبريالية • وتصبح المستعمرات مصدر الأرباح الفاحشة للرأسماليين ومصدر القوة للدول الاستعمارية ، وخطاً خلفياً واحتياطياً للامبريالية • فهي تلعب دوراً مهماً في نظام الامبريالية اذ هي مستودع للمواد الأولية ولليد العاملة الرخيصة ، وسوق لتصريف الانتاج ، ومجال لتوظيف رؤوس الأموال • ان الامبريالية تستثمر الكادحين في المستعمرات بصورة وحشية ، وتقوم بنهب كل الثروات التي تحتويها بكميات لاتحد •

ولقد أعطت ثورة أوكتوبر العظمى دفعة قوية لحركة التحرر الوطني في البلدان المستعمرة والتابعة • وبدأت أزمة النظام الاستعماري للامبريالية •

ونشأت وتعاظمت تدريجياً عوامل كثيرة لنسف النظام الاستعماري للامبريالية الذي يقف وصمة في جبين الانسانية • ومن أهم تلك العوامل نشوء النظام الاشتراكي وتأثيره الثوري على كل العمليات في المجتمع الرأسمالي • ومن أهم شروط نمو حركة التحرر الوطني الموجهة ضد الامبريالية أيضاً

---

(١) لينين • المؤلفات • الجزء ٢٢ ص ٢٤١ •

تطور الصناعة والعلاقات الرأسمالية في كثير من البلدان المستعمرة والتابعة وظهور البروليتاريا هناك والمثقفين والبورجوازية الوطنية • ولقد أدت هذه العمليات الاجتماعية الى نمو الوعي القومي لدى الشعوب ، والى التعبير العاصف عن نقمتها على الاضطهاد الاستعماري والقومي •

« ان احدى الخصائص الرئيسية للامبريالية هي في تعجيلها بتطور الرأسمالية في البلدان المتخلفة ذاتها ، وهي بهذا أيضاً توسع وتفاقم النضال ضد الاضطهاد القومي »[1] •

لكنه في فترة مابين الحربين كان يتسنى للامبريالية أن تحافظ على مواقعها في المستعمرات • ثم اشتد ساعد حركة التحرر الوطني في البلدان المستعمرة والتابعة ، وصار نضال شعوب المستعمرات الموجه ضد الامبريالية ومن أجل الاستقلال الحليف القوي للحركة العمالية الثورية • ولقد ارتفع السيل العارم لحركة التحرر الوطني في فترة مابعد الحرب العالمية الثانية • وخلال فترة تاريخية وجيزة من التبعية الاستعمارية تحررت بلدان كثيرة يبلغ تعداد سكانها ١ر٥ مليار نسمة • وفي وقتنا الحاضر لايزال ٨٠ مليوناً ونيف من الناس في أفريقيا يئنون تحت نير الاستعمار • وفي تلك البلدان ذاتها تزداد الصعوبات أمام الامبرياليين يوماً بعد يوم في الابقاء على سيطرتهم وحمايتها • وهذا يعني الانهيار التام للنظام الاستعماري للامبريالية •

ان الأهمية التاريخية العالمية لهذه العملية أكدها البيان الصادر عن مؤتمر الأحزاب الشيوعية والعمالية : « ان انهيار النظام الاستعماري تحت ضغط حركة التحرر الوطني هو الظاهرة الثانية بأهميتها التاريخية بعد قيام النظام العالمي للاشتراكية » •

ان تحرر شعوب البلدان المستعمرة والتابعة من ظلم الامبريالية يجري بطرق مختلفة • فان انتصار الثورة الشعبية في الصين بقيادة الطبقة العاملة انتزعت البلاد من سلسلة الامبريالية ووجهتها في طريق التطور الاشتراكي •

---

(١) لينين • المؤلفات • الجزء ٢٣ ص ٦٦ •

ومن الصعب تقدير أهمية ذلك النصر • ان انضمام بلد هائل عدد سكانه ٦٠٠ مليون نسمة الى معسكر الاشتراكية كان ضربة قاصمة للامبريالية ، كان نصراً عظيماً لقوى الديموقراطية والاشتراكية • ولقد سلكت هذا الطريق شعوب كوريا الشمالية وفيتنام الشمالية •

وفي كثير من بلدان آسيا وأفريقيا ـ في الهند ، وبورما وأندونيسيا ••• وغيرها كانت قيادة حركة التحرر الوطني في يد البورجوازية الوطنية • وان تلك البلدان ، اذ حصلت على استقلالها السياسي ، بقيت تابعة اقتصادياً للدول الامبريالية ، وهي ماتزال توجه قضية الاستغلال الاقتصادي التام •

ان الامبرياليين الذين يضطرون في كثير من الأحوال الى التراجع والمناورة والاعتراف بالاستقلال السياسي لمستعمراتهم يحاولون بكل فواهم أن يحافظوا على مواقعهم في اقتصاد تلك البلدان من أجل ألا تفلت من قيودهم • ولهذا فان تحقيق الاستقلال السياسي لايعني تقليص نضال تلك الشعوب ضد الامبريالية ، وان هذا النضال بالذات يتخذ أشكالا حادة جداً • فان العدوان على مصر نتيجة لتأميمها قناة السويس ، وتنظيم التمرد الرجعي في أندونيسيا ضد الحكومة التي قامت بتأميم الشركات الهولندية ،وان مأساة غواتيمالا الصغيرة التي انقض عليها الامبرياليون الامريكيون وقلبوا حكومتها الديموقراطية التي قامت بتأميم الأراضي التابعة للشركة الأمريكية « يونايتدفروت كومباني » ، وان العدوان الأمريكي ضد كوبا ، وأعمال القرصنة واللصوصية في الكونغو والحقائق الأخرى تبين أن الامبرياليين لايرغبون بالتخلي عن الارباح التي يجنونها من جراء استغلالهم للبلدان المتخلفة التابعة • وان الطرق الفظة للعنف المباشر ، وأشكال « المساعدة » الأكثر مرونة تستخدم من أجل ربط البلدان التي حصلت على استقلالها السياسي الى عجلة الامبريالية • لكن عملية تحرر الشعوب من ظلم الامبريالية لايمكن أن ترجع الى الوراء • وبالرغم من جميع مصاعب هذا الطريق ، فان نجاحات حركة التحرر الوطني جد كبيرة وهائلة • وليس بعيداً ذلك اليوم الذي سيدفن فيه النظام الاستعماري المقيت مرة واحدة والى الأبد تحت ضربات حركة التحرر الوطني •

وفي حركة التحرر الوطني تساهم قـوى اجتماعيـة كثيرة ومتنوعة • والمناضل العنيد من أجـل انتصار حركة التحرر الوطني هـو الطبقة العاملة المعتمدة على اتحادها مع الفلاحين الذين يهتمون من أعماقهم بعمليات الاصلاح الزراعي • وان البورجوازية الوطنية في البلدان المستعمرة والتابعة تحافظ على امكانية المساهمة في النضال ضد الامبريالية والاقطاعية • وبما أنها طبقة مستغـلة فهي في ظروف معينة تلتقي مع قوى الرجعية • وكثيراً مايرتبط هذا بالظروف المحسوسة وبفعالية القوى الثورية •

٤ ــ تطور القومية في عهد الاشتراكية
السمات المميزة للأمة الاشتراكية

ان الانتقال من الرأسمالية الى الاشتراكية يحدث تغييرات جذرية في حياة االأمم وعلاقاتها ببعضها البعض •
وتصبح الطبقة العاملة القوة القيادية فيها ، والايديولوجيا الماركسية ــ الليبنية هي الايديولوجيا السائدة ، ويعبر الشكل القومي للثقافة عن المحتوى الاشتراكي ••• وتتاح للكادحين المضطهدين سابقاً امكانية النشوء والتطور من شتى الجوانب ، وتزدهر الحياة والثقافة الوطنية ، وترقى الأمم الى المدارج العليا من الحياة الاشتراكية الجديدة • والى جانب هـذا يحافظ عـلى التقاليد الوطنية التقدمية ويعمل على تطويرها • وتحل الأمم الاشتراكية محل الأمم البورجوازية •

تختفي العلاقات العدائية بين
الأمم ذاتها ، وتنشأ علاقات جديدة من التعاون الاخوي والصداقة بين الشعوب •

ان عصر الاشتراكية هو عصر تطور وازدهار الامم الاشتراكية • وان نشوء وتطور الأمم ، توسيع
العلاقات فيما بينها يستمران في عهـد
الاشتراكية • لكنهما هنا لايناقض أحدهما الآخر ، ويختفي الشكل التناقضي لظهورهما في الواقع • ويحدث تطور الأمم في علاقات التعاون المتبادل فيما بينها ممـا يؤدي الى النهضة العامة لاقتصادها وثقافتها • ان الاشتراكية تهدف الى تطوير الامم من شتى الجوانب والى التأليف فيما بينها عـلى أساس الطوع والاختيـار •

ان نشوء الأمم الاشتراكية والعلاقات الجديدة بينها جزء من العملية العامة لنشوء المجتمع الاشتراكي • ان الاشتراكية تحل المسألة القومية ، وتضرب مثلا في اقامة العلاقات الجديدة بين الشعوب ، وهذا مايؤلف المأثرة التاريخية العالمية للاشتراكية •

ففي بلدان مختلفة سلكت طريق الاشتراكيــة نجد أن لطرح المسألة القومية وأشكال حلها خصائص معينة ترتبط بالشروط التاريخية لتطور تلك البلـدان • لكن المبادىء الأساسية للسياسة القوميــة للأحزاب الشيوعية هي المبادىء العامة لها جميعاً •

حل المسألة القومية في عهد الاشتراكية

ماهي السمات المميزة لعملية نشوء الأمم الاشتراكية ، وماهي المراحل الأساسية في طريق حل المسألة القومية ؟

ان الثورة الاشتراكية تقرر منـذ البدء المساواة التامة في الحقوق بين الأمم ، والقضاء على الامتيازات وعلى الاضطهاد القومي في كل مظاهره •

كان من بين أوائل الأعمال التشريعية للدولة السوفييتية « اعلان حقوق شعوب روسيا » الذي صدر في **٢١** تشرين الثاني عـام **١٩١٧** ، والذي أقر المساواة بين الشعوب ، وحق تقرير المصير والغاء جميع الامتيازات القوميـة لأمـة دون أخرى ، والتطور الحر للأقليات القومية ••• الخ • وبهذا فقد تقررت نهاية سياسة الاضطهاد القومي وتحريض الشعوب ضـد بعضها التي كانت تنتهجها القيصرية والبورجوازيةالروسية وأقرت السياسة القومية اللينينية الجديدة • ان حق الأمم في تقرير مصيرها واقامة الاتحاد الفيدرالي فيما بينها يمكن كل أمة من بناء مستقبلها بحرية تامة ومن حل المســائل الداخلية في حياتها الخاصة • ولايعني حـق الامم في تقرير مصيرها أن البروليتاريا تهتم بفصل أمة عن الاخرى • ان مسألة انفصال أمة لتشكل دولة قائمة بذاتها يمكن أن تحل في الظروف الموضوعية المحسوسة • وان مصلحة الكادحين ليست في انفصال هذه الأمم عن بعضها ، بل في اتحادها والتفافها على أساس الاشتراكية• ان مبدأ تقرير المصير ينص على الوحدة الاختيارية بين الأمم •

ثم ان القضاء على الاضطهاد القومي واقرار المساواة في الحقوق بين الامم لايعني بعد الحل الكامل للقضية القومية • ان الرأسمالية تقوم بعرقلة تطور الأمم والشعوب المضطهدة ، وحتى لحظة الثورة تكون ذات مستويات ثقافيـة

واقتصادية جد متباينة • ففي روسيا برزت بعيد ثورة أكتوبر ثلاث مجموعات من السكان • فكانت المجموعة الاولى تضم الأمم التي عبرت مرحلة الرأسمالية؛ وكانت الثانية تضم الشعوب التي كانت لاتزال تقوم فيها العلاقات الاقطاعية الأبوية ؛ أما المجموعة الثالثة فكانت تضم القبائل المختلفة التي كان النظام العشائري مازال سائداً فيها • اذا كانت الامة المتطورة متساوية في الحقوق مع الشعوب المتخلفة ، فان هذه المساواة غير حقيقية بالطبع • ولهذا تضع اللينينية مسألة المساواة بين الأمم على أساس اقتصادي مادي وتطالب باقامة مساواة حقيقية بين الامم ، أي تطوير اقتصاد وثقافة الامم والشعوب المتخلفة والنهوض بها الى مستوى الأمم المتقدمة • لقد وضع الحزب الشيوعي هذه المهمة ، وبذل الشعب السوفييتي جهوداً جبارة في سبيل حلها• هاكم بعض الأمثلة : لقد زادت مواد الصادرات الصناعية في عام ١٩٦٠ بالمقارنة مع عام ١٩١٣ حسب ما يلي : في جمهورية روسيا الاتحادية ٤٣ مرة ، وفي جمهورية اوكرانيا السوفييتية ٢٧ مرة ، وفي قرغيزيا السوفييتية ٦٢ مرة ، وفي أرمينيا السوفييتية ٦٨ مرة••• وينبغي ألا ننسى أن جمهورية روسيا الاتحادية تضم كثيراً من الاقاليم التي كانت على درجة كبيرة من التخلف • وتبين هذه الارقام أن الدولة السوفييتية تهتم بتطوير الجمهوريات والمناطق التي كانت متأخرة ، فتطورت فيها الصناعة الحديثة في عهد السلطة السوفييتية وحدثت مكننة هائلة للزراعة والمواصلات • والى جانب هذا فقد نمت الطبقة العاملة وتطورت في تلك الجمهوريات وكذلك الأمر بالنسبة للملاكات الثقافية ، وارتفع مستواها الثقافي العام • وان كثيراً من الشعوب صار أمماً في عهد الاشتراكية فقط • ثم ان الشعوب التي كانت تفتقر الى لغة كتابية حصلت عليها في عهد الاشتراكية الى جانب امكانيات جديدة أخرى من أجل تطوير ثقافتها الوطنية • فمثلا كان عدد الذين يتلقون العلم في مدارس طاجكستان السوفييتية عام ١٩١٤ - ١٩١٥ بجميع مراحلها يبلغ ٤٠٠ طالب ، في عام ١٩٦٠ - ١٩٦١ زهاء ٣٩٣ ألف طالب ، أي أن عدد الطلاب تضاعف فأصبح حوالي ١٠٠٠ مرة ؛ وفي جمهورية أوزبكستان السوفييتية تضاعف العدد خلال تلك الفترة ذاتها ٨٨ مرة ؛ وفي قرغيزيا

السوفييتية ٥٦ مرة ... الخ . وقبل الثورة كانت المعاهد التعليمية العالية توجد في ٥ جمهوريات فقط من الـ ١٥ جمهورية الراهنة ، والآن تتوفر المعاهد العليا في كل جمهوريات الاتحاد .

وكل هذه الأمثلة تبين أن الاشتراكية تساوي بين الأمم . وان التطور السريع للأمم والشعوب المتخلفة سابقاً يعزز قوة الدولة الاشتراكية ، وينسجم مع المصالح العامة لجميع الشعوب .

والمهم في حل القضية القومية ايجاد الأشكال الملائمة لوحدة الأمم في دولة واحدة . وان الأشكال السياسية في الاتحاد السوفييتي للاتحاد بين القوميات وتعاونها في بناء الاشتراكية والشيوعية هي في الاتحاد الفيدرالي السوفييتي والاستقلال الذاتي . ان مرونة وتنوع أشكال الفيدرالية السوفيتية والاستقلال الذاتي مكّنت السلطة السوفيتية من دفع الجماهير الواسعة الى المساهمة في الحياة السياسية . فتحت قيادة الحزب الشيوعي أقامت الشعوب السوفييتية دولة متماسكة تضم قوميات كثيرة عانت كل الآلام ومن ضمنها آلام الحرب ، وضربت مثلا قياسياً في المساواة والتعاون بين الأمم . ان الدولة السوفييتية حققت التمركز الضروري في المجالين الاقتصادي والسياسي ، وفي الوقت نفسه استقلال كل جمهورية في حل قضاياها الداخلية المتعلقة بالتطور الثقافي والاقتصادي .

ان اضطهاد أمة لأخرى ، وتسعير الطبقات الرجعية للخلافات القومية يخلفان آثاراً ثقيلة في وعي الشعوب لا تزول بسهولة . ومن أجل توحيد الأمم على أساس الاشتراكية وازالة الشكوك ومخلفات التناقضات القوميه لابد من تربية الجماهير باستمرار بروح الأممية ، والنضال ضد التعصب القومي

البورجوازي وضد الشوفينية ، وتعزيز هذا العمل الايديولوجي بسياسة تقدر حاجات الأمم المختلفة ومصالح الدولة العامة • ان هذه السياسة بالذات ينتهجها حزبنا الذي يسير على تعاليم لينين القائلة بأن العناية الكبيرة بمصالح الأمم المختلفة تقوض أساس النزاعات والشكوك فيما بينها •

ان تطور العلاقات الاشتراكية الجديدة بين الأمم يحدث في النضال ضد الايديولوجيا البورجوازية ومخلفاتها في المسألة القومية • ان المخلفات القومية التعصبية قوية وينبغي أن تجابه باليقظة الدائمة • وفي أعوام بناء الاشتراكية تمكن حزبنا من القضاء على النزعة الشوفينية والتعصب القومي ، وكان لهذا أهمية كبرى في توطيد أواصر الصداقة بين شعوب الاتحاد السوفييتي ، وفي انتصار الايديولوجيا الماركسية ـ اللينينية • ففي هذه الايديولوجيا تلتقي أفكار الوطنية بالحب والاخلاص للشعب في الوطن الاشتراكي ، بالأممية البروليتارية، بالصداقة ، وبالتعاون بين جميع الشعوب •

ومع نشوء المعسكر الاشتراكي صارت الأممية الأساس الفكري للعلاقات المتبادلة بين الدول الاشتراكية ، وللنموذج الجديد للعلاقات الدولية• انالتعاون المتبادل والمساعدة الأخوية بين بلدان المعسكر الاشتراكي في المجالات الاقتصادية والسياسية والثقافية هي القوة الجبارة القادرة على زيادة وتيرات تطورها ، وعلى التعجيل في تطوير البلدان التي كانت متخلفة في السابق ممّا يؤدي الى تعادل مستوياتها والانتقال الى الشيوعية في فترات متقاربة •

وهكذا ، ففي كل تشكيلة اقتصادية اجتماعية على مستوى معين من تطور قوى الانتاج وعلاقات الانتاج يتكون نموذج من اجتماع الناس يتلاءم مع تطور قوى وعلاقات الانتاج • ويحدث التطور في الرأسمالية والاشتراكية في شكل الأمة حيث أن الأمة الاشتراكية تجمعها سمات مشتركة ـ شكلياً ـ مع الأمة البورجوازية : اللغة ، الأرض ، الحياة الاقتصادية والتكوين النفسي • لكن هاتين الأمتين تختلفان من حيث الجوهر اختلافاً جذرياً : أولا ، بالأساس الذي تقومان عليه ، وثانياً ، بالوجه الاجتماعي السياسي ، وثالثاً ، بالجانب الروحي ،

ورابعاً ، بخصائص التكون • فالأمم البورجوازية تقوم على أساس الأسلوب الرأسمالي للانتاج ، بينما الأمم الاشتراكية تقوم على أساس الأسلوب الاشتراكي؛

والأمم المتحررة من الاستغلال تتمكن من تطوير جميع الامكانيات والمقدرات الكامنة فيها • ولهذا فان عصر الاشتراكية هو عصر تطور وازدهار الأمم • ان المباشرة ببناء الشيوعية تعني بدء مرحلة جديدة في تطور العلاقات القومية في الاتحاد السوفيتي تحدد التقارب بين القوميات المختلفة • ويؤكد برنامج الحزب على أن « الحزب ، اذ يؤيد التقاليد التقدمية لدى كل شعب ويجعلها في متناول جميع السوفياتيين ، سوف يطور التقاليد الثورية الجديدة الواحدة لكل القوميات السوفيتية ـ تقاليد بناة الشيوعية » • ان الحزب لا يسمح أبداً بتجاهل ولا بتضخيم الخصائص القومية •

ان عملية التقارب بين الأمم في عهد الاشتراكية هي عملية ضرورية وتقدمية • وان تطور الصناعة والزراعة الاشتراكيتين يزيد من حيوية السكان• وفي الجمهوريات المختلفة يعمل السوفيتيون في مختلف القوميات • ان الأساس الاشتراكي الواحد لحياة كل القوميات في الاتحاد السوفيتي ، ومساواتها التامة في الحقوق ، وتبادل القيم الثقافية فيما بينها ، ووحدة المصالح والأهداف ـ كل هذا يؤدي الى تكون المزايا الشيوعية العامة في الجانب الروحي للسوفياتيين •

لكن وجود الأمم ليس ظاهرة خالدة • فمع انتصار الشيوعية في العالم

أجمع ونشوء نظام عالمي موحد للاقتصاد الشيوعي فان الضرورة الاقتصادية لبقاء الأمم سوف تزول وتزداد امكانيات تجمع الناس المنتمين الى قوميات شتى ،وتنشأ الحاجة الملحة الى لغة عالمية واحدة ، ويتعاظم التأثير المتبادل بين مختلف الثقافات ، وتتكون السمات الشيوعية العامة للأمم المختلفة ، وتنعدم تدريجياً الفوارق بين الأمم ، وتقوم انسانية واحدة لا قومية على هذا الكوكب الجميل تجمعها لغة واحدة وثقافة غنية متنوعة واحدة تتمثل فيها كل التقاليد الرائعة وغنى التطور السابق .

الفصل الخامس

دور الجماهير الشعبية ودور الشخصية في التاريخ

الشخصية والمجتمع

١ • دور الجماهير والشخصية في التاريخ

لقد بدأنا هذا الباب بالفكرة البسيطة : التاريخ هو تاريخ الناس أو ،بعبارة أخرى ، الناس أنفسهم يصنعون تاريخهم • لكننا عندما أخذنا نوضح كيف يصنع الناس التاريخ اكتشفنا أنه من الممكن معرفة نشاط الناس معرفة صحيحة عندما نربطه ، أولا ، بالشروط المادية والقوانين الموضوعية التي تنشأ على أساسها ؛ ثانياً ، بدراستنا للاعمال الفردية التي ربما لاتخضع لأعمال الجماهير الكبرى – الطبقات ؛ ثالثاً ، بتقديرنا الصحيح لدور الأفكار والمؤسسات المختلفة المنظم ، هذه المؤسسات التي تقوم بها الدولة بالدور الرئيسي ؛ ورابعاً ، بربطنا نشاط الأفراد بتاريخ المجتمعات التاريخية المحسوسة : العشائر ، القبائل ، الشعوب ، الأمم • فعندما ندرك أن هـذا كله هو المحتوى لتلك الفكرة فسيتضح لدينا أنها ليست فكرة بسيطة أبداً •

لكن الأمر ليس في هذا وحسب • فمن أجل ان نعـرف كيف يصنـع الناس التاريخ لابد من تحليل نشاط الناس من ناحية جديدة تماماً • فالمجتمع هو مجموعة من الناس • واذا كان المهم في التاريخ ليس نشاط الأفراد وانما نشاط الجماهير الواسعة فهل هذا يعني أن الشخصية لاتقوم بأي دور في التاريخ؟ واذا كانت الشخصية تقوم بدور ما في التاريخ ، فهل تتساوى أدوار الشخصيات المختلفة ؟ وبكلمات موجزة : لابد الآن من دراسة التاريخ كنتيجة لنشـاط

الناس والعلاقة بين نشاط الجماهير ونشاط الشخصية اذا كان السؤال عن دور الشخصية في التاريخ ينقسم بدوره الى سؤالين : عن دور الشخصية العادية ، ودور الشخصية البارزة • وان الايديولوجيا السابقة للماركسية لدى كلامها عن الشخصية كانت تعني الشخصية البارزة فقط • وهذا أبداً غير صحيح •

لابد من التأكيد بأن مسألة دور الجماهير الشعبية ودور الشخصية في التاريخ مرتبطة ارتباطاً عضوياً بالمسألة الأساسية للمادية التاريخية • وليس الأمر فقط في أن الفهم المثالي للتاريخ ـ أي الاعتراف بأولية الروح كقوة محدِّدة للتاريخ ـ يؤدي حتماً الى التنقيب عن تلك الشخصيات التي تصنع الأفكار والنظريات وغيرها ، بينما يؤدي الفهم المادي للتاريخ حتماً الى الاعتراف بدور الجماهير الحاسم في التاريخ • ان المهم في الأمر هو أن هذه المشكلة المشار اليها هي ، في جوهرها ، اظهار للمسألة المعرفية الأساسية ، لأن مضمون السؤال: من الذي يحدد تطور المجتمع ، من الذي يصنع التاريخ ؟ أي : من «السابق» للآخر ـ الجماهير الشعبية للشخصية ، أم الشخصية للجماهير الشعبية • فبهذا ينحصر جوهر السؤال عن دور الجماهير الشعبية والشخصية في التاريخ • ففي فلسفة هيجل مثلا ـ في نظام المثالية الموضوعية ـ يفترض فهم التاريخ وجود الروح المطلق (الاله) الذي يتطور بهذه الصورة : الانسانية تمثل فقط الجمهور الحامل بوعي أو بغير وعي للروح المطلق[1] •

والمثاليون الذاتيون يعرضون الأفراد الموجودين كروح نشيطة تتعارض مع الانسانية التي هي مادة وجمهور خال من الروح •

لكن الحل الذي تقدمه المادية التاريخية لمسألة دور الجماهير الشعبية والشخصية في التاريخ ليس فقط حلا مادياً يتعارض مع المثالية الموضوعية والذاتية ، وانما هو حل دياليكتيكي يتعارض مع الميتافيزيك • ان الميتافيزيكيين يضعون دور الجماهير الشعبية في تعارض مطلق لدور الشخصية ، فهم يفكرون

---

(١) ماركس وانجلس • المؤلفات • الجزء ٢ ص ٩٣ •

حسب مبدأ : امّا ـ أو • والمادية التاريخية تتناول المسألة بطريقة أخرى • فلايجوز وضع الجماهير في تعارض مطلق مع الشخصية • فالجمهور مؤلف من شخصيات ، وان أفعال كل شخصية تدخل في أعمال الجماهير وتندمج بها في هذا الشكل أو ذاك • والى جانب هذا فالمادية التاريخية لاتضع الشخصية البارزة من الجماهير في تعارض مع الجماهير ، ولاتدمجها بها ، أي انها لاتفضل بين الشخصية البارزة والشخصية الجماهيرية •

فلندرس حلّ المادية التاريخية لمسألة دور الجماهير الشعبية والشخصية في التاريخ •

الجماهير الشعبية كمفهوم في المادية التاريخية

« الشعب » و « الجماهير الشعبية » مفهومان وضعتهما المادية التاريخية من أجل دراسة القوة التي تصنع التاريخ • ولهذا ينبغي تفريقهما عن مفهوم « السكان » ومفهوم « الشعب » الذي يستعمل لدراسة أناس أمة معينة كأن نقول « الشعب الروسي » مثلا • وينبغي أن ندرس مفهوم « الجماهير الشعبية » ليس فقط من الناحية الكمية (الجمهور هو كمية كبيرة من الناس) بل ومن الناحية الكيفية أيضاً • ان الجماهير الشعبية كصانعة للتاريخ تؤلف مفهوماً تاريخياً محسوساً • ومع تغير المجتمع تتغير الطبقات والفئات التي تؤلف الشعب • ففي المجتمع الاقطاعي ، مثلا ، يؤلف الجماهير الشعبية الفلاحون والحرفيون والبروليتاريا الوليدة والبورجوازية ؛ وفي المجتمع الرأسمالي ـ الطبقة العاملة والفلاحون وبورجوازية المدينة الصغيرة والمثقفون • وفي المجتمع الطبقي لاتضم الجماهير الشعبية كل الشعب أو الأمة لأنه ثمة هناك فئات اجتماعية وطبقات رجعية تقف فوق الشعب وتستثمره • فالشعب يقف على طرف مناقض لتلك الفئات ويمثل الأغلبية الساحقة للأمة أو الشعب بمعناه الشامل • ففي فرنسا مثلا وقبيل ثورة ١٧٨٩ كان الشعب بمثابة فئة ثالثة تتعارض مع الفئتين الرجعيتين المتمازتين : الاقطاع والكنيسة ، اللتين كانتا تدافعان عن النظام المعادي للشعب ـ عن الحكم المطلق والنظام الاقطاعي ، فسببتا بذلك نقمة الشعب عليهما • وفي ظروف الرأسمالية تتعارض البورجوازية مع الشعب، وبالدرجة الأولى،تتعارض

مع قمة البورجوازية ـ البورجوازية الاحتكارية. ويمكن ان نعتبر البورجوازية الوطنية المتوسطة في البلدان المستعمرة والتابعة في كثير من الأحيان في الوقت الحاضر جزءاً من الشعب . ففي الصين ، مثلا ، دخلت البورجوازية الوطنية في جبهة موحدة ضد الاقطاعية والامبريالية الاجنبية ، وضد البورجوازية الكبيرة العميلة ، أي أنها كانت تؤلف جزءاً من الشعب وليس طرفاً متنازعاً معه كما كانت تلك القوى الرجعية الأخرى .

وهكذا ، فالشعب والجماهير الشعبية هما ، قبل كل شيء ، الجماهير الكادحة في هذا المجتمع أو ذاك المنتجة للخيرات المادية ، وهما كذلك كل تلك الطبقات والفئات الاجتماعية التي يمكنها وضعها الموضوعي من حل المهمات التاريخية التقدمية في عصر ما وبلد ما ، وترتبط برباط ما مع مصالح الشغيلة.[1]

الاسس النظرية والطبقية لنفي دور الجماهير الحاسم

ان ايديولوجيي الطبقات المستغلة لم يهتموا بتوضيح دور الجماهير في التاريخ . فهم ، اذ ينطلقون من مواقع الفهم المثالي للتاريخ ، يعتقدون بأن النشاط المحدد لحركة المجتمع لامكان له الا في مجال الايديولوجيا والسياسة. وان الناس الذين يأتون بأفكار جديدة أو يتخذون القرارات السياسية من ايديولوجيين وعلماء ومشرعين وملوك وقادة حزبيين وقادة سياسيين وزعماء للحركات المختلفة وغيرها ، هم أنفسهم الشخصيات التاريخية الكاملة التي توجه سير التاريخ وفقاً لارادتها الخاصة او لارادة علوية سامية. ان اولئك الايديولوجيين لم يكتفوا بطمس دور الجماهير وانما هم يحتقرونه ويعربون عن مشاعرهم

---

(١) يستخدم مفهوم « الجماهير » احيانا بمعنى يختلف عن مفهوم « الجماهير الشعبية » . فيمكننا ان نقول جمهور النقابة وجمهور المستخدمين وجمهور الجنود ... وغيرها . وهنا تحدد كلمة « جماهير » انتماء فئة من الناس الى نوع معين للنشاط او الوظيفة او الحركة .. الخ .

العدائية تجاهه مباشرة • ان نفي دور الجماهير في التاريخ أو عدم تقديره حق قدره يرتبط ارتباطاً وثيقاً بالفهم المثالي للتاريخ ويجد فيه تبريره النظري •

ولدى أكثرية المؤرخين الأقدمين كان التاريخ عبارة عن وصف للعادات والأحداث السياسية وأقوال وأعمال القادة ، وكانوا يقومون بشرح أحداث التاريخ نزولا عند رغبة العظماء والحكام • وان ايديولوجيي الطبقة الأرستقراطية كأفلاطون مثلا في كتابه « الدولة » كانوا يقولون بعدم السماح للشعب بادارة الدولة ، وأن النخبة المختارة من الناس والارستقراطيين هي التي يسمح لها بتولي ذلك •

وفي عصر الاقطاعية ساد الفهم الديني للتاريخ ؛ فارتبطت حركة التاريخ كلياً بارادة الاله ، وبصراع قوى الملائكة مع قوى الجحيم ، فلم يبق ثمة مكان لدور الجماهير في هذه الايديولوجيا •

ثم ان ايديولوجيي البورجوازية الناشئة لم يقدروا دور الجماهير حق قدره • فالماديون الفرنسيون ، مثلا ، علقوا آمالهم على الملوك المنزهين في تحقيق الاصلاحات الاجتماعية • وان غولباخ (أحد الماديين المناضلين العظام في القرن الثامن عشر ، والعدو اللدود للدين والأوهام ، والمناضل العنيد ضد الاستبداد) لم يتوصل الى نتيجة في حل مسألة القوى المحركة للتاريخ • فلقد كتب : «ان من يستطيع تقرير المصير على العرش هم الملوك القديسون العادلون الشجعان الطيبون الذين يحاولون تخليص الانسانية من شرورها كما تشير الحكمة بعد أن يعرفوا أسبابها الحقيقية »[1] •

واذا كان الماديون المتنورون في القرن الثامن عشر قد جعلوا النظام الرأسمالي مثالياً اذ صوروه كمملكة للعقل والعدالة ، فان الاشتراكيين الطوبائيين في بداية القرن التاسع عشر كشفوا بحدة عن قروح ومعايب الرأسمالية ، واستنكروا الوعود البراقة التي كان يعد بها المنورون • لقد كان الطوبائيون يحلمون بالمجتمع الجديد العادل حيث لا فقراء ولا أغنياء • لكنهم كانوا يعتبرون أن

---

(١) ب• غولباخ • نظام الطبيعة ١٩٤٠ ص ٤٣٠ •

الجماهير الغارقة في أوحال الفاقة والجهل لاتقدر على تحرير نفسها ، فينبغي « الاحسان » اليها • وهذا من شأن الشخصيات التي اذا ما اقتنعت بالمثل الطوبائية فانها ستستخدم سلطتها أو رؤوس أموالها من أجل خلق تنظيم اجتماعي جديد• وهكذا نلتقي من جديد باللازمة الغنائية للفكرة القديمة القائلة بأن ارادة الشخصيات التاريخية الفذة هي العامل الحاسم المحدد لسير التاريخ •

وان نظرات الكاتب والمؤرخ الانكليزي كارليل (القرن التاسع عشر)لهي أكبر تعبير عن وجهة النظر تلك • فقد كان أحد ممثلي « الاشتراكية الاقطاعية» الذي أثنى كثيراً على القرون الوسطى ودعا الى العبادة الجامعة للشخصية مرجعاً بذلك تاريخ العالم كله الى حياة العظماء من الناس •

والماركسية تقف ضد كل من يقوم بتضخيم دور الشخصية في التاريخ ويضعها في طرف معارض للجماهير • ولقد ناضلت منذ لحظة نشوئها ضد هذه النظرات ، ففي العقد الرابع من القرن الماضي شنَّ ماركس وانجلس حملة انتقادية عنيفة على نظرات ايديولوجيي البورجوازية الألمانية ـ الهيجليين الشباب• فلقد كان هؤلاء لاينكرون الجماهير كقوة محركة للتقدم وحسب وانما كانوا يعتبرونها عائقاً في طريق التقدم وقوة جامدة في التاريخ ، بينما « حفنة المفكرين» من المثقفين البورجوازيين التي تقف فوق الجماهير هي الصانعة الحقيقية للتقدم• لقد رمى ماركس وانجلس بمزاعم الهيجليين الشباب الغبية المغرورة بعيداً وبيَّنا أن جماهير البروليتاريا بالذات انما هي القوة المحركة تاريخياً للاصلاحات الاجتماعية في المجتمع المعاصر •

ولقد حدث انتشار وتطور الماركسية في الحركة العمالية الروسية في النضال ضد ايديولوجيا الشعبيين • فلقد كانت النظرية المثالية عن « الأبطال » و « الغوغاء » هي الأساس الايديولوجي لعملهم التطبيقي ، فكانت هذه النظرية تقول بأن الجماهير يمكن أن تنتقل الى الحركة فقط عندما تخصبها أفكار ومطامح الشخصيات البارزة وأعمالها البطولية • وكانت هذه النظرية ذات ضرر بالغ لأنها بذرت عدم الثقة في قوى الجماهير الخلاقة ، فعرقلت تطور الوعي الثوري

للشعب وأضرت بتنظيم حزب العمال الماركسي الثوري • ولقد تمكن بليخانوف ولينين من القضاء عليها في أعمالهما •

وهكذا ، فان ابراز الشخصية المعينة كقوة محركة للتاريخ هو عملية مميزة لايديولوجيا التشكيلات الطبقية جميعاً وعلمها الاجتماعي • لكن هذه الفكرة تتخذ طابعاً حاداً معادياً للديموقراطية بل وللانسانية في الايديولوجيا الرجعية للعصور المختلفة • فان ايديولوجي الامبريالية الألمانية ، مثلا ، والممهد لظهور الفاشية « ف• نيتشه » وضع في أساس فلسفته فكرة « الشخصية القويـة » ، « الانسان المتفوق » الذي يقف « في ذلك الجانب من الخير والشر » ، أي القائم فوق الأخلاق السائدة والمباح له كل شيء ، وان المعنى السامي للتاريخ هو في طموح هذه الشخصية الى السلطة • لقد كان ينظر نيتشه باحتقار الى جماهير الكادحين • فالجماهير هي السـواد أو الغوغاء أو القطيع الذي لاشأن له الا تسميد التربة لنشاط الفرد الجبار • وان المساواة والاشتراكية والديموقراطية والانسانية ـ كل هذه أفكار خيرة من شأنها فقط أن تستدرً كره نيتشه • فمن نيتشه يمتد السلك المباشر الى الفكرة الفاشية بتأليه « الفوهرر » •

ولقد حاول بعض المفكرين قبل ماركس فهم دور نشاط الجماهير الشعبية في التاريخ • ان المؤرخين الفرنسيين الذين درسوا تاريخ الثورة البورجوازية الفرنسية ربطوا أسباب وسير الثورة بنضال الطبقات من أجل الملكية ، أي أنهم درسوا حركة جماهير الناس • وقد تحدث الديموقراطيون الثوريون الروس مباشرة عن الدور الحاسم للجماهير الكادحة في تطور المجتمع ، وهم في الوقت نفسه لم ينكروا دور الشخصيات البارزة • فلقد شبَّه « دوبرولوبوف » الشخصية بالشرارة التي يمكن ان تفعل الكثير اذا ما وقعت على مادة قابلة للاشتعال ، لكنها سرعان ما تنطفىء اذا ما وقعت على الصخر • ولقد كان عيب نظرات الديموقراطيين الروس في ربطهم نشاط الجماهير لا بالشروط والقوانين الموضوعيـة للتطور التاريخي وانما بتأثير المنورين والأفكار الجديدة • ان بعض التخمينات المادية لم تؤد الى خلق فهم مادي هادف للتاريخ يبحث لأول مرة مسألة قواه المحركة ، وبالتالي ، قضيتي الجماهير والشخصية في التاريخ على أساس علمي •

١ ـ المادية التاريخية ودور الجماهير

من المادية التاريخية ومبادئها الأساسية ينشأ الاعتراف بالدور الحاسم للجماهير الشعبية في صنع التاريخ ،الاعتراف بأن نشاط الجماهير بالذات وليس نشاط الشخصيات المعينة هو الذي يدفع التاريخ الى الأمام •

وفي الواقع ، اذا كان أسلوب الانتاج هو القوة المحددة للتطور الاجتماعي فان الجماهير الكادحة المنتجة للخيرات المادية ، اذ هي قوة حاسمة في الانتاج ، تقوم بالدور الحاسم في صنع التاريخ • فالتاريخ ليس من صنع شخصيات معينة ،وانما هو من صنع الجماهير • وان علم الاجتماع قبل ماركس لم يبحث المجال الحاسم لنشاط الناس ـ النشاط الانتاجي المادي ـ ولم يكشف عن دوره في تطور المجتمع • ولهذا فلم يتمكن من فهم الدور الواقعي للجماهير الكادحة بأن الناس الذين يخلقون الخيرات المادية والمحركين للانتاج هم صانعو التاريخ الحقيقيون، وبأنه ليس في قصور الملوك والرؤساء ولا في مكاتب الوزراء والقاعات البرلمانية الفارهة ، وانما هناك حيث يستخرج النفط والفحم وحيث يصهر المعدن وتصنع الآلات ويزرع القمح ـ في مجال الانتاج المادي ـ هناك ، وقبل كل شيء يصنع التاريخ • لكن تأثير الجماهير الشعبية على سير التاريخ لايقتصر على كونها خالقة للقيم المادية ، فالجماهير الشعبية هي القوة الحاسمة في اجراء كل التحولات الاجتماعية • فلا شأن للملك دون رعية ، أو للجنرال دونما جيش • فبامكان كل منهما أن يقرر عندما يكون ثمة قوة بين يديه • والجماهير هي القوة في السياسة أيضاً • وبالرغم من أن الطبقات المستغلة كانت تبذل في الماضي جهوداً كبيرة من أجل حرمان الجماهير من السياسة ، وكان يتسنّى لها ذلك أحياناً ، لكنما كانت كلمة الجماهير بالذات هي الحاسمة في اللحظات الحرجة الانعطافية في التاريخ • فالشعوب هي التي تقوم بجميع الثورات العظيمة • وان رغبة الجماهير واتجاهها وتأييدها لهذا أو ذاك تؤلف العامل الحاسم للنجاح في المجال السياسي • وليست الصدف والظروف العابرة هي التي تحدد حركة الجماهير ـ كما بينا سابقاً ـ بل الأسباب العميقة الطويلة المدى للنظام المادي هي التي تقوم

بتحديدها . ولهذا فان ارادة شخصية ما مهما بلغت من العظمة ومهما كان تأثيرها كبيراً ليست الاّ « عظمة » أصغر من أن تعطف التاريخ وتسيره حسب مشيئتها. لكنه اذا كانت هذه الشخصية معبرة عن مشاعر الجماهير واهتماماتها ، اذا كانت ارادة وتفكير الفرد تنسجم مع ارادة وتفكير الملايين ، فان الشخصية آنذاك تترك أثرها الواضح في التاريخ .

وهكذا فان الجماهير الشعبية هي القوة الحاسمة في المجال الأساسي الثاني من النشاط الانساني ــ المجال السياسي الاجتماعي . وينبغي ألاّ ننسى أن مفهوم الجماهير هنا يختلف عن المفهوم في الانتاج المادي . وبالرغم من أن الكادحين المنتجين للخيرات المادية يؤلفون هنا أيضاً القوة الأساسية فان الجماهير في المجال السياسي الاجتماعي تضم كل تلك القوى والفئات الاجتماعية التي تحل المسائل السياسية الناضجة .

وينبغي ألاّ نغفل عن دور الجماهير الشعبية لدى دراسة تطور الثقافة الروحية أيضاً بدءاً من أن الشعب هو الذي يصنع اللغة وبدون اللغة لايمكن ان تنشأ ثقافة ما . وعظيم هو دور الشعب في مجال الاكتشافات العلمية والمخترعات التكنيكية . ان الشروط المادية لهذه الاكتشافات والاختراعات والحاجة الاجتماعية اليها تنشأ مع تطور الانتاج ، أي مع عمل الملايين من الناس البسطاء . ويقوم بهذه الاكتشافات والاختراعات أناس معينون أو فئات قليلة من الناس لكنها لاتدخل في السلسلة العامة للتطور التاريخي الا عندما تخرج من نطاق الفرد لتطبق من قبل الجماهير في الانتاج . والحياة الشعبية تؤثر تأثيراً كبيراً ومتنوعاً على تطور الأدب والفن . فالانتاج الفني الشعبي الذي هو جزء من الفن ينبوع الشخصيات والخواطر الأدبية . فشخصية دون كيشوت أو فاوستو ليست من خلق سرفانتس أو غوته وانما هي مأخوذة من الأساطير الشعبية . وان غلينكا وتشايكوفسكي وغيرهما من المؤلفين الموسيقيين العظام يستخدمون في مؤلفاتهم الموسيقى الشعبية . فقد قال غلينكا : ان الشعب هو الذي يخلق الموسيقى ، وأما نحن ، الموسيقيين ، فمهمتنا التنسيق فقط . لكن جماهير الكادحين لاتساهم في تطور الفن عن طريق خلق الشخصيات الفنية فقط ، فالفن

الحقيقي مرتبط دائماً بحياة الشعب وبأفكاره ومطامحه • ان الأدب هو مرآة الحياة الشعبية ، والفن الذي ينفصل عن حياة الشعب يصبح فناً فارغاً لا طعم ولا لزوم له • ان الأدب الروسي في القرن التاسع عشر نال شهرة عالمية ، لكن أكان بامكانه ياترى أن يقوم لولا نضال الشعب ضد حكم الاستبداد والاستعباد ؟ ان النضال التحرري للجماهير الكادحة بالذات هو الذي ألهم الفنانين ، ومنح تطلعاتهم الفنية حماسها التائق وخدم كأساس لخلق أدب عظيم• ان عمل الفنان أو الكاتب عمل فردي بالطبع ، لكنه فردي شكلا وحسب ، أما من حيث المحتوى فكلما كان أشد ارتباطاً بحياة ونضال الشعب كلما كان أكثر خصباً وعطاء • وليس عبثاً أبداً أن يكافأ انتاج الكاتب أو الفنان بلقب «الشعبي» لا من حيث التسمية فقط ، بل ومن حيث الجوهر أيضاً •

وهكذا ، فلو تناولنا أي مجال من مجالات الحياة الاجتماعية لوجدنا أن الشعب يقوم بالدور الحاسم فيه بصورة مباشرة أو غير مباشرة • وان نشاط الجماهير الشعبية يدفع التاريخ الى الأمام ، وان الشعب هو صانع التاريخ ، لكنه يصنعه وفقاً للشروط المادية التي يتعلق بها اتجاه حركة الجماهير وطابع نشاطها • ان التحليل العلمي لهذه الشروط يمكننا من فهم نشاط الناس ومن التنبؤ بنتائجه •

دور الشخصيات البارزة في التاريخ

ان الحل العلمي لمسألة دور الجماهير في التاريخ ، وان فهم الطابع القانوني للعملية التاريخية يؤلفان الاساس من أجل الاجابة عن سؤال : ما هو تأثير هذه الشخصية أو تلك على سير التاريخ ؟ ويمكن أن يجاب عن هذا السؤال في شكله العام كما يلي : بما أن الجماهير هي التي تقوم بالدور الحاسم في التاريخ وكلما ارتفع وعيها وتنظيمها كلما عظم دورها ، فان دور الشخصيات البارزة عظيم ومهم عندما تعبر تعبيراً واعياً عن الحاجات الاجتماعية وتقوم بدور الايديولوجي والمنظم والقائد للجماهير • وينبغي أن نقف هنا بالدرجة الأولى عند دور الشخصية في المجال السياسي الاجتماعي • ففي نضال الطبقات وفي حركة الجماهير وتنازع الدول ••• الخ تنشأ دائماً الحاجة الى الأفراد الذين

يضعون المهمات أمام الطبقات ويقودون نضالها ويرأسون هـذه الحركات أو تلك ويزجون هذا الجيش أو ذاك في خضم المعركة ، ومن السهل ايجاد مثل هؤلاء الأفراد • فهم بفضل بعض الميزات يبرزون من بين الجماهير العامة ويشغلون المكان الذي يتمكنون فيه من تحديد المهمات واتخاذ القرارات التي تؤثر على حركة الجماهير • ان لكل عصر ولكل طبقة أفراداً بارزين يعكسون خصائص العصر والطبقة بوضوح ويعبرون عن متطلبات العصر بصورة أعمق ممَّا يعبر غيرهم من الناس • وبالطبع ، يوجد دائماً أفراد بارزون على رأس الطبقات والأحزاب والدول والجيوش • فالتاريخ يعرف الكثير من المهازل عن العروش الملكية وكثيراً من القادة العسكريين غير الأكفاء ومن القادة السياسيين الفاشلين • ان مثل هؤلاء يجرفهم سيل الأحداث في طريقـــه • أما الأفـراد البارزون فيتركون بالفعل أثراً جلياً لشخصيتهم في سير الأحداث • وينحصر دورهم في قدرتهم أكثر من غيرهم على عكس متطلبات التطور الاجتماعي ، وفهم الوضع وحاجات الجماهير ، وعلى التعبير في نشاطهم عن هذه الحاجات والمتطلبات ممَّا يساعد على تطور المجتمع وحل القضايا الاجتماعية الناضجة • ان الحركات التقدمية والطبقات الناشئة في عصر ما هي التي تدفع مثل هؤلاء الأفراد الى الظهور •

أما مايتعلق بالطبقات الهرمة فانه يندر أن تدفع الى المسرح بشخصيات بارزة سياسية ذكية • ففي فترة انحلال المجتمع القديم غالباً ما ينتقل ممثلو الطبقة القديمة من أصحاب الفكر والمواهب الى جانب الطبقة الجديدة • واننا نذكر الثورة الفرنسية التي جاءت بشخصيات سياسية لامعة مثـــل دانتـون ، روبسبير ، مارات ، سان ـ جيوست في حين كان آل بوربون ومن لفَّ لفهم عبارة عن شخصيات سياسية تافهة •

ولقد بلغت القيصرية الروسية درجة من النذالة الأخلاقية والسياسية مكَّنت الحشرة القميئة والمحتال القذر راسبوتين من أن يكون ذا تأثـير كبـير وجوهري في شؤون الدولة • ان البورجوازية الروسية الجبانة الضعيفة لم تقدر على دفع بعض الأفراد البارزين • بينما دفعت الطبقة الناشئة ـ الطبقـة

العاملة الثورية الروسية – كتيبة رائعة من الشخصيات السياسية البارزة وفي طليعتهم لينين العظيم ٠

ان دور الشخصية البارزة يوجد في ارتباط مباشر مع درجة فعالية الجماهير الواسعة ٠ فكما ازدادت فعالية الجماهير ازدادت الحاجة الجدية الى صفات معينة ينبغي أن تتمتع بها الشخصية التي تقف في رأس الحركة ٠ وان نضال الطبقة العاملة أعظم حركة ثورية في التاريخ ، فهي تقوم بحل القضية الكبرى في القضاء على كل أنواع الاستغلال وتجذب جماهير الكادحين الواسعة للمشاركة في العملية الفعالة لصنع التاريخ ٠ ومن أجل أن تحقق الطبقة العاملة أهدافها ينبغي ان يتوفر لديها الحد الأعلى من الوعي والتنظيم الذي بموجبه تزداد مسؤولية وأهمية القيادة ٠ ان حزب البروليتاريا الثوري هو الذي يدخل الوعي الاشتراكي والتنظيم الى الحركة العمالية ٠ ان نضال وانتصارات البروليتاريا في البلدان المختلفة ترتبط بنشاط وقيادة الأحزاب الشيوعية الماركسية – اللينينية ٠ ويقف على رأس تلك الأحزاب قادة وفئات قيادية ذات نفوذ في النضال الثوري للجماهير التي تفيد من تجربة القيادة المتمتعة بثقة الحزب ٠ ان الماركسية لاتعرف الغلو في تعظيم الشخصيات ، ولا عبادة الشخصية ، كما أنها لاتنفي دور القادة وأهمية المبادرة الخلاقة لفئات معينة أو لافراد بارزين معينين يرتبطون بالجماهير وبالطبقة العاملة ، وقادرين على فهم الوضع المعقّد والمتقلب بسرعة وعلى التصرف فيه بكياسة وبراعة موضوعيتين ، وعلى توضيح الطريق الصحيح للنضال ولتنظيم الجماهير ٠ ان الحركة الثورية الجبارة للبروليتاريا تفرض على الشخصية القيادية سمات وميزات جد رفيعة ، وتدفع الى خشبة مسرح الحياة الاجتماعية قادة عظاماً ، قادة جدداً في كل شيء ٠

وان ما يميز القادة البروليتاريين عن غيرهم من القادة العظام للكادحين في الماضي أولا ، اعتمادهم على نظرية علمية في التطور الاجتماعي تمكنهم من التنبؤ الصحيح بوجهة سير العملية التاريخية ؛ وثانياً ، ارتباطهم بالجماهير ، وايمانهم بمبادراتها الخلاقة ، وقدرتهم لا على تعليم الجماهير وحسب بل وعلى التعلم منها أيضاً ٠

ثالثاً ، قدرتهم على ربط النظرية العلمية بالتطبيق الثوري ، وعلى تعميم التطبيق بصورة خلاقة.

ان تطور الحركة الثورية للطبقة العاملة في القرن التاسع عشر جاءت بالقائدين والمعلمين العظيمين للبروليتاريا العالمية ـ ماركس وانجلس . ان ماركس وانجلس هما مؤسسا الشيوعية العلمية وأول حزب عمالي ثوري قائم على أسس علمية ، ومؤسسا الأممية الأولى . لقد قاما بدور عظيم في تطور الحركة العمالية ورسما لها طريق النضال .

وفي عصر الامبريالية أوجد نضال الطبقة العمالية الروسية المفكر العبقري والقائد البروليتاري لينين .

وان لينين المخلص لتعاليم ماركس وانجلس طوز الماركسية بصورة خلاقة في الشروط التاريخية الجديدة في النضال ضد الانتهازيين على اختلاف أنواعهم وأسس حزب الشيوعيين الجبار الذي قاد الطبقة العاملة والكادحين في روسيا الى الانتصارات الرائعة للاشتراكية . فكان لينين مؤسس اول دولة اشتراكية في العالم وقائداً للحركة الشيوعية الدولية . ان لينين هو عبقري الطبقة العاملة .

« وكل ما لدى البروليتاريا من عظمة وبطولة : الفكر الجريء ،والارادة الجبارة الفولاذية التي لاتلين ، والحقد المقدس ، الحقد حتى الموت على الظلم والعبودية ، والحماسة الثورية التي تزلزل الجبال ، والايمان الذي لايحد بطاقة الجماهير الخلاقة ، والعبقرية التنظيمية الفذة ، ـ كل هذا كان يتجسد رائعاً في لينين ، الاسم الذي صار رمزاً للعالم الجديد من الغرب الى الشرق ومن الجنوب الى الشمال »[1] .

ولقد قدم تطور الحركة الشيوعية في كثير من بلدان العالم افراداً بارزين في الحركة العمالية وقادة ثوريين عظاماً أمثال ديمتروف ، تلمان ، فوستر ، توكودا وكثيراً غيرهم ممّن كرسوا حياتهم كلها من أجل القضية العظيمة للشيوعية .

---

(١) « الحزب الشيوعي في الاتحاد السوفييتي في مقرراته » ١٩٥٣ ص ٨٠٤ ـ ٨٠٥ .

وعلى رأس الأحزاب الشيوعية والعمالية في كثير من بلدان العالم يقف قادة بارزون وشخصيات شيوعية فذة تربوا وتمرسوا في النضال من أجل الماركسية اللينينية وفي جمع صفوف وتنظيم الطبقة العاملة التي تقود الجماهير الكادحة الى المستقبل الزاهر للشيوعية .

وهكذا فالمادية التاريخية تعترف بأن الشخصيات البارزة يمكن ان يكون لها تأثير كبير على سير التاريخ . وان دور الشخصية عظيم ولاسيما في المجال السياسي حيث يمكن أن يكون لفهم الوضع والقدرة على النفاذ الى جوهر العمليات ، وللمبادرة الخلاقة والطاقة الخاصة والامكانيات التنظيمية للشخصيات القائدة تأثير كبير على عملية التطور وتساهم في انجاح نضال الجماهير . لكن هؤلاء الأفراد لايعملون بذاتهم ولذاتهم وانما هم يعملون مرتبطين بنشاط ونضال الجماهير والا فلن يتمكنوا من التأثير على سير التاريخ .

وان دور الشخصيات البارزة عظيم كذلك في تكوين الثقافة الروحية في تطور العلم والفن والأدب . وان تطور هذه الحقول مرتبط ارتباطاً وثيقاً بالتطور الاقتصادي والسياسي للمجتمع ، ولايجوز فصل نشاط الناس في أي مجال من مجالات الحياة الاجتماعية عن النشاط في المجال الآخر . لقد كتب انجلس عن الأفراد البارزين في عصر النهضة : « وان ما يميزهم جميعاً هو أنهم يعيشون في صميم مصالح زمنهم ، ويساهمون مساهمة حية في النضال التطبيقي ، ويقفون الى جانب هذا الحزب أو ذاك ويناضلون هذا بالكلمة وذاك بالقلم وثالث بالسيف جنباً الى جنب في معركة التطور الواحدة »[1] .

وبما أن الحديث يدور هنا حول الثقافة الروحية فان تأثير انتاج الشخصيات البارزة واضح وقوي . ان الموهبة الكبيرة للباحث أو الفنان هي موهبة نادرة . وان عظماء العلماء والفنانين والمخترعين اذ يعتمدون على تجربة الجماهير ويعممون ما ورثوه في مجالات عملهم يفتحون طرقاً جديدة في العلم والتكنيك والفن . وان انتاجهم هو تعبير مركز واستخدام غني ومتنوع لتلك الامكانيات

---

(١) انجلس . دياليكتيك الطبيعة ١٩٥٥ ص ٤ .

التي يقدمها هذا العصر أو ذاك من أجل التطور المقبل للثقافة الانسانية • وكم هو صعب ذلك الدور الذي يقوم به المكتشفون • فعلاوة على المواهب لابد لهم هنا من القدرة على العمل والمثابرة ، والارادة والجلد والتصميم والقناعة الثابتة بأنهم على صواب وكثير من الميزات الأخرى التي تتجلّى بهـا عظمة النفس والموهبـة :

أين

متى

وأي عظيم كان يختـــار

طريقة

ليتجنب الأهوال !

(ماياكوفسكي)

ان الانسانية الطيبة تمجد كوبرنيكوس ، وغاليلي ، ونيوتن ، وداروين ولومونوسوف ، ومنديلييف ، واينشتاين ، وفيرما ، وبوشكين ، وتولستوي ، وشكسبير ، وغوته ، وغوركي ، وماياكوفسكي ، موزارت ،وبيتهوفن ،وغلينكا، وتشايكوفسـكي ، ورافاييل ، ورمبراندت ، وريبين ، وكرامسـكي وكثيرين غيرهم من عظماء العلماء والكتاب والمؤلفين الموسيقيين والفنانين الذين تركت مؤلفاتهم آثاراً خالدة لاتمحى في تاريخ الثقافة الانسانية •

وتجدر الاشارة الى أنه لايجوز فصل انتاج الشخصيات الرائعة في الثقافة الانسانية عن حياة ونضال الشعوب ، عن متطلبات العصر ، وعن العمل البطولي المجهول لكثير من الناس في هذا المجال للنشاط أو ذاك • ولهذا فالعظماء يؤلفون بالدرجة الاولى فخر ومجد ذلك الشعب الذي رباهم وأطعمهم رغم أن نتائج أعمالهم هي ملك للانسانية جمعاء • ومن هنا تتحدد قضايا الأفضلية الوطنية في ميدان العلم والتكنيك • ان مسألة الأفضلية تقاس بمقدار ما يساهم به هـــذا الشعب أو ذاك في اغناء العلم وفي تطوير التكنيك ، مسـألة التصـوير الحقيقي لعملية تطوير الثقافة • وبما أن هذه المسألة تمس المشاعر الوطنية فعند نشوء الاختلاف ينبغي التصرف بتكتيك وحذر والاهتمام فقط بالحقيقة التاريخية •

والشوفينيون وحدهم يقدرون على جعلها موضوعاً للحسد وللغيرة القوميــة ويستخدمونها من أجل التطرف القومي .

٢. قانون الدور المتزايد للجماهير في التاريخ

الجماهير هي صانعة التاريخ في كل أدواره ، الا أن درجة فعالية الجماهير الشعبية تختلف في حل هذه المهمات الاجتماعية أو تلك ، ومستوى وعيهــا وتنظيمها...ففي فترات الثورات مثلا تزداد الفعالية السياسية للجماهير بالمقارنة مــع ظروف التطــور الســلمي . ولقــد كانت انتفاضــات العبيــد والأقنــان ذات طابع عفوي على الأغلب ، وكانت تسحق دونما رحمة . والبروليتاريا طبقة قادرة عــلى تنظيم جماهير الكادحين من حولها تحت رايــة نظرية وبرنامــج وسياسة علمية .

ومع تغير أدوات العمل يتغير الانسان أيضاً كقوة منتجة . ان العمال في المعمل الرأسمالي الذين يستخدمون الآلات صاروا قوة منتجة تختلف عن الفلاحين الذين يعملون في قطع الأرض بأدوات بدائية بسيطة .

وهكذا ، فمع تطور المجتمع تتغير الجماهير ذاتها وظروف نشاطها ودورها في التاريخ ينمو تدريجياً ويتعاظم . ولقد أسس ماركس وأنجلس الموضوعة القائلة بأنه « مع ســـير العملية التاريخية سوف ينمو حجم الجماهير التي تصنعها[1] » . ان هــذه الموضوعــة تعبر عن قانون تعاظم دور الجماهير في التاريخ . وهذا القانون يصبح اتجاهاً في ظروف التشكيلات الطبقية المتناقضة لأنه ثمة كثير من العوامل المؤقتة التي تعمل هناك بصورة دائمة . والاشتراكية تزيل هذه العراقيل وتخلق العلاقات الاجتماعية التي تفتح امكانيات لا محدودة من أجل النمو الدائم لفعالية الجماهير الخلاقة

ففي كل التشكيلات المتناقضة كانت قوى الجماهير مكبلة بأصفاد الظلم والاستغلال . والاشتراكية تحطم تلك الأصفاد ، وتوجه الانتاج والعلم والفن وكل الثقافة الماديــة والروحية الى تطوير وتنوير الجماهير وســد متطلباتها

---

(١) لينين . المؤلفات . الجزء ٢٥ ص ٤٤٣ .

المتنوعة • وان هـذا كله من شأنه أن يخلق شروطاً جديدة بنوعيتها لنشاط الجماهير الخلاق في كل مجالات الحيـاة الاجتماعيـة • ان الظرف الاكثر أهمية من غيره والذي يساعد على تعاظم دور الجماهير في الاشتراكية هو أن نشاط الجماهير يعتمد هنا عـلى الايديولوجيا العلميـة التي تعطينـا المعرفة الموضوعية لقوانين التطور الاجتماعي • وهذا من شأنه أن يقوي دور عنصر الوعي ويوسع دائرة نشاط الناس الواعي •

وهكذا ، فان الاشتراكية توجد شروطاً جديدة لنشاط الجماهير تختلف كلياً عن الشروط في المجتمع الطبقي المتناقض • وفي عهد الاشتراكية تنشـأ الشروط ، وتوجد الامكانيات لانماء فعالية الجماهير الخلاقة باستمرار •والمهمة التطبيقية هي في استخدام تلك الامكانيات بكاملها لما فيه خير المجتمع ورفـع وتيرات التطور التاريخي الى درجة كبيرة •

ومن الموضوعة النظرية عن الدور الحاسم للجماهير في التاريخ يستخلص حزبنا نتيجة عملية مهمة • فهـو يوجه جهوده الى اتخاذ التدابير الاقتصادية والسياسية والثقافية التي تساعد على تطوير فعالية الجماهير البناءة •

ان التحويل الاشتراكي للمجتمع هـو أعمق تحول اجتماعي عرفـه التاريخ ، ولهذا فلا معنى له مطلقاً بدون مشاركة جماهير الكادحين الواسعة • ان « حجم الجماهير » التي تحقق هذا الانعطاف وتهتم به يضم الغالبية المطلقة للسكان • وعلاوة على هذا فان الجماهير الشعبية في الثورة الاشتراكية تقوم تحت قيادة البروليتاريا وحزبها لا بالدور السلبي الذي يقضي عـلى النظام القديم فقط وانمـا تحل مسألة بناء المجتمع الاشتراكي الجديد أيضـاً • ان حياتنـا بكليتها تؤيـد ما قاله لينين عن كذب وافتراء التصويو البورجـوازي للاشتراكية حيث يقول : « يقولون عن الاشتراكية أنها شيء ما ميت جامـد جاء عابراً مرة واحدة والى الأبد • لكنه من الإشتراكية فقط تبدأ الحركـة الجماهيرية الحقيقية السريعة ـ بمساهمة أغلبيةالسكان ومن ثم السكان جميعاً ـ انطلاقتها الى الأمام في كل مجالات الحياة الاجتماعية والخاصة »[1] •

---

(١) لينين • المؤلفات • الجزء ص ٤٤٣ •

وكثير من الايديولوجيين البورجوازيين مولعون بالتشدق بكلمة «شعب» والتحدث عن « مصلحة الشعب » وعن « روح الشعب » ... الخ . لكن هذه الكلمة في أغلب الاحيان لا تستعمل لمصلحة الشعب الحقيقية مطلقاً . وبالفعل ان اضافة كلمة « شعبية » الى كلمة « رأسمالية » لاتغير شيئاً من الرأسمالية وانما هي تغطية مفضوحة لجوهرها الاستغلالي .

ان الاعتراف بالدور الحاسم للجماهير الشعبية في التاريخ لايعني بالنسبة للماركسية اللينينية مجرد تصريح بسيط ، وانما هـو نظرة مبدئية تدفـع الى النشاط العملي . وان الأحزاب الشيوعية اذ تسير على هدي التعاليم الماركسية ـ اللينينية ، تناضل من أجل تحرير الجماهير الكادحة من كل أشكال العبودية ومن أجل خلق الشـروط الملائمة لنشاط الجماهير الفعـال وتطور مبادرتها الخلاقـة .

ان الفعالية والمبادرة الخلاقة للجماهير في عهد الاشتراكية تتجلى قبـل كل شيء في مجال الانتاج ، في النضال من أجل انتاجية عالية للعمل . ولقد ولدت هذه المبادرة في الاتحاد السوفييتي بدايات رائعة بدءاً من جماعة السبت الشيوعيين الأوائل حتى الحركة المعاصرة لطلائع وأبطال العمل الشيوعي . وهنا ينعكس اهتمام الجماهير العميـق بتطور الانتاج وباقامة القاعدة الماديـة التكنيكية للشيوعية بصورة سريعة وعاجلة . وان تنفيـذ الخطط الانتاجيـة وتحسين التكنيك وجعله عصرياً ، وتوفير الوقت والاقتصاد في المواد ، وتثقيف العمال ، ومساعدة المتخلفين ... الخ ، على كل هـذه العوامل المهمة وغيرها من عوامل تطور الانتاج يتركز اهتمام الكادحين .

وان تحقيق النهضة الجبارة للانتاج في فترة بناء الشيوعية يتطلب مستوى عالياً من فعالية الجماهير . وان هـــذه التدابير كاقامة المؤتمرات الانتاجية في المعامل والمصانع ،وانشاء لجان المراقبةالتابعة للمنظمات الحزبية ،ونشاط اللجان التكنيكية في الانتاج وغيرها ، توجه المبادرة الشعبية الى الفرع التنظيمي . ان الحزب يعتمد على نشاط ومبادرة الجماهير ويقوم بتأييدها وتوجيهها ويساعد على نشر تجربة أفضل العناصر .

ان خلق القاعدة المادية التكنيكية للشيوعية ممكن فقط على أساس التقدم التكنيكي السريع الذي هو الشرط الحاسم لرفع انتاجية العمل • وان الحزب يوجه قوى الجماهير الى النضال ضد الجمود والتحفظ في هذه القضية الهامة ، ومن أجل التحسين التكنيكي السريع للانتاج الاشتراكي ، وهذا من شأنه أن يبين لنا مرة أخرى أن كل مهمات تطوير الاقتصاد الاشتراكي تحل في المساهمة الواسعة الفعالة الواعية للجماهير الكادحة • وفي هذا تنعكس العلاقات الاشتراكية الجديدة في عملية الانتاج • ان فعاليـة الجماهير هي الشرط الحاسم لحل المهمات الكبرى في بناء الاشتراكية والشيوعية • ولقد ورد في برنامج الحزب أن « صرح الشيوعية العظيم سوف يسمو عالياً على أيدي الشعب السوفييتي : الطبقة العاملة والفلاحين والمثقفين • وكلما كان عمل السوفييتين أكثر نجاحاً كلما اقتربوا من تحقيق الهدف العظيم ـ بناء المجتمع الشيوعي •

ان التطور الاقتصادي للمجتمع الاشتراكي لا ينفصـل عن حل المهمات الاجتماعية والسياسية القائمة أمام المجتمع • وفي هذا المجال تتجلى أيضا قوى الشعب الخلاقة • فالديموقراطية الاشتراكية تقود الجماهير الى ادارة الدولة وتساعد على تطوير فعاليتهم السياسية • وتستخدم تجربة ومعارف الملايين لدى حل القضايـا المهمة التي تتعلق بمصالح المجتمع • ويطرح حزبنا عـلى بساط المناقشة الشعبية كل مشاريع التدابير المقترحة الموضوعة عـلى أسـاس تعميم تجربـة الجماهير ، فتتحول بذلك التدابير الى قضية درسها الشعب ليجعلها قضيته الخاصة • والمناقشة الشعبية العامة للمقترحات حول اعادة تنظيم ادارة الصناعة والبناء ، وتطوير النظام الكولخوزي ونقل التكنيك الى الكولخوزات ، وتحسين نظام الثقافة الشعبية ، حول تدقيق أرقام الخطة السباعية ، وبرنامج الحزب الشيوعي ، وهذا هو المحك الصحيح للديموقراطية الاشتراكية ولتنمية فعالية الجماهير ، واشراكهم في ادارة الدولة ، وتحديد طرق التطور لمجتمعنا • وحسبنا القول بأنه اشترك في المناقشة الشعبية لمشروع برنامج الحزب مايقرب من ٧٣ مليون انسان ، وأن عدد الذين تحدثوا حوله مطولا في الاجتماعات زهاء ٤٦٠٠ شخص • وينص البرنامج على أن مناقشة مشاريع قوانين الدولة العامة

والمحلية يجب أن تصير نظاماً ، وأن المشاريع المهمة ينبغي أن تطرح على التصويت . وفي بلدان الديموقراطية الشعبية أيضاً تستخدم طريقة المناقشة الشعبية العامة للمسائل المهمة في الحياةالداخلية والدولية . وفي برنامج الحزب الشيوعي في الاتحاد السوفييتي ينعكس اهتمام الحزب بوضوح بتطوير فعالية الجماهير الخلاقة التي سوف تنشأ من أجلها ظروف أفضل .

وتنمو في الاشتراكية أيضاً أهمية نشاط الجماهير الواسعة في تطوير الحياة الروحية ، ويرتفع ارتفاعاً هائلا المستوى التكنيكي الثقافي للعمال والفلاحين ، وتقوم الروابط الوثيقة بين العلم والانتاج ، وتساهم الجماهير في جعل الانتاج على وفاق مع العقل والمنطق ، ويحدث الاتحاد بين التعلم وبين العمل الانتاجي ـ كل هذه حلقات لسلسلة واحدة تربط العلم بالشعب .

ومن جهة أخرى ، ينمو أيضاً المستوى الثقافي للجماهير . فمثلا ان عدد المشتركين بالنشاط الفني في بلادنا جد كبير ، وان براعتهم تزداد يوماً بعد يوم . وان النشاط الفني هو الشكل المباشر لمشاركة الجماهير الشعبية في الانتاج الفني . لكن اهتمام الجماهير بتطور الفن يتجلى في المناقشة الفعالة لقضايا تطور الأدب السوفييتي والسينما والتصوير والمسرح ... الخ . ان فن الواقعية الاشتراكية يرتبط ارتباطاً وثيقاً من حيث المحتوى والشكل معاً بحياة الشعب . وان لمساهمة الجماهير الواسعة من الناس في الانتاج الروحي أهمية فائقة من أجل احراز تقدم ثقافي سريع في المجتمع الاشتراكي .

وهكذا ، فان نشاط الجماهير الرفيع ، والنمو المتواصل لمبادرتهم الواعية في جميع مجالات الحياة الاجتماعية هو قانون التشكيلة الشيوعية وأكثر الشروط أهمية من أجل تحقيق وتيرات سريعة للتطور التاريخي . وان سياسة الأحزاب الشيوعية والعمالية في البلدان الاشتراكية موجهة دائماً لانماء الفعالية عند الجماهير وازالة كل عائق لها . وتبين تجربة تطور بلادنا أن تحقيق الفعالية الرفيعة للجماهير في عصر الاشتراكية يتعلق : بحقل الاقتصاد ـ بالتطبيق الصحيح لمبدأ الاهتمام المادي الشخصي وجمعه مع تطوير الدافع

الأخلاقي الى العمل ؛ وفي حقل السياسة ـ بالنضال الحازم ضد البيروقراطية ؛ وفي حقل الايديولوجيا ـ بالتغلب على بقايا الرأسمالية في وعي الناس •

والشرط اللازم لنمو نشاط الجماهير هو نشر الايديولوجيا الاشتراكية ، والتربية الشيوعية ،واقتلاع السخافات ،وتصفية بقايا أخلاق ونفسية البورجوازي الصغير والتعصب القومي وغيره من العادات السيئة الأخرى • وأخيراً ، فان نمو الفعالية الخلاقة لدى الجماهير في كل مجالات الحياة في المجتمع الاشتراكي يرتبط ارتباطاً وثيقاً بالدور القيادي للحزب • ويحاول الانتهازيون أن يضعوا فعالية ونشاط الجماهير في تعارض مع القيادة الحزبية ويبرهنوا على أنهما لا ينسجمان•

فينتج عن أقوالهم أن الحزب يفرض قيادته فرضاً على الجماهير وأنه كلما زادت فعالية الجماهير كلما قل شأن القيادة الحزبية • لكن الحياة نفسها تدحض مزاعم الانتهازيين • فالحزب لايقيد مبادرة الجماهير بل هو يعتمد عليها ويوجه وينظم نشاط الجماهير الواسعة • ومع تطور الاشتراكية تنمو الفعالية لدى الجماهير وينمو الدور القيادي للحزب • وهاتان العمليتان لاتنفي احداهما الأخرى بل تستدعيها بالضرورة في عهد الاشتراكية لأن نشاط الجماهير كلما كان أكثر تنظيما كلما أعطى نتائج أكثر وأفضل ، وكلما تركزت قوى الجماهير على حل القضايا المعقدة في تطور المجتمع • والحزب هو القوة المنظمة والموجهة في المجتمع الاشتراكي •

ان العلاقات المتبادلة بين الجماهير والحزب والقادة في المجتمع الاشتراكي مشروطة بطابع المجتمع ذاته المتلائم مع قوانينه •

والمحافظة على هذه العلاقات تؤمن نمو الفعالية لدى الشعب كله ، والعكس صحيح : فان ضرب هذه العلاقات المتبادلة الصحيحة تحد من فعالية الجماهير وتسيء الى الدور القيادي للحزب والى قضيتنا بأسرها •

٣ ـ المجتمع الاشتراكي والشخصية

ان التقدم التاريخي مرتبط بتطور الانسان كشخصية • ففي عملية العمل وعلى أساسه يمتاز الانسان على الطبيعة • لكنما في المجتمع البدائي الأول كان الانسان لايزال مندمجاً في تلك الجماعة التي كان أحد أعضائها (القطيع البدائي الاول ، العشيرة ، القبيلة) مما جعله لايعي نفسه كشخصية مستقلة • فهو ـ حسب تعبير ماركس ـ لم يكن قد انفصل عن سرة الطبيعة بعد وكان يعي وجوده الشخصي كعضو في جماعة معينة • ان هذه الوحدة البدائية بين الانسان والجماعة كانت نتيجة لتخلف قوى الانتاج ولبدائيتها ، ولارتباط الناس بالطبيعة التي لم يكونوا يواجهونها كأفراد وانما كجماعة معينة •

ومع تقدم القوى المنتجة فيما بعد ، وفي ظروف التقسيم المتطور للعمل وانفصال العمل الفردي ونشوء الملكية الخاصة حدث انقسام بين المصالح

الشخصية والمصالح الاجتماعية ، وظهرت التناقضات داخل العشيرة والقبيلة • وهنا بدأ الناس يعون أنفسهم كشخصيات • ومع انقسام المجتمع الى طبقات لم تعد الجماهير الشعبية ممثلة للمجتمع كله • ولهذا فالفردية الناشئة لم تكن لتمثل المجتمع كله أيضاً ، فنشأت الشخصية الطبقية •

وفي المجتمع البدائي الأول لم تنشأ عملياً العلاقة بين الشخصية والمجتمع • فلم ينفصل الحق عن الواجب بالنسبة للانسان البدائي • لكنه مع تفسخ المجتمع البدائي ظهرت مسألة العلاقة بين الشخصية والمجتمع • وكان ينحصر جوهر هذه العلاقة فيما يلي : ما هي الحقوق التي يمنحها المجتمع للفرد ، وماهي واجبات الفرد تجاه المجتمع • واذا ما أردنا أن نتناول هذه المسألة بعمق أكثر لرأينا أنها تنحصر فيما يلي : ما هي الشروط التي يقدمها المجتمع لتطور الشخصيات ولاستخدام امكانياتها ، والى أي حد تتناقض أو تنسجم عملية بناء المجتمع واتجاهات تطوره من جهة مع مصالح تطور الشخصية تطوراً شاملا ـ من جهة أخرى •

ولايمكن أن توجد الشخصية وتتطور خارج المجتمع • فالانسان هو دائماً ابن زمانه ومجتمعه وطبقته • ولهذا فالماركسية تلقي بعيداً بتعاليم الايديولوجيين البورجوازيين عن الانسان بوجه عام ، وعن الشخصية • ان جوهر الشخصية يتحدد ويتضح بالمجتمع الذي تعيش فيه • وان كل تشكيلة اجتماعية تضع وتحل قضية العلاقة بين المجتمع والشخصية بصورة مختلفة • وهنا تلعب الخصائص الموضوعية وتقاليد تطور البلدان المختلفة دورها أيضاً •

ان ايديولوجيي الطبقات المستغلة يصورون الكادحين كجمهور شاحب لا هوية له ، كغوغاء ينعدم فيها التمييز بين الأفراد • وان هذه النظرة تعكس وضع الجماهير البائس من مواقع المستغلين ، هذه الجماهير التي يكون المجتمع ومؤسساته قوة عدائية غريبة عنها مما يعرقل تطور الانسان كفرد • والمستغلون لايفصلون الشخصية عن الملكية • فالانسان الذي لايملك شيئاً لا يساوي شيئاً • وفي وسع الانسان أن يكون شخصية مستقلة فقط عندما يكون مالكاً ، وتقاس درجة جدارة الانسان بمستوى دخله • فالناس المشبعون بهذه الايديولوجيا

يقدرون ، فقط ، على القول بأن الاشتراكية ، اذ تقضي على الملكية الخاصة ، فانها تقضي على الناس أيضاً .

وفي الواقع ان أساس تطور الانسان كشخصية ليس الملكية الخاصة ، وانما النشاط العملي ، العمل . فالملكية الخاصة تبين فقط تلك الشروط النوعية التي تتطور فيها الشخصية في فترات تاريخية معينة . ان الملكية الخاصة تعرقل تطور الصفات الروحية للناس الذين ينتمون الى الطبقات المستغَلة . فبالنسبة للطبقات المستغلة وللملاكين فان مصالح الحصول على الملكية الخاصة والحفاظ عليها تسبب ضيق أفق الفرد بمطامح هزيلة رغم أن الثروة يمكن أن تساعد على تطوير الامكانيات والمواهب . ففي الظروف حيث يتقدم الانتاج والعلم والثقافة على أساس الملكية الخاصة والاستغلال وفصل العمل الذهني عن العمل العضلي لايمكن أن تتطور امكانيات كل أفراد المجتمع ، حتى أن مثل هذه المهمة لاترد هناك أبداً . وليس تطور الجميع بل زيادة ثروات الأقلية ، واضطهاد الأكثرية — هي الظروف التي تتكون فيها الشخصية هناك .

وهكذا ، فالملكية الخاصة ليست دائماً وفي كل الظروف أساساً لتطور الشخصية . لكنها دائماً أساس للتناقض بين المجتمع والشخصية .

ففي المجتمعين العبودي والاقطاعي ظهر هذا التناقض في شكل سافر حاد . فالمجتمع لم يكن ليقدم لا للعبيد ولا للأقنان أية حقوق أو أية ظروف — مهما كانت مصطنعة — من أجل التطور ، ومقابل ذلك فقد كان يلزم الجماهير بالحد الأقصى من الواجبات وأقساها . ولم يكن ممثلو الجماهير ليعترف بهم كشخصيات . والمجتمع البورجوازي اذ أعلن مبدأ المساواة الشكلية بين الجميع أمام القانون جاء كخطوة مهمة الى الأمام ، الى الاعتراف بحقوق الشخصية ، لكنه لم يلغ التناقض بين الشخصية والمجتمع .

وان الايديولوجيين البورجوازيين ، اذ يجعلون من المجتمع الرأسمالي مثالا ، يعتقدون أن الرأسمالية أوجدت التناسق بين الفرد والمجتمع والعلاقة

الصحيحة بين حرية الفرد ومصلحة المجتمع • ان حرية الفرد هي ذلك المهر الذي يحب الايديولوجيون البورجوازيون ركوبه •

وبالطبع (لقد بينا هذا سابقاً) ليس صحيحاً مطلقاً أن نرفض مكتسبات الديموقراطية البورجوازية • لكنه من الواضح تماماً أن حرية الفرد في المجتمع البورجوازي بالمفهوم البورجوازي ـ حرية العمل بالعمل ، وحرية العامل مع قسوة عمله ، وحرية البورجوازية ببيع القوى العاملة ، وحرية البروليتاريا بجني الثروات وتقديمها للأقلية وحرية الرعب والخوف من المستقبل وحرية فقدان العمل ، وحرية موت الأغلبية من الجوع • وبكلمات موجزة : ان الحرية الشكلية بدون تأمين الشروط المادية لتطور كل أفراد المجتمع لاتقضي على عدم المساواة الاجتماعية ولا على التناقض بين الشخصية والمجتمع • ان حرية الفرد في المجتمع البورجوازي هي حرية الفرد البورجوازي ، بينما البروليتاريا قلما تستفيد من هذه الحرية ، وكما قال الشاعر ماياكوفسكي :

الجمهورية الديموقراطية
أن تأكلوا الكعكة ونأكل ثقبها

والايديولوجيون البورجوازيون يحاولون جمع الفردي الى العام على أساس مبدأ الفردية ـ فما ينفع الفرد ينفع الجميع • فالرأسمالي اذ يهتم بنفسه يلبي بذلك مصالح المجتمع ورغباته • وهاكم تصريحا لأحد رجال الأعمال الأمريكيين « ك • ريندول » الذي أمسك بالقلم ليسدد ضربة «قاصمة» لنقاد الرأسمالية مدفوعاً بمشاعر الكره للأفكار الشيوعية ، فكان نتيجة جهوده الفعلية :

« ••• أن سر الفرص الحرة يكمن في أننا نستخدم الامكانية الطبيعية لكل انسان ، ونمنحه امكانية الحصول على مكاسب لنفسه ، وخدمة المرء لنفسه خدمة للمجتمع » •

عندما أخدم نفسي أخدم المجتمع ـ هذا هو ماتبشر به البورجوازية وتجعله أساساً ايديولوجياً للتطبيق العملي • ان تفضيل المصلحة الخاصة في

هذا القول أمر لا جدال فيه وهو مستنبط مباشرة من البيولوجيا • وليس ثمة داع للبحث عن أصول الفردية البورجوازية في تاريخ أسلاف الانسان ، فهي من نتاج المجتمع البورجوازي ذاته أيضاً ، نتاج المزاحمة البورجوازية والعدو وراء الربح • ان الفردية شاهد على ضيق أفق المجتمع البورجوازي وعجزه عن التوفيق بين الفردي والاجتماعي ، وعن القضاء على التناقض بين الفرد والمجتمع وتصفية التزاحم بين الأفراد الذين يهتم كل منهم بمصلحته الخاصة وحسب • والديموقراطية البورجوازية تقدم للفرد كل مايمكن أن يقدمه المجتمع البورجوازي للكادحين : حرية بيع قوته العاملة ، والحق في الحصول على وسيلة تضمن له العيش بأية طريقة كانت • فالفرد فيه يبقى وحيداً في صراعه من أجل البقاء ، ومنبوذاً ـ كما يقول الوجوديون ـ لأن المجتمع لا يكون نقطة استناد بالنسبة له مطلقاً • وان وحدة الكادحين وحدها من أجل النضال المشترك ضد البورجوازية هي التي تؤمن السند الوحيد في الحاضر والثقة في مستقبل أفضل •

والمجتمع الاشتراكي ـ على خلاف المجتمع البورجوازي ـ يوجد وحدة بين ماهو فردي وما هو اجتماعي على أساس المصالح الاجتماعية ، ويوفق بين مصلحة الفرد ومصلحة المجتمع مما يعجز عنه أي مجتمع تناقضي آخر •

وفي بلدان الغرب شد ما ينفقون من الحبر والورق من أجل البرهان على أن الاشتراكية تسحق الفرد وتقتل الناس ، وأن الدولة الاشتراكية لاتؤمن المناخ الصالح لتطور الشخصية ، وتتناقض مع المكتسبات الرفيعة للمدنية الغربية ـ مع حرية الفرد • وان هذا الزعم هو في جوهره محور يدور حوله النقد البورجوازي والاشتراكي الديموقراطي للماركسية اللينينية • لكن هذا النقد ان دل على شيء فانما يدل على أن الاشتراكيين اليمينيين يلتقون مع البورجوازيين في نظرة واحدة •

ان الاشتراكية تضع قضية العلاقة بين الشخصية والمجتمع وتحلها بطريقة مختلفة عن الرأسمالية • فالمهم بالنسبة للاشتراكية ليس في تأمين « حرية الفرد » شكلياً ، وانما في الخلق الفعلي للشروط الاجتماعية والسياسية من

أجل تطور الشخصية من شتى جوانبها ، وفتح كل المجالات أمام مواهبها وامكانياتها • فالاشتراكية بالذات هي ذلك البناء الاجتماعي الذي يضع على عاتقه أمر تطور وازدهار الشخصية الانسانية • أما ما يتعلق بـ « حرية الفرد » فتبقى تعبيراً بورجوازياً أجوف اذا لم يرتبط بالنضال من أجل تحرير الجماهير من كل أنواع الظلم ، بالنضال من أجل الاشتراكية • ان النضال من أجل تحقيق هذا الهدف العظيم يعيد للحياة ولنشاط الناس معناهما الكامل في وقتنا هذا ، ويؤمن المناخ اللازم لظهور امكانيات الشخصية ومواهبها • وان أولئك الناس الذين يحاولون حرف الخط الرئيسي عن مجراه ، ويعرقلون عملية بناء الاشتراكية يجب أن يلقى بهم على قارعة الطريق • وان سحق تلك الأقلية التافهة يبررها التاريخ بضرورة قيام المجتمع الجديد الذي يؤمن الحرية الحقيقية للفرد •

فالفرد لايكون حراً الا عندما يكون المجتمع حراً من الاستغلال ومن الخوف من المستقبل ، ومن تجويع وافقار الاكثرية • « ان التجربة الغنية لبلادنا وكذلك تجربة كل النظام الاشتراكي العالمي تؤكد أن الملكية الاجتماعية ـ وليس الملكية الخاصة ـ هي التي تحرر الانسان من كل أنواع التبعية الاجتماعية ، وتفتح المجالات الواسعة أمام التطور الحر للشخصية »[1] • فعندما يتحرر المجتمع يضع تحت الرقابة الواعية علاقاته الخاصة بالطبيعة وعلاقات الناس بعضهم ببعض ، ويصبح شرط ودليل تقدمه تطور كل أفراد المجتمع والنهوض بمستوى حياة الشعب المادي والثقافي •

وهكذا ، ففي عهد الاشتراكية تتوفر الشروط المادية من أجل تطور الشخصية تطوراً كاملا ، وليس الأمر مجرد تصريح علني عن الحرية • وان المجتمع الاشتراكي بالطبع يقيم الضمانات الحقوقية لحرية الفرد (حرية الكلام ، والنشر ، والضمير ••• الخ) ، لكن هذه الحريات تتعزز مادياً هنا أيضاً •

ان مبدأ التشكيلة الشيوعية هو شعار « من كل حسب طاقته » • ولهذا

---

(١) حول برنامج الحزب الشيوعي في الاتحاد السوفييتي ١٩٦١ ص ٩٣ •

المبدأ أهمية تقدمية هائلة • فلأول مرة يضع المجتمع على عاتقه الاهتمام بتطور واستخدام كفاءات كل فرد • وهذا هو الدافع الأساسي في الاشتراكية الذي سوف يتعزز في المرحلة الأولى من بناء الشيوعية بالاهتمام المادي للفرد بنتائج عمله الذي سيصبح حاجة لكل الناس • وان تحقيق هذا المبدأ يقع على عاتق المجتمع والفرد في آن معاً •فالمجتمع يخلق الشروط ويعطي الوسائل اللازمة لتطوير وتحسين الشخصية ، والفرد يستخدم هذه الامكانيات ويطور القدرات الكامنة فيها ويعمل حسب طاقته لصالح المجتمع • واذا كان مايعطيه المجتمع للفرد متعلقاً بمستوى النضج المادي للمجتمع ، فان عمل الفرد حسب طاقته يتعلق باهتمامه ونضجه الروحي • وان التناسق الأكمل بين التطور الفردي والتطور الاجتماعي يتم مع التقدم الاقتصادي والسياسي والاجتماعي للمجتمع، ومع النهوض بالمستوى المادي والثقافي للجماهير ، ومع نمو الوعي الشيوعي • والحياة تؤيد موضوعة ماركس وانجلس القائلة بأنه منذ لحظة الثورة الاشتراكية « يحل محل المجتمع البورجوازي القديم وطبقاته وضع جديد يكون فيه التطور الحر لكل فرد شرطاً للتطور الحر للجميع »[١] •

وهكذا ، فالاشتراكية لاتفصل الفرد عن الجماعة ولاتضعه في طرف مناقض لها ، وتقيم الجماعية الاشتراكية بدلا من الفردية البورجوازية • فالجماعية تنفذ الى أعماق القطاع الحياتي بكامله ، والى أخلاق وبسيكولوجيا الناس في المجتمع الاشتراكي • والايديولوجيون البورجوازيون ينظرون اليها كعملية « تفصيل » لشخصيات متساوية • لكن الحياة الجماعية في الواقع تفترض غنى الأفراد والكفاءات لديهم • فلو أخذنا جماعية المعمل والمصنع والكولخوز والسوفخوز والمؤسسة والمعهد لرأينا أن الجماعية في كل مكان لاتقيد الشخصية ، بل تخلق الشروط اللازمة لنمو الكفاءات لدى أفرادها ولاستخدام تلك الكفاءات • والناس الذين ينظرون الى الاشتراكية من مواقع البورجوازية يعجزون عن فهم كيفية التوفيق بين وحدة المجتمع الاشتراكي في السياسة والأخلاق والايديولوجيا وبين التطور الحر للفرد • وهم يحركون التصورات

---

(١) ماركس وانجلس • المؤلفات • الجزء ٤ ص ٤٤٧ •

البدائية البائسة عن الاشتراكة ـ الناس جميعاً يفكرون بشيء واحد ويتكلمون شيئاً واحداً ، ويلبسون شيئاً واحداً ، والفردية لا وجود لها • فعندما كتب بعض الطوبائيين عن الاشتراكية بهذا المعنى منذ قرنين أو ثلاثة من الزمن قلنا ضل القوم وكان في الأمر مايغتفر • أما أن يقال هـذا في زمنا الحاضر فيبدو محض افتراء مقصود •

واذا كان كـل الفيزيائيين يقرون قوانين ميكانيك نيوتن أو نظريـة اينشتاين النسبية فليس هذا يعني أن هؤلاء الفيزيائيين قد فقدوا فرديتهم • أما أن يكون المجتمـع الاشتراكي موحـداً في طموحه لاستتباب السلم وبناء الشيوعية ، ففي هذا قضاء ـ كل القضاء ـ على الفردية • وبالطبع عندما ننظر الى الاشتراكية بالمنظار الضيق للفردية البورجوازيـة يصبح من الصعب فهم حياة المجتمع الاشتراكي القائم على مبادىء مختلفة تماماً عن مبادىء البورجوازية • ان الاشتراكية الماركسية لـم تقل أبداً بأن فكرة المساواة هي عملية تمشيط للفوارق الفردية • « من كـل حسب طاقته » ـ ان هـذا المبدأ وحده يبين لأولئك أن الناس ليسوا متساوين في كفاءاتهم وامكانياتهم ويؤكد وجود الفارق بين الأفراد • وان أكمل شكل للمساواة الاجتماعية لايمكن أن يزيل هـذه الفوارق ، وانما على العكس ، يعمل على تطوير واغناء تلك الكفاءات ، ويساهم من أجل ازدهار الشخصية • ولهذا ينبغي ألا نطابق بين الفردية وحرية الفرد كما هو الأمر مع الانتاج الفائض والقيمة الزائدة • لقد نمت الفردية في ظروف التناقض بين الفرد والمجتمع ، وهي بمثابة انعكاس لذلك التناقض • والجماعية تقضي على هـــذا التناقض وتقيم وحدة منسجمة بين الفرد والمجتمع • ان التشكيلات التناقضية تنفي الدمج البدائي للفرد مع الجماعة في المجتمع القديم قبل ظهور الطبقات • والاشتراكية تقيم وحـدة رفيعة بين الشخصية المتطورة من شتى النواحي وبين الجماعة متمثلة في داخلها كل غنى التطور السابق • وهذا هو نفي النفي • وهكذا نرى أن التطور يتم هنا أيضاً دياليكتيكياً •

ان الاشتراكية تغير دور الشخصية في التاريخ تغييراً نوعياً • فهي أولا تكشف عن الامكانيات والمواهب الخلاقة التي لاينضب معينها من الشعب •

وهي ثانياً ـ توسع حقل النشاط الى درجة جد كبيرة حيث يقدر الفرد على اظهار نفسه كفرد بارز • ولقد مضت تلك الأزمنة التي كان يعتبر فيها الملك أو القائد أو الفيلسوف أو الكاتب أو السياسي أو الفنان فقط هو الشخصية البارزة • فلقد صرنا نتحدث الآن عن المجددين في الانتاج والمخترعين وأبطال الجبهـة ••• وغيرهم كشخصيات بارزة أيضـاً • وثالثاً ، الاشتراكية تمنح الشخصية القوة التي لم تكن تتمتع بها في يوم ما من التاريخ لأنها تستقي تلك القوة من الشعب •

والشخصية المعبرة عن مصالح الشعب لم تكن في يوم ما تملك مثل هذا السند والعون الذي تقدمه لها الاشتراكية • ان قضية الشخصيات البارزة ـ الحزبية والحكومية ، المجددين في الانتاج ، ورجال العلم والفن وغيرهم ـ هي قضية الشعب بأسره • ولهذا تتوفر لهم المساندة الشعبية العامة ، وكذلك القوة والنجاح الذي لـم يكن يناله أي بطل من أبطال الماضي • ثـم ان دور الشخصية في عهد الاشتراكية ، رابعاً ، يقوى ويتعاظم نتيجة للمساندة الهادفة الواعية ولمساعدة الحزب والدولة • وحسبنا أن نتذكر الملاحقات التي كان يخضع لها كل فرد يعبر عن مصالح الشعب في كل التشكيلات الطبقية المتناقضة كي ندرك مدى المصاعب والمشقات التي كان يلاقيها الأفراد •

ويتعاظم دور الشخصية في الاشتراكية ، خامساً ، إلى درجة كبيرة لتسلحها بالنظرية العلمية التقدمية ـ الماركسية اللينينية •

ومع تطور التشكيلة الشيوعية لاتبقى علاقة الفرد بالمجتمع كما هي دونما تغيير • ففي المرحلة الأولى من الشيوعية يبقى العمـل وسـيلة للحياة ، ويتم توزيع الخيرات المادية وفقاً لكمية ونوعية العمل الذي يقدمه أفراد المجتمع • وان التنسيق بين المصالح الشخصية والمصالح الاجتماعية في أسلوب التوزيع هذا يتجلى في أن حصة الانسان من الخيرات المادية تتناسب طرداً مـع العمل الذي يقدمه للمجتمع • وهذا من شأنه أن يولد اهتماماً مادياً لدى الناس بنتائج عملهم ، ويدفعهم في طريق تحسين كفاءاتهم ، وعلاوة على هذا ، يضع تحسن أحوال كل فرد في ارتباط وثيق مع تحسن أحوال المجتمع ككل • ومع زيادة

الانتاج تزداد كمية المنتوجات الخاضعة للتوزيع • ولهذا فان المبدأ الاشتراكي في التوزيع يولد الاهتمام المادي لدى الناس ليس فقط بنتائج عملهم ، بل وفي تطوير الانتاج الاجتماعي كله • وان استخدام مبدأ الاهتمام المادي الخاص في الاشتراكية ضروري لأن المجتمع ما يزال عاجزاً عن تأمين كل متطلبات الناس• وكما تبين التجربة التاريخية ان خرق قانون التوزيع حسب العمل يحرم الناس من الاهتمام المادي بالعمل ، ويولد تناقضاً بين ماهو فردي وماهو اجتماعي ، وينعكس ضرر ذلك كله في الانتاج • لكنما في الاشتراكية تنشأ دوافع أخلاقية جديدة الى العمل لخير المجتمع كله بصرف النظر عن المكافأة • وتلك هي بذور العلاقة الشيوعية بالعمل • ومع نمو المستوى الثقافي للمجتمع يصبح العمل تدريجياً حاجة الناس جميعاً أكثر فأكثر • وان الدوافع الأخلاقية الى العمل تصبح هي السائدة عندما يتغير طابع العمل ويتحقق التوزيع لكل حسب حاجته• وهـذا سـوف يعني بلوغ وحـدة جديدة بين المصالح الاجتماعيـة والمصالح الشخصية أعلى منها في عهد الاشتراكية ، وخلق أفضل الشروط من أجـل تطور وازدهار الشخصية من مختلف نواحيها •

وهكذا ، فالاشتراكية لا تحمل معها قتل الشخصية وتحديدها واخضاعها، وانما تحمل الوحدة المنسجمة بين الفردي والاجتماعي وخلق أفضل الشروط من أجل تطور الشخصية وازدهارها واستخدام امكانياتها ومواهبها • وانه لأمر فظيع ألا يجد جيل كامل استخداماً لامكانياته • فالاشتراكية تفتح طريقاً لاهبة نيرة دائماً أمام الشبيبة في الحياة •

ان الوحدة بين الفرد والمجتمع في الاشتراكيـة لاتنفي بالطبع امكانيـة التناقض بينهما • فمثل هذه التناقضات تنشأ نتيجة للشروط الموضوعية لتطور المجتمع ، ولعدم توفر الوعي الشيوعي الكافي لدى بعض الناس ، ولوجـود بعض مخلفات الماضي في أذهان البعض الآخر • وتتجلى هذه التناقضات عندما يطلب المجتمع مثلا من الفرد أن يتناسى مصالحه الشخصية ويعطي باسم المتطلبات الاجتماعية فقط • ففي أعوام الخطط الخمسية الاولى مثلا أقدم السوفييتيون على التضحية واستغنوا عن أشياء كثيرة بصورة واعية من أجل تأمين الوسائل

الضرورية لتطوير الصناعة الثقيلة • لقد كانوا يفهمون ضرورة ذلك ويدركون أن ذلك الطريق يخدم المصالح الرئيسية للشعب ، فأخضعوا مصالحهم الشخصية للمصالح الاجتماعية • ولقد كان ذلك ضرورياً لحل التناقض وللتغلب على الصعوبات المؤقتة في بناء الصناعة الاشتراكية الحديثة في بلد كان متخلفاً •

ويمكن أن يظهر التناقض بين الفرد والمجتمع عندما تسبب الشخصية في تصرفاتها ضرراً للمجتمع ولاتهتم بالحاجات الاجتماعية • وفي هذه الحال يحق للمجتمع أن يلزم الفرد بالنظام واخضاعه لمتطلبات المجتمع • وهنا يمكن أن يحل التناقض حلا كاملا فقط عندما يعي الانسان المصالح الاجتماعية عن طريق التوعية والتربية ، وتنشأ الوحدة بين الفردي والاجتماعي •

وهكذا ، فرغم أن المصالح الاجتماعية تستأثر بالأولوية دون المصالح الشخصية ، الا أن اخضاع المصالح الشخصية للاجتماعية يكون فقط في عملية حل التناقضات بين المجتمع والفرد • وان ماتمتاز به الاشتراكية هو في تلك الوحدة المنسجمة بين المصالح الفردية والاجتماعية • وان الأساس المادي لهذه الوحدة هو الملكية الاجتماعية لوسائل الانتاج ، والعلاقات الانتاجية للتعاون الرفاقي والمبدأ الاشتراكي في التوزيع • فالانسان يقف مع حاجاته ومصالحه في مركز عناية المجتمع • وان اهتمام المجتمع بالانسان هو مايميز الاشتراكية ولاتعرفه الرأسمالية التي تترك كل انسان يهتم بنفسه فقط • ان اهتمام المجتمع بالفرد يهم الناس ويحثهم على العمل لما فيه خير المجتمع • وان نمو المستوى المادي والثقافي للشغيلة ، وتقليص يوم العمل وتحسين شروط المعيشة ، وتطوير نظام مؤسسات الطفل ، واتحاد التعليم مع العمل الانتاجي ، وتطوير نظام الصحة الشعبية والخدمات الاجتماعية •• الخ ـ كل هذا تقدمه الاشتراكية ، وتخلق الشروط الطيبة من أجل تطوره •

وهذا هو بالفعل الحل الانساني لقضية العلاقة بين المجتمع والفرد •

ان الانتقال الى الشيوعية لايخلق فقط الشروط الملائمة لتطور وازدهار الشخصية من شتى الجوانب ، وانما يضع أمامها مهمات جديدة وجديدة أيضاً •

وان تلك المهمات ، قبل كل شيء ، تنشأ على أساس تطور الأسلوب الاشتراكي في الانتاج • ان الخصائص النوعية المميزة للقاعدة المادية التكنيكية للشيوعية تكشف عن الحاجة النوعيــة الى الانســان كقوة منتجة • وان أتمتة الانتاج الاجتماعي كله تولد الضرورة الى العمال الذين تتوفر لديهم المعارف التكنيكية الهندسية •

ثم ان الانتقال الى الشيوعية يتطلب ـ ليس فقط لــدى بعض الناس أو غالبيتهم ـ وانما لديهم جميعاً ولدى كــل فرد على حــدة ، أن يصبح العمل الحاجة الأولى • ان القاعدة المادية ـ التكنيكية للشيوعية ، اذ تسهل العمــل وتقلص ساعاته ، تخلق الشروط الملائمة لذلك • والى جانب ذلك ، فان تحول العمل الى حاجة حياتية أولى مرتبط بتغير الوعي والأخلاق والعادات لكل انسان •

ان الحاجات الكبيرة الى كل فرد ووعيه وعاداته تمهد أيضاً للانتقال الى المبدأ الشيوعي في التوزيع •

وأخيراً ، ان الانتقال من الدولة الاشتراكية الى الحكم الذاتي : الشيوعي لايمكن أيضاً بدون تغيير وعي وسلوك كل انسان •

لكن المجتمع الشيوعي ، اذ يطالب الفرد بتقديم امكانياته ، يخلق بالمقابل الشروط الملائمة لتطور كل فرد ويلبي له كل حاجاته • ان التأثير المتبادل بين المجتمع والفرد ، وتطور الأفراد على أساس حل المهمات الجديدة التي تقوم أمام المجتمع من حين لآخر يخلقان الشروط الملائمة لتطور الانسانية تطوراً لايُحد وأخيراً فان السلم والعمل والحرية والمساواة والسعادة ـ هو ماتحمله الشيوعية الى جميع الشعوب ، ومايقدمه المجتمع الذي يحقق شعار حزبنا : « كل شيء باسم الانسان ، وكل شيء من أجل الانسان » •

القسم الثالث

الجانب الروحي للعملية التاريخية

أشكال الوعي الاجتماعي

لقد تناولنا في الفصول السابقة مسائل نشوء ودور الوعي الاجتماعي • وموضوع هذا القسم هو تحليل الأشكال الخاصة للوعي الاجتماعي ، أي تنوع الحياة الروحية للمجتمع • وسندرس أشكال الوعي الاجتماعي فقط من وجهة النظر الاشتراكية ، أي كظواهر في الحياة الاجتماعية لها خصائصها النوعية وتحتل مكاناً معيناً في نظام الظواهر الاجتماعية لهذه التشكيلة أو تلك ، وتتبادل التأثير مع الظواهر الاجتماعية الأخرى على أساس أسلوب الانتاج ، وتقوم أيضاً بدور معين خاص في الحياة الاجتماعية •

ان خصوم الماركسية ــ اللينينية يتهمونها أحياناً في عدم تقدير أهمية الجانب الروحي لحياة الانسان والمجتمع حق قدرها • لكن هذا محض ادعاء باطل • ان حزبنا ، اذ يهتدي بالنظرية الماركسية ــ اللينينية ، يؤكد أن بناء الشيوعية لايتطلب فقط وفرة في الخيرات المادية وحسب ، وانما يفترض تربية الانسان المثقف المتطور من كل الجوانب والمتحرر من مخلفات الماضي فيوعيه•

ان التحول الشيوعي للمجتمع يرتبط ارتباطاً وثيقاً بتربيةالانسان الجديد « الذي يتحد فيه الغنىالروحي والصفاء الأخلاقي والكمال الجسماني »[١] •

ولايمكن حل هذه المسألة بدون تطوير العلم والثقافة ، وبدون العناية والاهتمام بقيم الثقافة الروحية من جهة ، والنضال الذي لا هوادة فيه ضد ايديولوجيا المجتمع الاستغلالي البالي القديم ــ من جهة أخرى • ولهذا فان مسألة أشكال الوعي الاجتماعي في وقتنا الحاضر تكتسب أهمية بالغة من أجل تطبيق البناء الشيوعي •

---

(١) برنامج الحزب الشيوعي في الاتحاد السوفييتي • ص ١٢١ •

الفصل الاول

خصائص تطوّر الوعي الاجتماعي

يتجلى الوعي الاجتماعي في أشكال مختلفة ، وله بعض السمات العامة ، ولهذا فهو يكون ظاهرة اجتماعية خاصة •

العامل المعرفي والعامل الايديولوجي في التشكيلات الطبقية المتناقضة

ان انقسام المجتمع الى طبقات ، وفصل العمل الفكري عن العمل العضلي كان لهما أثر واضح على تطور الوعي الاجتماعي • ومنذ تلك اللحظة صارت المصالح المادية للطبقات تؤثر بشكل حاسم على وعي الناس لكيانهم الاجتماعي الخاص وللواقع المحيط بهم •

ان تطور المجتمع الاستغلالي كان يتحقق في شكل التناقض الطبقي • فالقضايا الاجتماعية التي تقف أمام المجتمع تحلُّ فقط في الصراع بين الطبقات التي تسير كل طبقة منها خلف مصالحها الخاصة النابعة من وضعها في نظام العلاقات الانتاجية السائدة • وتكون مصلحة الطبقات التقدمية في جوهرها شكلا للتعبير عن المتطلبات الاجتماعية الناتجة عن فعل القوانين الموضوعية للتطور الاجتماعي ، التي تتناقض معها مصالح الطبقات الرجعية • وتتخذ المصالح الطبقية أهمية فائقة في تحقيق المهمات الناضجة للتطور الاجتماعي • ولهذا ، فان تطبيق النضال الطبقي يولد الضرورة الى التبرير والتأسيس الفكري للمصلحة الطبقية ــ الى ايديولوجيا للطبقات • والايديولوجيا أيضاً تنتج عن فعل القوانين الموضوعية للتطور الاجتماعي وتفيد كشرط موضوعي ضروري لتحقيقها • لكنها تبرز مباشرة كتعبير روحي عن مصالح الطبقات المتصارعة •

ـ ان الوعي الاجتماعي في التشكيلات التناقضية يشمل ايديولوجيا الطبقات المختلفة حيث تكون ايديولوجيا الطبقة المسيطرة هي الايديولوجيا السائدة دائماً •

وان الوعي الانساني لقادر مبدئياً على أن يعكس الواقع الموضوعي عكساً صحيحاً • وان العكس الصحيح للواقع هو أحد الشروط الضرورية « لتبادل الأشياء » بين الطبيعة والمجتمع ، وأحد الشروط اللازمة لتحقيق عملية العمل كنشاط هادف للانسان •

وان هذه الامكانية تتحقق في التاريخ في تطور المعرفة على أساس النشاط العملي • ان وعي الانسان يعكس الطبيعة والحياة الاجتماعية بصورة موضوعية تتناسب طرداً مع اعتماده على التطبيق العملي وحاجاته ومتطلباته ، ومقدار مايكشف هذا التطبيق عن صحته • ومع تطور المجتمع تتقدم المعرفة ، ويحدث تراكم للمعارف العميقة الموضوعية عن الطبيعة والمجتمع • ان المعرفة العلمية هي أعلى أشكال المعرفة الذي يكشف عن جوهر الأشياء والقوانين والأسباب الموضوعية •

لكنه حتى العلم نفسه لايجوز اعتباره كمجموعة من الحقائق الموضوعية ، ففيه نلتقي بكثير من النظريات الخاطئة والفرضيات الكاذبة • فمثلا ان نظرية مولد الحرارة وفرضية الأثير في الفيزياء ، نظرية فلوغيستون في الكيمياء ، ونظرية التكوين وعدم تغير النوع في البيولوجيا وغيرها ، ألغي بعضها وصحح بعضها الآخر بتطور العلم فيما بعد • ان النظريات الكاذبة في العلم هي ضياع في البحث عن الحقيقة • ويفسر ظهورها بأسباب مختلفة ، وبتعقيد عملية المعرفة ذاتها كعملية ديالكتيكية متناقضة لتقريب التفكير من الموضوع ، وبحدود النشاط العملي الاجتماعي ، وبالتأثيرات الايديولوجية المختلفة •• الخ •

وتحتوي العملية الايديولوجية أيضاً على الانعكاس الصحيح والانعكاس المشوه للواقع • ففي ايديولوجيا الطبقات السابقة للبروليتاريا كانت ثمة عناصر

ـ قلت أو كثرت ـ للمعرفة الموضوعية • لكنه لم تكن أيـة ايديولوجيا منها علمية بحق • وان مايعبر عن الانعكاس المشوه للواقع في الايديولوجيا هـو الدين ، والفلسفة المثالية ،والفهم المثالي للتاريخ ،والأوهام السياسية والحقوقية والأخلاقية المختلفة•••ولايجوز أن نعتبر هذا الانعكاس المشوه للواقع عفوياً ، لأن له دوافعه المادية • فما هي تلك الدوافع ؟

مع نشوء علاقة السيطرة والخضـوع ، وعندما أضحت مصالح الطبقة السائدة هي العامـل المحرك للانتاج الاجتماعي ، أصبـح الجوهر الحقيقي للعلاقات الاجتماعية يظهر على سطح الحياة الاجتماعية بشكل مشوه • فالعلاقات الاقتصادية تتوضع بين الناس لصالح تطوير الانتاج ، وتتحدد أهداف الطبقات المختلفة بالانتاج ذاته • الا أن نشاط الجماهير الكادحة والانتاج يظهران على سطح الظواهر كوسيلة لتحقيق أهداف الطبقة السائدة وحسب •

ان انفصال العمل الفكري عن العمل العضلي الذي ظهر مـع انقسام المجتمع الى طبقات يخلق امكانيات نوعية من أجل تشويه انعكاس الواقع في الايديولوجيا • وفي تلك الظروف عندما ينفصل العمل الفكري عن العضلي وتقع جماهير الشغيلة تحت وطأة واحتكار الطبقات المستغلة المسيطرة ، ويكون العمل الفكري تحت رحمة تلك الطبقات التي تقوده وتوجهه وتسخره لخدمة مصالحها ، عند هذا كله يتجلى العمل الفكري ظاهرياً كشيء ما أولي محدد وكأساس لكل نشاط الناس التاريخي الاجتماعي ، بينما يتجلى نشاط جماهير الكادحين،الانتاجي المادي كشيء ما ثانوي مرتبط ارتباطاً كلياً بمخططات وأوامر الايديولوجيين والسياسيين والمشرعين ومديري الانتاج • وعن هذا ينتج أن الذي يولد ويحدد الوعي ليس النشاط العملي المادي ، بل ينتج العكس ، أي أن الوعي هو الذي يحدد نشاط الناس المادي وبهذا فان الوعي ينفصل عن الواقع الموضوعي ويتناقض معه • « وهنا (يتمكن) الوعي فعلا من أن يتمثل نفسه كموجه للعمل الواقعي • وهنا (يتمكن) الوعي بالفعل من أن ينفصل عن العالم ليحوك نظرية دينية أو فلسفية أو أخلاقية « صافية » ••• الخ »[1]•

---

(١) ماركس وانجلس • المؤلفات الجزء ٣ ص ٣٠ •

ثم ان انفصال العمل الفكري عن العمل العضلي يعني ابراز الأول في ميدان خاص ومستقل نسبياً من ميادين النشاط • وتبدو العملية الفكرية كنتيجة لنشاط الفكر المستقل ، ويصبح استقلال العملية الروحية النسبي استقلالا مطلقاً ،وينعدم هنا فهم العلاقة بين الوعي والواقع ،ويبرز تطور الوعي الاجتماعي لا كعامل ضروري مشروط مادياً وكجانب من العملية التاريخية الاجتماعية ككل ، وانما كعملية لها استقلالها المطلق وتحدد سير التاريخ •

وهكذا فان فصل العمل الفكري عن العمل العضلي لابد سيولد الأوهام الموحية بالدور المحدد للعمل الفكري في تطور المجتمع ، وباستقلاله المطلق • وان هذه الأوهام تناسب مصالح الطبقات المستغلة لأنها تخفض من النشاط المادي لجماهير الكادحين ، وتفرز دورها الخاص في حياة وتطور المجتمع •

وأخيراً ، فان الطبقات المستغلة كانت تؤلف دائماً مجموعة من الناس ذوي مصالح خاصة تختلف عن مصالح الكادحين • لكن ايديولوجيي الطبقة المستغلة يسعون الى اظهار مصلحتهم ممثلة للصالح العام ، أي الى تقديم ايديولوجيات لطبقتهم تمثل الانسانية كلها وتقف فوق الطبقات •

وفي تلك الفترات التاريخية ، عندما لم تكن الطبقة المستغلة قد توصلت الى السيطرة بعد وانما كانت لاتزال تناضل من أجلها ، وعندما كانت مصلحتها بالفعل والى حد ما تنسجم ومصلحة الأكثرية ، فان الايديولوجيين التقدميين لهذه الطبقة كانوا يصورون باخلاص مجتمع المستقبل بصورة مثالية ، ويصورون النضال من أجل تثبيت سيطرة تلك الطبقة دونما أية مواربة نضالا من أجل الحقيقة التي تهم الانسانية جمعاء ، من أجل العقل والعدالة •

فلقد كان كل من ديكارت ، وسبينوزا ، ولاميتري ، وغولباخ ، وديدرو ايديولوجياً بورجوازياً ، لكن الانسانية التقدمية بأسرها تنظر اليهم ــ ومعها كامل الحق ــ كرجال كرسوا أنفسهم في الواقع لخدمة الحق والعدالة •

ويختلف الأمر مع الطبقة المستغلة التي توطدت سيطرتها • فلقد صار هم هذه الطبقة أن تحافظ على النظام الاقتصادي القائم الذي يؤمن لها السيطرة

وتجعل منه نظاماً خالداً لا يحول • لكن بما أنه لم يوجد ـ ولن يوجد ـ ذلك النظام الاقتصادي الخالد ، فقد ظهر التناقض بين مصالح الطبقة المسيطرة والواقع • وفي هذه الشروط يسلك ايديولوجيو الطبقة المسيطرة طريق التشويه الصريح للواقع ، ويستعيضون عن البحث العلمي الحر بالمديح المنافق الرخيص •

ويتضح مما سبق أنه لاينبغي المطابقة بين تطور الايديولوجيا وتطور المعرفة في المجتمع الاستغلالي ، كما أنه لاينبغي اعتبار التشويهات الايديولوجية مجرد محاولات ضالة في البحث عن الحقيقة •

ان أساس المعرفة هو حاجيات نشاط الناس العلمي التاريخي الاجتماعي الموضوعي ، ومهمتها كشف القوانين الموضوعية وادراك الحقيقة • والعلم ، عندما ينفصل عن النشاط ويتوقف عن خدمة معرفة الحقيقة ، يتحول الى علم كاذب ، ويفقد جدارته النوعية •

وان أساس العملية الايديولوجية في المجتمع الطبقي هو مصالح الطبقات الناجمة عن وضعها في المجتمع وعن شروط الحياة ؛ ومهمتها المباشرة التعبير الروحي عن تلك المصالح وتبريرها •

وبمقدار ما تتناقض مصالح هذه الطبقة مع متطلبات التطور التقدمي للمجتمع ، مع مصالح الأكثرية الكادحة ، بقدر ما يلجأ ايديولوجيوها الى طريق تشويه الواقع ، بغض النظر عن أن ذلك يتم عن وعي أم عن غير وعي •

ويحاول الانتهازيون المعاصرون تشويه الفهم الماركسي للايديولوجيا وعلاقتها بالعلم • فهم يعتبرون الايديولوجيا « انعكاساً طبقياً مشوهاً للواقع الاجتماعي » ووعياً كاذباً ، وشيئاً ما ذاتيا ضيقا مناقضا للعلم • فهم يرفضون الايديولوجيا « باسم العلم » ، ويطالبون بتحرير العلم من تأثير الايديولوجيا • ان الانتهازيين يحدثون كل هذا من أجل أن « يبرهنوا » على أن الماركسية اللينينية ليست علماً ويمكن تصنيفها مع الوعي الشائه والقاؤها بعيداً بين المهملات •

ان الماركسية اللينينية هي ايديولوجيا بالفعل ، لكنها ايديولوجيا علمية لا تعطي انعكاساً مشوهاً للواقع ، وانما انعكاساً موضوعياً حقيقياً له • ومعنى هذا أنه من أجل حل المسائل القائمة أمام الطبقة العاملة لايمكن أن يفيد غير الايديولوجيا التي تعكس موضوعياً العمليات الجارية في الواقع وقوانين هذا الواقع • وان الحد من العملية المعرفية والعملية الايديولوجية بوجه عام يجب ألا نربطه فقط بالتناقض بين الوعي العملي والوعي المشوه • وان ايديولوجيي الطبقات التقدمية كذلك كانوا يعتمدون في الماضي الى حد ما على العلم ويستخدمون معطياته لأهدافهم الطبقية • ولهذا ففي الايديولوجيا السابقة للماركسية أيضاً كانت تتطور عناصر المعرفة العلمية ، كالمادية والديالكتيك مثلا • لكن ايديولوجيا طبقة البروليتاريا التي تنسجم مصالحها الذاتية بكليتها مع مصالح التطور التقدمي للمجتمع هي وحدها التي صارت ايديولوجيا علمية بالفعل ولأول مرة • فهي تجمع بين العلمية الرفيعة الصارمة وبين الطبقية والحزبية والثورية •

ولقد كان ماركس وانجلس ولينين يؤكدون دائماً على أن النقد العلمي الواقعي للوعي الوهمي يجب ألا يقتصر على بيان تناقضه مع الوعي العلمي ، بل يتطلب أيضاً شرح أصله ، وحتمية نشوئه في ظروف اجتماعية معينة ، وامكانية ظهوره المستقرة في عملية المعرفة ذاتها ، وأخيراً ، بتصفيته مع الابقاء على ماهو ايجابي فيه ان كان ثمة شيء من هذا القبيل •

وعن المبدأ المادي لدور الواقع الاجتماعي المحدد للوعي الاجتماعي ينتج أن التغيرات الجارية في الوعي الاجتماعي ـ ظهور أفكار ونظريات ونظرات جديدة ، واستبدال أفكار بأخرى ••• ـ مشروطة بتغيرات الواقع الاجتماعي• ولدى الانتقال من تشكيلة اجتماعية الى أخرى يحدث انعطاف في الوعي الاجتماعي أيضاً •

الا أن الوعي في المادية التاريخية ليس انعكاساً جامداً للواقع يتبع تبدلاته بصورة أوتوماتيكية • ان انعكاس الواقع في الوعي الاجتماعي للناس هو عملية معقدة ومتناقضة • ولدى تحليله لابد من الأسلوب الديالكتيكي ومعرفة

الاستقلال النسبي في تطور الوعي والفوارق الموجودة بين العملية الايديولوجية والعملية المعرفية •

والايديولوجيا ، اذ تعكس وضع ومتطلبات ومصالح الطبقات المختلفة ، تخضع في تطورها لقوانين البنيان الفوقي وعندما تنزاح هـذه الطبقة أو تلك عن الصعيد التاريخي فانها تفقد تدريجياً تأثيرها والنظرات والأفكار الاجتماعية والنظرات التي تعبر بها عن فهمها للواقع وعن مصالحها •

ففي المجتمع العبودي كانت ايديولوجيا مالكي العبيد هي الايديولوجيا المسيطرة • ومع الانتقال من المجتمع العبودي الى المجتمع الاقطاعي حلت الايديولوجيا الاقطاعية محلها ، وفي المجتمع الرأسمالي تسود الايديولوجيا البورجوازية • ان خاصة التطور الايديولوجي هي في أن كل طبقة جديدة تخلق ايديولوجيتها ؛ ومع تغير وضع هذه الطبقة ومصالحها تحدث تغيرات في ايديولوجيتها • هكذا مثلا في عصر النهضة وحتى بداية القرن التاسع عشر تم تشكيل الايديولوجيا البورجوازية في أوروبا في النضال ضد الايديولوجيا الاقطاعية • وعندما توطدت سيطرة البورجوازية حدثت تغيرات هامة في ايديولوجيتها : فقد تخلت عن الأفكار الثورية ، ووقفت ضد المادية ، وانهمكت بالثناء على الرأسمالية وبالنضال ضد النقد الاشتراكي الثوري لعيوب ونظم المجتمع الرأسمالي • ولقد كان الانتقال الى الامبريالية مرتبطاً بتقوية الرجعية في ميدان الايديولوجيا • وان ايديولوجيي الرأسمال الاحتكاري لايقفون فقط ضد الماركسية ، وانما ضد الأفكار الديموقراطية ـ البورجوازية كذلك ، ويعتنقون النظرات الفاشية ومايفضي اليها •

لماذا تضطر كل طبقة لأيجاد ايديولوجيتها الخاصة ؟ لأن لكل طبقة وضعها الموضوعي الخاص ، ولأن كل طبقة تحل قضاياها التاريخية الخاصة بها • ومن أجل حل تلك القضايا لاتتمكن الطبقة من استخدام الايديولوجيا القديمة التي وجدت من أجل حل قضايا أخرى ، وهذه القضايا ناجمة بالدرجة الأولى عن تطور أسلوب الانتاج • ان التناقض بين القوى الانتاجية النامية والعلاقات الانتاجية القديمة في التشكيلات الطبقية تستدعي دائماً ضرورة القضاء

على العلاقات القديمة والطبقات المرتبطة بها • ان التناقض بين قـوى الانتاج وعلاقـات الانتـاج في المجتمـع الاقطاعي يولد ضرورة استبداله بالمجتمـع الرأسمالي • والتناقض بين قوى الانتاج وعلاقات الانتاج في المجتمع الرأسمالي يولد ضرورة استبداله بالمجتمع الاشتراكي •

ان الأفكار والنظريات والنظرات الاجتماعية الجديدة تنشأ كانعكاس للنزاع المعين تاريخياً بين القوى الانتاجية النامية والعلاقات الانتاجية القديمة من مواقف الطبقات المناضلة من أجل حل هذا النزاع •

وينبغي ألا نخلط بين السؤال السابق وهذا السؤال : كيف تخلق الطبقة ايديولوجيتها ؟ ان الايديولوجيا الجديدة لاتقوم على فراغ ، بل عـلى أساس استخدام هذه المادة الفكرية وهذا الاحتياطي من المفاهيم والتصورات الـذي تراكم خلال سـير التطور السابق • والتواصل المستمر يلعب دوره في تطور الايديولوجيا•ان حقيقة التواصل هي أحد تعابير الاستقلال النسبي للايديولوجيا كظاهرة اجتماعية لها خصائصها • ولدى تحليل التواصل الايديولوجي نلتقي بالحقيقة القائلـة بأنه عنـد خلق ايديولوجيا جديدة يؤخذ قسـم من أفكار الايديولوجيا السابقة ويستخدم في الشروط الجديدة ، ويهمل الباقي • وان طابع التواصل هـذا ، أي شكل التغير الذي يطرأ عـلى الايديولوجيا يتحدد بالشروط التاريخية •

ان أساس التواصل الفكري هو تتابع في تطور الحياة المادية للمجتمع • وان العلاقة والتتابع في تطور التشكيلات الاقتصادية الاجتماعية تجد انعكاسها في علاقة الايديولوجيات • وبالاضافة الى ذلك ، ففي كل المراحل المختلفة للتطور التاريخي يمكن ايجاد سمات وجوانب مشتركة قليلة أو كثيرة فيما بينها جميعاً• وهذا مايلاحظ خاصة في التشكيلات الطبقية المتناقضة • وبالرغم من أن أشكال الاستغلال والطبقات ونموذج الدولة ••• تتغير عند الانتقال من تشكيلة طبقية الى أخرى ، الا أن الاستغلال وانقسام المجتمع الى طبقات متصارعة ، ووجود الدولة كأداة للسيطرة الطبقية كل هـذا يبقى دونما تغيير • وان الظواهر الاجتماعية والعلاقات فيما بينها تنعكس وتتوطد في مفاهيم ونظم معينة • ولما

يتغير الطابع المحسوس للظواهر الاجتماعية المعينة في التاريخ وتبقى الظواهر (كالطبقات مثلا) فانه في الايديولوجيا أيضاً يتغير المحتوى المحسوس للمفاهيم في حين أن المفاهيم ذاتها تبقى ما بقيت الظواهر التي تعكسها • ان ايديولوجيا الطبقات الجديدة تعكس الشروط التاريخية المتبدلة ، وتناقضاتها الخاصة ، وتبرز القضايا الناضجة ، لكنما تعكسها وتشكل متطلباتها في مفاهيم موروثة وموضوعة في ظروف تاريخية سابقة • لذلك فان المحتوى الذي يتمثل في المفاهيم تحدده دائماً شروط تاريخية محسوسة • وينتج عن هذا أن المادة الفكرية ، اذ تنتقل من عصر الى عصر ، يصبح لها محتوى جديد في شروط تاريخية جديدة •

ان طلب المساواة ، مثلا ، كان يبرز في عصور مختلفة • لكنما في المسيحية الأولى التي كانت تمثل ايديولوجيا العبيد كانت المساواة تعني أن الناس جميعاً سواء بين يدي الله • وفي الثورات البورجوازية صارت المطالبة بالمساواة تعبر عن النضال ضد الامتيازات الاجتماعية للاقطاعيين • والمساواة تعني بالنسبة للبروليتاريا القضاء على الطبقات •وان مفاهيم الحرية والديموقراطية والعدالة ••• هي أيضاً مفاهيم مشروطة تاريخياً • فحساب المصالح الحقيقية للطبقات الفعالة في التاريخ يبين لنا الأفكار التي تستخدم والأخرى التي تهمل ويلقى بها • فايديولوجيو الطبقات المستغلة يقاومون تلك الأفكار الرجعية بالذات من الايديولوجيا السابقة ويكيفونها حسب مصالحهم • ان ايديولوجيي الامبريالية المعاصرة يصطفون ويستخدمون أفكار الماضي المغرقة في الرجعية ويبعثون سرابات القرون الوسطى وترهاتها ليقارعوا بها الماديين والانسانيين والمنورين السابقين •

ففي عام ١٨٧٩ أعلن بابا روما «ليو» الثالث عشر عن تعاليم «فوما أكفينسكي» بأنها « فلسفة اليوم الحقيقية للكاثوليكية » • وان الفلاسفة البورجوازيين المعاصرين حسب الظروف المادية الملموسة يؤيدون ويروجون تخيلات أفلاطون الرجعية ، والنظريات المثالية الذاتية للقس الانكليزي بركلي (القرن الثامن عشر) والمضلل الدانماركي كيركهارد (القرن التاسع عشر) ••• وبالطبع

ان بعث أفكار الرجعية بهـذا القدر أو ذاك لايمت بشيء الى تقدم المعرفـة العلميـــة •

وعلى العكس ، ان الطبقات التقدمية في ايديولوجيتها ترتكز على أفكار الماضي التقدميـة بعد أن تعطيهـا مضموناً جديداً • فلقد بعث ايديولوجيـو البورجوازية الناهضة الأفكار الانسانية والمادية للعالم القديم وطوروها ليجابهوا بها ايديولوجيا القرون الوسطى •

وهكذا ، فان تطور الأفكار الاجتماعية وخلق الايديولوجيا الجديدة يتم عن طريق تأثير الاقتصاد عـلى المادة الفكرية المتوفرة وتكييفها مـع الشروط التاريخية الجديدة • وبهذا المعنى كتب انجلس يقول ان الاقتصاد لا يأتي بأي جديد في تطور الفلسفة ، وانما هـو يحدد شكل تغير وتطور المادة الفكرية المتوفرة[١] •

وينبغي ألا ننسى كذلك أن تغير الأفكار ليس انعكاساً أوتوماتيكياً لتغير الشروط الموضوعية ، فان هذه الأخيرة تقوم فقط بتحديد التغيرات والعلاقات وتتابع الأفكار • وان طابع انعكاس الواقع في الايديولوجيا يحدده الموضوع قبل أي شيء آخر • الا أن هذا الانعكاس يتأثر الى حد كبير أيضاً بما تجمع في الماضي من تصورات وما نشأ من أشكال لانعكاس الواقع • وان كـــل ايديولوجي مضطر لقبول هذا بوعي منه أو بدون وعي •

ان التواصل في الايديولوجيا هو عامل ضروري ومهم في التطور التاريخي • ولو انعدم هذا التواصل لصار ضرورياً ، من أجل عكس الواقع في كل مرة ، خلق جميع المفاهيم من جديد ، ولا يعود ايديولوجيو الطبقات الجديدة يفيدون من نتائج العمل الفكري المجرد الطويل الذي قامت به الأجيال السابقة ، ولانعدمت تلك النتائج بكليتها دونما أثر ، ولما تمكنت الايديولوجيا من القيـام بوظائفها الاجتماعية ، ولصار من العسير جداً أن يتقدم المجتمع •

وعلاوة على عملية نشوء وتبدل الايديولوجيات المختلفة تجري في التاريخ عملية متسارعة للمعرفة العلمية • وان العمليـة لاتتحقق فقط في سير تطور العلوم الموضوعية ، بل ، والى حد ما ، في حقل الايديولوجيا أيضاً •

---

(١) ماركس وانجلس • رسائل مختارة ص ٤٣٠ •

ان أساس تقدم المعرفة هو متطلبات نشاط الناس الانتاجي والاجتماعي التاريخي • وان المعارف الموضوعية الحاصلة على هـذا الأساس في فترات تاريخية معينة هي ملك للمجتمع الذي لايتخلى عنها رغم محاولات الطبقات الرجعية محاربة منجزات العلم التي تتعارض مع مصالحها ونظراتها الى العالم • وليس ثمة داع لاعادة اكتشاف القوانين المكتشفة كقانون نيوتن مثلا وجدول مندلييف ، أو نظرية القيمة القائمة على العمل لسميت وريكاردو • وان تقدم العلم لايكون برفض المعارف المتوفرة ، بل بالاستناد اليها وبتطويرها وتعميقها • وحينذاك يتمكن العلم من خدمة متطلبات النشاط العملي المتنامي • لذا فان التتابع في المعرفة العلمية هـو شرط ضروري لتقدم المعرفة الانسانية ولسيرها من الحقيقة النسبية الى الحقيقة المطلقة •

وهكذا ينبغي التمييز بين التواصل في الايديولوجيا والتواصل في المعرفة العلمية ،فالتواصل قائم هنا وهناك•لكن التواصل في المعرفة يعني الحفاظ على كل المعارف الموضوعية الحاصلة سابقاً واستخدامها•والتواصل في العملية الايديولوجية يعني الحفاظ على المادة الفكرية التي لايستخدم منها الا ما يتناسب مع مصالح هذه الطبقة أو تلك ، والتي يتحدد محتواها بشروط العصر •

ان ظهور الماركسية هو الانعطاف الثوري الحاسم في حقل الايديولوجيا لأن الايديولوجيا هنـا ، اذ تعبر عن مصالح البروليتاريا ، تصبح علماً لأول مرة • والماركسية مرتبطة بالتطور الروحي السابق للمجتمع • وهذه الرابطة تحمل ، قبل كل شيء ، طابع التواصل العلمي•ان الماركسية تستخدم الموضوعية التي كانت متوفرة في الايديولوجيا السابقة • والى جانب هذا فالماركسية ترث عن الايديولوجيا الماضية المادة الفكرية التي تعالجها من وجهة نظر نقدية وتعطيها مضموناً علمياً جديداً • ان ايديولوجيا الماركسية ، اذ تستخدم المادة الفكرية المتوفرة وتنفذ بواسطتها الى الأفكار السابقة من حيث الشكل ، تنفصل بمحتواها انفصالا كلياً عن الايديولوجيا السابقة • فقد كتب ماركس وانجلس : « ان الثورة الشيوعية هي انقطاع صارم عن علاقات الملكية الموروثة عن الماضي ، وليس غريباً أن تنفصل في سير تطورها عن الأفكار الموروثة عن الماضي »[١] •

---

(١) ماركس وانجلس ، مؤلفات مختارة • الجزء ١ ص ٢٧ •

الوعي الاجتماعي والوعي الفردي

ان الوعي الفردي هو العالم الروحي للفرد • والوعي الاجتماعي لا ينفصل عن وعي الأفراد ، لكن هذا الأخير ليس جزيئة بسيطة من الوعي الاجتماعي • ويتكون وعي الفرد في عصر ما تحت تأثير شروط الحياة العامة لذلك العصر وللطبقة وللأمة • فالوعي الفردي هو الوعي الذي تتجمع فيه سمات عامة لوعي زمن معين ، وسمات خاصة ترتبط بالانتماء الاجتماعي للفرد ، وسمات شخصية مشروطة بالتربية والملكات وبشروط الحياة الخاصة للفرد •

ولذا فعمومية السمات الملازمة لوعي زمن معين وطبقة وأمة وفئة اجتماعية ما لاتنفي تنوع الوعي الفردي في الأطر المحددة بهذه العمومية ، حتى أنها لاتنفي التناقضات بين الوعي الفردي والوعي الاجتماعي • وتؤكد الحقائق أن كثيراً من الناس الذين ينتمون من حيث تكوينهم الطبقي الى البورجوازية يتنكرون لطبقتهم ويناضلون ضدها الى جانب البروليتاريا • ويحدث العكس كذلك ، فكثير من القادة الانتهازيين للحركة الديموقراطية ــ الاشتراكية يخونون مصالح الطبقة العاملة التي خرجوا من صفوفها ويقومون بدور العمالة للبورجوازية في الحركة العمالية • وان انتقال الانسان من مواقع طبقة الى أخرى يفسر بخصائصه الفردية الى جانب ما لهذه الظاهرة من أسباب اجتماعية أخرى •

ان الوعي الفردي والوعي الاجتماعي موجودان في وحدة دياليكتيكية • وينشأ الوعي الاجتماعي ويتطور ويغنى بواسطة الأفراد ، ولذا فهو يحمل آثار خصائص الأفراد المشتركين في تكوينه •

ومن جهة أخرى فان وعي الفرد ، بصرف النظر عن سماته الفردية الخاصة ، هو في جوهره وعي اجتماعي لأن كل فرد هو نتاج الشروط الاجتماعية لحياة عصره •

أشكال الوعي

يوجد الوعي الاجتماعي ويتجلى في أشكال مختلفة •

فبماذا يفسر تنوع أشكال انعكاس الواقع في الوعي الاجتماعي ؟

يتحدد تنوع أشكال الوعي الاجتماعي بغنى وتنوع العالم ذاته ـ الطبيعة والمجتمع • وان الأشكال المختلفة للوعي تعكس مجالات وجوانب مختلفة للواقع • فالأفكار السياسية ، مثلا ، تعكس العلاقات بين الطبقات والأمم والدول؛ ويتعرف العلم على القوانين الموضوعية للطبيعة والمجتمع ؛ وتنظر الفلسفة الى العالم من زاوية وحدته الداخلية وسماته وقوانينه العامة الشاملة • ويتحدد الموضوع كمحتوى لهذا الشكل من الوعي وكخاصة لشكل الانعكاس ذاته (المفهوم العلمي ،القاعدة الأخلاقية ،الشخصية الفنية ،الوهم الديني ••الخ••)•

وفي تطور الوعي الاجتماعي في أشكاله المختلفة يتكدس احتياطي خاص من المفاهيم والتصورات التي تعكس وتبين خصائص الموضوع لهذا الشكل من الوعي أو ذاك •

ان غنى وتنوع الموضوع يخلقان فقط امكانية ظهور الأشكال المختلفة للوعي الاجتماعي • وان الأساس الحقيقي لظهور هذه الأشكال من الوعي الاجتماعي أو تلك هو الحاجة المادية • فلقد ظهر العلم ، مثلا ، في مرحلة معينة من الانتاج الاجتماعي عندما كان تراكم المعارف الأولية لايكفي لدفعه في طريق التقدم ؛ وتنشأ الأفكار السياسية والحقوقية مع ظهور الملكية الخاصة والطبقات والدولة لتثبيت وتوطيد علاقات السيطرة والخضوع ••• ويحدد طابع الحاجة الاجتماعية الدور الموضوعي الذي يقوم به هذا الشكل للوعي الاجتماعي في تطور المجتمع •

لذا ،فان ظهور الوعي الاجتماعي بمجموعه ونشوء أشكاله المختلفة يفسر بغنى العلاقات الواقعية وبتنوع حاجات الانسان الاجتماعي • وتتميز أشكال الوعي الاجتماعي أحدها عن الآخر بالموضوع الذي تعكسه ، وبشكل الانعكاس (كيف ينعكس الموضوع) ، وبالأساس الاجتماعي للظهور ، وبخصائص تطورها ، وبالدور الذي يضطلع به كل منها في حياة المجتمع • وان جميع أشكال الوعي الاجتماعي في كل تشكيلة اجتماعية مرتبطة فيما بينها وتؤلف بمجموعها الحياة الروحية لهذا المجتمع أو ذاك • وينبغي علينا ، اذ ندرس تطور الوعي الاجتماعي ، ألا نغفل عن التأثير المتبادل بين أشكاله المختلفة •

هكذا مثلا فان الايديولوجيا السياسية التي تعبر تعبيراً مباشراً ومركزاً عن الاقتصاد تؤثر تأثيراً مباشراً ومحدداً أيضاً على الفلسفةوالدين والأخلاقوغيرها من أشكال الوعي •

وتتجلى العلاقة بين العامل الايديولوجي والعامل المعرفي بصورة مختلفة في الأشكال المختلفة للوعي الاجتماعي • فثمة أشكال للوعي ينعدم فيها العامل المعرفي ، أي عامل المعرفة الموضوعية كالدين مثلا ؛ وثمة أشكال للوعي تكون بطبيعتها ايديولوجية وتحتوي على العامل المعرفي ـ كالايديولوجيا السياسية والوعي الحقوقي والاخلاقي ؛ وثمة أشكال للوعي تتمثل في وحدة بين العاملين الايديولوجي والمعرفي ـ كالفلسفة والفن (وهذه الوحدة في الفن أصيلة لأنه يعتمد أساس علم الجمال) ؛ وأخيراً ، ثمة أشكال للوعي هي أشكال الواقع الا أنها تحتوي دائماً على العامل الايديولوجي ـ كالعلوم الموضوعية •

وفي المجتمع ليس ثمة معرفة محضة غير مرتبطة بايديولوجيا ، والايديولوجيا مرتبطة دائماً بالمعرفة ـ باستثناء الدين • ولحساب هذا أهمية خاصة لدى تحليل الأشكال الحسية للوعي الاجتماعي •

وأخيراً ، ينبغي علينا أن نأخذ بعين الاعتبار عاملا آخر في دراستنا لأشكال الوعي الاجتماعي • ان لاختلاف أشكال الوعي الاجتماعي أساساً موضوعياً • لكنما ينبغي ألا نجعل من هذا الاختلاف اختلافاً مطلقاً • فأشكال الوعي ليست فقط مرتبطة ببعضها ، بل ، والى حد ما ، ينفذ أحدها الى الآخر • فالفلسفة ، مثلا ، هي شكل من أشكال الوعيالاجتماعي قائم بذاته ،وفي الوقت نفسه فنحن ننظر اليها كعلم أيضاً • وانالنظريتين الحقوقيةوالسياسية تتعلقان بشكلي الوعي الحقوقي والسياسي وبالعلوم الأجتماعية ؛ ثم ان الدين يحتوي على عناصر الأخلاق • ومن جهة أخرى فان النظريات الأخلاقية ، اذ هي عامل في الوعي الأخلاقي ، هي أيضاً أحد أقسام الفلسفة•وان هذا التداخل المتبادل بين أشكال الوعي لابد من الوقوف عليه عند الدراسة •

تلك هي مسألة تطور الوعي الاجتماعي وأشكاله المختلفة •

الفصل الثاني

الايديولوجيا السياسية

ان الايديولوجيا السياسية هي شكل الوعي الاجتماعي الذي تجد فيه المصالح الاقتصادية المادية للطبقات تعبيراً تاماً مباشراً عنها •

وينعكس نضال الطبقات في الايديولوجيا ، قبل كل شيء ، في الصراع بين نظراتها السياسية ، وهو في المجتمع المعاصر ينعكس في الصراع بين الأفكار السياسية الاشتراكية والبورجوازية • فالأولى تخدم القضايا التقدمية في خلق وتطوير المجتمع الاشتراكي الجديد ، والثانية موجهة للابقاء على النظام الرأسمالي البالي القديم • وان الطبقات وأحزابها تتسلح بايديولوجيتها السياسية في نضالها السياسي الذي هو الشكل الرئيسي للصراع الطبقي •

ان القائد السياسي للشعب السوفييتي في نضاله من أجل الشيوعية هو الحزب • فسياسة الحزب الشيوعي هي القوة القائدة والموجهة لتطور المجتمع السوفييتي والتي تلعب الدور الاكبر في حياته • وان الايديولوجيا السياسية لاتنفصل عن العلاقات السياسية بين الطبقات وعن نشاط الدولة والأحزاب السياسية • فلندرس خصائص الايديولوجيا السياسية كشكل معين للوعي الاجتماعي ،ومكانها بين الظواهر الاجتماعية الأخرى ،ودورها في تطور المجتمع•

١ ـ خصائص الايديولوجيا السياسية

ان الايديولوجيا السياسية هي شكل الوعي الاجتماعي الذي تنعكس فيه المصالح الجذرية للطبقات المتصارعة ، والعلاقة فيما بينها ، وعلاقتها بالسلطة، وبالمنظمة السياسية الاجتماعية في هذا المجتمع أو ذاك وفي هذه المرحلة أو تلك

من تطوره ، وأخيراً ، علاقتها بالمجتمعات والدول الأخرى • وعلى صعيد الايديولوجيا السياسية تتكون الأهداف الطبقية العامة والمهمات والبرامج السياسية التي تتحقق في صراع الطبقات وفي نشاط المؤسسات والمنظمات السياسية •

ففي « بيان الحزب الشيوعي » ، مثلا ، الذي وضعه ماركس وانجلس تتحدد الأهداف السياسية للنضال الطبقي للبروليتاريا في المجتمع الرأسمالي •

ان النظرات السياسية تنبثق من مصالح الطبقات ، وتعبر عنها روحياً وتحمل الطابع الايديولوجي • والى جانب هذا ففي الايديولوجيا السياسية لهذه الطبقة أو تلك يمكن أن تستخدم المعطيات الموضوعية للعلوم الاجتماعية اذا لم تتناقض مع مصالحها ، وتتجمع عناصر المعرفة للعلاقات الاجتماعية • وفي سير نضال الطبقات كانت تنشأ النظريات السياسية المختلفة التي كانت تتحقق فيها ، في أوضاع طبقية معينة ، معرفة المنظمة السياسية للمجتمع وتوضع الأسئلة عن جوهر الدولة والحق ، وأشكال الدولة ودورها في حياة المجتمع ، وعن العلاقة بين الفئات الاجتماعية المختلفة ومكانها في المجتمع •

وتجدر بنا الاشارة الى أنه ما من أحد أعطى جواباً علمياً عن هذه الأسئلة قبل الماركسية ، لأن البروليتاريا لم تكن قد ظهرت بعد على مسرح التاريخ كطبقة يمكننا من وجهة نظرها فقط أن نحلل الظواهر الاجتماعية تحليلا علمياً • والايديولوجيا الماركسية السياسية وحدها تحمل الطابع العلمي بكليتها ، وترتكز على الواقع الموضوعي ، وتنطلق من الحساب الدقيق للحقائق الواقعية وقوانين التطور الاجتماعي •

ان لكل ايديولوجيا سياسية سماتها العامة التي تعبر عن المصالح الجوهرية للطبقة ، لكنها ، الى جانب هذا ، تعكس التغيرات التي تطرأ على وضعها بالنسبة للقوى الطبقية الأخرى •

ان المصلحة الجذرية لأية طبقة كانت هي في ابقاء وتوطيد تلك القاعدة التي تؤمن لها السيطرة ، وفي سحق مقاومة الطبقة المضطهدة واخضاعها • وان هذا الهدف الأساسي يحدد محتوى الوعي السياسي للطبقة السائدة ونشاط المؤسسات السياسية التابعة لها •

وهكذا ، فالذي يميز الايديولوجيا السياسية للبورجوازية هو تلك الأفكار التي تبرر العلاقات الاقتصادية والسياسية في المجتمع الرأسمالي ، وتوطد دكتاتورية البورجوازية ، وتدافع عن أشكال التنظيم السياسي للمجتمع في هذه الشروط الموضوعية أو تلك • وقد ورد في برنامج الحزب الشيوعي الجديد أن « السلاح السياسي الفكري الرئيسي للامبريالية هو العداء للشيوعية الذي يؤلف محتواه الأساسي التهجم على النظام الاشتراكي ، وتزييف سياسة وأهداف الأحزاب الشيوعية ، وتشويه النظرية الماركسية اللينينية » • ان الايديولوجيا السياسية للبورجوازية تعبر عن السياسة الامبريالية القائمة على نهب الشعوب الأخرى واستنزاف ثرواتها ، وعلى محاربة حركة التحرر الوطني وغيرها ، وهي تقوم بتبرير تلك السياسة • وان العرقية والشوفينية والتعصب القومي والكوسموبولوتية تخدم تلك الأهداف •

الا أن الايديولوجيا السياسية للبورجوازية لاتعطي فقط الاهداف الموجهة لنشاط البورجوازية العملي السياسي ،فمهمتها أيضاً في حجب المحتوى الحقيقي لذلك النشاط السياسي الذي تضطلع به البورجوازية والدولةمن أجل اظهار تلك السياسة بمظهر الممثل لمصالح المجتمع كله والموجه من أجل حماية وحفظ « القيم الانسانية » للثقافة والمدنية • والايديولوجيا السياسية للبورجوازية تبهرج الرأسمالية وتصورها كأفضل وأكمل نظام • وهي تنظر الى عيوب وقروح الرأسمالية كظواهر عابرة يمكن التخلص منها في حدود النظام الرأسمالي ذاته • وهي تنفي حتمية النضال الطبقي في الرأسمالية ، وتحجب تناقضاتها عن الأعين وتزين العالم الطبقي للناس ،وتتكلم عن تأمين المصالح الطبقية (وهي في الواقع اخضاع البروليتاريا للبورجوازية) ، وتمجد الحقوق والحريات البورجوازية • وفي العلاقات بين الأمم والدول لاتعترف السياسة

والايديولوجيا البورجوازية بغير القوة ، وهي لاتتعامل الا بها • الا أن الطبقات الاستغلالية تخفي الأهداف الجشعة لسياستها خلف قناع من النوايا « الطيبة » المختلفة •

فالأوساط الحاكمة في الولايات المتحدة الامريكية ، مثلا ، تنتهج سياسة التحضير لحرب عالمية جديدة تستنكرها شعوب العالم أجمع • ولهذه السياسة أهدافها البعيدة : تعزيز وضع الرأسمالية الدولية ، القضاء على الشيوعية واعادة الرأسمالية الى بلدان المعسكر الاشتراكي ، سحق حركة التحرر الوطني لشعوب المستعمرات والبلدان التابعة ، وتحقيق السيطرة الامريكية على العالم كله • لكن هذه الأهداف الامبريالية الرجعية تقبع خلف ستار ضرورة الدفاع عن « العالم الحر » ضد عدوان البلدان الاشتراكية الوهمي ، ومن أجل ضمان خير تلك الشعوب ••• والدعاية الامبريالية لاتألو جهداً في اخفاء النوايا الحقيقية لأساطين رأس المال ، وفي تضليل وخداع الشعوب بالأكاذيب •

ولقد كتب لينين : « ان الاخلاص في السياسة ، أي في ميدان العلاقات الانسانية الذي يتعلق « بأفراد بل بملايين الناس ، هو الانسجام بين القول والفعل »[1] •

الا أن قادة الدول الرأسمالية الكبرى عندما يتحدثون عن السلم ويعملون للحرب ، يتكلمون عن نزع السلاح ويرفضون في الواقع كل خطوة في هذا الاتجاه يتكلمون عن الديموقراطية ويسحقونها في الواقع تحت النعال ، فليس ثمة انسجام بين القول والفعل وانما الذي يحصل هو خلق هوة ليس لها قرار•وما أكثر مايعبر تصريح الدبلوماسي البورجوازي تاليران في هذا الصدد : « لقد منحنا اللسان كيما نخفي أفكارنا » • ولذا فالماركسية تؤكد أن الكلام لايصدق في السياسة ، وأنه لابد في كل حدث معين من كشف المحتوى الطبقي الكامل للسياسة وجوهرها الحقيقي على أساس تحليل العمل السياسي التكتيكي للدولة أو الطبقة أو الحزب •

(١) لينين • المؤلفات • الجزء ٢٤ ص ٥٣٣ •

ان المصلحة الجذرية للطبقة المظلومة هي في تحسين وضعها المادي ، وفي تحريرها من الظلم والاستغلال • ولهذا فالايديولوجيا السياسية للطبقة المضطهدة هي ايديولوجيا نضالها الثوري ضد الطبقة المسيطرة ، ضد نظام السيد والمسود ، وضد البنيان الفوقي السياسي والقانوني الذي يقوم بحمايته •

ان التحديد العلمي لشروط تحرر البروليتاريا وجميع الكادحين من الظلم الرأسمالي تقدمه الماركسية ـ اللينينية • ان الايديولوجيا السياسية الماركسية اللينينية تعلم البروليتاريا التناقض الكامل بين مصالحها ومصالح البورجوازية الطبقية ، وتجعلها تعي المهمة التاريخية العظيمة التي تضطلع بها والمصالح العامة الأممية للطبقة العاملة في كل البلدان ، وتربي فيها شعور التضامن الأخوي في النضال ضد العدو الطبقي ـ البورجوازية ، وفي حل قضايا بناء المجتمع الجديد • فهي ايديولوجيا أممية لاتطيق التعصب القومي • والأممية هي من أهم المبادىء في الايديولوجيا السياسية للأحزاب الشيوعية • ولقد قال خروشوف في خطاب له : « ان حزبنا والشعب السوفييتي يعتبران أن واجبنا الأممي يقضي بتعزيز أواصر الصداقة والتضامن البروليتاري مع القوى الكادحة والقوى الديموقراطية في العالم أجمع ، وتعزيز المعسكر الاشتراكي الجبار ، والنضال دونما كلل من أجل أن يسود السلام شعوب العالم قاطبة » •

ان الايديولوجيا السياسية الماركسية ـ اللينينية مرتبطة ارتباطاً وثيقاً باستراتيجية وتكتيك النضال الطبقي للبروليتاريا • ومبدأها الأساسي هو وحدة النظرية والعمل الثوري التي تتطلب تنسيق المبادىء العامة للايديولوجيا مع الشروط الموضوعية للنضال الطبقي ، مع مهمات البناء الاشتراكي •

ان الأفكار والأهداف السياسية للبروليتاريا تجر نقمة البورجوازية الشرسة • ويشن سياسيوها وايديولوجيوها حرباً لا هوادة فيها ضد الماركسية ـ اللينينية في النظرية وعلى صعيد العمل • وتتخذ هذه الحرب اتجاهات شتى • فمن جهة أولى ـ ان الدعاية البورجوازية تصب سيول كذبها وتخرصاتها على

بلدان المعسكر الاشتراكي فتشوه نظام الحكم فيها ، وتغدق ثناءها على الديموقراطية البورجوازية ، وعلى « النمط الامريكي في الحياة » والثقافة البورجوازية ... الخ ..

ومن جهة أخرى - فان السياسيين البورجوازيين يجدون أنفسهم مضطرين للاعتراف بقوة جاذبية الأفكار الاشتراكية ، فيسعون الى « البرهان » بأن الرأسمالية لم تعد رأسمالية في الوقت الحاضر ، وانما هي شيء ما من قبيل الاشتراكية ، وأنه من الممكن تحسين مستوى معيشة الجماهير المادي في ظل الرأسمالية ، وأنه لم يعد ثمة استغلال في البلدان الرأسمالية ... وكم هي كثيرة مساعي ايديولوجيي الامبريالية الامريكية في هذا المضمار اذ يسمون النظام الاجتماعي الأمريكي « الديموقراطية الاقتصادية » « الرأسمالية الشعبية » ... الخ . ان الرأسمالية أزفت ساعتها كنظام ، وعبثاً يحاول أولاء تعليق يافطة جديدة عليها آملين بأن يجنوا من ذلك بعض الفائدة في النضال السياسي . ولقد كتبت صحيفة نيويورك - تايمز : « ان عدم وجود التسمية المناسبة أوقعنا في ورطة صعبة في نضالنا العالمي من أجل كسب عقول الناس . والرأسمالية الشعبية مدعوة لسد هذا الفراغ » . لكن هذه الكلمة الجديدة لاتغير شيئاً من حقيقة الرأسمالية ، وانما تدل فقط على انعدام أي شرط لصالح الرأسمالية وعلى الضحالة الروحية للايديولوجيا البورجوازية .

وفي النضال ضد الماركسية - اللينينية يستخدم السياسيون البورجوازيون تلك الأفكار والمواد التي يزودهم بها الانتهازيون ومحرفو النظرية الثورية . ولهذا تطالب الماركسية اللينينية بالمحافظة على نقاوة ايديولوجيا البروليتاريا ، وبالنضال ضد كل محاولة لتشويهها . ان كل اضعاف للايديولوجيا البروليتارية هو تقوية للايديولوجيا البورجوازية ، وهذا ما لايمكن السماح به ، وهو يتناقض مع مصالح النضال الطبقي للبروليتاريا .

وهكذا ، فان السياسة تعبر عن المصالح الاقتصادية الجذرية للطبقة ، وهي لاتعبر عنها بشكل أوتوماتيكي طالما أن هذه المصالح تمر عبر الوعي

السياسي للطبقة وايديولوجييها وسياسييها • وان سياسة الطبقة التي تعبر عن مصالحها تُبنى وفقاً لمهماتها القائمة أمامها حسب الشروط التاريخية ، ويعبر عنها في شكل أعمال سياسية محسوسة •

وبما أن العامل الذاتي يلعب دوراً كبيراً في تحديد السياسة ، فبامكانه أن يعبر عن هـذه المصالح أو تلك في أفكار وأعمال سياسية متنوعة نسبياً • ولاتنفرد العوامل الاقتصادية هنا بالأهمية لوحدها ، وانما يضاف اليها التقاليد والخصائص الوطنية والقومية وامكانيات القادة المتزعمين للأحزاب السياسية والـدول •

فالبورجوازية الانكليزية ، مثلا ، تمرست في خداعها السياسي للطبقة العاملة ، وتجمعت لديها خبرة سياسية واسعة تنعكس في طرق تحقيق سياسنها• بينما كانت لدى البورجوازية الروسية تقاليد أخرى ، وهـذا مالاحظه لينين أكثر من مرة •

والطبقة تسعى في سياستها الى تحقيق أهداف سياسية معينة ، لكن نتائج أعمالها لاترتبط بارادتها ويمكن أن تكون مغايرة للأهـداف الموضوعة وتأتي النتيجة معكوسة اذا كانت الأهداف تتناقض مع قوانين واتجاه التطور التاريخي• فقد كان هتلر يطمح في مغامرته الجنونية الى اخضاع العالم كله للفاشية الألمانية محاولا ايقاف التطور التاريخي وارجاع عجلتـه الى الوراء ، وكانت النتيجة أوضح من أن توضح •

وما من ريب في أن السياسة العدوانية التي تنتهجها أمريكا وألمانيا الغربية وغيرهما من الـدول الامبريالية سوف تمنى حتماً بالفشـل الماحق الذريع • فهذه السياسة تشد المجتمع الى الوراء ، وتحددها المصالح الرجعية ، وليس لها مستقبل أبداً •ا ن الرأسمالية المعاصرة تقف عـلى شفا مصيرها المحتوم ، ولن تتمكن أية سياسـة من انقاذها • فالسياسة تتمكن من تأخير أو تقديم تحقيق الضرورة الاقتصادية ، لكنها تعجز عن شل هذه الضرورة • وان النصر حليف تلك السياسة التي تنسجم مـع قوانين التطور الاجتماعي كما قال غيرتس من قبل : « التاريخ دائماً ملك لحزب واحد ـ حزب الحركة » •

٢ ـ مكان الايديولوجيا السياسية بين الظواهر الاجتماعية ودورها في تطور المجتمع

ان الايديولوجيا السياسية تتميز من بين جميع أشكال الوعي الاجتماعي بتأثيرها الكبير على التطور الاقتصادي لأنها تتجسد في نشاط الدولة والأحزاب السياسية والطبقات والجماهير •

وفي المجتمع الطبقي المتناقض تتحقق جميع الأهداف السياسية في صراع الطبقات الذي هو القوة المحركة لتطور المجتمع • وان أهم مسألة في النضال السياسي هي مسألة السلطة • وبدون الأفكار السياسية يستحيل القيام بالنضال السياسي من أجل تحقيق المصالح الأساسية للطبقات • وان الطبقة المسيطرة تشن نضالها من أجل ابقاء وتوطيد السلطة السياسية ، تقودها في ذلك أفكار سياسية من شأنها أن تبرر سيطرتها • وان الطبقات السائدة ، اذ تسعى الى ضمان التأييد لأهدافها السياسية ، تتخذ جميع الاجراءات التي تؤمن انتشار ايديولوجيتها السياسية • ان نقل الايديولوجيا الى الجماهير ذو أهمية بالنسبة للبورجوازية اذ تجد نفسها مضطرة لمجابهة الفعالية السياسية النامية للطبقة العاملة وجميع الكادحين •

لكن الأفكار والأهداف السياسية للطبقات المستغلة تكون غريبة تماماً على الجماهير الكادحة (باستثناء الفترات التي تكافح فيها الطبقة المستغلة ضد الاضطهاد القومي أو الاجتماعي) ولاتتمكن من كسب الجماهير الكادحة الواسعة • ولذا فان الدولة والمؤسسات الفوقية الأخرى هي أهم واسطة نقل لأفكار المستغلين السياسية ، وأهم وسيلة لتجسيدها في الواقع •

ان الايديولوجيا السياسية للطبقات الاستغلالية السائدة تؤثر على الاقتصاد ، ولا سيما عندما تتجسد في نشاط الدولة والمؤسسات الفوقية الأخرى •

فان الدول الامبريالية المعاصرة ، مثلا ، تنقاد في نشاطها للأفكار والأحداث السياسية للرأسمال الاحتكاري • وتستخدم البورجوازية لنشر ايديولوجيتها

جهازاً دعائياً هائلا : النشر ، التلفزيون ، الاذاعة ، المدرسة ، الكنيسة ...الخ. لكنها ، مع هذا ، لاتنجح في اخضاع الجماهير الكادحة لايديولوجيتها ، حيث أن شروط حياتهم تدفعهم الى النضال ضد النظام الرأسمالي .

ان الأفكار السياسية الجديدة ، اذ تعكس تناقضات الحياة الاجتماعية والحاجات الملحة للتطور الاجتماعي ، ترسم أهداف النضال السياسي ، وتبين طرق ووسائل تحقيقها . وان التفاف الجماهير حول هذه الأفكار يؤدي الى خلق جيش سياسي قادر على تحطيم النظم القديمة البالية . والأفكار السياسية التقدمية بالذات تقوم بالدور المنظم والمحول في تطوير المجتمع ، وكلما زاد انتشارها بين الجماهير وحصلت على تأييد أوسع كلما زاد تأثيرها .

ولقد تمتعت بأوسع انتشار في وقتنا الحاضر أكثر الأفكار السياسية ثورية وتقدمية في هذا العصر - النظرات السياسية للماركسية اللينينية . فلقد سيطرت على عقول الملايين من الكادحين ، ليس فقط في بلدان المعسكر الاشتراكي بل وفي البلدان الرأسمالية ، بالرغم من أن البورجوازية تشن حرباً شعواء ضدها وتستخدم كل وسائل الكذب والتهجم والافتراء . وتقوم تلك الأفكار بدور تقدمي عظيم في تطور المجتمع المعاصر ، وتساعد على تحويل المجتمع الرأسمالي الى مجتمع اشتركي . وان تجربة الاتحاد السوفييتي وبلدان الديموقراطية الشعبية ، بالاضافة الى تجربة الجماهير الخاصة ، تقنعها بفعالية أفكار الماركسية اللينينية وبصحة الطريق الذي ترسمه النظرية الثورية .

هكذا ، فان الأفكار السياسية الجديدة تساعد على التحويل الاقتصادي للمجتمع وتسهل عملية ذلك التحويل . وان الايديولوجيا السياسية تؤثر تأثيراً مباشراً على التطور الاقتصاد ي، لكن تأثيرها على الاقتصاد لايقتصر على هذا وحسب . فهي تؤثر تأثيراً غير مباشر أيضاً على التطور الاقتصادي بواسطة الأشكال الأخرى للوعي الاجتماعي .

ان جميع أشكال الوعي الاجتماعي تتأثر الى هذا الحد أو ذاك بالايديولوجيا السياسية . فهناك علاقة وثيقة بين الأفكار السياسية والحق ،

فالأفكار السياسية تتجسد في القانون ، كما ينعكس التغير في السياسة في الوعي الحقوقي والنظرات السياسية • وقد قال لينين : « القانون هو اجراء سياسي وسياسة في آن معاً »[1] •

وفي القرنين ، السابع عشر والثامن عشر ، قامت البورجوازية الأوروبية الثورية في وجه الامتيازات الاقطاعية والحكم المطلق ، وكانت أفكارها السياسية ترفع رية النضال من أجل المجتمع الجديد • وتحت تأثير هذه الأفكار تكونت مبادىء الحق البورجوازي : عدم المساس بالملكية الرأسمالية الخاصة ، حرية رب العمل في نشاطه ، المساواة بين الأفراد أمام القانون ••• الخ •• ولقد تجسدت هذه الأفكار بعدئذ في نظام الحق البورجوازي •

ان عصر الامبريالية مرتبط بتحول البورجوازية من الديموقراطية الى الرجعية السياسية • وينتقل الرأسمال الاحتكاري في كثير من البلدان الى أساليب الدكتاتورية الفاشية السافرة من أجل الحفاظ على سيطرته • وان هذا التغير في سياسة البورجوازية وفي تطلعاتها السياسية ينعكس على صعيد الحق : فتتقلص ـ أو تضرب نهائياً ـ شرعية الديموقراطية البورجوازية ، ويحد من نشاط المنظمات الديموقراطية أو يُحظر نشاطها بالمرة ، ويحرم الحزب الشيوعي من حقه في النشاط •• الخ •• وهكذا ، فالحق يعكس التغيرات في السياسة ، والنظرات السياسية للطبقة ترتكز بدورها على الوعي الحقوقي •

ان المصالح السياسية للبروليتاريا ووعيها السياسي تناصب نظام الحق البورجوازي العداء ، هذا النظام الذي يعزز سيطرة البورجوازية • والى جانب ذلك تهتم البروليتاريا باستخدام الحريات الديموقراطية البورجوازية في عمليتي التنوير والتنظيم • والطبقة العاملة ، اذ تناضل من أجل الاشتراكية ، تبرز كأكثر القوى ديموقراطية في المجتمع •

والايديولوجيا السياسية تمنح الأخلاق محتوى فكرياً معيناً • فالأخلاق الشيوعية ، مثلا ، تتكون تحت التأثير القوي لوعي البروليتاريا ونضالها

---

(١) لينين • المؤلفات • الجزء ٢٣ ص ٣٦ •

السياسيين • ولاينبغي فصل الأخلاق عن النشاط السياسي للناس والفئات والطبقات وعن ايديولوجيتها السياسية •

ومن جهة أخرى فالعامل الأخلاقي ذاته هو القوة الكبرى في النضال السياسي • (انظر قسم « الاخلاق ») •

والأفكار السياسية تؤثر على تطور الفن • فان المحتوى الفكري للفن ، والمثال الجمالي للمجتمع أو الطبقة يتكون تحت تأثير الايديولوجيا السياسية • ان الأفكار البورجوازية حول « الفن الصافي » الذي لايرتبط بالنضال السياسي وباتجاهات اجتماعية معينة هي أفكار كاذبة • ان علم الجمال الماركسي — اللينيني يقر بصراحة الرابطة بين الفن الاشتراكي وحزب البروليتاريا السياسي، وينتقد الاتجاهات المناوئة للسياسة وللمضمون الفكري الرفيع في الفن كالاتجاهات البورجوازية التي لاتنسجم مع الواقع •

وان العلاقة المتبادلة بين الايديولوجيا الدينية والسياسة جد معقدة • فالدين والكنيسة بوجه عام هما أداتان سياسيتان في أيدي الطبقات المستغِلة في المجتمع الطبقي • لكن العلاقة المتبادلة الأكثر وضوحاً بين الدين والسياسة تتعلق بشروط كثيرة ، مثلا : بقوة الايديولوجيا الدينية ذاتها ، وبالعلاقة المتبادلة بين الكنيسة والدولة ، وبطابع النظام السياسي ••• الخ ••

وهكذا ، ففي عصر الاقطاعية كان الدين ذاته يقوم غالباً بوظيفة الايديولوجيا السياسية • وكانت الاصلاحية في جوهرها حركة سياسية للبورجوازية الناهضة ضد سيطرة الاقطاعيين ورجال الكنيسة • وكانت الايديولوجيا الدينية تعبر عن محتوى سياسي معين وتخفيه • وان نضال البورجوازية من أجل تحقيق السيطرة السياسية لم يتحرر سريعاً من القناع الديني • ولاتزال الاحزاب السياسية تقوم على الاساس الديني حتى وقتنا هذا (الحزب الديموقراطي المسيحي في ايطاليا ، والحزبين الكاثوليكيين في المانيا الغربية وبلجيكا ••• الخ ••) • وهكذا ، فان العلاقة المتبادلة بين الايديولوجيتين السياسية والدينية تتغير ، لكنها قائمة دائماً في المجتمع المتناقض الطبقي • وان

الافكار والمصالح السياسية تمارس دائماً تأثيرها الكبير على محتوى الايديولوجيا الدينية • وان الحركة الثورية للبروليتاريا هي وحدها التي تتحرر كلياً من الأقنعة الدينية • ويسعى حزب البروليتاريا الى توحيد الجماهير في النضال الثوري بصورة مستقلة عن الدين ، وهو في الوقت ذاته يكافح ضد الدين والكنيسة •

وان الايديولوجيا السياسية تؤثر تأثيراً مباشراً على العلوم الاجتماعية وعلى الفلسفة •

ان الأفكار السياسية للطبقات المختلفة تجد تبريراً لها وتوضيحاً في النظرة الشاملة الى العالم ، وتساعد في ذلك أيضاً معطيات العلوم الاجتماعية • والأفكار بدورها تؤثر تأثيراً كبيراً على تكوين النظرات الفلسفية وعلى التوجيه الفكري للعلوم الاجتماعية • وفي المجتمع الطبقي لا وجود لفلسفة وعلم اجتماعي غير متحزبين واقفين فوق الطبقات •

فالفلسفة المادية مرتبطة بمصالح السياسة التقدمية في هذا العصر أو ذاك ، بمصالح الطبقات التقدمية ، بينما المثالية تعكس دائماً متطلبات الرجعية وتسخر لها • ان المواقف السياسية التقدمية تدفع الى المعرفة الموضوعية للحياة الاجتماعية ، وتساعد على تطوير العلوم الاجتماعية • والتأثير الايجابي الخلاق هو بصورة رئيسية تأثير الايديولوجيا السياسية للبروليتاريا التي تطالب بمعرفة الواقع معرفة علمية موضوعية وكشف تناقضاته • وان كل تقاعس أو تراجع عن الموضوعية في العلوم الاجتماعية ، لأسباب ما ، لأمر تشجبه المنهجية الماركسية وتحاكمه •

ان الماركسية ـ اللينينية لاتخفي العلاقة الكائنة بين الايديولوجيا السياسية الماركسية وبين الفلسفة والعلم الاجتماعي ، وهي تعبر عن مصالح الأكثرية في المجتمع ، ولاتتناقض مع النظرة العلمية الى الواقع •

بينما الايديولوجيا البورجوازية على العكس من ذلك ، فهي تستر الرابطة بين السياسة البورجوازية من جهة ، وبين الفلسفة والعلوم الاجتماعية من جهة أخرى • وشد ماتنتشر أفكار الموضوعية ، وعدم ارتباط الفلسفة البورجوازية والعلوم الاجتماعية بالسياسة • لكنما هذه الرابطة تقوم ويعبر عنها خاصة في

تشويه الفلسفة البورجوازية والعلم الاجتماعي البورجوازي للواقع مما يخدم المصالح السياسية للبورجوازية • لكنه لدى كشف تلك الرابطة ينبغي ألا نبسط المسألة ونتغاضى عن وجود الحد القائم بين الايديولوجيا السياسية وبين الفلسفة والعلم الاجتماعي •

وفيما يتعلق بالعلوم الطبيعية فان السياسة ، بالطبع ، لاتقدر أن تؤثر على محتوى مكتشفاتها ، لكنها تؤثر على استخدامها في المجتمع • ان كل طبقة تسعى لأن تسخر العلم لمصالحها ، ولذا فهي تنتهج سياسة معينة بالنسبة الى العلم تؤثر تأثيراً ملحوظاً على اتجاه وتيرات تطور العلم • بينما الايديولوجيا السياسية تؤسس وتكون السياسة التي تنتهجها الطبقة بالنسبة الى العلم •

فمثلا ، ان السياسة الامبريالية في التحضير للحرب تؤدي الى عسكرة العلم في البلدان الرأسمالية ، وتساعد على تطور البحوث العلمية لما فيه خدمة الأهداف العسكرية •

أما في البلدان الاشتراكية فالعلم يخدم الأهداف السياسية السلمية في بناء الاشتراكية والشيوعية ، ويستخدم لمصلحة الشعب (انظر قسم « العلم ») •

وهكذا ، فالايديولوجيا السياسية تؤثر تأثيراً كبيراً على كل الاشكال الأخرى للوعي الاجتماعي • وان قوة هذا التأثير مشروطة بنوعية الايديولوجيا السياسية ومكانتها في المجتمع • وان السياسة والايديولوجيا السياسية ، اذ هما التعبير المباشر عن المصالح الرئيسية للطبقات ، والتعبير المركز عن الاقتصاد ، يوحدان كل أشكال الوعي الاجتماعي ، ويوجهانها لخدمة طبقة معينة •

وان فكرة عدم ارتباط أشكال الوعي الاجتماعي الأخرى بالسياسة وبالايديولوجيا السياسية تتناقض مع الوضع الموضوعي ،وتقنع الارتباط الواقعي للفلسفة البورجوازية والفن البورجوازي وغيرهما بمصالح رأس المال وبسياسة الطبقة السائدة •

ومن جهة أخرى ، فان االاشكال المختلفة للوعي الاجتماعي تؤثر ، الى هذا الحد أو ذاك ، على محتوى السياسة (الحق ، العلوم الاجتماعية ـ على السياسة الماركسية) أو هي تؤثر على تنفيذها (العامل الأخلاقي في السياسة) •

٣ ـ دور الايديولوجيا السياسية
في المجتمع الاشتراكي

تقوم الايديولوجيا السياسية بدور كبير في نشوء وتطور المجتمع الاشتراكي •

ان أولوية الاقتصاد في سياسة الحزب الشيوعي تعني ضرورة التناول السياسي لقضايا البناء الاقتصادي ، لأن السياسة الصحيحة للحزب تؤمن الشروط الضرورية للتحويل الاقتصادي للمجتمع ، وتدل على اتجاه نشاط الناس ، وتعقد راية النضال من أجل الشيوعية بالتعبير الواعي عن الهدف المرسوم •

ان علمية الايديولوجيا السياسية للبروليتاريا الناجمة مباشرة عن نظرية الاشتراكية العلمية تجعل من الممكن ، لأول مرة في التاريخ ، التنسيق بين نتائج نشاط الجماهير وبين الأهداف الموضوعة •

ان تجارب النضال الطبقي والتحويل الاشتراكي في الاتحاد السوفييتي وبلدان الديموقراطية الشعبية تؤكد صحة السياسة التي تعتمد النظرية الماركسية ـ اللينينية وتطبيقها بشكل بناء في شروط التطور الموضوعية • وهذا مما يبعث ثقة أكبر في حتمية الانتصار المقبل للشيوعية وفي صحة السياسة الشيوعية وايديولوجيتها السياسية •

وتبين هذه التجربة أيضاً أن الايديولوجيين البورجوازيين والانتهازيين والتحريفيين ينخرطون لصد هجومات النظرية الماركسية اللينينية وسياسة الأحزاب الشيوعية بقصد بلبلة الطبقة العاملة وتشكيكها في ظفر الشيوعية ، وحرف الحركة العمالية عن الطريق الذي رسمته لها النظرية الماركسية ـ اللينينية • ان تاريخ حزبنا هو تاريخ النضال المتواصل ضد التيارات المعادية المختلفة داخل الحركة العمالية •

وفي فترة بناء الاشتراكية في بلادنا تمكن الحزب من تحطيم التروتسكية

فكرياً وقضى على المنزلقات اليمينية والقومية البورجوازية ووطد دعائم خطه العام •

ويكمن خطر التحريفية العظيم في تشويهها للنظرية الماركسية ـ اللينينية والتشكيك بمبادئها الأساسية ، وبهذا فهي تسعى الى اخضاع الطبقة العاملة للايديولوجيا البورجوازية ، وحرف الحركة البروليتارية عن خطها الماركسي ـ اللينيني الثوري • والتحريفيون اذ ، يخفون حقيقتهم الواقعية ، يحلفون باسم ماركس وانجلس كأغلظ يمين ليثبتوا فكرة عبادة الشخصية لدى الغير • ان التحريفية هي حصان طروادة الجديد في الحركة الشيوعية •

وعند انتقاد التحريفية كخطر رئيسي في الحركة الشيوعية الدولية ينبغي أن نأخذ بعين الاعتبار أنها « ••• قادرة على أن تظهر في أشكال لاحصر لها ، وأن كل مسألة « جديدة » وكل انعطاف مباغت للأحداث مهما كان ضئيلاً ومهما كان تأثيره على خط التطور صغيراً ومؤقتاً ، فانه سوف يقابل بتغيير التحريفية لأشكالها وبتلونها حتماً »[1] •

ان التحريفية المعاصرة هي شكل تسلل الايديولوجيا البورجوازية الى الحركة الشيوعية • وان الأفكار الأساسية للتحريفيين داخل الأحزاب الشيوعية هي ترديد أفكار الايديولوجيا البورجوازية والاشتراكيين اليمينيين • ان الايديولوجيا البورجوازية هي المستنقع الذي يمتح منه التحريفيون « حكمتهم » •

والى جانب هذا ، ففي مراحل معينة لتطور هذه الأحزاب أو تلك ، يمكن أن يكون الخطر الرئيسي الجمود العقائدي الذي يتميز بعدم فهم الوضع الجديد وعدم القدرة على تحليله بصورة خلاقة وتطبيق الماركسية اللينينية على الشروط الموضوعية • ان الجمود العقائدي يؤدي الى تحجر النظرية وفصلها عن التطبيق •

فمن أجل تنظيم الجماهير حول أفكار سياسية معينة ينبغي اقناعها بصحة

---

(١) لينين • المؤلفات • الجزء ١٥ ص ٢٣ •

هذه الأفكار على أساس تجربتها السياسية الخاصة ، وجعل الأفكار مبدأ موجهاً لنشاط الناس • ان وعي الجماهير السياسي ووعي طليعتها بالدرجة الاولى هو شرط ضروري لحل مسائل بناء الاشتراكية • ولقد أوضح لينين أن الدولة السوفييتية قوية بوعي جماهيرها التي تناقش كل الأمور وتلم بها جميعاً • ولذا فان الحزب كان يولي جل اهتمامه لتربية الجماهير سياسياً ، وهذه التربية السياسية هي نواة وأساس التربية الشيوعية •

ان ادخال الوعي السياسي الى الجماهير ليس مجرد مسألة تنويرية • ويتحقق نمو الوعي السياسي للجماهير في عملية نضالها العملي وعلى أساسه • وفي سير هذا النضال تتعرف الجماهير على حقيقة الافكار السياسية للحزب ، أي أنها تدرك التناقض الصارخ بين مصالح البروليتاريا والبورجوازية ، وعداء النظام البورجوازي برمته لمصالحها ؛ وتتفهم حقيقة استحالة تحسين شروط المعيشة في ظل الرأسمالية ، وأن الطريق الى تحرير الشغيلة من كل أنواع الظلم يمتد عبر قلب سيطرة البورجوازية واقامة دكتاتورية البروليتاريا وبناء المجتمع الاشتراكي •

والحزب ، اذ يدخل هذه الأفكار الى الجماهير ، فهو يقوم بتربيتها وبتهيئة المنطلقات الذاتية للثورة • ان التربية السياسية للجماهير تتكون في النضال المتواصل ضد الايديولوجيا البورجوازية وضد الانتهازيين الذين يحاولون اخضاع البروليتاريا لسياسة البورجوازية ولايديولوجيتها •

وفي عهد دكتاتورية البروليتاريا تقوم أمام جماهير الشغيلة مهمات جليلة جديدة : تصفية الاستغلال نهائياً ، اعادة التكوين الاشتراكي لجماهير الفلاحين، بناء الصناعة الاشتراكية ••• الخ •• ومن أجل حل هذه المسائل الجديدة لابد من النهوض بمستوى الوعي السياسي للجماهير وبعملها السياسي الى درجة أعلى جديدة •

وفي هذه الشروط يعلم الحزب الجماهير طريقة الدولة في حل كل القضايا ، ويربي فيها روح الأممية والاخلاص للوطن الاشتراكي ، ويعزز ثقة

جميع الشغيلة بقيادة الطبقة العاملة ، ويجندها كذلك لحل المسائل الموضوعية في بناء الاشتراكية •

ان التجربة السياسية التي تجمعت لدى الحزب الشيوعي في فترة بناء الاشتراكية في بلادنا ذات قيمة عالمية فائقة ، وهي منجزة قيمة للحركةالشيوعية قاطبة • فهي تسهل للأحزاب الشيوعية في البلدان الأخرى التي تقف في طريق التطور الاشتراكي ايجاد الطرق المحسوسة الجديدة لحل القضايا الاشتراكية العامة • وبهذا أيضاً فان تلك الأحزاب تجمع تجربتها الخاصة لتغني بها كنز الماركسية ــ اللينينية •

ان التغييرات الجذرية في شروط حياة الجماهير تعجل في بناءالاشتراكية•

وهنا تصبح الأفكار الاشتراكية في متناولالجماهير الواسعة وتندمج بالشعب وتسري في دمه وتنفذ الى أعماق حياة الناس • لكن هذا لايعني أنه لم يعد ثمة ضرورةللتربية السياسية للجماهير ، بلعلىالعكس ، ان الشروط الأكثر تطوراً في الحياة الاجتماعية تزيد من حاجتها الى العمل السياسي بين الجماهير • فالحياة تخلق قضايا معقدة جديدة ، وتولد تناقضات جديدة ينبغي أن تحل بطرق جديدة وعلاوة على هذا تبقى مهمات النضال ضد الايديولوجيا البورجوازية والمخلفات الرأسمالية في أذهان ووعي الناس قائمة بكل اتساعها•

وهكذا ، فان أهمية الايديولوجيا السياسية الماركسية ـ اللينينية هي في أنها تنظم وتجند الجماهير للنضال ضد البورجوازية ،ولبناء المجتمع الاشتراكي. وتقوم الأحزاب الشيوعية بتطوير هـذ الايديولوجيا معتمدة عـلى مبادىء الماركسية ـ اللينينية وتحملها الى الجماهير . ولاتتمكن الجماهير من المساهمة في بناء الاشتراكية بدون نمو مطرد لوعيها السياسي وبدون فهم سياسة الحزب. ان الايديولوجيا السياسية للحزب تعبر عن مصالح فئات الشغيلة لأنها تبين طرق ووسائل تحررها من كل أشكال الظلم ، وهي ايديولوجيا علمية تعتمد على معرفة قوانين التطور الاجتماعي والاقتصادي للمجتمع .

الفصل الثالث

الوعي الحقوقي

الى جانب العلاقات السياسية بين الناس في المجتمع ثمة علاقات حقوقية • وهذه العلاقات ، اذ تؤلف البنيان الفوقي للعلاقات المادية والاقتصادية ، تتكون مارة أولا من خلال وعي الناس • ولذا فان العلاقات الحقوقية مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بالأشكال المختلفة للوعي الاجتماعي ، وفي الدرجةالأولىبالوعي الحقوقي•

وان الوعي الحقوقي ، كشكل معين للوعي الاجتماعي ، هو نظريات ونظرات ظهرت تاريخياً مع ظهور الطبقات وتتغير بتغير النظام الاقتصادي ، وهو مفاهيم تنتشر في المجتمع حول ما هو قانوني وما هو غير قانوني ، وما هو عادل وواجب في العلاقات بين الناس والدول والشعوب ، وهو تقيم للحق الساري في المجتمع • والوعي الحقوقي ذو طابع طبقي ومرتبط بنظرة معينة الى العالم •

والوعي الحقوقي يجد تعبيره في كل فترة تاريخية في حقوق معينة ـ أي في منظومة القوانين والمراسيم الحكومية ذات الصفة الالزامية،وكذلك في أعمال المؤسسات الحقوقية • ومن جهة أخرى ، ان نظام الحقوق يؤثر تأثيراً مباشراً على تشكيل الوعي الحقوقي للمجتمع •

ومن أجل تبيان خصائص الوعي الحقوقي لابد من تحليل نشوئه وخصائص تطوره ، ومكانه في نظام الظواهر الاجتماعية ، ودوره في تطور المجتمع •

١• نشوء الوعي الحقوقي

مع ظهور الطبقات لاتظهر الدولة والحق والعلاقات القانونية وحسب ،

بل وجميع ما يرتبط بها من مفاهيم وتصورات وتقييمات من وجهات نظر الطبقات المختلفة ، وكذلك نظرية الحق ـ أي الوعي الحقوقي للمجتمع .

فالوعي الحقوقي هو مجموعة معينة من النظرات . وهذا ما ينبغي تأكيده لتعارضه مع النظريات السابقة للماركسية والمعادية لها التي تعودت على الحديث عن الشعور الحقوقي الذي هو في نظرها مجموعة من العواطف . وليس مهماً الآن معرفة ما اذا كان الشعور الحقوقي شيئاً ما له أساس بيولوجي أو أنه يعود الى « أعماق » البسيكولوجيا الانسانية ... لأن تلك النظريات مع كل اختلافاتها التي درسها التاريخ ونظرية الحق بصورة خاصة تقوم على أساس فلسفي واحد ـ المثالية والميتافيزيكا . والمادية التاريخية تختلف عن تلك النظريات جميعاً اذ تعتبر ان الوعي الحقوقي يتكون لدى الانسان من خلال حياته في المجتمع ، وأنه مع تغير التشكيلة يتغير وعي المجتمع ومن ضمنه الوعي الحقوقي، أي تلك المجموعة من النظرات التي تعبر عن علاقة هذا المجتمع أو ذاك بالحق في مراحل مختلفة من تطوره . فاذا كان ثمة نظام حقوقي واحد في كل مجتمع فان الوعي الحقوقي لايمكن ان يكون واحداً في المجتمع الطبقي المتناقض . ان الوعي الحقوقي للطبقات السائدة لايتجسد فقط في الحق السائد وانما يقوم هذا الاخير بتبريره وبمنحه الأساس النظري ،ويسعى أيضاً الى فرضه على كل المجتمع كنظام عادل وحيد . ان الطبقة السائدة في المجتمع والقانعة بوضعها تطالب بمراعاة القوانين المعبرة عن ارادتها ليس فقط بمساعدة قوة الدولة وانما بالتفاتها الى الوعي الحقوقي للمجتمع أيضاً . ان الايديولوجيا الحقوقية تغالي في أهمية القوانين في حياة المجتمع وترسم الضرورة النظرية لمراعاتها مستخدمة من أجل ذلك كل النصوص الفلسفية والاخلاقية والتاريخية والدينية. وان ايديولوجيي الطبقات المستغلة قديماً كانوا يفهمون جيداً أهمية توطيد النظام الحقوقي القائم بالنسبة للطبقة السائدة ، ويقفون ضد كل محاولة للنيل من الدولة العبودية .

ويحدثنا أفلاطون في حواره « كريتون » كيف أن سقراط عندما نصحوه بالفرار من سجن أثينا رفض النصيحة معلناً أن من واجبه اطاعة القوانين (ينبغي الا ننسى أن سقراط كان خصماً لديموقراطية أثينا) ؛ « افرض أننا نوينا

الهروب ، ـ أو بتعبير آخر ـ تأتي القوانين فجأة وتقول بلسان حال الجمهورية: قل لنا يا سقراط ، ما هذا الذي عزمت ؟ هل فكرت بما يمكن أن يجره هذا التصرف الذي عقدت العزم عليه من الوبال علينا نحن وعلى القوانين والمدينة كلها؟ هل تعتقد بأن هذه المدينة يمكن أن تستمر وأن الخراب لن يحل بها اذا لم يعد فيها للقرارات القضائية أي شأن ؟ •• » •

وتحت تأثير الشروط التاريخية المتغيرة ، وتحت تأثير التغيرات في وضع الطبقة السائدة والعلاقات بين القوى الطبقية في مجتمع ما تنشأ التغيرات في الوعي الحقوقي للطبقة السائدة أيضاً • فمع الانتقال من الرأسمال ما قبل الاحتكاري الى الامبريالية ، مثلا ، تتحول البورجوازية من الديموقراطية الى الرجعية • وينعكس هذا في الوعي الحقوقي للطبقة السائدة التي تبرر تحديد الحريات الديموقراطية وتحطيم التشريع الديموقراطي البورجوازي كلياً (كما هو الأمر بالنسبة للدول الفاشية) أو جزئياً ، والانتقال الى طرق الدكتاتورية الارهابية السافرة للرأسمال المالي •

وهكذا فان الوعي الحقوقي لايعكس فقط الشروط العامة لسيطرة طبقة ما ، بل ويعكس الأشكال المحسوسة لسيطرتها أيضاً •

ومن أجل توطيد الحق السائد ينبغي على ايديولوجيا الطبقة السائدة الا تصوره كتعبير عن ارادتها وانما كتجسيد للعدالة السامية • ولقد صرح رجل القانون الانكليزي ستيفن بأنه « ينبغي أن تتذكر بأن المجتمع لايهتم فقط بكون الأحكام عادلة ، وانما يهمه أيضاً وبالقدر نفسه أن يعترف بها من قبل رجال العدل » • وبالطبع ، لا مجال للحديث عن العدالة المجردة لقرارات القضاء البورجوازي وتثبيت الحقوق البورجوازية : فهي دائماً تحمل الطابع الطبقي • لكنما الجدير باهتمامنا هو عناية رجل القانون البورجوازي بتأمين العناية الكافية بعدم مخالفة القانون ، والثقة بموضوعية وعدالة الحقوق السارية • ان رجال القانون البورجوازيين الذين يعلنون عن الطابع الديموقراطي الشعبي العام للحق السائد في بلدانهم ، ويمجدون المساواة بين جميع المواطنين أمام القانون

والطابع الموضوعي للقضاء ... الخ ... يحاولون بهذا اخفاء الطابع الطبقي للحق البورجوازي . وفي الواقع ، أن الوعي الحقوقي والحق البورجوازيين ، اذ يعلنان أن الملكية الخاصةمقدسة ويحميها القانون ، فهما بهذا يخدمان مصالح الأقلية الاستغلالية المالكة لكل وسائل الانتاج بشكل سافر .

ان الوعي الحقوقي للطبقات السائدة يتعارض مع الوعي الحقوقي للطبقات المظلومة الذي يعبر عن مدى جدارة النظام الحقوقي الساري من مواقف هذه الطبقات .

ولقد أعطى انجلس دراسة واضحة لهذا التناقض في انتاجه المبكر « وضع الطبقة العاملة في انكلترا » حيث كتب : « يجد البورجوزي الانكليزي نفسه في القانون كما يجدها في الهه ، ولذا فالقانون مقدس لديه ، وهراوة الشرطي هي قوة مهدئة وهي هراوته ذاته ، لكنما ، بالطبع ، تختلف نظرة العامل اليها . فالعامل يعرف جيداً بخبرته الطويلة الغنية أن القانون بالنسبة له سوط جدلته البورجوازية ، ولذا فهو يلجأ الى القانون فقط عندما يكون مضطراً الى ذلك... ان العمال لايعترفون بالقانون وانما هم فقط يخضعون له عندما لايكونفي وسعهم تغييره ... »(١) .

وطالما أن هذه التشكيلة التناقضية أو تلك تكون في مرحلة التطور الصاعد، فان الاحتجاج على النظام القائم لايجد تأييداً واسعاً بين الجماهير وفي وعيها الحقوقي ، ويبدو ذلك النظام طبيعياً صحيحاً والنظام الوحيد الممكن في مثل تلك الظروف بغض النظر عن التناقضات الاجتماعية التي تتولد فيه . لكنه عندما ينضج النزاع في قلب هذا النظام بين القوى المنتجة وعلاقات الانتاج ينشأ حينئذ ويتطور الوعي لجور هذا النظام ، ويتسع الاحتجاج ضده . ويتجلى ذلك في أشكال الوعي المختلفة ، ومن بينها الوعي الحقوقي .

« عندما يصبح المعقول غير معقول ، والعدل جوراً ، فمعنى هذا أن

(١) ماركس وانجلس . المؤلفات . الجزء ٢ ص ٤٥١ .

تبدلات معينة حدثت في أسلوب الانتاج وأشكال التبادل لم يعد يناسبها النظام الاجتماعي القائم المنسجم مع الشروط الاقتصادية القديمة »[١] •

وفي الثورات البورجوازية ، وخاصة عندما تحررت من لبوسها الديني وأصبحت تحت راية الايديولوجيا السياسية والقانونية ، قام الوعي الحقوقي للطبقات الثورية بالدور المهم • وانتشر الوعي بين الجماهير حول عدم عدالة النظم الاقطاعية التي تؤمن الامتيازات لبعض الفئات الاجتماعية ، واتسعت موجة الاحتجاج ضد استبداد الاقطاعيين ••• الخ • ان ايديولوجيا البورجوازية الثورية ، اذ تعبر عن مصالح البورجوازية الخاصة ، كانت تعكس في نظرياتها الى حد ما نقمة الجماهير على جور النظم الاقطاعية •

وهكذا ، فان ممثل الجناح اليساري من المنورين الفرنسيين جان جاك روسو كان يستخدم أفكار الحق الطبيعي ونشوء الدول على أساس العقد الاجتماعي في نقد الحكم المطلق ، وشجب الامتيازات الاقطاعية ، وتأسيس المبادىء الديموقراطية للسيادة الشعبية وللمساواة بين المواطنين أمام القانون ومن أجل ضمان حق الشعب في النضال ضد الاستبداد • ولقد كان لهذه الأفكار تأثير كبير على كثير من رجالات الثورة الفرنسية ١٧٨٩ ـ ١٧٩٤ •

وان نظرات راديشيف الفلسفية والسياسية والحقوقية كانت مثلا على احتجاج الأقنان ضد الظلم الاقطاعي •

فلقد اعتمد راديشيف أيضاً على أفكار الحق الطبيعي والعقد الاجتماعي• فقد اعتبر أن القنانة وتكبيل الفلاحين بالأصفاد يتناقض مع الحق الطبيعي للانسان الذي منحته اياه الطبيعة ذاتها • فقد دوّى صوته الغاضب ضد العنف والامتيازات الاقطاعية • ولقد اقترح نظاماً للتشريع يحمي الفلاحين من استبداد الاقطاعيين ويقرّ المساواة في حقوق المواطنين بصرف النظر عن الامتيازات والمراتب الاجتماعية • فلقد أسس راديشيف حق الشعب نظرياً في النضال الثوري ضد الاستبداد • ولقد قال راديشيف ان خلف كل انسان يكمن حقه

---

(١) انجلس • أنتي دهرينغ ص ٢٥١ •

الطبيعي في الدفاع عن النفس ، واذا كانت السلطة لا تؤمن حماية الحيـــاة والشرف والملكية للرعية فان للشعب الحق كاملا في حل العقد الاجتماعي وفي الانتفاضة في وجه الطغيان •

وبالطبع ان نظريتي الحق الطبيعي والعقدالاجتماعيمثاليتان ميتافيزيكيتان، لكنهما كانتا تحملان طابعاً تقدمياً عند كل من روسو وراديشيف بالنسبة لذلك العصر لكونهما موجهتين ضد النظام والحق الاقطاعيين •

وفي المجتمع الرأسمالي نشأ الوعي الحقوقي البروليتاري ليتصدىللوعي الحقوقي البورجوازي • واذا كان هذا الأخير يعلن ويؤكد المساواة الشكلية بين جميع المواطنين أمام القانون فان الوعي الحقوقي البروليتاري يذهب الى أبعد وأعمق من ذلك ، فهو يكشف حقيقة عدم المساواة بين العمالوالرأسماليين المشروطة بالوضع الاقتصادي ، ومحدودية وكذب الديموقراطية البورجوازية ويقرُّ حق النضال من أجل الغاء الملكية الرأسمالية الخاصة •

ان الوعي الحقوقي الاشتراكي يتسجد في الحق الاشتراكي الذي يحميالملكية الاشتراكية الاجتماعيـــة والملكية الخاصة للمواطنين ونظـام الحق الاشتراكي ••• الخ •• وهو يعتبر وسيلة لتربية المواطنين بروح الشرع الاشتراكي •
وفي ظروف الاشتراكية يتعاظم دور
الوعي الحقوقي

• ان الوعي الحقوقي الاشتراكي
مرتبط ارتباطاً وثيقاً بالأخلاق الشيوعية ، وهو احدى وسائل النضال المهمة ضد مخلفات الرأسمالية في وعي الناس •

وان الوعي الحقوقي الاشتراكي البروليتاري ـ بخلاف أي وعي حقوقي آخر ـ يرتبط ارتباطاً وثيقاً بالنظرة الماركسية اللينينية العلمية الى العالم التي تؤمن له أساسه النظري •

ان الوعي الحقوقي هو أحد أشكال الوعي الاجتماعي الذي يعبر عن مصالح ومطامح الطبقات المختلفة • ولذا فان تطور الوعي الحقوقي هو عملية ايديولوجية • وان التقدم في وعي المجتمع الحقوقي ، وبكلمة أخرى ، ان الانتقال من الوعي الحقوقي لملاكي العبيد الذين كانوا يحرمون العبيد من الحقوق[1] الى الوعي الحقوقي الاقطاعي ثم الى البورجوازي الذي يعلن المساواة الشكلية أمام القانون ، هو بالطبع انعكاس للتقدم في العلاقات الاجتماعية والمشروط بحاجات الانتاج المتطور • وان كل نظرية قانونية جديدة أيضاً لايمكن أن تقوم على فراغ • وفي تطور الحق والوعي الحقوقي يوجد التواصل ، وأساس هذا التواصل هو المصلحة الطبقية والسمات العامة للتشكيلات المتناقضة المتبدلة •

وبهذا وحده يمكن ايضاح حقيقة ما يسمّى بقبول الحق واستعارته ، وخاصة استعارة بعض الحقوق الرومانية العبودية في فترة بدء تطور العلاقات الرأسمالية • فالحق الروماني ـ كما قال انجلس ـ كان يتميز « بدقته المتطورة الفائقة في وضع العلاقات الحقوقية الجوهرية بين أصحاب السلع البسطاء (الشاري والبائع ، الدائن والمدين ، وتنظيم العقود والواجبات •• الخ »[1] •

لكن الأمر لاينتهي بنا عند هذا وحسب • فلو نظرنا الى العلم الحقوقي في تطوره لاتضح لنا أن النظريات والتعاليم القانونية المتبدلة في التاريخ ، اذ تعكس زمنها في كل حادث معين من وجهة نظر طبقات معينة ، كانت تحتوي الى جانب هذا عناصر المعرفة الموضوعية للعلاقات الاجتماعية الواقعية وتطورها التاريخي • ولهذا ، فنحن عندما نأخذ بعين الاعتبار الطابع الايديولوجي للتواصل في تطور النظم والنظريات الحقوقية ينبغي أن ننتبه أيضاً الى وجود تواصل معيّن في المعرفة •

وفي النظريات والتعاليم القانونية المختلفة وضمن حدود العملية الايديولوجية كانت تتحقق عملية معرفة العلاقات الاجتماعية ـ وبالدرجة الأولى العلاقات

---

(١) « لا وجود للصداقة والعدالة مع الاشياء الجامدة ، كما أنه لا وجود لهما مع الفرس والثور والعبد بقدر ما هو عبد حقا » (أرسطو) •

(٢) ماركس وانجلس • مؤلفات مختارة • الجزء ٢ ص ٣٧٦ •

الحقوقية ـ بين الناس الى حد ما • ان ابراز أشكال معينة للعلاقات الحقوقية وتطوير المفاهيم القانونية ذو أهمية معرفية خاصة •

ولاجدال في أن تقدم الوعي الحقوقي ، الذي يجد تعبيره وتجسيده في أشكال الحق وأصول القضاء الأكثر تطوراً ، مرتبط الى حد ما باستخدام المعارف المتراكمة في سير تطور العلم الحقوقي والعمل القانوني عن العلاقات الاجتماعية الواقعية ، والتي يقوم عليها التنظيم الحقوقي •

حتى أن الوعي الحقوقي الاشتراكي ، الذي يتميز نوعياً عن الوعي الحقوقي لكل الطبقات التي وجدت في التاريخ ويعتمد على نظرية علمية ، لاينكر كل شيء في الوعي الحقوقي السابق ، وانما يستخدم أفضل منجزات الماضي وعناصر الوعي الحقوقي الديموقراطي ، ويغنيه بمنجزات نضال البروليتاريا •

ولقد أشار لينين في مؤلفه « الدولة والثورة » الى أنه في الدولة الاشتراكية تبقى عناصر الحق البورجوازي بدون البورجوازية من حيث اتخاذ اجراء متساو بالنسبة لأناس مختلفين ، ويرتبط هذا في فترة الاشتراكية بضرورة تنظيم كمية العمل وكمية الاستهلاك[1] •

وتجدر بنا الاشارة الى أن لينين كان يقصد الشكل الحقوقي الذي يستخدم في عهد الاشتراكية ، لكنه يعبر هنا عن علاقات جديدة نوعياً بين الناس قائمة على أساس الملكية الاجتماعية لوسائل الانتاج •

٢• مكان الوعي الحقوقي بين الظواهر الاجتماعية ودوره في حياة وتطور المجتمع

ان العلاقات الحقوقية هي علاقات فوقية تنشأ مارة بوعي الناس أولا • وينحصر دور الوعي الحقوقي هنا في أنه لايمكن أن تقوم بدونه علاقات حقوقية معينة• وهو ، اذ يعكس العلاقات المادية والاقتصادية بين الناس ، يساعد على تكوين العلاقات الحقوقية التي تنشأ تحت ضغط وتأثير الضرورة الاقتصادية •

---

(١) لينين • المؤلفات • الجزء ٢٥ ص ٤٣٩ •

ويتحدد مكان ودور الوعي الحقوقي مباشرة بعلاقتـه بالحق وبالنظـام الحقوقي السائدين في المجتمع • ان الوعي الحقوقي السَّائد ، اذ يتجسَّد في المراسيم التشريعية والدساتير وفي نظام الحق كله ، يقوم بحماية علاقات الملكية القائمة والنظام السياسي الاجتماعي كله • ان الوعي الحقوقي للطبقات المظلومة المناضلة ضد نظام الحق السائد يساعد على تصديع النظام السـياسي الاجتماعي القائم • وهو يؤثر من خلال العلاقات الانتاجية على تطور الانتاج أيضاً•فالوعي الحقوقي الذي يوطد علاقات الانتاج الملائمة للقوى المنتجة ، والذي يقوم ضد العلاقات الانتاجية القديمة ، يساعد على تطـوير قوى الانتـاج • وان الوعي الحقوقي الذي يحافظ على العلاقات الاجتماعية القديمة من شأنه أن يعرقل تطور قوى الانتاج •

وبالرغم من أن الوعي الحقوقي يبرز كشكل من أشكال الوعي متميز عن الايديولوجيا السياسية فانَّ له محتوى سياسياً لأنه ينشأ على أساس علاقات معينة بين الطبقات على أساس سياسي •

ومن جهة أخرى ، ان النظرات الحقوقية المدمجة في قوانين الدولة تبرز في شكل سياسة هذه الدولة • وان الدولة ، اذ تلزم الناس بمراعاة القوانين ، تقوم ، في الواقع ، بحماية مصالح تلك الطبقة التي يحدد الحق ارادتها ويعبر عنها• ولذا ينبغي أن نعرف أن سياسة الطبقة السائدة في المجتمع تجد تعبيرها ليس فقط في وضع قواعد الحق بل وفي تطبيقها أيضاً •

ان الوعي الحقوقي يتفاعـل مع الأشكال المختلفــة للوعي الاجتماعي ـ الأخلاق ، الدين ، الفن ، والفلسفة • ولهذا التفاعل طابع ملموس في مراحل تاريخية مختلفة لأنه لا يرتبط فقط بالأشكال المختلفة للوعي ، وانما بالشروط الاجتماعية التي يحدث فيها أيضاً •

فالوعي الحقوقي قادر على أن يؤثر ليس فقط تأثيراً فكرياً على الأخلاق والدين والفن والفلسفة ، وانما هو يؤثر عليها أيضاً معتمداً على قوة الدولـة ومؤسساتها ـ الرقابة والتعليم والتعليم الاكاديمي ••• الخ • ويتجلَّى ذلك ،

مثلا ، في ملاحقة الناس الذين لايؤمنون بالله أو يروجون نظرات فلسفية أو فنية أو غيرها معادية للطبقة المسيطرة • لكن طابع تأثير الوعي الحقوقي على الظواهر الاجتماعية وأشكال الوعي الأخرى يرتبط بالشروط الاجتماعية الموضوعية •• فهناك تأثير الوعي الحقوقي على الدين في عصر الاقطاعية ، وتأثيره عليه في عصر الرأسمالية ، ثم في عصر دكتاتورية البروليتاريا • ففي الحالة الأولى يدافع القانون عن الدين السائد ويحميه ؛ وفي الثانية يُعلن عن حرية الاعتقاد الشكلية الا أنه يحافظ على التأييد الفعّال للدين من قبل الدولةوالحق؛ وفي الثالثة تتحقق الحرية الحقيقية للاعتقاد ، كما وتتوفر حرية الدعاية ضد الدين •

وان الحق والوعي الحقوقي يؤثران بدورهما على أساسالوعيالاجتماعي الأخرى • فالأخلاق والدين والفن والفلسفة والعلم الاجتماعي بقدر ما تخدم بوسائلها الخاصة مصالح الطبقة المسيطرة تكون قادرة على تعزيز قواعد السلوك التي وضعها الوعي الحقوقي وتصويرها كقواعد أخلاقية يرضى عنها الاله وتنسجم مع المثل الأخلاقية الحقيقية النابعة من طبيعة الأشياء • وفي الوقت ذاته فان الأشكال المختلفة للوعي الاجتماعي ، اذ تعكس المتطلبات الجديدة للتطور الاجتماعي ومصالح الطبقات التقدمية ، تستخدم من قبل الناس لنقد الحق والوعي الحقوقي السائدين في المجتمع وتساعد بذلك أيضاً على النضال ضد الوعي الحقوقي القديم ومن أجل تثبيت دعائم الحق الجديد •

ان الفهم المادي للوعي الحقوقي كانعكاس لعلاقات اقتصادية معينة يرتبط عضوياً بالطريقة الدياليكتيكية لتناول نشوئه وتطوره •

ان الوعي الحقوقي يخضع في تطوره لقوانين تغير البنيان الفوقي • ومع زوال الطبقة تزول قوة وعيها الحقوقي أيضاً • ومع انتصار الطبقة الجديدة يقوم الوعي الحقوقي الجديد الذي يفيد في تكوين علاقات حقيقية ملائمة للنظام الاقتصادي الناشيء •

وان الوعي الحقوقي في كل المجتمعات الاستغلالية يعكس ويقوي علاقات

السيطرة والخضوع والدور القيادي للطبقة المسيطرة في الاقتصاد • ويكون موجهاً ضد الجماهير المستغَلة المظلومة ويخدم كوسيلة لقمعها والضغط عليها •

وبما أن الوعي الحقوقي للطبقات المسيطرة يتجسَّد في الحق ويتوطد بقوة الدولة فانه من أجل القضاء عليه وقيام الوعي الحقوقي الجديد لا يكفي النضال الفكري لوحده • فمن أجل ذلك لابدَّ للطبقات الجديدة ، قبل كل شيء ، من تصفية مقاومة الطبقات القديمة المعتمدة على قوة الدولة ، وانتزاع السلطة السياسية منها واستخدامها من أجل توطيد وحماية مكتسباتها الاقتصادية • والطبقات المسيطرة التي تعاقبت في التاريخ لم تكن بحاجة الى أن تقضي قضاء مبرما على الدولة القادرة على سحق جماهير الشغيلة • فكان حسبها أن تنتزع السلطة السياسية وتحول جهاز الدولة وفقاً لمصالحها الخاصة • والبرونيناريا لاتقدر على تصفية الوعي الحقوقي البورجوازي القديم وتثبيت الوعي الحقوقي الاشتراكي الجديد بدون تحطيم جهاز الدولة البورجوازي القديم •

٠٣ دور الوعي الحقوقي الاشتراكي

الحق الاشتراكي هو تجسيد للوعي الحقوقي البروليتاري• ويتسع تطور هذا الأخير في سير الثورة والنضال المستمر من أجل الاشتراكية على أساس نشاط الجماهير السياسي ـ التطبيقي التي يقودها حزب البروليتاريا • وان المادة **١٢٦** من دستورنا توطد الدور القيادي للحزب •

ان الدور الجديد نوعياً للوعي الحقوقي الاشتراكي يتجلّى في سير الثورة البروليتارية • والايديولوجيون البورجوازيون وكذلك التحريفيون الذين يروجون الأفكار البورجوازية في الحركة العمالية لايستطيعون الجمع بين مفاهيم « النظام الحقوقي » و « الشرعية » و « الثورة » مطلقاً • « فالثورة » في عرفهم هي نفي للنظام ، هي فوضى ، وعنف ، وحكم بالقوة • والماركسيون يعتبرون الثورة دائماً أعلى نظام ، ذلك لأن هذا النظام يقوم نتيجة لضمان حقوق الجماهير • وان لينين ، اذ ثمَّن الابداع الحقوقي للجماهير الشعبية ، تكلم عن السلطة المعتمدة « مباشرة على الاستيلاء الثوري المباشر ، على مبادرة الجماهير

المباشرة ، لا على القانون الذي تصوغه السلطة الحكومية المركزية »[1]. وأوضح مثال على هذا الابداع الحقوقي المرسوم الشهير رقم ١ الصادر عن مجلس نواب الشغيلة والجنود في بطرسبرغ ١ آذار **١٩١٧** والذي نص على أن الجنود متساوون في كل الحقوق مع المواطنين المدنيين ، ومنحهم حق الانتخاب والترشيح لعضوية السوفييت . فلقد أدخل هذا المرسوم رقابة العمال على المؤسسات وحمى عمليات الاستيلاء التلقائية التي قام بها الفلاحون على أراضي الاقطاعيين... الخ.

وبعد أكتوبر الثورة عند ظهور المرسوم الأول عن المحاكم في الوقت الذي كانت لاتزال تستعمل قوانين الطبقة البائدة كان الوعي الحقوقي أحد المصادر المهمة للحق ، وأحد مقاييس تطبيق أو عدم تطبيق القوانين البورجوازية القديمة الباقية . ولقد جاء في المرسوم القضائي الأول بتاريخ **٢٢** تشرين الثاني **١٩١٧**: « ان المحاكم المحلية تحكم في القضايا باسم الجمهورية الروسية وتستند في أحكامها وقراراتها على قوانين الحكومات البائدة التي لم تلغها الثورة ولا تتناقض مع الوجدان والوعي الحقوقي الثوريين »[2] .

وفي سير التطور التالي للمجتمع يحدث تغير مناسب في الوعي الحقوقي. هكذا فالوعي الحقوقي في مرحلة الشيوعية الحربية يختلف عن الوعي الحقوقي لعهد النيب .

ان الوعي الحقوقي والحق الاشتراكيين يوجدان في علاقة معينة من التأثير المتبادل الذي يمكن أن نعبر عنه بما يلي : القانون هو شكل التعبير عن الوعي الحقوقي الاشتراكي ، وهو في الوقت ذاته يبدو أساساً لهذا الوعي .

ان الوعي الحقوقي يعطي ، أولا ، فكرة الحدود الحقوقية وفكرة القانون؛ وثانياً ، يحدّد صيغة القانون لأن القانون ينبغي أن ينسجم بشكله وبمحتواه مع الوعي الحقوقي ؛ ثالثاً ، ان للوعي الحقوقي أهميـــة عظيمـة من أجل تطبيق القانون ، أي من أجل شرحه وتحديد معناه ومن أجل تحديد العقـاب ، لأن

---

(١) لينين . المؤلفات . الجزء ٢٤ ص ١٩ .

(٢) « الشيوعي » ١٩٥٦ العدد ١١ ص ٢٢ .

القانون يضع الحدود للعقاب من ـ الى • رابعاً ، ان الوعي الحقوقي كعنصر متغير في الحياة الاجتماعية يعكس مسبقاً التناقضات بين الشروط الاجتماعية المتغيرة وبين الهيئة التشريعية ويلعب دوراً هائلا في قضية تبديل أو تنفيذ القوانين • وفي هـذا المضمار تكتسب الطباعة أهمية خاصة اذ تنقد وتفند هذا القانون أو ذاك الذي لم يعد يتلاءم مع الشروط الجديدة والوعي الحقوقي للمجتمع • ومثال ذلك مناقشة قانون منع عمليات الاجهاض وغيره • خامساً ، والوعي الحقوقي ذو أهمية عظيمة من أجل شرح حقوق وواجبات أجهزة الدولة والمواطنين • سادساً ، وأخـيراً ، ان الوعي الحقوقي يقيّم شرعية أو عـدم شرعية هـــذا التصرف أو ذاك •

لكن هذا لم يتعد كونه جانباً واحداً من جوانب القضية • فمن جهة أخرى نجد أن القوانين السوفيتية تخدم كأساس لوعي المواطنين الحقوقي في البـلد الاشتراكي • ان القضاء السوفيتي ، اذ يهتدي بقوانين الدولة ، يساعد على تطوير وتعزيز الوعي الحقوقي الاشتراكي • فعند ادخال مجموعة القوانين الجنائية في جمهورية روسيا الاتحادية عام ١٩٢٢ الى حيـز التنفيـذ أكدت الجهـات المختصة على أن تلك المجموعة أدخلت من أجل « وضع الأسس المتينة للوعي الحقوقي الثوري » • « ان أسس التشـريع الجنـائي لاتحـاد الجمهوريـات الاشتراكية السوفيتية والجمهوريات الاتحاديـة » التي أقرتهـا دورة مجلس السوفيت الأعلى في الاتحاد السوفيتي في كانون الأول ١٩٢٢ تنصّ على أن « التشريع الجنائي ينبغي أن يساعد على تعزيز القوانين الاشتراكية وعلى اجتثاث الجريمة من جذورها ، وعلى تربية روح مراعاة القوانين السوفيتية لدى المواطنين واحترام قواعد الحياة الاشتراكية » • واذا كان الحق في التشكيلات السابقة معبراً عن ارادة الطبقة السائدة وغريبـاً عن الطبقـات المستغلة ، فان الحق الاشتراكي الذي يعبّر عن ارادة الشعب ويجسّد سياسة الحزب والدولة يصبح وسيلة جبارة ـ لما له من قوة الاقناع ـ لتربية الوعي الحقوقي الاشتراكي وتنميته • ان القانون السوفيتي يقوم على أساس التنفيذ الواعي الطوعي من قبل أغلبية السكان •

ومع انتصار الثورة البروليتارية يتجسد الوعي الحقوقي الجديد في الدساتير وفي المراسيم التشريعية للدولة الاشتراكية . « ... ان الفكرة الأساسية في الوعي الحقوقي الاشتراكي في ظروف البناء الاشتراكي هي الفكرة اللينينية حول التنفيذ الصارم للقوانين السوفيتية وتأمين حقوق المواطنين ».[١]

وفي المجتمع الاشتراكي يبقى الحق ضرورياً ، ومهمته الأساسية هي حفظ النظام السوفيتي ونظام الدولة ، وحماية الملكية الاشتراكية كقاعدة اقتصادية لوجود وتطور المجتمع الاشتراكي . ان القوانين السوفيتية تؤمن حقوق ومصالح العمال في المدينة والقرية . وان حماية مصالح الفرد تنبع أيضاً من طبيعة المجتمع الاشتراكي الذي يصير الانسان فيه بامكانياته ومتطلباته هدف التطور . لكننا ينبغي ألا ننسى أنه طالما توجد الشروط المولدة لضرورة تغيير قواعد الحق فان امكانيات خرقها تكون قائمة أيضاً . ان القانون السوفيتي يحمي حقوق المواطنين من العناصر المعادية للمجتمع ـ اللصوص والقتلة والمشاغبين وغيرهم ، كما ويحميه أيضاً من أولئك الذين يسيئون استعمال السلطة ويتجاوزون الصلاحيات.

وفي فترة نضال البورجوازية ضد الحكم المطلق طرح المبدأ الديموقراطي في التشريع ـ ذلك الذي يسمى بمبدأ قرينة البراءة الذي بموجبه يعتبر المواطن المتهم بالقيام بالجريمة بريئاً حتى يثبت القضاء ادانته ، وأنه ليس على المتهم أن يثبت براءته وانما يجب على المحكمة أن تثبت ادانته .

ان قرينة البراءة هي أحد المبادىء الأساسية في العملية الجنائية السوفيتية، وشرط مهم لتطبيق القوانين الاشتراكية تطبيقاً صحيحاً .

وفي فترة عبادة الشخصية حدث انتهاك لحرمة القوانين السوفيتية وتراجعات عن الحدود اللينينية للوعي الحقوقي الاشتراكي . ولقد قام فيشيفسكي بتبرير هذه التراجعات وغيرها من أعمال الخرق الأخرى في بعض مؤلفاته . ففي كتابه « نظرية الاثباتات القضائية في الحق السوفيتي » خلص الى القول بعدم صلاحية مبدأ قرينة البراءة لكثير من الجرائم ، وأكد بأن على المتهم نفسه أن يثبت

---

(١) « الشيوعي » ، ١٩٥٦ ، العدد ١١ ، ص ٢٢ .

براءته • ان مثل هذه الموضوعات كان من شأنها أن تبرر الاستبداد ، ولهذا فقد خضعت لحملة من النقد الموضوعي في وسائل النشر[١] •

والوعي الحقوقي الاشتراكي ذو أهمية بالغة ليس من أجل ادراك الحقوق وحسب ، بل وواجبات جميع المواطنين في المجتمع الاشتراكي • وهو يقيم سلوك الناس من وجهة نظر القوانين الاشتراكية المعبرة عن المصالح الجذرية للشعب • وهو يقف لحماية العلاقات الاجتماعية الاشتراكية ،ويطالب بمكافحة الجرائم الموجهة ضد الدولة السوفيتية ، وبمكافحة اللصوص وسارقي المكتسبات الشعبية وممتلكات الشعب والتعدي على النظام الحقوقي الاشتراكي ، والجرائم الموجهة ضد الفرد ، والتعدي على حقوق المواطنين السياسية والعملية والمعيشية وغيرها من حقوق الفرد •

ان تطور المجتمع الاشتراكي، وتوطيد الوحدة السياسيةالأخلاقية ،وزيادة الرفاه المادي والثقافي للشعب للسوفيتي تنعكس في تطور الوعي الحقوقي لكل مواطني مجتمعنا • وهذا مايسمح بنقل كل المشاريع القانونية الجديدة لمناقشتها مناقشة شعبية عامة كمشروع قانون تعزيز الرابطة بين المدرسة والحياة وتطوير نظام التعليم في البلاد ، ومشاريع قانون التقاعد وغيرها ••• وتجدر الاشارة هنا الى أن المناقشة الشعبية للقانون قبل سنّه لاتمكن فقط من صياغة القانون بشكل ينسجم مع متطلبات المجتمع ووعيه الحقوقي ، وانما تساعد أيضاً على تربية الوعي الحقوقي وتنميته لدى كل المواطنين • ان قوانين المجتمع الاشتراكيتمتاز عن قوانينالدول الاستغلالية ــ عن قوانينالمجتمع البورجوازي مثلا ــ ليس فقط بجوهرها وانما بشكلها أيضاً • ان قوانين المجتمع الاشتراكي تتميز بدقة ووضوح الشكل •

وان قوة القوانين السوفييتية هي في تأييد الجماهير لها • ولذا فان تربية روح الوعي الحقوقي الاشتراكي في الجماهير هي وسيلة مهمة لتعزيز وتطوير المجتمع الاشتراكي •

---

(١) « الشيوعي » ، ١٩٥٦ ، الجزء ١١ ، ص ١٤ •

وان المطالبة بمراعاة القوانين لاتقتصر على المواطنين وحدهم وانما هي أيضاً تشمل المنظمات الحكومية والموظفين • وهذه المراعاة الصارمة هي الشرط الأساسي لنمو نشاط الجماهير السياسي والانتاجي ومن أجل التغلب على البيروقراطية والعيوب الأخرى في عمل الجهاز الحكومي •

ان اللاقانونية والاستبداد واحتقار مصالح الفرد غريبة عن النظام الاشتراكي ، بل وأكثر من ذلك ، ففي وسعها أن تسبب ضرراً كبيراً للمجتمع الاشتراكي لانها تترك ثغرة ينفذ منها نشاط عناصر الاجرام ، وتؤدي الى انتهاك مصالح الدولة وحقوق الفرد ،وتزرع بذور الفوضى وغيرها من الظواهر الشائهة بين الناس •

ان القانون السوفييتي يعتمد على التنفيذ الواعي الطوعي من قبل المواطنين جميعاً • وهو ينمي لدى الشغيلة الوعي السياسي والحقوقي والأخلاقي ويجند المجتمع كله بما فيه الأجهزة الحكومية للنضال الفعال ضد عمليات الاعتداء على النظام الحقوقي الاشتراكي • وفي النضال ضد مثل هذه الظواهر الشوهاء كالتقاعس عن أداء الواجب ـ واجب العمل مثلا ـ ، والسرقة ، والفساد ، وحب المال وتقديسه وغيرها يقوم الوعي الحقوقي الاشتراكي بالدور المهم • ولقد لبى السوفييتيون بحماس نداء الحزب لاجتثاث أعمال العربدة ومحاربة السكر وغيره من التصرفات التي تسبب الضرر للمجتمع وللمواطنين على حد سواء • والمجتمع السوفييتي يكافح الطفيليين الذين يتقاعسون عن العمل الذي يخدم المجتمع ، والذين يقومون بأعمال التهريب ويعيشون نمطاً حياتياً طفيلياً • ان كل هذه الظواهر المعادية للمجتمع أصبحت لا تطاق ولايمكن أن يسمح بوجودها البتة في هذه الظروف الراهنة ـ ظروف بناء الشيوعية •

ان جذب الجماهير الى النضال من أجل حماية النظام الاجتماعي ،وتعزيز

نشاط المحاكم الرفاقية وغيرها هي خطوة مهمة في قضية تربية الوعي الحقوقي الاشتراكي وتساعد على النهوض بالعمل الوقائي وعلى اجتثاث الجرائم وكل التصرفات التي تجلب الضرر للمجتمع •

والى جانب ذلك فان الاشخاص الذين يقومون بجرائم خطيرة بالنسبة للمجتمع ينبغي أن يلاقوا عقابهم الصارم •

وهكذا ، فخلال عصر تاريخي كامل ، عندما تقوم الطبقة العاملة ومن ورائها كل الجماهير الكادحة بالنضال ضد الرأسمالية من جهة ، ومن جهة أخرى عندما تنشأ وتتطور العلاقات الاشتراكية الجديدة فان وجود الحق ضروري وحتمي • وبديهي أن ارادة الشعب التي يعبر عنها في الحق ينبغي أن ترتكز على قوة الدولة السوفييتية وعلى التأييد الواسع من قبل الجماهير ، وعلى الوعي الحقوقي الاشتراكي •

لقد قدمت الاشتراكية للشغيلة أوسع الحقوق والحريات • وان الانتقال الى الشيوعية يعني ـ كما ورد في برنامج الحزب ـ تطوير حرية الفرد وحقوق المواطنين السوفييت الى أوسع نطاق • وما من شك في أنه مع حركة مجتمعنا نحو الشيوعية سوف يزيد من مساهمة المواطنين في ادارة دفة الدولة ، ومن النهوض بدور المنظمات الاجتماعية ، أي مع تحقيق الاجراءات المقترحة في البرنامج الجديد للحزب لتطوير الديموقراطية الاشتراكية الشعبية العامة سوف يقوى ويتوطد الوعي الحقوقي الاشتراكي ، وتصبح الجرائم ظاهرة نادرة ، ويتعاظم الشعور الجماعي ، ومع تعاظمه سوف تزول تدريجياً ضرورة التنظيم الحقوقي الاداري للعلاقات الانسانية ، وسوف تنشأ الشروط لاستبدال قواعد التربية والتأثير الاجتماعي بتدابير العقاب الجنائي •

ومع انتصار الشيوعية يتلاشى القانون ، وتزول الفوارق بينه وبين الأخلاق لتصير في ذمة الماضي ، وآنئذ تنعدم الحاجة الى اكراه الناس على مراعاة القواعد الضرورية للعيش •

الفصـل الرابـع

الأخـلاق

الأخلاق ـ كالحق والسياسة ـ هي ، قبل كل شيء ، مجال معين للعلاقات الانسانية • وتنشأ العلاقات الأخلاقيـة في المجتمع لأن الافراد لايقوون عـلى العيش لوحدهم خارج المجتمع ، خارج جماعة تاريخية معينة (سواء أكانت عشيرة أم قبيلة ، أسرة أم طبقة أم أمة ••• الخ) التي يكون لها دائماً بعض المطالب بالنسبة لسلوك الأفراد المنتمين اليها • ولهذا فان العلاقات الأخلاقية توجد حقيقة في المجتمع ، وان كل انسان يحس بها في حياته اليومية المباشرة •

وتشمل الأخلاق كل ميادين نشاط الناس وعلاقاتهم المتبادلة في المجتمع لأن الانسان يتصرف دائماً كعضو في جماعة معينة ، وهو ، اذ يتمتع بوعي وارادة ، يكون ملزماً بجعل سلوكه منسجماً مع مصالح الجماعة • وان ميدان العلاقات الأخلاقية أوسع من ميدان العلاقات السياسية أو الحقوقية •

والمادية التاريخية هي وحـدها التي تسمح لنا بتحليل الأخـلاق علمياً كظاهرة اجتماعيـة ، وتتيح لنا فهم نظريات الماضي الخلقية من وجهة نظر نقدية ، وتساعدنا على تكوين أخلاق شيوعية جديدة بشكل واع •

١ ـ نشوء وجوهر الأخلاق

ان العلاقات التي تنشأ في الانتاج وفي ميادين النشاط الاجتماعي المختلفة ، وفي الأسرة والواقع ••• تنعكس وتتوطد في شكل قواعد معينة لسلوك الناس الذين يخضعون لها في علاقاتهم الخلقية المتبادلة • فالأخلاق هي شكل معين للوعي الاجتماعي يعكس علاقات الناس في مفاهيم الخير والشر ، العادل والظالم ،

الصالح والطالح .... ويوطد في شكل مبادىء خلقية وقواعد للسلوك مطالب المجتمع أو الطبقات من الفرد في حياته اليومية المباشرة . وتدرك هذه المطالب الموضوعية من قبل الفرد كواجب عليه تجاه الآخرين سواء في الأسرة أو الطبقة أو الموطن أو الدولة .. الخ . وان خاصة الادراك الخلقي لهذه الواجبات هي أنها تبرز لا كشيء مايفرض من الخارج ، بل كشيء ما نابع من قناعة الفرد . لكن هذا لايعني أن الوعي أو الشعور الخلقي يتولد من الذات بكل معنى الكلمة . فالحدود الخلقية تصبح « باعثاً داخلياً » للانسان نتيجة التربية ومعرفة العادات والأعراف والتقاليد السائدة في المجتمع .

ان المجتمع أو الطبقة ، اذ يتقدمان بمطالب خلقية معينة الى الفرد ، يحميان هذه المطالب بقوة الرأي العام . وان خاصة الأخلاق التي تميزها عن الحق هي في أن المبادىء والقواعد لاتكتب عادة ، وليس ثمة مؤسسات خاصة لحراسة الأخلاق الاجتماعية . والناس الذين يتجاوزون حدود الأخلاق يحاكمون من قبل الرأي العام الاجتماعي . ولاتتحدد قوة هذا الحكم بأهمية التقييم الخلقي وحسب ، وانما بما يتبعه عادة من أفعال معينة أيضاً . فالانسان الذي كان يتعدى حدود أخلاق النظام العشائري كان ينبذ . والنبيل الذي يتعدى حدود الشرف لم يكن يخضع لمحاكمة « مجتمع » النبلاء وحسب ، وانما كان يجد نفسه خارج ذلك المجتمع ... الخ .

وهكذا ، فالمجتمع يولد الاخلاق ويقوم على حمايتها . والمادية التاريخية تدفع بهذه الموضوعة لمجابهة النظريات المثالية الدينية المختلفة عن الأخلاق . فالدين يؤكد أن الأخلاق هبة السماء ، وأنها تعبر عن أوامر الاله ؛ ولذا فالانسان مرغم على تلبية مطالب الاخلاق تجنباً لغضب الاله وخوفاً من عقابه ؛ كما لو أنه لايمكن أن توجد الأخلاق بدون الدين أو الايمان بالله ، وأن من يخرج على الدين يقضي على أساس ومنبع الأخلاق .

ان علم الاخلاق المثالي يخرج الاخلاق من الوعي الانساني . وهو في جوهره يعيد الأساس الديني للأخلاق ليضعه في شكل مبهم جديد . ففي

رأي كانت ، مثلا ، لايجوز النظر الى الأفكار الخلقية كأفكار ناتجة عن الحياة المادية للناس ، وهو يرجع الأخلاق الى عالم ما وراء الطبيعة الذي ينبغي الاعتقاد بوجوده • ويرى كانت أن الانسان يكون أخلاقياً اذا ما تحددت ارادته بالقانون الأخلاقي الخالد العام الـذي لايتبدل ، والذي يعبر عن مطالب عالم ما وراء الطبيعة •

وقد استعر النضال قبل ماركس ضـد التفسير الديني للأخلاق • ولقد برهن ابيقور ولوكريتسي وسبينوزا وغولباخ وفيرباخ وتشيرنيشفسكي وغيرهم على أن المصدر الحقيقي للأخلاق ليس خشية الله وعالم ما وراء الطبيعة ، بل الطبيعة المادية للانسان • وتلك مأثرة سجلها لهم التاريخ بحق • ولقد صرحوا بأن مجتمع الملحدين يمكن أن يكون أكثر أخلاقيـة من مجتمع المؤمنين • لكنهم كانوا ينظرون الى الانسان بشكل مجرد ككائن في الطبيعة ، ولهذا فلم يتمكنوا من كشف الأسس الاجتماعيـة الواقعية للأخلاق وابعاد المثاليـة عن علم الأخلاق •

ولقد برهنت الماركسية وحدها على أن الأخلاق ليست شيئاً ما مفروضاً عـلى المجتمع من الخارج ، وليست نتاجاً « لطبيعة الانسـان » • ان مصـدر الأخلاق هو المجتمع والمصلحة الاجتماعية • وبما أن بنية المجتمع ومصالحه مشروطة بالنظام الاقتصـادي ، وبالقاعدة ، فان الاخـلاق هي أيضـا تتحدد بالاقتصاد • ان الحل المادي للسؤال حول مصدر الأخلاق يؤدي بالضرورة الى نتيجة مهمة واحدة : مع تطور المجتمع ، ومع تغير بنيته الاقتصادية لابـد وأن تتغير الأخلاق أيضا • ان الأخلاق مسألة تاريخية • وليس ثمة أخلاق مجردة غير متغيرة خالدة ومستقلة عن التاريخ • ولذا فمن أجل فهم جوهر الأخلاق تنبغي دراستها في التطور التاريخي •

ان الأخلاق هي أقدم أشـكال الوعي الاجتمـاعي • ونشوؤها مرتبط بالانتقال من شكل السلوك الغريزي الى العمل كنشاط واع هادف تقوم به الجماعة التي تنشأ فيها العلاقات الاقتصادية وأواصر القربى •

وان العلاقات المادية التي تنشأ بشكل عفوي ومستقل عن ارادة ووعي الناس تنعكس وتتوطد في الوعي بشكل قواعد وحدود معينة للسلوك ينبغي أن يتقيد بها كل فرد من أجل بقاء الجماعة وتوطيد امكانياتها في العيش ووحدتها. وبما أن انسان المجتمع البدائي الأول لم يكن ليقدر على العيش والكفاح وحيداً ، وبما أنه كان يجد قوته في الجماعة فقط فان الضرورة القاسية كانت ترغمه على مراعاة قواعد الحياة التي كانت تظهر بشكل مطالب أخلاقية .

وتنشأ الأخلاق لايجاد نوعية الطباع وقواعد السلوك لدى كل فرد ، والتي بدونها لايمكن أن يتحقق العمل الجماعي والكفاح المشترك ضد الأعداء . ان قواعد السلوك هذه من شأنها أن تنظم العلاقات بين الجنسين ، وهي ، على العموم ، شروط ضرورية للعيش . وينبغي هنا أن نأخذ بعين الاعتبار أن أشكال الوعي في المجتمع لم تكن قد انفصلت بعد . وكانت الحياة الاجتماعية كلها تسير وفق مجموعة معقدة من القواعد السلوكية التي تبرز في وقت واحد كحاجة خلقية وكأواصر دينية وكقواعد جمالية .

لقد نشأت أخلاق المجتمع البدائي الأول وتطورت في ظروف النضال المرير ضد الطبيعة عندما كان الانسان بكليته مسحوقاً بمصاعب العيش . ولهذا فقد كانت تحمل طابع نمط العيش البدائي نصف الحيواني لأناس ذلك الزمن. وفي المراحل الأولى من تطور المجتمع البدائي لم تكن الأخلاق لتحاكم الناس على تزاوج الأقارب أو قتل المسنين أو غيرهما . الا أن أخلاق النظام العشائري - اذ نشأت وتطورت في مجتمع خال من الملكية الخاصة ومن وجود الطبقات ومن كل ما تسببه من شره وجشع وحرص على المال - كانت أخلاقاً جماعية ربت في الناس البطولة والتضحية وغيرهما من المزايا التي يمكن أن تنتج فقط عن الجماعة القائمة على العمل الحر لأفرادها .

وفي المجتمع الطبقي حملت الأخلاق طابعاً طبقياً . واذا كان الوضع الاقتصادي وبالتالي مصالح الطبقات في المجتمع الطبقي المتناحر تتمايز فيما بينها تمايزاً صارخاً فمن الطبيعي أن تتمايز مطالبها الخلقية بالنسبة لسلوك الفرد .

ان أخلاق المجتمع العبودي هي أول شكل للأخلاق الطبقية • فقد كانت أخلاق مالكي العبيد هي السائدة في ذلك المجتمع • وهي ، اذ نشأت على أساس العلاقات الاقتصادية للنظام العبودي ، كانت تعكس العلاقات القائمة بين العبيد ومالكيهم بالدرجة الاولى • وان الخاصة المميزة لهذه الأخلاق هي أنها كانت لاتعترف بالعلاقة الانسانية الا بين الاحرار من الناس • فالعبد خارج الاخلاق• وهـو سلعة وشيء ، وأداة ناطقة ، ولهذا فقد كانت الأخلاق تسمح بظلمه وجلده وقتله • وان تلك المعاملة الوحشية للعبد لم تكن لتوقظ أي « تأنيب ضمير » لدى مالكه ، وكانت الاخلاق تبررها ، لكن هذا التبرير لم يكن الا ضرورة اقتصادية أملتها العلاقات العبودية لذلك العصر •

وبالطبع ، ظهر الاحتجاج في أوساط العبيد بصورة عفوية ضـد الظلم ، ولما لم يعد الرق مبرراً اقتصادياً صارت الأخلاق تحاكمه على نطاق واسع في المجتمع • لكنه ليس تقدم الأخلاق هو الذي أدى الى القضاء على النظام العبودي كما يؤكد بعض العلماء البورجوازيين ، وانما تطور الانتاج الذي أدى الى جعل علاقات الرق الاقتصادية غير مربحة •

ومع الانتقال الى الاقطاعية صارت الأخلاق الاقطاعية هي السائدة • فهي لاتنظر الى القن كشيء وانما كانسان من الدرك الأسفل « العظم الأسود » • بينما كانت تنظر الى ممثلي الطبقة السائدة كبشر من الصنف الممتاز « العظم الأبيض » • والى جانب هذا فقد كانت الأخلاق الاقطاعية تخفي ظلم الاقطاعيين الوحشي للفلاحين ، وتقنع الشكل الاقطاعي للاستغلال • ولقد كانت تصور بنفاق كبير علاقة السـيد بفلاحيه كعلاقة الأب ببنيه الـذي يوجههم ويرعاهم ويتحمل المسؤولية عنهم • وان دين المجتمـع الاقطاعي قام بتفسير الأخلاق السائدة وبوضع الأسس لها اذ صور مطالبها وحدودها التي تعبر في الواقع عن مصالح المستغلين كأوامر الهية • والأخلاق الاقطاعية التي ارتكزت على الدين ساعدت على كبح جماح جماهير الفلاحين المسحوقة السوداء •

ولقد انتصرت الرأسمالية على الاقطاعية تحت شعار الحرية ، والمساواة ، والنضال ضد كل أشكال التبعية الفردية والامتيازات الاقطاعية .

ومع هـذا فقد أحرز التقدم الاجتماعي خطوة الى الأمام عـلى صعيد الأخلاق . فالايديولوجيون البورجوازيون ، اذ يناضلون ضد الايديولوجيا والأخلاق الاقطاعيتين ، ناضلوا في سبيل حرية الفكر وحرية النشاط ومن أجل تحرير الفرد من كل القيود الاقطاعية الممكنة . لكنه مـع انتصار الرأسمالية يتكشف المضمون الحقيقي لأفكار الحرية والمساواة والانسانية البورجوازية . فالمساواة البورجوازية شكلية ، وهي تخفي تبعية العامل للرأسمالي ،والاستغلال الشديد الوطأة للمنتج المباشر المقيد اقتصادياً من قبل الرأسماليين بقيود أقوى من أية قيود حديدية أخرى . ان الحرية البورجوازية هي حرية الرأسماليين في الاستيلاء عـلى عمل الآخرين ، وهي بالنسبة للبروليتاري بيع قونه العاملة أو الموت جوعاً . والانسانية البورجوازية أيضاً مجردة . فالرأسمالية فيالواقع لاتخلق الشروط الواقعية لتطور وازدهار الشخصية . وأكثر من ذلك فهي تحول جدارة الانسان الى قيمة نقدية ، والعلاقات بين الناس الى علاقات مالية .

ان الأخلاق البورجوازية تعكس ظروف الاقتصاد الرأسمالي حيث الدافع المحرك الأساسي لتطور الانتاج انما هـو العدو وراء الربح . وبهـذا يصطدم الرأسماليون بعضهم ببعض في صراع تزاحمي عنيف . والسيطرة على الانتاج والمزاحمة يولدان العداء المتبادل ويزرعان الريبة والأحقاد . فكل يهتم بنفسه وبمصالحه الخاصة وينظر الى باقي الناس كوسيلة لتحقيق أهدافه الخاصة . فيكون رفاه البعض على حساب شقاء الآخرين ، ويسود المبدأ القائل : اما أن تَسرق أو أن تُسرق ، فالانسان ذئب لأخيه و « ان لم تكن ذئباً أكلتك الذئاب » .

هذه هي الظروف التي تولد أخلاق البورجوازية . ومن هذه الظروف الاقتصادية بالذات نشأت الفرديـة البورجوازيـة ـ المبدأ الاساسي للأخلاق البورجوازية . ان أعظم مايُعنى به البورجوازي هو السعي خلف الربح . وهذا المذهب الفردي البورجوازي يتغلغل في جميع نواحي الحياة البورجوازية: في علاقات الانتاج ، وفي السياسة ، وفي الأسرة ... الخ .

ان مبدأ الفردية هو السائد في سلوك البورجوازي • لكن ليس من مصلحة البورجوازية أن تعلن عن مصالحها الجشعة بصورة سافرة ومكشوفة• ان البورجوازي يسعى لتبرير أنانيته وفرديته في الوعي الأخلاقي اذ يصور السعي لبلوغ أهدافه الجشعة كاهتمام بالمصلحة العامة • وهنا تتجلى الفردية الحيوانية « كحرية للفرد » ويتجلى استثمار العمال « كانقاذ للمحرومين من الجوع » وكتقديم الخبز للجائعين ، ويتجلى انتاج السلع من أجل الحصول على الارباح كتأمين المواد الضرورية للمجتمع ، ويتبدى استعباد الشعوب الأخرى كعملية « تمدين » لها • ولهذا فان مايميز الأخلاق البورجوازية هو طابعها المنافق عندما تتقنع شريعة الغاب في عالم الملكية الخاصة بستار من تعاليم الايديولوجيين البورجوازيين •

ويحكى أن أحد أصحاب الصناعة السينمائية اقترح على برناردشو أن يخرج مسرحياته على شاشة السينما • فوضع شو شروطاً لاتلائم ذلك الرجل ، عندئذ بدأ يستنجد بمشاعر شو كأديب : ان شو يخدم الفن خدمة جلى اذا ما قبل شروطي • فأجابه شو : « انظروا جيداً ، ان كل التعقيدات في الأمر تنحصر في أن انساناً مثلكم لايفكر الا بالفن ، بينما أنا لا أفكر الا بالمال » •

ان سخرية شو تفضح بجلاء صفاقة الأخلاق البورجوازية •

ان الأخلاق البورجوازية السائدة تلزم المجتمع كله ، الا أنها تؤثر تأثيراً كبيراً على الفئات البورجوازية الصغيرة من الناس التي تساعدهم حياتهم العاطلة على تقبل الأخلاق الفردية • ولقد قال لينين في صدد حديثه عن الأعراف البورجوازية الصغيرة : « اذا كنت أعمل في هذه القطعة من الأرض فلا مكان لي في غيرها ، واذا ما عانى الآخرون الجوع كان هذا لصالحي لأنني أبيع الخبز بأثمان باهظة • وان كنت أعمل في مكاني الصغير كطبيب أو مهندس أو معلم أو مستخدم فلا مكان لي في عمل آخر • واذا حصل تسامح من قبل أصحاب السلطة ربما أستطيع أن أشق طريقي لأكون بورجوازياً »[1] •

---

(١) لينين • المؤلفات • الجزء ٣١ ص ٢٦٩ •

لكنه في قلب المجتمع البورجوازي في العمل المشترك وفي المعارك الطبقية ضد الرأسماليين تنشأ وتتكون تدريجياً الأخلاق البروليتارية الجديدة التي تقف وجهاً لوجه أمام الأخلاق البورجوازية السائدة • وأخلاق البروليتاريا أخذت من الطبقات الكادحة في الماضي النقمة الأخلاقية على المستغلين والتمجيد الأخلاقي للنضال من أجل مصالح الشعب • واذا كانت الطبقات الكادحة في الماضي قد دخلت في نضال سافر ضد مستغليها فقد كانت تبرر ذلك النضال أخلاقياً• ان الأخلاق البروليتارية هي جديدة نوعياً وانسانية حقاً ، فهي لاتعكس فقط شروط حياة الطبقة الكادحة ، بل وتعكس نضالها من أجل المجتمع الاشتراكي الجديد الحر من كل ظلم أيضاً • ومع تطور النضال الطبقي تتحد الاخلاق البروليتارية مع الايديولوجيا العلمية التي وضعها مؤسسا الماركسية لتكون الأخلاق الشيوعية التي تتوطد كأخلاق للمجتمع الاشتراكي الجديد الذي قام على أنقاض الرأسمالية •

وهكذا ، فليس ثمة أخلاق خالدة غير متغيرة • ان الأخلاق تاريخية ومحدودة بالزمان والوسط • وهي في المجتمع الطبقي تحمل طابعاً طبقياً حيث تكون أخلاق الطبقة المسيطرة هي السائدة • لكنه مع تقدم المجتمع تنشأ بعض القواعد الجوهرية للسلوك من شأنها أن تدخل مجموعات القواعد الخلقية للشعوب والطبقات • وهي لاتعبر عن المصالح الخاصة وعن وضع طبقة معينة ، بل عن عوامل خلقية لمختلف أفراد الانسانية • وان وجود هذه العوامل يفسر بذلك الشيء العام الذي يفصل كل جماعة انسانية عن القطيع الحيواني • وفيها تتوطد السمات العامة لثقافة العلاقات الانسانية التي دعاها لينين بالشروط الجوهرية للمجتمع • لكنه ينبغي ألا ننظر الى عناصر الأخلاق الانسانية العامة كشيء ما خارج عن التاريخ ، فهي نتاج للتطور التاريخي •

ان الوعي الخلقي هو نتاج اجتماعي وتعبير عن الطبيعة الاجتماعية للانسان • وعلى هذا الأساس بالذات تنشأ امكانية بحث الأخلاق كظاهرة اجتماعية خاصة بالرغم من أنها توجد في الواقع كأخلاق معينة ومحددة تاريخياً•

والماركسية ـ اللينينية ، اذ تدحض فكرة خلود وعدم تبدل القواعد

والمبادىء الأخلاقية ، فهي تقف كذلك ضد النسبية الخلقية التي يروجها الاستبداد والذاتية في تقييم سلوك الانسان وفي التمييز بين الخلقي وغير الخلقي • ان النسبية الخلقية تتاجر بنسبية القيم الخلقية لتنتهي الى جعل التبدل الواقعي للقواعد تبدلا مطلقاً ، والى نفي المقاييس الموضوعية لتصرف الانسان •

ان علم الأخلاق الماركسي يعتبر تبدل القواعد الأخلاقية شاهداً على ارتباطها بالشروط التاريخية المتبدلة • لذا فعند دراسة الأخلاق والقيم الخلقية لتصرفات الناس في عصور وطبقات مختلفة تطالب الماركسية بدراستها تاريخياً وبشكل مشخص •

والنسبية الخلقية غير مقبولة لأن التقدم الخلقي له مكانه في التاريخ كذلك • وهذا التقدم الخلقي يقوم على أساس نضال الجماهير الشعبية من أجل تحررها الاجتماعي والذي كان يتحقق بنتيجته الانتقال من العبد الى العامل المأجور الحر شكلياً ماراً بالقن • لكن التقدم الاخلاقي في تطور التشكيلات الطبقية المتناقضة كان يحمل طابعاً متناقضاً الى درجة كبيرة •

ان تقدم الأخلاق لايتطابق مع تقدم المعرفة ،ولا يجوز النظر اليه كحركة من الأخلاق النسبية الى الأخلاق المطلقة • والأخلاق ، خلافاً للعلم ، لاتهدف الى معرفة الحقيقة الموضوعية ، بل الى وضع قواعد معينة لسلوك الفرد يتطلبها المجتمع في مرحلة من مراحل تطوره • والأخلاق نسبية ، باعتبارها تعكس شروط الحياة المتبدلة • لكنه في كل عصر ، تعتبر الأخلاق التي تدافع عن المستقبل وتعكس مهمات التطور التقدمي للمجتمع هي الأخلاق الحقيقية •

ولكن هل يعني ذلك أنه ليس ثمة في الأخلاق حقائق موضوعية ؟

ان الأخلاق ، كشكل من أشكال الوعي الاجتماعي يعكس العلاقات الاقتصادية تبرز بشكل ايديولوجيا ، أي بشكل عنصر في البنيان الفوقي الذي تولده وتخدمه • والى جانب هذا فالوعي الخلقي هو شكل من أشكال معرفة العلاقات الاجتماعية وعنصر معين في الثقافة • والأخلاق تجمع تجربة العلاقات الانسانية وتصممها في شكل قواعد وحدود معينة للسلوك • وفي الأخلاق يوجد

عامل معرفي حقيقي موضوعي • وهذا المحتوى الحقيقي الموضوعي للأخلاق الذي تحمله الجماهير الشعبية صانعة التاريخ يُترك ويُحفظ في سير التطور التاريخي للأخلاق • وعلاوة على ذلك ، فان الجانب المعرفي في الأخلاق يساعد على تجميع وتوطيد التجربة التاريخية الملموسة لحياة هذه الجماعة أو تلك في شروط تاريخية ملموسة • ولهذه التجربة قيمة عابرة ، الا أنها تبرز كعنصر في معرفة العلاقات الاجتماعية القائمة •

ولقد بلغنا مستوى من التطور في وقتنا هذا حيث أخذت تنتشر الأخلاق الانسانية صاحبة المستقبل ـ الأخلاق الشيوعية التي تنظم العلاقات بين الأحرار في المجتمع الحر •

٢ ـ مكان ودور الأخلاق في المجتمع

ترتبط الأخـلاق بمختلف الظواهر الاجتماعيـة وبكل أشـكال الوعي الأخرى ، وتؤثر تأثيراً معيناً على تطور المجتمع •

وهي تقوم بدور مضاعف في نشاط الناس في المجتمع • فهي ، أولا ، تبرز كمجموعة من المطالب الاجتماعية أو الطبقية التي هي قواعد لسلوك الفرد ترشـده الى التصرف الصحيح • وهي ، ثانياً ، تساهم في تكوين طباع الفرد وشخصيته ومزاجه • ان مطالب الأخلاق التي يتلقاها الانسان ويستوعبها تنطبع في نفسه كسمات لطباعه هــو ، وكخصال خلقية ، وتبرز كقناعة داخليـة وكخواطر مثالية لتصرفاته •

ويمكن أن تصبح القواعد الأخلاقية الاساس الواقعي لسلوك الانسان ، ليس فقط عندما تبلغ وعيـه ، بل وعندما تصبح السمات العضويـة لطباعه ، وتتجسد في شعوره ، وتصبح قواعد سلوك بالنسبة له • وليس عبثاً بعد هذا أن نقول : العادة ـ طبيعة ثانية • وليس من قبيل الصدفة بعد هـذا أن تقوم بالدور الكبير في تكوين المظهر الخلقي لا الدعاية الكلامية ، بل التقاليد والعادات والأعراف السائدة في المجتمع ، والمشاركة في النشاط العملي •

ولهذا ، فان العامل الأخلاقي يقوم بالدور المهم في نشاط الانسان الذي

يتحدد بشروط اجتماعية • وبما أن الانسان كائن واع فان في استطاعته أن يتصرف بأشكال مختلفة في شروط معينة • وان العامل الذاتي وفردية الانسان هما اللذان يلعبان الدور في اختيار الخط السلوكي للانسان • فالانسان يتمتع بحرية الارادة نسبياً وبحرية الاختيار ، ويستطيع أن يتصرف في شروط معينة بأشكال مختلفة ، تصرفاً سيئاً وتصرفاً حسناً ، أن يسبب الخير والشر •••الخ•

وتؤثر الأخلاق على التطور الاقتصادي للمجتمع ، وبالدرجة الاولى من خلال علاقة الانسان بالعمل والملكية • لقد كان العمل لعنة على العبد ، وبقي عبئاً ثقيلا للفلاح في المجتمع الاقطاعي ، وضرورة قاسية بالنسبة للعامل المأجور في المؤسسات الرأسمالية •

وبالطبع ، كانت تتطور في ظروف الظلم عناصر العلاقة الخلاقة التي تربط بين الانسان والعمل وتكون وعي الكبرياء والفخر لدى العامل القادر على خلق أشياء رائعة • ان العمل لا يتحرر من قيود الاستغلال ولا تمجده الأخلاق الا في عهد الاشتراكية فقط • وان التقييم الخلقي الرفيع للعمل بما يتلاءم وعلاقات الانتاج في التعاون الرفاقي في الاشتراكية يساعد على تكوين العلاقات الشيوعية نحو العمل التي هي العامل الجبار في تنمية انتاجية العمل وتطوير الاقتصاد الاشتراكي •

وفيما يخص علاقة الملكية فان أخلاق كل الطبقات المستغلة السائدة كانت تبرز كاحدى القوى الايديولوجية التي تساعد على توطيد وجود شكل الملكية الخاصة • فقد جعلتها ملكية مقدسة ، وأخضعت كل عملية اعتداء عليها لأحكامها •

والأخلاق الشيوعية ، خلافاً لأخلاق المستغلين ، تعلن أن الملكية الاجتماعية هي المقدسة وتجب حمايتها ، هذه الملكية التي تؤمن رفاه وتطور المجتمع كله وجميع الكادحين • والمجتمع الاشتراكي يصم أكلة الحق الشعبي بالعار لأنهم يعتدون على رفاه الشعب بمجموعه •

وتوجد الأخلاق في علاقة معقدة من التأثير المتبادل مع السياسة والايديولوجيا السياسية • فالسياسة ، كعلاقة بين الطبقات ، تتحدد بمصالح هذه الطبقات ، ولاترتبط من حيث المحتوى بالأخلاق • أما في النضال السياسي فتسعى كل طبقة دائماً لاستخدام العامل الأخلاقي لمصالح سياستها الخاصة ، وتعتمد عليه • ولهذا فالسياسيون مضطرون الى هذا القدر أو ذاك للاهتمام بالأخلاق السائدة في المجتمع • وعموماً ليست السياسة هي التي تخدم الأخلاق وانما الأخلاق هي التي تخدم السياسة •

والسياسة ، كظاهرة في الحياةالاجتماعية ، تختلفعن غيرها كاللغة مثلا ، اذ أنها تخضع للتقييم الأخلاقي • وهذا التقييم يتعلق بالمحتوى الواقعي للسياسة وبأهدافها ، وبطرق تسييرها في حياة المجتمع ، وكذلك بمنطلقات ومواقع التقييم ذاته • والتقييم الأخلاقي الصحيح للسياسة هو ذاك الذي ينطلق من مواقع الأخلاق التقدمية لهذا المجتمع أو ذاك • هكذا ، فالماركسية ـ اللينينية مثلا تقسم كل الحروب الى عادلة وغير عادلة ، أي انها تعطي الظاهرة السياسية تقيماً خلقياً • وان التقييم الخلقي الايجابي أو السلبي لهذه الحرب أو تلك ذو أهمية جد كبيرة لأن العامل الأخلاقي يلعب دوراً خاصاً في الحرب •

ان شعوب العالم جميعاً تستنكر سياسة التحضير لحرب عالمية جديدة ، هذه السياسة التي تنتهجها الأوساط الامبريالية في الولايات المتحدة الأمريكية ، وهذه المحاكمة الخلقية هي عامل مهم في النضال من أجل السلم بين الشعوب •

وديالكتيك التاريخ هنا هو في أن النضال من أجل الاهداف السياسية التقدمية العادلة يولد في الجماهير نهضة وحماساً أخلاقيين يؤلفان القوة الهائلة في تحقيق المهمات السياسية • فلا يمكن أن يتحقق أي شيء عظيم بدون حماس ،

لكن هذا الحماس ، وهذه الطاقة ذاتها ، تولدهما عظمة أهداف النضال • وان النهضة والحماس الخلقيين اللذين ولدتهما ثورة اكتوبر الاشتراكية العظمى مكنا شعبنا من التغلب عـلى المصاعب الهائلة ، وتحطيم قطعان الجيش الأبيض والمغامرين ، ومن التغلب على الجوع والخراب •

وبالطبع لم يكن الحماس وحده كافياً لانتصار الثورة ، بيد أن العامل الأخلاقي كان قوة ضرورية ومهمة جداً لتأمين الظفر •

الا أن السياسة الرجعية الظالمة تؤثر بأخلاقيتها تأثيراً سلبياً مثبطاً وتعجز عن تكوين الوحدة والحماس الخلقي •

وكما يبين لنا التاريـخ فان الطبقات القديمة المنزاحة من درب التاريخ كان يحدث فيها الانحلال الخلقي الى جانب الانحلال الاقتصادي والاجتماعي• هكذا كانت الحال بالنســبة لأصحاب الرق وللاقطاعيين ، وهكذا هي الحال بالنسبة للبورجوازية الامبريالية • ان الانحطاط الخلقي يضعف الطبقة ويساعد على هلاكها • والسياسة الرجعية لا تلقى التأييد من قبل الجماهير بل الاحتجاج والنقمة • وهذا هو أحد الأسباب التي تجعل البورجوازية الامبريالية المعاصرة تسعى جهدها لتغطية الأهداف الحقيقية لسياستها المعادية للشعب • لكن النفاق والأقنعة لاتفيد الطبقة التي حكم عليها التاريخ بالهلاك •

وفي المجتمع الاشتراكي يتحقق الانسجام بين السياســة والأخلاق لأن الشعب يهتم بتحقيق أهداف السياسة الشيوعية في بناء الاشتراكية ، ولأن الطريق الى الشيوعية هــو طريق زيادة رفاهية وثقافة الشعب •

ومن أجل خصائص الأخلاق ومكانها في الحياة الاجتماعية يكون للعلاقة المتبادلة بينها وبين الحقوق أهمية كبرى لابد من الوقوف عليها • والذي يقرب بين الأخلاق والحقوق هــو أن كــلا منهما تولده ضرورة تنظيم العلاقات بين

الناس بمساعدة قواعد معينة ، وأن كلا منهما مدعو لتعزيز وتوطيد العلاقات المادية بين الناس • والأخلاق والحقوق يضعان قواعد السلوك والعلاقات المتبادلة بين الناس التي تتطلبها وتوطدها العلاقات الاقتصادية ، لكنهما لا يرسمان الأهداف ولا يقومان بتحديد مهمات نشاط الناس في المجتمع • وبهذا يتميزان عن السياسة التي توحد الناس مباشرة من أجل بلوغ أهداف معينة •

فالأخلاق تتطلب مراعاة فروضها بشرف • لكن محتوى هذه الفروض لاينبع من الأخلاق ذاتها وانما من الشروط الواقعية لحياة الناس • ففي كل مجموعة للقوانين مواد تنص على معاقبة السارق ، لكن هدف القانون ـ حماية الملكية ـ لاينبع من القانون ذاته وانما من العلاقات الاقتصادية •

وهنالك فوارق جوهرية بين الحق والأخلاق : اذا كانت الأخلاق تظهر مع ظهور المجتمع الانساني وتبقى طالما المجتمع باق ، فان الحق يرتبط بوجود الطبقات والدولة ؛ وهو يظهر معهما ويزول بزوالهما •

كما أن مجالات تأثير كل من الحق والأخلاق مختلفة أيضا • فالاخلاق تتغلغل الى جميع أشكال العلاقات الانسانية ، أما الحق فيقوم بالدرجة الأولى بتنظيم علاقات الملكية وحماية مصالح الدولة ، ولهذا فان مجال تأثير الاخلاق أوسع من مجال تأثير الحق • ثم ان كل علاقات وأفعال الناس الخاضعة لتأثير الحق تكون ذات جانب خلقي • فالكذب والسرقة وقسر الفرد على العدوان ليست جرائم أمام القانون وحسب ، بل وأمام الاخلاق أيضا • لكنه ليس كل العلاقات الخلقية تخضع للقانون كالحب والصداقة وغيرهما • وثمة بعض القواعد الحقوقية ـ المعاملات القانونية وقواعد الحقوق الادارية وغيرها ـ التي لا علاقة للأخلاق بها • واذا كان من غير الممكن أن يقوم نظامان للحقوق في مجتمع ما ، فان هذا لا ينطبق على الاخلاق ، اذ من الممكن أن يقوم أكثر من نظام خلقي في المجتمع الطبقي • والى جانب الأخلاق السائدة التي تعبر عن مصالح الطبقة المسيطرة وفي الطرف المقابل لها تنشأ أخلاق الجماهير الكادحة وكل الطبقات المضطهدة • وعلاوة على هذا ، فان قواعد الاخلاق

لاترتكز على جهاز قمع ما ، وانما يعززها ويوطدها الرأي العام الاجتماعي •

ان الحق والاخلاق السائدة في أي مجتمع كان يوطد أحدهما الآخر ما داما يخدمان مصالح معينة واحدة • وان أخلاق الجماهير المضطهدة تتناقض مع الحق ، وخاصة مع ذلك الجانب منه الذي يوجه للمحافظة على النظام القائم • وفي المحافظة على العلاقات القائمة لاينفي أحدهما الآخر وانما يتممه ، وبالطبع ان الحق يعتمد على القوة ، وكلما تعزز بالرأي العام الاجتماعي كلما زاد تأثيره على المجتمع •

ان الطابع المحسوس للتأثير المتبادل بين الأخلاق والحق في التشكيلات الاجتماعية المختلفة يرتبط أيضا بأصالة تلك العلاقات الاقتصادية التي تولدهما ويقومان بخدمتها •

ولننظر الآن الى علاقة الأخلاق بالأشكال الأخرى للوعي الاجتماعي • ويمكننا هنا أن نقوم بفرز العلاقات النوعية بين الأخلاق والدين والفلسفة والفن •

ان الأخلاق هي شكل من أشكال الوعي مستقل عن الدين ، الا أنها ارتبطت به ارتباطاً وثيقاً منذ نشوئه • وان الدين في كل التشكيلات الطبقية المتناحرة لايقدر على القيام بوظائفه الاجتماعية في تبرير العلاقات الاجتماعية القائمة وتسليط الاضواء عليها اذا لم يحدد قواعد معينة لسلوك الناس • وهو يقوم بهذا في تصويره للأخلاق السائدة في المجتمع كقبس من الارادة الالهية ، كأخلاق دينية • ولذا فالدين يحتاج الى الأخلاق ويتضمنها في داخله معتبراً أن الاخلاق لايمكن أن تنفصل عن الدين ولايمكن أن تقوم بدونه • وبالفعل فان الدين يلعب دوراً كبيراً في تقييد المجتمع بأخلاق الطبقة السائدة المستغلة ويدعمها باسم الاله والكنيسة •

وهكذا ، فبما أن الدين والأخلاق يخدمان مصالح الطبقات المستغلة فان كلا منهما بحاجة الى الآخر ويسانده •

ان أهمية الفلسفة بالنسبة للأخلاق هي في أنها تضع الأسس النظرية لها – علم الأخلاق • لقد كان علم الأخلاق دائماً جزءاً من الفلسفة ، وكان يدرس من قبل الفلاسفة كجانب من نظرة فلسفية الى العالم بالدرجة الأولى • والفلسفة ، اذ تحدد مكان الانسان في العالم ، تبرز تلك الأهداف التي ينبغي على الانسان أن يتصرف باسمها بصورة أخلاقية •

ومن جهة أخرى فالأخلاق تؤثر أيضاً على الفلسفة • وهذا التأثير ، أولا ، ينعكس في أن الفلسفة كنظرة معينة الى العالم وكايديولوجيا تخضع للتقييم الخلقي • هكذا ، مثلا ، فالنظرات الفلسفية يمكن أن تكون انسانية أو لا انسانية • وان فلسفة الفاشية كايديولوجيا للقرصنة والظلام والتمييز العنصري ليست فقط ايديولوجيا مناوئة للعلم ، وانما هي ايديولوجيا تؤلب ضمير الانسانية وتثير فيه السخط والنقمة عليها • وثانياً أن الاخلاق هي عنصر في ذلك « الجو الروحي » الذي يؤثر على تكون النظرات الفلسفية : ان أعراف وعادات الشعوب المختلفة مثلا لاتحدد جوهر النظرة الفلسفية ، لكنها تترك أثرها الواضح على شكل التعبير عنها •

وان العلاقات المتبادلة بين الفن والأخلاق دقيقة وجد متنوعة • ففي الأخلاق والفن كليهما يحتل الانسان في علاقاته الاجتماعية مركز الاهتمام ، أي الانسان ككائن اجتماعي • وهذا من شأنه أن يقرب فيما بينهما • واذا كان الفن ينظر الى الانسان في كل علاقاته المتنوعة مع الناس الآخرين ومع الطبيعة ، فان الاخلاق تبرز جانباً واحداً من تلك العلاقات – العلاقات الأخلاقية فقط •

ثم ان كلا من الأخلاق والفن يضع مثلاً أعلى معيناً يسترشده في تقييم الواقع والانسان • لكن مقياس تقييم الواقع في الفن انما هو • المثال الجمالي ، بينما في الأخلاق – المثال الاخلاقي • وبما أن هذين المثالين في فن وأخلاق طبقة معينة يقومان على أساس اجتماعي واحد فان كلا منهما يلائم الآخر ، أي ان الاخلاق

تقر الخير ، والفن يصور ماهو جميل • أما اذا قاما على أسس اجتماعية مختلفة فيمكن أن يقوم بينهما تناقض ، بل تناقض حاد •

والفن والأخلاق متقاربان من حيث الوظيفة أيضا • فهما يقومان بالدور الكبير في تكوين الجانب الروحي للانسان ، وبهذا فهما يخدمان مصالح هـذا المجتمع أو تلك الطبقة •

لكنما اذا كانت الاخلاق تشكل الصفات الخلقية عنـد الفرد فان الفن القادر على ذلك لايقف عند هـذا وحسب ، فهو أيضـا وسيلة للتربية الفنية والايديولوجية •

ان أهمية الفن بالنسبة للأخلاق هي في كونه وسيلة للتربية الخلقية • والتربية الخلقية بالطبع لاتحقق فقط بوسائل الفن • وان هذه الأخيرة بفعل تشخيصها الحسي وتقييمها لظواهر الحياة تصدر حكماً معيناً ، فهي اما أن تستنكر هذه الظواهر أو تلك أو تمجدها وتتغنى بها ، فتبرز كوسيلة فعالة لتربية الجانب الأخلاقي لدى الانسان •

ومن جهة أخرى ، فان الاخلاق تؤثر على الفن وعلى النظرات الفنية بقدر ماتؤثر الصفات الخلقية للانسان والعلاقات الأخلاقية أيضا عـلى القيم الجمالية ، وعلى علاقة الانسان الجمالية بالواقع •

وليس ثمة علاقة نوعية خاصـة بين الأخلاق والعلم لان الاخلاق تهتم بالعلاقات الانسانيـة بينما العلم يعرفنا عـلى الموضوع الذي لايخضع للتقييم الأخلاقي • والأخلاق مرتبطة بالعلم لا كشكل لانعكاس الواقع ، وانما كأي نوع من أنواع النشاط الانساني الذي ينتظم الناس عند القيام به في علاقات معينة • وان لهذه العلاقات جانباً خلقياً تدعم وجود علم الأخلاق • فالعلم ، كأي نشاط خلاق ، يتطلب من العلماء أسمى الصفات الخلقية للمناضلين من أجـل الجديد ، يتطلب العزم والتصميم والثبـات والجرأة في النضـال ضد الأوهام ، يتطلب النقد الذاتي والتواضع وحسن النية والخدمة الموضوعية المجردة للحقيقة ••• الخ •

وأخيراً ، فان منجزات العلم يمكن أن تستخدم لخير الناس كما يمكن أن تستخدم لشرهم ، وهذا يتعلق بالوعي الخلقي للمجتمع الى حد ما • ان ضمير العالم لايمكن أن يكون غير مبال بطرق وكيفية استخدام مكتشفاته • وتبرز هذه المسألة بحدة في وقتنا الراهن عندما أعطى تقدم الفيزياء والكيمياء والبيولوجيا للانسانية قوى جبارة يمكن أن تخدم في مجال البناء كما يمكن أن تستخدم للدمار ، لأغراض السلم ولأغراض الحرب • وتتحرك ضمائر العلماء التقدميين للوقوف في وجه كل من يريد استخدام الطاقة والاختراعات الأخرى لأغراض الحرب ولمصالح الامبرياليين الجشعة • وفي بلدان المعسكر الاشتراكي وحدها ، حيث يوضع العلم لخدمة الشعب ،يزول ذلك التناقض بين تقدم العلم وامكانية استخدام نتائجه •

وتلكم هي النقاط الأساسية للتأثير المتبادل بين الأخلاق والظواهر الاجتماعية الأخرى وأشكال الوعي •

نشوء الأخلاق الشيوعية ودورها

ان الايديولوجيين البورجوازيين يتهمون الشيوعية بنفي الأخلاق • لكن هذا محض افتراء ، ويقوم على أساس قلب المفاهيم وتشويه الماركسية •

ان الماركسية اللينينية لاتنفي الأخلاق بوجه عام ، وانما تنفي الاخلاق البورجوازية ، أخلاق المستغِلين وكل النظريات المثالية والميتافيزيكية عن الأخلاق • ان أخلاق المستغلين ونظرياتهم غريبة على مصالح الشعب ومصالح نضاله ضد الظلم والعنف •

ان الماركسية اللينينية تدحض التصورات الرجعية القائلة بأنه من الممكن تغيير المجتمع واصلاح عيوبه والانطلاق في طريق التقدم بمساعدة « الكمال الخلقي » للفرد • ان نظرية التحسين الخلقي تنضح بالنفاق ؛ فمهما « كمل » الرأسمالي خلقياً سيبقى رأسمالياً ، ومن أجل تخليص المجتمع من الاستغلال لاينبغي تحسين الرأسماليين بل ينبغي القضاء على الرأسمالية ، ولايمكن هذا الا عن طريق التحويل الثوري للمجتمع •

ولايمكن القضاء على العيوب والجريمة بواسطة « التحسين الخلقي » •
فمن أجل ذلك ينبغي ، وقبل كل شيء ، اجتثاث الأسباب والمصادر الاجتماعية للعيوب وللجريمة ، أي القضاء على الملكية الخاصة لوسائل الانتاج •

والماركسية تنقد دونما تحفظ محاولات علماء الاجتماع البورجوازيين والبورجوازيين الصغار لجعل الاشتراكية قائمة على « أساس أخلاقي » ، أي بناء نظرية الاشتراكية على أساس المبادىء الخلقية المجردة كالعدالة الخالدة والحب المطلق وغيرهما ، ودون أن ينطلقوا من القوانين الموضوعية للتطور الاجتماعي • وبهذا المعنى في الواقع ـ كما أشار لينين ـ لن يكون في الماركسية مثقال ذرة من الاخلاق ،فالظلم من وجهة النظر الماركسية ليس أساساً وانما هو نتيجة للرأسمالية ، ثم ان الاشتراكية لاتحتاج الى أساس أخلاقي وانما الى أساس علمي • والاشتراكية العلمية وحدها قادرة على خدمة نضال البروليتاريا من أجل تحررها ،وان كل عملية « أخلقة » انما هي عملية بورجوازية منافقة• وهكذا ، فان مؤسسي الشيوعية العلمية أخضعا الاشتراكي البورجوازي الصغير كريفي الى تعرية نقدية لقاء « تحويله الاشتراكية الى هذيان في الحب » • لكن هذا لايعني أن الماركسية ترفض المحاكمة الأخلاقية للعيوب التي يولدها النظام الرأسمالي ، والتأثير الأخلاقي على المناضلين من أجل تحرير البروليتاريا•

والماركسية ـ اللينينية ، اذ تدحض الأخلاق البورجوازية ، تقيم أخلاقاً شيوعية جديدة تعبر عن مصالح البروليتاريا ، وهي أسمى أخلاق للمجتمع المعاصر •

وهذه الأخلاق تلائم قضايا التطور الاجتماعي ، وهي في أساسها أخلاق انسانية عامة للمجتمع المقبل •

وان « النضال من أجل توطيد واتمام بناء الشيوعية » هو مصدر الأخلاق الشيوعية وأساس نشوئها وتطورها » •

ان أفكار الشيوعية التي وضعها العلم الماركسي اللينيني تدخل الوعي

الأخلاقي كمثل خلقي أعلى ، كهدف واقعي تتحد لتحقيقه صفوف البروليتاريا وجماهير الشغيلة •

والنضال من أجل الاشتراكية بالذات يتطلب من الفرد مطالب تتجسد في قواعد الأخلاق الشيوعية • ومن أجل تحطيم المجتمع القديم ينبغي على الطبقة العاملة أن تخوض نضالا عنيفاً وحاداً ؛ ومن أجل احراز النصر في هذا النضال لابد للبروليتاريا من التحلي بالحد الأعلى من المبدئية والتنظيم والالتحام والبطولة والصمود والتصميم ، وان شروط النضال ذاتها تستوجب توفر صفات خلقية عالية لدى الثوريين البروليتاريين • وفي سير النضال الطبقي تتوضع قواعد الأخلاق الشيوعية الجديدة وتربى البروليتاريا عليها • ان المدرسة الحازمة للثورة البروليتارية قامت بتربية وتقوية أولئك الناس المخلصين لجماهير الشغيلة والذين تتجسد فيهم أفضل مزايا الطبقة العاملة ويضربون المثل الذي تقتدي به الأجيال الصاعدة • لقد أعطت الحركة الشيوعية الدولية أناساً وهبوا أنفسهم لقضية الشيوعية وتميزوا بصفات خلقية رفيعة عالية فكانوا قدوة جديدة يحتذى بها : كدزيرجينسكي ، سفيردلوف ، ليبكخت ، تلمان ، ديمتروف ، فوتشيك ، غرامشي وكثيرين غيرهم • وان النظريين العباقرة وقادة الطبقة العاملة ماركس وانجلس ولينين لأبلغ مثال على العظمة الخلقية •

ان القضاء على الرأسمالية وبناء الاشتراكية ليست قضية أفراد معينين وانما هي قضية الملايين من جماهير الشغيلة التي يلعب العامل الخلقي في نضالها دوراً هاماً • وان النضال من أجل انتصار وتثبيت الاشتراكية يولد نهضة خلقية ويربي الجماهير الواسعة على الاخلاق الشيوعية وهذا مما له شأن كبير في انتصار الثورة • وليس صحيحاً الاعتقاد بأن البروليتاريا ، اذ ترتفع الى مستوى النضال ضد رأس المال ، تتخلص حالا من تقاليد وعادات المجتمع القديم • فهذه العملية طويلة الأجل • ولذلك فمع انتصار الاشتراكية تقوم أمام حزب البروليتاريا الحامل لايديولوجيتها وأخلاقها مهمة جسيمة : اعادة تربية الجماهير الواسعة من عمال وفلاحين وبورجوازية صغيرة بروح وأخلاق

الشيوعية ومساعدتهم على التخلص من مخلفات القديم وتربية الشبيبة على مبادىء وأخلاق الشيوعية ، وذلك في عملية بناء الاشتراكية .

ان التربية الخلقية هي جزء من التربية الشيوعية لجماهير الشغيلة في ظروف الاشتركية . فماذا تعني تربية الجماهير على الأخلاق الشيوعية ؟ ان المبادىء الأساسية لتربية الأخلاق الشيوعية وضعت من قبل لينين في خطابه في المؤتمر الثالث للكومسومول . لقد أشار الى أن « الأخلاق هي مايستخدم لتقويض المجتمع الاستغلالي القديم ولتوحيد كل الشغيلة حول البروليتاريا البانية للمجتمع الجديد »[1] .

لقد أعطى لينين في هذا القول المقياس الموضوعي الذي يتيح لنا التمييز بين الأخلاقي واللا أخلاقي من وجهة نظر الأخلاق الشيوعية . وان لكل نوع من أنواع النشاط الانساني ولكل ميدان من ميادين الحياة الاجتماعية قواعده الخلقية المحسوسة . لكنه ، الى جانب ذلك ، ثمة مبادىء خلقية أساسية تعبر عن الجوهر الفكري لمجموعة القواعد الخلقية ، وتتجلى فيها جميعها .

ففي البرنامج الجديد للحزب وضع النظام الخلقي لباني الشيوعية ، والقواعد الخلقية للمجتمع الجديد ..

فما هي المبادىء الأساسية للأخلاق الشيوعية ؟

ان الأخلاق الشيوعية تربي الاخلاص للشيوعية والحب للوطن الاشتركي وللبلدان الاشتراكية .

وكطرف مناقض للأخلاق البورجوازية الفردية فإن الأخلاق هي أخلاق جماعية أي « الفرد من أجل الجميع والجميع من أجل الفرد » .

ان مبدأ الجماعية . والتعاون الرفاقي ، اذ يعكس ويوطد علاقات الانتاج الاشتراكية ، يخدم في توحيد جميع أفراد المجتمع من أجل بناء الشيوعية . ان شعور الرفاقية ، ومسؤولية كل فرد نحو القضية العامة ، والاهتمام بمصالح

---

(١) لينين . المؤلفات . الجزء ٣١ ، ص ٢٦٨ .

الجماعة ، كل هـذا مما يربي الأخلاق الشيوعية • والجماعية تتطلب أيضاً مبدئية عاليـة ، وقدرة كل فرد في المجتمع عـلى اخضاع مصالحه الخاصـة للمتطلبات الاجتماعية بصورة واعية • وهذا لابد منه من أجـل تأمين الوحدة بين ارادة وأعمال المجتمع كله وبين ارادة وأعمال كل جماعة عـلى حدة ، لأن كل كادح انما يساهم في قضية الشعب العامـة كعضو في جماعة المعمل أو المصنع ، السوفخوز ، أو الكولخوز ، المعمل أو المدرسة ، المؤسسة أو المنظمة الاجتماعية ••• الخ •

ان مظاهر الفردية البورجوازية ـ الانفصال عن الجماعة ، العدو خلف الربح ، الانتهازية والغرور والافتتان بالذات ، الخ ـ هي أغرب مايكون عن المجتمع الاشتراكي ، وتدينها أخلاق الانسان السوفييتي • ان الايديولوجيين البورجوازيينماينفكون يجمعون بأن الأخلاق الشيوعية تفضي بالانسان الى ضياع فرديته اذ هي تنزع الى مساواة خلقية بين جميع الناس • انهم أعجز من أن يفهموا أن الفرد يغنى ويزداد غنى كلما عاش المصالح والأهداف الاجتماعية بكل أبعادها ، وأعطى قواه الكامنة وامكانياته للشعب • ان الجماعة لاتسحق الفرد بل تساعده على التطور من شتى جوانبه •

ولقد كتب ماركس وانجلس : « ففي الجماعة فقط يحصل الفرد عـلى الوسائل التي تمنحه امكانية التطوير الشامل لمواهبـه • وبالتالي فان حريـة الفرد لاتوجد الا في الجماعة[١] • ان المجتمع الاشتراكي هو مجتمع ديناميكي، وهذا يعني أن كل خطوة في التطور تكون نقطة انطلاق لحركة تطور آخر ولحل قضايا جديدة • وان هـذا التطور الدائم هـو شرط لحفظ وتوحيد الجماعية الصحيحة ، وهذا بدوره يساعد عـلى تسريع وتيرات التطور • ان أخلاق الجماعة مرتبطة عضوياً بهذا الطابع الديناميكي للمجتمع الاشتراكي • ولقد كتب ماكارينكو : « ان شكل وجود الجماعة الانسانية الحرة هو الحركة الى الأمام ، والوقوف ليس الا شكلا للموت »[٢] وهذا القول ينطبق على الأمور الصغيرة والكبيرة على حد سواء •

---

(١) ماركس وانجلس • المؤلفات • الجزء الثالث ، ص ٧٥ •

(٢) ماكارينكو • المؤلفات • الجزء ١ ، موسكو ١٩٥٠ ، ص ٣٧٩ •

ان أهم مبادىء الأخلاق الشيوعية هي العلاقة الشيوعية بالعمل والاهتمام برعاية وزيادة الممتلكات الاجتماعية • وفي العلاقة نحو العمل بالذات، وقبل كل شيء، يتجلى الجانب الروحي الجديد للناس الذين تربوا في المجتمع الاشتراكي • وتتلاءم مع الأخلاق الشيوعية تلك العلاقة الشريفة الطيبة نحو العمل كعملية خلق وكأسمى واجب للفرد تجاه المجتمع، والأخلاق الشيوعية تدين المهملين والمتقاعسين والطفيليين • ان ارادة العيش على حساب الآخرين تتناقض مع أسس المجتمع الاشتراكي ومع أخلاقه •

لقد ظهرت بذور العلاقة الشيوعية الجديدة نحو العمل لدى الطبقة العاملة منذ الأيام الأولى لقيام السلطة السوفييتية • ولقد قدر لينين الى درجة كبيرة جماعة السبت الشيوعية التي كانت بمثابة بذور وتباشير للمجتمع الجديد • فقد كتب لينين : « ان لجماعة السبت الشيوعين أهمية فائقة كبداية حقيقية للشيوعية ••• »[١] وخلال أعوام السلطة السوفييتية نمت أجيال رائعة من الشباب الذي قدم كل قواه وامكانياته لقضية بناء الشيوعية •

ولقد تجلت الصفات الخلقية الرائعة للشباب السوفييتي في جبهات العمل لبناء الاشتراكية خلال الأعوام الأولى من الخطة الخمسية، وفي الحرب الوطنية العظمى، والأعمال البطولية في استصلاح الأراضي، وفي بناء المحطات الكهربائية الضخمة، وفي فتح المناجم وبناء الأفران والمراكز الصناعية الجديدة في شرق وشمال بلادنا، وفي المآثر الكثيرة الأخرى لهذه الأيام »[٢] • ان قيام العلاقات الانتاجية الاشتراكية في المدينة والريف، وتصفية التناقض بين العمل الذهني والعمل العضلي، والتطور العاصف للقوى الانتاجية باستخدام التكنيك العالي الذي ترافقه زيادة الرخاء المادي للجماهير وتسهيل شروط العمل ونمو المستوى الثقافي والتكنيكي للعمال والفلاحين ــ كل هذا يخلق الشروط من أجل تحويل العمل تدريجياً من وسيلة للحياة الى حاجة حياتية أولى، ولهذا فان قيام العلاقة الشيوعية في العمل يؤمنها تطور الانتاج الاشتراكي

(١) لينين • المؤلفات • الجزء ٢٩ ، ص ٣٩٤ •

(٢) حول تعزيز الرابطة بين المدرسة والحياة وحول تطور مناهج التعليم الشعبي في البلاد •

والثقافة الاشتراكية وتغير شروط وطابع العمل ذاته • وفي الوقت ذاته يكون للتأثير التربوي أهمية بالغة •

ان المهمة التي وضعها الحزب حول توسيع تربية العلاقة الشيوعية في العمل انعكست في اعادة بنيان مناهج التعليم الشعبي •

ان تعزيز الرابطة بين المدرسة والحياة ، واتحاد التعليم والتربية بالعمل الانتاجي بدءاً من المدارس المتوسطة ، وتربية الحب للعمل الفيزيائي لدى الشبيبة الذي يستحيل تطور الانسان بدونه ـ كل هذه المهمات الموضوعة من قبل الحزب انما هي ذات شأن عظيم من أجل اقامة العلاقة الشيوعية الحقيقية الجديدة في العمل لدى شبيبتنا الشيوعية •

ان العلاقة الشيوعية بالعمل وربطها بمستوى تكنيكي وتنظيمي عال للانتاج وبالنمو السريع لمستوى الطبقة العاملة التكنيكي والثقافي لهي العوامل الأساسية التي تؤمن للاشتراكية انتاجية عمل أكبر بالمقارنة مع الرأسماليه • ولهذا أهمية كبرى من أجل انتصار النظام الاجتماعي الكبير •

ان الأخلاق الشيوعية انسانية بكليتها • فبعد السيطرة الطبقية التي دامت قروناً طويلة وعندما كان الانسان مجرد وسيلة لانتاج ظروف حياة الانسان الآخر ، صار الانسان وحاجياته لأول مرة هو الهدف في ظل الاشتراكية • ان المجموعة الخلقية الشيوعية تعلن عن العلاقات الانسانية والاحترام المتبادل بين الناس : الانسان صديق ورفيق وأخ للانسان • وهذا الجانب من الأخلاق الشيوعية يعكس الطبيعة الانسانية للمجتمع الاشتراكي •

ان هذا النظام يؤمن الشروط الحقيقية لتطوير الفرد من كل الجوانب • وتتميز الاشتراكية الانسانية أيضا لا بدعوتها المجردة الى حب كل الناس ، وانما بالنضال الفعلي الملموس من أجل تحسين وضع الشعب الكادح • ان الانسانية الاشتراكية وحب الناس والعاملين تقترن أيضاً بعداء وبعدم مهادنة خصوم الشيوعية وقضية السلم وحرية الشعوب • لقد حفظ التاريخ أسماء كثير من الرجال الذين لم يألوا جهداً في النضال من أجل الخير العام • وان

النضال الطبقي للبروليتاريا هـو وحده الذي لـم يولد مآثر فردية منعزلة ، وانمـا مآثر جماهيرية في خدمـة القضية العامة خدمة واعية • ان كـلا من زويا كوسموديميانسكايا ، والكسندر ماتروسوف ، وليزا تشايكينا ، وغاستيلو ، وأبطال قلعـة بريست ، ورجـال الحرس الفتيان الأمجاد ، وأنصـار غابات بريانسك ـ كل هؤلاء لم يكونوا مجرد أفراد • لقد كانت مآثرهم البطولية تجسيد مطامح الملايين من السوفييتين في الجبهة وخلف خطوط العدو وخاصة في أعوام الحرب الوطنية العظمى •

ان نضال البروليتاريا ضد البورجوازية هو نضال أممي في مضمونه • ولا تتمكن البروليتاريا من احراز النصر الحاسم على البورجوازية الا برص صفوفها على النطاق الدولي • ولهذا فقد كتب على راية هـذا النضال شعار : « ياعمال العالم اتحدوا ! » الذي يعبر عن جوهر مبدأ الأممية البروليتارية • ولهذه الأخيرة جانب أخلاقي تنظر الأخلاق الشيوعية من خلاله الى الأمميـة كمبدأ من مبادئها متعارض مـع مبدأ التعصب القومي البورجوازي والتمييز العنصري والشوفينية • ان الأممية هي المبدأ الأساسي في العلاقة المتبادلة بين الأحزاب الشيوعيةالمختلفة وبلدانالمعسكر الاشتراكي فيما بينها •

وان توطيد هـذا التضامن والتلاحم هو أعظم مهمة ملقاة على عاتق الأحزاب الشيوعية • ولقد برهن الشعب السوفييتي عن اخلاصـه ووفائه للأممية البروليتارية في كـل نشاطه من أجـل بناء الاشتراكية ، وفي مساعداته النزيهة لبلدان المعسـكر الاشتراكي • ولقد ربى الحزب الشيوعي الانسان السوفييتي على الوعي العالي لواجبه الأممي نحو البروليتاريا الدولية • ولقد جاء في برنامج وبيان حزبنا أن الصداقة والأخـوة بين شعوب الاتحاد السوفييتي ، والكره والعـداء للتمييز العنصري والقومي ، وكذلك التضامن الأخوي مع شغيلة جميع البلدان ومـع جميع الشعوب هي أهم المبادىء في المجموعة الخلقية لبناة الشيوعية •

ان النضال من أجل الاشتراكية في الظروف الراهنة يتم عبر الاشكال الوطنية التي تسمح بحساب الخصائص المخسوسة للتطور التاريخي لبلدان معينة • ومع تكون النظام العالمي للاشتراكية صارت الوطنية الاشتراكية تتجسد في الوفاء والاخلاص للوطن ولصداقة البلدان الاشتراكية • ان الوطنية الاشتراكية تندمج عضويا بالاممية ، وهي عبارة عن قوة خلقية جديدة ذات تأثير كبير على تطور المجتمع • وفي الاعوام المريرة من الحرب الوطنية العظمى، وفي فترة البناء السلمي برهن شغيلة بلادنا عن مشاعر وطنية عميقة ، فلم يدخروا جهداً من أجل قضية تطور وازدهار وطنهم الاشتراكي العظيم •

ان المجموعة الخلقية لبناة الشيوعية تفرض تطوير الوعي العالي للواجب الاجتماعي ، ومحاربة كل استهتار بالمصالح الاجتماعية ، وتقضي بوجوب مراعاة القواعد الأساسية لحياة السكان •

ومع تطور العلاقات الشيوعية سوف تتوطد الأسرة ، وستقوم العلاقات بين أفرادها على أساس الحب والاحترام المتبادل البعيد عن كل دوافع مادية أخرى • وان قواعد السلوك التي تنسجم مع مبادىء الأخلاق الشيوعية هي الاحترام المتبادل في الأسرة ، والعناية بتربية الأبناء •

ان المزايا الطيبة في الانسان الشيوعي هي الصفاء الخلقي والشرف والصدق والبساطة والتواضع في الحياتين الاجتماعية والفردية الخاصة •

وتلكم هي أهم المبادىء في الأخلاق الشيوعية التي تلعب الدور الكبير في توطيد المجتمع الاشتراكي وتطويره في الطريق الى الشيوعية •

وان الحزب ليهتم اهتماماً كبيراً بقضايا التربية الخلقية للشعب ، وعلى الأخص بتربية الشبيبة • وتتحقق تربية الأخلاق الشيوعية عن طريق المدرسة والنشر والفن والأدب والسينما والمسرح والاذاعة ••• الخ • وينبغي الأخذ بعين الاعتبار أن نجاح التربية يتعلق الى حد كبير بربطها بالنشاط التطبيقي العملي وبحل قضايا البناء الشيوعي •

ونتيجة للتحولات الاشتراكية في المجتمع والعمل الهائل الجبار للحزب في تربية الشعب الخلقية أصبحت الأخلاق الشيوعية هي السائدة • ولكن هذا لا يعني أن جميع المهمات في هذا الميدان قد حلت • فلقد بقيت لدينا مخلفات الأخلاق القديمة البورجوازية والبورجوازية الصغيرة • وان للتربية الخلقية أهميـة فائقة في تصفية تلك المخلفات • ان المجموعة الخلقية لبناة الشيوعية تطالب بالنضال ضد مخلفات القديم في وعي الناس ، وبعدم التساهل ازاء الظلم والاجحاف والاستهتار بالشرف ، وازاء الانتهازية والوصولية وكـل الظواهر الشوهاء الأخرى في أخلاق وبسيكولوجيا النظام الاسـتغلالي البائد والملكية الخاصـة •

ان القوانين الموضوعية للتطور الاجتماعي تحدد نمو دور الايديولوجيا الاشتراكيـة في حركة المجتمع نحو الشيوعية • وهـــذا ، بالطبع ، لاينفي الموضوعة الأصلية للمادية التاريخية حول ارتباط الوعي الاجتماعي بالواقـع الاجتماعي ، لأن الـذي يحدد نشـوء الوعي الشيوعي هو الشروط الماديـة للحياة • لكن خاصة المجتمع الشيوعي وعلاقاته الاقتصادية هي في أنها تتطلب نمواً في الوعي والتنظيم الشيوعيين لدى جماهير الشعب الواسعة في سير تطور المجتمع • وتتجلى هذه الموضوعة خاصة فيالدور المتعاظم للوعي الخلقي • وان نمو دور الأخلاق مرتبط أيضاً بكون الانتقال الى الشيوعية يفترض تلاشي القانون تدريجياً كمنظم للعلاقات بين الناس في المجتمع الشيوعي ليتعاظم دور الأخلاق وتحل محله •

لقد كتب لينين : « ففي المجتمـع الشيوعي فقط سـوف يعتاد الناس تدريجياً على مراعاة قواعد الحياة الجوهرية التي تكررت وعرفها الناس مـع مر القرون طوعاً ودونما الزام وارغام واضطرار ، وبدون الجهـاز الخاص الذي يلزم الناس بها ، والذي يسمونه الدولة » •

الفصل الخامس



ان التقدم العظيم الذي حققته الانسانية في تطور تكنيك الانتـاج ، وفي ميدان التحولات الاجتماعية لدى الشعوب السائرة في الطريق الى الاشتراكية، لا ينفصل عن نجاحات العلم الذي صـار في وقتنا الراهن القوة الجبـارة في التطور الاجتمـاعي . ان العلم المعاصر يلعب الدور العظيم المتزايد بصـورة مستمرة في تطور المجتمـع . وتهتم فئـات الشعب الواسعة بمسـائل العلم الخاصة . ومن أجل تطوير العلوم الطبيعية لم تعد تكفي تلك المخابر المتواضعة بتجهيزاتها البسيطة ، وانمـا صارت تتطلب قاعـدة صناعية عريضة ، وكوادر وملاكـات ضخمة ، ونفقات بالملايين . لقد صـار العلم يقتحم بثقة جميـع ميادين الحياة ليرفع وتيرات التطور ، ويفتح مجالات جديـدة ويرتاد ميادين واسعة لتقدم الانسانية الروحي والمادي .

لكن القوى الســوداء للرجعية الامبرياليـة تسعى لاستخدام المنجزات الضخمة للعلم المعاصر لشـر الشعوب ولتحطيم القيم الماديـة التي أوجدهـا الانسان ، ولابادة الناس أنفسهم ابادة جماعية . ا نمسألة استخدام منجزات العلم ذات أهمية حياتية بالغة للمجتمع ولمستقبل الانسانية . ان النضـال من أجل الاشتراكية هو نضال في سبيل العلم ، نضال من أجل ألا تصبح منجزات العبقرية الانسانية مصدراً للشر ، بل من أجل توجيهها لما فيه خير الانسان ، واستخدامها في سبيل تقدم وازدهار الانسانية .

والعلم بمجموعه ـ كظاهرة اجتماعية خاصـة ـ يمكن أن يدرس في علاقاته المختلفة .

فالعلم ، قبل كل شيء ، شكل من أشكال الوعي الاجتماعي يمثل انعكاس الواقع في وعي الانسان الاجتماعي •

والعلم يوجد في المجتمع ويعتبر ملكاً له « كنتاج روح عام للتطور الاجتماعي ••• »[1] وكشكل أعلى للمعرفة الموضوعية المنظمة عن الطبيعة والمجتمع •

ولدى دراسة العلم كشكل للوعي الاجتماعي تبرز الأسئلة عن الأساس المادي لتطوره وخصائص عكسه للواقع ، وعن علاقة العلم بأشكال الوعي الأخرى ، وطابع تأثيره على الحياة المادية للمجتمع •

ويبرز العلم كمجموعة ضخمة من تجارب الانسانية مأخوذة بشكلها الاجمالي العام • وبموجب ذلك تبرز مسألة دور الجماهير الشعبية في تطور العلم ، وكذلك مسألة علاقة العلم بالتطبيق العملي •

والعلم هو أيضاً « القوة الروحية للانتاج » • وهو ، بالطبع يخدم نشاط الناس في كل ميادين الحياة الاجتماعية • لكنه ، وبما أن الانتاج هو أساس لكل أنواع النشاط فان أي علم من العلم مرتبط ، مباشرة أو بصورة غير مباشرة ، بالانتاج • وان لتوضيح الصلة بين العلم والانتاج ، ودوره في تطور الانتاج ، أهمية بالغة من أجل فهم طبيعته الخاصة •

والعلم ، فوق هذا كله ، نتيجة لشكل خاص من أشكال النشاط الانساني • وبموجب ذلك تبرز أسئلة عن علاقة العلم بتقسيم العمل ، وعن دور المثقفين في تطور العلم ، وعن الشروط الاجتماعية لتطوره ••• الخ •

ان ما أوردنا من أمثلة تبين الصلة الوثيقة بين تطور العلم وظواهر الحياة الاجتماعية المتنوعة الأخرى • وان لدراسة هذه الصلات والعلاقات وخصائص العلم ذاته أهمية كبرى من أجل فهم هذه الظاهرة المهمة من ظواهر الحياة الاجتماعية •

---

(١) أرشيف ماركس وانجلس • الجزء ٢ ، موسكو ١٩٣٣ ، ص ١٥٧ •

١ ـ خصائص نشوء وتطور العلم

ان العلم هو شكل المعرفة المنظمة للواقع ، الذي نشأ وتطور على أساس التطبيق العملي التاريخي الاجتماعي ويعكس قوانين العالم الموضوعي وجوانبه الجوهرية في مفاهيم منطقية مجردة مناسبة •

ان معطيات العلم التي يكشف التطبيق عن مدى صحتها لها شأن الحقائق الموضوعية ، والعلم ، كشكل من أشكال المعرفة ، يرتبط دائماً بايديولوجيا معينة ، ويحتوي على جانب فلسفي •

وتتحدد خصائص العلم ، قبل كل شيء ، بمواضيعه • ان للعالم المحيط بالانسان ـ الطبيعة والمجتمع ـ وللفكر أيضاً قوانينه الموضوعية • وان مهمة العلم هي معرفة هذه القوانين • وبما أن العالم واحد فان العلم يكون نظاماً واحداً لمعرفة قوانين العالم الموضوعي • والى جانب هذا فالعلم يتوزع الى مجموعة من فروع المعرفة ، أو الى علوم تشخيصية كثيرة • ويتميز كل من هذه العلوم عن الآخر بجانب من الواقع الموضوعي أو شكل حركة المادة ، أو بالعمليات المشخصة في هذا الشكل أو ذاك لحركة المادة التي يدرسها • وبناء على هـــذا فاننا لا ندرس أساس تنوع العلوم في خصائص الوعي الانساني بل في خصائص الموضوع ، أي ان المادة تتجلى بأشكال مختلفة لكل منها خصائص وقوانين تطور خاصة به • فان موضوع الميكانيك ، مثلا ، هو قوانين انتقال الاجسام الكبيرة نسبياً في المكان ، قوانين الحركة الميكانيكية ؛ والفيزياء النووية تدرس بنية الذرة ، وعلاقات التأثير المتبادل بين الجزيئات الجوهريـــة ، وقوانين حركتها ؛ وان موضوع علم الحياة هو الحياة ذاتها كشكل لحركة المادة ؛ والاقتصاد السياسي يدرس قوانين تطور المجتمع ؛ ويدرس علم اللغات خصائص وقوانين تطور اللغة كظاهرة اجتماعية ••• الخ •

فليس ثمة علم بلا موضوع في الواقع الموضوعي • ومن جهة أخرى فلا يجوز جعل الحدود القائمة بين العلوم المختلفة حدوداً مطلقة • ان لفروع المعرفة المختلفة نقاط تماس مباشرة كثيراً ما تولد علوماً مستقلة قائمة بذاتها ، كالكيمياء الفيزيائية والفيزياء البيولوجية مثلا ••• وغيرهما •

وهكذا فالعلم يعطينا معرفة عن العالم وجوانبه المختلفة • وتبدأ المعرفة العلمية للواقع من معرفة الحقائق • لكن الحقيقة ليست قانوناً ، كما وأن مجموعة الحقائق ليست علماً • فالعلم ، اذ يعمم الحقائق ، ينفذ الى الجوهر ، ويعكس الجوانب الجوهريـة للواقع والقوانين الملائمة لها في مفاهيم وصيغ ونظريات •

لكنه ينبغي على الناس قبل الشروع في التفكير ، أي قبل أن يصبحوا في علاقة نظرية مع العالم المحيط ، أن يفعلوا فيـــه ، أي أن يصبحوا في علاقة تطبيقية عملية مع العالم المحيط • وينشأ العلم من حاجات الانتاج ومن التطبيق العملي • وان عملية تغيير الانسان للطبيعة في الانتاج تولد بالضرورة معارف بشكل حقائق متراكمة ، ومن ثم ، وفي مرحلة معينة من تطور الانتاج ، تولد العلوم الطبيعية • ان نشاط الانسان المكون للعلاقات الاجتماعية ، وان نضال الطبقات والأحزاب يولد عناصر المعرفة الاجتماعية ، وأخيراً ، وفي مرحلة معينة من تطور الانسانية يولد علم المجتمع •

لقد بدأت عناصر المعرفة الموضوعية تتجمع مع ظهور المجتمع الانساني ومع ظهور الانتاج •

وعلى مر القرون والعصور تمكن الناس تدريجياً وعن طريق التجربة والخطأ من تجميع المعارف عن مواضيع وظواهر العالم المحيط ، وعن روابطها وعلاقاتها ، عن النباتات والحيوانات ، عن الأرض والســماء ، عن الانســان وجهازه العضوي ••• الخ •

ومن المعروف أنه ثمة ١٤٠ ألف نوع من الحيوانات على الأرض يمكن ترويضها • ومن بين هــذا العدد الهائل تم ترويض وتوليد ٤٧ نوعاً حيوانياً فقط بالاضافة الى الانواع الاساسية للحيوانات الأهلية التي تم توليدها منــذ أعمــاق التاريــخ القديــم كالكلاب والخنازير والماعز ، ثم البقر والجمــل الأميركي • ومنذ الماضي البعيد حصل الانسان عن طريقة التزاوج الاصطناعي بين الأجناس على حيوانات تقف بين جنســين ــ كالبغل مثــلا • وفي العصر

البدائي كانت تجري في الانتاج الزراعي عمليات توليد بعض النباتات التي تستخدمهـا الانسانية في ظروفنا الراهنة • وينبغي أن نتصـور مقدار الزمن والجهود والملاحظة الدقيقة ومدى الصمود والبطولة التي بذلتها الانسانية من أجل اختيار بعض الانواع من بين العـدد الهائل من أنـواع النبات والحيوان لتربيتها والتي نستخدمها حتى وقتنا هذا •

لكنه من أجـل نشوء العلم كان لابـد من مرحلة معينة لتطور التطبيق العملي ، حيث أن التطور المقبل للتطبيق كان يتطلب معرفـة قوانين الطبيعة والمجتمع وإكتشاف الروابط والعلاقات الجوهرية العامة ، أي المعرفة النظرية•

وينشأ العلم عندما ينفصل عن المعارف التراكمية وعن التجربة التطبيقية المباشـرة • فالعلم يرتبط بالمعارف التراكميـة للجماهير ويتميز عنهـا • ان المعارف التراكمية هي عنصر في الوعي الاعتيادي الى حد ما • والعلم هو نظام للمعارف الموضوعة نظرياً ، والتي تعكس الواقع الموضوعي •

ويتميز العلم عن المعارف التراكمية للجماهير بنشوئه ، وبشكل تعبيره ، وبأهميته في النشاط العملي • وان المعارف التراكمية تنشأ في النشاط الانتاجي مباشرة ، في حين أن العلم هـو نتيجة للنشاط النظري عـلى أساس الملاحظة والتجربة ، وتحدده متطلبات الانتاج •

وتحصل المعارف التراكمية وتتجمع من خلال القوة التطبيقية ذاتها ـ الشعب ، وينشأ العلم نتيجة لنشاط فئات خاصة من الناس ـ العلماء •

ان المعرفة التراكمية تتطلب تكرار الظواهر • وبالطبع ، فان اكتشاف التكرار التراكمي يمكن أن يكون أيضـاً معرفة للقانون ، الا أنهـا معرفة لاتنفذ الى جوهر الواقع • ان القانون الموضوعي لاينعكس هنا في شكل قانون العلم ، بل في شكل التأكيد الاعتيادي « هكذا يحدث دائماً » ! أما العلم فيعكس ما هو جوهري في الظواهر وما هو عام في العمليات بشكل قوانين علمية •

وأخيراً ، ان المعارف التراكميـة هي أساس المهارات المعينة والطرق الروتينية ، في حين أن العلم يتيح لنا امكانية التنبؤ بأشياء كثيرة •

والعلم يعمم ويطور المعارف التراكمية التي تجمعت في التطبيق اليومي ، لكن هذا لايعني أن العلم يبرز كمجموعة بسيطة من هذه المعارف • ان العلاقة بين التجربة والنظرية العلمية تظهر جلية في مثال ظهور نظرية داروين التي هي تعميم علمي لتطبيق الاصطفاء على مر القرون •

ومن المعروف أن قانون الاصطفاء الطبيعي يحتل مركز نظرية داروين ، فكيف توصل الى اكتشاف هذا القانون ؟

لقد جمع العلم حتى زمن داروين كمية كبيرة من الحقائق حول حياة النبات والحيوان في الشروط الطبيعية دفعت الى التفكير حول تطور الطبيعة الحية • ولقد كان وجود تلك المواد ، بالطبع ، منطلقاً ضرورياً لنشوء الداروينية • ولقد نشأت على أساس تعميم التطبيق العملي في الزراعة • ففي زمن داروين كانت حاجيات الزراعة الرأسمالية تستدعي تطبيقاً واسعاً وواعياً للاصطفاء الاصطناعي ، الا أن جوهر هذا الاصطفاء لم يكن قد اكتشف نظرياً بعد •

لقد لفت داروين الأنظار الى تنوع أشكال وأجناس الحيوانات الأهلية ، والنباتات الزراعية وتكييفها حسب متطلبات وحاجيات الناس • وهو ،اذ أوضح أسباب ذلك ، وجد أن تنوع أجناس الحيوانات الأهلية ، كالأغنام والكلاب والدجاج والحمام وأنواع النباتات المختلفة ، كانت قد أدخلت من قبل الانسان خلال فترات تاريخية طويلة بدءاً بنوع أو بعدة أنواع من سلفها المتوحش البري • فكيف حدث ذلك ؟

ففي عملية الزراعة كان الناس يبقون على بعض أنواع الحيوان الضرورية لهم والتي تتمتع بخصائص معينة من بين ما يملكون لتتكاثر •

ومع تكرار هذه العملية وعبر أجيال كثيرة حصلوا ، كما تدل التجربة ، على تراكم في التغيرات الطفيفة الدقيقة في الجنس الواحد ، وقويت وصارت ذات أهمية تطبيقية خاصة • هكذا ، مثلا ، كانت تربى النباتات التي من شأنها أن تعطي محصولا كبيراً • ولم يكن في وسع الناس أن يتحكموا بالتغيرات

ويوجهوها بشكل واع ، وانما كانوا يهتمون فقط بتراكم تلك التغيرات في اتجاه معين • وبهذا كان ينحصر جوهر التطبيق الطويل للاصطفاء الاصطناعي•

وعندما عمم داروين التطبيق الزراعي صاغ قانون الاصطفاء الاصطناعي : « ••• ان الطبيعة تقوم بتبدلات متوالية ؛ في حين أن الانسان يضعها في اتجاهات معينة نافعة له »[1] • ثم بين كيف أن الطبيعة ذاتها في الشروط الطبيعية تقوم بالاصطفاء عفوياً ودونما وعي • وهكـذا فان فهم تطبيق الاصطفاء الاصطناعي سمح باكتشاف قانون الاصطفاء الطبيعي •

ان الطبيعة تتكشف أمام بصر الانسان خلال الانتاج والتطبيق العملي • ويتطور العلم عبر تعميم التطبيق والتجربة أيضاً •

فالتطبيق هو أساس ظهور العلوم الاجتماعية أيضاً • ولقد نشأت نظرية الماركسية مـع تطور النضال الطبقي للبروليتاريا بالذات عندما صار اكتشاف القوانين الموضوعية للعملية الاجتماعية وللقوى المحركة في التاريخ ضرورة عملية • لقد نشأت الماركسية ـ اللينينية وتطورت عـلى أساس تعميم تجربة الحركة العمالية الدولية ، تجربة النضال الطبقي الثوري للبروليتاريا ، تجربة بناء الاشتراكية والشيوعية •

والعلم يرتبط بالتطبيق لا لأنه يحدد القضايا التي يدرسها العلم والهدف الذي يخدمه فقط ، وانما هـو ـ وخاصـة العلم الطبيعي ـ يرتبط بالتطبيق أيضا بالوسائل التي يستخدمها العلماء في أبحاثهم • فالصناعة تنتج الأجهزة والأدوات التجريبية والقياسية التي لايتمكن العلماء بدونها من القيام بأبحاثهم•

والى جانب ذلك يتضمن العلم بعض أشكال النشاط العملي ـ كالتجربة وأشكال التطبيق ـ التي تتناسب مـع متطلبات المعرفـة العلمية • والعلم ، بارتباطه الوثيق بالانتاج ، هو عبارة عن فرع خاص من العمل الذهني •

الا أنه ليس صحيحاً أن نؤكد بأن جميع القضايا التي يهتم بها العلماء تنشأ مباشرة وفي كـل الظروف عن نشاط الناس الانتاجي المـادي • وغالباً ما تكون الرابطة بين العلم والانتاج رابطة غير مباشرة بل معقدة •

ويتمتع العلم باستقلال ذاتي معين في علاقته مع الانتاج • وان هـــذا الاستقلال النسبي يجد تعبيره في كون العلم يتطور على أساس تناقضاته الخاصة ضمن الحدود التي يحددها مستوى الانتاج • فالقضايا الجديدة تنشأ في العلم نتيجة التناقض بين المعطيات الحديثة للتجربة وبين النظريات القديمة • وان ظهور النظريات والفرضيات الجديدة لايحل القضايــا الناضجة فقط ، بــل ويضع أيضاً قضايا جديدة •

ومثال ذلك ظهور الفيزياء النووية الحديثة • لقد أعطى تطور الانتاج ، وخاصة في ميدان الصناعة الكهربائية ، دفعة جديدة للبحوث في حقل الكهرباء ، ومن بينها دراسة الشحنات الكهربائية في الفراغ •

ولقد أدت البحوث في هذا الميدان الى اكتشاف أشعة رنتجن عام **١٨٩٥** • فان رنتجن ، اذ استخدم أنبوباً مشحوناً ، اكتشف الاشــعة التي تتمتع بقوة النفاذ الهائلة والتي دعيت بأشعة رنتجن •

ولقد أثار اكتشاف رنتجن الحماس عند بكيريل للدراسة واجراء التجارب مما أدى به الى اكتشاف ظاهرة جديدة مبدئياً على العلم ـ الاشعاع الراديوي •

ومع اكتشاف الاشعاع الراديوي برز السؤال حول مصدر هذا الاشعاع•

لقد كانت النظرية القديمة أعجز من أن تجيب عن هـــذا السؤال • وظهر التناقض بين الحقائق الجديدة والنظريــة القديمة وتطلب حله اجراء تجارب جديدة وادخال أفكار جديدة الى علم الفيزياء •

ولقد خدم اكتشاف بيكيريل كنقطة انطلاق في السرعة الجبارة لتطور الفيزياء الذرية ، ومن ثم الفيزياء الجوهرية مما أعطى نتائج تطبيقية عظيمة في وقتنا الحاضر ـ استخدام الطاقة النووية • وبعد أن انفصــل العلم لفترة عن التطبيق عاد اليه لكن على أساس جديد غني بالنتائج الجديدة • ومن جهــة أخرى فقــد أعطى الاستخدام التطبيقي للطاقة النوويــة دفعة جبارة جديدة لتطور العلم •

وفي ميدان الرياضيات كان ثمة كثير من الحقائق ، ووضعت النظريات الجديدة عن طريق التطور المنطقي لأفكار معينة ، ثم اكتشفت طرق تطبيق هذه النظريات •

ولو أننا جردنا الوقائع من الصلة العامة وجعلناها مطلقة لأمكن القول آنذاك ان العلم يتطور تلقائياً وبصورة مستقلة عن الانتاج •

ان نظرية « العلم للعلم » تنتشر انتشاراً واسعاً في أوساط البورجوازية ، وان العلم بموجب هذه النظرية لا يخضع للتطبيق وانما يتطور تلقائياً ،وبشكل جدارة عليا للمعرفة النظرية يتحدثون عن الاستقلالالصوري للعلم عن الانتاج والحاجات التطبيقية العملية • ومن هنا يستنتجون فكرة استقلال العلماء عن المجتمع وعن الشروط الاجتماعية لتطور العلم •

فان الفيزيائي الأمريكي المتفلسف ومؤسس نظرية العمليات بريدمان يؤكد « أن المجتمع هو خادم العلم الى درجة أكبر وبمعنى أعمق من خدمة العلم للمجتمع »[١] •

وان العالم الأمريكي الآخر ـ كونانت ـ ينكر أيضاً ارتباط تطور العلم بالحاجات التطبيقية العملية • فقد كتب : « ونجد التفسير لنشاط معظم العلماء في اللذة النقية لعملية الخلق »[٢] •

وفي الواقع ان النظرية القائلة بوجود « العلم الصافي » التي لا ترتبط بالتطبيق والقائلة بأن العالم مستقل عن المجتمع ، انما هي نظرية مثالية معادية للديموقراطية والمادية التاريخية تدحض هذه النظرية •

ولقد كتب انجلس في جوابه الى شتاتكنبورغ : « اذا كان التكنيك ، كما تؤكدون ، يرتبط الى درجة كبيرة بوضع العلم ، فان العلم يرتبط الى درجة

---

(1) P. W. Bridman. Reflections of a phisicist, NeW York, 1950 p. 270

(2) James Conant. Modern science and modern man 1953 p. 58

أكبر بوضع ومتطلبات التكنيك ، أي أن هذا يدفع العلم الى الأمام أكثر مما تدفعه عشرات الجامعات »[١] .

ان المعرفة ـ كأي نشاط روحي ـ ليست هدفاً بذاتها . وهي لا تنشأ لذاتها ، كما أن العلم لا يقوم من أجل العلم .

فالعلم ، اذ يولده التطبيق العملي ، يخدم هذا التطبيق . ولهذا فان التطبيق يولد العلم من أجل أن يخدمه ويساعده في التحسين والتطور .

وفي عملية النشاط التطبيقي في الانتاج يؤثر الانسان على الواقع المحيط به . ومن أجل أن يكون هذا التأثير هادفاً واعياً يؤدي الى النتائج المطلوبة لابد وأن ينسجم مع القوانين الموضوعية وخصائص الموضوع ذاته .

وان التأكيد على دور العلم في خدمة التطبيق لايعني الحط من قيمة المعرفة النظرية مطلقاً . بل على العكس ، وفي التطبيق بالذات تتكشف المساعدة الفعلية للعلم ، وقوة وعظمة المعرفة الانسانية للحقيقة .

وان بعض الاتجاهات في الفلسفة البورجوازية (البراغماتيزم مثلا) لا ترى في العلم الا جانباً واحداً ـ وهو أنه يفيد في ميادين معينة من النشاط ، وخاصة في ميدان الانتاج . وهي تنفي الحقيقة القائلة بأن التطبيق الناجح للعلم في الانتاج ممكن فقط لاحتوائه على الحقيقة الموضوعية . وبذلك فهي تحط من قدر العلم ، وتشوه فهم الصلة القائمة بين العلم والتطبيق .

ولتطوير معارف العلم النظرية لابد من امكانيات معينة . ففي ظروف الانتاج الضعيف التطور عندما تكون الانسانية مضطرة لانفاق كل وقتها أو معظمه للحصول على الخيرات المادية الضرورية للحياة ، فان امكانية ظهور العلم ترتبط بتقسيم العمل ، وبفصل العمل الذهني عن الفيزيائي ، وبانقسام المجتمع الى طبقات .

وينشأ العلم في المجتمع العبودي حيث تظهر لأول مرة فئات من الناس

---

(١) ماركس وانجلس . مؤلفات مختارة . الجزء ٢ ص ٤٨٤ .

تتفرغ للنشاط الذهني نتيجة لتقسيم العمل ولاستغلال الانسان للانسان • ففي مصر القديمة كان الكهنة يحتكرون هـذا النشاط لأنفسهم ، وعند الاغريق كان امتيازاً خاصاً لأوساط واسعة من الأسياد •

ومن المعروف أن بذور علم الفلك والميكانيك والرياضيات والطب وغيرها ظهرت قديماً في بلدان الشـرق الأدنى وفي الصـين والهند ، وفي الدولتين العبوديتين اليونانية والرومانية •

لقد نشأ علم الفلك من متطلبات زراعة الأرض وجوب البحار ؛ وكان ظهور بذور الميكانيك مرتبطاً ببناء المدن والمعابد • والمعارف الرياضية تطورت أيضاً على أساس زراعة الارض (في المساحة) والحرفة والبناء وغيرها •

الا أن العلم الذي نشأ في المجتمع العبودي لم يلق تطوراً جوهرياً كما لقي في المجتمع الاقطاعي • وفي القرن الخامس عشر وحسب ، وعـلى أساس متطلبات الانتاج الرأسمالي الناشيء ، بدأ تقدم الدراسة المنهجية للطبيعة الذي أدى الى ازدهار العلم الطبيعي التجريبي مبقياً عـلى سيطرة المثالية في العلوم الاجتماعية •

ولقد شقت العلوم الطبيعية طريقاً لا حباً في التطور وحققت نجاحـات هائلة • وفي وقتنا الحاضر زادت معارف الانسان عن الطبيعةالى درجة لا متناهية بالنسبة لما كان يعرفه الانسان عنها منذ ثلاثة ـ أربعة قرون • فلقد استطاع عقل الانسان الجبار أن ينفذ الى نواة الذرة وأعماق الكون ، وتكشفت أمام بصره الأسرار العديدة التي كانت تغلف بنية الأشياء ، وحلت ألغاز الحياة ؛ ولقد صار عقل الانسان ـ هـذه القطعة الصغيرة من المـادة العالية التطور ـ موضوعاً للبحث العلمي الموضوعي •

والعلم في تطوره يحافظ على التواصل بدقة • فالمعرفة التالية ترتكز على السابقة وتقوم بتطويرها وتعميقها • وان منجزات العلم ـ باستثناء بعضها ـ لاتفنى عند الانتقال من قاعدة اقتصادية الى أخرى ، بل تتبناها الأجيال التالية المتعاقبة وتقوم بتطويرها •

وكثير من الفيزيائيين والفلاسفة المثاليين البورجوازيين كانوا ينظرون الى نظرية اكتشاف الفيزياء الذرية في القرن العشرين كنفي للفيزياء التقليدية •

وفي الواقع ان الفيزياء الحديثة تعطينا معرفة أعمق عن المادة وقوانينها مما كانت تعطيه الفيزياء التقليدية ، لكن هـــذا لاينفي استخدام موضوعات الفيزياء التقليدية ضمن حدود معينة •

والى جانب هـــذا فان عملية تطور العلم تحتوي عـــلى عنصر النفي الدياليكتيكي •

ان مصالح العلم تتطلب القدرة على تحطيم التقاليد القديمة عندما يكون ثمة ضرورة لذلك ، ودفع العلم الى الأمام •

تلكم هي خصائص نشوء وتطور العلم • وان تلك السمات عامة لكل العلوم الطبيعية والاجتماعيـــة • وليس ثمة فارق مبدئي أو حاجز قاطع بين العلوم الاجتماعية والطبيعية •

وبموجب هذا لابد من الاشارة الى ما يلي : قبل ظهور الانتاج الاشتراكي ولدت متطلبات الانتاج الضرورة الى العلوم الطبيعية • وان النظريات الاجتماعية التي كانت موجودة آنـــذاك كانت تتطور وتخدم ، بصورة خاصـــة ، مصالح الطبقات المتناحرة ، أي أنها برزت كقوة ايديولوجية • ومن هنا عمد بعض الكتاب الى التقسيم الصـــارم بين العلوم الطبيعية المرتبطة بالانتـــاج والعلوم الاجتماعية • ولما جاء أسلوب الانتاج الاشتراكي أثبت أن العلوم الاجتماعية هي أيضاً مرتبطة بالانتاج • ان العلوم الطبيعية ترتبط بشكل أولي بالحاجات التكنولوجية ، أما العلوم الاجتماعيـــة فبالحاجات الاجتماعية لتطور الانتاج • ولهذا فان العلوم الاجتماعية في المجتمع الطبقي تتسم بطابع طبقي ،وان تطورها مرتبط بمصالح الطبقات المختلفة •

ان الماركسية اللينينية ــ العلم الاجتماعي الحقيقي ــ نشأت عن حاجة نشاط البروليتاريا الانتقادي الثوري الموجه للقضاء عـــلى الرأسمالية وبنـــاء

الشيوعية • وان تاريخ نشوء العلوم الاجتماعية والطبيعية ، ودورها الاجتماعي ، وطابع تطور كل فرع منها ، لــه خصائصه المميزة التي تنبغي دراستها بصورة تشخيصية كافية •

٢ ـ دور العلم في تطور الانتاج

ان الانســان يستخدم مكتشفات العلم في الانتــاج لمساعدتــه في تأمين حاجاته ، ومن أجل الحصول على النتائج المطلوبة • والعلم الصحيح يساعد على تحسين تكنيك الانتاج ويخدم في توجيه وادارة نشاط الناس •

والى جانب هذا ينبغي أن نتناول دور العلم في تطور الانتاج من الوجهة التاريخية •

فبالرغم من أن بعض جوانب الانتــاج في ظروف المجتمعين العبــودي والاقطاعيقدمت دفعة لتطور المعارف العلمية ، وخاصــة في الانتــاج الحرفي والزراعي في ذينك النظامين فقد كانت الاساليب التقليديــة والتجربة العملية المباشرة تتطور معتمدة على المعارف التراكمية • وعندما برزت وسيلة العمل في شكل آلة تعاظم دور العلم في تطور الانتاج الى درجة جد كبيرة • ان الطبيعة لا تصنع الآلات والقاطرات والسيارات والأبنية العاليــة والمحركات النفاثه ، ولايمكن صنعها بالاعتماد على المعارف التراكمية وحسب • ان هذا كله من صنع القوة الجبارة للمعرفة العلميــة • ان الفكرة العلمية المتجسدة في هــذه الأدوات أو تلك تكشف عن قــوة العلم التي تبرز كاحــدى القوى المحركة للتاريخ •

وان العلم ، اذ يجدد التكنيك من حين لآخر ، يسرع وتيرات نمو القوة الانتاجية للعمل الاجتماعي •

لكن ما أعطاه العلم في الســنوات الأخــيرة فاق كثيراً وكثيراً ما أعطاه استخدام العلم في القرن التاسع عشر • ان اكتشاف الاستخدام التطبيقي للطاقة النووية هــو بداية ثورة تكنيكية جبارة لا يمكن مقارنتها بمــا قدمتــه الآلة

البخارية مثلا • ان المحركات النفاثة التي خطت فصلا جديدا في تاريخ الطيران والتي مكنت الانسان من الطيران بسرعة تتجاوز سرعة الصوت ، وان انشاء التكنيك الصاروخي الذي شق الطريق في الفضاء الخارجي ، وان التطور الهائل للراديو والتلفزيون وصناعة « أدوات المخ » والأجهزة الالكترونية الحاسبة السريعة الدقيقة التي تقوم بادارة وتوجيه كثير من النظم والقواعد الدقيقة مما له شأن كبير في أتمتة الانتاج وكثيراً غيرها من الاكتشافات والاختراعات الأخرى ـ انما هي جميعاً نتيجة للتطبيق العملي لاكتشاف العلم الطبيعي ، وبالدرجة الأولى ، لاكتشافات فروعه المختلفة : الرياضيات والفيزياء والكيمياء •

وليست الصناعة العصرية وحدها هي التي تطالب بالتطبيق الواعي للعلوم التطبيقية ، وانما الزراعة أيضاً • ان التطبيق العملي في الزراعة الاشتراكية وضع مهمات جديدة أمام العلم البيولوجي ـ في طرق زيادة المحصول ، وتحسين أصناف الحيوانات الأهلية • وبهذا يتجلى معنى الشعار الذي طرحته بلادنا : « نحن لانتظر احسان الطبيعة ، وان مهمتنا في أخذه عنوة » •

وان دور العلم في تطور الانتاج لاينحصر في تأثيره على التقدم التكنيكي• فللعلم دور كبير في رفع المستوى الثقافي أيضاً للمنتجين المباشرين • ومن المعروف أن ظهور التكنيك الجديد يتطلب أناساً ذوي كفاءات ومعارف معينة لادارته .• فان انتاجية العمل لاتتعلق فقط بوجود المحراث أو الجرار ، بل وبوجود الانسان الذي يحسن قيادة الجرار والفلاحة• فالانسان الجاهل يعجز عن ادارة الآلات الحديثة • ولهذا فان انتشار المعارف العلمية بين الجماهير من شأنه أن يزيد من انتاجية العمل ، ويؤثر تأثيراً كبيراً وفعالا على تطور المجتمع•

وفي المجتمع الاشتراكي يحصل الشعب على اطلاع عال والمام كبير بالعلم • فالعالم كله يعرف منجزات الاتحاد السوفييتي في ميدان خلق الكوادر التكنيكية مما يبعث الرعب في أوساط الامبرياليين • ففي عام ١٩٦٠ صار في الاتحاد السوفييتي ٨ر٦ مليون أخصائي من ذوي التحصيل العالي والمتوسط ـ أي بزيادة ٤٥ مرة عما كان عليه في روسيا القيصرية • وان عدد المهندسين الذين يتخرجون في الاتحاد السوفييتي سنوياً في وقتنا الحاضر يزيد بـ ١٠

مرات عن عددهم في انكلترا ، و بـ ٣ مرات عن أمريكا ، وان عدد العاملين في حقل العمل الذهني يربو على ٢٠ مليون •

ولا يجوز الاعتقاد بأن العلوم الطبيعية هي وحدها صاحبة الاهمية في تطور الانتاج ، فان دور العلوم الاجتماعية على قدر كبير من العظمة هنا أيضاً • وحسبنا أن نتذكر موضوعة لينين القائلة بأنه لايمكن قيام حركة ثورية بدون نظرية ثورية كيما نقدر الاهمية العظيمة لعلم المجتمع في القضاء على أسلوب الانتاج الرأسمالي وخلق الشروط من أجل النمو العاصف لانتاجية العمل الاجتماعي • كما وأنه لايمكن امتلاك الطاقة النووية وخلق المصانع الذاتية والآلات الحاسبة بدون تطور وازدهار العلوم الطبيعية والتكنيكية ؛ كما وانه ليس من الممكن اقامة العلاقات الاجتماعية على أساس واع وهادف ، وتطوير الاقتصاد ، ورفع الفعالية الاقتصادية ، وتحسين اللغة بدون تطوير المادية التاريخية والاقتصاد السياسي وعلم اللغة والتربية وعلم النفس •••الخ• وبالطبع ، فكيما يتمكن المجتمع من وضع الأهداف منطلقاً من العلم ، وكيما يقدر على استخدام العلم في حل القضايا الاجتماعية الكبرى ، ينبغي عليه أن يكون منظماً تنظيماً بشكل يتلاءم وهذه الاهداف •

ان تجربة بلادنا وبلدان المعسكر الاشتراكي الأخرى تبين أن النجاحات العظيمة العملاقة للعلم التي تتغلغل الى أعماق ميادين العالم المحيط والتي تضاعفها وتزيدها الطاقة الجبارة للشعوب المتحررة من الاستغلال تتحول الى أدوات للتقدم لانظير لها من حيث القوة والفعالية • ولهذا بالذات يولي حزبنا والأحزاب الشقيقة في بلدان الديموقراطية الشعبية الاهتمام الكبير لتطور العلوم من شتى الجوانب الطبيعية منها والاجتماعية •

٣ ـ مكان ودور العلم في تطور المجتمع الرأسمالي

ان الشروط الاجتماعية تؤثر تأثيراً عميقاً ومتنوعاً لا على العلوم الاجتماعية وحسب ، بل وعلى العلوم الطبيعية أيضاً • ان العلم يرتبط قبل كل شيء بمتطلبات الانتاج ، لكنه لاتجوز دراسته منفصلا عن العلاقات الاقتصادية

السائدة وعن المجتمع ، لأن الانتاج لايبرز بشكل مجرد : فهو اما انتاج رأسمالي واما اشتراكي ، وهو يوجه في شكل اجتماعي معين • وان العلم الطبيعي يتطور دائماً في ظروف اجتماعية معينة تمارس تأثيرها عليه •

والعلم الطبيعي ليس بنياناً فوقياً ، الا أن هذا لا يعني أنه لايرتبط بالقاعدة الاقتصادية للمجتمع • ان القاعدة تؤثر على تطور العلوم بشكل غير مباشر وذلك لانها اما أن تساعد على تطور الانتاج أو تعرقله ، ولأنها بهذا تحدد البنيان الفوقي السياسي للمجتمع وتحدد ايديولوجيته أيضاً • فمن خلال الانتاج ـ من جهة ، ومن خلال السياسة والايديولوجيا ـ من جهة أخرى ، تؤثر القاعدة على تطور العلم • لكنها تؤثر على العلم بشكل مباشر أيضاً • فبالرغم من أن العلم ينشأ من متطلبات الانتاج فان اتجاه الأبحاث العلمية ، وخاصة الاستخدام الاجتماعي للعلم ولمنجزاته ، يرتبط بالعلاقات الاقتصادية القائمة في هذا المجتمع أو ذاك • ويمكن أن يستخدم العلم لأغراض شتى • فان الانتاج الآلي المعاصر لايقدر على القيام بوظيفته وعلى التطور بدون العلم كعامل ضروري في التأثير المتبادل بين المجتمع الانساني وبين الطبيعة •

وبما أن البورجوازية تطور الانتاج ساعية خلف الربح فانها تهتم بالعلوم الطبيعية بالحد الذي يسمح لها باستخدام منجزات تلك العلوم من أجل الحصول على ربح أكبر ، ومن أجل تشديد استغلالها للكادحين •

واذا كان تطور العلوم الطبيعية يتحدد بالانتاج فانه ليس صحيحاً بعد ذلك القول بأن قوانين أسلوب الانتاج الرأسمالي بمجموعه تحدد تطور هذه العلوم •

ان للعلوم الطبيعية خصائصها واستقلالها النسبي ، ولهذا فان القوانين الاقتصادية للرأسمالية تنعكس فيها من خلال عديد من حلقات الاتصال • لكنه ما من شك مطلقاً في أن تطور العلم في ظل الرأسمالية يحمل طابع التناقضات الطبقية الحادة لذلك المجتمع •

ويعبر عن هذا ، قبل كل شيء ، في أن البورجوازية في المجتمع الرأسمالي

تحتكر العلم وتصيره احدى وسائلها في الحصول على الربح • ولهذا تنعكس في أشكال تنظيم العلم والنشاط العلمي قوانين المزاحمة الرأسمالية والانتاج الرأسمالي •

وان العلم المعاصر يطالب بتنظيم منهجي للعمل العلمي • ففي البلدان الرأسمالية المختلفة وفي فترة الحرب وبعدها جرت محاولات لمنهجة البحوث العلمية • ففي الولايات المتحدة الأمريكية ، مثلا ، قامت ، ولاتزال ، كثير من المؤسسات الحكومية لتنظيم ومنهجة العمل العلمي ، وخاصة في الفروع المرتبطة بالانتاج الحربي •

وتقوم الدولة بتمويل جزء كبير من البحوث العلمية • ان الدولة البورجوازية ، اذ تعبر عن المصالح العامة لطبقة الرأسماليين ، تؤثر على تنسيق الأبحاث العلمية ضمن أطر معينة تحددها الحاجات السياسية والاستراتيجية العسكرية • لكن المنهجة الصحيحة للعلوم غير ممكنة في النظام الرأسمالي لأنها تتطلب ربطها بمنهجة التطور الاقتصادي ، وهذا لايمكن في ظل الملكية الفردية • ان الاحتكارات الرأسمالية لا تقضي على المزاحمة ، وان المزاحمة بين الاحتكارات الضخمة التي تسعى كل منها للحصول على طلبات من الحكومة، تعرقل تنظيم منهجة العلم ضمن البلاد • ان الدولة الرأسمالية هي أداة للاحتكارات ، وان تقوية الميول لدى احتكارية الدولة في تنظيم العلم لا تلغي قوانين الرأسمالية •

وان الاحتكارات الرأسمالية لاتسعى فقط للحصول على المكاسب الضخمة من التقدم العلمي ، وانما تضع تقدم العلم ذاته في ارتباط مع مصالحها أيضا • وتستخدم الاحتكارات ما لديها من وسائل لفرض سيطرتها على العلم ولتجعل منه أداة في صراعها التزاحمي •

وبالرغم من أن العلم في البلدان الرأسمالية يتطور ، بل وبسرعة في كثير من الفروع ، فان سيطرة الاحتكارات تولد النزعة الى جمود التقدم العلمي • فعندما لايرى الرأسماليون المكاسب في الأبحاث العلمية يقفون ضد تقدم العلم ، ويعرقلون تطوره وتطبيق مكتشفاته •

لكن التأثير الرجعي عـــلى العلم يتجلى بصـــورة واضحة في استخدامه من أجل الاغراض العسكرية • فالامبرياليون ، اذ يخضعون العلم لمصالحهم الرجعية ، يوجدون الشروط الملائمة لاجراء الابحاث العلمية التي يتوقعون منها مضاعفة قواهم العسكرية •

لقد كتب ج• برنال : « لقد وضع العلم كله في كل من أمريكا وانكلترا زمن الحرب لخدمة الحرب ••• »[1] •

وان الأبحاث العلميـــة في وقتنا الحاضر تتطلب نفقات كثيرة وباهظة ، وان الاحتكارات والحكومات البورجوازيـــة تقوم بتحويل البحوث العلميـــة الموجهة مباشرة أو بشكل غير مباشر لخدمة الأغراض العسكرية •

ان الأبحاث في حقـــل الفيزياء والبيولوجيـــا تتجه بالدرجـــة الأولى لاستخدامها في انتاج السلاح الذري والكيمياوي والجرثومي ••• الخ •

ولقد كتب لينين في عام ١٩١٦ أن « الروح العسكرية في عهد الرأسمالية تتغلغل الى جميع ميادين الحياة الاجتماعية حتى تسيطر عليها كلياً » •

وان اخضاع العلم للسياسة العدوانية للامبريالية ينعكس أيضاً في عملية « عسكرة » العلم في البلدان الرأسمالية المعاصرة ، وخاصة في الولايات المتحدة الأمريكية وانكلترا •• وغيرهما • ونتيجة لذلك يتطور العلم بشـــكل شائه ومن جانب واحد ، ويصبح صانعاً للوسائل الهائلة في الابادة والتدمير •

ان رجـــال العلم التقدميين في البلدان الرأسمالية الذين فهموا الـــدور الرهيب الذي يمكن أن يقوم به العلم في اهانة واذلال الانســـان يعربون عن سخطهم على سياسة الامبرياليين المعادية للشعوب • وان خطر اندلاع نار حرب نووية الذي يلوح به الامبرياليون والذي من شأنه أن يجلب المحن للانسانية كلها أرغم كثيراً من العلماء البورجوازيين على رفع صوتهم عالياً ضـــد سباق التسلح النووي ، ومن أجل نزع السلاح التام الشامل •

---

[1] ج • برنال • العلم في تاريخ المجتمع ، ١٩٥٦ ، ص ٦٧٤ •

الا أن قسماً كبيراً من العلماء البورجوازيين ما زالوا يعملون لتطوير السلاح المدمر ، وان المغرقين منهم في الرجعية يبررون استخدام العلم علانية في أغراض الحرب .

وهكذا ، فالحياة نفسها تبين أن العلم المعاصر أيضاً لايمكن أن ينتحي جانباً بعيداً عن السياسة ،ولابد أن ينعكس فيه النضال بين قوى الرجعية والتقدم لعصرنا هذا .

وعلاوة على أن العلم يخدم حاجات التطبيق فان لـه جانباً آخر : فهو يرتبط مباشرة مع الايديولوجيا والنظرة الى العالم . وان الناس يتلقون معطيات العلم في أشكال ايديولوجيا معينة مرتبطة بالشروط التاريخية وبالنظرة السائدة. ولهذا فان للسؤال عن الأسس الايديولوجية للعلم أهمية جد عظيمة .

وان العلم ، اذ يكشف عن الصلات الطبيعية بين ظواهر الطبيعه ، يطرد في تطوره الاله من الطبيعة ، ويدحض خطل المثاليـة ، ويؤيد صحة النظرة المادية الى العالم . والعلم يتفق مع المادية في بحثه عن الحقيقة في الحياة ذاتها وفي الطبيعة ، ويفسر ظواهر الطبيعة والمجتمع معتمداً على القوانين الموضوعية. وهذا ما يدل على أن العلم الحقيقي هو ذو طابع مادي .

ان العلم مادي بطبيعته وبجوهره . والمثالية غريبة عنه وعدوة له .

ولقد أشار لينين الى أن العلوم الطبيعية تولد الماديـة عفوياً ، أي تنشأ عند العلماء الطريقة المادية لدراسـة الطبيعة لأن المواضيـع التي تدرسها هي مادية بكليتها .

ولقد كان ايديولوجيو البورجوازية الثورية يعتمدون في زمنهم عـلى العلم في النضال ضد النظرات الاقطاعية وضد الدين ، وهم ، اذ عمموا معطيات علم عصرهم ، كانوا يرتفعون في كثير من الأحيان الى المادية الفلسفية الواعية. فلقد ساعدوا العلم على التشبث بحقه في البقاء مما كان له دور ايجابي كبـير في تطور العلم . لكن تلك الأزمان مضت الى غير رجعة . والبورجوازية ، بعد

أن وطدت سلطتها ، لم تتوان لحظة واحدة في التخلي عن أحلام شبابها المادية • فالبورجوازية ، كطبقة استغلالية كانت تفتقر ، ولاتزال ، الى الدين من أجل ابقاء الجماهير خاضعة للعبودية الروحية • والمادية تتناقض مع الدين ، ولهذا كانت البورجوازية ترغب عنها لتنضم الى جانب المثالية • لكنها لم تستطع رفض العلم أيضاً • ولهذا فان العلم في ظل الرأسمالية يتطور في ظروف سيطرة النظرة البورجوازية الميتافيزيكية المثالية والتأثير القوي للدين •

وتسعى البورجوازية لاخضاع العلم لفلسفتها ، ولتخفيف حدة التناقض بين العلم والدين أو تصفيته نهائياً ، وذلك بتشويه جوهر كل من العلم والمعرفة • وهذا ما تقوم به الفلسفة البورجوازية والنظرية المثالية في المعرفة • والبورجوازية تضطر الى تشويه العلم لا لابقاء الدين وحسب ، بل ولربط رجال العلم بها روحياً وجعلهم طوع بنانها •

وان المثالية ، اذ تحل هذه المهمة الاجتماعية ، تشوه طبيعة المعرفة الانسانية ، طبيعة العلم ، بصورة تمكنها من استئصال الحقيقة المادية ومصالحة العلم والدين •

ولقد عبر عن هذه النزعة العامة للفلسفة المثالية البورجوازية الفيلسوف الانكليزي القس بركلي في النصف الأول من القرن الثامن عشر بجلاء •

فكتب لينين ليكشف حقيقة علم المعرفة عند بركلي والفلاسفة المثاليين الآخرين : « سوف نعتبر العالم الخارجي ، الطبيعة ، « مجموعة من الأحاسيس » وضعها الاله في عقلنا • وأنتم ، اذ تقرون ذلك ، لن تعودوا الى البحث خارج الوعي ، خارج الانسان ، عن «أسس» تلك الأحاسيس ـ وأنا أقر ضمن حدود نظريتي المثالية معرفة كل العلوم الطبيعية وكل أهميتها وصحة نتائجها • فأنا بحاجة الى هذا الاطار بالذات من أجل استنتاجاتي لمصلحة « العالم والدين » ـ هذه هي فكرة بركلي »[1] •

ان فكرة التوفيق بين العلم والدين تصدع فلسفة كانت أيضاً • فهو ،

---

(1) لينين • المؤلفات • الجزء ١٤ ص ١٨ •

اذ حصر المعرفة ضمن نطاق الظواهر ، يعلن أن جوهر الأشـياء لايمكن أن يعرف ، ويؤكد أن هذا « الشيء بذاتــه » الذي لايعرف لاتكشفه المعرفة بل الايمان • وان كانت يحدد المعرفـة والعلم من أجـل أن يبقي مكاناً للايمان وللدين • وهو ، اذ يحدد ميدان الايمان والمعرفة ، يحظر على العلم التدخل في قضايا الدين ، ويؤكد في الوقت ذاته أولوية الدين على العلم •

ولقد انتقد هيجل نظرة كانت اللامعرفية هذه ، ولكنه في الوقت ذاتــه سعى لاخضـاع العلم للمثالية • وان أسمى أنواع المعرفة عنـده هي معرفة « الفكرة المطلقة » التي تعطيها الفلسفة • فالطبيعة عند هيجل هي وجود آخر للفكرة وانعكاس لها ، ولهذا فالعلوم التي تدرس الطبيعة ينبغي ألا تتناقض في نتائجها العامة مع فلسفة هيجل المثالية التي جعل منها « علم العلوم » وكتعبير عن الحقيقة المطلقة في المظهر النقي •

ان التطور العاصف لفروع العلوم الطبيعية المختلفة في القرن التاسع عشر وخاصة في القرن العشرين أثبت بحجج مقنعة أن الفلسفة العلمية الوحيدة التي تنسجم مع العلوم الطبيعية الحديثة هي الفلسفة الماركسية التي وضعها ماركس وانجلس وطورها لينين •

لكن الايديولوجيين البورجوازيين يسعون الى ربط العلم بالنظرة المثالية عن العالم ، واخضاعه للدين كمـا هو شأنهم سابقاً ، مستخدمين من أجـــل ذلك « البقع الوضيئة » في العلم وتقدم المعرفة أيضاً • وان البرهان على ضيق خارطة العالم الميكانيكية يصوره المثاليون كافلاس النظرة الماديـة عن العالم ، وكحقيقة نسـبية معارفنـا ـ أي كدليل عـــلى أن العلم لايتضمن الحقيقـة الموضوعية ••• الخ •

واذا كان بركلي أو كانت يوفقان بين العلم والدين فان المثاليين في القرن العشرين لايعزمون كلهم على ربط معرفتهم بالأساس الديني •

ان التشويه « الناعم » للعلم وتسلل المثالية تحت قناع « الخط الثالث » في الفلسفة كما لو كان فوق المادية والمثالية معاً ، هو ما يميز الفلسفة الوضعية

الحديثة • وكيلا ننساق الى خط الفلاسفة البورجوازيين حسبنا الاهتداء بفكرة لينين القائلة بأن كـل مثالية انما هي لاهوتية مصفاة وطريق الى اللاهوت • وعند كل أنواع الفلسفة المثالية خصم عنيد واحد ـ هو المادية الديالكتيكية ، وان كل انقسام بين المثاليين انما هو خلاف ضمن حدود المعسكر الذي يقف ككل ضد المادية الديالكتيكية •

والفلسفة المثالية البورجوازيـة تشوه جوهر المعرفة • وهي لا تفسر العلم خطأ وحسب ، وانما تنفذ بسمومها الى أعماقه • والعلماء البورجوازيون الـذين يرتبطون بالبورجوازيـة مادياً وروحيـاً ويستوعبون أوهـام النظرة البورجوازية عن العالم لا يسعهم الا أن يقحموها في جوهر العلم • ذلك لأن الناس يستخدمون التفكير النظري وطرقاً نظريـة معينة في العلم • وبما أن العالم يبدأ بتفسير الحقائق منطلقاً من مبادىء الفلسفة المثالية فهو لابـد سينقد مقياس الموضوعية ويبني النظريات الكاذبـة التي تشوه الحقائق • والمثاليـة والميتافيزيكا ، اذ تنفذان بهذا الطريق الى العلم وتلتحمان مع نسيج النظريات العلمية ذاتها ، تعرقلان تطور العلم ، وتنتحيان جانباً بعيداً عن المعرفة الحقيقية• والفلسفة المثالية تتسلل غالباً تحت ستار العلم وتحاول التكيف مـع خصائصه ممـا يجعل أمر فضحها صعباً ومعقداً • لكن تلك البقع المثالية تبقى أجسـاماً غريبة ومتطفلة على العلم •

ان المعرفة هي عملية معقدة ومتناقضة • فيحدث في العلم أن تنشأ فرضيات مغلوطة ونتائج كاذبة ، وقد تجعل احدى نواحي الظاهرة المدروسـة مطلقة فتستغلها المثالية لضرب الماديـة الديالكتيكية • ان الفلسفة المثاليـة تتاجر بهذا دائماً ، وتتسلق على كل فكرة مغلوطة عن الواقع ، وتتطفل على مصاعب نمو العلم محولة تأرجح الفكرة العلمية لصالحها الخاص •

ان الاستنتاجات المثالية الذاتية من النظرية النسبية ، وان النظرية الارادية في الميكانيك وفي البيولوجيا ، والنظريات المثاليـة المختلفة عن محدودية العالم وعن خلق المادة من العلوم وغيرها ، كل هذه أمثلة على التأثير الرجعي للمثالية

والميتافيزيكا على العلوم الطبيعية تؤكد أن المادية العفوية لعلماء الطبيعة لاتضمن عدم تسرب المثالية الى العلوم الطبيعية ، وأنه لابد هنا من المادية الدياليكتيكية. لكن كل وضع الحياة في المجتمع البورجوازي يفرض على العلماء النظرة المثالية ويدفعهم بعيداً عن المادية الديالكتيكية.ومع هذا ففي المجتمع البورجوازي ذاته ثمة علماء تقدميون يعملون على تطوير العلم ويتمكنون من تخطي حواجز النظرة البورجوازية الضيقة ليعبروا الى جانب المادية الديالكتيكية .

ان استخدام العلم لأغراض الحرب والدمار ، وتسرب المثالية والميتافيزيكا الى العلم ، والمعالجة الفاسدة للمكتشفات العلمية التي ترتبط ارتباطاً وثيقاً بتشويه طبيعة العلم ذاته ، والحط من قدر العلم ومصالحته مع الدين ـ كل هذا يبين لنا الطابع المتناقض لتطور العلوم الطبيعية المعاصرة في ظروف الرأسمالية .

ان المجتمع البورجوازي المعاصر هو في جوهره عدو لتقدم المعرفة العلمية. فالبورجوازية لم تقف عند فصل العلم عن الشعب ووضعه في خدمتها وحسب ، فقد صارت عاجزة عن استخدام منجزاته في الانتاج والبناء فاتسع استخدامها للعلم في أغراض التخريب والدمار صانعة بذلك خطراً هائلا محدقاً بالانسانية وبالثقافة الانسانية .

لقد انبثقت الحاجة الى معارف معينة عن المجتمع والى تجميع الحقائق التاريخية وتفسيرها من نشاط الناس العملي في التشكيلات السابقة للاشتراكية.

هكذا ، مثلا ، فمن أجل النشاط في ميداني الصناعة والتجارة . ومن أجل تقرير سياسة الدولة الداخلية والخارجية ، ولتنظيم الشؤون العسكرية وغيرها كان لابد للناس من معارف معينة عن المجتمع . ولقد توصل العلم الاجتماعي الى هذه المعارف وتطور بنفسه . الا أنه لم يستطع النفوذ الى جوهر العملية التاريخية في الماضي وتقديم شرح علمي لها . « ان علم الاجتماع » السابق للعلم الاجتماعي الماركسي وكذلك التاريخ لم يكونا يتعديان في أحسن الأحوال عملية تجميع الحقائق الأولية المختارة ووصف بعض جوانب العملية

التاريخية »[1] • ويرجع ذلك الى ضيق أفق نشاط الناس الواعي في التشكيلات السابقة للاشتراكية مما جعل الحاجة ذاتها الى معرفة موضوعية للمجتمع جد ضيقة ومحدودة أيضاً • وعلاوة على هذا فان تطور الوعي الاجتماعي يتحدد بالمصالح الأنانية للمستغلين •

وبالنسبة لعلماء الاجتماع والاقتصاد البورجوازيين فان نقطة الانطلاق في قضايا تطور المجتمع ودراسة التاريخ و «التبدلات الاجتماعية » في القرن العشرين هي : التأكيد على ثبات الرأسمالية ، ونفي حتمية انتصار الشيوعية ، والنضال ضد الفهم المادي للتاريخ ، ضد الماركسية ــ اللينينية •

وهل باستطاعة علماء الاجتماع والتاريخ البورجوازيين أن يتقولوا عن الفهم العلمي المتطور التاريخي اذا كانوا لا يقرون وجود القوانين الموضوعية للتطور الاجتماعي ؛ ثم انهم يحولون انقسام المجتمع الرأسمالي الى طبقات متناحرة الى انقسام من نوع آخر ــ الى فئات اجتماعية بحيث تلقى في هذه الفئة أو تلك العمال والرأسماليين جنباً الى جنب • وهم يشجبون فكرة التقدم التاريخي ، ويرفضون حتى مفهوم « التطور » بالنسبة للمجتمع ، ويخلطون العلاقات والروابط الجوهرية بالثانوية اذ يدرسون الاقتصاد وعلم النفس « كعاملين » متساويين في أهميتهما (« نظرية الدوافع ») أو أنهم يولون الأهمية الأولى للدافع النفسي (« المدرسة النفسية ») ••• الخ •

ان علم الاجتماع البورجوازي يعارض النقد الماركسي للرأسمالية بمديح النظام الرأسمالي بالزعم القائل بإمكانية حل تناقضاته في نطاق النظام نفسه • واذا ما سمح ببعض النقد للرأسمالية فهذا يكون لتحديد طرق تحسين وترتيق النظام الرأسمالي • هكذا ، مثلا ، فبموجب تعاليم الاقتصادي الانكليزي د • كنز يمكن التخلص من الأزمات نهائياً في ظل الرأسمالية وتأمين العمل للجميع وخلق اقتصاد مبرمج بمساعدة الدور التنظيمي الذي تضطلع به الدولة البورجوازية ••• الى آخر ما هنالك • ولقد أخذت الأوساط الحاكمة في

---

(١) لينين • المؤلفات • الجزء ٢١ ص ٤٠ •

الولايات المتحدة الأميركية بأفكار كينز ومنحتها الاعتراف الرسمي • لكن الحياة نفسها تدحض بقسوة مزاعم الايديولوجيين البورجوازيين وتبين عدم صلاح الرأسمالية وتخليصها من العيوب •

وبالطبع فان الرأسمالية المعاصرة ليست كرأسمالية القرن الماضي • لكنما الانتقال الى الامبريالية لم يغير من طبيعة الرأسمالية كنظام قائم على ظلم واستغلال الطبقات الكادحة • بل الأمر على العكس من هذا ، فلقد تفاقم الاستغلال في ظل الامبريالية واحتدمت كل تناقضات الرأسمالية • والكادحون على حق في نظرتهم للرأسمالية كنظام يحمل للجماهير الخراب والافلاس وخطر الاملاق والجوع ويولد الحروب بكل ماتجره من ويلات على الشعوب قاطبة • ويتعاظم نفوذ أفكار الاشتراكية العلمية ويحتل مثال البلدان الاشتراكية المكانة المرموقة في قلوب الجماهير حيث أمسكت شعوب هذه البلدان بزمام مصيرها •وفي هذه الظروف لايدخر ايديولوجيو البورجوازية جهداً من أجل تزيين واجهات البناء الرأسمالي ، وبث الأوهام القائلة بوحدة المصالح بين العمال والرأسماليين •

وينحرف مع التيار العام للايديولوجيا البورجوازية وعلم الاجتماع البورجوازي الاشتراكيون الديموقراطيون المعاصرون والاشتراكيون اليمينيون الذين فقدوا أية رابطة مع الماركسية الثورية منذ أمد بعيد • وهم في وقتنا الراهن لايقومون بتحريف الماركسية وحسب ، وانما يرفضونها هكذا بصورة سافرة •

ان برنامج الحزب الاشتراكي النمساوي يعلن أن الماركسية قد شاخت ، ويشجب النضال الطبقي ودكتاتورية البروليتاريا ، ويرفع شعار « الاشتراكية الديموقراطية » •

ان واضعي ذلك البرنامج ، اذ يؤكدون أن البروليتاريا في وقتنا الحاضر قد حققت المساواة السياسية مع الطبقات الأخرى ،يعتبرون الدولة البورجوازية فوق الطبقات ، « دولة الرخاء الاجتماعي » • وان ذلك البرنامج مفعم بالعداء

للشيوعية ، ولبلدان المعسكر الاشتراكي التي ينعتها دائماً « بالدكتاتورية » • وهـو في جوهره وبقناعة تامـة يدافع عن الرأسـمالية لأنه ينكر ضرورة التحول الثوري •

والماركسية لا تهمل علم الاجتماع البورجوازي بكليته وانمـا تستخدم معطياته الموضوعية وبعض منجزاته (مثلا نظرية قيمة العمل ، وطريقة المقارنة في علم اللغات ، والحقائق التاريخية وغيرهـا) بعد أن تطرح جانبـاً نزعاتها الرجعية ، وتناضل دونما هوادة ضد التشويه الايديولوجي •

٤ ـ العلم في المجتمع الاشتراكي

ان الثورة الاشتراكية هي المخرج الراديكالي الوحيد للعلم من الورطة التي دفعته البورجوازيـة اليها • فالثـورة الاشتراكية لاتحافظ عـلى منجزات علم الماضي وأفضـل تقاليده وحسب ، بل وتخلق الظروف الملائمة التي لـم يعهد مثلها للتطور العلمي • وان تطور العلم في الاتحاد السوفييتي لأسطع دليل على ذلك •

لقد اسـتطاع العلم الروسي قبل الثـورة أن يحقق نجاحات باهرة ، وأضـاف الى تراث العلم الانسـاني قدراً عظيماً حقاً • ان لومونوسـوف ولوباتسشيفسكي ومندلييف وليبديف وبوبوف وسيتشينوف وتيميريازيف وكثيرين غيرهم من علماء روسيا الأعلام يعرفهم العالم بأسره • وقبل الثورة بدأ كل من ميتشورين وبافلوف عمله المبدع •

وان العلم السوفييتي يتمم ويطور على أساس جديد أفضل تقاليد ومنجزات العلم الروسي والعالمي الماضي •

والثـورة الاشتراكية تحقق لأول مرة أحـلام العلمـاء الديموقراطيين بوقفها منجزات العلم على خدمة الشعب ، وبتحقيق نهضته المعيشية والثقافية ، وبتسهيل العمل • وأهم مايتسم به علم الاجتماع الاشتراكي هو أنه في خدمة الشعب • وليس هـذا الا نتيجة مباشرة للقضاء عـلى الملكية الخاصة ، وعلى التناقض بين العمل الذهني والعمل العضلي ، ولاعادة تربية المثقفين القدامى وخلق مثقفين جدد عاملين •

والثـورة ، اذ انتزعت العلم من البورجوازيـة ، فتحت للشعب المجال واسعاً الى العلم ، ومنحت العلم سمات جديدة وجعلته شعبياً • وهذا يعني أن العلم اقترب من الشعب كما أن الشعب ارتفع الى العلم •

وهذا التقارب بين العلم والشعب يبعث في العلم قوى جديدة ، ويزود كوادره بمواهب من الشعب ، ومن جهة ثانية ، فان الأهداف السامية في خدمة الشعب تمنح العاملين في حقل العلم دوافع قوية جديدة ، وتمدهم بالالهام في عملهم المبدع لما فيه خير الوطن •

لقد قال لينين : « قديماً كان العقل البشري كله وكانت عبقرية الانسان كلها تبدع فقط من أجل أن يتمتع البعض بخيرات التكنيك والثقافة ، ويذوق الآخرون مرارة الحرمان حتى من الضروري ذاتـه ـ العلم والتطور • أمـا الآن ، فان كل معجزات التكنيك وكل منجزات الثقافة ستصبح ملكاً للشعب بأسـره ، ومنذ الآن لن يتحول عقل الانسان وعبقريتـه الى وسـيلة للعنف وللاستغلال »[١] •

ولقد أوجدت في الاتحاد السوفييتي ، كمـا وفي البلدان الاشتراكية الأخرى ، الشروط الضرورية لمنهجة العلم على نطاق المجتمع كله وللصلة

---

(١) لينين • المؤلفات • الجزء ٢٦ ص ٤٣٦ •

الواعية بين العلم من جهة وبين المتطلبات الواقعية للانتاج وحاجات ومطاليب الناس العملية من جهة أخرى • وهـذا من شأنه أن يؤمن ليس فقط تطوراً أسرع في الانتاج ، بل ونجاحاً أكبر في تطور العلم ذاته •

ان بناء الاقتصاد الجديد مرتبط بالتطور المنهج السريع لقوى الانتاج ، وبالتقدم التكنيكي العاصف ، وبتنفيذ الخطط الهائلة لتحويل الطبيعة ذاتها • ويحتل العلم المكان المرموق في مضمار هـذا التقدم كله • فالى جانب دراسة الموضوعات الكبرى ينبغي على العلم حل المسائل الهامـة التي يدفع بها تطور الانتاج • وان حل هذه المسائل بدوره يدفع العلم الى الأمام • وهكذا تنفتح أمام العلم آفاق جديدة ومجالات جديدة أمام تطوره • والعلم بارتباطه مـع الانتاج ، ومع متطلبات التطبيق العملي لبناء الاشتراكية والشيوعية يتسم بالفعالية ويكتسب دوافع اجتماعية جديدة لتطوره • وان السمة الخاصة بتطور العلم في المجتمع الاشتراكي هي في أنه بدأ يتوجه بشكل واع ، ويتمنهج عـلى نطاق المجتمع كله •

وهكذا ،فالعلم في المجتمعالاشتراكي هو علم الحياةوالبناء وهو ذو أهداف سلمية ويخدم الشعب • وان العلماء السوفييت ، بالطبع ، لاينسون حاجات البلاد الدفاعية ، والكل يعرف منجزاتهم في هـذا المضمار • فلقد انتزعوا من أيدي الولايات المتحدة الأمريكية احتكار القنبلة الذرية التي أرعب بها الامبرياليون العالم بأسره ، وصنعوا الصواريخ العابرة للقارات • لكن هـذا لم يكن الا رد فعل لخطر العدوان الامبريالي المحدق • وان الاهتمام الرئيسي للعلم السوفييتي هو في ضمان التطور السلمي للاقتصاد الاشتراكي • والدولة السوفييتية تناضل بعناد من أجل حظر الاسلحة النووية والتدميرية الأخرى ، ومن أجل استخدام الطاقة النووية للأغراض السلمية البناءة فقط ، ومن أجل نزع السلاح التام والشامل •

ان العلماء السوفييتين لم يستخدموا الصواريخ العابرة للقارات لأغراض الحرب ، بل استخدموها من أجل اطلاق الأقمار الصناعية • ولقد حقق العلم

السوفييتي مجداً خالداً على مر العصور باختراع سفينة الفضاء « فوستوك » التي حملت أول انسان في العالم الى الفضاء الكوني • ان يوم الثاني عشر من نيسان عام ١٩٦١ سوف يظل مشرقاً أبداً في التاريخ كيوم أغر - يوم اقتحم الانسان الفضاء • ان تحليق يوري غاغارين وجيرمان تيتوف في الفضاء الكوني لهو أعظم مأثرة للعقل البشري ، فقد فتح عصراً جديداً في تطور المعرفة ، وأعلن بداية غزو الانسان للفضاء الكوني • وفوق هذا فان هذين الحدثين لأسطع دليل على تفوق الاشتراكية على الرأسمالية •

وان التأثير التحرري الكبير للاشتراكية على العلم يتضح أيضاً في كونها تخلصه من مثالية وميتافيزيكية الفلسفة البورجوازية • ونتيجة للتحولات الاشتراكية تصبح نظرة الحزب الشيوعي - المادية الديالكتيكية - هي النظرة السائدة •

فان العلم نفسه يحتاج الى المادية الديالكتيكية كنظرة منبثقة من ديالكتيك الطبيعة الموضوعي • ولقد أشار البرنامج الجديد للحزب الشيوعي في الاتحاد السوفييتي الى أن « معالجة القضايا الفلسفية للعلم الطبيعي المعاصر في قرن التطور العاصف للعلم سوف تكون أكثر شمولية على أساس المادية الديالكتيكية كطريقة علمية وحيدة للمعرفة » •

وان المجتمع الجديد لا يرث عن الرأسمالية علماً « محضاً » حيث الحقائق الموضوعية وحسب ، بل علماً مشبعاً بالأفكار البورجوازية ، علماً غالباً ما تختلط فيه الموضوعات والنتائج الصحيحة بالنظريات المثالية والميتافيزيكية الكاذبة المختلفة •

لكنه من أجل أن يبقى العلم جديراً بلقبه العظيم - خادم الشعب - أي من أجل أن يبقى علماً ناجعاً ، ومن أجل أن يساعد الشعب في بناء الحياة الجديدة في أفضل صورة ، عليه أن يتخلص من العجز المثالي الذي تراكم فيه ويعرقل تطوره المنتج الخصيب • وحينما تتطلب الظروف حلا سريعاً للمسائل الكبرى التي يدفع بها التطبيق العملي للبناء الشيوعي أمام العلم لابد

من تحزيره من كل بقايا التشويه الايديولوجي التي ظلتعالقة به أمداً طويلا• وفي الظروف الجديدة تبرز أمام العلماء مهمـة معقدة ، فالى جانب تطويرهم للعلم لابد لهم من اجتثات النظرة القديمة منه والحؤول دون تسرب التأثيرات البورجوازية المختلفة والمعادية للماركسية اليه • ومن أجل تنفيذ هذه المهمة ينبغي على المجربين الطبيعيين أن يتمتعوا بفهم عميق للماديـة الديالكتيكية • ولقد أكد لينين على هذا حينما كتب :

« ••• علينا أن نفهم أنه بدون أساس فلسفي متين لايمكن لأية علوم طبيعية ولا لأية مادية أن تصمد في نضالها أمـام ضغط الأفكار البورجوازيـة وقيام النظرة البورجوازية • ومن أجل الصمود في هذا النضال والسير به حتى النهاية بنجاح تام لابد للعالم الطبيعي من أن يكون مادياً جدياً ومناصراً واعياً لمادية ماركس ، أي لابد له من أن يكون مادياً ديالكتيكياً »[١] •

ولقد ساعدت جهـود الدولـة السوفييتية والحزب عـلى تطوير العلم السوفييتي مساعدة جلى • فالعلم السوفييتي يتطور بوتائر لا عهد للعلم بها ، وهو يناضل من أجل تجاوز منجزات العلم في الخارج على كل الجبهات وفي كل الفروع •

ولقد أولى برنامج الحزب اهتماماً كبيراً لتطور العلوم الطبيعية منهـا والاجتماعية • وفي الوقت الحاضر في فترة بدء بناء الشيوعية صار تطبيق العلم العامل الحاسم في تطور كل جوانب الحياة الاجتماعية • وان التقدم السريع للعلم يؤمنـه بالدرجـة الأولى تطـور الفروع الرئيسية في العلـم الطبيعي ـ الرياضيات والفيزياء والكيمياء والبيولوجيـا في علاقتها الوثيقة مـع حاجات التطبيق العملي • ويضع الحزب أمام العلماء مهمة تطوير البحوث النظريـة في الحقول المختلفة للعلوم الطبيعية والاجتماعية ، واتحاد العلم مع الانتاج •

ان للعلم الاجتماعي أهمية بالغة في النضال الطبقي للبروليتاريا وفي بناء الشيوعية • ولأول مرة في التاريخ تعزف البروليتاريا عن الأشكال التشويهية

(١) لينين • المؤلفات • الجزء ٣٣ ص ٢٠٧ •

المختلفة للايديولوجيا وعن الأوهام المختلفة حول وضعها في المجتمع ، وهي تسير في كل نشاطها الثوري على هدي معرفة القوانين الموضوعية لتطور المجتمع. ولا جدوى في قيام وتطور النظام الاشتراكي بدون معرفة منظمة للقوانين الاقتصادية واستخدامها الواسع لصالح المجتمع .

ان المجتمع الشيوعي هو المجتمع القائم على الأسس العلمية . ويحدد الحزب الشيوعي سياسته معتمداً على العلم . ولقد صار جلياً الآن أنه لايمكن في هذه الظروف التهيؤ لقيادة المجتمع بدون العلم الاجتماعي الذي يعرفنا على الواقع الموضوعي وعلى قوانينه . وهذه المعرفة يقدمها علم الاجتماع الماركسي اللينيني .

وكثيراً ما يردد الايديولوجيون البورجوازيون والتحريفيون حول ضرورة « تطوير » ذلك العلم الاجتماعي الذي لايميز بين الطبقات والمتحرر من أي تأثير ايديولوجي .

ولدى دراسة التاريخ وتقييم الاحداث المختلفة لايمكن تجاوز حدود المعالجة الطبقية كما لايمكن وجود الانسان خارج المجتمع . لكن هذا ليس الا جانباً واحداً من القضية . فمن جهة أخرى اذا كانت المعالجة الطبقية الحزبية تعكس مصالح الطبقة التقدمية وتهدف الى البحث العلمي الصحيح فانها تولد لدى العالم طاقة هائلة وحماساً كبيراً للبحث بقدر ماتمنحه من فهم للضرورات العملية ولقيمة بحثه العلمي . والتحريفيون « يتظاهرون » ضد اخضاع العلم الاجتماعي للايديولوجيا الاشتراكية . لكنه لم يخطر لهم على بال أنه بالنسبة للعلوم الاجتماعية المعتمدة على الفهم المادي للتاريخ والمنطلقة من مصالح الشعب يكون وضعهم للمسألة بهذا الشكل عديم المعنى لأن الايديولوجيا هنا تندمج مع العلم . وكلما كانت معرفة القوانين الموضوعية للتطور الاجتماعي أعمق وأشمل كلما كانت أشد انسجاماً مع مصالح بناء المجتمع الاشتراكي ، وعلى العكس ، فان كل خطأ في معرفة القوانين ونتائج فعلها يوجه ضربة قاصمة لمصالح الشعب السوفييتي .

ان الأحزاب الماركسية ـ اللينينية عندما تدرس سياستها وتحدد وسائل تطبيقها في الحياة تنطلق من الظروف الموضوعيـة ومن حساب العامل الذاتي أيضاً ـ وعي الجماهير ودرجة تنظيمها • وان علم المجتمـع ليس ضرورياً للحزب لتحليل الظروف والقوانين الموضوعية وحسب ، بل ومن أجل النهوض بوعي الجماهير وتنظيمها وللدعاية لقراراته التي تنعكس فيها متطلبات القوانين الموضوعية للتطور الاجتماعي أيضاً • ولهذا فان العلوم الاجتماعية ، كالعلوم الطبيعية ، كلما اتسعت نجاحات تطورها كلما زادت ارتباطاً بمصالح الشعب العملية والتحاماً بالايديولوجيا العلمية للماركسية اللينينية •

وهكذا يكتسب وعي المجتمع في ظل الاشتراكية الطابع العلمي ، وتصبح العلوم جميعاً ، الطبيعية منها والاجتماعية خادمة للشعب ، وتستخدم على أوسع نطاق من أجل تحويل الطبيعة وقيادة حياة وتطور المجتمع ، ولتطوير الانسان ذاته من شتى جوانبه بحيث يشمل امكانياته الروحية والمادية •

وهنا ينحسر النقاب عن أهمية وعظمة العلم وعن قيمة « المعرفة الانسانية الحية الخصبة الحقيقية الجبارة الموضوعية المطلقة » (لينين) •

الفصل السادس

الفـــن

الفن ظاهرة اجتماعية معقدة تحوي في داخلها جميع الأشكال المحسوسة المختلفة للفن : الأدب والرسم والموسيقى والنحت والمسرح والسينما وغيرها • وان كل شكل من هــذه الأشكال ينقسم بدوره الى فروع أخرى • فالأدب مثلا يضم النثر والشعر والمسرحية وغيرها •

والفن بجميع أشكاله وأنواعه موضوع دراسة نظرية الفن ـ الاستيتيكا ـ كما أنه موضوع للتاريخ ولنظريات أشكاله المحسوسةالمختلفة : تاريخ ونظرية الأدب ، تاريخ ونظرية الموسيقى ، تاريخ ونظرية المسرح ••• الخ •

والمادية التاريخية تعالج الفن كظاهرة اجتماعية ، وهي تبحث عن مكانه بين الظواهر الاجتماعية الأخرى ، وعن دوره في حياة وتطور المجتمع •

١ ـ نشوء الفن

نشأ الفن منذ القدم السحيق • ولقد وصلنا من الانسان البدائي الأول ليس فقط الفؤوس الحجرية والحراب العظمية وغيرها من الأدوات الأخرى وانما وصلتنا أيضاً رسوم على الصخور وتماثيل صلصالية تشهد عـلى مستوى تطوره الجمالي • وان الآثـار والمخطوطات لاتعطينا فقط أوصافاً جمة لعمل دوافـع تلك الشعوب المتخلفة في تطورها الاجتمـاعي وحسب ، بل ؤلموسيقاها ورقصاتها أيضاً •

فكيف نشأ الفن اذن ؟

يؤكد البعض أن الانتاج الفني للناس انما هو نتيجة لمحاكاة الطبيعة •

ويعتبر آخرون أن المشاعر الجمالية تلازم الانسان منذ ولادته بتأثير تركيبه الفيزيولوجي والبسيكولوجي • وثمة فريق ثالث ينظر الى الفن كثمرة للروح الانسانية الحرة وكنتاج لها غير مشروط بشيء ••• الخ •

والمادية التاريخية تدحض هذه النظريات المتناقضة للعلم لأنها اما تنطلق من مبادىء مثالية أو تؤدي اليها وذلك لعدم دراستها الطبيعة الاجتماعية للفن •

ان الحل المادي لمسألة نشوء الفن يعني ، أولا ، تبيان كون الفن يأخذ محتواه من الواقع ، وثانياً ، اثبات أن الانتاج الفني نشأ بالضرورة من الحياة المادية للناس ، ويخدم متطلبات اجتماعية معينة •

والفن في وضعه البدائي يحمل في أعماقه ماهو خاص به كظاهرة اجتماعية وما ينكشف فيما بعد في تطوره التالي عندما ينفصل الفن ويبرز كشكل من أشكال الوعي الاجتماعي • وفي دراسة ذلك الوضع « الجنيني » للفن شيء من المتعة والأهمية في آن معاً لأن صلة الفن هنا بالظروف المادية وبعملية العمل تبرز مباشرة وبصورة جلية وواضحة •

ان المواد الحقيقية الهائلة التي اكتشفها علم آثار الفن القديم تبرهن على أن « مواضيع » انتاج الفن البدائي كانت تؤخذ من الحياة المحيطة ، وتعكس عملية النشاط العملي • فلقد صورت رسوم الكهوف بدقة بالغة الحيوانات التي كان يصطادها الانسان ومناظر الصيد ذاته • وفي الرقصات تنعكس اما عادات الحيوانات أو الحركات التي كان الناس يقومون بها لدى مطاردتهم للوحوش أو عملهم في الحقل أو قتالهم ضد الأعداء •

الا أن الفن القديم لم يعكس فقط عملية العمل وانما تولد منها مباشرة وقد نتساءل : ما هي الحاجات الاجتماعية التي تطلبت بزوغه للحياة ؟

ان الانسان يتعرف على العالم المحيط به في عملية العمل • وهذه المعرفة ضرورية له لأن العمل انما هو نشاط واع وهادف • ولكنه من أجل أن يملك الانسان أحد الاشياء في عملية العمل ، ومن أجل بلوغ الهدف المرسوم كان

على الانسان أن يتحلى بصفات معينة تتعلق بالطباع كالارادة من أجل بلوغ الهدف ، والشجاعة ، وصفات ضرورية للنشاط الجماعي من شأنها أن تقوي الروح الجماعية كالشعور بالتضامن ، وصفات فيزيائية كالقوة والجلد والخفة ... الخ*. ولقد كانت هذه الصفات ضرورية في العمل وفي الحياة ضرورة الأعراف والعادات . لكنه لابد من تربية تلك الصفات كيما تتوفر لدى الانسان . فجاء الفن ليساعد على معرفة الواقع وعلى تربية وتقوية الصفات التي تضمن للانسان وللجماعة النصر في الكفاح مع الطبيعة وفي قتال الأعداء .

وفي المجتمع المنفصل عن القطيع الحيواني بفضل العمل والتنظيم الجماعي تبرز امكانية نشوء الفن بل وضرورته . أما الامكانية فتبرز نتيجة لظهور الفراغ الحر من الكفاح المباشر من أجل مصادر البقاء ؛ وأما الضرورة فيحددها اهتمام الجماعة بتكوين مشاعر وارادة وطباع الانسان .

ان للفن تأثيراً جمالياً لدى تلقيه للظواهر المحيطة فيحكم عليها بأنها جميلة أو غير جميلة .

وتكوين الحس الجمالي لدى الانسان عملية طويلة ومعقدة لا تنفصل عن تطور الفن نفسه . ان الجملة العصبية عند الانسان وخصائص تنظيمها هي الأساس البسيكولوجي الفيزيولوجي الجمالي . الا أن الحس الجمالي ذاته ينشأ في البداية في عملية العمل ويكون نتاجاً لها . فعلى أساس العمل بالذات تطور احساس الانسان وتطورت معه القدرة على تلقي الجمال . ومع تطور الحس الجمالي تكون تخيل الانسان الانتاجي الفني كوسيلة للتعبير الفني عن الواقع .

ان تبعية الانسان البدائي لقوى الطبيعة العفوية التي كان يشرطها المستوى المتدني لتطور الانتاج وجدت انعكاسها الوهمي في الدين البدائي . ومن عملية العمل كنشاط خلاق فعال محول نشأ الميل عند الناس لاخضاع قوى الطبيعة . وعندما كان الانسان يقف عاجزاً عن اخضاع تلك القوى كان يلجأ الى اخضاعها بالخيال . ولهذا فالطبيعة والمجتمع كانا موضوعاً لمعالجة فنية

غير واعية في تصورات الشعب التي « تخضع وتشكل قوى الطبيعة في الخيال وبمساعدة الخيال »[1] • وان هذه المعالجة الفنية ـ الدينية غير الواعية للواقع ظهرت كأول قاعدة للفن وأعطته النماذج الضرورية له • وقد كانت المعالجة الفنية للواقع تعني كذلك ابراز تلك الصفات الضرورية للانسان في حياته والتأكيد عليها • واليها يعود مثلا اللون المرعب الصارخ للمحارب البدائي القديم الذي يؤكد بأسه وشجاعته ورجولته ، كما كانت الملابس الفارهة للكهنة أو الزركشات الثمينة المختلفة عليها تدل على غنى من يرتديها ••• الخ• والفن ، اذ يبرز هذه الصفات كصفات جميلة وتلك كصفات قبيحة ، فانما بهذا يمارس تأثيره على الناس ، أي أنه يؤدي وظيفته الاجتماعية بوسائله الجمالية •

والفن ، اذ نشأ على أساس متطلبات الجماعة العملية الاجتماعية ، ومع انقسام المجتمع الى طبقات وتعقد الحياة الاجتماعية أخذ ينفصل عن عملية النشاط العملي • وبدأ يخدم لا حاجات الناس في عملية الانتاج المادي ، وانما ميادين أخرى في الحياة الاجتماعية : النضال السياسي ، الدين ، واقع الناس ؛ وتحول الى وسيلة للامتاع عند الطبقة المسيطرة ••• الخ •

وفي المجتمع الاشتراكي يخدم الفن القضية الكبرى ـ قضية بناء الشيوعية ، ويساعد في تكوين الملامح الروحية لانسان المجتمع الاشتراكي • ان الفن هنا يغني السعادة في العمل الخلاق ، والتحرر من الاستغلال ويمجد الانسان العامل • وان البطل الايجابي في فن المجتمع الاشتراكي هو الانسان الواعي لواجبه أمام الشعب ، والذي يقهر المصاعب ويزيح العراقيل ويقضي على التناقضات في الطريق الى الهدف العظيم ـ الشيوعية •

٢ ـ الخصائص الأساسية للفن كشكل للوعي الاجتماعي

ان الفن كشكل من أشكال الوعي الاجتماعي يتميز بثلاثة عوامل أساسية تكون متحدة فيما بينها : المعرفي ، والايديولوجي ، والجمالي •

---

(١) ك • ماركس • نقد الاقتصاد السياسي • ص ٢٢٥ •

١ ـ الفن شكل يعكس الواقع ، ولهذا بالذات يمثل أحد أشكال معرفة هذا الواقع ، والعلاقة بين الفن والواقع مسألة هامة في نظرية الفن ، فهي ، في جوهرها ، جزء من القضية الأساسية المعرفية حول علاقة الوعي بالواقع • وبهذا تتحدد الأهمية الكبيرة للنظرية اللينينية حول الانعكاس من أجل الفهم العلمي المادي لطبيعة الفن ، ومن أجل النضال ضد مختلف نظريات الفن الشكلية والمثالية •

وان خصائص الفن كأحد أشكال انعكاس الواقع تتعلق ، قبل كل شيء ، بالسؤال عما يعكسه الفن ، أي عن الموضوع الذي يعكسه وعن كيفية عكسه له •

ان البداية الشكلية للفن هي مقدرة الانسان على عكس العالم في شكل حسي ، بيد أن لهذه المقدرة ذاتها أساساً موضوعياً • فمن المعروف أن الفوارق الموضوعية بين الجوهر والظاهرة تحدد الفوارق بين العامل الحسي والعامل العقلاني في المعرفة اذا ما عالجنا هذه المسألة في حقل المعرفة ، وتحدد الفوارق بين الوعي الاعتيادي والوعي العلمي النظري في الحقل الاجتماعي التاريخي[1] • فلو تطابق كل من الجوهر والظاهرة لكانت المعرفة الحسية والوعي الاعتيادي للناس يعطيان لا معرفة الظواهر فقط ، وانما معرفة جوهر الأشياء ، أيضاً ، وبالتالي لأمكن الاستغناء عن كل العلوم •

فالعلم يختص بما هو عام ولا يوجد في شكل منفرد بالرغم من أنه يتجلى فقط في الفردي ومن خلاله • وقد يبدو الأمر هكذا : ان التلقي المباشر الذي يعطينا معرفة الظاهرة ، وان التفكير النظري العلمي الذي يعطينا معرفة الجوهر يقضيان على امكانية عكس الخصائص الموضوعية للواقع • لكن الأمر مختلف عن هذا القول •

فالحقيقة هي في أنه بين الجوهر والظاهرة لاتوجد الفوارق وحسب ، وانما تربطهما علاقة متبادلة معينة • فالظاهرة ليست شيئاً ما يمتاز عن الجوهر ، بل هي ظهور هذا الجوهر وتجليه • وفي بعض الظواهر يتجلى الجوهر

---

(١) ثماك • علم الوعي الاجتماعي في ضوء نظرية المعرفة ، موسكو ١٩٦٠ ص ٤٢ •

بشكل صارخ بيّن ساطع ـ كما يقول هيجل ـ كما لو أنه يشع في هــذه الظاهرة أو تلك • وفي مثل هــذه الحالة تكون لدينا ظاهرة نموذجية ، أو عملية ، أو موضــوع ، أو حدث ، أو انسان ••• الخ • وهكذا يبرز العام والجوهري والضروري في الواقع قانونياً أو نموذجياً مما يؤلف أساس شكلي الوعي الاجتماعي : العلم ، الـذي يعكس العام في شكل مجرد من القوانين والمفاهيم ؛ والفن ،الذي يعكس العام في شكلمحسوس فردي حي منالنماذج•

فالعلم عندما يبحث الظواهر يبتعد عن الخاص ليبرز العام في « شــكل نقي » ، أي في شكل التجريد • بينما الفن يعكس العام في شكل فردي تماماً كما يتجلى في الحياة الواقعية • فالعالم والفنان يعكسان ماهو موجود في الواقع• لكنه من السذاجة أن نعتقد بأن عمليةالانتاج الفني انما هي في البحث عن نماذج جاهزة وفي نقلها نقلا فوتوغرافياً بسيطاً الى الانتاج الفني •

ان النموذجي في الفن هــو نتيجة التصميم الـذي يقوم به الفنان في عملية الانتاج •

وان الشكل الخاص لعكس الواقع في الفن هو النموذج الفني •

والنموذج الفني تعبير عما هــو أكثر جوهرية ونموذجيــة من خلال الفردي ، أو تصميم لجوانب الحياة الجوهرية النموذجيــة في شكل ظاهرة فردية ، أي في الشكل الحسي :

والنموذج الفني لايمكن مطابقته مع المفهوم أو الاحساس • ففي احساس الانسان تنعكس مباشرة هذه الظاهرة الفردية المنعزلة • وفي المفاهيم ينعكس الداخلي الجوهري العام • وان خصائص النموذج الفني هي في أنه يمثل معرفــة العام في الخاص ، والجوهر في الظاهرة ، والنموذجي في الفردي • والنماذج الفنيــة في انتاجات الفن الصحيــح لا تعكس الجانب الظاهري من الواقع بل جانبه الجوهري • الا أنها لاتعبر عن جوهر الحياة في شكل مجرد وانما في شكل حسي مفرد • فاذا كانت الفردية تصور في الانتاج الفني فتمين بها أن تكون نموذجيــة بالنسبة لهذا المجتمع أو ذاك • وعندمــا يقدم الفنان

نموذجاً وجب على النموذج أن يكون مفرداً والا لعجز عن مس أية مشاعر • ويكون الانتاج فنياً أو ذا قيمة جمالية عندما ينعكس الواقع فيه بموجب هـذا القانون الموضوعي للفن ، أي اذا كانت فيه ثمة نماذج فردية ، وكانت هـذه الفرديات نموذجية •

لقد خلق الأدب الروسي الكلاسيكي مجموعة من النماذج ـ أونيجين وبتشورين ، تشيتشيكوف وأبلوموف ، وغيرهم ـ بحيث تجد كلا منهم نموذجاً حياً حسياً فردياً •

فالنموذجي في الفن ، بالرغم من أنه يعبر عن الجوهر والعام ، الا أنه لاينفي التجسيدات الفرديـة المتنوعة • وبهذا فهو يختلف جزئياً عن قانون العلم • فالقانون الذي اكتشف مرة لن تعود الضرورةالى اكتشافه مرة أخرى• بيد أن هـذا النموذج الاجتماعي أو ذاك يمكن أن يلاقي تجسيدات مختلفة بقدر ماهو نموذجي ، فهو ليس عاماً وحسب وانما هو عام في ظهوره المشخص ، أي انه علم كما هو موجود في الحياة • وهو يوجد في الحياة دائماً في شكل فردي ، والفردي يتطلب وجـود ظروف وروابط وعلاقات حسية معينه • ان التصوير الفني للواقع ، اذ يتطلب التعبير عن شخصيات نموذجية في ظروف نموذجية ، يسمح لذلك بعدد من التجسيدات الفردية المتنوعة •

وبما أن الحياة لاتقف في المكان بل تتحرك وتتطور دائماً وباستمرار ، ويحدث فيها الصراع بين القوى الاجتماعية المختلفة ، وتبرز التناقضات ، فان الشخصيات النموذجية لايمكن أن تصور خارج التناقضات الحقيقية والصراع الدائر في الواقع ، وبعيداً عن النزاعات الحياتية •

ولهذا فالنموذج الفني هو تعبير عن الشخصيات النموذجية في ظروف وتناقضات نموذجية أيضاً •

وكلما عكس الفن الواقع بصدق في النماذج الفنية ، كلما قدم لنا معرفة واضحة عنـه • ويمكن للفنان أن يعتمد عـلى نتائج الأبحاث العلمية وأن يستخدمها في فنه أيضاً • فلا يجوز مطلقاً وضع العلم والفن ، كتشكلين من

أشكال المعرفة ، على طرفي نقيض ، لكنه من الخطأ أن نغفل عن رؤية تلك الفوارق الجوهرية بينهما •

فالفن ، كالعلم ، يعكس الواقع ـ أي الطبيعة والمجتمع • الا أن العلم يهدف الى معرفة القوانين الموضوعية ، بينما يسعى الفن لعكس كل ماهو نموذجي • العلم يعكس الواقع في المفاهيم والقوانين والمقولات ، والفن يعكس الواقع في النماذج الفنية ؛ العالم يبرهن على صحة موضوعاته وفرضياته ، والفنان يرينا الواقع ويرسم صور الحياة • وأخيراً ، اذا كانت الحقيقة الموضوعية نتيجة للمعرفة العلمية ، فان الحقيقة الفنية نتيجة لمعرفة الواقع في الفن • وهاكم مقارنة بين المؤرخ وكاتب الرواية التاريخية : ان على المؤرخ ، اذ يصف الحوادث ، أن يكون دقيقاً غاية الدقة بالنسبة للأسماء والتواريخ والحوادث ، وليس له الحق مطلقاً في ادخال أو اضافة أي شيء ذاتي ، بل يقتصر على تصوير العملية التاريخية الواقعية وقوانينها • لكن الفنان غير مرتبط بالأسماء أو بالحوادث • فبامكانه أن يصف حوادث لم تقع في الواقع ، وأن يعرض حقائق ابتدعها من بنات خياله وأن يكون صادقاً في الوقت ذاته • فالحقيقة الفنية تسمح بالبدعة الفنية وبالتصورات • فالحقيقة في الفن لاتعني بالضرورة ما كان أو ماهو كائن فعلا ، وانما تعني دائماً ما يمكن أن يكون في هذه الظروف النموذجية أو تلك وينسجم مع الصفات النموذجية لهذا العصر أو ذاك ومع أشكال ظهوره الفردي • ان الفن الحقيقي ، اذ يخضع لامتحان الزمن ، يحمل في ذاته الحقيقة الفنية •

ان ابتغاء الصدق في الفن ليس مجرد رغبة ذاتية ، وانما ينبثق من طبيعة الفن ذاته كشكل للمعرفة • ولهذا فان أحد المعايير في تقييم الانتاج الفني هو مدى صدقنا في تصوير الواقع • وليس من قبيل الصدفة بعد ذلك أن نرى انتصارات الفن الرائعة ترتبط بالفن الواقعي بالذات ـ فن الحقيقة الفنية •

ان الواقعية الاشتراكية ، كأعلى شكل للفن الواقعي ، لاتحتمل التصوير الشائه للواقع •

٢ ـ والعامل الايديولوجي هو أيضاً خاصة ضرورية ومميزة للفن كشكل من أشكال الوعي الاجتماعي • وكثيراً ماينظرون للفن كشكل للايديولوجيا وحسب • وهذا ليس صحيحاً تماماً لأن الفن لاينتهي الى الايديولوجيا وانما هو مرتبط معها في علاقتين : أولا ، فهو بمثابة ناقل للأفكار السياسية والأخلاقية والفلسفية والجمالية وغيرها لطبقة معينة ؛ وثانياً ، هو « ايديولوجي » بطبيعته لانه في تطوره يرتبط ارتباطاً وثيقاً بالعلاقات الاجتماعية بين الناس ، ويساعد مع أشكال الوعي الاجتماعي الأخرى على حل المهمات الاجتماعية أمام المجتمع ولهذا فهو لايعكس الواقع وحسب ، وانما يقيم هذا الواقع ويعبر عن علاقته به •

فبمساعدة النموذج الفني ينفي الفنان أو يثبت دائماً هذا الشيء أو ذاك ، أي أنه بهذه الطريقة أو بتلك ، وأحياناً بصورة مستقلة عن ارادته ، يناضل من أجل مثل اجتماعية معينة • ولقد صدق تشيرنيشفسكي في كتابته : « لايمكن ألا يكون الأدب خادماً لهذا الاتجاه الفكري أو ذاك : فهذه المهمة تنبع من طبيعته ، وهي مهمة لايمكنه رفضها حتى ولو شاء ذلك »[١] •

ان الجوهر الإجتماعي للفن واتجاهه الفكري المنبثق منه يحددان الخصائص الايديولوجية للفن • وان كل فن مستقل فكرياً سواء أكان رجال الفن ذاتهم يدركون ذلك أم لا ، ينفونه أم يثبتونه • ولهذا نرى أنه حتى عندما يعلن رجال الفن أنفسهم عن عدم التزامهم الفكري ، فانهم يكونون في الواقع دعاة لأفكار معينة • وفي ظروفنا الراهنة نجد « عدم الالتزام الفكري » هو ذاته ليس الا شكلا من أشكال « تمرير » الفكر البورجوازي •

ان الفن وليد المجتمع والمصالح الاجتماعية ويهدف بما ينسجم وهذه المصالح الى المساعدة على تكوين الملامح الروحية للانسان ، بتأثيره على مشاعره وتفكيره •

---

(١) تشيرنيشفسكي • المؤلفات الكاملة • الجزء ٣ • موسكو • ١٩٤٧ ص ٣٠١ •

وينعكس في الفن كل ما يهم ويقلق الانسان • لكنه بما أن الانسان كائن اجتماعي يحقق ذاته في المجتمع وحده وبمساعدة المجتمع ، فان العلاقات الانسانية تمس شغاف وجوده ، وتهمه ، وتقلقه • ولهذا يهتم الفن قبل كل شيء بالانسان في حياته الواقعية ، وفي علاقاته الواقعية مع الناس الآخرين ومع الطبيعة •

ان الفن الحقيقي ينبع دائماً من العالم الداخلي للانسان ، من فكره ومشاعره ومعاناته ، ويعكس حياة الشعب وأفكاره وآماله •

وبخلاف العلوم الاجتماعية التي تهتم بمعرفة قوانين تطور المجتمع بشتى جوانبه وبوصفها موضوعياً فان اهتمام الفن لاينصب على المجتمع كعملية موضوعية وحسب ، بل يتناول الانسان الاجتماعي في كل علاقاته وصلاته •

لقد صور ماركس الرأسمالي في كتابه « رأس المال » رجلا مشدوداً بعاطفة لاترتوي ـ بالنهم الى الربح ، بالجشع • غير أن ماركس عالم • فهو لايدرس الرأسمالي كشخصية مشخصة بل كرأسمال « مشخص » • فقد كتب في هذا الصدد : « انني لا أرسم هيئة الرأسمالي أو الاقطاعي في هالة وردية ، فالذي يهمني فقط هو تشخيص الفئات الاقتصادية ذات العلاقات والمصالح الطبقية المعينة »[1] •

ان تيودور درايزر يعرض لنا في ثلاثيته شخصية الرأسمالي أيضاً • لكن درايزر فنان • فهو يقدم لنا الرأسمالي مجسداً في فرانك كاوبر وود ، ويبرز كل الصفات النموذجية لرجال الاعمال • وهو ، ككاتب واقعي ، يبين بالطبع ، كل الشروط الاجتماعية بشخصية وأفعال بطله ، ويكشف عن السمات الجوهرية للعصر • الا أنه يكشف عن الحياة الاجتماعية من خلال أشخاص معينين في علاقاتهم المتبادلة مع الغير ، وفي أفكارهم ومطامحهم وتصرفاتهم •

وبهذا فان العلم والفن لايتناقضان ،بل يغني أحدهما الآخر ويتعاضدان •

---

(١) ماركس وانجلس • المؤلفات • الجزء ٢٣ • ص ١٠ •

وبالرغم من أن الانسان يشغل مركز اهتمام الفن ، فان لتصوير الطبيعة مكانة مرموقة فيه . فهو ، اذ يصور هذه الظواهر الطبيعية أو تلك ، يسعى بذلك الى بعث مشاعر وأفكار ومعاناة عند الانسان من شأنها أن تؤثر فيه بشكل من الأشكال . ولايتمكن الفن من النجاح بمهمته هذه اذا هو اكتفى بتصوير الطبيعة كما هي وبصورة مستقلة عن الانسان ؛ فمن أجل هذا لابد للفن من أن يصور الطبيعة في تلقي الانسان لها مع كل خصائصها الموضوعية ومع علاقة الانسان بها .

ان ظواهر الطبيعة ، كالربيع ، مثلا ، أو الخريف ،تتعلق بوضع الارض بالنسبة الى الشمس ، وترتبط بتبدلات في درجة الحرارة ، وتستدعي عمليات مختلفة في عالمي الحيوان والنبات ... الخ . والعلوم الطبيعية تدرس وتفسر كل هذه الظواهر والعمليات .

لكنه عندما يصفها الفنان ـ بواسطة الرسم (« الخريف الذهبي » لسلفيتان) أو بالأدب (« الخريف » لبوشكين) أو بالموسيقى (« فصول السنة » لتشايكوفسكي) ـ فانه لابد من أن تنعكس في الانتاج ذاته تلك المشاعر والانطباعات التي كان يعانيها الفنان والتي جعلته يستلهم هذه الظاهرة الطبيعية أو تلك . وهذا أمر حتمي لامناص منه في أي تصوير فني لظواهر الطبيعة . ان كل نسخة عن الطبيعة لا مكان للانسان فيها وللحياة لايمكن أن تكتسب صفة الفنية في حال من الاحوال . فلقد قال غوته مرة ما : ان رسم الكلب بدقة وعناية يجعلني أبتهج تماماً كما أبتهج لظهور كلب ثان ، غير أن هذا لايعني أن الأمر انتاج فني مطلقاً .

وهكذا نرى أن الفن شكل من أشكال الايديولوجيا كما هو شكل من أشكال المعرفة . وهو في المجتمع الطبقي يكون ذا طابع طبقي متحزب ، الا أنه ، الى جانب هذا ، لا يخلو من النفحات الانسانية .

وللفن قوة تأثير جبارة على الناس . فهو يخدم كوسيلة هامة لنشر هذه الأفكار أو تلك بين الجماهير ، وكوسيلة للنضال الايديولوجي . ولقد دأب

الحزب الشيوعي طيلة أيامه لجعل هذه القوة الجبارة بين يدي الشعب المناضل من أجل الشيوعية • ومن أجل أن يقف الفن المعاصر مثلا رائداً في نضال الطبقة العاملة لتحرير المجتمع من الظلم والاستغلال عليه أن يكون مشبعاً بالفكر الاشتراكي وأن يكون حزبياً ، أي أن يقف الى جانب الطبقة العاملة في الميدان الفكري • هذا هو مطلب الحزب من الفن ، الذي يخدم المصالح الجذرية للشعب ويتلاءم مع طبيعة الفن التقدمي ـ فن الواقعية الاشتراكية •

ويتطور الفن ـ ككل ميادين الحياة الاجتماعية الأخرى في المجتمع الاشتراكي ـ تحت الادارة السياسية التوجيهية للحزب • ان ادارة الحزب لاتعرقل تطور الفن في شتى مجالاته ، وانما هي تلهمه الفكر والغائية ، وتساعده على النهوض والارتقاء •

ان النضال من أجل الفكر الاشتراكي في الفن لايعني تناقض فن الواقعية الاشتراكية مع فن الماضي التقدمي وتقاليده الانسانية الرائعة ، أو مع الفن الديمقراطي المعاصر ، ان الفكر الاشتراكي لاينكر منجزات الفن التقدمي ، بل يطورها وينهض بها الى مستوى أعلى يتلاءم مع القضايا الاجتماعية الجديدة التي يحلها الشعب ـ باني الاشتراكية •

وخلال تاريخ الدولة السوفييتية كله كان الحزب الشيوعي ، ولا يزال ، يولي قضايا الفن والأدب اهتمامه البالغ ، ويوجه تطورهما ، ويهتم برفع مستواهما الفني والفكري • وبفضل حسن ادارة وتوجيه الحزب تمكن الفن والأدب السوفيتيان من القضاء على الشقاق الفكري الذي كان يستبد بهما خلال الأعوام الأولى بعد الثورة ، ومن الوقوف بثبات على صعيد الواقعية الاشتراكية ، ومن المساهمة مساهمة فعالة في بناء الشيوعية في الاتحاد السوفييتي •

وان حزبنا ، اذ يقوم بتوجيه الفن والأدب ، ماينفك يناضل ضد الهجومات التحريفية على مبدأ الحزبية في الأدب والفن • وهو يهتدي بارشادات لينين الذي يعلمنا أن الحزبية هي فكرة اشتراكية ، وأن عدم التحزب في الأدب والفن انما هو فكرة بورجوازية محضة • وان تطور الأدب

والفن في الاتحاد السوفييتي وبلدان المعسكر الاشتراكي الأخرى ليدحض مزاعم التحريفيين حول التناقض بين الحزبية في الأدب وبين حرية الانتاج الفني.

ان التوجيه الحزبي بعيد كل البعد عن فكرة الوصاية البيروقراطية الضيقة التافهة، وهو لايشل المبادرة لدى الفنان كما يزعم البعض، ولا يطمس السمات والمزايا الفردية الخاصة بكل فنان. ان التوجيه الحزبي للأدب والفن لهو شرط الحرية الانتاجية الصحيحة، لا الحرية البورجوازية المطلقة. ولقد أحسن ميخائيل شولوخوف التعبير عن هذه الفكرة اذ قال: «... ان كلا منا يكتب بحافز من ضميره وقلبه، وان قلوبنا ملك لحزبنا ولشعبنا الذي نخدمه بالفن».

وما كان حزبنا ليقصر في فضح الضحالة الفكرية والهروب من السياسة في الفن، أو ليسكت عن التصوير المشوه للواقع السوفييتي، مؤكداً دائماً على أهمية الحزبية والغنى الفكري من أجل تطور الفن السوفييتي.

ففي آب عام ١٩٥٧ نشرت كلمات خروشوف التي ألقاها على جموع الأدباء والفنانين تحت عنوان «من أجل أن يلتصق الادب والفن بحياة الشعب». وفيها تعبير صريح عن موقف حزبنا من الفن، وجواب عن المسائل الملحة المتعلقة بتطور الفن السوفييتي في وقتنا الراهن.

ويتجلى اهتمام الحزب بتطوير الفن في برنامجه الجديد • فلقد دعا جميع العاملين في حقل الادب والفن الى معالجة المواضيع الحديثة بروح مقدامة مجددة ، والى النهوض بدورهما من أجل تكوين العالم الروحي لانسان المجتمع الشيوعي • ان الفن والأدب السوفيتيين ـ كما ورد في برنامج الحزب ـ « مدعوان لأن يكونا مصدراً للمسرة والالهام للملايين لناس ، ولأن يعبرا عن ارادتهم ومشاعرهم وأفكارهم ، ولأن يخدما كوسيلة للغنى الفكري وللتربية الخلقية الصحيحة »[1] •

٣ ـ ثم ان المنطلق الجمالي للفن يحدد طبيعته وخصائص علاقته بالواقع • ففي ظواهر الواقع يكتشف الفنان السمات الجمالية الملازمة لها • وفي الانتاجات الفنية يعاد خلق الحياة حسب قوانين جمالية موضوعية ، ووفقاً لمثل أعلى جمالي معين • ويعتمد الفن على مقولات جمالية في تقييمه وتصويره لظواهر الحياة : جميلة وقبيحة ، سامية ودنيئة ، تراجيدية وكوميدية ••• الخ •

ان الجمال يلعب دوراً مهماً في حياة الناس اليومية ، ونحن لانفتر عن مطالبة الواقع المحيط بنا بأشياء وقيم جمالية معينة • فالانسان لايقوم بعملية الخلق حسب قوانين العلم وحسب ، بل « وحسب قوانين الجمال أيضا »[2] • ان الأهمية الجمالية للفن عنصر قائم بذاته وليس خاضعاً لمنطلقات أخرى • وبهذا يمتاز كل من الأدب والموسيقى والرسم والنحت والمسرح والسينما وكل ما ندعوه فناً عن الفن التطبيقي ، عن التكوين الفني لمواد الاستعمال حيث لايكون العنصر الفني هو الرئيسي • ان الثياب ، مثلا ، ينبغي أن تكون جميلة ، لكنها ، وقبل كل شيء ، ينبغي أن تتلاءم مع فصول السنة وأن تكون مريحة ••• الخ • فالمتطلبات الجمالية هنا تخضع لمنطلقات أخرى • ومن هنا يتبين أن المجال الجمالي لاينحصر في الفن وحده •

---

(١) برنامج الحزب الشيوعي في الاتحاد السوفييتي • ص ١٣١ •

(٢) ماركس وانجلس • المؤلفات الاولى • ص ٥٦٦ •

ان الجميل ، كأية خاصة جمالية أخرى ، وكاللون أيضا ، هو خاصة موضوعية لأشياء وظواهر معينة • والصفات الجمالية هي خصائص موضوعية تستدعي لدينا هذا الشعور بالذات لاغيره عندما تؤثر على أعضاء الحواس •

ولو نظرنا الى المشاعر الجمالية الاصيلة ـ فهي التي تؤلف أساس الذوق الجمالي الرفيع ـ لتبين لنا أنها ليست الا شعوراً معيناً ولدته الأشياء والظواهر يمنحها للناس كل من الشكل واللون والصوت وغيره •

ان الحس الجمالي هو تقييم للواقع في شكل عاطفة معينة لها خصائصها • وهو اللذة المنبثقة من الطبيعة ، والعمل ، ومردود النشاط ، والانسان ، والنشاط الاجتماعي ، والانتاجات الفنية • والمعاناة (المعايشة) الجمالية هي أسلوب التلقي المباشر للأشياء والظواهر الحسية الذي يدرك الانسان بمساعدته خصائصها الجمالية ويحدد علاقته بها•والخصائص الجمالية للأشياء والظواهر، اذ تؤثر على الانسان ، تولد عنده الحس الجمالي ،وترغمه على الاعجاب ، أو المسرة أو البكاء ، أو الغضب ، أو الحب ، أو الكره ، أو النفاق ، أو الحزن ، أو معاناة شعور الأسى أو الرقة • ولاتقل موضوعيتها عن موضوعية اللون والذوق والرائحة وغيرها ، كما أنها ذاتية مثلها أيضا •

وهكذا ، فان للبدايات الشكلية للفن ـ كمقدرة الانسان على عكس الخصائص الجمالية للواقع وعلى المعايشة الجمالية ـ مصدراً موضوعياً ، وأساساً موضوعياً ، وشروطاً موضوعية •

ان الفن يعكس كل ما يشعر به الناس • وهو يحول الشعور الخفي المبهم الى شعور تام واضح لدى كل انسان يراقب شيئاً ما ، أو ظاهرة ، أو موقفاً حياتياً ، أو تصرفاً معيناً ••• الخ • وهذا هو سبب تلك الظاهرة التي غالباً ما نصادفها ، وهي أن الحقيقة في الادب تهزنا أكثر مما تهزنا الحقيقة في الواقع • وهذا ما يمنح الفن تلك المقدرة الفائقة في التأثير العاطفي • فعندما نقرأ الكتب ، أو نسمع الموسيقى ، أو نرى اللوحات ، أو نشاهد التمثيليات والأفلام السينمائية والتلفزيون ، لابد وأن نعاني مشاعر معينة ـ كاللذة ، والمسرة ، والرقة ، والحزن ، والغضب ، والاشمئزاز ••• الخ •

ان الجميل في الفن لايتكرر ، وهو تشخيص نموذجي معمم ، وانعكاس فني للواقع • ويمكننا القول بأن كل فنان انما هو انسان يسعى لالتقاط كل الخصائص الجمالية من الحيـاة ليحولها الى نضار خالص في الفن • لقد قال ماياكوفسكي :

الشـعر كالمسرة
فكل مثقال منها
بعام من العمل

ان انتاجات الفن الصحيح قيمة جداً بالنسبة لنا لا كبديل للواقع ، بل كتشخيص فني له يساعدنا على معرفته واكتشافه من خلال خصائصه الجمالية•

وكما سبق أن بينا فان التلقي الفني للواقع يظهر في البداية عند الانسان في عملية العمل الاجتماعي • ان علاقة الانسـان الجمالية بالواقع لم تكن في يوم من الأيام علاقة قائمة بذاتها ومنفصلة عن العلاقات الاجتماعية والنضـال الطبقي ، وعن الأفكار السياسية والخلقية والفلسفية وغيرها من أفكار هـذا العصر أو ذاك •ويتجلى هـذا بصورة أكثر وضوحاً في وضع مفهوم عن « الجميل »أي عن المثال الجمالي •

والمثال الجمالي تاريخي ومشروط من الناحية الاجتماعية ، لانه يرتبط بالشروط الاقتصادية والاجتماعية ، وبالنظرات السياسية والخلقية ••• الخ • وبما أن شروط حياة الناس ونظراتهم تتغير مع تطور المجتمع ، فلا بد من تغير المثل الجمالية التي هي مقياس التقييم الجمالي لظواهر الواقع وانتاجات الفن• ولقد أشـار تشيرنيشفسكي الى أن القيم الجمالية عند الاقطاعي تختلف عنها لدى الفلاح •

لكن أيعني هذا أن المثال الجمالي انما هو نسبي وذاتي وحسب ؟ وهل ثمة هنالك تصورات حقيقية وأخرى كاذبة عن الجمال ؟

ان علم الجمال الماركسي اللينيني لايقف ضد كل المحاولات لجعل المثل الجمالية تقف فوق الطبقات والتاريخ فحسب ، بل وضد نفي كـل مقياس موضوعي في هذه المسألة • فالمثال الجمالي يكون حقيقياً وواقعياً بقدر ما يتلاءم

مع القوانين الموضوعية للتطور الاجتماعي ، وبقدر مايعبر عن مطامح الطبقات التقدمية التي تعزز بنضالها ونشاطها الأشكال الجديدة للحياة الاجتماعية •

ان للجميل جانباً موضوعياً كما أن له جانباً ذاتياً أيضا • ويمكن أن يكون المثال الجمالي ملائماً لنزعات الحياة الموضوعية أو غير ملائم لها ، كما ويمكن أن يكون صحيحاً أو شائهاً •

فمثلا ، ان المثال الجمالي الديني في القرون الوسطى يعتبر شائهاً بالنسبة للمثال الجمالي في عصر النهضة • وفي وقتنا الحاضر نجد أن المثال الجمالي الحقيقي في فن الواقعية الاشتراكية يتناقض مع النظرات الفنية الكاذبة الشوهاء لمثلي الفن البورجوازي الرجعي •

والى جانب ذلك فثمة عناصر انسانية عامة في المثل العليا الجمالية لمختلف الطبقات •

وفي الطرف المناقض لعلم الجمال المثالي الذي يؤكد بأن الجميل انما هو الفكرة ، وبالتالي ، لايكون الجميل مرتبطاً بالواقع المادي وانما يفد اليـه من الخارج ـ من عالم الأفكار ، فان علم الجمال الماركسي يعتبر أن الجميل في الفن انما هو عكس الواقع •

واننا سوف ندرس العناصر الاساسية في الفن كأشكال الوعي • كمـا أنه جدير بنا أن نعرف أن العلاقة بين هذه العناصر تتغير في أشكال الفن المختلفة وفي فترات تاريخية مختلفة أيضا • ان العنصر الايديولوجي ، مثلا ، لاسيما عنصر المعرفة يعبر عنه في الأدب بشكل أكثر وضوحاً مما يعبر عنه في فن الرسم مثلا ، وفي الرسم يكون أكثر وضوحاً منـه في النحت ••• وهكذا • ان الطبقات المتصارعة في المجتمع في عصـور تاريخية مختلفة تتقدم بمطالب مختلفة الى الفن • وهذه المطالب تنبع من وضعها المعيشي ومصالحها الطبقية وتؤثر على فن هذا العصر أو ذاك • ان الفن المرتبط بالطبقات الثورية الناهضة ينبع من المصالح الاجتماعية ويكون ذا قيمة معرفية كبيرة • بينما يكون الفن المرتبط بالطبقات

الهرمة القديمة خارجاً عن الحياة ، ويفقد بذلك أهميته المعرفية • وان كل فن يفقد محتواه الفكري يصبح فناً فارغاً شكلياً لانفع فيه • ان الواقعية الاشتراكية تطالب الفن بوحدة عضوية بين العوامل المعرفية والايديولوجية والجمالية بصورة تتناسب مع القوانين الموضوعية لاشكال الفن المختلفة •

ان خاصة الفن هي في أن وحدة العاملين الايديولوجي والمعرفي تتحقق فيه على أساس جمالي • وهذا يعني أن كلا من العامل الايديولوجي والعامل المعرفي لايمكن أن يقوم لوحده في الفن بدون البداية الجمالية • والفن الصحيح لم يكن في يوم من الأيام مجرد صياغة « فنية » بسيطة لنتائج علمية أو فلسفية معينة أو لأفكار سياسية بالرغم من أنه يعطينا معرفة عن الواقع ويمثل وجهة نظر ايديولوجيا معينة •

ان التشخيص الفني هو تجسيد لوحدة تلك العوامل الاساسية في الفن•

والشخوص الفنية تعبر عن التلقي الجمالي للواقع من قبل الانسان وهي ذات طبيعة جمالية • وان كل ماهو محايد فنياً ، أي أن كل مايقف خارج نطاق موضوع الفن ، لايمكن أن يجد لنفسه تجسيداً في الشخوص الفنية • وليس من البراعة الفنية مطلقاً أن تلجأ الى تصوير حركة الالكترونات ، مثلا ، تصويراً فنياً ، لأنها تكاد تكون عديمة التأثير على مشاعر الانسان ، ولذا فهي تعجز عن اثارة الحس الجمالي فينا •

وبقدر ما ينعكس الواقع في الشخوص الفنية انعكاساً واقعياً وصادقاً بقدر مايكون للشخوص الفنية أهمية معرفية •

وأخيراً ، فان الشخوص الفنية لاتعكس الواقع فقط وانما تحمل تقييماً معيناً للواقع أيضاً ، فهي اما تؤكد هذا الشيء في الواقع أو تنفيه • وفي هذا التقييم بالذات ينعكس المعنى الفكري والمحتوى للشخوص الفنية •

ان هذه العناصر في الشخوص الفنية من شأنها أن تعكس خاصة الفن كشكل معين من أشكال الوعي الاجتماعي • وان فهم جوهر الفن كوحدة بين

العنصرين الايديولوجي والمعرفي على أساس جمالي يمكننا من كشف محدودية وضيق النظرات التي تعتبر الفن شكلا من أشكال الوعي فقط •

وفي عملية الانتاج يجد الفنان نفسه مضطراً لأن يحسب حساب قوانين الفن وطبيعته وخصائصه • وانسجاماً مع طبيعة الفن والعناصر الملازمة له (الجمالية والايديولوجية والمعرفية) فان الانتاج الفني ، مستقلا عن الرغبات والمطامح الذاتية للفنان ، يُقيَّم من وجهة نظر فنيته وصدقه ومحتواه الفكري• وان الفن الفكري الصادق الرفيق هو وحده القادر على أن يؤثر على الجماهير الواسعة ، وعلى القيام بدوره الاجتماعي •

ولقد أكد الحزب في مقرراته المتعلقة بالمسائل الايديولوجية على أن المهمة الرئيسية للفن السوفييتي هي في خلق انتاجات تتمتع بفنية ممتازة وبمستوى فكري رفيع وأن تعكس الحياة وأعمال وأفكار الانسان السوفييتي بصدق •

وفي تلبية هذه المطالب عرف رجال الفن السوفييت الفشل والنجاح معاً • لقد كان الفشل يحالف الفنان الذي يزور الحقيقة الحياتية فيصور الواقع السوفييتي في هالة وردية أو في اطار مظلم ، ويهرب من المسائل الحياتية المطروحة الملحة والتي تقلق جميع السوفيتيين •

ان الاخلاص لحقيقة الحياة ، وأن النفاذ الفني العميق الى جوهر العمليات الاجتماعية ، ثم ان تصوير غنى ونبل مشاعر وأفكار الانسان الذي يقوض أسس المجتمع القديم ويبني ويوطد المجتمع الشيوعي الجديد ، كل هذا مما يمتاز به الانتاج في الأدب والفن السوفيتيين •

ان محتوى كل انتاج فني هو الحياة المنعكسة فيه • وتتحدد القيمة الاجتماعية للانتاج الفني ، قبل كل شيء ، بمحتواه • اذ أن المحتوى يضمر دائماً علاقة معينة بالموضوع ، فهو اما أن يثبت ظواهر معينة في الحياة أو ينفيها • وهذه العلاقة بالنسبة للموضوع في الانتاج الفني هي مايسمى بنزعة الانتاج أو بالاتجاه الفكري •

ان محتوى الانتاج أشمل وأوسع من فكرته ، الا أن هذه تؤلف القسم

الأساسي من الانتاج • وهنا تجدر الاشارة الى أن الاتجاه الفكري أو نزعة الانتاج « يجب أن ينضح بها الانتاج من تلقاء ذاته دون أن يلجأ الى ابرازها بنفسه ... »[1] • ومن أجل الحصول على هذا لابد للمحتوى من أن يتحلى بالشكل الفني الجميل المشخص •

فاذن لابد للمحتوى من الشكل • فالشكل هو أسلوب التعبير عن المحتوى • ويمكن أن يكون الشكل فنياً أو غير فني ، ملائماً للمحتوى أو غير ملائم له • فاذا جاء المحتوى الفكري الرفيع في قالب شكلي لا يتلاءم معه يعجز آنذاك عن التأثير على مشاعر وعواطف الناس وعن القيام بدوره الاجتماعي ، ويفقد بذلك صفة الانتاج الفني • وفي المقابل فان الشكل الجميل الساطع الذي يغلف محتوى ضحلا وفقيراً يكون أعجز من أن يمس مشاعر الناس أو يؤثر فيهم ويفقد ، بالتالي ، دوره الاجتماعي •

ولذا ، ففي كل انتاج فني لابد من أن تتوفر وحدة الشكل والمحتوى التي يقوم المحتوى فيها دائماً بتحديد الشكل • وان كل روائع الفن العالمي هي تلك النماذج الرائعة للوحدة بين الشكل والمحتوى •

وان الخيط الدليل في عملية الانتاج الفني هو طريقة التأليف • فطريقة التأليف الفني توجه الفنان في عملية معرفة الحياة وتحديد علاقة معينة بها ، وفي عملية خلق الانتاج الفني • وهي ترتبط دائماً بنظرةمعينة الى العالم وتنبثق عنها • غير أنه لايجوز لنا أن نطابق بين الطريقة في الفن وبين النظرة الفلسفية عن العالم •

ان أكثر طرق التأليف الفني تقدمية هي الطريقة الواقعية ، ولا سيما الواقعية الاشتراكية • والمطلب الرئيسي لكل واقعية انما هو التصوير الصادق للواقع • والواقعية الاشتراكية ، اذ تصور الواقع بصدق ، تتطلب النظر الى المستقبل ، واستكشاف بذور الجديد في الحاضر ، ومعرفة تناقضات الحياة وايجاد طرق حلها وتعزيز وتوطيد الجديد •

---

(١) ماركس وانجلس • • رسائل مختارة • ص ٣٩٥ •

ان الخاصة المميزة لانتاج فناني الواقعية الاشتراكية هي في أنهم يربطون نشاطهم بالنضال من أجـــل الشيوعية وبالنظرة الماركســية اللينينية العلميــة عن العالم •

ولدى تقييم الطريقة الواقعية لابد من تناولها من وجهة النظر التاريخية• لقد كان الفن الواقعي الماضي يصور التناقضات الحياتية بصـدق ، ويكشف عن عيوب المجتمـع الاستغلالي ويشجبه ، فكان بهذا يلعب دوره التقدمي في حياة المجتمع • وتلكم هي الواقعية النقدية التي لابد من تفريقها عن الواقعية الاشتراكية المرتبطة بالنضال الطبقي من أجل الاشتراكية فالشيوعية •

ويعرف التاريـخ كتّاباً واقعيين لم يكونوا تقدميين بكل معنى الكلمـة في نظراتهم السياسية • فلقد كان تولسـتوي ، مثـلا ، نصيراً لايديولوجيــا البورجوازية الصغيرة التي كانت تعتمد مبدأ « اللاعنف » تجاه الظلم والاستبداد ويدعو له • الا أن تولستوي كان كاتباً واقعياً عبقرياًفذاً ترك آثاراً خالدة في التطور الفني للانسانية جمعاء • وتكمن قوة الطريقة الواقعية في أن الفنان الواقعي ، حتى لو كانت ثمة عناصر سلبية في نظرته عن العالم ، قادر عـــلى تصوير الحياة تصويراً صحيحاً صادقاً وأن يصدر حكمه عليها بما ينسجم ومصالح التقدم •

وبالطبع لابد أن تظهر لديه الجوانب السلبية للنظرة عن العالم ، غير أنه من الممكن ألا تطغى على جوهر الانتاج الفني • لكن الفنان عندما يخضع انتاجه بكليته لنظرات عن العالم رجعية فانه لا مندوحة من أن يجد نفســه سائراً في طريق تشويه الواقع والافتراء على الحقيقة الفنية وهلاك موهبته • لقد قال بيلينسكي : « عندما يستسلم الكاتب بكليته للكذب فلابد من أن يهجره كل من عقله وموهبته » • أمـا مايتعلق بالكتاب في المجتمـع الاشتراكي فان معرفتهم بالنظرة الماركسية اللينينية عن العالم تعتبر أمراً ضرورياً اذ لابد من معرفة القوانين الموضوعية للتاريخ من أجل تصوير الحياة في تطورها الثوري•

ويتحقق العكس الفني للواقع بكل معنى الكلمة من قبـل الانسانية في

عمليـة تطور ثقافتها المادية والروحيـة ٠ ان الانسان ، اذ يلم بالموضـوع وبخصائصه ، يخلق الاشياء التي هو بحاجة اليها ٠ والى جانب هـذا تنطور معارف الانسان عن قوانين العالم الموضوعي ٠ والى جانب هذا أيضـاً تتطور وتغنى المشاعر الانسـانية والعواطف ، وينفتح أمـام الانسان الجانب الجمالي للانسان بصورة أكثر عمقاً ووضوحاً ٠

ان النشاط الانتاجي المادي للجماهير الشعبية هـو الذي يؤلف أساس عملية العكس الفني للواقع ٠ ويتجلى هذا العكس الفني للواقع من قبل جماهير الشعب بانتاجها الفولكلوري قبل كل شيء : في الأغاني والحكايا والقصص والرقصات ٠٠٠ الخ ٠ وعلاوة على هذا فان المشاعر الجمالية للجماهير الشعبية تنمو وتتطور بفعل انتاجات الفن المحترف ٠ وتجدر الاشارة هنا الى أن تلقي الجماهير الفني ليس شرطاً فقط لتطور الفن وانما هو نتيجة لتطوره أيضا ٠ ان انتاج الفن من شأنه أن يخلق جمهوراً قادراً عـلى تلقي الفن وتقييمه (ماركس) ٠ ومن أجل أن يؤثر الفن على الجماهير لابد له من أن يكون في متناول فهم هذه الجماهير وقريباً منها ٠ لكن هذا لايعني أبداً نزول الفن الى مستوى الأذواق الجمالية المتخلفة ٠ ان على الفن أن يربي الذوق الجمالي في الجماهير وينهض به ٠ ففي ظروف المجتمع الاستغلالي كانت كل الآثار الفنية القيمة بعيدة عن متناول الكادحين ٠ وفي عهد الاشتراكية وحدها يتيسر للشعب التعرف على انتاجات الفن ، كما وتصبح هذه الانتاجات ملائمة لتربية مشاعره الجمالية على خير وجه ٠ ومنذ قيام الثورة الاشتراكية برزت أمام الفن مهمات جديدة من الناحية المبدئية ٠

ولقد حدد لينين طبيعة ومهمات الفن الاشتراكي في حديثه مع تسيتكين اذ قال : « الفن للشعب ، وعليه أن يمد جذوره عميقة في أشد جماهير الشغيلة كثافة وأن يكون مفهوماً بالنسبة لها ومحبوباً من قبلها ٠ وعليه أن يوحد بين مشاعر وأفكار وارادة هذه الجماهير وأن ينهض بها الى فوق ٠ وعليه أن يوقظ الفنانين فيها ويسعى الى تطويرهم »[١] ٠

---

(١) « لينين حول الثقافة والفن » ٠ موسكو ١٩٥٦ ، ص ٥٢٠ ٠

وفي هذا المطلب « ايقاظ الفنانين وتطويرهم » يتجلى الدور الذي يضطلع به الفن في تربية الأذواق الجمالية لدى الجماهير ٠

٣ ـ مكان الفن بين الظواهر الاجتماعية الاخرى ودوره في تطور المجتمع

ان الفن عنصر من أهم عناصر الثقافة الروحية ٠ وينبغي ألا نخلط بين انتاجاته وبين آثار الثقافة المادية كما لاينبغي الخلط بين الانتاج الفني والانتاج المادي في الاقتصاد ٠

وان التأكيد بأن الفن يتحدد في جميع مراحل تطوره بمستوى تطور الانتاج انما هو تأكيد سوقي بعيد عن الماركسية ٠ فلقد بين ماركس في كتابه « حول نقد الاقتصاد السياسي » أن بعض فترات ازدهار الفن لم تكن توجد في علاقة مباشرة مع مستوى تطور الانتاج ٠ وأورد الفن الاغريقي القديم كمثال على ذلك ، ذلك الفن الذي ضرب أمثلة رفيعة بالرغم من ارتباطه بمستوى منخفض لتطور الانتاج ٠ لقد كانت روسيا القرن التاسع عشر بلداً متخلفاً من الناحية الاقتصادية ، غير أنها تمكنت من انجاب عدد كبير من مشاهير الكتاب الذين حققوا للأدب الروسي مجداً عالمياً خالداً ٠ وان فن عصر النهضة بمستوى تطوره الفنيلهو أعلى بدرجات كثيرة وكبيرة من الفن البورجوازي الساقط المعاصر ٠ وثمة أمثلة كثيرة أخرى تشهد على أن المستوى الرفيع لتطور الانتاج ليس من الضروري أبداً أن يكون مرتبطاً بمستوى عال من تطور الفن ، وعلى أنه ليس ثمة علاقة مباشرة دائمة بينهما ٠

ان الفن يرتبط في تطوره بمجموع العلاقات الاجتماعية كلها ، ويتحدد بالعلاقات الاقتصادية وبطابع الطبقات والنزاعات الطبقية ٠

صحيح أن الفن يرتبط في احدى علاقاته مباشرة بالانتاج ـ فيما يتعلق بوسائله التكنيكية وبامكانياته ٠ فظهور الطباعة وتطور وسائل النشر وتكنيك الاعمار ، وظهور السينما واختراع الراديو والتلفزيون ٠٠٠ وغيرها ـ كل

هذه الانتصارات التي حققتها الانسانية والتي تعتبر وسائل تكنيكية للفن تؤثر تأثيراً مباشراً على تطوره •

ان الفن مرتبط من شتى جوانبه بالعلاقات المتبادلة بين الطبقات وبالصراع الطبقي ، وهو دائماً يحمل آثار هـذه الايديولوجيا الطبقية أو تلك ويعكس النضـال الطبقي في المجتمـع من مواقف الطبقات المختلفة • والطبقات تسعى بدورها لاستخدام الفن لمصالحها ولجعله ناقلا لايديولوجيتها ومعبراً عنها • والفن بطبيعته لا يقف غير مبال بالطبقات •

ان أهم مايتسم به الفن الحقيقي هو شعبيته وهي ، قبل كل شيء ، أن يحمل الفن آثار الطابـع الشعبي وتكوين الشعب النفسي • والفن دائماً ذو طابع قومي وشعبي • فليس ثمة فرق بين الرياضيات الروسية والرياضيات الانكليزية ، لكنه هنالك أدب روسي وآخر انكليزي وألماني وفرنسي •

ثم ان شعبية الفن في صدقه أيضاً ، اذ أنه يعكس ويصور في ضوء المثل التقدمية لهذا العصر أو ذاك حياة الشعب ومصالحه ونضاله وأفكاره ومطامحه • وان حياة ونضال الشعب وتطلعاته الى حياة أفضل في كل عصر هي التي تفعم انتاج كل فن تقدمي بالمحتوى القيم الكبير وتلهم الفنانين وتحثهم على الانتاج •

ثم ان شعبية الفن هي أيضاً في صلته بالانتاج الروحي للجماهير • فالفن يمتد بجذوره الى الانتاج الشعبي ،وان هذه الرابطة تبقى في كل مراحل تطوره الى درجة كبيرة أو صغيرة • لقد قال مؤلف « التراجيديا الاميريكية » تيودور درايزر : « ليس من أحد يخلق المأساة ، ان الذي يخلقها هو الحياة • والكتاب يقومون بوصف هذه المأساة وحسب » •

ولا يعني هذا أنه اذا لم تكن ثمة خواطر من الانتاج الشعبي في هـذا الانتاج أو ذاك فهو ليس شعبياً • لقد قال غوغول : ليست الشعبية الحقيقية في أن أصف ذلك الكوب الروسي القديم (سارافان) وانمـا هي في التعبير عن روح الشعب بالذات •

تلكم هي شعبية الفن من حيث نشأتها وظهورها • لكن لمسألة الشعبية

جانباً آخر • فاذا كان الانتاج من حيث محتواه الفكري شعبياً فهل يعني هذا أنه صار في متناول الشعب وادركه ؟ ان مسألة انتشار الانتاج الفني بين جماهير الشعب تتعلق بالظروف الاجتماعية التي تتيح للشعب التعرف على الانتاجات الفنية • ومثل هذه الظروف لا تتوفر الا في ظل الاشتراكية عندما يصبح الفن في متناول الشعب كله ، ويصبح مفهوم شعبية الفن ذا محتوى أكثر اتساعاً وجدة • ان الفن في تطوره يكون دائماً مرتبطاً بحياة الشعب • وبهذا المعنى يمكننا القول بأن الفن انما هو ابن زمانه • غير أن بعض الصعوبة تبرز أمامنا هنا ، وهذه الصعوبة هي التي أشار اليها ماركس في كتابه « حول نقد الاقتصاد السياسي » اذ كتب : « ••• وليست الصعوبة هنا في فهمنا لكون الفن الاغريقي والملحمة مرتبطين بأشكال معينة من التطور الاجتماعي ، وانما هي في كونهما لايزالان يمنحاننا اللذة الفنية حتى وقتنا الحاضر ويحافظان على قيمة بعض القواعد والمثل التي يصعب بلوغها حتى في وقتنا هذا »[١] • وان خاصة الفن هي في أنه ، اذ ينمو من متطلبات المجتمع في احدى مراحل تطوره ويعكس حياة هذا المجتمع ، فان انتاجاته الحقيقية لا تزول مع زوال ذلك المجتمع وانما تتعدى زمنها لتبقى وتحفظ كتراث ثقافي • وكما يقال : « ان الرائع لايخشى الزمن » •

فكيف نفسر هذه الخاصة للفن ، ثم كيف نحل تلك الصعوبة التي أشار اليها ماركس ؟

ينبغي أن نجد الجواب عن هذا السؤال في طبيعة الموضوع ذاته وفي أسلوب عكسه في الفن • ان الفنان ، اذ يكشف في الشخوص الفنية حياة مجتمع ما ويرسم شخصيات الناس في عصره بكل أصالتها وخصائصها المحددة والدقيقة المميزة ، فانه بذلك لايعبر عن الفردي وحسب ، بل وعن النموذجي العام مما يعطي الانتاج الفني قيمة اجتماعية في فترة معينة من الزمن • غير أن المشاعر الجمالية ليست عامة بالنسبة لأناس ينتمون الى طبقة واحدة وحسب أو لعصر معين فقط • ان سمات عامة تجمع بين الناس الذين ينتمون لعصور

---

(١) ماركس « حول نقد الاقتصاد السياسي » • ص ٢٢٥ •

وبلدان وشعوب مختلفة أيضا • ان الناس يعيشون في مجتمع ، وان كـــل المجتمعات تلتقي ببعض المظاهر العامة والعلاقات ، وببعض السمات الانسانية العامة والخاصة أيضا • ان الصداقة والحب ، والتضحية بالنفس في ســـبيل الهدف العام ، ومشاعر الأمومة ، والبطولة واستقباح العيوب وادانة الخســة والنفاق وغيرها ـ كل هذه سمات عامة للناس في مختلف العصور • ان كبار الفنانين ، اذ يخلقون الشخوص النموذجية لعصرهم ومن أجل الناس المعاصرين لهم ، فانهم في الوقت ذاته يلتقطون ويعكسون بعض السمات العامة للانسانية في شكل فني رائع • ولو لم يعط هذا الشيء الانساني العام في شكل تاريخي محدد فردي ومشخص بصورة تتقراه فيها الحواس لكان محض فوضى وفكرة مجردة لا نموذجاً فنياً • وعلى العكس من هذا ، فان أعطانا الفنان شيئاً ما جزئياً فردياً نادراً كالصدفة حتى ولـو في اطار فني براق فانه لن يتمكن من التأثير على عقل ومشاعر الاجيال المقبلة حتى ولا علينا نحن معاصريــه • ان عظمة انتاجات الفن الخالدة هي في أنها تحتوي أيضاً على ما هو انساني عام في شكل فني رائع وفي شخوص فرديــة واضحة ومحددة • وهي بالتالي تاريخية الى أعمق الدرجات وتخص زمناً معيناً وبلداً معيناً وشعباً معيناً ، وهي ، في الوقت ذاته ، خالدة لا تتكرر •

ولذا فان الفن الاغريقي ما يزال يمنحنا اللذة الجمالية ، ذلك لانه يعبر عن سمات انسانية عامة لها صداها الطبيعي في زمننا نحن في شكل فني واضح وجميل • وثمةشيء آخر لابد من ذكره هنا أيضاً • ففي فترات تاريخيةمختلفة وفي بلدان مختلفة تنشأ ظروف ملائمة لتطور هذه الإشكال من الفن أو تلك وللتجســيد الكامل لهذه الجوانب والعلاقات أو تلك من جوانب وعلاقــات موضوع الفن • وان الانتاجات التي تعكس هــذه الامكانيات بأكمل وجــه تصبح مثلا للأجيال القادمة • فلقد أعطى النحت الاغريقي ، مثلا ، نماذج كاملة عن جمال جسم الانسان المتطور الرائع • لكنه لايجوز جعله مثلا لكل نحت لأن العالـم المعقد للمشاعر والآلام الانسانية لايجد فيه ســـوى تعبير ضئيل وضعيف •

ان الفن هو احدى القوى الاجتماعية التي تساهم في التأثير المتبادل بين الظواهر الاجتماعية وتؤثر تأثيراً كبيراً على تطور المجتمع •

ان أنصار مايسمى بـ « الفن للفن » ينظرون الى الفن كوسيلة لنيل متطلباتهم الجمالية ، كوسيلة امتاع لاغير •

وبالطبع ان الفن هو وسيلة إمتاع وترويح • فالانتاجات الفنية ، اذ تؤثر على المشاعر والعواطف ومن خلالها على العقل تمنح الانسان لذة جمالية•

فنحن نتمتع باللوحة الجميلة وبالموسيقى الرائعة وبالرواية وغيرها • ولولا هذا التأثير الجمالي على الانسان لكان الفن عديم الفائدة • ان علم الجمال الماركسي اللينيني ليس ضد الاعتراف بالوظيفة الجمالية للفن ، وانما ضد جعل الفن مجرد وسيلة للامتاع • فالفن ليس وسيلة امتاع ومسرة وحسب ، وانما هو أيضاً شكل لمعرفة الواقع ، وقبل كل شيء ، لمعرفة حياة الانسان والعلاقات والطباع الانسانية في كل أشكالها وتنوعاتها •

ان لانتاجات الفن ، لاسيما الادب والتصوير ، وفي وقتنا الحاضر السينما ، قيمة معرفية كبرى اذا ما عكست حياة الناس بصدق في هذا المجتمع أو ذاك • وان الانتاجات الفنية التي ورثناها عن الأجيال السالفة تفيدنا أيضاً في دراسة تاريخ تلك الشعوب التي خلفتها لنا ، وتاريخ العصر ذاته ــ الى حد ما ــ الذي انعكس فيها •

ومهما عظم شأن هذه الوظيفة التي يقوم بها الفن فانها لاتستنفد كل غايته • ففي وحدة العامل الجمالي والعامل المعرفي والعامل الايديولوجي يبرز الفن كوسيلة جبارة خاصة في تربية الناس وذلك لما يتمتع به من قوة تأثير على الانسان • ان الفن وسيلة للتربية الفكرية والخلقية • فهو يصوغ مشاعر وعواطف الناس ويشحذها ويربي فيهم الفنانين ، ويطور تلقيهم الفني للواقع • وهو يعبر دائماً عن ايديولوجيا معينة ولذا فهو كذلك أداة للنضال الطبقي •

فكل نشيد قنبلة
وكل أغنية راية

وبالنسبة لمحتواه الفكري يمكن للفن أن يقوم بدور مزدوج ـ تقدمي ورجعي • فالفن الذي يقف نفسه لخدمة الطبقات الرجعية لابد من أن يجد نفسه منعزلا عن الشعب ومبتوراً كما في الروايات البوليسية والتجارية والتي تغني حياة البورجوازية ، وكذا في الأفلام الماجنة والبوليسية وغيرها من الأفلام التي تمجد دور الفرد وتحتقر الجماعة وتمرر الى نفوس الناس حب المغامرة الفردية وشرعية الاستغلال وغير ذلك من سموم الفن البورجوازي الرجعي المعاصر •

وان للفن الذي يخدم الشعب شأناً وعظيماً وقيمة اجتماعية كبيرة • فهو وسيلة جبارة للتأثير علـى عقول ومشاعر الناس المعاصرين ، فيربيهم بروح الاشتراكية • ان فننا مدعو لتطوير الأذواق الفنية للشعب بصورة مستمرة ولشن حرب لا هوادة فيها على مخلفات الرأسمالية في وعي الناس ، ولتمجيد العمل والعاملين ـ بناة الاشتراكية •

الفصل السابع

الفلسفة

ان خاصة الفلسفة كشكل من أشكال الوعي الاجتماعي هي في أنها في جوهرها نظرة عن العالم • لقد سلكت الفلسفة طريقاً طويلا من التطور يمتد زهاء ثلاثين قرناً أوجدت خلالها كثير من النظم والنظريات الفلسفية المختلفة التي تجسد نظرات مختلفة عن العالم • لكن تاريخ الفلسفة ليس مجرد استبدال نظام فلسفي بآخر ونظرة عن العالم بأخرى • انه تاريخ من الصراع الدائم بين نظرات مختلفة عن العالم يعكس الصراع بين القوى الاجتماعية التقدمية والرجعية في عصور مختلفة • وفي سير هذا الصراع وعلى أساس التطور الصاعد للمجتمع كان يجري تطور المعارف الفلسفية •

ان أعلى مرحلة لتطور الفكر الفلسفي هي الفلسفة الماركسية اللينينية ـ المادية الديالكتيكية والمادية التاريخية • ان الفلسفة الماركسية هي فلسفة علمية صحيحة وأداة جبارة للمعرفة وللعمل الثوري • ان نضال المادية الديالكتيكية ضد الفلسفة البورجوازية المعاصرة يعكس نضال الاشتراكية ضد الرأسمالية ، نضال التقدم ضد الرجعية • والى جانب هذا فقد أغطى ظهور المادية الديالكتيكية والمادية التاريخية أساساً نظرياً علمياً لتحليل الفلسفة ذاتها كظاهرة اجتماعية خاصة •

ان الفلسفة ، كشكل من أشكال الوعي الاجتماعي ، هي موضوع العلم الاجتماعي ـ تاريخ الفلسفة ـ الذي يدرس التاريخ المشخص للفكر الفلسفي في عصور مختلفة وبلدان مختلفة ولدى شعوب مختلفة أيضاً • وينقسم هذا

الأخير الى فترة تشمل تاريخ الفلسفة حتى ماركس والى تاريخ الفلسفة الماركسية اللينينية كفلسفة جديدةنوعياً وكنظرة عن العالمعلمية حقيقية تطورت وتتطور في النضال ضد الاتجاهات المختلفة للفلسفة البورجوازية المعاصرة •
ان المادية التاريخية تبحث خصائص الفلسفة كظاهرة اجتماعية معينة ، وتدرس مكانها بين الظواهر الاجتماعية الاخرى ودورها في الحياة الاجتماعية •

١ ـ نشوء الفلسفة

ان الفلسفة ، كنظرة عن العالم ، هي نظام لأكثر المفاهيم شمولا عن العالم ولعلاقة الانسان بهذا العالم ، ويعبر عن مصالح الفئات والطبقات الاجتماعية المعينة • وهي تتميز عن العلوم التشخيصية فتدرس العالم من زاوية سماته وقوانينه العامة ووحدته التي تتجلى في تنوع الظواهر والأشياء والعمليات المحيطة بالانسان • وفي تلك الظروف حينما كانت العلوم لاتزال ضعيفة التطور كانت الفلسفة تضم أيضاً المعارف العلمية التشخيصية وتدرس المسائل المختلفة التي صارت فيما بعد مواضيع لدراسة العلوم التشخيصية • ولهذا فقد كان موضوع الفلسفة في المراحل الاولى من تطورها أكثر اتساعاً مما هو عليه الآن • ان ذلك الدمج بين الفلسفة والعلوم التشخيصية يؤلف السمة المميزة للمراحل الأولى من تطور المعرفة وأحد التعابير المميزة لحدودها التاريخيه • لكن ظهور الفلسفة ، مع كل هذا ، كشكل خاص من أشكال الوعي الاجتماعي مرتبط بوضع التصورات العامة عن العالم وعن معرفته من قبل الانسان • وان الحاجة الى هذه المفاهيم والتصورات العامة التي كان من شأنها أن تخلق تصوراً كاملا عن العالم وعن علاقة الانسان به هي بالذات التي ولدت الفلسفة • لقد ظهرت الفلسفة في عصر قيام المجتمع الطبقي ومع انقسام العمل الى عمل ذهني وعمل عضلي ، ومع ظهور العلوم • ففي هذه الفترة بدأ الناس يفهمون العالم المحيط بهم نظرياً • ان خاصة التفكير النظري الذي يخدم حاجة التطبيق المتطور هي أن ذلك التفكير ، اذ لم يكن يرضي المعرفة المباشرة ، كان يسعى لأن ينفذ الى جوهر الاشياء ويعكسها في المفاهيم • وحينما سار الناس في هذا الطريق بدأوا يفكرون في مسائل ماهية العالم ككل وعن أساس تنوعه وظهوره،

أي أنهم صاروا يسعون الى تفسير العالم من ذاته • وهكذا ظهرت أولى التصورات الفلسفية وظهرت الفلسفة كشكل معين لمعرفة الواقع • فعندما أكد هيرقليط ، مثلا ، أن العالم هو نار حية أبداً تتقد بموجب قوانين وتنطفيء بموجب قوانين ، فقد كان ذلك محاولة ساذجة ـ لكنها في جوهرها صحيحة ـ لتفسير العالم من العالم ذاته ولاكتشاف الوحدة الداخلية لكل الاشياء المحيطه المتنوعة •

لكن الفلسفة ليست فقط شكلا لمعرفة الواقع • فهي ،الى جانب كونها كأي علم آخر شكلا من أشكال المعرفة ، تتميز عن العلوم الاخرى بأنها نظرة عن العالم • ان نظرة الناس عن العالم التي تعبر عن علاقتهم بالواقع ترتبط ، قبل كل شيء ، بوضعهم في المجتمع وبمصالحهم • ولهذا فان الفلسفة في نشوئها وتطورها تتحدد مباشرة بالمصالح المادية للطبقات المختلفة في المجتمع ، وتبرز كشكل للايديولوجيا •

ان الوحدة بين العاملين المعرفي والايديولوجي يؤلف الخاصة المميزة للفلسفة كشكل من أشكال الوعي الاجتماعي •

ومع انقسام المجتمع الى طبقات وتطور الصراع الطبقي تظهر في المجتمع الحاجة الى تأسيس نظري للمصالح المادية للطبقات المتصارعة والفئات الاجتماعية المختلفة • ان تأسيس مصالح الطبقة نظرياً يعني ، أولا ، تصوير المصلحة الخاصة لهذه الطبقة كما لو أنها مصلحة عامة لكل طبقات الشعب وفئاته ؛ ثانياً ، ربط مثلها العليا وتطلعاتها ومصالحها بنظرة معينة عن العالم ككل وتصويرها أمراً لا يمت الى الصدفة بصلة بل نابعاً من جوهر وطبيعة الأشياء ذاتها • وتلك هي مهمة الفلسفة • فهي تضع مفهومها عن العالم بما يتناسب مع وضع ومصالح تلك الطبقة ، ومن ثم تأسيس نظراتها السياسية الاجتماعية نظرياً • وتنعكس في الفلسفة في الشكل النظري المجرد التطلعات الفكرية العامة للطبقات المختلفة •

وبالفعل ، لم تكن الرابطة بين الانشاءات الايديولوجية وبين المصالح

الحقيقية للطبقات المتصارعة واضحة حتى لدى الفلاسفة أنفسهم • وأكثر من هذا ، فقد كانوا ينظرون الى نظرياتهم كجواب عن المسائل الفلسفية الخالدة ، وكنتيجة لبحثهم عن الحقيقة • ان تاريخ تطور الفكر الفلسفي يعطينا ، للوهلة الأولى ، بعض الأسس لمثل هذا القول • اذ أنه ، في الواقع ، كان في تاريخ الفلسفة ثمة مسائل كثيرة تبرز في كل مراحل التاريخ ، وكانت تحل بطرق مختلفة : العلاقة بين المادة والوعي ، طبيعة الانسان ••• الخ • لكنه لن يكون من الصواب أبداً أن نعتبر تطور الفلسفة مجرد تقدم في حل المسائل الفلسفية الخالدة ، كتقدم للمعرفة الفلسفية منطلقين في ذلك من زاوية النظر تلك • ان مثل هـذه النظرة ليس من شأنها أن تفضي بنا فقط الى الموضوعية ، الى الفصل المثالي للفلسفة عن التاريخ المشخص فحسب ، بل وهي لن تسمح لنا باكتشافات الطابع الواقعي لتقدم المعرفة الفلسفية •

ان نضال الطبقات التقدمية ضد الطبقات الرجعية هو القوة المحركة لتطور التشكيلات الاجتماعية المتناقضة • ان التباين في أوضاع ومصالح الطبقات ينعكس في نظراتها عن العالم ، في نضال المادية ضد المثالية • ان المادية والمثالية هما المعسكران الأساسيان والحزبان الرئيسيان في الفلسفة اللذان يختلفان بحل المسألة الاساسية في الفلسفة ـ مسألة علاقة الفكر بالواقع ، الروح بالطبيعة • ان مسألة علاقة الفكر بالواقع هي المسألة الأساسية في الفلسفة لان هذا الحل أو ذاك هـو الذي يحدد فهماً معيناً للعالم (هـل هـو بطبيعته مادي أم مثالي) ويقدم أساساً نظرياً لحل كل المسائل الفلسفية الاخرى • فان كان العالم مادياً تنحصر مهمة المعرفة في بحث خصائص وروابط وقوانين العالم المادي كما هي موجودة موضوعياً • وان كان العالم مثالياً فان مهمة المعرفة تؤدي لا الى دراسة المواضيع المادية بل الى اكتشاف جوهر العالم الالهي الروحي •

ان النظرة المادية عن العالم هي فهم العالم كما هو موجود بدون اضافات جانبية أخرى ، وليست المثالية الا نظرة مشوهة له •

وتبرز المادية دائماً وأبداً في التاريخ كفلسفة للطبقات التقدمية في هـذا

العصر أو ذاك ، بينما كانت المثالية دائماً وأبداً فلسفةالطبقات الرجعية والمحافظة في كل عصر من عصور التاريخ •

وفي الصراع بين المادية والمثالية ، وفي الصدام بين الاتجاهات والنظريات الفلسفية المختلفة يحتل الصراع بين الطبقات الاجتماعية المختلفة مكانه •

وتجدر بنا الاشارة الى أن صراع الافكار على الصعيد الفلسفي لا يدور حول المسألة الاساسية في الفلسفة وحسب ، وانما يتعداها في كثير من الاحيان الىمسائلأخرى : كمسألة الطريقة مثلا ، والسببية والحريةوالجبرية •••الخ• ومن أجل فهم تنوع كل هذه الافكار والتيارات الفلسفية المتصارعة لابد من أن ننطلق دائماً من أن المادية والمثالية هما الاتجاهان الأساسيان في الفلسفة ، وأن القاسم المميز لكل الاتجاهات الفلسفية المتنوعة انما هو اجابتها عن المسألة الأساسية : علاقة الفكر بالواقع •

ان تاريخ المجتمع هو تاريخ تطوره التقدمي الصاعد الذي يتحقق بالنضال الدائم ضد قوى الرجعية •

ان تاريخ الفلسفة ، اذ يعكس العملية التاريخية الواقعية ، يبرز كتاريخ لنشوء وتطور النظرة المادية العلمية عن العالم ، تاريخ النضال ضد الفلسفة المثالية الرجعية •

٢ ـ مكان الفلسفة بين الظواهر الاجتماعية

عند دراسة الفلسفة كظاهرة اجتماعية ، أو بالأحرى ، لدى دراسة كل نظام مشخص للنظرات الفلسفية لابد لنا دائماً من أن نأخذ بعين الاعتبار أربعة عوامل : طابع العلاقات المتبادلة بين الطبقات ومستوى النضال الطبقي في هذا المجتمع أو ذاك ، مستوى تطور العلوم ولاسيما العلوم الطبيعية في هذا العصر أو ذاك ، الاحتياطي المتراكم من التصورات الفلسفية والمواد الفكرية ، وأخيراً « الجو الروحي » للمجتمع • فلندرس كلا من هذه العوامل علىحدة•

١ ـ سبق أ نقلنا ان الفلسفة هي في أساسها نظرة طبقة معينة عن العالم• ان أصدق تعبير عن طبقية الفلسفة هـو في تحزبها • فكل فلسفة متحزبة ،

والفلسفة المعاصرة هي كذلك أيضاً كما كانت الحال قبل ألفي عام من الزمن • ويقوم الصراع في الفلسفة بين حزب المادية وحزب المثالية ، بين « خط ديموقريط » و « خط أفلاطون » اللذين يعكسان الصراع بين القوى التقدمية والرجعية في كل عصر من عصور التاريخ • وهذا يعني أنه مهما كانت النظرات الفلسفية مجردة ومهما بدت بعيدة عن المسائل التي تقلق المجتمع في هذا الوقت أو ذاك فانها في الواقع تمثل تعبيراً عن المصالح الحياتية الحقيقية لطبقات معينة • ان الفلاسفة البورجوازيين يطمسون الرابطة بين الفلسفة والمصالح الطبقية المعينة في دعوتهم للموضوعية ، وهم يؤكدون على أن الفلسفة تقف فوق الأحزاب والطبقات •

ويحاول التحريفيون المعاصرون أيضاً طمس كل حد بين النظرة البورجوازية والنظرة البروليتارية عن العالم ، بين المادية والمثالية •

وهاكم بعض الأمثلة • ان التحريفي الفرنسي أ • ليفيفر يصرح بأن : « نظرية المعسكرين أدت الى تعميق الموضوع حتى نهايته في ميدان الفلسفة وتاريخ الفلسفة ، هذا الموضوع الذي أخذ يكتسب نزعة التصلب : موضوع التناقض بين المادية والمثالية » • ثم ان الفيلسوف الهنغاري ع • لوكاتش الذي لعب دوراً بائساً أيام الثورة المضادة في بودابست عام **١٩٥٦** يورد في بعض كتبه « هيجل الشاب » و « تحطيم العقل » الفكرة القائلة بأن الذي يدفع بالتطور الى الأمام ليس الصراع بين الطبقات وانما هو الصراع بين قوى التقدم وقوى الرجعية • فهو في أيامنا هذه ، مثلا ، الصراع بين الفاشية وأعدائها ، بين قوى الحرب وقوى السلم ••• الخ • فهو ينكر الصراع الطبقي بين البروليتاريا والبورجوازية • ثم انه يدفع بالصراع في الفلسفة بين المادية والمثالية الى الصف الثاني كما لو كان هذا أمراً ثانوياً ، بينما يدفع الى مرتبة الصدارة بالصراع بين الديالكتيك والميتافيزيك ، بين العقلاني واللاعقلاني • ان وضع المادية والمثالية على طرفي نقيض أمر لايحوز على رضى التحريفيين وبالتالي فان وضع الاشتراكية في طرف مناقض للرأسمالية أمر لايعجبهم أبداً • انهم ينفون وجود التناقض بين المادية والمثالية ، وهم يسعون لايجاد التبرير النظري لمثل

هذا النفي والانكار • ولقد أفضت بهم محاولات التبرير الى ما يلي : لقد صرح ليفيقر زاعماً أن لينين « جعل من المادية بديهية » • ان هذا ليس الا تشويهاً للينين الذي لم يجعل من المادية بديهية مطلقاً • بل على العكس فقد درس لينين المادية كنظرة حقيقية عن العالم لا كبديهية مسلم بها ، درسها كفلسفة يبرهن على صحتها كل من العلم والتطبيق العملي • ان عمل الانسان التطبيقي لابد أن يفضي به الى المادية ، هكذا صرح لينين • فأين البديهية هنا ؟! ان المادية يمكن أن تكون بديهية بالنسبة للتحريفيين والوضعيين واللا أدريين فقط وليس بالنسبة للينين • ثم يستطرد ليفيقر ليفتري على لينين فيقول : « ان المسلمة المادية تكونت وتشكلت مع المسلمة المتناقضة معها ـ المسلمة المثالية ـ في وقت واحد • وفي تلك الاثناء بدأت المسلمتان تتجادلان لتتطابقا » • ان وضع الحدود الفاصلة بين المادية والمثالية لايعجب ليفيقر لأن هذا من شأنه أن يفوت الفرصة على النزعات التوفيقية والبينية •• وغيرهما • فهو يدحض اما (المادية) أو (المثالية) باسم ••• الديالكتيك • وثمة تبريرات وتفسيرت أخرى مشابهة لكن بتعبيرات وأشكال أخرى يقدمها التحريفيون الآخرون الذين يرجعون الفلسفة الماركسية الى بعض الطرق المتبعة في التفكير فيعلنون أن هذه الطرق يستخدمها الفلاسفة وعلماء الاجتماع البورجوازيون أيضاً ، ولذا فلا مبرر بعد هذا للتكلم عن الطرائق الماركسية •

وفي ميدان العلم ، حسب زعمهم ، يمكن أن تتنافس نماذج مختلفة من المناهج والطرائق ، ولذا فلا يجوز وضع حدود بين الفهم الماركسي وغير الماركسي للمسائل • وهكذا يحاول التحريفيون استخدام الموضوعة الديالكتيكية القائلة بأنه ليس ثمة حدود مطلقة في الطبيعة لاستخدامها ضد الفلسفة الماركسية اللينينية •

ان التحريفيين يشوهون الديالكتيك ساعين الى تحويله من طريقة ثورية ونقدية الى أداة توفيق بين النظرتين المتناقضتين • ان هذا التشويه للديالكتيك الماركسي يذكرنا بهيجل الذي جعل من الديالكتيك طريقة للتوفيق بين الجديد والقديم •

ان سعي التحريفيين المعاصرين لطمس التناقض بين المادية والمثالية ليس الا محاولة فلسفية لاخضاع ايديولوجيا وسياسة البروليتاريا لايديولوجيا وسياسة البورجوازية المعاصرة • ان التراجع أمـام الايديولوجيا البورجوازيه يؤلف جوهر التحريفيين • وان المسالة بين المادية والمثالية هو التعبير الفلسفي عن هذا الجوهر •

ومن المعروف أن المحاولات الرامية لخلق « خط ثالث » في الفلسفة انما هي من شيم الوضعية التي هي شكل آخر من أشكال الفلسفة البورجوازية• وهنا أيضاً يتشبث التحريفيون بذيل الايديولوجيا البورجوازية •

ان الماركسية اللينينية تعتبر أن الفلسفة حزبية وأن مهمة الدراسة العلمية هي في الكشف عن المحتوى الحقيقي الكامن خلف الجمل والأفكار والنظريات الفلسفية ألا وهو مصالح الطبقات • ولدى ذلك لابد من الأخذ بالطريقة المادية العلمية : لا نمضي من الأفكار الى الواقع ، بل من الواقع الى الأفكار • فلقد تمكن فيرباخ من ارجاع النظرات المثالية الدينية الى قاعدتها الأرضية • ففي « جوهر المسيحية » يبرهن عـلى أن المحتوى الحقيقي لفكرة الاله في الدين المسيحي انما هي الانسان ذاته ،وبتعبير آخر ، انه جوهر الانسان الذي جرد من الانسان ذاته ليمنح للسماء • ان ماركس ، اذ تناول هذه المسألة من وجهة نظر علمية بحتة ، أكد أن الشيء الرئيسي في نقد فيرباخ للدين لـم يوضح بعد • ان الرئيسي هنا هو في معرفة الاسباب التي تجعل ظروفاً اجتماعية معينة تلد بالضرورة هــذه الأفكار أو تلك ، أي أن نمضي الى الأفكار من الظروف المادية • وجاءت المادية التاريخية لتضع وتحل هذه المسألة لاول مرة • فقد أشار انجلس الى أنه « ينبغي أن ندرس ظروف وجود التشكيلات الاجتماعية المختلفة بالتفصيل قبل الشروع بمحاولة استنباط النظرات السياسية والحقوقية والجمالية والفلسفية والدينية وغيرها من النظرات الملائمة لتلك التشـكيلات من تلك الظروف ذاتها »[١] •

---

(١) ماركس وانجلس • مؤلفات مختارة • الجزء الثاني • ص ٤٦٦ •

ان الدراسة التفصيلية لظروف وجود التشكيلات الاجتماعية المختلفة يتطلب توضيح السمات العامة الملازمة للتشكيلةالاجتماعية ولطبقاتها كما يتطلب توضيح الخصائص المميزة للمراحل المختلفة من تطور هذه التشكيلة أو تلك وتنوع العلاقات الطبقية المتبادلة في بلدان مختلفة أيضاً • ان مصالح هذه الطبقة أو تلك ، بفعل أصالة تطورها التاريخي وعلاقة القوى الطبقية في البلدان المختلفة أو حتى في بلد واحد لكن في مراحل مختلفة من تطوره ، يمكن أن يكون لها سمات خاصة الى جانب السمات العامة • ان هذا التنوع في الطبقات الفاعلة في التاريخ ، وتنوع الظروف الحسية للنضال الطبقي في عصور مختلفة وبلدان مختلفة ، وأخيراً ، ان تنوع المهمات التاريخية التي كانت تظهر وتُحل في هذا النضال هو الذي يفسر تنوع نظم النظرات الفلسفية التي عرفها التاريخ •

هكذا ، مثلا ، ان المادية الفرنسية في القرن الثامن عشر ، والمثالية الألمانية في نهاية القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر لم تكونا سوى فلسفة بورجوازية قبل عصر الثورة • وبتنوع العلاقات الطبقية المتبادلة في فرنسا وألمانيا ذلك العصر فقط يمكننا ، قبل كل شيء ، تفسير اختلافاتها وفهم الأسباب التي جعلت الفلسفة المادية ايديولوجيا للبورجوازية الفرنسية ذلك الوقت ، بينما كانت المثالية ايديولوجيا البورجوازية الالمانية •

ففي فرنسا القرن الثامن عشر قامت بورجوازية قوية اقتصادياً ،واحتدمت في المجتمع تناقضات حادة صارخة ، وانعقد غبار المعركة ضد العبودية في المؤسسات والأفكار • ولقد كان الدين هو المرتكز الايديولوجي الاساسي للرجعية • فكانت المادية هي السلاح الروحي الجبار في النضال ضد الايديولوجيا الاقطاعية الدينية • ولهذا وقف ايديولوجيو البورجوازية الفرنسية التقدميون ليرفعوا راية الفلسفة المادية • فقد أعلنوا عدم عقلانية النظام المطلق والدين والكنيسة وكل نظام القرون الوسطى للأشياء ، وطالبوا بالاجهاز عليها جميعاً باسم « سيادة العقل » •

غير أن الوضع في ألمانيا قبل الثورة كان مختلفاً تماماً • ففي ظروف الانقسام السياسي والاقتصادي في بداية القرن التاسع عشر كانت مسألة الوحدة

الألمانية هي المسألة الرئيسية في تطور ألمانيا البورجوازي • وكان يمكن تحقيق تلك الوحدة عن طريقين : اما من القاعدة عن طريق الثـورة الديموقراطية والقضاء الحاسم على المؤسسات الاقطاعية ، أو من الاعلى عن طريق توحيد ألمانيا حول احدى الحكومات الالمانية القوية • ثم ان البورجوازية الالمانية الضعيفة اقتصادياً وسياسياً والتي شد ما كانت تخيفها حركة الجماهير الثوريـة كانت تبحث عن حل لمسألة الوحدة القومية عن طريق مهادنة الاقطاع والتواطؤ معه • وهكذا فقد مضت الى التحالف مع الحكومة البروسية • وكانت الايديولوجيا الداعية الى عدم ضرورة الثورة الشعبية في ألمانيا هي الفلسفة المثالية الالمانية من كانت الى هيجل • وكان لهذه الفلسفة وجهان : فهي ، من جهة ، تبنت بعض الأفكار التقدميـة لذلك العصر وطورتها ، فصارت بواسطتها تعكس ضرورة القيام باصلاحات اجتماعية ، ومن جهة أخرى ، فقد كانت تدعو الى المسالمة بين القديم والجديد في الايديولوجيا وتدافع عن الدين ، وتعلن أن الواقع الألماني المتخلف انما هو واقع معقول وكذا الأمر بالنسبة للحكومة البروسية •

ولم يكن الخلاف مقتصراً على النظرات الفلسفية لبورجوازيات بلـدان مختلفة في عصر واحد ، فقد كانت تختلف أيضاً النظرات الفلسفية لبورجوازية بلد واحد في أزمان مختلفة • فقد رفضت البورجوازية الفلسفة المادية منذ أمد بعيد ، فما أن توصلت الى السلطة واصطدمت ببداية حركة البروليتاريا حتى قلبت للمادية ظهر المجن وحنت على المثالية لتنمي فروعها المختلفةبحماس بالغ •

ومن الخطأ أن نسعى لاكتشـاف الجذور الاجتماعيـة الطبقية للفلسفة ببساطة ودونما حساب للصعوبات • وأبرز مثال عـلى الفهم الساذج الفظ لأصول النظرات الفلسفية والذي يسيء للماركسية اساءة بالغة هو ماكتبـه شوليايتكوف في كتابه « تبرير الرأسـمالية في فلسفة أوروبا الغربية » • فقد حاول شوليايتكوف أن يستخرج النظرات الفلسفية بل والمفاهيم المتفرقة منها مباشرة من مستوى تطور قوى الانتاج ومن وضع التكنيك ومن تنظيم العمل في المؤسسة الرأسمالية • ان العلاقة بين الأفكار الفلسفية والانتاج هي علاقة

غير مباشرة ، ولهذا فان ارجاعها مباشرة الى الانتـاج ليس الا عملية اسفاف بالفلسفة المادية الى درك منحط[1] •

ولم يكن شولياتيكوف هو وحـده الذي نزل بالمادية الى ذاك المسـتوى الزقاقي ، اذ أن هنالك من حاول إرجاع الفلسفة الى السياسة أيضاً •• فبالطبع، بما أن الفلسفة تنمو وتنبت من العلاقات المتبادلة بين الطبقات فان للسياسة تأثيراً مباشراً ومحدداً على تطور الفلسفة • وهذا يعني أنه لايجوز في أية حال من الأحوال فصل الفلسفة عن السياسة • لكن أيعني هذا ياترى أن علينا أن نبحث عن أساس سياسي لكل الأفكار الفلسفية ؟ وأن نطابق بين الفلسفة والسياسة ونرجعها اليها ؟ ان المادية التاريخية ، اذ كشفت عن الرابطة والعلاقة المتبادلة بين الفلسفة والسياسة ، تدرسهما كظاهرتين اجتماعيتين مختلفتين لكل منهما خصائصها الخاصة بهـا ، وهي لاتسمح بارجاع احداهمـا الى الاخرى ولا بالمطابقة بينهما • ان ارجاع الفلسفة الى السياسة من شأنه أن يقضي على تاريخ الفلسفة العلمي وعلى الفلسفة ذاتها كعلم •

واذا لم نأخذ بعين الاعتبار خصائص الفلسفة واختلافها عن السياسة فان العامل المعرفي سوف يسقط تماماً من تاريخ الفلسفة ، وسيضرب تقدم المعرفة الفلسفية • وعندئذ يبرز تاريـخ الفلسفة كصراع بين النظرات المختلفة عن العالم يتجلى كتوضيح بسيط للنضال السياسي •

والى جانب هذا ، فان ارجاع الفلسفة الى السياسة يؤدي الى سباق بينهما لا وجود له في الواقع ، الى محاولات التعجيل بحل وشرح القضايا الفلسفية وفقاً لمتطلبات السياسة المتغيرة المسرعة ، والى التفسير الخاطىء للقضايا المعاصرة، كما أنه يؤدي الى تقييم غير تاريخي للأفكار الفلسفية ولرجال الفكر الفلسفي في الزمن الغابر • وبالتالي ، فان ارجاع الفلسفة الى السياسـة من شأنه أن يعرقل الطرح والحل العلميين للمسائل الفلسفية التي تطرحها الحياة ذاتها •

---

(١) « ملاحظات لينين حول كتاب شولياتيكوف « تبرير الرأسمالية في فلسفة أوروبا الغربية » ، لينين • المؤلفات • الجزء ٣٨ ، ص ٤٨٦ ـ ٥٠٢ » •

٢ ـ ان المحتوى الحسي للنظرات والنظريات الفلسفية يرتبط أيضاً بمستوى تطور العلوم في عصر تاريخي معين ، ولاسيما بمستوى تطور العلوم الطبيعية • ان تقدم المعرفة يعطينا المواد الحسية للتعميمات الفلسفية ، وهو ، الى جانب هذا ، أساس معرفي لظهور النظم الفلسفية المختلفة في ظروف تاريخية معينة • ان العلم ، بدراسته للواقع ، يعطي الانسانية معارف موضوعية، وان مستوى تطوره ، اذ يعكس مدى معرفتنا التطبيقية للموضوع ، يبين لنا مدى نفاذنا الى جوهر الظواهر في الطبيعة والحياة الاجتماعية • ولهذا فان معطيات العلوم التشخيصية هي أساس ضروري من أجل تكوين نظرة فلسفية عن العالم ككل •

غير أن النظرة عن العالم ، كما ذكرنا آنفاً ، تتحدد بمصالح الطبقات المتناحرة • ولذا فان علاقة الفلسفة بالعلوم التشخيصية واستخدام منجزاتها ليست أمراً بسيطاً قليل الاهمية • ان كلا من المادية والمثالية تنظر الى العلوم التشخيصية نظرة تختلف عن الأخرى • فالمادية ، اذ تنطلق من الاعتراف بالحقيقة الموضوعية للعالم المادي ، تنظر الى العلوم التي تدرس هذا العالم كأساس لاستنتاجاتها النظرية ، وتمنح معطيات هذه العلوم ثقتها وتدافع عنها في وجه الضغوط الدينية والمثالية ، وتساعد على تطور المعرفة العلمية •

ان شكل المادية يتعلق بأساسها الاجتماعي وبمستوى تطور العلم الذي تعتمد عليه • ولهذا فان المادية تكتسب جدارة العلم المعاصر لها وعيوبه في آن معاً • لقد كان ظهور شكل جديد من المادية في القرنين السابع عشر والثامن عشر مرتبطاً بالتطور العاصف للعلوم الطبيعية التجريبية التي بدأت منذ عصر النهضة • لكنه بما أن العلم كان ينهمك آنذاك بتقسيم الموضوع وبجمع وتصنيف الحقائق وكانت أكثر العلوم تطوراً الميكانيك والرياضيات فان مادية ذلك العصر كانت ذات طابع ميكانيكي وميتافيزيكي • ان المادية الديالكتيكية ، كأعلى شكل للمادية ، تعتمد على أعلى مستوى بلغه التطور العلمي الذي أثبت أخيراً ، وبصورة قاطعة ، أن الطبيعة توجد في تطور دائم •

أما المثالية فعلى العكس من هذا اذ هي تحط من شأن المعرفة العلمية ،

وتسعى لأن تخضع العلم للدين ، وتناقش المكتشفات العلمية بصورة شوهاء •
هكذا فان الماخيين ، مثلا ، اذ يتطفلون على منجزات علم الفيزياء في بداية القرن العشرين الذي أقدم على دراسة ظواهر العالم المجهري الدقيق ، فلقد حاولوا استخدام معطيات العلم الجديدة من أجـل تعزيز نظريتهم المثالية معلنين أن العلم الطبيعي الحديث قد برهن على أن « المادة تفنى » •

ولقد بين لينين أن قول الماخيين هـذا انما هو قول شائه لا أساس له • لقد أقدمت الفيزياء المعاصرة عـلى دراسة حقل جديد لـم تعرفه الفيزياء الكلاسيكية القديمة ، وهـو دراسة ظواهر العالم المجهري الدقيق وجزيئات المادة الدقيقة التي تتحرك بسرعة مذهلة • وبهذا فقد تم اكتشاف خصائص جديدة للمادة • بيد أنه لايمكننا مطلقاً أن نستنتج من هـذا أن المادة تفنى • ان العلم يدرس الطبيعة ، يدرس المـادة وقوانينها • وان كـل الخصائص والقوانين التي يكتشفها العلم انما هي خصائص وقوانين المادة • ولـذا ، فان معطيات العلوم الموضوعية بوجه عام لايمكن أن تتناقض مع النظرة المادية عن العالم أو تضر بالأسس القائمة عليهـا • ان معطيات العلم الحديثة يمكنها أن تتناقض فقط مع الشكل القديم للمادية وليس مع جوهرها • ان معطيات العلم الطبيعي الحديث ، مثلا ، تبرهن بما لايقبل الشك على ضيق نظرة وأفق المادية الميكانيكية الميتافيزيكية • الا أنها تؤكد كذلك بصورة قاطعة صحة نظرة المادية الديالكتيكية عن العالم •

وهكذا ، فان طابع النظرات الفلسفية يرتبط بمستوى تطور العلم • واذا كانت المادية تعتمد على العلم ، وتعمم معطياته ، وتغير شكلها مع تطور العلم الطبيعي فان المثالية التي هي عدوة للعلم تجد نفسها مضطرة الى هذا الحد أو ذاك لأن تأخذ بحسبانها منجزات العلم وتتكيف معهـا • ونتيجة لهذا تصبح النظريات المثالية أكثر دقة ، ومما لا جدال فيه أن النضال معها سيزداد تعقيداً وسيصبح أمر فضحها أكثر صعوبة • ولذا لاينبغي النضال ضد المثالية العصرية بالاعتماد على علوم القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ، بل بالاعتماد على العلوم الحديثة • وهذا يعني أنه من الضروري فهم المكتشفات الجديدة للعلم الطبيعي

من وجهة نظر المادية الديالكتيكية بحيث تتلاءم الفلسفة مع المكتشفات الجديدة، وعلى هذا الاساس بالذات يتم فضح تزوير الفلسفة المثالية للعلم •

٣ ــ ان الفلسفة ، كأي شكل آخر من أشكال الوعي الاجتماعي ، تقوم بتجميع المفاهيم والتصورات الخاصة في سير تطورها ، أي انها تقوم بتجميع مواد فكرية معينة • وان كـل فيلسوف ، اذ يعبر عن مصالح طبقة معينة في الظروف الحسية للنضال الطبقي في عصره ويعتمد على علم هـذا العصر ، ينطلق مع ذلك من احتياطي التصورات الفلسفية المتراكم ومن المواد الفكرية المتجمعة والمتوفرة تاريخياً لديه • وفي هذا يتجلى التواصل في تطور الفلسفة • ومن أجل فهم النظام المشخص للنظرات الفلسفية علينا أن نأخذ بعين الاعتبار تلك المواد الفكرية التي يعتمدها هذا العصر أو ذاك • وبالطبع فان النظريات الفلسفية التي تظهر الى الوجود هي في جوهرها عكس للتناقضات الاجتماعية السائدة في عصرها ، واجابة عن الاسئلة الجديدة التي يضعها تطور الحياة المادية للمجتمع • الا أن كل نظام جديد للنظرات الفلسفية انما هو ، من حيث شكله ، استمرار وتطور للمواد الفكرية المتوفرة من قبـل • وهكذا نجد أن للمواد الفكرية المتراكمة أثراً فعالا في تكوين النظم الفلسفية الجديدة •

ان ما يحدد العلاقة بالتراث الفكري هو كل من المواقف الطبقية ووجهة نظر المفكر ذاته • ولهذا نجد أن المادة الفكرية الواحدة يمكن أن تستخدم بأشـكال متباينة • ومن المفاهيم الفلسفية المتوفرة تبنى نظم فلسفية مختلفة ، ويمكن أن تملأ تلك المفاهيم ذاتها بمحتويات مختلفة في نظم فلسفية مختلفة ، ويكون ثمة نظرات تهمل أو تتعرض للنقد بينما يتـم تبنّي وتطوير نظرات أخرى قليلة أو كثيرة •

ومن جهة أخرى ، فان لكل عصر من العصـور تراثـه الفكري الذي يختلف عن تراث العصر الآخر ، وهذا مايفسر ذلك التناقض الذي يصادف كثيراً في التاريخ بين مستوى التطور الاقتصادي لهذا البلد أو ذاك وبين مقدار مساهمته في تطور الفلسفة • ففي ظروف روسيا المتخلفة ، مثلا ، أواسـط

القرن التاسع عشر تمكن كلاسيكيو الفلسفة المادية الروسية ـ غيرتسن ، بيلينسكي ، دوبرولوبوف ، تشيرنيشفسكي وغيرهم ـ من التوصل الى نظرة علمية عن العالم • ويرجع ذلك ، بصورة خاصة ،الى اعتمادهم على مواد فكرية أكثر غنى من المادية الفرنسية في القرن الثامن عشر أو الفلسفة الألمانية في في بداية القرن التاسع عشر •

وهكذا نجد أنه ثمة تواصل ايديولوجي في تطور الفلسفة • غير أن الفلسفة ليست فقط شكلا للايديولوجيا ، وانما هي أيضاً شكل من أشكال المعرفة • ولهذا فان التواصل في الفلسفة لايرجع الى التواصل في الايديولوجيا ، أي الى استخدام المادة الفكرية • ففي تطور الفلسفة ، وفي الصراع بين الاتجاهات المتناقضة كانت توضع وتعالج قضايا النظرية وطرق المعرفة ، ويغنى محتوى المفاهيم الفلسفية ، وتتطور البراهين على وحدة العالم المادي وغيرها ، أي ، وبوجه عام ، كان يحدث تجميع لعناصر المعرفة العلمية عن العالم وعن علاقة الانسان به •

ان التواصل شرط ضروري لتقدم المعرفة الفلسفية • ويمكن للمعرفة الفلسفية أن تتطور وتتكامل لأن كل نظام فلسفي جديد لايمكن أن يقوم على أساس من الفراغ وانما هو يستخدم النتائج الايجابية لتطور الفكر الفلسفي الماضي أكان ذلك في بلده أو في البلدان الأخرى • ان في تاريخ الفلسفة مكاناً مرموقاً للتأثير المتبادل بين الفكر الفلسفي للشعوب المختلفة ، بيد أن هذا التأثير يتعلق دائماً بالشروط التاريخية المحيطة بهذا البلد أو ذاك •

ولقد كان التاريخ البورجوازي للفلسفة يؤكد على النظرة الرجعية الكاذبة حول أن تقدم الفكر الفلسفي كان يقوم بصورة أساسية على أيدي شعوب أوروبا الغربية دون غيرها التي يعتبرها كنز الفلسفة بالنسبة لبلدان أوروبا الشرقية كروسيا وعدد غيرها من بلدان آسيا كذلك • الا أن هذه « المركزة الأوروبية » للفلسفة ليست الا وجهة نظر كاذبة فارغة مناقضة للحقائق الموضوعية •

لقد تحققت الحركة التقدمية في المعرفة الفلسفية ، بشكل خاص ، في النظرة المادية للطبقات التقدمية التي تهتم بتطور المعرفة العلمية . لكن هذا لايعني أن كل شيء في الفلسفة المثالية انما هو شائه زائف . لقد كان المثاليون، رغم انطلاقاتهم ، يعكسون بعض التناقضات الحياتية ومعطيات العلوم التي بدونها لايستطيعون تبرير وجهات نظرهم وخوض معركة النضال مع المادية والتشبث بمواقع الضعف في المادية القديمة . ولذا فبين النظم المثالية كان الشكل المشوه الصوفي يخفي محتوى عقلانيـاً جديراً بالعثور عليـه وتحريره من القوقعة المثالية واستخدامه من أجل تقدم المعرفة الفلسفية . وذلكم كان موقف كل من ماركس وانجلس من ديالكتيك هيجل : فقد حرراه من القوقعة المثاليـة واحتفظا ببذوره العقلانية .

وفي أساس التواصل العلمي في الفلسفة يكمن التواصل الايديولوجي . ان علاقة الفلاسفة بالتراث الفكري لايتحدد بمصالح الحقيقة العلمية بل بوجهة نظر الفيلسوف، التي تقبع في أساسها مصالح الطبقات . وتقف أمام الفلاسفة مهمة تكييف المادة الفكرية المتوفرة مـع الظروف الاجتماعية الجديدة وذلك لبناء أسس النظرات العلمية لهذه الطبقات أو تلك . لقد تمكن ماركس وانجلس، من بين الفلاسفة جميعاً ، من اعادة معالجة كل الفلسفة السابقة لهما من وجهة نظر نقدية ، والافادة من كـــل ماهو حقيقي موضوعي لدى خلق الماديـــة الديالكتيكية والمادية التاريخية ، ورفض كل النظرات الكاذبة المنافية للعلم .

وعند دراسة هذا النظام الفلسفي أو ذاك ودوره في تطور المجتمع ينبغي علينا أن نأخذ بعين الاعتبار علاقته بالفلسفة السابقة . . ولهذه العلاقة أهميتها أيضاً في النضال الايديولوجي . ان كثيراً من الفلاسفة المثاليين ، وخاصة في الظروف الراهنة ، يحجبون الجوهر المثالي الحقيقي لفلسفتهم اذ يزعمون أنهم يقفون فوق الماديـة والمثاليـة ، وأنهم يخلقون اتجاهاً جديداً في الفلسفة . ويمكننا الكشف عن المعنى الحقيقي لمثل هـذه الفلسفة وفضح دورها الرجعي عندما نكشف عن المصالح التي تعبر عنها ، ونتعرف على المفكرين الذين انطلق منهم الفيلسوف، ،وبمن تأثر ، ومع من يعقد الخصام ، وماذا يقدم لتلامذته وأتباعه

من المعارف • ولقد فضح لينين في مؤلفه « المادية والنقد التجريبي » الجوهر الحقيقي للماخيــة مبيناً أنها انما تمثل اللازمة لمثاليــة بركلي الذاتية ونظرة هيوم • ولقد أكد لينين أنه ينبغي ألا نحاكم الفلاسفة من خلال " اليافطات " التي يعلقونها على أنفسهم وانما من خلال مواقفهم الواقعية في نضال الأحزاب في الفلسفة ، ومن خلال اجابتهم عن المسائل النظرية الأساسية[1] •

٤ ـ وعلى أساس التناقضات الاجتماعية المحسوسة في عصر معين وبلد معين ينشأ « جو روحي » معين • ان الناس يعيشون ويؤثرون في ظروف مادية معينة وفي جو روحي معين كذلك ،هذا الجو الذي يتمتع دائماً بأصالة فريدة لأنه لايعكس فقط العلاقات الاقتصادية وانما يحمل أيضاً آثار الخصائص التاريخية لتطور هذا الشعب أو ذاك ولطابعه القومي ولعاداته وتقاليده ••• الخ •

ولذا ، فمن أجل فهم الاصالة والخصائص النوعية لهذه النظم الفلسفية أو تلك لابــد أيضاً من معرفة القضايا النظرية التي يحتدم الصراع حولها في زمن معين ، والأشكال التي تتجلى فيها المشاكل الاجتماعية الراهنة •

ففي عصر القرون الوسطى كانت الايديولوجيا الدينية السائدة تسحق دونما رحمة كل أشكال الوعي الأخرى • وتحولت الفلسفة الى خادم مطيع للدين • وكان يجري الصراع بين الاتجاهات الفلسفية تحت ستار الدين ، حتى أن المسألة الاساسية في الفلسفة عن علاقة المادة بالوعي كانت تطرح دائماً بهذا الشكل : هل الاله هــو الذي خلق هذا العالم أم أن العالم موجود منذ الأزل • وامتد طغيان الايديولوجيا الدينية حتى شمل الثورات البورجوازية المبكرة ، اذ هي كانت تقوم تحت راية الدين • غير أن البورجوازية الفرنسية في القرن الثامن عشــر أزاحت عن وجهها القناع الديني وعبرت عن مطالبها بالشكل السياسي السافر المباشر • لقد كانت المادية في فرنسا القرن الثامن عشر ذات طابع ثوري • فقد تصدت صراحة للمؤسسات الاقطاعية ،ورفضت بصورة حاسمة ايديولوجيا القرون الوسطى ودحضتها • أمــا في ألمانيــا فقد اختلف

---

(١) لينين • المؤلفات • الجزء ١٤ ، ص ٢٠٥ •

الأمر قبيل الثورة البورجوازية • لقد اتخذ النضال هناك ضد الايديولوجيا الاقطاعية شكل النقد الفلسفي للدين بينما كان النضال السياسي يؤلف محتواه غير المباشر • وازدهرت الفلسفة في كل الجامعات الألمانية وتغلغلت أفكارها الى أوساط النشر الجماهيري • أما في روسيا أواسط القرن التاسع عشر عندما برزت أزمة النظام العبودي في أوج حدتها فقد كان الأدب بالذات هو اللسان الناطق باسم فئات المجتمع التقدمية المناضلة ضد العبودية والحكم المطلق ، وفي الأدب بالذات وضعت كل القضايا الاجتماعية التي كانت تقلق المجتمع الروسي• ولهذا فقد كان للأفكار الفلسفية التقدمية تعبير واضح في تطور الأدب والفن والنقد وعلم الجمال •

وعن هذا ينتج أنه لدى دراسة تطور الأفكار الفلسفية ومكانها في نظام الظواهر الاجتماعية لابد من أن نأخذ بعين الاعتبار العلاقة المتبادلة بين الفلسفة وأشكال الوعي الاجتماعي الأخرى كالدين والأدب والفن والسياسة والحقوق وغيرها ، كما لابد من أن نعرف أن هذه العلاقة لاتبقى ثابتة دونما تغيير • ان المادية التاريخية ، اذ تدرس الفلسفة بكليتها كشكل خاص من أشكال الوعي الاجتماعي ، انما تنطلق من أن الفلسفة تحمل طابعاً طبقياً حزبياً ، وأن في الفلسفة ثمة مكاناً للتواصل الايديولوجي والمعرفي ، وأن الفلسفة في كل عصر من عصور التاريخ تكون مرتبطة ، بصورة من الصور ، بالاقتصاد والسياسة والعلم والدين وغيرها من الظواهر الاجتماعية وأشكال الوعي الاخرى • ولابد من حساب كل هذه العوامل لدى دراسة أي نظام فلسفي •

الفارق النوعي بين الفلسفة الماركسية والفلسفة السابقة

ان من أهم التخوم في التطور التاريخي للفلسفة انما هو ظهور الماركسية • لقد أوجد مؤسسا الماركسية ، لأول مرة في التاريخ ، فلسفة علمية حقيقية تمكنت من ادخال النظرة المادية الى فهم الطبيعة والحياة الاجتماعية معاً • ان تاريخ الفلسفة السابقة لماركس هو بمثابة ما قبل تاريخ النظرة العلمية عن العالم ، والذي قام بتجميع المواد الفكرية والمعارف الفلسفية الضرورية لخلق فلسفة علمية • ان في دراسة تاريخ الفلسفة السابقة لماركس هدفين أساسيين :

أولا ، دراسة مكان ودور النظريات الفلسفية في الصراع الايديولوجي لذلك الزمن التي تمثل من الناحية التاريخية أشكالا معينة لنظرات مختلف الطبقات • وهذا من شأنه أن يتيح لنا فهم تطور الفلسفة كجزء من العملية التاريخية ، وبهذا أيضاً نتمكن من معرفة خصائص ذلك العصر من شتى الجوانب •

لقد استمر نضال المادية ضد المثالية ما يقرب من ثلاثة آلاف سنة • ولا تنحصر أهمية دراسة تاريخ هذا النضال في الجانب التاريخي فقط ، بل يمكننا الافادة منه في استخدام تجربة الصراع الايديولوجي الماضي من أجل فضح غلاة الرجعية وحماة المثاليةوالمدافعين عن الكنيسة والايديولوجيا الدينية•

ثانياً ، دراسة تقدم المعرفة الفلسفية ، وتفسير ذلك الجديد الذي يقدمه نظام فلسفي معين من أجل معالجة وحل القضايا الفلسفية •

ونحن ، اذ ندرس تاريخ الفلسفة من زاوية تقدم المعرفة الفلسفية ، يمكننا أن نوضح كيف تم اعداد النظرة العلمية عن العالم وأن نبين ما احتفظت به الماركسية من الفلسفة السابقة كلها ، وأن نميز كل ما تمتاز به عليها • وفوق هذا فان دراسة القضايا المعاصرة للفلسفة الماركسية اللينينية تتطلب منا معرفة تاريخ تطور الفكر الفلسفي واستخدام المعارف الفلسفية المتجمعة •

وعن هذا ينتج أن دراسة تاريخ الفلسفة ليست ذات أهمية أكاديمية وحسب ، بل ان لها أهميتها في النضال الايديولوجي المعاصر وتطوير الفلسفة الماركسية اللينينية •

ان تاريخ الفلسفة الماركسية هو تاريخ تطور النظرة العلمية عن العالم • وان المبادىء المنهجية في دراسة الفلسفة كظاهرة اجتماعية معينة هي نفسها التي تستخدم لدى دراسة الفلسفة الماركسية • وهذا يعني أنه من أجل فهم الفلسفة الماركسية لابد من الكشف عن أساسها الاجتماعي الطبقي وتوضيح تلك الصلة التي تربطها بالعلم وبالفلسفة السابقة • وعلاوة على هذا ، لابد من توضيح الفارق الجذري بينها وبين الفلسفة السابقة •

ان الفلسفة الماركسية هي نظرة البروليتاريا عن العالم • وهي ، اذ تخدم النضال الطبقي للبروليتاريا ، تنسف كل صلة مع نظرات الطبقات المستغلة عن العالم • وهي لا تنظر الى الواقع كموضوع للتأمل وانما كموضوع يخضع للتحول الثوري • « لقد كان الفلاسفة يفسرون العالم ، أما المهم في الأمر فهو تغيير هذا العالم »[1] • ومع ظهور الماركسية تغيرت علاقة الفلسفة بالواقع : فقد اكتسبت الفلسفة طابعاً ثورياً فعالا ، وصارت أداة لتغيير العالم عملياً • وان الفلسفة الماركسية بالذات هي التي جعلت ديدنها ، لأول مرة ، مبدأ الوحدة بين النظرية والتطبيق ، وامتازت على الفلسفة السابقة كلها ، التي كانت منهمكة ببعض المدارس الفلسفية الصغيرة ، بأنها ربطت نفسها بصورة واعية بنضال جماهير الشعب الواسعة •

ان الفلسفة التي تخدم فعلياً قضية التحويل الاشتراكي للمجتمع انما هي الفلسفة العلمية وحدها التي تعكس القوانين الموضوعية لكل من الطبيعة والمجتمع بصدق • ان الفلسفة الماركسية توحد في داخلها بين العلمية والثورية توحيداً لاتنفصم عراه • ان فلسفة البروليتاريا ايديولوجيا علمية ، أي انها علم وايديولوجيا في آن معاً • ولهذا فان ظهور الفلسفة الماركسية يعني تغير علاقة الفلسفة بالتراث الفكري ، وتغير طابع تطور الفلسفة ذاتها ، وأخيراً ، تغير علاقتها بالعلوم •

لقد كانت الفلسفة السابقة تتطور في نضال المادية ضد المثالية عن طريق تغيير النظم الفلسفية المختلفة • كان الوضع التاريخي يتغير وتغادر مسرحه النظم الفلسفية القديمة وتحل الجديدة محلها • ومع ظهور الماركسية تغير طابع التطور ذاته ، طابع تواصل الفلسفة • فبما أن الفلسفة الماركسية علم فهي تتطور كعلم ، أي أن مبدأيهما الأساسيين ـ المادية والديالكتيك ـ لايتزعزعان • لكنه مع تغير الشروط التاريخية ، وبموجب المكتشفات الجديدة في العلم ، تتطور الفلسفة الماركسية وتغنى بموضوعات واستنتاجات جديدة • والآن لم تعد ثمة ضرورة لخلق نظم فلسفية جديدة لتحل محل الفلسفة الماركسية ، بل

---

(١) ماركس وانجلس • مؤلفات مختارة • الجزء ٢ ، ص ٣٨٥ •

ينبغي تطوير الفلسفة الماركسية ذاتها • وهكذا ، فمع الانتقال من الرأسمالية ما قبل الاحتكارية الى عصر الامبريالية والثورات البروليتارية ، وبموجب الاكتشافات الجديدة في العلم الطبيعي فقد ظهرت ضرورة تعميم التجربة الجديدة للنضال الطبقي ومعطيات العلوم • وتتجلى عظمة لينين في تنفيذه لهذه المهمة ، وبذلك فقد رفع الماركسية الى درجة أعلى ، وضرب مثلا في تطوير النظرية الماركسية ككل والفلسفة الماركسية بوجه خاص • وباسم لينين ارتبطت المرحلة اللينينية في تطور الفلسفة الماركسية •

والفلسفة الماركسية اللينينية تتطور هي أيضاً في النضال ضد مختلف النظريات المثالية والميتافيزيكية والمادية الزقاقية ، وفي النضال ضد التراجعات عن الماركسية اللينينية والتحريفية • ان التحريفية تمثل رفض مبادىء الماركسية • وليست التحريفية ظاهرة جديدة من نوعها • ففي العقد التاسع من القرن الماضي أجبر انتصار الماركسية في الحركة العمالية كلا من البورجوازية وايديولوجيتها على تغيير تكتيكها الذي هو نفي الماركسية الى القيام بمحاولات من شأنها أن تجعل الماركسية تنسجم مع مصالحها وسياستها وذلك بتفريغها من محتواها الثوري •

فلقد أخضع بير نشتاين وأنصاره أهم مافي الماركسية للتحريف بما في ذلك الفلسفة • لقد حول ك • شميدت في الغرب ، وستروفي وبولغاكوف في روسيا ، المادية الديالكتيكية الى الكانتية•فقد أنكر كل من بيرنشتاين وشميدت الديالكتيك المادي ، وغيره الى تطور مرحلي زقاقي مسطح مع نفيه للطفرات الثورية وللتناقضات في عملية التطور ، وغير المادية التاريخية بحيث جعلها تتفق مع « نظرية العوامل » • ان بيرنشتاين مربوط الى ذنب البورجوازية ، وهو يرفع عالياً شعار الاساتذة البورجوازيين « رجوعاً الى كانت » • ولقد كشف بليخانوف عن جوهر وحقيقة تحريفيته الفلسفية بدقة وعمق عندما تصدى لنقده • فلقد كتب بليخانوف : « اذا كان بيرنشتاين قد رفض المادية كيلا «يهدد» احدى « المصالح الايديولوجية » للبورجوازية ألا وهي الدين ،فان رفضه

للديالكتيك جاء نتيجة لعدم رغبته في تخويف تلك البورجوازية ذاتها من « أهوال الثورة القاسرة العنيفة »[1] .

وهكذا ، فمنذ عملية الضغط الاول للتحريفية على النظرة الماركسية الثورية ظهرت الاتجاهات الأساسية التي برزت ضمن اطارها التحريفية الفلسفية الثورية .

وجاء الضغط الكبير التالي للتحريفية على الفلسفة الماركسية في تحريف الماخية للمادية الديالكتيكية والمادية التاريخية ممثلا في بغدانوف ، بازاروف ، يوشكيفتش ، سوفوروف وغيرهم ، ذلك التحريف الذي راج وانتشر بعد فشل ثورة **١٩٠٥** في روسيا . ولقد وجه لينين لهذه التحريفية الضربة القاصمة في كتابه « المادية والنقد التجريبي » . فقد أثبت لينين أن المادية الديالكتيكية وحدها هي نظرة حزب البروليتاريا الماركسي الثوري ، وأنها في حقيقتها مناقضة للمثالية والميتافيزيك وتنسجم كلياً مع معطيات العلم الطبيعي المعاصر .

ومع ظهور الماركسية تغيرت علاقة الفلسفة بالعلم . والفلسفة الماركسية ، بخلاف الفلسفة السابقة ، ليست علماً للعلوم فتلزم كل العلوم التشخيصية بأحكامها . ان الماركسية علم كباقي العلوم تتميز عنها بموضوعها . فهي ، اذ تدرس العلاقة بين الموضوع والذات وأكثر قوانين العالم المادي والتفكير شمولا ، انما تقدم للعلوم الأخرى نظرة صحيحة عن العالم وتكسبها نظرية وطريقة المعرفة العلمية .

وهكذا ، فمع ظهور الماركسية صارت الفلسفة لأول مرة علماً حقيقياً ، لكنها لم تتخل عن كونها ايديولوجيا ونظرة طبقة معينة عن العالم . وطالما بقيت في العالم طبقات مستغلة فان الفلسفة العلمية لايمكن أن تصبح فلسفة الانسانية كلها لأنها عدوة للطبقات المستغلة وغريبة عنها . ومع هلاك الرأسمالية وانتصار الاشتراكية ستصبح المادية الديالكتيكية والمادية التاريخية نظرة الانسانية كلها عن العالم .

---

(١) بليخانوف . المؤلفات الفلسفية المختارة . الجزء ٢ ، ص ٣٩٢ .

٣ ـ دور الفلسفة في تطور المجتمع

ان دور الفلسفة في الحياة الاجتماعية متنوع جداً •

فاذا كان النظام الفلسفي المعين يؤلف نظرة طبقة ما حاملة للعلاقات الاجتماعية القديمة فانه سيساعد ، ولو بصورة غير مباشرة ، على تعزيز هذه العلاقات ، وبالتالي فهو بهذا يعرقل تطور الاقتصاد • واذا كان النظام الفلسفي يؤلف نظرة الطبقة الحاملة للعلاقات الاجتماعية الجديدة فانه سيقوم بدور تقدمي اذ يرسم ويهيء مسبقاً كل التحولات السياسية للمجتمع • وهو بمساعدته لهذه التحولات فانما يؤثر تأثيراً غير مباشر على التطور الاقتصادي •

وليس هذا هو كل الدور الذي تضطلع به الفلسفة • فهي ، كشكل معين من أشكال المعرفة ، كانت تقوم بتجميع المعارف الموضوعية فتساعد بذلك على التقدم العام للمعرفة الانسانية • والفلسفة السابقة لماركس قامت بدور كبير في هذا المجال فمهدت بذلك لنشوء الفلسفة المادية الديالكتيكية العلمية • وعلاوة على هذا فان الفلسفة تؤثر على أشكال الوعي الاجتماعي الاخرى التي ترتبط بها في تطورها •

فلقد عالج الفلاسفة القضايا النظرية في الحق ونظرية الدولة وغيرهما عندما كانا يعتبران جزءاً من الفلسفة • وظلت الفلسفة تمارس تأثيرها الكبير عليهما حتى بعد أن انفصلا واستقلا بميدان خاص بهما •

وتتميز الفلسفة الماركسية عن الفلسفة السابقة كذلك بالدور الذي تلعبه في تطور المجتمع •

ان المادية الديالكتيكية والمادية التاريخية هما الاساس النظري للماركسية اللينينية الذي يضم أيضا كلا من الاقتصاد السياسي ونظريةالاشتراكية العلمية• فلم يك من الممكن وجود اقتصاد سياسي علمي وخلق نظرية الاشتراكية العلمية على أساس الانطلاق من مواقف المثالية والميتافيزيك • ولذا فقد كان ظهور الماركسية مرتبطاً بتكوين نظرة عن العالم ماركسية جديدة من حيث المبدأ تؤلف القسم الاساسي من الفلسفة الماركسية • وبمقتضى ذلك فان أهمية

الفلسفة الماركسية اللينينية تنحصر في أن فهمها ضروري من أجل فهم الماركسية اللينينية ككل بما فيها نظراتها الاقتصادية والسياسية والاشتراكية العلمية •

ان للفلسفة الماركسية اللينينية أهمية عظمى من أجل تحويل المجتمع الرأسمالي تحويلا ثورياً الى مجتمع اشتراكي ، ومن أجل البناء التطبيقي للاشتراكية • ان بناء الاشتراكية يقوم على أساس معرفة القوانين الموضوعية للتطور الاجتماعي واستخدامها بصورة واعية • وان الفلسفة الماركسية هي علم لطرق معرفة واستخدام القوانين الموضوعية • ففي ربط الفلسفة بالتطبيق العملي والنظرية بالحياة تكمن القوة الهائلة لافكار الفلسفة الماركسية التي صارت سلاحاً روحياً جباراً من أجل التحويل الثوري للواقع • وتجدر بنا الاشارة الى أن هذه العلاقة بين الفلسفة والتطبيق العملي للبناء الاشتراكي انما تمليها متطلبات التطبيق العملي ذاته كانتاج واع وهادف للجماهير بقيادة الحزب الشيوعي الطليعة التقدمية لجماهير الكادحين • ان الحزب الشيوعي ينطلق في نشاطه دائماً من كل الحسابات العلمية الصارمة والدقيقة والمتنوعة للظروف والقوانين الموضوعية ، ومن حساب العلاقات بين القوى الطبقية ـ من جهة ، وكذلك من الاعتراف بالدور الكبير للعامل الذاتي الذي يتجلى في وعي وتنظيم الجماهير ـ من جهة أخرى • ويكمن دور وأهمية الفلسفة في أنها تسلح الجماهير بمعرفة القوانين العامة التي بدونها لايمكن فهم تطور الطبيعة والمجتمع ، وتربي نظرة عن العالم علمية وواضحة تمكن الجماهير من فهم الواقع موضوعياً ومن دراسة قوانينه الخاصة والعامة وظروفه وشروطه المشخصة ، وتقدم الطريقة لمعرفة القوانين ولاستخدامها في نشاط الناس السياسي والتطبيقي •

ولقد أكد البيان الصادر عن اجتماع ممثلي الأحزاب الشيوعية والعمالية في البلدان الاشتراكية على أهمية المادية الديالكتيكية في نشاط الاحزاب الشيوعية •

وان أعظم نجاح للماركسية اللينينية هو أنها صارت الايديولوجيا السائدة في بلدان يقارب عدد سكانها المليارد من البشر •

فان على الفلسفة أن تقوم بدور مهم في تربية النظرة العلمية عن العالم والأخلاق الشيوعية ، وفي حل المسائل النظرية التي تبرزها الحياة ، وفي معالجة القضايا الفلسفية للعلم الطبيعي المعاصر ، وفي النضال ضـــد الايديولوجيـــا البورجوازية والتخلص من بقايا الدين • ويزيد برنامج الحزب من الحاجه على ضرورة تعميق ربط الفلسفة بالحياة وبالتطبيق العملي لبناء الاشتراكيـــة وبتطور العلوم • ان على الفلسفة أن تفسر الظواهر الجديدة في الحياة والعلم بصورة خلاقة على الدوام •

وفي ظروف انقسام العالم الى نظامين تشن الماركسية اللينينية نضالا حازماً لا هوادة فيه ضد ايديولوجيا المعســكر الرأسمالي المعادي لنا • ويتجلى دور الماركسية اللينينية هنا في أنها تفضح حقيقة فلسفة البورجوازية الامبريالية الرجعية المعادية للعلم ، وتعري أصولها المعرفية ، وتتصدى لمحاولاتها في تزوير منجزات العلوم • ان الفلسفة الماركسية اللينينية تناضل من أجل تحرير الجماهير من تأثير النظرة البورجوازية عن العالم في كل أشكالها وتجلياتها •

ولا يمكن للفلسفة الماركســية اللينينية أن تهدأ عن النضال في أرض موبوءة بالخرافات والخزعبلات : وهي تكشف عن جذور الدين وتبين طرق اجتثاثها لتغرس مكانها النظرة العلمية الصحيحة عن العالم •

ان الفلسفة الماركسية اللينينية باتحادها مع العلوم الطبيعية تؤلف سلاحاً قادراً في ظروف مجتمعنا على الفتك بكل مخلفات القرون المظلمة ، وعلى تنوير الجماهير وتحريرها من الاباطيل ، وعلى النهوض بوعي الجماهير الواسعة الى مستوى النظرة العلمية عن العالم •

وان حزبنا ليضع أمــام كل بان من بنــاة الشيوعية يسعى بفعالية ووعي للمساهمة في خلق نظام الحياة الجديد مهمة الفهم والالمــام العميق بالماركسية اللينينية • ولقد أولى برنامـج الحزب الاهميــة الفائقة الاولى لتكوين النظرة

العلمية لدى كل العاملين في المجتمع الاشتراكي ، ولنشر الفلسفة الماركسية اللينينية بين الجماهير •

ان على الفلسفة أن تساعد على رفع وعي الشغيلة الى مستوى وعي الطليعة• وهذا أجل الأعمـال وأعمقها بعداً • ان أفكار النظرة الماركسية اللينينية عن العالم ، اذ تكسب كل الجماهير ، تصير في ظروف الاشتراكية وبناء الشيوعية القوة الفعالة في النضال من أجل خلق المنطلقات المادية والروحية للانتقال من الاشتراكية الى الشيوعية •

ت الدار

- الاقتصـــاد السياسي (الجزء الأول) — لنخبة من المؤلفين السوفيت (تعريب) بدر الدين السباعي
- أضواء على الرسمال الأجنبي في سورية — (تأليف) بدر الدين السباعي
- المادية التاريخية — (تأليف) ف. كيللي م. كوفالزون (تعريب) أحمد داود

الكتاب التالي

- الاقتصاد السياسي (الجزء الثاني) — لنخبة من المؤلفين السوفيت (تعريب) بدر الدين السباعي

قريبـــا

- الاقتصاد السياسي (الجزء الثالث) .
- أغاني الثائرين .
- منتخبات من شعر ونثر ناظم حكمت .
- الحركات الفلاحية الثورية في سورية المنتصف الأول من القرن التاسع عشر .
- معطيات تكميلية لمؤلف لينين عن الامبريالية .
- الانسان والتطور .
- الاقتصاد النازي شكل من أشكال انحطاط الرأسمالية .

ثمن النسخة « ٩ » ليرات